



التفسير الوسيط

للقرآن الكريم

تأليف

لجنة من العلماء

بإشراف

مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر

المجلد الثالث

الحزب التاسع والأربعون

الطبعة الأولى ١٤٠٩هـ - ١٩٨٨م

القاهرة

الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

١٩٨٨

* (إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ ۚ وَمَا تَخْرُجُ مِن ثَمَرَٰتٍ مِّنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ ۚ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَآءِى قَالُوٓا۟ ءَاذَنَّٰكَ مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ ﴿٤٧﴾ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَدْعُونَ مِن قَبْلُ ۖ وَظَنُّوا۟ مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ ﴿٤٨﴾)

المفردات :

(وَمَا تَخْرُجُ مِن ثَمَرَاتٍ مِّنْ أَكْمَامِهَا) أى : من أوعيتها .

(أَكْمَامِهَا): واحدها كِمٌّ - بالكسر فالسكون - وهو وعاء الثمرة قبل أن ينشق عنها ، وتسمى الثمرة حينئذ الكُفُرَّى .

(قَالُوا ءَاذَنَّاكَ) أى : أخبرناك وأسمعناك .

(مَا مِنَّا من شَهِيدٍ) أى : ليس مِنَّا مَن يشهد بأن لك شريكا .

(وَظَنُّوا مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ) أى : أيقنوا وعلموا بأنه لا فرار لهم من النار .

التفسير

٤٧ - (إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ السَّاعَةِ وَمَا تَخْرُجُ مِن ثَمَرَاتٍ مِّنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَآءِى قَالُوٓا ءَاذَنَّاكَ مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ) :

أى: إذا سئل أحد عن الساعة قال : الله - تعالى - يعلم ، أو لا يعلمها إلا الله - عز وجل - وقد سئل عنها الرسول وهو سيد البشر من جبريل وهو من سادات الملائكة ، فقال : ما المسئول عنها بأعلم من السائل . كما قال - تعالى - : « إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَاهَا »[1] وكما أنه - سبحانه - اختص

(١) سورة النازعات الآية رقم ٤٤ .

بعلم وقت قيام الساعة فقد اختص كذلك بعلم مايخرج من ثمرات من أوعيتها قبل أن تنشق عنها ، وقرىء (من ثمرة) على إرادة الجنس . أما الجمع فلاختلاف الأنواع.

(وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ) أى : وما يحدث من شىء من خروج ثمرة ، ولا حمل حامل ولا وضع واضع ، أى : ما يحدث شىء من ذلك إلا ملابسا بعلمه - تعالى - واقعا حسب تعلقه به من عـدد أيام الحمل وساعاته وأحواله من النقص والتمام والذكورة والأنوثة ، والحسن والقبح ، والسعادة والشقاء ، وذكرت هذه الأمور لمناسبتها لعلم الساعة فإنه لا يعلم هذا كله إلا الله - تعالى - .

(وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَائِي) أى : واذكر يوم ينادى الله المشركين على رءوس الأشهاد قائلا: أين شركائى بزعمكم الذين عبدتموهم فى الدنيا . وفيه تهكم بهم ، وتقريع لهم.

(قَالُوا آذَنَّاكَ) أى : قال الذين نودوا : أسمعناك وأخبرناك .

(مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ) أى : ليس منا أحد يشهد لهم بالشركة إذ تبرأنا منهم لما عاينا الحال ، أو ما منا من أحد يشاهدهم لأنهم ضلوا عنهم حينئذ .

٤٨ - (وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَدْعُونَ مِن قَبْلُ وَظَنُّوا مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ) أى : وغاب عنهم ما كانوا يدعونهم من قبل فى الدنيا للعبادة ، ويرجون نفعهم ، على أن الضلال بمعناه الحقيقى وهو الذى يقابل الوجدان ، أى : لم يجدوهم حينما طلبوهم للاستنصار بهم أو ظهر لهم عدم نفع شركائهم ، وكان حضورهم كغيبتهم، على أن الضلال مجاز عن عدم النفع ، وأيقنوا ما لهم من مهرب من عذاب الله ونكاله كما قال السدى وغيره . فالمراد بالظن هنا العلم ، وكونه بمعنى العلم يقع كثيراً ، وقد جاء به القرآن فى مواطن ، كقوله تعالى : « قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَاقُوا اللَّهِ . . . . »[1] أى : يعلمون ويوقنون .

(١) سورة البقرة من الآية رقم ٢٤٩

(لَّا يَسْـَٔمُ ٱلْإِنسَـٰنُ مِن دُعَآءِ ٱلْخَيْرِ وَإِن مَّسَّهُ ٱلشَّرُّ فَيَـُٔوسٌ قَنُوطٌ ﴿٤٩﴾ وَلَئِنْ أَذَقْنَـٰهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَـٰذَا لِى وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّىٓ إِنَّ لِى عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ ۚ فَلَنُنَبِّئَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٠﴾ وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَـٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ ۚ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ ﴿٥١﴾)

المفـردات :

(لَّا يَسْـَٔمُ ٱلْإِنسَـٰنُ مِن دُعَآءِ ٱلْخَيْرِ) أى : لا يمل ولا يفتر من طلب الخير كالمال والصحة والولد .

(وَإِن مَّسَّهُ ٱلشَّرُّ) : كالفقر والمرض وعدم الإنجاب .

(فَيَـُٔوسٌ قَنُوطٌ) من فضل الله ورحمته ، واليأس : صفة القلب ، والقنوط : يأس مفرط يظهر أثره على المرء فَيَنكَسِرُ ويتضاءل .

(إِنَّ لِى عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ) أى : الجنة .

(وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ) أى : بالغ الغاية فى الشدة كأنه مُحَسٌّ مشاهد على صورة غليظة .

(وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ) أى : تباعد عن ذكر الله ودعائه ، أو هو جانبه كناية عن الانحراف والتكبر والصلف .

(فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ) أى : كثير مستمر ، مستعار مما له عرض متسع ، وذلك للإشارة إلى كثرته .

التفسير

٤٩ - (لَا يَسْـَٔمُ الْإِنسَـٰنُ مِن دُعَآءِ الْخَيْرِ وَإِن مَّسَّهُ الشَّرُّ فَيَـُٔوسٌ قَنُوطٌ) :

الآية نزلت فى الوليد بن المغيرة وقيل : فى عتبة بن ربيعة ، والعبرة بعموم اللفظ لابخصوص السبب .

ومعناها : لا يسأم الإنسان - أى : الكافر - من دعاء أنواع الخير كالصحة والمال وكل مقاصد النعيم ، وإن نزل به شر من مرض أو عسر فهو يئوس من فضل الله قنوط من رحمته ، وقد بولغ فى يأسه من جهتين : من جهة الصيغة لأن (فعولا) من صيغ المبالغة ومن جهة التكرار المعنوى فإن القنوط أن يظهر عليه أثر اليأس فيتضاءل وينكسر ، ولما كان أثر اليأس ظاهرا عليه لا يفارقه كان فى ذكر القنوط ذكرٌ لليأس ثانياً بطريق أبلغ فى قطع الرجاء من فضل الله ورحمته .

وهذه الآية تعيب على الإنسان يأسه وقنوطه من رحمة الله ، وتحمله على الرجاء وعلى الدعاء بدفع الضُّر عنه .

وقدم اليأس لأنه صفة القلب التى تدعو اليائس إلى أن يقطع رجاءه من الخير ، وهى المؤثرة فيما يظهر على الصورة من التضاؤل والانكسار ، ثم يجىء القنوط بعد اليأس ليزيد أثره على الوجه ، فهو من باب التدرج من الأدنى إلى الأعلى .

٥٠ - (وَلَئِنْ أَذَقْنَـٰهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِن بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَـٰذَا لِى وَمَآ أَظُنُّ السَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّىٓ إِنَّ لِى عِندَهُ لَلْحُسْنَىٰ فَلَنُنَبِّئَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ) :

المعنى : أن هذا الإنسان إذا فرجنا عنه بصحة بعد مرض أو سعة بعد ضيق ليقولن بصفة التأكيد والوثوق : هذا شىء أستحقه على الله لرضاه بعملى ، أى : هذا حق وصل إلىّ لأنى استوجبته بما عندى من فضل وخير وأعمال بر ، فيرى النعمة حقًّا واجباً على الله له ، ولم يعلم أنه ابتلاء بالنعمة والمحنة . ليتبين شكره وصبره . وقال ابن عباس : معنى (هذا لى) أى : هذا من عندى بمعنى لا يزول عنى أبداً .

(وَمَآ أَظُنُّ السَّاعَةَ قَآئِمَةً) فيما سيأتى (وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّىٓ)ـ كما يقول المصدقون بالبعث ـ إن لى عنده لَلْجنةأو الحالة الحسنى من الكرامة والنعمة بقياس أمر الآخرة على أمر الدنيا .

(فَلَنُنَبِّئَنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ بِمَا عَمِلُواْ) : يتهدد الله ـ تعالى ـ من كان هذا عمله واعتقاده بكشف مستور أمره ،أى : فلنعلمنهم بحقيقة أعمالهم ، ولنبصرنهم بعكس ما اعتقدوا . فيظهر أنهم مستحقون فيها للإهانة لا للكرامة التى توهموها وأشادوا بها ، ولنذيقنهم من عذاب شديد لا يقادَرُ قدرُه ولا يُحَدُّ مداه ، فهو كوثاق غليظ لا يمكن قطعه ولا يتسنى لهم التقَصِّى منه .

٥١ـ (وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنسَانِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ) :

ضرب آخر من طغيان الإنسان ،أى : وإذا أنعمنا عليه أعرض عن الشكر وذهب بنفسه وتباعد بكليته صلفاً وغروراً . والجانب مجاز عن النفس كقوله ـ تعالى ـ : « يَا حَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِى جَنبِ اللهِ »[1] ويجوز أن يكون المراد بجانبه عطفه ويقصد الانحراف والازورار كما قالوا : ثنى عطفه وتولى بركنه .

(وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ) : أى الضرر أو الفقر .

(فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ) أى : كثير مستمر ،بمعنى أنه أقبل على الدعاء الدائم ، وأخذ فى الابتهال والتضرع ، وقد استعير العَرْض لكثرة الدعاء ودوامه وهو من صفة الأجرام ، كما استعير الغلظ لشدة العذاب ، ولا منافاة بين قوله (فَيَـُٔوسٌ قَنُوطٌ) وبين قوله : (فَذُودُعَآءٍ عَرِيضٍ) مع أن كلا عند مس الشر ، لأن الأول فى قوم ،والثانى فى قوم آخرين ،أو يئوس قنوط بالقلب ، وذو دعاء عريض باللسان .

---

(١) سورة الزمر : الآية ٥٦

(قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِۦ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٢﴾ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾ أَلَآ إِنَّهُمْ فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآءِ رَبِّهِمْ ۗ أَلَآ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ مُّحِيطٌۢ ﴿٥٤﴾)

المفردات :

(مِمَّنْ هُوَ فِى شِقَاقٍ بَعِيدٍ) أى : فى خلاف بعيد عن الحق كل البعد

(سَنُرِيهِمْ ءَايَاتِنَا فِى الْآفَاقِ) أى : سنريهم علامات وحدانيتنا وقدرتنا فى الآفاق جمع أفق – بضمتين أو بفتحتين – وهى : النواحى عموماً من مشارق الأرض ومغاربها وشمالها وجنوبها .

(وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ) من لطيف الصنعة وبديع الحكمة ، أو بما يحدث لهم من البلايا والأمراض وحوادث الأرض .

(أَلَآ إِنَّهُمْ فِى مِرْيَةٍ مِن لِّقَآءِ رَبِّهِمْ) أى : فى شك من أمر البعث .

(بِكُلِّ شَىْءٍ مُّحِيطٌ) أى : بكل شىء فى الدنيا والآخرة محيط ، فلا يفوته شىء .

التفسير

٥٢ – (قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ اللهِ ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِى شِقَاقٍ بَعِيدٍ) : هذه الآية وما بعدها رجوع لإلزام الطاعنين والملحدين ، وختم للسورة .

والمعنى : قل يا محمد لهؤلاء المشركين المكذبين بالقرآن : إن كان من عند الله ثم جحدتم به مع تعاضد الأدلة والبراهين التى هى من موجبات الإيمان به – قل للمشركين المكذبين – إن كان هذا شأنه فأخبرونى .

(مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ) أى : من أضل منكم؟ فوضع الموصول موضع الضمير شرحًا لحالهم وتعليلا لمزيد ضلالهم ، حيث إنهم فى خلاف بعيد غاية البعد عن الحق .

٥٣ – (سَنُرِيهِمْ ءَايَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ) :

المعنى : سنريهم فى الآفاق آياتنا الدالة على حقية القرآن وكونه من عند الله . وفسرت الآيات بما أخبر به النبى ﷺ من الحوادث الآتية ، وآثار النوازل الماضية وما يسّر الله له ولخلفائه من الفتوح والظهور على آفاق الدنيا ، والاستيلاء على بلاد المشارق والمغارب على وجه خارق للعادة . كما سنريهم آياتنا فى أنفسهم فيما ظهر بين أهل مكة خصوصاً وما حل بهم وقيل فى الآفاق ، أى : فى أقطار السموات والأرض من الشمس والقمر والنجوم وما يترتب عليها من الليل والنهار . والأضواء والظلال والظلمات ، ومن النبات والأشجار والأنهار ، وفى أنفسهم من لطيف الصنعة وبديع الحكمة فى تكوين الأجنة فى ظلمات الأرحام ، وحدوث الأعضاء العجيبة والتركيبات الغريبة ، نفعل ذلك معهم حتى يظهر لهم أن القرآن هو الحقُّ الذى لا شك فيه فلا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، كلُّه من عند الله المطلع على كل غيب وشهادة ، ولهـذا نصر حاملوه وكانوا محقين ، وفى تعريف الحق من الفخامة ما لا يخفى جلالة وقدراً ، والتعبير بقوله : (سَنُرِيهِمْ) إشارة إلى أنه تعالى لا يزال ينشئ لهم فتحاً بعد فتح وآية غبّ آية إلى أن يظهره على الدين كلّه ولو كره المشركون .

(أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ) : استئناف وارد لتوبيخهم على ترددهم فى شأن القرآن وعنادهم المحوج إلى إراءة الآيات الموعودة المبينة لحقّية القرآن ، أو لم يكفهم فى ذلك أنه – تعالى – شهيد على جميع الأشياء وقد أخبر بأنه من عنده .

« لَّٰكِنِ اللَّهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنزَلَ إِلَيْكَ أَنزَلَهُ بِعِلْمِهِ »[1]

---

(١) سورة « النساء » من الآية ١٦٦

٥٤ـ (أَلَآ إِنَّهُمْ فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآءِ رَبِّهِمْ أَلَآ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ مُّحِيطٌ) :

أى :ألا إنهم فى شك عظيم من لقاء ربهم بالبعث لاستبعادهم إعادة الموتى بعد تحليل أجزائهم وتفرق أعضائهم مع أن الله على كل شىء قدير ، فهو واقع لا ريب فيه وكائن لا محالة لتجزى كل نفس بما كسبت « كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ » .

(أَلَآ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ مُّحِيطٌ) أى : ألا إن ربهم عالم بجميع الأشياء على أكمل وجه فلا تخفى عليه ـ عز وجل ـ خافية فيجازيهم على كفرهم ومريتهم فى لقاء ربهم ، وفى الآية دفع لشكهم فى إعادة ما تفرق واختلط مما يتوهمون عدم إمكان تمييزه ، أى : أنه عالم بمجمل الأشياء وتفاصيلها وظواهرها وبواطنها ، مقتدر عليها لا يفوته شىء منها فهو ـ سبحانه ـ يعلم الأجزاء ويجمعها بعد أن تفرقت وصارت عظاماً ورفاتاً « كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ »[1] .

وعلماء التوحيد فى ذلك على رأيين ، أحدهما : ما ذكر هنا ، والآخر : أنه ـ تعالى ـ يعيد الخلائق بخلق جديد ، لأن أجزاءهم دخلتْ بعد تحللها فى تكوين خلائق أخرى ، جيلا بعد جيل .

ويقولون : إن النعيم والعذاب للروح ، وأما الجسد فهو وعاؤُها ، والكسب إنما هو بها لابوعائها ، فلولا الروح لما استطاع الجسد أن يعمل شيئا ، وفى ذلك يقول صاحب الجوهرة :

وقُل : يُعاد الجِسم بالتحقيق عن عدم ، وقيل : عن تفريق

(١) سورة الأعراف من الآية ٢٩ .

((سورة الشورى))

هذه السورة : مكية وآياتها ثلاث وخمسون ، وسميت الشورى لوجودها فى آياتها لإرشاد المؤمنين إلى السير فى تصريف مجتمعهم على أساسها ، ومناسبة هذه السورة للتى قبلها : اشتمال كل منهما على ذكر القرآن ودفع طعن الكفرة فيه ، وتسلية النبى ﷺ بما ذكر فيهما من آيات تبين نصر المؤمنين وخذلان الكافرين والجاحدين .

اهم مقاصد السورة :

١ ـ افتتحت بالتنويه بشأن القرآن بأنه وحى من عند الله ، وكذلك كانت كتب الأنبياء السابقين .

٢ ـ أشادت بقدرة الله ، وأنه ـ سبحانه ـ لا يخرج عن سلطانه شئ فى الأرض ولا فى السماء .

٣ ـ بينت أن السموات تكاد أن يتشققن من فوقهن لعظمة الله ، وكمال الخشية منه .

٤ ـ هددت الذين اتخذوا من دونه أولياء بأن الله حفيظ عليهم ليجازيهم بما اقترفوا .

٥ ـ أشارت إلى أنه ـ تعالى ـ لو شاء أن يجمع الناس على ملة واحدة لجمعهم ، ولكن الحكمة اقتضت أن يكون منهم المهتدى والضال .

٦ ـ أرشدت إلى مايفعله المؤمنون مع المشركين إذا خالفوهم فى الدين .

٧ ـ أشارت إلى القدرة البالغة فى أنه جعل لكم من أنفسكم أزواجًا ، ومن الأنعام أزواجا .

٨ ـ أكدت وحدة الشرائع .

٩ ـ نددت بشرك المشركين واختلافهم فى الحق ظلمًا بعد أن أمروا بإقامة الدين وعدم التفرق فيه .

١٠ ـ بينت أن الذين ورثوا الكتاب من أسلافهم وأدركوا عهد الرسول لنى شك من كتابهم موقع فى الريب ، وسيأتى تفسيره .

١١ - أرشدت إلى ما يجب اتباعه فى دعوة الناس إلى الحق .

١٢ - بينت بطلان حجة الذين يجادلون فى الدين من بعد ما استجاب الناس لدعوته .

١٣ - ذكرت أن الذين يستعجلون الساعة هم الذين لا يصدقون بها ، أما الذين صدقوا بها فهم خائفون من وقوعها .

١٤ - أبرزت لطف الله بعباده حيث يرزق من يشاء كما يشاء بدون معقب له .

١٥ - حذرت من الانهماك فى طلب الدنيا حيث تكون عاقبته الحرمان من الآخرة .

١٦ - بينت سوء حال الجاحدين يوم القيامة ، وأنهم مشفقون مما كسبوا وهو واقع بهم . كما بينت حال المؤمنين ، وأن لهم ما يشاءون عند ربهم .

١٧ - نددت بادعاء المكذبين على رسول الله ﷺ أنه افترى على الله كذبًا وردت ذلك الافتراء .

١٨ - بددت يأس اليائسين حيث أبانت أن الله يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات .

١٩ - ذكرت الحكمة فى توزيع الرزق بين الناس بتدبير محكم ، فلم يكونوا جميعًا أغنياء ، ولم يكونوا فقراء ليتخذ بعضهم بعضًا سخريًّا .

٢٠ - أشارت إلى عظم بركات الغيث ، ودلائل قدرة الله على خلق السموات والأرض وما بث فيهما من دابة .

٢١ - ذكرت أن من آيات القدرة السفن الجوارى فى البحر كالأعلام إن يشأ تهب الرياح فتسيرها ، وإن يشأ يجعلها ساكنة ، فتظل ثوابت على وجه الماء ، أو يهلكهن بذنوب ركابها .

٢٢ - أعادت تهديد المجادلين ، فذكرت أنهم فى علم الله ، ليس لهم من عقابه مهرب .

٢٣ - عددت أوصاف المؤمنين ، ومن بينهم الذين استجابوا لربهم وأقاموا الصلاة ، وأمرهم شورى بينهم ومما رزقهم الله ينفقون ، وذكرت أن لهم ما هو خير وأبقى عند ربهم .

٢٤ ـ دعت إلى عدم قبول الذلة ، ودلّت على أن الانتصار ـ بعد الظلم ـ أمر مشروع : ﴿ وَلَمَنِ انتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُوْلَـٰئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ ﴾[1] .

٢٥ ـ دعت إلى الصبر والمغفرة ﴿ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴾[2] .

٢٦ ـ بينت حال الظالمين حين يرون العذاب ، كما بينت حالهم حين يعرضون على النار ، وسجلت قول المؤمنين فى الخاسرين الذين خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة : ﴿ أَلَآ إِنَّ الظَّالِمِينَ فِى عَذَابٍ مُّقِيمٍ ﴾[3] .

٢٧ ـ حثت على الاستجابة قبل فوات وقتها ﴿ اسْتَجِيبُواْ لِرَبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ ﴾[4] وهددت من لا يستجيبون لله ورسوله ﴿ مَا لَكُم مِّن مَّلْجَإٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٍ ﴾[5] .

٢٨ ـ دعت الرسول إلى عدم الحزن على المعرضين لإعراضهم عن الاستجابة : ﴿ فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ ﴾[6] .

٢٩ ـ عنيت بتسلية الرسول ﷺ ببيان أن الحق لله فى هبة الإناث لمن يشاء والذكور لفريق آخر ، والجمع بينهما لفريق ثالث ، وحرمان فريق رابع منهما .

٣٠ ـ ذكرت طرق خطاب الله تعالى لأنبيائه وعباده .

٣١ ـ ختمت السورة ببيان أن مثل ما أوحينا إلى الرسل قبلك أوحينا إليك هذا القرآن ، وهو روح من أمر الله جعله نوراً يهدى به من يشاء من عباده ﴿ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ * صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِى لَهُ مَا فِى السَّمَاوَاتِ وَمَا فِى الْأَرْضِ أَلَآ إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ ﴾[7] .

---

(١) سورة الشورى الآية ٤١
(٢) سورة الشورى الآية ٤٣
(٣) سورة الشورى من الآية ٤٥
(٤) سورة الشورى الآية ٤٧
(٥) سورة الشورى من الآية ٤٧
(٦) سورة الشورى من الآية ٤٨
(٧) سورة الشورى من الآية : ٥٢ والآية : ٥٣

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

(حمٓ ﴿١﴾ عٓسٓقٓ ﴿٢﴾ كَذَٰلِكَ يُوحِىٓ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣﴾ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ ﴿٤﴾ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِن فَوْقِهِنَّ ۚ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِى ٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥﴾ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴿٦﴾)

المفردات :

(تَكَادُ السَّمَٰوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ) أى : يتشققن من عظمة الله وجلاله وقيل : من ادعاء الولد له .

(مِن فَوْقِهِنَّ) أى : يبتدئ التشقق من أعلاهن .

(وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِى الْأَرْضِ) أى : يسألون الله أن يغفر للمقصرين فى الأرض من المؤمنين .

(وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ) أى : بموكل بهم أو بموكول إليك أمرهم ، وإنما وظيفتك البلاغ والإنذار .

التفسير

١ ، ٢ – (حمٓ * عٓسٓقٓ) : هما اسمان للسورة ولذلك فصلا فى الخط وعدا آيتين. وقيل : هما اسم واحد وآية واحدة والفصل بينهما ليناسب مفتتح سائر الحواميم قبلها وبعدها حيث

رسم مستقلا فى السور المفتتحة بحروف الهجاء وقيل : إن أجزاءهما أسماء لحروف هجائية ، والمراد بها تحدى العرب أن يأتوا بسورة مثله لأنه مؤلف من كلمات ذات حروف هجائية مثلما يتكلمون وينطقون ، فليأتوا بمثله إن كانوا صادقين ، وقيل : غير ذلك . والكلام فى إعرابها وفى معناها قد مضى فى مثله من سورة البقرة وغيرها ، وحسبك هنا ماتقدم .

٣ـ (كَذَٰلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ) : كلام مستأنف وارد لتحقيق أن مضمون السورة موافق فى تضاعيف الكتب المنزلة على سائر الرسل المتقدمين فى الدعوة إلى التوحيد والإرشاد إلى الحق ، أى : مثل ما فى هذه السورة من المقاصد أوحى إليك فى سائر السور وأوحى إلى من قبلك من الرسل فى كتبهم وصحفهم ، من الدعوة إلى التوحيد والإرشاد إلى الحق وإلى ما فيه صلاح العباد ، أو مثل إيحاء هذه السورة أوحى إليك سائر السور . وإلى سائر الرسل عند إيحاء كتبهم إليهم كما فى قوله ـتعالى ـ : « إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَىٰ نُوحٍ »[1] . الآية ، ومناط المثلية كونه بطريق الْمَلَك ، وفى جعل هذه السورة أو إيحائها مشبها به من تفخيمها والتنويه بها ما لا يخفى ، وخلاصة ما تشير إليه الآية : أن الله ذكر معانى هذه السورة فى القرآن وفى جميع الكتب السماوية لما فيها من الإرشاد إلى الحق ، وهو العزيز فى انتقامه الحكيم فى أقواله وأفعاله .

٤ ـ (لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ) :

استئناف مقرر لعزته ـتعالى ـ وحكمته ـعز وجل ـ فى قوله ـ سبحانه ـ : (اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ) من الآية السابقة أى : لله وحده ما فى السموات وما فى الأرض خلقاً وملكاً وتدبيرا وهو العلى شأنه العظيم برهانه .

٥ ـ (تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِن فَوْقِهِنَّ وَالْمَلَائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِي الْأَرْضِ أَلَا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ) :

الآية واردة للتنزيه بعد إثبات الملكية والعظمة لله ـتعالى ـ فى الآية السابقة أى : تقرب السموات أن يتشققن من أعلاهن مع عظمتهن وتماسكهن خشية من الله وتأثرا بعظمته وعلو شأنه وروى ذلك عن قتادة ، وأخرج جماعة منهم الحاكم وصححه عن ابن عباس قال : تكاد السموات يتشققن من الثقل لكثرة ما على السماء من الملائكة . قال ـعليه السلام ـ : « أَطَّتِ

(١) سورة النساء من الآية ١٦٣

السماء أطًّا وحق لها أن تئط ، ما فيها موضع قدم إلا وعليه ملك قائم أو راكع أو ساجد » والتشقق يحصل من أعلاهن بسبب ذلك ، وقيل : من ادعاء الشريك والولد لله – سبحانه – كما فى سورة مريم « تَكَادُ السَّمَٰوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا ، أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ، وَمَا يَنبَغِى لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا »[1]

وأيد هذا بقوله – تعالى – بعد : « وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ » وكان القياس أن يقال : يتفطرن من تحتهن ، أى : من الجهة التى جاءت منها كلمة الكفر ، لأنها جاءت من الذين تحت السماء ، ولكنه بولغ فى ذلك فجعلت مؤثرة فى جهة الفوق . كأنه قيل : تكاد السموات يتفطرن من فوقهن ، أما الجهة التى تحتهن فحصوله بطريق الأولى .

(وَالْمَلَٰئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ) خضوعاً لما يرون من عظمته ، وتنزيها عما لا يليق به ملتبسين بحمده . وقيل : يتعجبون من جرأة المشركين ، فذكر التسبيح موضع التعجب وعن على – رضى الله عنه – أن تسبيحهم تعجب مما يرون من تعرض المشركين لسخط الله (وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِى الْأَرْضِ) بالسعى فيما يستدعى مغفرتهم من الشفاعة والإلهام وترتيب الأسباب المقربة إلى الطاعة ، واستدعاء تأخير العقوبة طمعاً فى إيمان الكافر . وتوبة الفاسق وهذا يعم المؤمن والكافر ، وقال السدى وقتادة : المراد بقوله : (لِمَن فِى الْأَرْضِ) المؤمنون لقوله – تعالى – فى سورة غافر : « الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا »[2] وعلى هذا تكون الملائكة هنا حملة العرش ، وقيل المراد جميع ملائكة السماء وهو الظاهر من قول الكلبى ، وحيث خص من فى الأرض بالمؤمنين فيكون المراد من الاستغفار الشفاعة ، أو حقيقة الدعاء .

(أَلَا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ) إذ ما من مخلوق إلا وله حظ عظيم من رحمته – تعالى – وإنه سبحانه لذو مغفرة للناس على ظلمهم ، وفيه إشارة إلى قبول استغفار الملائكة – عليهم السلام – وأنه – سبحانه – يزيدهم على ما طلبوه من المغفرة والرحمة مع زيادة تقرير لعظمته تعالى ، وبيان لكمال تقدسه عما نسب إليه بترك معاجلتهم بالعقاب على تلك الكلمة الشنعاء بسبب استغفار الملائكة وفرط غفرانه

---

(١) سورة مريم الآيات ٩٠ ، ٩١ ، ٩٢ (٢) سورة غافر من الآية ٧

٦ - (وَالَّذِينَ اتَّخَذُواْ مِن دُونِهِ أَوْلِيَآءَ اللهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ) :

أى : والمشركون الذين جعلوا لله أندادا وشركاء يعبدونهم من دونه. الله -سبحانه- رقيب على أحوالهم وأعمالهم يحصيها عليهم، ويعدها عدا ليجزيهم عليها . وما أنت -أيها الرسول- بموكل بهم ، أو بموكول ومفوض إليك أمرهم ، وإنما وظيفتك الإنذار والبلاغ فحسب .

(وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ ٱلْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ فَرِيقٌ فِى ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِى ٱلسَّعِيرِ ﴿٧﴾ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ وَٱلظَّٰلِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٨﴾)

المفردات :

(وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا) أى : أنزلناه عربيا بلسان قومك .

(لِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ) : وهى مكة ، والإنذار يتعدى إلى مفعولين ، وقد يستعمل ثانيهما بالباء .

(وَتُنذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ) : وهو يوم القيامة .

(لَاَ رَيْبَ فِيهِ) أى : لا شك فيه . (وفَرِيقٌ فِى السَّعِيرِ) أى : فى النار ولهيبها .

التفسير

٧ - (وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ قُرْءاناً عَرَبِياً لِّتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لاَ رَيْبَ فِيهِ فَرِيقٌ فِى الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِى السَّعِيرِ) أى : ومثل هذا الإيحاء البديع البين المفهم أوحينا إليك قرآنا عربيا لا لبس فيه ولا إبهام عليك ولا على قومك .

(لِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا) أى : لتنذر أهل أم القرى وهى مكة ، وتنذر من حولها من سائر الخلق شرقا وغربا . وسميت مكة أم القرى لأن فيها البيت الحرام الذى يحج إليه أهل القرى العربية ، ولهذا كان فراق الرسول حين هاجر منها صعبا على نفسه ، روى الإمام أحمد بسنده : أن عبد الله بن عدى بن الحمراء أخبره أنه سمع رسول الله ﷺ يقول وهو واقف بالحزورة فى سوق مكة : « واللهِ إنكِ خيرُ أرضِ اللهِ وأحبُّ أرضِ اللهِ إلى اللهِ ولولا أنى أُخرِجتُ مِنْكِ ما خَرَجْت » وهكذا رواه الترمذى والنسائى وابن ماجة وقال الترمذى : حسن صحيح . لهذا الفضل استحقت أن نسمى أُمًّا (وَتُنذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ) وهو يوم القيامة ذلك اليوم الذى يجمع الله فيه الأولين والآخرين فى صعيد واحد كقوله ـ تعالى ـ : « ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ النَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ »(1) وفى العبارتين : (لِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا) (وَتُنذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ) احتباك فقد حذف من الأولى ما أثبت فى الثانية ، و حذف من الثانية ما أثبت فى الأولى ، أى : لتنذر أم القرى ومن حولها يوم الجمع تنذر يوم الجمع أم القرى ومن حولها ، ثم قرر ذلك بقوله : (لَا رَيْبَ فِيهِ) أى : لا شك فيه .

(فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ) أى : هذا التفريق بعد جمعهم فى الموقف . فإنهم يجمعون فيه أولا ثم يفرقون بعد الحساب ، منهم فريق فى الجنة ومنهم فريق فى النار المستعرة . والجملة استئناف فى جواب سؤال تقديره : ثم كيف يكون حالهم ؟ فيجاب بما ذكر .

٨ ـ (وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَٰكِن يُدْخِلُ مَن يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ » :

أى : ولو شاء الله لجعلهم فى الدنيا أهل دين واحد ، ولكنه ـ سبحانه ـ أراد أن يدخل فى رحمته ـ وهى الإسلام ـ من يشاء أن يدخله فيه ويدخل فى عذابه من يشاء أن يدخله فيه ولا ريب فى أن مشيئته ـ تعالى ـ لكل من الإدخالين لاستحقاق كل من الفريقين أن يدخل مدخله تبعا لاختيار

(1) سورة هود من الآية ١٠٣

الداخلين فيهما قطعا ، فلم يشأ جعل الكل أمة واحدة بل جعلهم فريقين تبعا لاختيارهم بعد ما أرسل إليهم رسله مبشرين ومنذرين فيتأثر بعضهم بالإنذار فيصرفون اختيارهم إلى الحق فيوفقهم الله -تعالى- إلى الإيمان والطاعات ، ويدخلهم فى رحمته -عز وجل- ولا يتأثر به الآخرون ، ويتمادون فى غيهم ، فيبقون فى الدنيا على ما هم عليه من الكفر ، فينتهون فى الآخرة إلى السعير من غير ولى يلى أمرهم ولا نصير يخلصهم من العذاب ، قال مقاتل : ولو شاء الله لجمعهم على الهدى ، أى : مؤمنين كلهم على دين الإسلام كما فى قوله -تعالى- : (وَلَوْ شَآءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَىٰ) أى : ولو شاء الله جعلهم أمة واحدة . لقسرهم على الإيمان ، ولكن الله -تعالى- بنى أمرهم على أن يختاروا ليدخل المؤمنين فى رحمته وهم المرادون بقوله -تعالى- : (يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِ) ويعذب الكافرين الذين ظلموا أنفسهم وقيل فى ختام الآية : (وَالظَّالِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ) ولم يقل : ويدخل من يشاء فى عذابه للإيذان بأن الإدخال فى العذاب من جهة الداخلين بموجب سوء اختيارهم لا من جهته تعالى ، كما فى الإدخال فى الرحمة ، على أن ذلك أبلغ فى تخويفهم لإشعاره بأن كونهم فى العذاب أمر مفروغ منه إنما الكلام فى -أنه بعد تحتمه- هل من يخلصهم بالدفع أو بالرفع ، فإذا انتفى ذلك علم أنهم فى عذاب لا خلاص منه حيث لا ولى يتكفل بحمايتهم ولا نصير ينقذهم .

(أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ۖ فَٱللَّهُ هُوَ ٱلْوَلِىُّ وَهُوَ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٩﴾)

المفردات :

(أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَآءَ) أى : بل اتخذوا أصناما وأوثانا يلون أمورهم .

(وَهُوَ يُحْيِ الْمَوْتَىٰ) أى : عند البعث .

(وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ) أى : أن غيره من الأولياء لا يقدر على شىء .

التفسير

٩ - (أَمِ اتَّخَذُواْ مِن دُونِهِ أَوْلِيَآءَ فَاللَّهُ هُوَ الْوَلِىُّ وَهُوَ يُحْيِ الْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ) :

جملة (أَمِ اتَّخَذُواْ مِن دُونِهِ أَوْلِيَآءَ) مستأنفة مقررة لما قبلها من انتفاء أن يكون للظالمين ولى أو نصير .

أى : بل أتخذوا -مجاوزين الله - أولياء من الأصنام وغيرها ، و (أم) منقطعة بمعنى بل وهمزة الاستفهام الإنكارى ، وهى لاستنكار اتخاذهم الأولياء واستقباحه ونفيه على أبلغ وجه وآكده ، إذ المراد بيان أن ما فعلوا ليس من اتخاذ الأولياء فى شىء لأن ذلك فرع كون الأصنام أولياء ، وهو أظهر الممتنعات (فَاللَّهُ هُوَ الْوَلِىُّ) كأنه قيل بعد إنكار كل ولى سواه : إن أرادوا أولياء بحق ، فالله هو الولى . لا غيره -عز وجل- (وَهُوَ يُحْيِ الْمَوْتَىٰ) عند البعث (وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ) فهو الحقيق لذلك بأن يتخذ وليا . فليخصوه بالاتخاذ دون غيره .

(وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَىْءٍ فَحُكْمُهُۥٓ إِلَى اللَّهِ ۚ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبِّى عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿١٠﴾ فَاطِرُ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ ۚ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَمِنَ الْأَنْعَٰمِ أَزْوَٰجًا ۖ يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ ۚ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿١١﴾ لَهُۥ مَقَالِيدُ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ ۖ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٢﴾)

المفردات :

(وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ) أى : وما خالفكم الكفار والمشركون فى الدين أو ماحدث بينكم فيه خلاف .

(إِلَيْهِ أُنِيبُ) : أرجع فى كل ما يعن لى من معضلات الأمور .

(فَاطِرُ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ) : خالقها ومبدعها على غير مثال ، يقال : فطره من ـ باب نصر ـ ابتدأه واخترعه .

(يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ) : يكثركم بسبب هذا التزاوج بين الذكور والإناث ، يقال : ذرأ الشىء كثّره وفرقه .

(لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ) أى : له مفاتيح خزائنهما ، ومن يملك المفاتيح يملك الخزائن ، والمقاليد : جمع مِقْلاد أو مقليد .

(وَيَقْدِرُ) أى : يضيق ويقتر على من يشاء .

التفسير

١٠ ـ (وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ) :

حكاية لقول رسول الله ﷺ للمؤمنين ، أى : ما خالفكم فيه الكفار من أهل الكتاب ؛ والمشركون فى شىء من أمور الدين فاختلفتم أنتم وهم فيه كاتخاذ الله وحده وليًّا . فقولوا لهم : حكم ذلك المختلف فيه مفوض إلى الله لا إليكم ، وقد حكم بأن الدين هو الإسلام لا غيره ، وأمور الشرائع إنما تتلقى من بيان الله ـ سبحانه ـ الذى تكفل بإثابة المحقين من المؤمنين ومعاقبة المبطلين (ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبِّي) الإشارة إليه ـ تعالى ـ من حيث اتصافه بما تقدم من الصفات على ما قال الطيبى : من كونه ـ تعالى ـ يحيى الموتى ، وكونه على كل شىء قدير ، وكونه ـ عز وجل ـ ما اختلفوا فيه فحكمه إليه (عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ) أى : عليه لا على غيره توكلت فى كل أمورى ، وإليه أرجع فى كل ما يعن لى من معضلات الأمور لا إلى أحد سواه .

وقيل : المعنى : وما اختلفتم وتنازعتم فى شىء من الخصومات فتحاكموا فيه إلى رسول الله ﷺ ولا تؤثروا على حكومته حكومة غيره ، وقيل : وما اختلفتم فيه من تأويل آية واشتبه عليكم فارجعوا فى بيانه إلى المحكم من كتاب الله ، والظاهر من سنة

رسول الله ﷺ وحيث كان التوكل على الله أمرا واحدا مستمرًّا والإنابة إليه متعددة متجددة حسب تجدد موادها. أوثر فى الأول صيغة الماضى وفى الثانى صيغة المضارع . فقيل : (عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ) .

١١ - (فَاطِرُ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ) :

أى : ذلكم الله ربى هو خالق السموات والأرض ومبدعهما خلق لكم من جنسكم أزواجًا ، وخلق للأنعام أيضا من جنسها أزواجا ، أى : كما خلق لكم من أنفسكم أزواجا وخلق لكم من الأنعام أزواجا (يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ) أى : يكثركم ويزيدكم فيما ذكر من التدبير ، وهو أن جعل - سبحانه - للناس والأنعام أزواجًا يكون بينهم توالد وتناسل . أوجعل التكثير فى هذا الجعل لوقوعه بسببه ، والضمير فى (يَذْرَؤُكُمْ) يرجع للمخاطبين والأنعام بتغليب المخاطبين العقلاء على الغُيَّب مما لا يعقل (لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ) نفى للمشاركة فى كل شأن من الشئون التى من جملتها هذا التدبير البديع السابق ، والمراد نفى أن يكون مثله - سبحانه - شىء يزاوجه - عز وجل - وهو وجه ارتباط هذه الآية بما قبلها .

والمعنى : ليس كذاته شىء بإرادة الذات من (المثل) كما قيل ، وعلى هذا لا فرق بين (ليس كذاته شىء) وبين (ليس كمثله شىء) فى المعنى ، إلا أن الثانى كناية مشتملة على مبالغة هى أن المماثلة منتفية عمن يكون مثله وعلى صفته فكيف عن نفسه . وهذا لا يستلزم وجود المثل إذ الغرض كاف فى المبالغة ، ومثل هذا شائع فى كلام العرب كما يقولون : مثلك لا يبخل ، يريدون به نفى البخل عن ذاته ويقصدون المبالغة فى ذلك بسلوك طريق الكناية لأنهم إذا نفوه عمن يماثله فرضا فقد نفوه عنه بطريق أولى . وقيل : يراد بالمثل الصفة ، أى : ليس كصفته صفة (وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ) أى : المدرك إدراكا تاما لجميع المسموعات ولجميع المبصرات أو الموجودات .

١٢ - (لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ) :

أى : له - سبحانه وتعالى - مفاتيح خزائنهما ، ومن يملك المفاتيح يملك الخزائن حفظًا وتدبيرا ، وهو - عز وجل - يوسع الرزق لمن يشاء ويضيقه على من يشاء حسبما تقتضية الحكمة العالية ، والعدل التام .

(إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ) مبالغ فى الإحاطة به كما فى قوله ـ تعالى ـ : « وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِى الْأَرْضِ وَلَا فِى السَّمَاءِ » (١) فيفعل كل ما يفعل على ما ينبغى أن يفعل عليه. والجملة تعليل لما قبلها ، وتمهيد لما بعدها من قوله ـ تعالى ـ : (شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ) .

* (شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ۚ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ۚ ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾ وَمَا تَفَرَّقُوٓا۟ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى لَّقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُورِثُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِهِمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿١٤﴾)

المفـردات :

(شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ) : سن لكم من الدين وبين وأظهر وقضى ، والمشرعة والشريعة : مورد الماء .

(وَصَّىٰ) : أمر أمراً لازما جازما . (أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ) : اجعلوا الدين قائما بالمحافظة عليه ، وتقويم أركانه ، والحرص عليه من أن يقع فيه زيغ أو تفريط .

(كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ) : عظم واشتد .

(يَجْتَبِىٓ) : يجتلب ويصطفى .

(يُنِيبُ) : يرجع عن الكفر ويختار طريق التوحيد والهداية .

(بَغْيًا) : ظلما وحقدا وعداوة .

(مُرِيبٍ) : مقلق موغل فى الشك .

---

(١) سورة يونس من الآية ٦١

التفسير

١٣ - (شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٓ أَنْ أَقِيمُواْ الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ) :

ختم الله الآية السابقة بقوله :(إِنَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ)تعليلا لما قبلها ، وتمهيدا لهذه الآية ومابعدها ، وإيذانا بأن ماشرع الله من الأحكام صادر عن كمال العلم والحكمة ،وقد حكت الآيات السابقة صورا كثيرة من ألوان القدرة ، ومظاهر التفرد بالوحدانية والملك ، وقررت أن الله وحده هو الولى لخلقه ، القادر على كل شىء ، فاطر السموات والأرض ،وأنه-تعالى-جعل من الإنسان أزواجًا ومن الأنعام أزواجًا ينتظم بها أمرالدنيا ،بيده مقاليد السموات والأرض يتصرف فيها خلقًا وملكًا وإحياء وإماتة وبسطا وتضييقًا ، وهو العليم بكل ما فيها ومن فيها ، لا يعزب عن علمه شىء من أحوالها ، ولا يعجزه أمر من أمورها .

ثم جاءت هذه الآية لتبين أنه-تعالى-شرع لعباده ماينظم سلوكهم . ويقوم مسيرتهم بما جاء على لسان أنبيائه ورسله على تتابع الزمان ، فقال-تعالى-:(شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ ...) الآية ، والشارع هو الله - تعالى - المفهوم بالنص من الآيات السابقة ، والمخاطب أمة محمد ﷺ .

والمعنى :سنَّ الله-تعالى-لكم يا أمة محمد وأظهر وبين من أمور الدين وأحكامه ماسبق أن وصى به نوحًا ، والذى أوحاه إلى نبيكم ، وما وصى به من جاء بعد نوح من الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام-وأمرهم به أمراً مؤكداً لازما هو قوله-تعالى- : (أَنْ أَقِيمُواْ الدِّينَ) والمقصود به دين الإسلام ، والاستسلام لله وذلك بتوحيده وطاعته ، والإيمان بكتبه ورسله ويوم الجزاء ، وسائر ما يكون العبد به مؤمنًا ، وإقامة الدين : معناها تعديل أركانه ، والمواظبة عليه ، وحفظه من أن يقع فيه زيغ أو تحريف ،والإسلام بهذا المعنى لا يختلف فيه أحد من الأنبياء فى أى عصر من العصور ، والبدء بذكر نوح - عليه السلام- لأنه أبو البشر بعد آدم - عليهما السلام -ولأنه - على ما قيل-أول الأنبياء بعد آدم .

وفى تقدم ذكر الرسول ﷺ على من قبله من الأنبياء إشعار بأن شريعته ﷺ هى الشريعة المعتنى بها غاية الاعتناء ، وأنه النبى الخاتم ، وأن رسالته أعم الرسالات .

والمراد بالإيحاء إليه ﷺ إما الإشارة إلى ما ذكر فى خصوص هذه السورة من مثل قوله - تعالى - فى صدرها : (كَذَٰلِكَ يُوحِيٓ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ) ومن قوله - تعالى - فى ختامها : (وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا) وإما ما يعمها وغيرها من مثل ما وقع فى سائر المواقع من القرآن الكريم التى من جملتها : «ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا» وقوله - تعالى - : «قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ» وغير ذلك كثير فى القرآن الكريم .

وتخصيص الرسول بذكر الإيحاء ، وإيثاره على ما قبله وما بعده من التوصية لمراعاة ما وقع فى الآيات المذكورة وغيرها من مثل قوله - تعالى - : «وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا» وقوله - تعالى - : «وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا» مما جاء فى هذه السورة بخصوصها ، ولما فى الإيحاء من التصريح برسالته ﷺ والالتفات إلى «نون» العظمة فى قوله - تعالى - : «وَٱلَّذِيٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ» لإظهار كمال العناية بإيحائه .

وقوله - تعالى - : «وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ» معناه - على ما اختاره غير واحد من الأجلة عام شامل للنبى ﷺ وأتباعه وللأنبياء والأمم قبلهم ، أى: لا تختلفوا فى أصل من أصول الدين وقوله - جل شأنه - : «إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا۟ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا . أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا» (١) .

ولا يشمل هذا النهى الاختلاف فى الفروع فإنها ليست من الأصول المرادة هنا ، ولم يجمع النبيون على الاتفاق فيها ، أو يتحتم ديناً الاتفاق عليها كما يؤذن بذلك قوله - تعالى - : «لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا» (٢) .

قال مجاهد : لم يبعث نبى إلا أمر بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة ، والإقرار بالله - تعالى - وطاعته - سبحانه - وذلك إقامة الدين .

ومعنى الآية : شرعنا لكم ما وصينا به نوحا ، وما أوحيناه إلى نبيكم ، وما وصينا به الأنبياء قبلكم - شرعنا - لهم دينا واحدا فى الأصول ،وهى : التوحيد ، والصلاة ،والزكاة

(١) سورة النساء الآيتان ١٥٠ ، ١٥١

(٢) سورة المائدة من الآية ٤٨

والصيام ، والحج ، والتقرب إلى الله بصالح الأعمال ، والوفاء بالعهد ، وأداء الأمانات ، وصلة الرحم ، وتحريم الكبر والزنى والإيذاء للخلق ، والاعتداء على الحيوان ، واقتحام الدناءات ، وما ينافى المروءات ، ونحو ذلك من الكمالات فهذا كله مشروع دينا واحدا ، وملة متحدة ، لم يختلف على ألسنة الأنبياء فى الأصل ولا فى الصورة ، فأقيموا هذا الدين ولاتتفرقوا فيه ، واجعلوه قائما مستمرا من غير خلاف فيه ولا اضطراب . (الآلوسى بتصرف) .

والذى ينبغى اعتباره ـ ولا مجال للشك فيه ـ أن رسالات الأنبياء جميعاً متفقة فى أصول العقائد ومطلق العبادات ، والأمر بإتيان الفضائل ، واجتناب الرذائل . وقد تختلف فى الفروع أو فى بعضها تبعاً لتقادم الأزمان ، ولمقتضيات الأطوار ، وتطور أحوال الإنسان . كما تختلف فى أسلوب الأداء فى رسالة عن رسالة أخرى .

وقوله ـ تعالى ـ : (كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ) معناه : شق على المشركين وعظم فى نفوسهم ما تدعوهم إليه من توحيد الله ـ تعالى ـ ورفض عبادة الأصنام ، وضاقوا بدعوتك ولجوا فى عنادك تقليدا لآبائهم .

وقوله ـ تعالى ـ : (اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ) فيه تسلية للنبى ﷺ بمحو القلق من نفسه ، ويضفى على قلبه الراحة والاطمئنان إذا علم أن قلوب العباد ونواصيهم بيده ـ سبحانه وتعالى ـ يجتبى إليه من يشاء و يهدى إليه من ينيب .

والمعنى : الله ـ تبارك وتعالى ـ يصطفى إليه من يشاء من عباده الباحثين عن الحق ويهديه إلى الاستجابة ويرشده إلى التوحيد والطاعة ويختاره لحظيرة أنسه ، ودار قدسه ، ويهدى بالإرشاد والتوفيق من يترك المعاصى ويقبل عليه ، ويرجع إليه . فلا تبال يا رسول الله بخلاف من خالفك ، ولا يشق ذلك على نفسك .

١٤ ـ (وَمَا تَفَرَّقُوا إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى لَّقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ مِن بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ) :

هذه الآية شروع فى بيان أحوال أهل الكتاب بعد الإشارة الإجمالية إلى أحوال أهل الشرك، قال ابن عباس – رضى الله عنهما – : هم اليهود والنصارى لقوله – تعالى – : « وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ الْبَيِّنَةُ »[1]

والمعنى : وما تفرق الذين أوتوا الكتاب من اليهود والنصارى فى الدين الذى دعوا إليه فى حال من الأحوال أو فى وقت من الأوقات إلا من بعد ما جاءهم العلم بحقيته بما شاهدوا فى رسول الله ﷺ والقرآن من دلائل الحقية حسبما وجدوه فى كتبهم – وهذا ما ذهب إليه العلامة أبو السعود – وقال الآلوسى : وما تفرق أمم الأنبياء بعد وفاة أنبيائهم منذ بعث نوح – عليه السلام – فى الدين الذى دعوا إليه – ما تفرقوا فى وقت من الأوقات – إلا من بعد ما جاء العلم من أنبيائهم بأن الفرْقة ضلال وفساد وأمر متوعَّد عليه، وهذا يؤيد ما دل عليه سابقاً من أن الأمم القديمة والحديثة أمروا باتفاق الكلمة ، وإقامة الدين .

ويضعف هذا الرأى أن مشاهير الأمم السابقة قد أصابهم عذاب الاستئصال من غير إنظار وإمهال ، وأن مساق النظم الكريم لبيان أحوال هذه الأمة ، وإنما ذكر من ذكر من الأنبياء – عليهم الصلاة والسلام – لتحقيق أن ما شرع لهؤلاء المكذبين دين قديم أجمع عليه أولئك الأعلام تأكيدا لوجوب إقامته ، وتشديدا للزجر عن التفرق والاختلاف فيه ، ومهما يكن القول فى التفرق فإنه لم يكن صادرا منهم عن حقيقة ، ولا قائما على رأى ، وإنما كان بغيا وظلما وعداوة وحسدا نابعا من طلب الدنيا والحرص على الرياسة «وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ» أى : ولولا قضاء قضى به الله ، وَعِدَة سبقت منه – جل شأنه – بتأخير العقوبة (إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى) هو يوم القيامة أو آخر أعمارهم (لَّقُضِيَ بَيْنَهُمْ) أى : لوقع العقاب باستئصال المبطلين منهم ، لعظم ما اقترفوه واستيجاب جناياتهم لذلك .

(وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ مِن بَعْدِهِمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ) أى : وإن المشركين الذين أورثوا القرآن من بعد ما أورث أهل الكتاب كتبهم لفى شك من القرآن مدخل

---

(١) سورة البينة الآية ٤ .

فى القلق والحيرة، ولذلك لا يؤمنون به لمحض البغى والمكابرة بعد ما علموا بحقيته كدأب أهل الكتابيين .

(فَلِذَٰلِكَ فَادْعُ ۖ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ ۖ وَقُلْ آمَنتُ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِن كِتَابٍ ۖ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ ۖ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ ۖ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ ۖ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ۖ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا ۖ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ (١٥) وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ مِن بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ (١٦))

المفردات :

(وَاسْتَقِمْ) : واستمر على المنهج المستقيم ودم عليه .

(أَهْوَاءَهُمْ) : ميولهم الفاسدة .

(مِن كِتَابٍ) أى : أىّ كتاب منزل من الله .

(لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ) : لا محاجة ولا خصومة .

(يُحَاجُّونَ) : يجادلون ويخاصمون .

(فِي اللَّهِ) : فى دين الله .

(دَاحِضَةٌ) : زائلة باطلة .

التفسير

١٥ - (فَلِذَٰلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَقُلْ آمَنتُ بِمَآ أَنزَلَ اللهُ مِن كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ اللهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَآ أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ اللهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ) :

تناولت الآيات السابقة تفرق الأمم فيما جاءهم به أنبياؤهم ، والشك المريب الذى عاشوا فيه ، ثم جاءت هذه الآية ترشد إلى رفض هذا السلوك السيء وتحث على مدافعته واستئصاله ، فالإشارة فى قوله - تعالى - : (فَلِذَٰلِكَ فَادْعُ) أى : فمن أجل ما ذكر من التفرق فادع إلى دين الحق الذى أنت عليه .

والمعنى : إذا كان الأمر كما ذكر فلأجل ذلك التفرق وما جر إليه من تشعب فى الكفر ، وشك مريب فى مقدسات الدين فادع يا محمد إلى الاتفاق على الملة الحنيفية القديمة ، والعقيدة السمحة القويمة (واسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ) واثبت على هذه الدعوة ، والزم منهجها المستقيم (وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ) الباطلة ولا تطاوع ميولهم الفاسدة ، واحمل الناس كافة على إقامة ذلك الدين والعمل بموجبه ، فإن تفرقهم فى الدين وكونهم فى شك مريب يحتمان الدعوة إليه والأمر به .

(وَقُلْ آمَنتُ بِمَآ أَنزَلَ اللهُ مِن كِتَابٍ) يعنى : دُمْ على الإيمان بكل كتاب من الكتب المنزلة من الله ، لا تفرق بين كتاب وكتاب منها ، ولا تقل :نؤمن ببعض ونكفر ببعض وفى هذا القول تحقيق للحق ، وبيان لاتفاق الكتب فى الأصول ، وتأليف لقلوب أهل الكتابين ، وتعريض بهم حيث لم يؤمنوا بجميعها .

(وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمْ) أى : وأمرنى ربى أن أعدل بينكم فى فصل القضايا والخصومات ، وفى تبليغ الشرائع والأحكام ، فلا أخص بشيء منها شخصاً دون آخر ، وقيل : لأسوى بينى وبينكم . فلا آمركم بما لا أعمله ، ولا أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه .

(اللهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ) أى : خالقنا وخالقكم ، ومتولى أمورنا وأموركم ، لا ندين إلا به ولا نخضع إلا لأمره .

(لَنَآ أَعْمَالُنَا) لا يتخطانا جزاؤها ثواباً أو عقاباً (وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ) لا تتجاوزكم آثارها ، فنحن لانستفيد بحسناتكم أو نتضرر بسيئاتكم .(لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ) أى : لا خصومة ولا محاجّة بيننا وبينكم ؛ لأن الحق قد ظهر ولم يبق للمحاجة حاجة ، ولا للخصومة موقع أو مجال ، ولا للمخالفة محمل سوى المكابرة . (اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ) أى : الله يجمع بيننا جميعا يوم القيامة للحساب والجزاء وإليه وحده مصيرنا ومصيركم فيظهر هناك حالنا وحالكم ، ويفصل بيننا وبينكم ، ويلاقى كل واحد منا جزاءه من الثواب أوالعقاب فى هذا المصير المحتوم .

هذا ، وليس فى الآية ما يدل على متاركة الكفار رأساً حتى تكون منسوخة بآية السيف ، وبهذا يقول أبو السعود ، وهذا ـ كما ترى ـ محاجزة فى موقف المجاوبة ، لا متاركة فى موطن المحاربة حتى يصار إلى النسخ بآية القتال .

١٦ ـ (وَالَّذِينَ يُحَآجُّونَ فِي اللَّهِ مِن بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ) :

لما ذكرت الآية السابقة ظهور الحجة وانقطاع المحجة ، جاءت هذه الآية تنعى على أهل الكتاب الجدل بالباطل واللدد فى الخصومة ، قال ابن عباس ومجاهد : نزلت فى طائفة من بنى إسرائيل همت برد الناس عن الإسلام ، ومحاولة إضلالهم فقالوا : « كتابنا قبل كتابكم ، ونبينا قبل نبيكم فديننا أفضل من دينكم » وفى رواية بدل ـ فديننا ـ « فنحن أولى به ـ تعالى ـ منكم » .

والمعنى : والذين يحاجون من أهل الكتاب فى دين الله بعد أن استجاب الناس لله أو لهذا الدين ، وأذعنوا له ، ودخلوا فيه أفواجاً لظهور حجته ، ووضوح محجته ، وعدالة أحكامه ، وسلامة قواعده ـ الذين يفعلون ذلك ـ (حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ) أى : باطلة وزائلة لا تقبل عند الله ، ولا تصح فى منطق ولا عقل ، بل لا يقام لهم حجة أصلا ، لأن الحجة إنما تصح فيما يقبل فيه الرأى ويستقيم الترجيح ، والتعبير عن أباطيلهم بالحجة ـ وهى الدليل هنا ـ مجاراة لهم على زعمهم الباطل .

وقوله - تعالى - : (وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ) : بيان لما يستحقون وما يجرى عليهم فى الدنيا من الغضب الذى يتغشاهم ، والكآبة التى تعلو وجوههم فتفقدهم الطلاقة والبشر ، وبيان لما ينتظرهم فى الآخرة من العذاب البالغ الحد فى القسوة والشدة ولا يدرك تصوره فيجتمع عليهم - إلى بطلان الحجة - غضب الله ، والعذاب الشديد .

(ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ وَٱلْمِيزَانَ ۗ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٌ ﴿١٧﴾ يَسْتَعْجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا ٱلْحَقُّ ۗ أَلَآ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُمَارُونَ فِى ٱلسَّاعَةِ لَفِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴿١٨﴾ ٱللَّهُ لَطِيفٌۢ بِعِبَادِهِۦ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ ﴿١٩﴾ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْءَاخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ ۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴿٢٠﴾)

المفردات :

(الْكِتَابَ) : جنس الكتاب ، ويراد به الكتب السماوية المنزلة من الله تعالى .

(الْمِيزَانَ) : الشرع الذى يتحقق به العدل ، أو نفس العدل ، أو آلة الوزن .

(وَمَا يُدْرِيكَ) : وأى شىء يجعلك عالما دارياً ؟ .

(مُشْفِقُونَ مِنْهَا) : خائفون منها .

(يُمَارُونَ) : يجادلون ويشككون، من المرية والشك ، أو من : مريت الناقة إذا مسحت ضرعها بشدة لإدرار اللبن ، لأن كُلاًّ من المتجادلين يستخرج ما عند صاحبه بكلام فيه شدة .

(لَطِيفٌ) : بليغ البرّ .

(حَرْثَ) الحرث : كسب المال ، وجمعه : أحراث ، والحرث : البذر الذى يوضع فى الأرض لينبت ، ويطلق على الزرع الحاصل منها ، وعلى ثمرة الأعمال .

التفسير

١٧ - (اللهُ الَّذِىٓ أَنزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ) :

هذه الآيات من جملة تسفيه المشركين الذين يجادلون فى دين الله من بعد ما استجيب له ، وتمكنت دعوته ؛ ورسخت حجته ، وإمعان فى تهديدهم وتخويفهم وتحذيرهم مغبة ما يفعلون بتقرير صدق الكتب السماوية المنزلة من الله - تعالى - على أنبيائه المتمثلة فى قوله - تعالى - : (اللهُ الَّذِى أَنزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ) .

والمعنى : الله - سبحانه وتعالى - هو الذى أنزل الكتاب ملتبسا بالحق بعيدا عن الباطل فى أحكامه وأخباره ، قائما على الصدق فى كل ما جاء به من العقائد والعبادات والفضائل لا مجال فيه لجدل ، ولا سبيل إلى محاجة أو مكابرة فى شأنه .

والمراد بالميزان - والله أعلم - : الشرع الذى تحدد به الحقوق ، ويسوى به بين الناس ، أو العدل ، والمقصود بإنزاله الأمر به - وقيل : المراد خصوص آلة الوزن . والمقصود من الساعة القيامة فى قوله - تعالى - : (وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ) أى : لعل القيامة قريب ، والاستفهام للتنبيه والإعذار ، والمعنى : وأى شىء يجعلك عالما داريا بما يغيب عنك من الأمور التى من جملتها قيام الساعة ؟ إن قيام الساعة قريب وشيك الإتيان فاتبع الكتاب ، وواظب على العدل ، واعمل بالشرع قبل أن يفاجئك اليوم الذى توزن فيه الأعمال ، ويوفى جزاؤها .

١٨ - (يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ أَلَآ إِنَّ الَّذِينَ يُمَارُونَ فِى السَّاعَةِ لَفِى ضَلَالٍ بَعِيدٍ) :

قررت الآية السابقة أن القيامة على وشك الإتيان ثم جاءت هذه الآية بعدها توضح موقع الناس من أمرها ، وحقيقة إيمانهم بها ، وأبانت أنهم منها بين جاحد منكر يستعجل وقوعها سخرية واستبعادا ، وبين مؤمن مصدق بها مشفق من وقوعها مع عمله لها أو تقصيره في شأنها

والمعنى : يستعجل وقوع الساعة وينادى بحصولها المشركون المنكرون لها سخرية واستبعادا ، كانوا يقولون : متى هى ؟ ليتها قامت حتى يظهر حال ما نحن عليه ، وما عليه محمد وأصحابه . أما الذين آمنوا وصدقوا فدائمون على الخوف منها والإشفاق من وقوعها مع عملهم الصالح ، وطاعتهم المرضية استقلالا لأعمالهم واستصغارا لحسناتهم ، مع يقينهم أن حصولها هو الأمر المحقق الكائن لامحالة ، وأشدهم خوفا منها هم المؤمنون المقصرون فى العمل لها.

ولعل من حلية الأسلوب ، وجمال تنسيقه ما قاله الجلبى من أن الآية من الاحتباك ، والأصل : يستعجل بها الذين لا يؤمنون بها فلا يشفقون منها ، والذين آمنوا مشفقون منها فلا يستعجلونها ، وفى التعبير بالفعل المضارع فى الجملة الأولى ، وبالجملة الاسمية فى الجملة الثانية ما يلمح إلى تجدد القلق والاضطراب فى نفوس الذين لا يؤمنون بها وتمكن الاستقرار والاطمئنان فى قلوب المشفقين منها .

وفى قوله ـ تعالى ـ : (أَلَآ إِنَّ الَّذِينَ يُمَارُونَ فِى السَّاعَةِ لَفِى ضَلَالٍ بَعِيدٍ) تنبيه على غفلة هؤلاء المشركين ، واستعظام لإنكار الساعة ، واستقباح لمماراتهم فيها ، وتشككهم وتشكيكهم فى حصولها ، وهى أقرب الغائبات إلى المحسوسات ، وذلك مما يقتضيه العقل الراجح ، والفطنة السليمة .

١٩ ـ (اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ وَهُوَ الْقَوِىُّ الْعَزِيزُ) :

هذه الآية من كتاب الله يدق فيها الفهم بقدر ما يرق فيها اللطف ، فإن عباد الله منهم البرّ والفاجر ، وفيهم المؤمن والكافر ، وإن أرزاق الله التى تجرى على خلقه تتعدد حسا ومعنى ، ويختلف جريها على الناس سعة وضيقاً ، وإعطاء لشىء وحرمانا من آخر ، وهى فى جملتها لا تنقطع عن مخلوق ـ إنساناً ، أو حيوانا ـ قال ـ تعالى ـ : « وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِى كِتَابٍ مُّبِينٍ » (١)
ولهذا تقدم فى الآية اللطف على إجراء الرزق ، وتعقب إجراء الرزق بالقوة والعزة .

(١) سورة هود : الآية ٦

والمعنى : الله لطيف بعباده ، أى : بر بليغ البر بعباده رفيق بهم يفيض عليهم من فنون ألطافه ، وصنوف آلائه ما لا تبلغه الأفهام . قال حجة الإسلام - عليه الرحمة - : إنما يستحق هذا الاسم من يعلم دقائق المصالح وغوامضها ، وما دق منها ولطف ثم يسلك فى إيصالها إلى المستصلح سبيل الرفق دون العنف ، فإذا اجتمع الرفق فى الفعل ، واللطف فى الإدراك تم معنى اللطيف، ولا يتصور كمال ذلك إلا فى الله - تعالى - . والمقصود بالعباد جميع خلقه لإضافة العباد - وهو جمع - إلى ضميره - تعالى - فيفيد الشمول والعموم . ومعنى قوله - تعالى - : (يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ) : يجرى رزقه على من يشاء بما شاء من أنواع الرزق فيخص كلا من عباده بنوع من البر على ما تقتضيه مشيئته وحكمته ، وهو القوى القادر الذى لا يعجز ، العزيز المنيع الغالب الذى لا يقهر . والتذييل بالاسمين الجليلين مؤذن بالتعليل ، كأنه قيل : لطيف بعباده عظيم الإحسان بهم ، لأنه - تعالى - القوى الباهر القدرة الذى غلبت قدرته جميع القدر ، يرزق من يشاء ، لأنه العزيز الذى لا يغلب .

٢٠ - (مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِى الْآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ) :

أى : من كان يطلب من المكلفين بأعماله ثواب الآخرة ، ويرجو رحمة الله وحسن جزائه يوم القيامة يضاعف الله له ثوابه بالواحد عشرة أمثاله إلى سبعمائة ضعف إلى أكثر من ذلك لمن يشاء ، ومن كان يطلب بأعماله الدنيا ويجرى وراء متاعها وزخرفها لا يريد غير ذلك يؤته من ذلك حسبما قسم الله له وقدر فى الدنيا ولا حَظَّ له فى الآخرة ، وما له فيها من أجر ولا ثواب ، لأنه أفرغ همه ، وقصر جهده على طلب الدنيا ، وفى هذا التوجيه حث على إخلاص النوايا ، إذ الأعمال بالنيات ولكل امرىء ما نوى .

ولم تشر الآية إلى أن لطالب الآخرة نصيبا فى الدنيا على نحو ماذكر لطالب الدنيا للتنويه بعظم أجره فى الآخرة والاستهانة بما يناله فى الدنيا مهما عظم بجانب ثواب الآخرة .

(أَمْ لَهُمْ شُرَكَـٰٓؤُاْ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةُ ٱلْفَصْلِ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱلظَّـٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢١﴾ تَرَى ٱلظَّـٰلِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُواْ وَهُوَ وَاقِعٌۢ بِهِمْ ۗ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ فِى رَوْضَاتِ ٱلْجَنَّاتِ ۖ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴿٢٢﴾ ذَٰلِكَ ٱلَّذِى يُبَشِّرُ ٱللَّهُ عِبَادَهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ ۗ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ ۗ وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُۥ فِيهَا حُسْنًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٢٣﴾)

المفردات :

(شُرَكَآءُ) : شياطين أو أصْنَام . (شَرَعُوا) : سوّلوا وزينوا .

(مَالَمْ يَأْذَن بِهِ اللهُ) أى : مالم يأمر به كالشرك ونحوه .

(كَلِمَةُ الْفَصْلِ) : القضاء السابق بتأجيل عذابهم .

(لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ) : فصل بين المشركين والمؤمنين ، أو بين المشركين وشركائهم .

(مُشْفِقِينَ) : خائفين .

(رَوْضَاتِ الْجَنَّات) : أطيب بقاعها ، وأعلى منازلها وأنزهها . (يَقْتَرِفْ) : يكتسب .

التفسير

٢١ - (أَمْ لَهُمْ شُرَكَآءُ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ الدِّينِ مَالَمْ يَأْذَن بِهِ اللهُ وَلَوْلَا كَلِمَةُ الْفَصْلِ لَقُضِىَ بَيْنَهُم وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ) :

هذه الآية تنعى على المشركين كفرهم الذى دعاهم إلى إيثار متاع الدنيا على العمل للآخرة ، وتنكر عليهم فى أسلوب توبيخى تقريعى ما هم عليه من العقائد الفاسدة ، والإخلاد

إلى الدنيا ، وهى فى مقابلة قوله - تعالى - : (شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحاً) لتدلّ على أنهم فى شرع يخالف ما شرعه الله - تعالى - من كل وجه : حيث قابلوا إقامة الدين فى قوله - تعالى - : (أَنْ أَقِيمُواْ الدِّينَ) بالشرك ، والإشفاق من يوم القيامة باستعجال الساعة ، وطلب الآخرة بالعمل للدنيا .

والمعنى : بل ألهؤلاء الكفار والمشركين من أهل مكة شركاء من الشياطين سوّلوا لهم من الدين وسنوا ما لم يأذن ويأمر به الله - تعالى - كالشرك وإنكار البعث فاتخذوه دينا لهم ومنهجا (وَلَوْلَا كَلِمَةُ الْفَصْلِ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ) أى : ولولا أن الله قضى وحكم بتأخير العذاب فى هذه الأمة إلى أجل مسمى هو يوم القيامة لوقع العذاب فى الدنيا على الذين يكذبونك ، ولفصل الله بين المشركين والمؤمنين فهلك من هلك عن بيّنة وحىّ من حىّ عن بيّنة ، أو لفصل بين المشركين وشركائهم من الشياطين والأصنام بما يقضى به الله فيهم .

وبما أن شركاءهم من الشياطين حرضوهم على الشرك وشرعوه لهم ولم يأذن به الله ، فيكون الاستفهام الإنكارى الذى تضمنه لفظ (أم) مرادًا منه إنكار هذا الواقع وتوبيخهم عليه .

(وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ) أى : وإن لهؤلاء المشركين الذين يستوحون دينهم من شياطينهم ، لهم عذاب موجع بالغ غاية الإيلام والإيجاع فى الآخرة .

هذا ، وإسناد الشرع إلى الشركاء لأنهم سبب ضلالهم وفتنتهم كقوله - تعالى - : « إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ[1] » . وتسمية ما شرعوه دينا للتهكم والسخرية ، والتعبير بالظالمين عن ضميرهم للإشارة إلى أنهم - بشركهم - تجاوزوا حدّ الاعتدال فظلموا أنفسهم بالشرك ، وظلموا المؤمنين بمعارضتهم ، وظلموا دين الله بالافتراء عليه - وإنكار أحكامه العادلة ، ومنهجه القويم ، وإن الشرك لظلم عظيم .

٢٢ - (تَرَى الظَّالِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا وَهُوَ وَاقِعٌ بِهِمْ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ لَهُم مَّا يَشَاءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ) :

---

(١) سورة إبراهيم : من الآية ٣٦

هذه الآية كلام مستأنف يعرض مشهدا من أحوال الناس يوم القيامة ، والخطاب فيه لكل أحد يصلح لتلقّى الخطاب ، قصدا إلى المبالغة فى عرض سوء حال الظالمين ، وجمال نعيم المؤمنين .

والمعنى : ترى يا من يصح منه أن يرى . ترى الظالمين الذين كانوا متجبِّرين فى الدنيا يرفلون فى الترف والنعيم – تراهم – يوم القيامة أذلاء صاغرين مشفقين أشد الإشفاق خائفين غاية الخوف من جزاء وعذاب ما كسبوا من المعاصى واقترفوا من المظالم والمآثم وهو واقع بهم لا محالة لا ينجيهم منه خوف ولا يعفيهم إشفاق فإن يوم الجزاء لا يُنجى منه خوف ، ولا إشفاق من الكافرين الظالمين .

(وَالَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ فِى رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ) :

آمنون مستقرون فى أطيب بقاع الجنات ، وأعْلى منازلها وأنزه ملاذها دانية عليهم ظلالها ، مُذَلَّلَة قطوفها ، لهم ما يشتهون من فنون الملذات عند ربهم ، فلا ينتهى فيها نعيم ، ولا ينقصه وافر العطاء .

(ذَٰلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ) : أى ذلك الشأن الذى يعيشون ، والنعيم الذى يتنعمه أهل الجنة البالغ أعلى الدرجات فى السموّ والراحة ، هو الفضل الذى لا يقادر قدره ، ولا يبلغ أحد وصفه .

٢٣ – (ذَٰلِكَ الَّذِى يُبَشِّرُ اللهُ عِبَادَهُ الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ قُل لَّآ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِى الْقُرْبَىٰ وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْناً إِنَّ اللهَ غَفُورٌ شَكُورٌ) :

الكلام فى هذه الآية موصول بالكلام عن الفضل الكبير المذكور فى الآية قبلها .

والمعنى : ذلك الفضل المتناهى فى الكبر المتعاظم فى العلو هو الذى يبشر الله به عباده الذين أخلصوا الإيمان ، وأكثروا عمل الصالحات وداوموا عليها ، يبشرهم بذلك الفضل استعجالا لسرورهم فى الدنيا .

روى أن المشركين اجتمعوا فى مجمع لهم ، فقال بعضهم لبعض : أترون محمدا يسأل على ما يتعاطاه أجرا ؟ ، فنزل قوله – تعالى – : (قُل لَّآ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا

الْمَوَدَّةَ فِى الْقُرْبَى) :

والمعنى : قل لهم يا أيها الرسول الكريم ردًّا على ما تساءلوا به : لا أطلب منكم على ما أنا فيه من تبليغ الرسالة – وتعليم الشريعة – لا أطلب منكم نفعا ولا أبتغى عليه أجرا إلَّا أن تودوا أهل قرابتى وتحفظوا حقهم وواجبهم وليس ذلك أجرا لأن قرابتكم قرابتى فهى صلة يفرضها الدم ، وتقتضيها حق قرابتى ورحمى ، وقد ذكر الطبرى فى هذه الآية آراءً لعل من تمام الإيضاح أن نذكرها كما أشار إليها غيره من المفسرين – قال – رحمه الله – عند ذكر هذه الآية : اختلف فى معناه على أقوال :

(أحدها) : لا أسألكم على تبليغ الرسالة وتعليم الشريعة أجرا إلَّا التَّواد والتَّحاب فيما يقرب إلى الله – تعالى – من العمل الصالح – عن الحسن والجبائى وأبى مسلم : قالوا : هو التقرب إلى الله – تعالى – والتودد إليه بالطاعة .

(ثانيها) : معناه إلَّا أن تودونى فى قرابتى منكم ، وتحفظونى لها – عن ابن عباس وقتادة ومجاهد وجماعة قالوا : وكل قرشىٍّ كانت بينه وبين رسول الله ﷺ قرابة ، وهذا لقريش خاصّة ، والمعنى إن لم تودونى لأجل النبوّة فودونى لأجل القرابة التى بينى وبينكم .

(ثالثها) : أن معناها إلَّا أن تودوا قرابتى وعترتى وتحفظونى فيهم . عن ابن عباس – مرفوعاً إليه بكثير من الرواة قال : لما نزلت : (قُل لَّآ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا . . .) الآية قالوا : يا رسول الله ؛ من هؤلاء الذين أمرنا الله بمودتهم ؟ قال : علىّ ، وفاطمة ، وولدهما .

وأخرج الترمذى – وحسنه . والطبرانى . والحاكم – والبيهقى فى الشعب عن ابن عباس قال : قال – عليه الصلاة والسلام – : « أحبّوا الله – تعالى – لما يغذوكم به من نعمة ، وأحبّونى لحبّ الله – تعالى – وأحبّوا أهل بيتى لحبّى » .

وأخرج أحمد والترمذى ، وصححه ، والنسائى عن المطلب بن ربيعة قال : دخل العباس على رسول الله ﷺ فقال : إنّا لنخرج فنرى قريشاً تتحدث ، فإذا رأونا سكتوا

فغضب رسول الله ﷺ ودرّ عِرْق بين عينيه ثم قال : والله لا يدخل قلب امرىء مسلم إيمان حتى يحبّكم لله – تعالى – ولقرابتى » وهذا ظاهر إن خص القربى بالمؤمنين منهم .

(وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْناً) أى : ومن يكتسب عملا صالحا : ويصطنع طاعة خالصة من الطاعات التى من جملتها المودة فى القربى (نَزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْنًا) أى : نضاعف له فى جزاءِ هذه الحسنة بمقدار ما أحسن فيها وأضعافه بمضاعفة الثواب عليها – روى أن الآية نزلت فى أبى بكر – رضى الله عنه – لشدة محبته لأهل البيت .

(إِنَّ اللهَ غَفُورٌ) :واسع المغفرة يستر عيوب عباده ويغفر ذنوبهم إذا تابوا (شَكُورٌ) : عظيم الشكر لمن أطاعه يوفِّيه حقه من الثواب ، ويتفضل عليه بالمزيد من غير حساب .

(أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ۖ فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ ۗ وَيَمْحُ ٱللَّهُ ٱلْبَـٰطِلَ وَيُحِقُّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَـٰتِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٢٤﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَعْفُوا۟ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٢٥﴾ وَيَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ ۚ وَٱلْكَـٰفِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿٢٦﴾)

المفـردات :

(افْتَرَىٰ) : اختلق .

(يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ) : يطمس عليه وينسيه فلا يعى .

(يَمْحُ) : يزيل .

(ذَاتِ الصُّدُورِ) : حقائقها ودخائلها .

(التَّوْبَةَ) : الرجوع عن المعاصى بالندم عليها ، والعزم على تركها أبدا .

التفسير

٢٤ - (أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَىٰ عَلَى اللهِ كَذِباً فَإِن يَشَإِ اللهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ وَيَمْحُ اللهُ الْبَاطِلَ وَيُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ) :

الاستفهام المفهوم من لفظ (أم) لتوبيخهم على مقالتهم .

والمعنى : أيجترىء هؤلاء السفهاء ، وتطاوعهم ألسنتهم بنسبة مثله - عليه الصلاة والسلام - إلى الافتراء والكذب والاختلاق وهو من هو الذى لم يعرف عنه فى جاهلية ولا فى إسلام أنه ألمّ بكذبة قط ، ثم كيف يستقيم افتراؤه على الله والإفتراء على الله -عزّ وجلّ- أقبح الفرى وأفحشها ، وما عرف عنه ﷺ كذب على أحد مطلقاً مشرك أو مؤمن ، فالافتراء منه ﷺ مستبعد ، وعلى الله مستحيل وقوله - تعالى - : (فَإِن يَشَإِ اللهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ) استبعاد للافتراء عن مثله ، أى فإن يشأ الله يجعلك من المختوم على قلوبهم حتى تفترىَ عليه الكذب ، فإنه لا يفترى الكذب على الله إلّا من كان فى مثل حالهم مختوماً على قلبه . والأمر لم يكن على ذلك فقد تواتر الوحى ، وتكامل إنزال القرآن حتى أكمل الله دينه وأتم نعمته .

(وَيَمْحُ[1] اللهُ الْبَاطِلَ وَيُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ) :كلام مستأنف غير معطوف على يختم مقرر لنفى الافتراء عنه ﷺ ، مسوق لبيان شأن من شئون الله - تعالى - وتقرير سننه بمحو الباطل

---

(١) وسقوط الواو من كلمة (يمح) ليس للعطف على (يختم) بل لمجرد التخفيف ، كما حذفت فى قوله - تعالى - : « ويدع الإنسان بالشر دعاءه بالخير » .

وإزهاقه ، وتأكيد الحق وإحقاقه كما ينطق بذلك قوله – تعالى : « بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ »[١] .

والمعنى : ومن سنن الله – تعالى – أنه يمحو الباطل بقدرته وحكمته ، ويثبت الحق ويحققه ببرهانه وآياته .

ويجوز أن يكون الكلام مسوقا مسوق الوعد والبشارة للرسول ﷺ بأنه – تعالى – يمحو الباطل من البهتان والتكذيب ، ويثبت الحق الذى هو عليه بالقرآن أو بقضائه الذى لا مردّ له بنصرته عليهم .

(إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ) أى : إنه مطلع على دخائل القلوب بصير بحقائقها ، لا تخفى عليه خافية من أمورها ثم يجرى عليها أحكامه المناسبة لأحوالها .

٢٥ ، ٢٦ – (وَهُوَ الَّذِى يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُوا عَنِ السَّيِّئَاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ * وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِ وَالْكَافِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ) :

لوّحت الآيات السابقة بالوعيد لمن غوى وضل سبيل الهدى واتبع الهوى فابتدع شرعاً لم يأذن به الله أو ادعى افتراء على الله ، وجاءت هذه الآيات تهبّ بنسائم الرحمة وتفتح مغاليق الخير والبرّ ، حتى لا ييئس عاص من رحمة الله ، ولا ينقطع طمع مذنب من رجاء الله ، فقال – تعالى – : (وَهُوَ الَّذِى يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ . . .) الآية :

والمعنى : وهو الله – تعالى – الذى يتفضل بواسع فضله ووافر برّه ورحمته بقبول التوبة عن عباده يتجاوز عما تابوا عنه وأقلعوا عن فعله فى ندم وحسرة ، فإن التوبة الصادقة هى الرجوع عن المعاصى والندم عليها ، والعزم على عدم معاودتها أبدا ، روى جابر – رضى الله عنه – أن أعرابيا دخل مسجد رسول الله ﷺ وقال : اللهم إنى أستغفرك وأتوب إليك ، وكبر فلما فرغ من صلاته قال له على – رضى الله عنه – : « يا هذا ، إن سرعة اللسان

---

(١) سورة الأنبياء من الآية ١٨

بالاستغفار توبة الكذّابين ، وتوبتك هذه تحتاج إلى توبة ، فقال : يا أمير المؤمنين ، وما التوبة ؟ قال : اسم يقع على ستة معان : على الماضي من الذنوب الندامة ، ولتضييع الفرائض الإعادة ، وردّ المظالم ، وإذابة النفس فى الطاعة كما ربيتها فى المعصية ، وإذاقتها مرارة الطاعة كما أذقتها حلاوة المعصية ، والبكاءُ بدل كل ضحك ضَحِكته .

(وَيَعْفُواْ عَنِ السَّيِّئَاتِ) أى : يتجاوز عن جميع السيئات الكبائر والصغائر ، وقيل : يعفو عن الكبائر ، وعن الصغائر باجتناب الكبائر (وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ) أى : ويعلم كل ما تفعلونه كائنا ما كان ، سرا أو جهرا كبيرا أو صغيرا خيرا أو شرا فيجازى بما شاء ويتجاوز عما يشاءُ حسبما تقتضيه مشيئته المبنية على الحكمة .

(وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ) : يختص الله — تعالى — فى هذه الآية الذين آمنوا وعملوا الصالحات بمزيد من الفضل تقديرا لأعمالهم ، وبعثا لهممهم ، واستجلابا لغيرهم فى استباق الخيرات ، والمبادرة إلى الصلوات ، والكلام فى قوله — تعالى — : (وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ آمَنُواْ) على حذف اللام ، أى : يستجيب لهم كما فى قوله — تعالى — : « وَإِذَا كَالُوهُمْ »[1] أى : كالوا لهم .

والمعنى : ويستجيب الله للذين آمنوا وعملوا الصالحات دعاءهم ويثبتهم على طاعتهم ويزيدهم على الثواب تفضلا ، فإن الطاعة لما يترتب عليها من الثواب شابهت الدعاء والطلب ، وشابهت الإثابةُ والجزاءُ عليها الإجابة .

وجعلوا من ذلك قوله ﷺ : « أفضلُ الدعاءِ الحمدُ » ، وسئل سفيان عن قوله — عليه الصلاة والسلام — فى الحديث : « أكبرُ دعائى ودعاءِ الأنبياء قَبْلى لا إلهَ إلا الله وحدَه لاشريكَ له ، له الملكُ ولهُ الحمدُ ، وهوَ على كلِّ شىءٍ قديرٌ » فقال : هذا قوله — تعالى — فى الحديث القدسى : « مَنْ شَغلهُ ذِكْرى عن مسألتى أعطيتُه أفضلَ ما أُعطِى السائلين » وقيل الاستجابة فعلهم أى : يستجيبون لله بالطاعة إذا دعاهم إليها ، وعن إبراهيم بن أدهم — لما قيل له : ما بالُنا ندعُو فلا نُجَاب ؟ قال : لأنه دعاكم فلم تُجيبوه ، ثم قرأ « وَاللَّهُ يَدْعُوٓاْ إِلَى دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ »[2] .

---

(١) سورة المطففين من الآية ٣

(٢) سورة يونس ، الآية : ٢٥

ومعنى (وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِ) : يضاعف لهم أجرهم ويزيد ثوابهم على ما استحقوا من الثواب بموجب الوعد والعدل، وذلك من واسع فضله ووافر عطائه وكرمه، وإذا كان للذين آمنوا وعملوا الصالحات ثواب أعمالهم ومضاعفة أجورهم فضلا من الله - تعالى - فإن الكافرين الذين عاشوا حياتهم في الكفر والمعاصى لهم فى الآخرة - جزاء كفرهم وعصيانهم - عذاب بالغ الحد فى المهانة والشدة والتهديد . مقابل ما للمؤمنين من الثواب والفضل المزيد .

* (وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرٌۢ بَصِيرٌ ﴿٢٧﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُوا۟ وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ ۚ وَهُوَ ٱلْوَلِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٨﴾)

المفـردات :

(بَسَطَ) : وَسَّع وكَثَّر .

(لَبَغَوْا۟) : لَطَغَوْا وتَكَبَّرُوا .

(بِقَدَرٍ) : بتقدير حكيم .

(الْغَيْثَ) : المطر النّافع الذي يُغيث النّاس بعد الجدب .

(قَنَطُوا۟) : يئِسوا من نزوله .

(وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُ) : يبسطها ويُعمّها .

التفسـير

٢٧ - (وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَاءُ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ) :

فيما سبق من الآيات يمتنّ الله على عباده بقبول توبتهم إذا تابوا ورجعوا إليه ، فيعفو ويصفح ، ويستر ويغفر ، وبأنه يُجيب دُعَاءَ المُؤْمنين إلى ما طلبوا ويزيدهم خيرا ، وفى هذه الآية

يمنّ عليهم أيضاً ـ سبحانه وتعالى ـ بأنّه مُحيط علما بما خفى وظهر من أمورهم ، فيقدِّر بحكمته لكلٍّ ما يصلحُ شأْنه فيقول : (وَلَوْ بَسَطَ اللهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْاْ فِى الْأَرْضِ ...) الآية .

سبب النزول :

قيل :نزلت هذه الآية فى قوم من أهل الصُّفة تَمنُّوا سَعَةَ الرِّزق والغنى ، قال خبّاب بن الأرت : فينا نزلت ، وذلك أنّنا نظرنا إلى أموال بنى قُرَيْظة وبنى النَّضير وبنى قَيْنقَاع فتمنيناها فنزلت . (ذكره الزّمخشرى والآلوسى) .

والمعنى : ولو وسع الله الرِّزق على جميع عباده ، وكَثَّره عندهم وأعطاهم فوق حاجتهم لطغوا وظلموا ، وتكبَّروا فى الأرض ، وفعلوا مايستتبعه الكبر من العلوّ والفساد « فإنّ الغنى مبطرة مأْشرة » وكفى بحال قارون عبرة[1] وفى الحديث : « أَخْوَفُ ما أَخافُ على أمتى زهرة الدُّنيا وكثرتُها » .

ولكن يُنَزِّل اللهُ الرِّزق بتقدير مُحكم ، فيُوسّعه على من يشاء ، ويُضيِّقه على من يشاء تبعا لما اقتضته حكمته وفى الحديث : « إنّ مِنْ عبادى من لا يُصْلحه إلا الغِنَى ولو أفقرتُه لأفسدتُ عليه دينَهُ ، وإنّ مِن عبادى من لا يُصْلحه إلَّا الفقر ولو أغنيتُهُ لأفسدتُ عليه دِينَهُ » .

وهو ـ سبحانه ـ محيط علما بما خفى وظهر من أمور النّاس ، يعلم ماتصير إليه أحوالهم فيقدر بحكمته لكلٍّ ما يُصْلح شأْنه ، ولو أغناهم جميعاً لبغوا ، ولو أفقرهم جميعاً لهلكوا ولله درّ الغزالىّ حيث يقول : « ليس فى الإمكان أبدع ممّا كان » .

وقد يبْغِى الفَقِيرُ ولكن ذلك قليل ، والْبغْى مع الغنى أكثر وقوعاً .

٢٨ـ (وَهُوَ الَّذِى يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِن بَعْدِ مَا قَنَطُواْ وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُ وَهُوَ الْوَلِىُّ الْحَمِيدُ) :

ومن نعم الله وآلائه على عباده أنه هو الذى ينزل المطر فى وقت حاجتهم وفقرهم إليه فيغيثهم به بعد يأس من نزوله ، وينشر رحمة الغيث بتكثير منافعه وآثاره فى كل شىء ، وفى كلِّ مكان فى السَّهل والجبل والنَّباتِ والحيوان ـ أو يعم الكائنات برحمته الواسعة المشتملة على ما ذكر من المطر وغيره ، وهو وحده ـ الذى يتولى أمور عباده بالإحسان ونشر الرحمة ، (الْحَمِيدُ) : الْمُسْتَحِق للحمد على ذلك ـ لا غيره ـ

(١) أى موقع فى الأشر وهو البطر .

ذكر ابن كثير ، والزمخشرى : أن رجلا قال لعمر بن الخطاب : اشتدّ القحط وقنط الناس فقال عمر: مُطِرتم[1] ثم قرأ (وَهُوَ الَّذِى يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِن بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُ) .

(وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٍ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾ وَمَآ أَصَـٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ ﴿٣٠﴾ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٣١﴾)

المفردات :

(وَمَا بَثَّ فِيهِمَا) : وما فرّق ونشر فيهما .

(دَابَّةٍ) : هى كل ما يدبّ[2] على الأرض من إنسان وغيره .

(جَمْعِهِمْ) : حشرهم بعد البعث للمُحاسبة .

(مِن مُصِيبَةٍ) : من بليّة وشدّة .

(فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ) : فبما ارتكبتم من الآثام .

(وَمَآ أَنتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِى الْأَرْضِ) : وما أنتم بجاعلين الله عاجزا عن عقابكم فى الأرض.

التفسير

٢٩ ـ (وَمِنْ ءَايَـٰتِهِ خَلْقُ السَّمَـٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٍ وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ) :

بعد أن ذكر الله آلاءه ونعمه على عباده ذكر ـ سبحانه ـ مظاهر قدرته ودلائل عظمته وقوّته فقال :

(وَمِنْ آيَـٰتِهِ خَلْقُ السَّمَـٰوَاتِ وَالْأَرْضِ. . .) إلخ أى : ومن آياته الدالة على عظمته وقدرته وسلطانه القاهر خلق السموات والأرض على ما هما عليه من الصنع البديع ، والنظام

(١) يعنى : جاء أوان إمطاركم بعدما قنطتم .   (٢) أى : يمشى ويسير .

المُتقن ، فإنهما بذاتهما وصفاتهما العجيبة تدلان على قدرته وعظمته وبديع صنعه ، وَمَنْ له أدنى عقل وإنصاف يجزم باستحالة صدورهما من الطبيعة التى لاعقل لها ولا إرادة ومن آياته - أيضاً - خَلْقُ ما نشر وفرّق فى السموات والأرض من دابة وهى تشمل الملائكة والجن والإنس وسائر الحيوانات على اختلاف أشكالها وألوانها ولغاتها وطباعها وأجناسها وأنواعها ، وقد فرّقهم فى أرجاء السّموات ، ونشرهم فى أنحاء الأرض ، وهو - مع هذا - على جَمْعِهم وحشرهم بعد البعث للمحاسبة - إذا يشاء - تَامٌّ القدرة كاملها .

وظاهر الآية : وجود الدّابة فى السّموات والأرض وبه قال مجاهد وفسّر الدابة بالنّاس والملائكة .

ويرى الزّمخشرىّ : أنّ مافى أحد الشيئين يصدق أنّه فيهما على الجملة فالآية على أسلوب « يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ »[1] وإنّما يخرجان من الملح .

ويجوزأن يكون للملائكة مشى مع الطّيران فَيُوصَفُوا بالدّبيبِ كما يُوصف به الأناسى ، ولايبعد أن يخلق الله فى السّموات حيوانا يمشى فيها مشى الأناسىّ على الأرض ، وسبحان الّذى خلق ما نعلم ومالا نعلم من أصناف الخلق . (انتهى كلام الزمخشرى ملخصًا) .
وصدق الله العظيم حيث يقول : «وَيَخْلُقُ مَالَا تَعْلَمُونَ »[2] .

٣٠ - (وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُم وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ) :

أى : وما أصابكم ونالكم - أيها النّاس - مِن مصيبة مِن مصائب الدنيا أو مكروه من مَكَارِهِها كالمرض والفقر والضّيق وسائر النّكبات فبسبب معاصيكم وما ارتكبتم من مُوبقات ، واجترحتم من سيّئات فى الدنيا ، ويعفو الله - سبحانه - عن كثير من الذنوب فلا يُعاقِب عليها بمصيبة عاجلا أو آجلا ، ويجوز أن يكون المراد : ويعفو عن كثير من النّاس فلا يعاقبهم ، والظّاهر : المعنى الأوّل وهو الذى تشهد له الأخبار .

---

(١) سورة الرحمن : الآية (٢٢) .
(٢) سورة النحل من الآية (٨) .

فقد روى الترمذىّ عن أبى موسى أنَّ رسول الله ﷺ قال : « لا يُصيب عبدًا نَكْبةٌ فما فَوْقَها أو دُونَها إلا بذنب ، وما يَعْفُو اللهُ - تعالى - عنه أكثر ، وقرأ : (وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ)[1] ومن لاذنب له كالأنبياء - عليهم السّلام - قد تصيبهم مصائب ، ففى الحديث «أشدُّ النّاسِ بلاءً الأنبياءُ ثم الأَمثلُ فالأَمثلُ » ويكون ذلك لرفع درجاتهم ، أو لحكم أُخرى يعلمها الله ثُمّ إنَّ المصائب قد تكون عقوبة على الذّنب وجزاء عليه بحيث لا يعاقب عليه فى الآخرة إذا تقبل العقوبة بنفس راضية ، وعلى ذلك يحمل ما رُوى عن علىّ - كرم الله وجهه - وقد رفعه إلى رسول الله ﷺ : « مَن عُفِىَ عنهُ فى الدُّنيا عُفِىَ عنه فى الآخِرة ، ومن عُوقِب فى الدّنيا لم تُثَنّ عليه العقوبةُ فى الآخرة » وعنه - أيضاً - كرّم اللهّ وجهه : هذه أرجى آية للمؤمنين فى القرآن

٣١- (وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِى الْأَرْضِ وَمَالَكُم مِّن دُونِ اللهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ) :
أى : ولستم بقادرين على أَنْ تجعلوا الله عاجزا عن إنزال المصائب بكم فى الدُّنيا عقابا لكم على ما كسبت أَيديكم وإن هربتم فى أقطار الأَرض كلّ مَهْرَب ، ومالكم من دونه من مُتولٍّ بالرّحمة يرحمكم إذا أَصابتكم المصائب ، ولا نصير ينصركم ويدفع عنكم عذابه إذا وقع بكم .

(وَمِنْ ءَايَـٰتِهِ ٱلْجَوَارِ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَـٰمِ ﴿٣٢﴾ إِن يَشَأْ يُسْكِنِ ٱلرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِۦٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَـٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣٣﴾ أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُواْ وَيَعْفُ عَن كَثِيرٍ ﴿٣٤﴾ وَيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ يُجَـٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَـٰتِنَا مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ ﴿٣٥﴾)

(١) سنن الترمذى : كتاب التفسير - سورة الشورى - ج ٥ / ٣٧٧ رقم ٣٢٥٢ ط / الحلبى وقال : هذا حديث غريب لانعرفه إلا من هذا الوجه .

المفـردات :

(الْجَوَارِ): جمع جارية وهى السُّفن .

(كَالْأَعْلَامِ) : كالجبال أو كالقصور العالية .

(فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ) : فَيَصِرْنَ ثوابت سواكن لا تتحرك .

(أَوْ يُوبِقْهُنَّ) : أو يُهلكهنّ بالغرق .

(مَالَهُم مِّن مَّحِيصٍ) : ما لهم مِن مَهْرب ولا مَخْلص من العذاب .

التفسير

٣٢ – (وَمِنْ ءَايَٰتِهِ الْجَوَارِ فِى الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ) :

أى : ومن آيات الله ودلالته الدّالة على قدرته الباهرة وسلطانه القاهر- السُّفن الجارية فى البحر ،كالجبال الشّاهقة فى عظمها ، سخرها الله – تعالى – فى البحر بأمره لخدمة الإنسان وقضاء مصالحه ، وأجْرَاها بقُدرته ليسهل انتقال الناس من مكان إلى آخر ، فتروج التِّجارة ، وتَرْتقِى الصِّناعة ، ويتبادل النّاس المنافع ، وتزدهر العلوم والمعارف .

٣٣ – (إن يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ) أى : إن يشأ الله يُسكن الرِّيح ويمنع حركتها فتظل السُّفن ثوابت على ظهر الماء لاتتحرّك ولا تجرى بالنّاس إلى مقاصدهم وقضاء مآربهم .

إنّ فى ذلك الذى ذُكر من السّفن المسخّرة فى البحر تحت أمره وحسب مشيئته وسيرها ووقوفها بأمره – إن فى ذلك – لدلالات عظيمة واضحة على قدرة الله ليعتبر بها المؤمنون الصّابرون فى الضّراء ، الشّاكرون فى السّراء ،لأنّ الإيمان نصفه صبر ونصفه شكر .

٣٤ – (أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا۟ وَيَعْفُ عَن كَثِيرٍ) :

(أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا۟) معطوف على (يُسْكِن) فى الآية السابقة .

لأنّ المعنى : إن يشأ الله يبتلِ المسافرين فى البحر بإحدى بليّتين : إمّا أن يُسْكن الرِّيح فتبقى السفن على متن البحر ويمتنعنَ من الجرى ، وإمّا أن يُرْســل الرِّيح عاصفة فتهلك أهلها إغراقا بسبب ما كسب أهلها من الذّنوب ، ويعف عن كثير فلا يُعاقبهم بما سبق « كشاف بتصرف » وقال بعض علماء التفسير فى قوله ـ تعالى ـ :
(أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُواْ) :

إنّ المعنى : وإنْ يشأ اللهُ يُرسل الريح قَوِيّة عاتية فتأْخذ السّفن وتُميلها عن سيرها المستقيم وتُصرفها ذات اليمين وذات الشمال آبقة لا تسير على طريق ولا إلى جُهة ، فيهلك من فيها إغراقاً بسبب ما كسبوا من الذّنوب ، وهكذا لو شاء الله لسكّن الريح فوقفت السفن ، أو أثارها وأهاجها فشردت السفن وأبِقت وأهلكت مَنْ فيها ولكن من لطفه ورحمته أن يرسل الرّياح بحسب الحاجة كما يرسل المطر بقدر الكفاية . (ابن كثير بتصرف) .

وهو قريب مما قاله صاحب الكشاف .

٣٥ ـ (وَيَعْلَمَ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِى ءَايَـٰتِنَا مَالَهُم مِّن مَّحِيصٍ) :

المعنى: إن يشأ الله إمساك الريح أو إرسالها عاصفة ، فيهلك من فى السفن لينتقم من العصاة وليعتبر المؤْمنون ويعلم الذين يجادلون فى آيات الله بالباطل ويُشَكِّكون النّاس فيها أنّهم فى قبضته مقهورون برُبُوبيّته ، ما لهم من مَهْرب من عذابه ، ولا مَحِيد لهم عن عقابه ، ولا مَخْلَص لهم من بأْسه ، ولا مَلْجَأُ لهم من بطشه .

(فَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٣٦﴾ وَٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا۟ هُمْ يَغْفِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلْبَغْىُ هُمْ يَنتَصِرُونَ ﴿٣٩﴾).

المفـردات :

(فَمَا أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ) : فما أعطيتم مِنْ أثاث الدُّنيا وزينتها .

(فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا) : يُتَمتَّع به فيها ثم يزول .

(وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ) : وعلى الله وحده يعتمدون .

(كَبَائِرَ الْإِثْمِ) : أى الفواحش وكبائر الذنوب وقُرِئ كبير الإثم وعن ابن عبّاس هو الشِّرك .

(الْفَوَاحِشَ) : ما عَظُم قُبْحهُ من الذّنوب كالزِّنى .

(اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ) : أجَابُوهُ إلَىٰ مَا دَعَاهُمْ إليْهِ مِن التوحيد والعبادة .

(وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ) : شأْنُهم التّشاور ومراجعة الآراء فى أمورهم .

(الْبَغْيُ) : الظُّلم والعدوان .

(يَنتَصِرُونَ) : يَنْتَقِمُون بمثل ما عُوقِبُوا بِه .

التفسير

٣٦ـ (فَمَا أُوتِيتُم مِّن شَىْءٍ فَمَتَٰعُ الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَمَا عِندَ اللهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ لِلَّذِينَ آمَنُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ) :

عن على - كرّم الله وجهه - أنّه قال : اجتمع لأبى بكر - رضى الله عنه - مالٌ فتصدق به كلّه فى سبيل الله فَلاَمَهُ المُسلمون وخَطَّأَه الكافرون فنزلت .

والمعنى : يقول الله - تعالى - مُحَقِّرا شأن الدُّنيا وزينتها وما فيها من المتاع والنّعيم (فَمَا أُوتِيتُم مِّن شَىْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا . . .) إلخ ، أى : وما أُعطيتم ونلتم من زخارف الدُّنيا ، وجمعتم من أموال ، ورزقتم من بنين فلا تغتروا به ، فإنما هو متاع الحياة الدّنيا ، وهى دار فانية ومتاع زائل .

وما عند الله من ثواب الآخرة ونعيمها خير فى ذاته لخلوص نفعه ، وأبقى زمانا ، حيث لا يزول ويَفْنَى ، وقد أعدّه الله - سبحانه - للّذين آمنوا وصبروا على ترك اللّذات فى الدُّنيا ، وعلى خالقهم ومربيهم - لا على غيره - يعتمدون فى كُلِّ الأُمور ليعينهم على الصبر فى أداء الواجبات وترك المحذورات .

٣٧ـ (وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَٰحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُواْ هُمْ يَغْفِرُونَ) :

(وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ ...) إلخ عطف على (الَّذِينَ آمَنُواْ) فى الآية السابقة ، وكذلك ما بعده من الآيات والمعنى : ومن صفات المؤمنين أنّهم الذين يبتعدون عن كبائر ما نهى الله عنه كالشِّرك وعن كل ما عَظُمَ قُبْحه وفَحُشَ أمره كالزِّنى ، وإذا ما تعرض لهم أحد بالإساءة إليهم فى الدُّنيا كانت سجيّتهم الصَّفح وسَليقتُهم الغفران والعفو .

والتعبير بقوله - تعالى - : (هُمْ يَغْفِرُونَ) إشارة إلى أنّهم المختصون بالغفران فى حال الغضب ، لا يُذْهِب الغَضَبُ أخلاقهم ، وقد ثبت فى الصّحيح أنّ رسول الله ﷺ « ما انتقم لنفسه قط إلّا أن تُنْتَهكَ حُرماتُ اللهِ » .

٣٨ـ (وَالَّذِينَ اسْتَجَابُواْ لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُواْ الصَّلَوٰةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ) :

سبب النزول :

قيل : نزلت فى الأنصار دعاهم الله ـ تعالى ـ على لسان رسوله ﷺ للإيمان به وطاعته ـ سبحانه ـ فاستجابوا له فأثنى عليهم ـ جلّ وعلا ـ بما أثنى هنا .

والمعنى : والَّذين أجابوا دعوة خالقهم ومُرَبِّيهم إلى ما دعاهم إليه من التَّوحيد والعبادة وأجابوا رسله ، واتّبعوا أمره ، وخافوا زجره ، وأقاموا الصّلاة بالمواظبة عليها والإتيان بها كاملة ، والاحتفاء بها ، وكان شأنهم التَّشَاوُر فى شئونهم ، ولا يُبرمون أمرا حتى يتدارسوا طلبا للعدل ، وابتغاء الوصول إلى الحقّ ، فلا ينفرد أحدهم برأى ، ولا يستبدّ بهم فرد أو قِلَّة من النّاس ، ومما رزقهم الله وأنعم به عليهم يُنفقون ويبذلون فى وجوه الخير المتعدّدة وفى الآية حث على الشورى ، أخرج عبد بن حميد والبخارى فى الأدب وابن المنذر عن الحسن قال : «ما تَشَاور قوم قطّ إلَّا هُدُوا لأَرْشد أمرهم : ثم تلا (وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ) ولقد كانت الشورى بين النبى وأصحابه فيما يتعلق بمصالح الحروب ، وكذلك بين الصّحابة ، وكانت ـ أيضاً ـ بينهم فى الأحكام كقتال أهل الرِّدة ، وميراث الجدّ ، وعدد حدّ الخمر وغير ذلك ، والمراد بالأحكام : ما لم يرد فيه نصّ شرعى ، وإلّا فالشورى لا معنى لها مع النص ، وكيف يليق بالمسلم العدول عن حكم الله ـ عزّ وجلّ ـ إلى آراء الرِّجال ، والله ـ سبحانه ـ هو العليم الخبير ، ويُؤيد ما قُلنَاهُ ما أخرجه الخطيب عن علىّ ـ كرّم الله وجهه ـ قال : « قلْتُ يا رسولَ اللهِ : الأمرُ ينزلُ بِنا بعدَك لم يَنزِلْ فيه قرآنٌ ولم يُسْمَعْ مِنكَ فيه شىءٌ قال : اجمَعُوا العابِدَ مِنْ أُمّتى واجعلوه بينَكُم شُورَى ولا تقضوهُ بِرأى واحِد » .

وينبغى أن يكون المُستشار عاقلا عابدا ـ أخرج الخطيب عن أبى هريرة مرفوعا « اسْتَرشِدُوا العاقلَ تُرْشَدُوا ، ولا تَعْصوهُ فَتَنْدَمُوا » .

هذه صورة الإسلام المشرقة ، وتلك تعاليمه الخالدة ، يجعل من أوصاف المؤمنين وأخلاقهم التَّشاور فى الأمر وجمع الرأى إلى الرأى .

٣٩ ـ (وَالَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ الْبَغْىُ هُمْ يَنتَصِرُونَ) :

المعنى : ومن جملة أوصافهم أنهم الذين يغضبون إذا بغى عليهم أحد ، وينتقمون ممن اعتدى عليهم وظلمهم ، ويقتصرون فى الانتصار على ما جعل الله

لهم ولا يعتدون ، ومعنى القصر المفهوم من قوله تعالى :(هُمْ يَنتَصِرُونَ) أنّهم هم الذين لا يتجاوزون الحد فى أخذ حقوقهم ،وغيرهم يعدو ويتجاوز ، وهذا لا ينافى أنهم يعفون ويصفحون فلكل محله ومجاله

فالعفو عن العاجز المعترف بجرمه وذنبه محمود ، ولفظ المغفرة مشعر به ، كما أن الانتصار من المُخاصم المُصِرّ المعاند محمود ، ولفظ الانتصار مشعر به ولو جاء أحدهما موضع الآخر لكان مذموما كما يشير إلى ذلك قول الشاعر

إذا أنت أكرمت الكريم ملكته وإنْ أنت أكرمت اللّئيم تمرّدا

فوضع النّدى فى موضع السّيف بالعلا ∴ مُضِرّ كوضع السّيف فى موضع النّدى

وعن النّخعى أنّه كان إذا قرأ هذه الآية قال: كانوا يكرهون أن يُذِلُّوا أنفسهم فيجترىء عليهم الفساق .

(وَجَزَٰٓؤُا۟ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ۖ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾ وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ ﴿٤١﴾ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظْلِمُونَ ٱلنَّاسَ وَيَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٢﴾ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿٤٣﴾)

المفـردات :

(سَيِّئَة) : الخطيئة والذنب

(سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا) . سُمّيت مُقَابلة السيّئة سّيئة لمشابهتها لها فى الصورة ، وقال الزمخشرى : لأنها تسوء مَن تنزل به .

(عَفَا) : صفح عمن أساء إليه .

(وَأَصْلَحَ) أى : وأصلح بينه وبين مَن يُعَاديه بالعفو والإغضاء .

(فَأَجْرُهُ عَلَى اللهِ) : فثوابه على الله .

(لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ) : يكره ويبغض المعتدين .

(وَلَمَنِ انتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ) : ولَمَنْ عَاقَبَ بمثل ما عُوقِب به .

(سَبِيلٍ) : مؤاخذة ولوم وحرج .

(وَلَمَن صَبَرَ) : سكت وحبس نفسه عن الانتصار لنفسه .

(وَغَفَرَ) : تجاوز عن ظالمه .

(لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ) أى : لمن الأمور الجادة المطلوبة شرعاً .

التفسير

٤٠ - (وَجَزَآءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ) :

المعنى : شرع الله الانتصار من الظالم بأخذ الحق منه ومقابلة السيئة بمثلها من غير زيادة ، وندب إلى الفضل وهو العفو والإصلاح ، وهذا أسمى مما وصلت إليه البشرية قديما وحديثا من تقنين وتشريع ، فقد شرع القصاص ؛ لأن الطبيعة البشرية تميل إلى أن يأخذ الإنسان حقَّه لنفسه وينتقم ممن يعتدى عليه ، وبخاصة مع النفوس المريضة التى لا يُقَوِّمها ويُصْلح شأنها إلا رَدْعُها والانتقام منها . ولكنه معهذا ندب ودعا إلى الفضل وهو العفو والإحسان ، ليرتقى بالبشرية إلى أعظم درجاتها ، وليرتفع بها إلى الذروة فى السماحة والمروءة ، وفى قوله - تعالى - : (فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللهِ) بيان لفضيلة العفو والتسامح لأن الفاعل لذلك لن يضيع حقه ولن يذهب أجره وفضله ، بل أجره على الله ، وناهيك بمن كان أجره على الله .

وعن النبى ﷺ « إذا كان يوم القيامةِ نادَى منادٍ : مَنْ كانَ له على اللهِ أجْرٌ فَلْيَقُم : قال : فيقُوم خَلْقٌ فَيُقالُ لهم : ما أَجْرُكُم على اللهِ ؟ ، فيقولون : نحن الذين عَفَوْنا عَمَّنْ ظَلَمَنا : فَيُقال لهم : ادْخلوا الجنّة بإذنِ اللهِ » الكشاف .

ومعنى قوله تعالى : (إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ) أنه يمقت ويبغض البادئين بالظلم ، والذين تجاوزوا الحد فى الانتقام وفيه إشارة إلى أن الانتصار مظنة التجاوز وعدم الاعتدال عند أخذ الحق وبخاصة فى حالة الغضب والتهاب الحمية فربما يجاوز المنتصر لنفسه حقه وهو لا يشعر وفى ذلك حَثٌّ على العفو والصفح .

٤١ ـ (وَلَمَنِ انتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُوْلَـٰئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ) :

المعنى : ولَمَنْ عاقبوا المُعتدين بمثل ما اعتدوا به عليهم دون زيادة فهؤُلاءِ ما عليهم من لوم ولا مُؤاخذة ولا جُناح .

٤٢ ـ (إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِى الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُوْلَـٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ) :

فى هذه الآية تعيين لمن عليهم السبيل بعد نفيه عن المنتصرين بعد ظلمهم، والمعنى : إنما الحرج واللّوم على الّذين يبدءُون الناس بالظلم أو يزيدون فى الانتقام ويتجاوزون حقهم ويتكبرون فى الأرض بغير الحق ، فهؤُلاء لهم عذاب مُوجع شديد الإيلام .

٤٣ ـ (وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ) :

المعنى: وأقسم لَمَن صبر على الظُّلم والأذى وغفر ولم ينتصر لنفسه وتجاوز عن ظالمه وفوّض أمره إلى الله إنّ ذلك المذكور من الصبر والمغفرة لمن عزم الأُمور أى لمن الأُمور الجادة العظيمة التى ينبغى للعاقل أن يُوجبها على نفسه ويلتزم بها ،لأنها مطلوبة شرعا وهى من الصّفات الحميدة التى رغّب الشّارع فيها وأجزل لصاحبها العطاء ، روى أحمد عن أبى هريرة قال : « إنّ رجلا شتم أبا بكر ـ رضى الله عنه ـ والنبى ﷺ جالس فجعل النبى يعجب ويبتسم فلما أكثر ردّ عليه بعض قوله ، فقام النبى ﷺ ، فلحقه أبو بكر ، فقال يا رسول الله : إنّه كان يَشتُمُنى وأنتَ جالس ، فلما رَدَدْتُ عليه بعضَ قولِه غَضِبتَ وقمْتَ قال : إنهُ كان معكَ مَلَكٌ يردُّ عَنكَ فلمَّا رَدَدْتَ عليهِ بعضَ قولِه حضَرَ الشيطانُ فلمْ أكن لأقْعُدَ مع الشّيطان »

(وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن وَلِيٍّ مِّنۢ بَعْدِهِۦ ۗ وَتَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ ﴿٤٤﴾ وَتَرَىٰهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ ۗ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَآ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ فِى عَذَابٍ مُّقِيمٍ ﴿٤٥﴾ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنْ أَوْلِيَآءَ يَنصُرُونَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن سَبِيلٍ ﴿٤٦﴾)

المفردات :

(وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ) : ومَنْ يَخذُلْه اللهُ لأنَّه ضَلَّ الطَّريق لسوء اختياره .

(فَمَا لَهُ مِن وَلِيٍّ مِّن بَعْدِهِ) أى : فماله من ناصر يتولّاه بعد خذلان الله إيّاه .

(هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ) : هل إلى رجوع إلى الدنيا .

(مِن سَبِيلٍ) : من طريق .

(خَاشِعِينَ مِنَ الذُّلِّ) : خاضعين متضائلين بسبب الذلّ .

(يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ) : ينظرون إلى النّار مُسَارَقة خوفاً منها .

(الَّذِينَ خَسِرُوٓا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ) أى : خسروا أنفسهم بالتّعرض للعذاب الخالد وخسروا أهليهم بالتفريق بينهم .

(مُقِيمٍ) : سرمدى دائم .

(وَمَا كَانَ لَهُم مِّنْ أَوْلِيَآءَ يَنصُرُونَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ) : ليس لهم غير الله يدفع عنهم عذابه .

التفسـير

٤٤ـ (وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن وَلِيٍّ مِّن بَعْدِهِ وَتَرَى الظَّالِمِينَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ) :

والمعنى : ومن يبعده الله عن طريق الحق والهدى لسوء اختياره ، فما له من ناصر يتولّى هدايته بعد خذلان الله إيّاه ، وترى الكافرين حين يشاهدون عذاب الآخرة ويعاينون أهوالها يسألُون رَبَّهُم وهم فى ذِلة وانكسار : هل من طريق إلى الحياة الدنيا حتى نؤمن ونعمل صالحا غير الذى كُنَّا نعمل .

يتمنون ذلك ولكن أنّى لهم ذلك ؟ فليس إلى مردّ من سبيل ، هكذا قضى الله ولا رادّ لقضائه .

٤٥ـ (وَتَرَاهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَاشِعِينَ مِنَ الذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ وَقَالَ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا إِنَّ الظَّالِمِينَ فِى عَذَابٍ مُّقِيمٍ) :

وترى الظالمين ـ كذلك ـ يعْرَضُون على النار خاضعين متضائلين بسبب الذّل الذى اعتراهم بما أسلفوا من عصيان الله ـ تعالى ـ ، وبما يلاقون من الأهوال عقابا لهم ـ يراهم ـ يُسَارِقُون النّظر إلى النّار خوفاً من مكارهها كما ترى الْمُهيأ للقتل ينظر إلى السّيف ، وهكذا شأن الناظر إلى الشدائد لا يقدر أن يفتح أجفانه عليها أو يملأ عينيه منها كما يفعل إذا نظر إلى الأشياء المحبوبة .

ويقول الذين آمنوا يوم القيامة : إن الخاسرين خسارة عظيمة هم الذين ظلموا أنفسهم بالكفر فأُلْقِى بهم فى النّار ، وفقدوا مُتْعَتهم وحُرِموا نعيمهم فخسروا بذلك أنفسهم وحيل بينهم وبين أزواجهم وأحبابهم وأقاربهم فخسروهم .

وينبه الله ـ تعالى ـ فى ختام الآية إلى أن الكافرين فى عذاب دائم أبدى لا خروج لهم منه ولا محيد لهم عنه .

٤٦ـ (وَمَا كَانَ لَهُم مِّنْ أَوْلِيَاءَ يَنصُرُونَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن سَبِيلٍ) :

المعنى : وما كان للظالمين أولياء يَلُون أمرهم ، ولا نصراء مما عبدوهم من دون الله وممن أطاعوهم فى معصيته يدفعون عنهم عذابه وينقذونهم منه ، ومن يضلّه الله عن الهدى وقد اختار الكفر السلوك السيء وأصَرَّ عليه فما له من طريق موصّل إلى الحقّ فى الدّنيا ، ولا إلى الجنّة فى الآخرة ، لينجّيه من سوء المصير وعذاب السّعير .

(ٱسْتَجِيبُوا۟ لِرَبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۚ مَا لَكُم مِّن مَّلْجَإٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٍ ﴿٤٧﴾ فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ۖ إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ۗ وَإِنَّآ إِذَآ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ كَفُورٌ ﴿٤٨﴾)

المفردات :

(اسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُم) : سارعوا إلى إجابته بالتوْحيد والعبادة .

(لَا مَرَدَّ لَه مِنَ اللهِ) : لا يردّه اللهّ بعد إذ أتى به

(وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٍ) : وما لكم من إنكار لذنوبكم أو منكر لعذابكم .

(حَفِيظاً) : رقيباً ومُسيطرا .

التفسير

٤٧ـ (اسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللهِ مَا لَكُم مِّن مَّلْجَإٍ يَوْمَئِذٍ وَمَالَكُم مِّن نَّكِيرٍ) :

أى : سارعوا إلى إجابة خالقكم ومربيكم وذلك بالتوحيد والعبادة مِن قبل أن تنتهى الحياة التى هى فرصة للعمل ، ويأتى يوم القيامة والحساب الذى لا يرده الله بعد إذ قضى

به ، ليس لكم يومئذ من ملاذ تلجئون إليه وتتحصنون به من العذاب ، وما لكم من مُنكِر لعذابكم ومُخَلِّص لكم منه ، أو لن تقدروا أن تنكروا شيئاً مما اقترفتموه ودوِّن فى صحائف أعمالكم ، وتشهد به أعضاؤكم .

٤٨ - (فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظاً إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ وَإِنَّا إِذَا أَذَقْنَا الْإِنسَانَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ الْإِنسَانَ كَفُورٌ) :

فإن أعرض المشركون وامتنعوا عن إجابتك والإيمان بدعوتك فلا تحزن عليهم أيها الرسول ، فما أرسلناك عليهم رقيبا ومُسيْطرا ، إنما كلفت بالبلاغ وتأدية الرسالة وقد بلغت وأديت وإن شأن الناس وطبيعتهم إذا منحناهم من لدنا نعمة كالصحة والغنى والأمن فرحوا واستبشروا ، وإن تُصِبْهُم سيئة من بلاء ومرض وفقر بسبب معاصيهم وماصدر منهم من السيئات فإنهم ينسون النِّعْمة ويجزعون لنزول البلاء كُفْرا وجُحُودا ، إلَّا مَنْ هداه الله وألهم رشده وكان من الذين آمنوا وعملوا الصالحات فالمؤمن كما قال ﷺ : « إنْ أصابتهُ سرَّاءُ فشكَرَ فكانَ خيرا له وإنْ أصابَتْهُ ضراءُ فصبَر فكان خيرا له وليسَ ذلكَ لأحدٍ إلَّا لِلمؤمن » .

(لِّلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا ۖ وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾)

المفردات :

(أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَاناً وَإِنَاثًا) : يتفضل على من يشاء بالجمع بين الذكران والإناث فى ذريته .

(عَقِيماً) : لا ولد له .

التفسير

٤٩، ٥٠ـ (لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثاً وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ الذُّكُورَ ● أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَاناً وَإِنَاثاً وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيماً إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ) :

لما ذكر الله إذاقة الإنسان الرحمة وإصابته بضدها أتبع ذلك أنَّ له ــ لا لغيره ــ ملك السموات والأرض فهو خالقهما والمتصرف فيهما يَخْلُق مَا يَشَاءُ فيهب لعباده من الأولاد ما تقتضيه مشيئته فيخص بعضاً بالإناث لا غير ، وبعضا بالذكور دون الإناث ويتفضل ــ سبحانه وتعالى ــ على من يشاءُ من عباده بالجمع بين الذكور والإناث على التعاقب أو فى حمل واحد ، ويجعل من يشاء عقيماً لا ولد له .

وتقديم الإناث على الذكور فى الآية : قيل إنه لبيان أن الله يُعطى ما يُريدُه لا مايُريده الناس ، لأن الناس تهوى الذكور وخصوصا العرب ، وقيل : التقديم توصية برعايتهن لضعفهن ولا سيما أنهم قد كانوا قريبى عهد بالوأد وفى الحديث « مَنْ ابتُلِىَ بِشَىءٍ من هذه البناتِ فأَحْسنَ إليهنَّ كُنَّ له سِتْرا مِنَ النار » وقال الثَّعالبى : إشارة إلى ما تقدم فى ولادتهن من اليُمْن ، وعن قتادة : من يُمْنِ المرأة تبكيرها بأُنثى .

جاء لفظ الذكور مُعَرَّفا ولفظ الإناث مُنَكَّرا ، للتنويه بما للذكور ــ عادة ــ من مكانة فى نفوس الآباء والرغبة فيهم ، لأن التعريف تنويه وإشادة .

● (وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ إِنَّهُۥ عَلِيٌّ حَكِيمٌ ﴿٥١﴾)

يجمل بنا قبل الدخول فى تفسير هذه الآية الكريمة أن نتعرض لتعريف الوحى ونبيّن أقسامه ، حتى يتضح المقام ويكمل البيان فنقول وبالله التوفيق :

ـ الوحى وأقسامه :

يطلق الوحى ويراد منه الإيحاء ، كما يطلق ويراد منه الموحى به ، حسب مقتضيات الأحوال :

(أ) فالوحى بمعنى الإيحاء :

فى الشرع ، وفى اصطلاح علماء الكلام[1] هو إعلام الله أنبياءه ما يريد إبلاغه إليهم بما يفيد العلم اليقينى القطعى بأن ذلك من عند الله ـ عز وجل ـ وأنواعه ثلاثة :

١ ـ إعلام بطريق الإلقاء فى القلب والنفث فى الروع ويكون فى اليقظة كما يكون فى المنام .

٢ ـ الكلام من وراء حجاب ، أى بدون رؤية النبى لربه ـ عز وجل ـ بحيث يسمع كلامه ولا يراه .

٣ ـ إعلام الله نبيه ما يريد أن يبلغه إياه بوساطة الملك .

(ب) الوحى بمعنى الموحى به :

ينقسم هذا النوع من الوحى إلى متلوّ وغير متلوّ :

١ ـ فمن الوحى المتلو :

القرآن الكريم الذى جعله الله آية باهرة ، ومعجزة قاهرة وحجة باقية على صحة نبوة سيدنا محمد ﷺ ، وتكفل ـ سبحانه ـ بحفظه من التبديل والتحريف إلى قيام الساعة فقال : «إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ »[2] .

نزل به الأمين جبريل ـ عليه السلام ـ على النبى ﷺ بلفظه ومعناه يقظة من غير أن يكون لواحد منهما دخل فيه بوجه من الوجوه ، وإنما هو تنزيل من الله العزيز الحكيم قال تعالى : «وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ . نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ . عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ[3] » كما أن من الوحى المقروء الكتبَ السماويةَ المنزلة من الله على الأنبياء ـ عليهم الصلاة والسلام ـ كالزبور على نبى الله داود ، والتوراة على رسول الله موسى ، والإنجيل على رسوله عيسى ـ عليه السلام ـ وقد أصاب هذه الكتب التغيير والتحريف

(١) أى علماء التوحيد . (٢) سورة الحجر الآية ٩

(٣) سورة الشعراء الآيات من : ١٩٢ ـ ١٩٥

بعد وفاة الأنبياء الذين أرسلوا إليهم، إذ لم يتكفل الله بحفظها لأنها ليست نهاية التشريع ولا خاتمته، فالتشريع الخاتم جاء به النبي ﷺ خاتم الأنبياء والمرسلين، ومن هنا كان القرآن الكريم مهيمنا ورقيبا على ما جاء فيها، قال تعالى: «وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِناً عَلَيْهِ، فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ اللهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ الْحَقِّ»(١).

٢ - الوحي غير المتلو وهو ما يلي:

(ا) السنة النبوية المطهرة لقوله -تعالى- : «وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ»(٢) والسنة الشريفة منزلة من عند الله بالمعنى، أما لفظها فهو من عند النبي ﷺ وليست معجزة بألفاظها وأسلوبها ولا متعبدا بتلاوتها كالقرآن الكريم، ولا تصح الصلاة بها بخلاف القرآن العظيم، فإنه معجزة فى ألفاظه، متعبد بتلاوته، ولا تصح الصلاة بدونه.

هذا، ومن الوحي: اجتهاد الرسول ﷺ، لأن الله -جل شأنه- يقره عليه إذا أصاب، وينبهه ويرشده إلى الخطأ إن أخطأ، ولا يقره عليه بل يدله على الصواب.

وفى عصرنا الحديث -ظهر بعض المسلمين الذين ينكرون العمل بالسنة وقد أخبر الرسول عنهم بذلك فقد روى أبو داود والترمذى وابن ماجة عن المقدام بن معد يكرب أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ألاَ إنى أوتيتُ القرآنَ ومثله معه، ألاَ يُوشكُ رجلٌ شبعان على أريكته فيقول: عليكم بهذا القرآنِ فما وجدتُم فيه مِن حلالٍ فأحِلوه، وما وجدتم فيه من حرامٍ فَحَرِّموه، ألاَ إنَّ ما حرَّم رسولُ اللهِ كما حرَّم اللهُ».

(ب) الحديث القدسي: وهو ما كان مضافا إلى الله -تعالى- كقوله ﷺ فيما يرويه عن ربه: «يا عبادى إنِّى حرَّمت الظلمَ على نفْسى وجعلتُه بينكم محرَّما فلا تَظالَموا» وهو كالحديث النبوى معناه من عند الله، أما لفظه فقيل: إنه من عند الرسول ﷺ ونسب إلى الله -سبحانه- لأنه موجه منه -جل شأنه- إلى عباده ولزيادة الاهتمام بمضمونه، وحث النفوس

---

(١) سورة المائدة، من الآية ٤٨

(٢) سورة النجم، الآيتان ٣، ٤

على العمل بما اشتمل عليه من المعانى والآداب . وقيل :غير ذلك من الأقوال التى لا تخرجه عن كونه وحيا ، وقد يطلق الوحى على غير ما جاء من عند الله إلى رسله ،كأن يُطلق ويراد منه الإلهام ، مثل قوله ـ تعالى ـ : «وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى الْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ »[1] كما يطلق ويراد منه التسخير مثل قوله ـ تعالى ـ : «وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِى مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتاً وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ »[2] وبعد هذه المقدمة نعود إلى شرح الآية ومفرداتها كما يلى :

(وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِىَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَآءُ إِنَّهُ عَلِىٌّ حَكِيمٌ) :

المفردات :

(وَحْيًا) : إلقاء فى القلب .

(أَوْ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ) :أو يكلمه من وراء حجاب دون أن يراه.

(أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً) :أو يبعث الله المَلَكَ للأنبياء ليبلغهم ما أمر الله به .

(عَلِىٌّ) :متعال عن صفات المخلوقين .

(حَكِيمٌ) : يجرى ـ سبحانه ـ أفعاله على سَنَن الحكمة.

روى فى سبب نزول هذه الآية : أن اليهود قالوا للنبىّ ﷺ : ألا تكلم اللهَ وتنظر إليه إن كنت نبيًّا كما كلمه موسى ، ونظر إليه ، فإنا لا نؤمن لك حتى تفعل ذلك ، فقال النبى ﷺ : لم ينظر موسى إلى الله فنزل قوله ـ تعالى ـ : (وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللهُ إِلاَّ وَحْيًا ..) إلخ.

التفسير

٥١ ـ (وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِىَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَآءُ إِنَّهُ عَلِىٌّ حَكِيمٌ) :

(١) سورة القصص الآية ٧

(٢) سورة النحل الآية ٦٨

أى : وما صح وما استقام لفرد من أفراد البشر أن يكلمه الله إلّا نفثا وإلقاء فى قلبه مناما – كما حصل لإبراهيم – عليه السلام – حينما أمر بذبح ولده قال – تعالى – حكاية عن ذلك : «قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّيٓ أَذْبَحُكَ »[١].

وقد حصل الوحى بالنفث والإلقاء فى القلب لرسولنا ﷺ فقد ورد أنه قال : «إنَّ رُوحَ القُدُسِ نفثَ فى رُوعِى أن نفسا لن تَموتَ حتى تَسْتكمِلَ رزقَها وأَجَلها ، فاتقوا اللهَ وأَجْمِلوا فى الطلبِ ، خذوا ما حلَّ ودعوا ما حَرُمَ » .

(أَوْ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ) أى : أن يسمع الرسولُ الكلام من غير أن يبصر من يكلمه والمراد أن السامع محجوب عن رؤية ربه – جلت قدرته – فى الدنيا أما فى الآخرة فيمنحها الله للذين قال فى حقهم : « وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ * إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ »[٢].

وقد حصل الوحى من وراء حجاب لموسى – عليه السلام – فى بدء رسالته وقد رأى نارا فطلب من أهله المكث والبقاء فى مكانهم حتى يستطلع الأمر قال تعالى : « فَلَمَّآ أَتَاهَا نُودِيَ يَا مُوسَىٰٓ * إِنِّيٓ أَنَا رَبُّكَ »[٣] وقد حدث ذلك له أيضاً عند مجيئه لميقات ربه قال تعالى : «وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَن تَرَانِى وَلَٰكِنِ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِى فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقاً »[٤] الآية .أما رسولنا ﷺ فقد كلمه ربه من وراء حجاب ليلة الإسراء والمعراج عند فرض الصلاة ومراجعته ربّه – عز وجل – فى التخفيف عن أمته فى عدد الصلوات .

كما كلم الله – سبحانه وتعالى – ملائكته من وراء حجاب فى أمر خلق آدم – عليه السلام – وجعله خليفة فى الأرض ،قال تعالى : «وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَآئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى الْأَرْضِ خَلِيفَةً »[٥].

---

(١) سورة الصافات ، من الآية ١٠٢

(٢) سورة القيامة الآيتان ٢٢ ، ٢٣

(٣) سورة طه الآية ١١ وجزء من الآية ١٢

(٤) سورة الأعراف من الآية ١٤٣

(٥) سورة البقرة من الآية ٣٠

(أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً) أى : أو يبعث الله – تعالى – ملكا رسولا كجبريل – عليه السلام – إلى أنبيائه فيسمع الأنبياء صوت الملك ، وتارة يرونه عيانا فى صورة بشر كما كان يتمثل جبريل – عليه السلام – لرسولنا ﷺ فى صورة أعرابى أو فى صورة الصحابى الجليل دحية الكلبى ؛ وتارة أخرى كان يراه الرسول ﷺ فى صورته الحقيقية . وقد يأتى الوحى دون رؤية النبى ﷺ للملَكِ وإنما يسمع عند قدومه دويّا أو صلصلة شديدة لا يعلم إلا الله كنهها وحقيقتها فيعتريه ﷺ حالة روحية لا يدرك الحاضرون منها إلاّ أماراتها الظاهرة مثل ثقل البدن وتَفَصُّد جبينه الشريف عرقا . روى البخارى – رضى الله عنه – عن عروة بن الزبير رضى الله عنهما – عن أم المؤمنين السيدة عائشة – رضى الله عنها – أن الحارث بن هشام سأل النبىّ ﷺ فقال : يا رسول الله كيف يأتيك الوحى ؟

فقال رسول الله ﷺ : « أحيانا يأتينى مثل صلصلة الجرس وهو أشد علىّ فيفصم عنى وقد وعَيْتُ ما قال، وأحيانا يتمثل لى الملكُ رجُلًا فيكلمنى فأَعِى ما يقول ، قالت السيدة عائشة – رضى الله عنها – ولقد رأيته ينزل عليه الوحى فى اليوم الشديد البرد فيفصم عنه وإن جبينَهُ ليتفصَّدُ عَرقاً » .

وتارة يسمع الحاضرون عند وجهه الكريم دويًّا كدوىّ النحل عند مجىء الوحى أخرج الترمذى عن عمر – رضى الله عنه – أنه قال : « كان رسول الله ﷺ إذا نزل الوحى يسمع عند وجهه كدوىّ النحل » (فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَآءُ) أى : فيخاطب الملَكُ الأنبياء بإذن الله وأمره ما أراد الله أن يبلغه لهم .

(إِنَّهُ عَلِيٌّ) أى : إن الله – جلت قدرته – متعال عن مشابهة الخلق أجمعين (لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ)[1] .

(حَكِيمٌ) : يجرى أفعاله على الحكمة وهى إصابة الحق على أكمل وجه ، وخلاصة معنى الآية الكريمة : وما صح ولا استقام أن يكلم الله أحدًا من خلقه إلاّ على صورة من الصور

---

(١) سورة الشورى من الآية ١١ .

التي بينتها الآية الكريمة بأن يلقى الله فى قلب رسوله وينفث فى روعه -مناماً أو يقظة- بما يريده منه ، أو يكلمه من وراء حجاب فيسمع الرسول الكلام دون أن يرى شيئاً ، أو يرسل الله للأنبياء ملكاً يبلغهم ما أمر به من لدن ربه وليس فوق ذلك ولا دونه وحى ولا تبليغ من الله .

فما يدعيه المنجمون إنما هو الرجم بالغيب ، وكذلك ما يخبر به الجن ، والله -سبحانه- متعال ومنزه عن مماثلة ومشابهة الخلق أجمعين ، يجرى أفعاله على مقتضى حكمته الرشيدة .

(وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ ﴿٥٣﴾)

المفردات :

(رُوحاً) : قرآناً وقيل : غير ذلك .

(مِنْ أَمْرِنَا) : من لدنَّا .

(نَهْدِى بِهِ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا) : نخلق ونوجد الهداية بإرادتنا إلى من نختاره من عبادنا الذين آثروا الحق على الباطل .

(وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ) : وإنك لترشد وتدل .

(إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ) : إلى طريق معتدل موصل إلى المطلوب لا يضل من يسلكه .

(أَلَآ إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ) : ألا إلى الله وحده لا إلى غيره يرجع شأن الخلق وأمورهم كلها يوم القيامة .

التفسير

٥٢ — (وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِى مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَٰكِن جَعَلْنَاهُ ...) إلخ الآية :

أى : ومثل إيحائنا إلى الأنبياء من قبلك ، أوحينا إليك يامحمد القرآن العظيم الذى هو من أمرنا ومن شأننا ، — أوحيناه — كما شئنا على من شئنا بهذا النظم المعجز والتأليف المحكم. وسمى القرآن الكريم روحا لأن الله يحيى به القلوب والنفوس من موت الجهل والغفلة والضلال .

وقال ابن عباس روحاً : نبوة . وقال الحسن وقتادة :رحمة من عندنا ، وقال الربيع : جبريل والأول أولى وأظهر .

(مَا كُنتَ تَدْرِى مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ) أى : ما كنت يامحمد تعلم ما هي الكتابة لأنك من قوم أميين لا يعرفونها ،ولا تعرف ما هو الإيمان حتى تكون قد أخذت ما جئتهم به عمن كان يعلم ذلك من أهل الكتاب ، وهو كقوله تعالى : «وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لَّارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ » (١) — روى هذا المعنى عن ابن عباس فإنه لم يكن قبل بعثته وتنبيئه يعلم أنه سيكون رسولا ، وكذلك لم يكن على دراية ومعرفة بالملائكة والعالم العلوى :وما أطلعه الله عليه وعلمه إياه بعد النبوة من الشرائع والأحكام ،وهذا لا ينفى أنه ﷺ كان مؤمناً بربه قبل النبوة لأنه ﷺ كان يتعبد فى الغار كما روى أنه قال للراهب بحيرا فى أثناء رحلته إلى الشام حين استحلفه الراهب باللات والعزى ،قال له الرسول ﷺ : «لا تسألنى بهما فوالله ما أبغضت شيئاً قط بغضهما » . وقد ثبت أنه — عليه الصلاة والسلام — لم يسجد لصنم ولا أشرك بالله ولا زنى ولا شرب الخمر ،ولا شهد ما كانوا يجتمعون عليه ويسمرون فيه ، ويأتون ما يباح وما يحرم ، قال ﷺ : « لمَّا نشأت بُغضت إلىَّ الأوثان وبُغض إلىَّ الشعر ولم أهم بشىء مما كانت الجاهلية تفعله إلا مرتين فعصمنى الله منهما ثم لم أعُد » .

وهذا شأن كل الأنبياء فقد اصطفاهم ربهم واختارهم وما عرفوا بشرك أو كفر قبل النبوة وهذا أمر مجمع عليه بين العلماء .

---

(١) سورة العنكبوت : الآية ٤٨

(وَلَـٰكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا) أى : ولكن جعلنا القرآن الكريم وأنزلناه نورًا ونبراساً نضىءُ به الطريق لعبادنا ليكونوا على بينة من أمرهم ، ونوجد ونخلق به الهداية فيمن نريد هدايته من عبادنا فنجعله راشدًا مهدياً وذلك وفق اختيار العبد وصرف نفسه نحو الاهتداء بكتاب ربه والاهتداء بما جاء به .

(وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ) أى : وإنك يا محمد لتدل وترشد إلى صراط سوى وسبيل قويم وحقيقة سمحاءٍ ودين خالص ، فهدايتك هداية إرشاد وتبليغ فحسب ، قال تعالى : « إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ »[1] وقال - جل ثناؤه - : « مَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَاغُ »[2] وتفخيماً لشأن هذا الصراطِ المستقيم وتقريرا لاستقامته واعتداله وتأكيدًا لوجوب سلوكه نسبه - سبحانه - وأضافه إلى نفسه فقال : (صِرَاطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُ مَافِى ٱلسَّمَـٰوَاتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ) وَوَصَفَ - عز وَجَلَّ - ذاته بأنه له - وحده - ما فيهما خلقاً وملكاً وتصرفاً فيما نعلم منهما ومالا نعلم فكل شىء تحت قبضته وقهر عظمته .

(أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ) أى : ألا إلى الله وحده دون سواه ترجع أمور المخلوقات جميعاً يوم القيامة ليحكم فيها - سبحانه - بحكمه العادل وقضائه المبرم فالوسائط قد ارتفعت والناس كلهم قد جُردوا من حولهم وقوتهم فقد سلبوا الأسباب التى كانت لهم فى الدنيا .

وفى هذا من الوعد للمهتدين إلى الصراط المستقيم بالثواب المقيم والفوز العظيم ، كما فيه من التهديد والوعيد بالعذاب الشديد للضالين المكذبين .

---

(١) سورة القصص من الآية ٥٦ .

(٢) سورة المائدة من الآية ٩٩ .

« سورة الزخرف »

هذه السورة مكية وآياتها تسع وثمانون آية .

وسميت بهذا الاسم لورود كلمة (وزخرفا) ، وصلتها بسورة الشورى التى قبلها : أن كلا منهما أشادت بالقرآن الكريم فختمت الشورى بالآيتين :

« وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا » إلى قوله تعالى : « أَلَآ إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ » ، وافتتحت سورة الزخرف بالقسم بالقرآن الكريم على أنه محفوظ فى أم الكتاب (وهو اللوح المحفوظ) ، وأنه من عند الله عظيم القدر رفيع الشأن منزل على مقتضى حكمة الله — جل وعلا — .

بعض مقاصد السورة :

١ — أبانت السورة كون القرآن الكريم موصى به من عند الله — تعالى — وأنه نزل بلسان عربى مبين ليفهمه العرب وليتدبروا آياته عساهم يعقلون ما اشتمل عليه من الأحكام ومكارم الأخلاق فيحملهم بذلك ويدفعهم إلى الإيمان به .

وإيثار العرب بتحمل مسئولية الرسالة المحمدية العالمية ، لأن لهم أخلاقا كريمة وصلابة فى الدين ، وشجاعة فى الحق ، وصدقاً فى الوعد ، وهمة فى الوفاء .

٢ — أن السورة جاءت بتهديد المشركين بإهلاكهم كما فعل بمن قبلهم ، وذلك إذا استمروا على كفرهم وعنادهم (فَأَهْلَكْنَآ أَشَدَّ مِنْهُم بَطْشًا وَمَضَىٰ مَثَلُ الْأَوَّلِينَ) .

٣ — وضحت هذه السورة الكريمة بعض الآيات الكونية التى تظهر قدرة الله وتفرده بالجلال وأنه — سبحانه — حقيق بالوحدانية ، وذلك عن طريق لفت نظر المخاطبين إلى ما هو واضح وبيّن فى ملكه من أرض مهدها وبسطها لهم إلى سماء أنزل منها ماءً بمقدار معلوم فأحيا به الأرض بعد موتها وأنبت فيها الزرع والزيتون والنخيل ومن كل الثمرات ، وأنه — سبحانه — سيخرج الناس ويبعثهم من قبورهم يوم القيامة ، كما يحيى الأرض

وينبت فيها النبات ، وأنه - جل شأنه - خلق للناس جميع الأصناف التى تنفعهم فى معاشهم ، وسخر لهم السفن والأنعام ليركبوها ويستقروا على ظهورها (وَالَّذِى خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ) .

٤ - تناولت السورة ما كان عليه المجتمع الجاهلى من معتقدات قبيحة ، كنسبة الولد إلى الله (وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا) كما نعت عليهم سفههم فى دعواهم أن الله جعل لنفسه البنات وآثرهم واصطفاهم بالبنين ، كما عابت عليهم أنهم جعلوا الملائكة إناثا وتوعدتهم (أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ) .

٥ - أثبتت السورة وأكدت أن إبراهيم - عليه السلام - الذى كان المشركون يدعون أنهم فى شركهم على دينه وطريقته - أثبتت - أنه برئ مما يعبدونه (وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِى بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ) .

٦ - أبانت السورة أن المشركين يقيمون أمر اختيار الرسول ﷺ على مقاييس فاسدة ومعايير خاطئة باطلة (وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ) فرد الله عليهم مسفها رأيهم وموبخا لهم على سوء فهمهم (أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ) .

٧ - وضح الله لهؤلاء المشركين أن الاستعلاء فى الأرض لا ينجى من عذاب الله ، فقد أهلك الله فرعون ومن معه لتسلطهم وكفرهم واغترارهم بما لديهم من الدنيا وزخرفها (فَلَمَّا آسَفُونَا انتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ) وأنهى - سبحانه - هذه السورة الكريمة بعرض بعض مشاهد يوم القيامة ، كالنعيم الذى يسعد به المؤمنون (يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ وَأَنتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ) كما أبانت ما يناله المجرمون من نكال وعذاب أليم (إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِى عَذَابِ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ . لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ) وفى آخر آياتها يسلى الله - تعالى - رسوله ﷺ ويطمئنه ويأمره بالإعراض عن الكافرين ، كما يهددهم ويتوعدهم (فَاصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَامٌ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ) .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

(حمٓ ﴿١﴾ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢﴾ إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٣﴾ وَإِنَّهُۥ فِىٓ أُمِّ ٱلْكِتَٰبِ لَدَيْنَا لَعَلِىٌّ حَكِيمٌ ﴿٤﴾)

المفـردات :

(جَعَلْنَاهُ) : أنزلناه .

(فِى أُمِّ الْكِتَابِ) : فى اللوح المحفوظ .

(لَدَيْنَا) : عندنا .

(لَعَلِىٌّ) : لرفيع المنزلة عظيم القدر .

(حَكِيمٌ) : محكم لا ينسخه غيره ، وقيل : غير ذلك .

التفسـير

١ ـ ٢ (حمٓ وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ) :

١ ـ (حمٓ) : هذه الحروف وما يماثلها من الحروف الواردة فى أوائل بعض سور القرآن الكريم قد سبق الكلام فيها مطولا فى أول سورة البقرة ،وفى الحق أنه لم يأت القرآن الكريم بشئ فى معنى هذه الكلمات ، كما لم يرد فى سنة رسول الله ﷺ أثر فى ذلك ، والأولى أن نترك أمر المراد منها إلى الله ـ تبارك وتعالى ـ وقد كان بعض السلف يقولون فيها : الله أعلم بمراده .

٢ ـ (وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ) :هذا قَسَم بالقرآن الكريم ، أى أقسم بالكتاب الواضح البيِّن ، الظاهر الدلالة فهو من أبان اللازم بمعنى اتضح ، أو الموضح لأصول مايحتاج إليه من أمور الدين فهو حينئذ يكون من أبان المتعدى إلى المفعول .

عَنكُمُ الذِّكْرَ صَفْحاً) أى : أنهملكم فننحّى عنكم إنزال القرآن الكريم الذى فيه شرفكم ورفعتكم ، أنصرفه عنكم لأنكم لازلتم مستمرين ومنهمكين وغارقين فى الإسراف والضلال متجاوزين الحد فى الكفر مصرين عليه أنفعل ذلك بكم ؟ ولكن حكمتنا تقتضى أن نُذَكركم وننزل القرآن الكريم عليكم ، ولا نترك ذلك بسبب أنكم تعرضون عنه ولا تلتفتون إليه ، بل نفعل ذلك حتى لا يكون للناس على الله حجة : وقيل – المعنى – إن حالكم من الإعراض والغلو فى الإسراف والكفر وإن اقتضى ترككم وشأنكم حتى تموتوا على الكفر وتمكثوا فى العذاب الدائم ، لكننا لسعة رحمتنا ومزيد فضلنا لا نفعل ذلك بكم بل نرشدكم وندلكم على الحق والصراط المستقيم . وهذا الرأى موافق فى المراد لما سبقه .

قال قتادة : والله لو كان هذا القرآن رفع حين ردّته أوائل هذه الأُمة لهلكوا ، ولكن الله ردّده وكرّره عليهم برحمته .

٦ ، ٧ – (وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِن نَّبِيٍّ فِى الْأَوَّلِينَ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا كَانُواْ بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ) :

أى : وكثيرًا ما أرسلنا وبعثنا أنبياء ورسلاً قبلك فى أُمم سبقت وأقوام سلفت كانت تأْتيهم رسلهم بالبينات والذكر ، فقابلوهم بالسخرية والاستهزاء وشتى ضروب الأذى . ولكن أنّى لهم أن يفلتوا من عقابنا أو يسبقونا ويعجزونا عن أن ننكل بهم ، وإلى ذلك يشير قوله تعالى :

٨ – (فَأَهْلَكْنَآ أَشَدَّ مِنْهُم بَطْشاً وَمَضَىٰ مَثَلُ الْأَوَّلِينَ) :

أى : فأنزلنا عذابنا الشديد المهلك المستأْصل بهؤلاءِ القوم الذين كانوا أقوى وأشد من قومك بأْساً وأكثر عنفاً وبطشاً وأصلب عودًا وأوفر جمعاً وعددا ، ولم يغنهم ذلك أو يمنعهم من عذابنا شيئاً ، فمنهم من أرسل الله عليه الحصى والحجارة ومنهم من أخذه الله بالزلزال والصيحة وصاعقة العذاب الهون ، ومنهم من خسف الله به وبداره الأرض ، ومنهم من أغرقه الله وما ظلمهم الله ولكن أنفسهم يظلمون .

وفى هذا مزيد من إدخال السرور والطمأْنينة على قلبه ﷺ ووعد له بأن الله ناصره على قومه ، كما فيه من الوعيد بالويل والهلاك لهؤلاءِ الذين عاندوا رسول الله وكذبوه واستهزءوا به وسخِروا منه .

(وَمَضَىٰ مَثَلُ الْأَوَّلِينَ) أى : سبق وسلف فى القرآن الكريم فى غير موضع منه قصصهم العجيبة فى التكذيب والعقوبة التى أنزلها الله بهم ، والتى من حقها أن تسير سير المثل شهرة وذيوعاً .

(وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٩﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠﴾ وَٱلَّذِى نَزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَنشَرْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ۚ كَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿١١﴾ وَٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْفُلْكِ وَٱلْأَنْعَٰمِ مَا تَرْكَبُونَ ﴿١٢﴾ لِتَسْتَوُۥا عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ ﴿١٣﴾ وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ ﴿١٤﴾)

المفـردات :

(الْعَزِيزُ) : الذى لا يقهر ولا يغلب ،وقيل : الذى لا نظير له .

(مَهْدًا) : مكاناً مبسوطاً موطأً .

(سُبُلًا) : جمع سبيل أى : طرقاً تسلكونها .

(بِقَدَرٍ) : بمقدار تقتضيه حكمته .

(فَأَنشَرْنَا) : أحيينا .

(مَيْتاً) : خالية من النبات فهى كالميت .

(تُخْرَجُونَ) : تبعثون وتنشرون من قبوركم .

(الْأَزْوَاجَ) : جمع زوج وهو الصنف والنوع .

(الْفُلْكِ) : السفينة ويستعمل مع المفرد والجمع ، وهو فى الجمع بمعنى السفن .

(لِتَسْتَوُوا) : لتستقروا .

(سَخَّرَ) : ذلل وطوع .

(مُقْرِنِينَ) : مطيقين .

(لَمُنقَلِبُونَ) : لراجعون إلى الله فى الآخرة .

التفسير

٩ - (وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ) :

أى : ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض؟ليقولن دون تردد ولا تشكك :خلقهن وبدأهن (الْعَزِيزُ) :الذى لا يقهر ولا يغلب ولا رادّ لقضائه ولا معقب لحكمه (الْعَلِيمُ) : الواسع العلم المحيط بكل شئ ، فهو قيوم السموات والأرض ، فألسنتهم ناطقة وفطرتهم شاهدة وقلوبهم موقنة بأنه - سبحانه - خالق السموات والأرض وأنه هو العزيز العليم ، ولكنهم مع هذا الإقرار يشركون معه فى الربوبية ، مالا يستطيع جلب الخير ولا دفع الشر ، وليزيدهم الله - سبحانه - تذكيرًا وعلماً به وتبيياناً لبعض نعمه وآلائه عليهم قال :

١٠ - (الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ) :

أى : أنه - سبحانه - مع كونه قد خلقكم وبرأكم لم يترككم سدى دون عناية أو رعاية بل هو - جل شأنه - قائم على كل أسباب حياتكم عظيمها ودقيقها (جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا)

أى : بسط لكم الأرض ووطأها لكم تستقرون عليها وتترددون فوقها بيسر وسهولة (جَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا) أى : خلق لكم فيها سبلا وطرقا لتمشوا فيها وتسلكوها فى ظعنكم وإقامتكم (لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ) أى : لكى تهتدوا وترشدوا إلى ما تقصدون من أماكن ، وما تريدون من متاع .

أو لتتفكروا فى ذلك فيرشدكم ويهديكم تفكركم إلى توحيد الله وتمجيده .

١١ - (وَالَّذِى نَزَّلَ مِنَ السَّمَآءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَنشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتاً كَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ) :

هذه الآية الكريمة استمرار وامتداد لبيان أنعم الله وآلائه عليهم فبين لهم أنه - تعالت عظمته - نزّل من السحاب ماء بمقدار معلوم حسب إرادته ومشيئته الحكيمة ، لا هو بالماء القليل الذى تشق أو تستحيل معه الحياة ، ولا هو بالكثير الذى يتلف ويؤذى ، بل قد يقتل ويفنى ، وإنما هو بحسب ما يحتاجه الناس لهم ولدوابّهم واستنبات الزرع من أرضهم ، ولذا قال تعالى : (فَأَنشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتاً) أى : فأحيينا به أرضاً قحلاء جرداء حيث جعلناها تنبت الزرع والنخيل والأعناب ومن كل الثمرات ، قال تعالى : « أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَآءِ مَآءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً إِنَّ اللهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ »[1] (كَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ) أى : مثل إحياء الأرض الجرز التى لم يكن فيها كلأ ولا نبات ثم أنبتت من كل زوج بهيج أى مثل هذا الإخراج والإحياء نخرجكم من قبوركم أحياء وننشركم بعد موتكم ، وما ذلك على الله بعزيز فهو - سبحانه - خلقكم بدءا ، وكما بدأكم تعودون .

١٢ - (وَالَّذِى خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ) :

أى : وهو الذى - جل شأنه - خلق الأصناف كلها من جبال متنوعة الألوان والأحوال والأحجام ، إلى أناس يختلفون فى ألوانهم وألسنتهم ، إلى حيوان تتباين أنواعه ، إلى عوالم فى البر والبحر وفى السموات وفى الأرض ، لا يعلم حقيقتها إلا هو - سبحانه - (وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ) ومنّ عليكم وسخر وأجرى لكم من السفن ما يحملكم فى جوفها ، وذلل لكم الأنعام من الإبل وغيرها ما تركبونه وتعلون ظهره .

١٣ - (لِتَسْتَوُوا عَلَىٰ ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ) :

أى : لتستقروا على ظهورها وتتمكنوا منها ثم تذكروا بقلوبكم وألسنتكم نعمة ربكم وعطاءه لكم وتقولوا : سبحان الذى سخر لنا هذا ، أى : تجعلون ألسنتكم ترجمانا على ماملأ

(١) سورة الحج ، الآية : ٦٣

قلوبكم معلنا ما انطوت عليه جوانحكم ، فتقولون بلسان ذاكر عن قلب شاكر : تنزهت وتقدست ياربنا عن أى وصف لا يليق بك ، أنت الذى ذللت لنا هذه المخلوقات التى تفوق قدرتنا ويستعصى علينا قيادها ، فلو أردت لمنعت حركة السفن فلا تغادر مكانها ولاتبرح موضعها كما قال تعالى : « إن يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَى ظَهْرِهِ »[١] ولو شئت ألا تمكننا من هذه الدواب والأنعام التى لا حول لنا معها ولا قوة إلا بك — لوشئت — لفعلت ولكنك يسرتها لنا وملكتنا أمرها ، أخرج أحمد وأبوداود والترمذى وصححه ، والنسائى وجماعة عن على — كرم الله وجهه — أنه أتى بدابة فلما وضع رجله فى الركاب قال: بسم الله ، فلما استوى على ظهرها قال : الحمد لله — ثلاثاً ، والله أكبر — ثلاثاً (سُبْحَانَ الَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ ، وَإِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ) سبحانك لا إله إلاّ أنت ظلمت نفسى فاغفر لى ذنوبى إنه لا يغفر الذنوب إلّا أنت ، ثم ضحك فقيل له : عمَّ تضحك يا أمير المؤمنين ؟ فقال : رأيت رسول الله ﷺ فعل كما فعلتُ ثم ضحك فقلت : يا رسول الله ممَّ ضحكت ؟ فقال « يتعجب الرب من عبده إذا قال : رب اغفر لى فيقول : علم عبدى أنه لا يغفر الذنوب غيرى » كما روى أن رسول الله ﷺ كان يقول أيضاً : « اللهم إنى أسألك فى سفرى هذا البر والتقوى ، ومن العمل ما ترضى ، اللهم هوّن علينا السفر ، واطو لنا البعيد ، اللهم أنت الصاحب فى السفر والخليفة فى الأهل ، اللهم اصحبنا فى سفرنا واخلفنا فى أهلنا » وكان ﷺ إذا رجع إلى أهله قال : « آيبون تائبون إن شاء الله عابدون لربنا حامدون » : كما روى الإمام أحمد وغيره أنه — عليه الصلاة والسلام — قال : « ما من بعير إلّا فى ذروته شيطان فاذكروا اسم الله — تعالى — عليه إذا ركبتموه كما أمركم » وظاهر النظم الكريم أن تَذَكُّر النعمة والقولَ المذكور لا يخصان الأنعام بل يشملان الأنعام والفلك ، وذكر عن بعضهم أنه يقال عند ركوب السفينة : « بِسْمِ اللهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَآ إِنَّ رَبِّى لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ »[٢] ويقال عند النزول منها : « اللهم أنزلنا منزلا مباركاً وأنت خير المنزلين » .

---

(١) سورة الشورى ، من الآية : ٣٣ .

(٢) سورة هود ، من الآية ٤١ .

وقيل المراد من النعمة فى قوله تعالى : (ثُمَّ تَذْكُرُواْ نِعْمَةَ رَبِّكُمْ) : هو الهداية للإسلام وتفضله - سبحانه - علينا برسول الله - عليه الصلاة والسلام - وجعلنا خير أُمة أُخرجت للناس.

أخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن أبى مِجْلز قال : رأى الحسين بن علىّ - رضى الله عنهما وكرم وجهيهما - رجلا يركب دابة فقال : سبحان الذى سخر لنا هذا ، فقال الحسين : أو بذلك أُمِرْتَ . فقال الرجل فكيف أقول ؟ قال : الحمد لله الذى هدانا للإسلام ، الحمد لله الذى مَنَّ علينا بمحمد ﷺ ، الحمد لله الذى جعلنا خير أمة أُخرجت للناس ، ثم تقول : (سُبْحَانَ الَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ) .

(وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ) أى : وما كنا أبدًا مطيقين ذلك ولا قادرين عليه ، فأنت ياربنا بيدك نواصى الأُمور .

١٤ - (وَإِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ) :

أى : وإنا لراجعون وصائرون إلى الله ربنا بعد مماتنا ، وفى ذلك تنبيه للعاقل الأريب أن يتخذ من أُمور الدنيا عبرة يعتبر بها وينظر من خلالها إلى الآخرة ، فإذا ركب الأنعام والفلك ذكر ركوبه ورحيله إلى الآخرة ، وإذا تزود للدنيا تنبه إلى زاد الآخرة ، وهو التقوى « وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ »[1] وإذا تزين بلباس الدنيا دفعه ذلك إلى أن يتحلى ويتجمل بالتقوى لباس الآخرة « وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ »[2] .

(وَجَعَلُواْ لَهُۥ مِنْ عِبَادِهِۦ جُزْءًا إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ أَمِ ٱتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَىٰكُم بِٱلْبَنِينَ ﴿١٦﴾ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَٰنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿١٧﴾ أَوَمَن يُنَشَّؤُاْ فِى ٱلْحِلْيَةِ وَهُوَ فِى ٱلْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ ﴿١٨﴾)

---

(١) سورة البقرة من الآية ١٩٧

(٢) سورة الأعراف من الآية ٢٦

المفــردات :

(جُزْءًا) : أى ولدًا .

(لَكَفُورٌ) : لشديد الكفر .

(مُّبِينٌ) : ظاهر الكفران أو مظهر له .

(وَأَصْفَاكُم) : وآثركم واختار لكم.

(بُشِّرَ) : أُخبر .

(مَثَلاً) : مماثلا وشبيها .

(كَظِيمٌ) : مملوءٌ بالكرب والغم .

(يُنَشَّؤُاْ فِى الْحِلْيَةِ) : يربى ويَشِبّ فى الزينة .

(فِى الْخِصَامِ) : فى الجدال .

(غَيْرُ مُبِينٍ) : غير قادر على إظهار حجته .

التفســير

١٥ – (وَجَعَلُواْ لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا إِنَّ الْإِنسَانَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ) : أى نسب هؤلاء الكافرون إلى الله الولد وجعلوا هذا الولد من خلقه وعباده ، وهذا دليل على عنادهم وأنهم مناقضون لما يقولون ، حيث اعترفوا بأن الله – جلت قدرته – خالق السموات والأرض ، ثم وصفوه – سبحانه – بصفات المخلوقين التى تناقض كونه خالقا للسموات والأرض وخالقًا لما فيهما ، وهذا يدل على فرط جهلهم وسخافة عقولهم ، فربنا – سبحانه – لا تناله الوحشة فيحتاج إلى أنيس ، ولا يصيبه الذل فيتعزز ويتقوى بولى أو نصير ، ولا يعتريه الضعف فيفتقر إلى معين ، ولا يموت فيحتاج إلى من يرثه بل إنه – جل شأنه – الغنى فلا يفتقر ، العزيز فلا يذل ، القوى فلا يضعف ، الباقى فلا يعتريه فناء وصدق ربنا القائل : «وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِى الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُ وَلِىٌّ مِّنَ الذُّلِّ »[1] وعبر عن الولد بالجزء لأنه بضعة ممن هو ولد له كما قيل : أولادنا أكبادنا تمشى على الأرض ، والمقصود من الجزء هنا البنات ، ولهذا عقبه الله بقوله :

(١) سورة الإسراء : من الآية ١١١ .

(أَمِ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ) (إِنَّ الْإِنسَانَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ) أى: إن هذا الصنف والنوع من المخلوقات المنكر لأنعم ربه أشد الإنكار مبالغ فى ذلك، يبدو ذلك الإنكار منه واضحا جليا أو يعلنه ويجاهر ويذيع به.

١٦ - (أَمِ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَاكُم بِالْبَنِينَ):

أى: بل أتخذ لنفسه - سبحانه - ممن خلقه أخس النوعين شأنا وأدناهما منزلة، وهو البنات وآثركم واختار لكم أفضلها وهو الذكور مع أنكم أشد خلق الله نفورا من الإناث وأمقتكم لهن حتى بلغ بكم المقت أشده، واستبد بكم البغض فاقترفتم فى حقهن أبشع أنواع التنكيل، إنكم وأدتموهن ودفنتموهن أحياء ولم تتحرك فى قلوبكم رحمة الأبوة ولم تتردد فى جوانحكم عواطف الإنسانية إنكم بزعمكم هذا وافترائكم قد فقدتم الحياء كله فلم تخجلوا من الشطط والجور فى القسمة التى صورها فكركم السقيم وعقلكم المريض.

١٧ - (وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَٰنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ):

فى هذه الآية يصور الله حالهم وشأنهم أنهم إذا ما أُخبِرَ أحدهم أنه قد ولد له أنثى، إذا أخبر بذلك اربَدّ واغتم واسودّ وجهه من سوء ما بشر به إن بعض هؤلاء السفهاء كان يغاضب زوجه إذا ولدت أنثى. روى أن بعضهم هجر لذلك البيت الذى فيه امرأته فقالت:

ما لأبى حمزة لا يأتينا يظل فى البيت الذى يلينا
غضبان أن لا نلد البنينا ليس لنا من أمرنا ما شينا
وإنما نأخذ ما أعطينا

١٨ - (أَوَمَن يُنَشَّأُ فِي الْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ):

فى هذه الآية تكرير لإنكار الله عليهم زعمهم أنه - تعالى - اتخذ لنفسه بنات وأصفاهم بالبنين أى: أو جعلوا لله - تعالى - مَن شأنه أن يتربى فى الزينة من الذهب والفضة والحرير ونحوها مع أنه فى الجدال غير قادر على تقرير دعواه بالحجة والبرهان، ولذا يلجأ إلى البكاء إذا عجز عن الدفاع، أيليق أن ينسب هذا الصنف إلى الله تعالى؟ ألا ساء ما يحكمون. إن زعمهم هذا يدل على خفة أحلامهم وسفاهة عقولهم.

(وَجَعَلُواْ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًا ۚ أَشَهِدُواْ خَلْقَهُمْ ۚ سَتُكْتَبُ شَهَٰدَتُهُمْ وَيُسْـَٔلُونَ ﴿١٩﴾ وَقَالُواْ لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَٰهُم ۗ مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا مِّن قَبْلِهِۦ فَهُم بِهِۦ مُسْتَمْسِكُونَ ﴿٢١﴾ بَلْ قَالُوٓاْ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ ﴿٢٢﴾ وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾)

المفردات :

(جَعَلُواْ) : سَمَّوا .

(أَشَهِدُواْ خَلْقَهُمْ) : أحضروا خلق الله الملائكة فشاهدوهن إناثا .

(سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ) : ستسجل فى ديوان أعمالهم .

(إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ) : ما هم إلا يظنون ويكذبون .

(أُمَّةٍ) : دين وملة وطريقة .

(مُتْرَفُوهَآ) : المنعمون المنغمسون فى الشهوات .

التفسير

١٩ - (وَجَعَلُواْ الْمَلَآئِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَٰنِ إِنَاثًا أَشَهِدُواْ خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ) :

أى : إن هؤلاء المشركين سَمُّوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثا وقد أنكر عليهم ذلك السفه والجهل ووبخهم على افترائهم فقال - جل شأنه - : (أَشَهِدُواْ خَلْقَهُمْ) :

أى : أحضروا خلق الله إياهم فشاهدوهم إناثا ؟ إنهم لم يشهدوا خلقهم ، ولم يقفوا على أمرهم حتى يحكموا هذا الحكم ، إذ لا سبيل إلى معرفة أنوثة الملائكة إلا عن طريق المشاهدة ولم يشاهدوا خلقهم ، فلم يبق إلا طريق العقل أو النقل . والعقل بدوره عاجز وقاصر عن معرفة ذلك قطعا ، لأن هذا الأمر ليس من الأمور التى يحكم فيها العقل ولم يأت بها النقل فدعواهم هذه لا سند لها من رؤية أو عقل أو نقل وقد هددهم الله وتوعدهم - سبحانه - بقوله : (سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ) : أى : أنها ستسجل وترصد فى صحائف أعمالهم قال - تعالى - (مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ)[1] (وَيُسْأَلُونَ) :عن دعواهم سؤال تقريع وإهانة ، ويحاسبون على ذلك حسابا ينتهى بالعذاب الأليم ، لأن هذه الدعوى ما هى إلا افتراء على الله وفحش فى حقه - تعالى الله عن ذلك علوًّا كبيراً .

٢٠ - (وَقَالُواْ لَوْ شَآءَ الرَّحْمَٰنُ مَاعَبَدْنَاهُم مَّالَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ) :

وقال الكفار :لو شاء الله ألا نعبد الملائكة ما عبدناهم ، ولكننا عبدناهم بمشيئته وإرادته ، ويبنون على ذلك أنهم ما داموا قد عبدوا الملائكة بإرادة الله ومشيئته فلا يعاقبهم الله على ذلك لأنهم إنما فعلوا ما فعلوا على مقتضى مشيئة الله . فرد الله عليهم بقوله : (إِنْ هُمْ إِلاَّ يَخْرُصُونَ) : أى ما هم إلا يتوهمون ويتقولون على الله زورا وبهتانا بدعوى أنه - تعالى - راض عن عبادتهم للملائكة فإنه - تعالى - واحد أحد فرد صمد ، لم يلد ولم يولد ، وقد بين لهم ذلك بآياته الكونية ، وبرسالات رسله ، ولذا عقبه بقوله :

٢١ - (أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَاباً مِّن قَبْلِهِ فَهُم بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ) :

أنكر الله - سبحانه - على المشركين عبادتهم للملائكة بلا دليل ولا برهان وأبطل دعواهم أى : بل أنزلنا عليهم وجئناهم بكتاب من قبل القرآن أو من قبل الرسول ﷺ نطق بصحة ما يدعون من هذا الباطل فهم بهذا الكتاب متمسكون وعليه يعولون ؟ لم يثبت أن لديهم كتابا بذلك يستمسكون به .

٢٢ - (بَلْ قَالُوٓاْ إِنَّا وَجَدْنَآ آبَاءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وإِنَّا عَلَىٰٓ آثَارِهِم مُّهْتَدُونَ) :

(١) سورة «ق» الآية ١٨

هذا إبطال لما يزعمون ،أى أنهم لم يأتوا بحجة أو دليل من النقل أو العقل يؤيد ما ذهبوا إليه وزعموه ، بل إنهم اعترفوا بأنه لا سند لهم ولا حجة لديهم ولا أثارة من علم عندهم سوى أنهم قلدوا آباءهم وأسلافهم فيما اعتقدوه ، وقالوا : إنا وجدنا آباءنا على ملة وطريقة وإنا تابعناهم وسايرناهم على نهجهم وطريقتهم ، وهؤلاء بهذا التقليد قد تركوا التبصر والتدبر فيما يحيط بهم من آيات بينات وحجج واضحات تملأ السموات والأرض بل إنها فى أنفسهم أفلا يبصرون ! ولو تأملوا لهداهم ذلك إلى أن الله - جلت قدرته - هو الحقيق أن يعبد وحده دون سواه ، وأن ينزه عن الأولاد ذكورًا أو إناثا .

٢٣ - (وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ آبَاءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ) :

أى : وكما سار هؤلاء الكفار على نهج آبائهم وطريقتهم فى عبادة غير الله ولم يأتوا بدليل ولا حجة تؤيد ما زعموا ، كذلك كان الشأن بالنسبة للأمم السابقة ،أى إن هؤلاء ليسوا بدعاً فى هذا الزعم الكاذب ، فما بعثنا قبلك مَن نذير يحذر قومه مغبة كفرهم وضلالهم، ويدعوهم إلى توحيد ربهم إلا قال مترفو هذه الأمم الذين أبطرتهم النعمة وأعمتهم الشهوات عن النظر فيما جاء به المرسلون وأنفوا أن يكونوا تبعاً لغير شهواتهم قالوا : إنا وجدنا أباءنا وأسلافنا على دين وطريقة وإنا مقتدون ومتأسون بهم ، ولم يكلفوا أنفسهم مشقة البحث فى طلب الحق والوقوف عنده بل آثروا الدعة والنعيم فى الدنيا ، ولم يتفكروا فيما يصيبهم من خزى الآخرة وعذابها .

وتخصيص المترفين بالذكر مع أن غيرهم مثلهم فى عبادتهم وتقليدهم لآبائهم - تخصيصهم بالذكر - لأنه يفيد بطريق الأولى أن غيرهم ممن هم دونهم تبع لهم .



التفسير الوسيط

للقرآن الكريم

تأليف

لجنة من العلماء

بإشراف

مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر

المجلد الثالث

الحزب الخمسون

الطبعة الأولى ١٤٠٩هـ - ١٩٨٩م

القاهرة

الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

١٩٨٩

* ﴿ قَٰلَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ ءَابَآءَكُمْ ۖ قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٢٤﴾ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٥﴾ ﴾

المفـردات :

(قَالَ أَوَ لَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ آبَآءَكُمْ) : قال : أتقلدون آباءكم ولو جئتكم بأكثر هدى مما وجدتموهم عليه ؟! وسيأتى فى الشرح مزيد إيضاح .

(فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ) : فتأمل كيف كانت عاقبتهم .

التفسـير

٢٤ـ (قَالَ أَوَ لَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ آبَآءَكُمْ قَالُوٓا إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ) :

حكى الله قبل هذه الآية أنه ـ تعالى ـ ما أرسل فى قرية من نذير إلا قال مترفوها : إنا بما أرسلتم به كافرون ، وجاءت هذه الآية وما بعدها لحكاية بقية ما جرى بين الرسل المنذرين السابقين وبين أممهم ، تسلية لنبيه محمد ﷺ عن قول قريش فى آية سبقت هذه القصة مباشرة: (إِنَّا وَجَدْنَآ آبَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ آثَارِهِم مُّهْتَدُونَ)[1]

ومعنى الآية :قال كل نذير من الرسل السابقين لقومه : أتهتدون بآبائكم ولو جئتكم بدين أهدى مما وجدتم عليه آباءكم من الضلالة ؟ قالوا لرسلهم : إنا ثابتون على دين آبائنا (إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ) .

---

(١) سورة الزخرف ، من الآية : ٢٢ .

وعبر بقوله : (بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ) مع أنهم ليسوا على شىء من الهدى مجاراة لقولهم : إنهم على هدى ، أو أفعل التفضيل هنا على غير بابه ، والمراد أن ماجاءهم به هو الهدى دون ما عليه الآباء .

٢٥ - (فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ) :

فانتقمنا من الأمم المكذبة لرسلها بعذاب الاستئصال ، فتأمل - أيها الرسول - كيف كانت عاقبة المكذبين لرسلهم ، وسوف يلاقى قومك مثل جزائهم إن أصروا على كفرهم فلا تحزن عليهم .

(وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا الَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ ﴿٢٧﴾ وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾)

المفردات :

(بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ) : براء : مصدر بَرِئَ ، بمعنى تباعد ، والوصف منه : برىء ، ويستعمل براء بدلًا من برىء للمبالغة فى البراءة ، ولا يثنى ولا يجمع كشأن المصادر ، فيقال : رجلان بَرَاء ورجالٌ بَرَاء ، أمَّا بَرِىء فيثنى ويجمع فيقال : بريئان وبريئون وبرآء .

(إِلَّا الَّذِى فَطَرَنِى)[1] أى : ابتدأنى واخترعنى ، قال ابن عباس - رضى الله عنهما - : كنت لا أدرى ما فاطر السموات حتى أتانى أعرابيان يختصمان فى بئر ، فقال أحدهما : أنا فطرتها ، أى : ابتدأتها . ولفظ « إلَّا » فى قوله : (إِلَّا الَّذِى فَطَرَنِى) بمعنى لكنْ .

(وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِ) : وجعل الله ، أو جعل إبراهيم كلمة التوحيد المفهومة من قوله : (إِنَّنِى بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ إِلَّا الَّذِى فَطَرَنِى) - جعلها - كلمة باقية فى ذرية إبراهيم .

(١) فطر : من باب نصر .

التفسير

٢٦، ٢٧ - (وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ . إِلَّا الَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ) :

الكلام فى قصة إبراهيم - عليه السلام - مع أبيه وقومه ، تمهيد لما فيه أهل مكة من العناد والحسد والابتعاد عن تدبر الآيات ، وأنهم لو قلدوا آباءهم لكان الأولى بالتقليد الأفضل الأعلم الذى يفتخرون بالانتماء إليه ، وهو إبراهيم - عليه السلام - فكأنه بعد لومهم على التقليد لغيرهم يلومهم على تخصيص آبائهم الوثنيين بالتقليد ، وترك تقليد أبيهم إبراهيم الذى ترك فيهم كلمة التوحيد .

ومعنى الآيتين : واذكر - أيها الرسول - لقومك وقت قول إبراهيم - عليه السلام - لأبيه آزر وقومه : إننى برئ أشد البراءة مما تعبدونه من دون الله ، لكن الذى خلقنى وابتدعنى فإنه سيهدينى بعد توحيده إلى سواه من المعارف الإلهية .

٢٨ - (وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ) :

وجعل الله - أو إبراهيم - كلمة التوحيد التى دان بها إبراهيم بين أبيه وقومه الوثنيين - جعلها - باقية فى ذريته ، حيث أوصى بها بنيه ويعقوب ، وفى ذلك يقول الله - تعالى - فى سورة البقرة : « وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ : يَا بَنِىَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ » الآية ١٣٢ .

وقد قامت ذريته من الأنبياء والصالحين والمتأملين فى آيات الله فى الجاهلية - قامت ذريته - بالدعوة إلى التوحيد ، لكى يرجع من أشرك منهم بدعاء من وحد الله - تعالى - ومن هؤلاء الموحدين فى الجاهلية زيد بن عمرو بن نفيل ، فقد دان بالتوحيد مخالفًا قومه ، وفى ذلك يقول :

أربًا واحدًا أم ألف رب   أدينُ إذا تقسمت الأمور

تركت اللّات والعُزّى جميعًا ... كذلك يفعل الرجل الخبير

فَلَا العُزّى أدين ولا ابْنَتَيْهَا ... كذلك يفعل الرجل الخبير

وَلَا هُبَلًا أزور وكان ربًّا ... لنا فى الدّهر إذ حُلْمِى[1] صغير

وقال أمية بن أبى الصّلت :

إلٰهُ العَالَمِينَ وكل أرض ... وربُّ الرّاسيات من الجبال

بناها وابتنى سبعا شِدَادا ... بلا عمد يُرَيْنَ ولا رجال

وسواها وزينها بنور ... من الشمس المضيئة والهلال

ومن شُهُب تلألأُ فى دجاها ... مراميها أشد من النصال

وشق الأرض فانبجست عيونًا ... وأنهارا من العذب الزلال

وبارك فى نواحيها وزكّى ... بها ما كان من حَرْث ومال

وكل مُعَمَّر لابد يوماً ... وذى دنيا يصير إلى زوال

وسيق المجرمون وهم عراة ... إلى ذات المقامع والنكال

وحل المتقون بدار صدق ... وعيش ناعم تحت الظلال

لهم ما يشتهون وما تمنوا ... من الأفراح فيها والكمال

* * *

(١) حلمى صغير — بضم الحاء — أى : عقلى صغير .

(بَلْ مَتَّعْتُ هَٰؤُلَاءِ وَءَابَاءَهُمْ حَتَّىٰ جَاءَهُمُ الْحَقُّ وَرَسُولٌ مُّبِينٌ ﴿٢٩﴾ وَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ قَالُوا هَٰذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِ كَافِرُونَ ﴿٣٠﴾ وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٣٢﴾)

المفـردات :

(جَاءَهُمُ الْحَقُّ) : القرآن .

(وَرَسُولٌ مُّبِينٌ) : ورسول ظاهر الرسالة ، من أبان ، بمعنى : اتضح وظهر ، ويستعمل لازمًا كما جاء هنا ، ومتعديًا كقولك : أبنت الكلامَ ، أى : أوضحته .

(عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ) : على رجل من إحدى القريتين عظيم بالمال والجاه ، والمراد بالقريتين مكة والطائف .

(أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ) : أهم يعطون النبوة التى هى نعمة ربك ــ أهم يعطونها ــ لمن يشاءون ، فأى شأن لهم بها ؟ ! .

(لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا) : ليسخر بعضهم بعضًا فى مصالحهم ، فيكون بعضهم سببًا لمعاش بعض .

التفسير

٢٩ - (بَلْ[١] مَتَّعْتُ هَٰٓؤُلَآءِ وَآبَآءَهُمْ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ الْحَقُّ وَرَسُولٌ مُّبِينٌ) :

أى : بل متعت أهل مكة المعاصرين للرسول ﷺ وآباءهم بالإمهال فى الدنيا والنعمة ، وهم على ما هم عليه من الوثنية ، حتى جاءهم القرآن بالتوحيد وهو الحق من ربهم ، وجاءهم رسول ظاهر الرسالة من عند الله تعالى ، بما أيدناه به من المعجزات الباهرات ، وكان عليهم أن يتركوا ما هم عليه من الوثنية والاشتغال بمتاع الحياة الدنيا ، بعد أن جاءهم الحق الذى كان عليه إبراهيم - عليه السلام - على لسان الصادق الأمين ، ولكنهم عكسوا فجعلوا ما هو سبب للطهر من أدران الماضى والرجوع عنه - جعلوه . سببًا للتوغل فيما كانوا عليه من ضلال مبين ، ووصف هذا الحق بأنه سحر مبين ، وكفروا به ، كما حكاه الله بقوله :

٣٠ - (وَلَمَّا جَآءَهُمُ الْحَقُّ قَالُواْ هَٰذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِ كَافِرُونَ) :

وحين جاء قريشًا القرآنُ الذى هو حق من ربهم ليخلصهم من ضلالهم ، ويرشدهم إلى التوحيد ازدادوا شرًّا ، وضموا إلى شركهم معاندة الحق والاستخفاف به ، فسموا القرآن سحرًا وكفروا به ، واحتقروا رسول الله ﷺ وذلك ما حكاه الله بقوله :

٣١ - (وَقَالُواْ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ) : مكــة والطائف . (عَظِيمٍ) : فى قومه بالرياسة والجاه والمال ، يعنون بهذا الرجل الوليد بن المغيرة المخزومى من مكة ، وحبيب بن عَمْرو بن عُمَيْر الثقفى من الطائف .

وقال قتادة : الوليد بن المغيرة ، وعروة بن مسعود الثقفى ، وكان الوليد رجلًا ثريًّا له رياسة وجاه فى قومه بمكة ، وكانوا لذلك يسمونه ريحانة قريش ، وكان يقول : لو كان ما يقوله محمد حقًّا لنزل علىَّ أو على أبى مسعود - يقصد بأبى مسعود عروة بن مسعود الثقفى ، وكان يكَنَّى بأبى مسعود .

---

(١) بل للإضراب الانتقالى من قوله -جل شأنه- : « لعلهم يرجعون » إلى مجىء الحق وكفرهم به ، فكأنه قيل : بل لم يرجعوا إلى الحق بل كفروا به ، كما سيتضح من الشرح التالى .

وهذا لون آخر من إنكارهم للنبوة ، وذلك أنهم أنكروا أولًا أن يكون النبي بشرًا ، ثم لما بُكِّتوا بتكرير الحجج على أن النبوة لا يصح أن تكون من الملائكة ، بل يجب أن تكون من البشر ، ولم تعد لهم حجة على دعواهم أن يكون الرسول مَلَكًا ـ لمَّا حدث ذلك ـ جاءوا بالإنكار من وجه آخر ، فتحكموا على الله أن يكون الرسول أحد هذين الرجلين .

وتعبيرهم عمَّا جاء به الرسول بكونه قرآنًا ، ليس من باب اعترافهم به ، بل هو من باب الاستهانة ، وكأنهم قالوا : لو كان هذا الذى يدعيه محمد قرآنًا حقًّا من عند الله لنزل على أحد هذين الرجلين .

وما كان محمد ﷺ بأقل منهم شرفًا ، فهو من أعظمهم حسبًا ، ولا ينقص من قدره أنه كان قليل المال ، وقد غفل هؤلاء المنكرون عن أن الرسالة إنما تستدعى عظم النفس ، بالتخلى عن الرذائل والتحلى بالفضائل وعلو الهمة ، دون التزخرف بالزخارف الدنيوية ، ولذا دانت لمحمد ﷺ الجزيرة العربية فى حياته ، ومكن الله لدينه فى أنحاء الأرض ، واستخلف أمته على كثير من بقاعها ، وفاءً بوعده تعالى : « وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِى ارْتَضَىٰ لَهُمْ . . . » (1) .

٣٢ ـ (أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَةَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِى الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَةُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ) :

فى هذه الآية استنكار وتعجيب من تحكمهم بنزول القرآن على من أرادوا ، والرحمة يجوز أن يكون المراد منها عمومها وتدخل النبوة فيها ، ويجوز أن يراد منها النبوة ، وعلى هذا يكون المراد من قسم الرحمة إعطاءها لا تقسيمها ، أما على المعنى الأول فالمراد من قسمها تقسيمها وهو الظاهر .

والمعنى : أَلَهُمْ حَقٌّ فى تقسيم رحمة ربك فيجعلوا قسمًا منها وهو النبوة لمن أرادوا ؟ نحن قسمنا من رحمتنا أسباب معيشتهم فى الحياة الدنيا ، قسمة تقتضيها الحكمة ، ولم نفوض

(1) سورة النور ، من الآية : ٥٥ .

أمرها إليهم ، لعجزهم عن تدبيرها ، ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات متفاوتة فى الرزق وغيره من مظاهر الحياة ، فمنهم ضعيف وقوىٌّ ،وغنىٌّ وفقير ، ورئيس ومرءُوس ، وحاكم ومحكوم ، ليسخر بعضهم بعضًا فى مصالحهم ، ويستخدموهم فى مهنهم حتى يتعايشوا ، لا لكمال فى الموسع عليه ، ولا لنقص فى المقتر عليه ، فنحن الذين نقسم رحمتنا لا هم ، ولو فوضنا ذلك إلى تدبيرهم لهلكوا .

فإذا كانوا فى تدبير خاصة أمرهم بهذا العجز ، فما ظنهم بتدبير أمر الدين ؟! ومن أين لهم البحث عن أمر النبوة التى هى من رحمة الله ، واختيار مَنْ يصلح لها ويقوم بأَمرها ، ورحمة ربك بالنبوة وما يتبعها من سعادة الدارين ، أو رحمته بالهداية إلى الإيمان خير مما يجمعون من حطام الدنيا ، فالعظيم من رُزق تلك الرحمة دون حطام الدنيا ،فلا وجه لتعاليكم على محمد بمال أو بجاه .

(وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴿٣٣﴾ وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَٰبًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِـُٔونَ ﴿٣٤﴾ وَزُخْرُفًا ۚ وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَٱلْـَٔاخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٣٥﴾)

المفردات :

(وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ) : ومصاعد عليها يصعدون إلى عوالى قصورهم .

(وَسُرُرًا) : جمع سرير ، ويطلق على مكان النوم المعروف ، وعلى الكرسى الذى يجلس عليه ، وهو المراد هنا ، ولذا جاءَ بعد السرر . قوله – سبحانه –: (عَلَيْهَا يَتَّكِئُونَ) .

(عَلَيْهَا يَتَّكِئُونَ) أى : يتربعون ، ومنه قوله ﷺ : « أنا لا آكُلُ متَّكِئًا » أى : متربعًا على الهيئة التى تدعو إلى كثرة الأكل ، وكان يأكل مستوفزًا غير متربع ولا متمكن ، وليس المراد به الميل على شق كما يظنه بعض عوام الطلبة . انتهى من القاموس .

ويطلق السرير أيضًا على الملك والنعمة وخفض العيش ، إلى غير ذلك من المعانى التى ذكرها صاحب القاموس .

(وَزُخْرُفًا) أى : نقوشًا وتزاويق ، أو ذهبًا ، وسيأتى فى الشرح ما قيل فى ذلك .

(لَمَّا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا) : لمَّا هنا بمعنى إلَّا .

التفسير

٣٣ـ (وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِالرَّحْمَـٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ) :

الآية استئناف مبين لحقارة متاع الدنيا عند الله ، ودناءة قدره عنده جل وعلا .

ومعنى الآية : ولولا أن يكون الناس أمة واحدة مجتمعة على الكفر ، لجعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم سقفًا من فضة ، ومصاعد من فضة عليها يصعدون إلى طبقات قصورهم ، لأنهم يحبون الدنيا ويؤثرونها على الآخرة ، وما ذلك إلَّا متاع الحياة الدنيا وهو مع كونه نعمة حقير عند الله فيمنحه الحقير عنده وهو الكافر ، وإن كان لا يستحق النعمة ، ولكننا لم نفعل ذلك حتى لا يكون الناس أمة واحدة مجتمعة على الكفر ، حيث يفتن المؤمنون الفقراء بغناهم فيكفرون كما كفر هؤلاء ، لهذا جعلنا فى كل من الكفار والمؤمنين أغنياء وفقراء ، حتى يعلم الناس أن الغنى ليس دليلًا على رضوان الله وحبه ، وأن الفقر ليس دليلًا على سخط الله وكراهيته ، وحتى يكون الناس طبقات ليتخذ بعضهم بعضًا سُخْرِيًّا .

٣٤ـ (وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَابًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِئُونَ) :

أى : ولجعلنا لبيوت الكفار أبوابًا من فضة وسررا من فضة عليها ينامون أو يجلسون[1] ، لهوان متاع الدنيا عندنا فلا نعبأ بأن نعطيه من لا يستحقه ، لينالوا عذابهم فى الآخرة .

(١) راجع المفردات .

٣٥ـ (وَزُخْرُفًا وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ) :

قال الحسن : الزخرف : النقوش والتزاويق ، وقال ابن زيد : هو أثاث البيت وتجملاته وقال ابن عباس : الزخرف : الذهب ، وقال الراغب : الزخرف : الزينة المزوقة ، ومنه قيل للذهب : زخرف ، وقال صاحب المختار : الزخرف : الذهب ، ثم يشبه به كل مُمَوَّه مزوق .

والمعنى : ولجعلنا لبيوت الكفار نقوشًا وزينة من ذهب وغيره ، وما كل ذلك من البيوت وزخارفها إلَّا متاع الحياة الدنيا ، والآخرة بما فيها من نعيم يعجز الواصفون عن وصفه ، خالصة للمتقين الذين اجتنبوا الكفر وسائر المعاصى .

وفى الآية تزهيد فى متاع الدنيا وزخارفها ، والحث على التقوى ، وقد أخرج الترمذى وصححه وابن ماجة عن سهل بن سعد قال : قال رسول الله ﷺ : « لو كانتِ الدنيا تُساوِى عندَ اللهِ جناحَ بعوضةٍ ما سقَى منها كافرًا شَرْبةَ ماء » .

وفى صحيح الترمذى عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « الدنيا سِجنُ المؤمِنِ وجنّةُ الكافِرِ » .

وعن على ـ كرم الله وجهه ـ : الدنيا أحقر من ذراع خنزير ميت بال عليه كلب فى يد مجذوم . وقال بعض الشعراء :

فلو كانت الدنيا جزاءً لمحسن ... إذًا لم يكن فيها معاش لظالم
لقد جاع فيها الأنبياءُ كرامة ... وقد شبعت فيها بطون البهائم

وقال آخر :

إذا أبقت الدنيا على المرءِ دينه ... فما فاته منهـا فليس بضائر
فلا تزن الدنيا جناح بعوضة ... ولا وزن رَقٍّ من جناح لطائر
فلم يرض بالدنيا ثوابًا لمحسن ... ولا رضى الدنيا عقابًا لكافر

(وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٧﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَنَا قَالَ يَٰلَيْتَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ ٱلْقَرِينُ ﴿٣٨﴾ وَلَن يَنفَعَكُمُ ٱلْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٣٩﴾)

المفـردات :

(وَمَن يَعْشُ) - بضم الشين - أصله : يعشو مضارع عشا فجزم بحذف واوه[1] ، ومعناه ومن يَتَعَامَ ويعرض وليس بأعمى ، وقرىء « وَمَن يَعْشَ » (بفتح الشين) وماضيه عَشِيَ كرضى يرضى ، ومعناه يعمى لفقد بصره ، انظر الآلوسى .

(نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا) : نُتِحْ ونسبب له شيطانًا جزاءً على كفره .

(بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ) : مشرق الشتاء ومشرق الصيف فإنهما متباعدان ، كما قال تعالى : « رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ »[2] وقال الفراءُ : أراد المشرق والمغرب ، فغلب اسم أحدهما كما يقال : القمران للشمس والقمر ، والعُمَران لأبى بكر وعمر .

(فَبِئْسَ الْقَرِينُ) : فبئس الصاحب .

التفسـير

٣٦ـ (وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ) :

المراد بالذكر هنا إما القرآن ، وإضافته إلى الرحمن ، للإيذان بنزوله رحمة للعالمين ،

---

(١) لأنه فعل الشرط.

(٢) سورة الرحمن ، الآية : ١٧

وإما مصدر ذكر ، أى : ومن يَتَعَامَ عن أن يذكر الرَّحْمٰن نُتِحْ ونسبب له شيطانًا يستولى عليه استيلاء القَيْضِ على البيض ، والقيض : قشر البيضة الخارجى .

ومعنى الآية : ومن يَتَعَامَ ويعرض عن القرآن الذى أنزله الرحمن ، أو عن أن يذكر الرَّحْمٰن وألوهيته ونعمه ، فانغمس فى كفره ومعاصيه ، نجعل له شيطانًا جزاءً له على كفره ، فهو قرين له فى الدنيا ، يمنعه من الواجب والحلال ، وينهاه عن الطاعة ويأمره بالمعصية ، فهو مصاحب له فى الدنيا لإغوائه ، وفى الآخرة حتى يدخل معه النار ، جزاءً له عن تعاميه أو عماه عن ذكر الرَّحْمٰن .

وقد جاء فى الخبر : « إن الكافر إذا خرج من قبره يشفع بشيطان لا يزال معه حتى يدخلا النار ، وإن المؤمن يشفع بملك حتى يقضى الله بين خلقه » .

٣٧- (وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ) :

ذكر ضمير الكافر هنا بلفظ الجمع ، لأن (مَن) فى قوله : (وَمَن يَعْشُ) جَمْعٌ فى المعنى وإن كان مفردًا فى اللفظ .

والمعنى : وإن الشياطين ليصدون فى الدنيا قرناءهم من كفرة الإنس ، ويحسب هؤلاء الكفار أنفسهم أنهم مهتدون ، وقيل : ويحسب الكفار أن الشياطين مهتدون فيطيعونهم.

٣٨- (حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَنَا قَالَ يَا لَيْتَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ) :

أى : ويستمر هؤلاء الكفار معرضين عن ذكر الله ، حتى إذا جاءنا كل واحد منهم مع قرينه قال الكافر للشيطان المقارن له : يا ليت بينى وبينك بعد المشرقين[1] ، حتى لا أستمع إغواءك فبئس الصاحب أنت .

٣٩- (وَلَن يَنفَعَكُمُ الْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِى الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ) :

هذه الآية حكاية ما يقال لهم من جهة الله تعالى .

---

(١) تقدم فى المفردات بيان المراد من المشرقين فارجع إليه .

والمعنى : ولن ينفعكم يوم القيامة تمنيكم بُعْدَ الشياطين عنكم فى الدنيا بُعْدَ المشرقين ، ـ لن ينفعكم ذلك ـ حين تبين لكم أنكم ظلمتم أنفسكم باتباعكم إياهم ، لأنكم فى العذاب مشتركون كما كنتم مشتركين فى سببه فى الدنيا .

وقال سيبويه : (إذ) فى قوله : (إذ ظَّلَمْتُمْ) حرف جىء به للتعليل وليست ظرفًا ، والمعنى عليه : ولن ينفعكم تمنيكم بُعْدَ الشياطين القارنين لكم ـ لن ينفعكم ـ يوم القيامة فى أنكم وإياهم فى العذاب مشتركون ، لأنكم جميعًا ظلمتم أنفسكم فى الدنيا بالكفر والمعاصى. والكلام فى هذا الموضوع طويل ، وحسب القارىء ما تقدم .

(أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ أَوْ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ وَمَن كَانَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٤٠﴾ فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ ﴿٤١﴾ أَوْ نُرِيَنَّكَ ٱلَّذِى وَعَدْنَٰهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِم مُّقْتَدِرُونَ ﴿٤٢﴾ فَٱسْتَمْسِكْ بِٱلَّذِىٓ أُوحِىَ إِلَيْكَ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٣﴾ وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ۖ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ ﴿٤٤﴾ وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ ﴿٤٥﴾)

المفردات :

(فَٱسْتَمْسِكْ بِٱلَّذِىٓ أُوحِىَ إِلَيْكَ) : فَدُمْ على العمل بالقرآن الذى أُوحى إليك .

(إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ) : فإنك على طريق لا عوج فيه .

(وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ) : وإن القرآن لشرف لك ولقومك .

التفسير

٤٠ - (أَفَأَنتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ أَوْ تَهْدِى الْعُمْىَ وَمَن كَانَ فِى ضَلَالٍ مُّبِينٍ) :

كان رسول الله ﷺ يبالغ فى دعوة قومه إلى الحق ويبذل فى ذلك جهده ، وهم لا ينفكون عن شركهم ، بل يتوغلون فى غيهم وتعاميهم عمًّا يشاهدونه من شواهد النبوة ، ويَتَصامون ويتعامون عن بينات القرآن ، فهم كالصم العمى ، فنزلت هذه الآية لتسلية النبى ﷺ عن همه وضيقه لعدم استجابتهم .

ومعنى الآية : أفى قدرتك هداية هؤلاء المعاندين ، فأنت تسمع الصم الذين لا يسمعون أو تهدى العمى الذين لا يبصرون ومن كان فى بعد عن الطريق المستقيم ، إن ذلك ليس لك أيها النبى ، بل هو لله العلى القدير ، فهو الذى يرد السمع للصم الذين لا يسمعون ويرد البصر للعمى الذين لا يبصرون ، ويهدى أهْلَ الضلال إلى الصراط المستقيم ، فلا يضق صدرك بتصامهم وتعاميهم وضلالهم ، فقد بلغت الرسالة ، وأديت الأمانة على أتم وجه ، فما عليك إلَّا البلاغ المبين ، وقد فعلت .

٤١ ، ٤٢ - (فَإِمَّا[1] نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ . أَوْ نُرِيَنَّكَ الَّذِى وَعَدْنَاهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِم مُّقْتَدِرُونَ) :

أى : فإما أن نقبضك إلينا - كما تمنوا - قبل أن نُبَصِّرك عذابهم ، ونشفى بذلك صدرك وصدور المؤمنين فإنا لا محالة منهم منتقمون فى الدنيا والآخرة ، أو نتركك حيًّا نُبَصِّرك بالعذاب الذى وعدناهم فإنا عليهم مقتدرون ، بحيث لا مناص لهم من تنفيذ وعدنا ولا ملجأ يقيهم من قدرتنا وقهرنا .

وهكذا كان ، فإنه لم يفلت أحد من صناديدهم فى غزوة بدر وغيرها إلَّا من اعتصم بالإيمـان .

---

(١) أصلها فإن ما فأدغمت النون فى الميم ، ولفظ (ما) للتوكيد ، وهى تقتضى توكيد الفعل بعدها بنون التوكيد مثل لام القسم ، نحو : لأصومن ، وما يعطف على فعلها يؤكد مثله ، ولذا أكد نتوفى فى قوله تعالى : « أو نتوفينك » من الآية : ٧٧ من سورة غافر .

٤٣، ٤٤ - (فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِيَ أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ . وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ) :

خطاب للنبي ﷺ ولأمته تبعًا له ، لأنه إمامهم ، وفيه تسلية له ﷺ على ما يرى من عناد قومه ، وتقوية لما هو عليه من الاستمساك بوحي ربه .

والمعنى : إذا كان أحد هذين الأمرين واقعًا بقريش المعاندين لك ، فدم على الاستمساك بالقرآن الذى أوحى إليك من ربك ، لأنك على صراط مستقيم يوصلك إلى مرضاة الله تبارك وتعالى ، ولا تهتم بمعارضتهم ، واستمر على دعوتهم .

وإن القرآن لشرف لك ولقومك وللعرب جميعًا ، فقد نزل بلغتهم على نبي منهم ، وكل من آمن من الشعوب غير العربية تعلموا لغة العرب لكي يفهموا لغة القرآن والمرادَ منه أمرًا ونهيًا ، وجميع ما فيه من الأنباء ، فشرفوا بذلك .

وكما أنه شرف للعرب فهو شرف لكل من آمن به ، فإنه دستور الحق الإلٰهي ، أخرج الطبرى عن ابن عباس قال : أقبل النبي ﷺ من سرية أو غزاة ، فدعا فاطمة فقال : « يا فاطمة اشترى نفسك من الله ، فإني لا أغنى عنك من الله شيئًا » وقال مثل ذلك لنسوته ، وقال مثل ذلك لعترته ، ثم قال نبي الله ﷺ : « ما بنو هاشم بأولى الناس بأمتى ، إن أولى الناس بأمتى المتقون ، ولا قريش بأولى الناس بأمتى ، إن أولى الناس بأمتى المتقون ، ولا الأنصار بأولى الناس بأمتى ، إن أولى الناس بأمتى المتقون ، ولا الموالى بأولى الناس بأمتى ، إن أولى الناس بأمتى المتقون ، إنما أنتم من رجل وامرأة[1] وأنتم كجمام[2] الصاع ، ليس لأحد فضل على أحد إلّا بالتقوى » .

وأخرج الطبرى أيضًا عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « لينتهينّ أقوام يفتخرون بفحم من فحم جهنم ، أو يكونون شرًّا عند الله من الجعْلان[3] التي تدفع النتن

---

(١) أى : من آدم وحواء .

(٢) الجمام : ما فوق المكيال من الطفاف .

(٣) الجعلان - بكسر الجيم - جمع جعل - بفتحها - وهو دويبة حقيرة .

بأنفها ، كلكم بنو آدم ، وآدم من تراب ، إن الله أذهب عنكم عَيْبَةَ الجاهلية[١] وفخرها بالآباء ، الناس مؤمن تقى وفاجر شقى » .

وفسر بعضهم الذِّكر بالتذكير ، أى : وإن القرآن لتذكير لك ولقومك .

ثم ختم الله الآيتين بقوله : (وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ) أى : وسوف تسألون يوم القيامة عن القرآن الذى شرف الله به قومك ، أى : تُسألون عن القيام بحقوقه .

٤٥ - (وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ الرَّحْمَٰنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ) :

كانت قريش تعبد الأوثان زاعمة أنهم يتقربون بعبادتها إلى الله ، وذلك ما حكاه الله بقوله : « مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى اللهِ زُلْفَىٰٓ »[٢] . وقد كذبوا ، فأى صلة بين أحجار لا تضر ولا تنفع وبين الله الخالق الرازق ، حتى يتقربوا بعبادتها إليه سبحانه : « وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا اللهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ »[٣] والله أقرب إلى عباده من حبل الوريد .

ولمَّا دعاهم النبى ﷺ أن يتركوا عبادتها إلى عبادة الله تعالى وحده ، عجبوا من ذلك وقالوا ما حكاه الله عنهم فى سورة صٓ بقوله : « أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَاحِدًا إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ »[٤] . ولما أفهمهم أن الله لا يرضى عن ذلك وأن الكتب السماوية مجمعة على تحريم عبادتها وتكفير من يعبدها قالوا : « مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِى الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا اخْتِلَاقٌ »[٥] وقصدوا بالملة الآخرة النصرانية ، وأهلُها يتعبدون بالعهد القديم الشامل للتوراة ، والعهد الجديد الذى هو الإنجيل ، وقد كذبوا فالتوراة والإنجيل حرما عبادة غير الله تعالى ، وقد أمر موسى قومه بمحاربة الوثنيين فى الأرض المقدسة ، فامتنعوا لجبروت هؤلاء الوثنيين ، وقالوا لموسى : « فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَآ إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ »[٦] فحبسهم الله فى التيه

(١) أى : العيب الذى كان فى الجاهلية فى الأحساب ، بأن يحط المفتخر ممن افتخر عليه بالطعن فى حسبه .
(٢) سورة الزمر ، من الآية : ٣
(٣) سورة ص ، من الآية : ٦٥
(٤) الآية رقم : ٥
(٥) سورة ص - الآية رقم : ٧
(٦) سورة المائدة ، من الآية : ٢٤

أربعين سنة يتيهون فى الأرض ، حتى نشأ جيل جديد أقوى إيمانًا وإقدامًا من آبائهم ، ففتح بهم أريحا وسائر البلاد المقدسة .

والأمر فى قوله تعالى : « وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَا » موجه إلى الرسول ﷺ والمعنى على هذا : واسأل أيها الرسول أمم من أرسلنا قبلك من رسلنا ، أو على جعل سؤال الأمم بمنزلة سؤال المرسلين ، قال الفراء : إنما يخبرون عن كتب الرسل ، فإذا سألهم النبى ﷺ ، فكأنه سأل المرسلين – عليهم السلام – وعلى الوجهين السؤال موجه إلى الأمم ، ولكنه بمنزلة سؤال الرسل ، لأنهم يحكون ما جاء فى كتبهم .

وروى ذلك عن الحسن ومجاهد وقتادة والسدى وعطاء ، وهو إحدى روايتين عن ابن عباس رضى الله عنهما .

وأخرج ابن المنذر وغيره عن قتادة أنه قال فى بعض القراءات : « واسأل من أرسلنا إليهم رسلنا قبلك » ، وروى أن فى قراءة عبد الله بن مسعود « واسأل الذين أرسلنا إليهم قبلك من رسلنا » والقراءتان المذكورتان شارحتان للمراد من هذه القراءة .

ومعنى الآية على هذا الوجه : واسأل أيها الرسول المرسلين قبلك فى شخص أممهم لتسمع بشأن إجابتهم – اسألهم – أجعلنا فى كتبهم من غير الرحمٰن آلهة يعبدون ، فسيقولون : لا معبود فى كتبنا سواه ، فأنت لم تأت قومك حين دعوتهم إلى التوحيد – لم تأتهم – بأمر ابتدعته أنت ، بل هو أمر مجمع عليه من سائر المرسلين .

وأمر الرسول ﷺ بسؤالهم ، كناية عن أمر قريش بسؤالهم ، فهو من باب قولهم : إياك أعنى واسمعى يا جارة .

ويصح أن يكون الأمر بالسؤال موجهًا إلى كل واحد من قريش وليس موجهًا إلى الرسول ﷺ وكأنه قيل : وليسأل كل واحد منكم أمم من أرسلنا قبلك من رسلنا : (أَجَعَلْنَا مِن دُونِ الرَّحْمَٰنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ) ليعلموا الحقيقة حتى لا يقولوا : « مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِى الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا اخْتِلَاقٌ » .

وعلى هذا يكون أسلوب القرآن مع قريش فى هذا الموضوع له طريقتان :

(إحداهما)أن يكون الخطاب موجهًا إلى جماعتهم ، وذلك فى قول الله تعالى : « فَاسْأَلُوٓاْ أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ »[1] .

(وثانيهما) أن يكون موجهًا إلى كل واحد منهم ، وذلك فى قوله تعالى هنا : (وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَآ) .

وفى كلا الوجهين من البلاغة ما فيه ، فقد جعل سؤال أمم الرسل سؤالًا لنفس الرسل ، لأنهم سيجيبون من كتبهم ، والله تعالى هو الموفق .

(وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَقَالَ إِنِّى رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٦﴾ فَلَمَّا جَآءَهُم بِـَٔايَٰتِنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَضْحَكُونَ ﴿٤٧﴾ وَمَا نُرِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ إِلَّا هِىَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا وَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤٨﴾ وَقَالُواْ يَٰٓأَيُّهَ ٱلسَّاحِرُ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ ﴿٤٩﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿٥٠﴾)

المفردات :

(وَمَلَئِهِ) أى : وأشراف قومه ، وخصوا بالذكر ؛ لأنهم بطانته وجلساؤه ، وغيرهم تبع لهم ، وقد يطلق الملأ على الجماعة كما فى المختار .

(بِمَا عَهِدَ عِندَكَ) : بعهده عندك أننا إن آمنا كشف عنا العذاب .

(إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ) أى : فى المستقبل .

(ينكُثُونَ) : ينقضون العهد .

(١) سورة النحل من الآية : ٤٣

التفسير

٤٦، ٤٧ - (وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَقَالَ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ. فَلَمَّا جَاءَهُم بِآيَاتِنَا إِذَا هُم مِّنْهَا يَضْحَكُونَ) :

لَمَّا أعلم الله النبي ﷺ أنه منتقم له من أعدائه ، وأقام لهم الحجة باستشهاد الأنبياء السابقين واتفاق الكل على التوحيد ، أكد ذلك بقصة موسى وفرعون ، وأنه دعاه وقومه إلى التوحيد ، فلما كذبوه أغرقهم الله - تعالى - ، كما فيه إبطال قولهم : (لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ) لأن موسى لم يكن لديه من زخارف الدنيا شيء ومع ذلك بعثه الله إلى فرعون وهو ملك جبار ، وإلى قومه وهم أيضًا جبابرة - بعثه الله إليهم - ليدعوهم إلى التوحيد كما يدعو محمد قومه إليه ، فليس الفقر بمانع من إرسال أصحاب النفوس الزكية برسالات ربهم .

والمعنى : ولقد أرسلنا موسى - عليه السلام - مع أنه كان فقيرًا - أرسلناه - إلى ملك جبار هو فرعون ، وإلى قومه ، ولم تبلغوا أنتم يا أهل مكة شيئًا يذكر مما كانوا فيه من العظمة ، فقال لهم : إني رسول رب العالمين إليكم ، فلما جاءهم بآياتنا التسع[1] المؤيدة له ، فاجئوا أول ما رأوها بالضحك استهزاء وسخرية ولم يتأملوا فيها ، يوهمون أتباعهم أنها سحر وتخييل ، وأنهم قادرون على إبطالها .

ولعلهم كانوا يضحكون من الآية الأولى قبل أن يروا آثارها ويعلموا جديتها ، فلما ابتلعت عصاه سحرهم لم يكن هناك سبب لضحكهم ، وبخاصة بعد أن غمرهم الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم ، واتضح لهم أنه حينما ينذرهم يقع إنذاره إن لم يسلموا ، ولذا كانوا يتضرعون إليه ليزيل عنهم ما نزل بهم ، كما سيجيء .

٤٨ - (وَمَا نُرِيهِم مِّنْ آيَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا) :

---

(١) وهي : عصاه ويده والطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم ، ونقص الزروع والأنفس والثمرات .

السابقة عليها ، وقيل : معناه أن الأُولى تقتضى علمًا والثانية تقتضى علمًا ، فبضم الثانية إلى الأُولى يزداد الوضوح ، ومعنى أُخوة الآية للأُخرى أنها قريبة منها فى المعنى ، ومشاكلة لها فيه .

وقد ختم الله الآية بقوله : (وَأَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ) أى : وأخذناهم بالعذاب المتدرج المتكرر الذى تشتمل عليه تلك الآيات ، لكى يرجعوا عما هم فيه من الكفر ، ولم نعاجلهم بالعذاب المستأْصل .

٤٩ - (وَقَالُواْ يَـٰٓأَيُّهَ السَّاحِرُ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ) :

نادوا موسى فى الأَعراف باسمه ، كما حكاه الله تعالى فيها بقوله : « وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُواْ يَا مُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِىٓ إِسْرَآئِيلَ »[1] ونادوه هنا بقولهم : (يَـٰٓأَيُّهَ السَّاحِرُ) ويحمل ذلك على أنهم نادوه مرة باسمه ، ونادوه مرة أُخرى بـ (يَا أَيُّهَا السَّاحِرُ) أو أن فريقًا منهم ناداه بغير ما ناداه به فريق آخر .

وكان علم السحر هو العلم العظيم عندهم ، وكانوا يعظمون السحرة لذلك ، فنادوه بـ (يَا أَيُّهَا السَّاحِرُ) تعظيمًا له ، فكأَنهم قالوا : يأَيها العالم ، قال ابن عباس : (يَـٰٓأَيُّهَا السَّاحِرُ) يأَيها العالم ، وهذا هو رأْى الجمهور .

وقيل : هو من قولهم : ساحَرتُه فسحرتُه ، أَى : غلبته بالسحر ، كما يقال : خاصمته فخصمته ، أَى : غلبته فى الخصومة ، وعلى هذا يكون معنى الآية : يأَيها الذى غلبنا بسحره ، وقيل : خاطبوه بما كانوا يخاطبونه من قبل ، وكان مقتضى طلبهم منه رفع الرِّجز عنهم بدعاءِ ربه أَن لا يخاطبوه بذلك ، إِلَّا أَنهم سبق لسانهم إِلى ماتعودوه فى خطابهم له ، وقيل غير ذلك ، والمعنى الأَول أَرجح .

ومعنى الآية : يأَيُّهَا العالم : ادع لنا ربك بما أَخبرتنا عن عهده إِليك أَننا إِن آمنا يكشف عنا العذاب - ادعه - لينفذ وعده ؛ إِننا لمهتدون مستقبلًا بعد زوال العذاب .

---

(١) الآية : ١٣٤ .

وقد فسر هنا اهتداؤهم بأنه يكون فى المستقبل ، بعد زوال العذاب ، ليطابق ما جاء فى سورة الأعراف : « لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ » أى : إننا لمؤمنون لك مستقبلا على سبيل الاستمرار الذى يقتضيه التعبير بالاسم « إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ » .

٥٠ - (فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ) :

أى : فدعا موسى ربه فكشف العذاب عنهم ، فلما كشفه فاجئوا بنقض العهد الذى قطعوه على أنفسهم فلم يؤمنوا .

(وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِى قَوْمِهِۦ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾ أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾ فَلَوْلَآ أُلْقِىَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ﴿٥٣﴾)

المفـردات :

(مِن تَحْتِى) : من تحت قصرى ، وسيأتى لذلك مزيد بيان .

(مَهِينٌ) : ضعيف حقير ، أو مبتذل ذليل ، فهو من المهانة بمعنى الذلة والحقارة ، والابتذال .

(وَلَا يَكَادُ يُبِينُ) : ولا يكاد يفصح عمَّا فى فؤاده .

(أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ) : جمع سوار ، وهو كالحلقة من ذهب أو فضة تزين به الأيدى .

التفسير

٥١ - (وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِى قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ أَفَلَا تُبْصِرُونَ) :

نداءُ فرعون فى قومه إن كان على الحقيقة فيكون قد جمع أشراف قومه ، ورفع صوته بما قاله ، والأَشراف يبلغون نداءه إلى أتباعهم ، وإن كان على المجاز كان المعنى : نادى رجاله فى قومه بأَمره ، وذلك كقولهم : هزم الأَمير أعداءه – وهو فى قصره – يعنون أن جنوده هم الذين هزموا الأَعداء ، ولكونه هو الآمر للجنود أُسند الفعل إليه .

ومعنى قوله : « أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ » أن بيده تصريف أُمورها ، ويعنى بمصر القطر كله ، من الإسكندرية إلى أُسوان – كما فى البحر – والأَنهار كنهر الملك ونهر دمياط ونهر تنيس ونهر طولون ، وهو نهر قديم كان قد اندرس ، فجدده أَحمد بن طولون ، وكان قصره عند مبدأ هذه الخلجان ، فلذلك قال : (وَهَٰذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي) أى : من تحت قصرى وقال قتادة : كانت له جنان وبساتين بين يديه تجرى فيها الأَنهار .

وفسر الأَنهارَ بعضُهم بالأَموال ، يريد أن أمواله تشبه الأَنهارَ فى كثرتها ، وجريانُها من تحته كناية عن خروجها وانتشارها من تحت أَمره ، أَو من خزائنه التى وضعها فى قصره تحت سكنه .

ولا يخفى ما بين افتخار هذا اللَّعين بملك مصر ودعواه الربوبية من البعد البعيد .

ومعنى الآية : ونادى فرعون فى قومه أَهل القطر المصرى متباهيًا ومفتخرًا : أَليس لى ملك مصر بأَقاليمها وهذه الأَنهار تجرى من تحتى ، أتغفلون فلا تبصرون عظمتى وقوتى وضعف موسى وفقره ، فلا يغرنَّكُم ما يأْتى به من السحر .

٥٢ – (أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ) :

بل أنا فى عظمة ملكى خير من هذا الذى هو ضعيف حقير ولا يكاد يفصح عمَّا فى فؤاده ، وكان موسى – عليه السلام – به عقدة فى لسانه منذ طفولته ، ولازمته إلى ما قبل النبوة ، فلمَّا جاءته الرِّسالة طلب من ربه حلها بقوله : « وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي . يَفْقَهُوا قَوْلِي »[1] فاستجاب الله له وحَلَّ عقدته ، فعيره اللَّعين بالحبسة التى كانت فى لسانه أَيَّام كان عنده ،

---

(١) سورة طه : ٢٧ – ٢٨

ولـمَّا حلت عقدته كان يناظر فرعون ويقيم عليه الحجة ، وكان أخوه هارون -عليهما السلام- يصدقه ويؤازره فى مناظرته ودعوته .

٥٣ - (فَلَوْلَآ أُلْقِىَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَآءَ مَعَهُ الْمَلَآئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ) :

قال القرطبى : إنما قال ذلك لأنه كان عادة الوقت وزى أهل الشرف ، ثم نقل عن مجاهد وله : كانوا إذا سوَّدوا رجلًا[1] سوروه بسوارين ، وطوقوه بطوق من ذهب علامة لسيادته ، فقال فرعون : هلَّا ألقى رب موسى عليه أسورة من ذهب إن كان صادقًا .

والمعنى : هلَّا جعل رب موسى لموسى أسورة من ذهب ليستحق السيادة والشرف الذى يدعيه ، أو ضَمّ إليه الملائكة التى يزعم أنها عند ربه ، حتى يتكثر بهم ويُصَرِّفهم على أمره ونهيه ، فيكون ذلك أهيب فى القلوب وأدعى إلى تصديقه ، يريد فرعون بهذا الكلام أن رسل الله ينبغى أن يكونوا كرسل الملوك ، تبدو عليهم مظاهر الرياسة وتكون معهم حاشية تقوى رسالتهم وتعظم شأنها ، ولم يعلم أن رسل الله إنما أُيدوا بالجنود السماوية ، وكل عاقل يعلم أن حفظ الله لموسى مع تفرده ووحدته- حِفْظَه - من فرعون مع كثرة أتباعه وقوتهم ، وأن إمداد موسى بالعصا واليد البيضاء من غير سوء وغيرهما من المعجزات ، كان أبلغ من أن يكون له أسورة من ذهب أو ملائكة تكون له حاشية وأعوانًا دليلًا على صدقه .

وليس يلزم للرسل ما ذكره فرعون ، لأن الإعجاز كاف ، وقد كان من الجائز أن يُكذِّب موسى مع وجود الأسورة الذهبية وحضور الملائكة ، كما كذبه مع ظهور الآيات .

وذكر فرعون الملائكة حكاية عن لفظ موسى بأن لله ملائكة ، وليس عن عقيدة ، لأن من لم يعرف خالقه لا يؤمن بأن له ملائكة .

---

(١) أى : جعلوه سيداً .

(فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿٥٤﴾ فَلَمَّا آسَفُونَا انتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٥﴾ فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْآخِرِينَ ﴿٥٦﴾)

المفردات :

(فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ) أى : طلب منهم الخفة فى مطاوعته فأطاعوه ، ومعنى الخفة السرعة فى إجابته ومطاوعته ، كما يقال : هم خفاف إذا دُعُوا ، أو معناه : وجد عقولهم خفيفة ، أو استجهلهم ، يقال : استخفه : حمله على الجهل ، ومنه « وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ » .

(آسَفُونَا) : أغضبونا .

(وَمَثَلًا لِّلْآخِرِينَ) : وعبرة لمن يكفر بعدهم .

التفسير

٥٤ - (فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ) :

فحمل فرعون قومه على الجهل لخفة عقولهم ، فطلب منهم الكفر بموسى ، فأطاعوه ولم يخالفوه لأنهم كانوا قومًا خارجين عن الحق .

والمراد من قومه جنوده ؛ لأن الانتقام كان منهم ، كما جاء فى قوله - تعالى - :

٥٥ - (فَلَمَّا آسَفُونَا انتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ) :

أى : فلما أغضبنا فرعونُ وجنوده انتقمنا منهم فأغرقناهم أجمعين ، لأنهم تبعوه وأيدوه فى كفره ، وخرجوا معه لإجبار بنى إسرائيل على العودة إلى خدمتهم .

٥٦ - (فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْآخِرِينَ) :

أى : فجعلنا فرعون وقومه المغرقين متقدمين إلى النار - كما قاله ابن عباس وزيد ابن أسلم وقتادة - أو متقدمين إلى العقاب ، وجعلناهم عبرة للكفار المتأخرين عنهم ، يتعظون بما أصابهم ، أو مثلاً يضرب لمن كفر بعدهم .

* (وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ﴿٥٧﴾ وَقَالُوٓا۟ ءَأَٰلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ ۚ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًۢا ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴿٥٨﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَٰهُ مَثَلًا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٥٩﴾ وَلَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَا مِنكُم مَّلَٰٓئِكَةً فِى ٱلْأَرْضِ يَخْلُفُونَ ﴿٦٠﴾ وَإِنَّهُۥ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَٱتَّبِعُونِ ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٢﴾)

المفـردات :

(إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ) : ترتفع لهم جلبة وضجيج فرحاً وسروراً .

(بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ) أى : شداد الخصومة مجبولون على اللجاج ، يقال : خصم الرجل من باب تعب : إذا أحكم الخصومة فهو خصيم .

(وَجَعَلْنَٰهُ مَثَلًا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ) أى : أمرًا عجيباً كالمثل فى غرابته حيث كان من غير أب .

(لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ) : علامة لها ، بنزوله من السماء يُعلم قرب وقوعها .

(فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا) أى : فلا تشكُّن فى قيامها .

(إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ) : ظاهر العداوة لكم .

التفسير

٥٧ - (وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ) :

نزلت هذه الآية والتى بعدها بياناً لعناد قريش بالباطل والرد عليهم . وقد روى أن الضارب لهذا المثل عبد الله بن الزِّبَعْرى السلمى قبل إسلامه ، قال للنبى ﷺ وقد سمعه يقرأ قوله تعالى : « إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ »[1] ... الآية .

أهذا لنا ولآلهتنا أم لجميع الأمم ؟ فقال -عليه السلام- هو لكم ولجميع الأمم ، فقال : خصمتك ورب الكعبة ، أليس النصارى يعبدون المسيح وأنت تقول عنه : كان نبيًّا وعبدًا صالحاً من عباد الله؟ فإن كانَ فى النار فقد رضينا أن نكون وآلهتنا معه ، فعجبت قريش من مقالته وظنوا أن الرسول -عليه السلام- قد أُلزم الحجة . فضجوا وارتفعت أصواتهم فرحاً وبهجة ، وذلك معنى قوله تعالى : (إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ) فأنزل سبحانه عندئذ قوله : « إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ[2] » ردا عليهم وتقبيحاً لقولهم .

وحاصل المعنى : ولما ضَرَبَ ابن الزِّبعرى عيسى بن مريم مثلا وحاجك أيها الرسول بعبادة النصارى إياه إذا قومك من ذلك المثل ولأجله ترتفع لهم جلبة ، ويعلو منهم ضجيج وضحك حيث زعموا أن ابن الزِّبعرى ألزمك الحجة . فأنزل الله تعالى : « إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا الْحُسْنَىٰ » الآية تأييدًا وإبطالًا لحجته ، لأن عيسى - عليه السلام - من الذين سَبَقَتْ لَهُم الحسنى فأُبعدوا عن النار ، والحجة إذا كانت تسير سير الأمثال شهرة قيل لها : مثل . وقرئ (يَصُدُّونَ) بضم الصاد ، من الصدود بمعنى الإعراض ، وروى ذلك عن علىّ - كرم الله وجهه - والمعنى عليها : إذا قومك يعرضون عن الحق بالجدال كحجة داحضة واهية .

---

(١) سورة الأنبياء من الآية ٩٨

(٢) سورة الأنبياء الآية ١٠١

٥٨ ـ (وَقَالُوٓا۟ ءَآلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ) :

حكاية لطرف من المثل المضروب ، أى : أآلهتنا خير أم عيسى؟يعنون أن الظاهر عندك أن عيسى خير من آلهتنا ، فحيث كان عيسى فى النار فلا بأس أن نكون مع آلهتنا فيها (مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا) أى : ماضربوه لك ـ هذا المثل ـ إلا لأجل الجدل والخصام والغلبة فى القول لا لطلب الحق حتى يذعنوا له عند ظهوره ، وفى ذلك إبطال لباطلهم إجمالا . اكتفاءً بما فصل فى قوله تعالى : « إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا الْحُسْنَىٰ » ... الآية ،(بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ) أى : لُدٌّ شداد الخصومة ، مجبولون على المكابرة وحب المغالبة بحق أو بباطل ولو تأمل ابن الزِّبعرى الآية ما اعترض عليها لأنه تعالى قال : « إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ » ولم يقل ومن تعبدون ؛لأنه أراد الأصنام ونحوها مما لا يعقل ،ولم يرد المسيح ومن عُبد مثله كعزير والملائكة .

٥٩ ـ (إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَٰهُ مَثَلًا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ) :

أى : ما عيسى بن مريم إلا عبد كسائر العبيد ، أنعمنا عليه بالنبوّة ،فهو رفيع المنزلة علىّ المكانة ، ولكنه لا يستحق أن يكون معبودًا لكونه عبدًا من عباده تعالى ، ولم يكن إلها أو ابن إله كما زعمت النصارى (وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِّبَنِىٓ إِسْرَآئِيلَ) أى : أمرا عجيبا حقيقا بأن يسير ذكره كالأمثال السائرة حيث كان آية يستدل بها على قدرة الله تعالى ، فإنه كان من غير أب ثم جعل الله له من المعجزات إحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص ، وغير ذلك مما لم يجعل لغيره فى زمنه مماحمل بعض الناس على الافتتان به ،والحق أنه بشر جعله الله دليلا على قدرة الله تعالى شأنه ، حيث وُجد من غير أب وهو بشر وكان مثلا لبنى إسرائيل يستدلون به على قدرة خالقه .

٦٠ ـ (وَلَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَا مِنكُم مَّلَٰٓئِكَةً فِى الْأَرْضِ يَخْلُفُونَ) :

الآية تذييل لتحقيق أن مثل عيسى ـ عليه السلام ـ ليس ببدع من قدرة الله ، وأنه قادر على ابدع من ذلك وأبرع من خلق عيسى عليه ـ السلام ـ مع التنبيه على أن الملائكة أيضاً

لا تصح عبادتهم من دون الله ، لأنهم مخلوقون لله ، ولا فرق بين المخلوقين توالدًا وإبداعاً فى عدم الصلاح للمعبودية .

أى : لو نشاء - لقدرتنا على عجائب الأمور وبدائع الفطر - لجعلنا بدلا منكم ملائكة مستقرين فى الأرض كما جعلناهم مستقرين فى السماء ، أو لجعلنا بدلكم ملائكة يخلف بعضهم بعضاً أو يخلفونكم فى عمارة الأرض .

٦١ - (وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَاتَّبِعُونِ هَٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ) : الضمير فى (إِنَّهُ) لعيسى - عليه السلام - لأن السياق فى ذكره ، أى : بنزوله يعلم قرب مجيئها ؛ لأنه شَرَطٌ من أشراطها ، واعتباره عِلْماً لها على المجاز بتسمية ما يعلم به عِلْماً ، قال ابن عباس ومجاهد والضحاك والسّدى وقتادة : إنه خروج عيسى - عليه السلام - وذلك من أعلام الساعة ؛ لأن الله ينزله قبل قيامها ، ويؤيد ذلك القراءة الأخرى وإنه لَعَلَمٌ للساعة - بفتحتين - أى : أمارة ودليل على وقوعها ، وقد تواترت الأحاديث الصحيحة عن رسول الله ﷺ أنه أخبر بنزول عيسى - عليه السلام - قبل يوم القيامة إماماً عادلا وحكماً مقسطاً فقد أخرج البخارى ومسلم والترمذى وأبو داود وابن ماجة عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « لينزلن ابن مريم حكماً عدلاً ، فليكسرن الصليب وليقتلن الخنزير .. » إلخ ، إلى غير ذلك من الأحاديث المذكورة فى كتب الصحاح [1] (فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا) أى : فلا تشُكُّن فى وقوعها ، وقال السدى : فلا تكذبون بها ولا تجادلون فيها فإنها كائنة لا محالة (وَاتَّبِعُونِ) أى : واتبعوا أيها المجادلون هداى أو شرعى أو رسولى . وقيل : هو قول رسول الله ﷺ على تقدير (قل) أى : قل لهم : اتبعون فى التوحيد وفيما أبلغكم به عن الله (هَٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ) أى : هذا الذى أدعوكم إليه طريق قويم يوصل إلى الجنة .

٦٢ - (وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ الشَّيْطَانُ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ) :

أى : ولا يَحُولَنَّ الشيطان بينكم وبين اتباعى لأنه عدو لكم بيّن العداوة حيث أخرج أباكم من الجنة ، ونزع عنه وعن زوجته لباسهما ، وعرّضكم للمحن والبلايا .

---

(١) وقيل : معناه : أنه بحدوثه من غير أب ، أو بإحيائه الموتى دليل على صحة البعث الذى هو معظم ما ينكره الكفرة .

(وَلَمَّا جَآءَ عِيسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُم بِٱلْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى تَخْتَلِفُونَ فِيهِ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٦٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦٤﴾)

المفـردات :

(وَلَمَّا جَآءَ عِيسَىٰ بِالْبَيِّنَٰتِ) أى : الآيات الواضحة كإحياء الموتى ونحوها من المعجزات ، وقيل : المراد بها هنا الإنجيل .

(قَدْ جِئْتُكُم بِالْحِكْمَةِ) أى : بالنبوّة ، أو الإنجيل ، أو بكل ما يؤدى إلى الإحسان .

(بَعْضَ الَّذِى تَخْتَلِفُونَ فِيهِ) : من الأمور الدينية ؛ لأن الأنبياء إنما يبينون أمور الدين لا أمور الدنيا .

(صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ) أى : طريق لا عوج فيه ، موصل إلى جنات النعيم .

التفسير

٦٣ - (وَلَمَّا جَآءَ عِيسَىٰ بِالْبَيِّنَٰتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُم بِالْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ الَّذِى تَخْتَلِفُونَ فِيهِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ) :

استمرار فى رد شبه المجادلين ببيان أن عيسى - عليه السلام - لما جاء من عند ربه بالآيات الواضحات وهى - كما قال ابن عباس - إحياء الموتى وإبراء الأسقام والإخبار بكثير من الغيوب ، أو هى آيات الإنجيل ، أو بما تقتضيه الحكمة من الشرائع ، ولا مانع من إرادة الجميع - لمَّا جاءهم بذلك - قال : قد جئتكم من عند ربى بالحكمة (وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ الَّذِى تَخْتَلِفُونَ فِيهِ) من أمور الدين وما يتعلق بالتكليف مما اختلفتم فيه بعد تبديل التوراة . أما ما يختلفون فيه

من أمور الدنيا فليس بيانه من وظائف الأنبياء – عليهم السلام – كما يشير إلى ذلك قوله ﷺ في قضية تأبير النخل : « أنتم أعلم بأمور دنياكم » .

(فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ) أي : فاتقوا الله من مخالفتي وافعلوا ما يقيكم من عذابي وأطيعون فيما أبلغكم عن الله – تعالى – وفيما أدعوكم إليه من التوحيد وغيره .

وحاصل المعنى : أن عيسى – عليه السلام – ليس معبودًا كما زعم المجادلون ؛ لأنه لما جاءهم بالآيات الواضحة والمعجزات البينة قال : قد جئتكم بالإنجيل لأدعوكم إلى عبادة الله وحده لا شريك له وإلى امتثال أوامره ، واجتناب نواهيه . ولأبين لكم ما اختلفتم فيه من الأمور الدينية ، فاتقوا الله واحذروا من مخالفته وأطيعوه فيما دعاكم إليه من التوحيد وغيره مما تستقيم به أموركم .

٦٤ – (إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ) :

بيان لما أمرهم بالطاعة فيه وهو اعتقاد أنه – سبحانه – لا شريك له ، والتعريف بالشرائع التي جاء بها الأنبياء – عليهم السلام – وهذا المأمور به طريق إلى الله لا عوج فيه ولا يضل سالكه ولا يشقى .

(فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ ۖ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿٦٥﴾ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٦٦﴾)

المفردات :

(فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ) أي : تفرقوا . والأحزاب جمع حزب ، وهي الفرقة المتحزبة .

(فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ ظَلَمُواْ) : فهلاك للذين كفروا وأشركوا ، وويل : كلمة عذاب ، أو واد فى جهنم .

(أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً) أى : فجأة على غرة .

(وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ) أى : وهم غافلون عنها .

التفسير

٦٥ - (فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِن بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ) :

لما ذكر -تعالى- أمر عيسى ودعوته إلى الدين الحق أتبعه ذكر ضلال الفرق المتحزبة من اليهود والنصارى الذين بُعث إليهم ، وهم أمة دعوته ، فقد خالف بعضهم بعضاً فى شأنه . وقيل : المراد فرق النصارى الذين تفرقوا فى شأنه شيعا وأحزابا : من النسطورية والملكانية واليعقوبية ، وقد اختلفوا فيه . فقالت النسطورية : هو ابن إله . وقالت اليعقوبية : هو الله . وقالت الملكانية : ثالث ثلاثة أحدهم الله - فسره الكلبى ومقاتل - وهم أمة دعوته (فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ ظَلَمُواْ) أى : فهلاك للذين ظلموا حيث إنهم ظلموا أنفسهم بالكفر والإشراك . ولم يقولوا عنه -عليه السلام- إنه عبد الله ورسوله (مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ) وهو يوم القيامة ووصف يوم بأليم على المجاز ، أى : أليم عذابه .

٦٦ - (هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ) :

الاستفهام للإنكار ، وإلا بمعنى غير .

والمعنى : ما ينتظر الأحزاب الذين ذكروا فى الآية السابقة - ما ينتظرون - شيئاً غير إتيان الساعة فجأة وهم غافلون عنها غير مترقبين لها ، مشتغلون بأمور الدنيا ، وذلك قوله تعالى : (وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ) وفى هذا تهكم بهم حيث جعل إتيان الساعة كالمنتظر الذى لابد من وقوعه ، ومع ذلك فهم عنها غافلون وبها غير مكترثين ، وقيل : المعنى لا ينتظر مشركو العرب إلا إتيان الساعة ، ويكون المراد على هذا الذين تحزبوا على رسول الله وكذبوه من المشركين .

وأُيِّد بما أخرجه ابن مردويه عن أبى سعيد قال : قال رسول الله ﷺ : « تقومُ الساعةُ والرجلانِ يحلبانِ النعجةَ ، والرجلانِ يطويانِ الثوبَ ، ثم قرأ -عليه الصلاة والسلام- : (هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ) :

(ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذِۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٦٧﴾ يَٰعِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٦٨﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ مُسْلِمِينَ ﴿٦٩﴾ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ تُحْبَرُونَ ﴿٧٠﴾ يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ ۖ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ ۖ وَأَنتُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٧١﴾ وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِىٓ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧٢﴾ لَكُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِّنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٣﴾)

المفـردات :

(ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍ) أى : الأصدقاء يوم القيامة جمع خليل وهو الصديق الصميم الّذى تخللت المحبة قلبه .

(تُحْبَرُونَ) أى : تفرحون وتسرون سرورًا عظيماً يظهر أثره على وجوهكم حُسْناً ونضرة .

(بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ) الصحاف : جمع صحفة وهى إناء كالقصعة ، وقال الزمخشرى : قصعة مستطيلة وهى للطعام ، والأكواب للشراب ، جمع كوب وهى كوز لا عروة له . وقال قتادة : إنها الآنية المدورة الأفواه .

(ٱلَّتِىٓ أُورِثْتُمُوهَا) : جعلها لكم ميراثاً .

التفسير

٦٧ - (الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ) : الآية تذكر حالا من أحوال القيامة ، وقد نزلت فى أمية بن خلف الجمحى وعقبة بن أبى معيط كانا خليلين وكان عقبة يجالس النبى ﷺ فقالت قريش : قد صبأ عقبة بن أبى معيط فقال له أمية : وجهى من وجهك حرام إن لقيت محمداً ولم تتفل فى وجهه ، ففعل عقبة ذلك ، فقتله النبى يوم بدر ، وقتل أمية فى المعركة : حكاه النقاش .

والمعنى : المتحابون فى الأمور الدنيوية لغير الله يعادى بعضهم بعضاً يوم القيامة لانقطاع علائق المحبة والتواد التى كانت تربط بينهم ، لظهور كونها أسباباً للعذاب ، قال ابن كثير : كل خلة وصداقة لغير الله فإنها تنقلب يوم القيامة عداوة (إِلَّا الْمُتَّقِينَ) فإن صداقتهم لما كانت فى الله فإنها تبقى على حالها فى الدنيا ، وتزداد فى الآخرة قوة لما يراه كل منهم من آثارها من الثواب ورفع الدرجات .

٦٨ - (يَٰعِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ) :

حكاية لما ينادَى به المتقون المتحابون فى الله يوم القيامة تشريفاً لهم ، وتطييبا لقلوبهم ، وذلك بتقدير القول ، أى : فيقال لهم : يا عبادُ ، أو فأقول لهم : يا عباد ، بناء على أن المنادِىَ هو الله تعالى .

والمعنى : لاخوف عليكم - أيها المتقون - فى هذا اليوم العصيب ، ولا أنتم تحزنون فيه على ما فاتكم فى الدنيا ، رَوَى المعتمر بْن سليمان عن أبيه : ينادى مناد فى العَرَصَات : يا عبادى لاخوف عليكم اليوم ، فيرفع أهل الْعَرَصَات رءوسهم على الرجاء ، فيقول المنادى :

٦٩ - (الَّذِينَ ءَامَنُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ مُسْلِمِينَ) :

فييأس أهل الأديان الباطلة وينكسون رءوسهم ، ويستبشر الذين آمنت قلوبهم وبواطنهم . وانقادت ظواهرهم وجوارحهم . وقوله - تعالى - : (وَكَانُواْ مُسْلِمِينَ) يفيد أنَّ تلبسهم بالإيمان فى الماضى اتصل بزمان الإيمان فى الآخرة واستمر عليه ، والكلام على هذا أبلغ .

٧٠ - (ادْخُلُواْ الْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُحْبَرُونَ) :

أى : يقال لهم : يا عبادى الذين آمنوا ادخلوا الجنة أنتم وأزواجكم المؤمنات أو أنتم وقرناؤكم من المؤمنين تسرون سرورًا عظيماً يظهر حَباره-بفتح الحاء وكسرها-أى : أثره على وجوهكم نضرة وحسنا ، كقوله-تعالى- : « تَعْرِفُ فِى وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ »[1] وقيل : تكرمون : قاله ابن عباس والكرامة فى المنزلة : الحُسْن .

٧١ - (يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ وفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ وَأَنتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ) :

أى : بعد دخول المؤمنين الجنة حيث فعلوا ما أمروا به : يطاف عليهم بأطعمة فى صحاف من ذهب وبأشربة فى أكواب من ذهب ، وجواز استعمالها خاص بأهل الجنة لزيادة أسباب النعيم لهم ، أما لأهل الدنيا فلا يجوز ، روى الأئمة من حديث أم سلمة قالت : قال رسول الله ﷺ : « لا تَشْرَبُوا فى آنيةِ الذهبِ والفضةِ ولا تأكلوا فى صِحافِهما » وهذا يقتضى التحريم ولاخلاف فى ذلك كما قال القرطبى ، ولم تذكر فى الآية الأطعمة ولا الأشربة . حيث إنه لا معنى للإطافة بالصحاف والأكواب من غير أن يكون فيها شئ ، واستغنى بوصف الصحاف بقوله (مِن ذَهَبٍ) عن الإعادة مع الأكواب ، كما فى قوله تعالى : « وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ »[2] (وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ) تعميم ببيان أن فيها كل ما تشتهيه الأنفس من الطيبات وتلذ الأعين بمشاهدته من أنواع الجمال ، وذلك شامل لكل نعيم ولذة ، أما الإطافة عليهم بأوانى الذهب والفضة فهو بعض أنواع التنعيم والترفيه ، قال سعيد بن جبير : المراد من قوله : (وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ) النظر إلى الله -عز وجل- كما فى الخبر : « أسألك لذة النظر إلى وجهك الكريم » (وَأَنتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ) أى : باقون دائمون فى الجنة أبد الآبدين ، قال القرطبى : لأنها لو انقطعت لتبغضت ؛ فإن كل نعيم زائل موجب لكلفة الحفظ ، ومُسْتَعْقِب للحسرة عند فقده . والالتفات من الغيبة إلى الخطاب للتشريف .

---

(١) سورة المطففين ، الآية : ٢٤ .

(٢) سورة الأحزاب ، من الآية : ٣٥ .

٧٢ - (وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ) :

أى : يقال لهم على سبيل الامتنان والتفضل : تلك الجنة التى كانت توصف لكم فى الدنيا جعلت لكم كالميراث (بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ) أى : بسبب ما كنتم تعملون من الأعمال الصالحة ، حيث شبه ما استحقوه بسبب أعمالهم من الجنة ونعيمها الباقى لهم - شُبِّه - بمَا يخلفه المرء لوارثه من الأملاك والأرزاق ، وأياً ما كان فدخول الجنة بسبب العمل لا يتم إلا بفضل الله ورحمته - عز وجل - والمراد بقوله ﷺ : « لَيس يُدْخِلُ أَحَدَكم الجنَّةَ عَملُه » أن إدخال العمل الجنة لا يكون على سبيل الاستقلال والسببية التامة ، فلا تعارض ، وقال ابن عباس : خلق الله لكل نفس جنة ونارًا ، فالكافر يرث نار المسلم ، والمسلم يرث جنة الكافر ، وذلك قوله : (وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا ...) الآية .

٧٣ - (لَكُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِّنْهَا تَأْكُلُونَ) :

أى : لكم أيها المؤمنون فى الجنة سوى الطعام والشراب فاكهة كثيرة بحسب الأنواع والأصناف لا بحسب الأفراد فقط ، قال ابن عباس : هى الثمار كلها رطبها ويابسها ، لا تأكلون إلا بعضها فى كل نوبة . وأما الباقى فعلى الأشجار دائماً بحيث لا ترى شجرة منها خلت من ثمرها لحظة ، فهى مزيَّنة بالثمار أبدًا ، خلاف أشجار الدنيا التى تخلو منها كثيرًا ، وفى الحديث : « لا يَنزِعُ رجلٌ فى الجنةِ منْ ثمرِها إلا نبتَ مكانَها مثلُها » .

(إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى عَذَابِ جَهَنَّمَ خَـٰلِدُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿٧٥﴾ وَمَا ظَلَمْنَـٰهُمْ وَلَـٰكِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٧٦﴾ وَنَادَوْا۟ يَـٰمَـٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ ۖ قَالَ إِنَّكُم مَّـٰكِثُونَ ﴿٧٧﴾ لَقَدْ جِئْنَـٰكُم بِٱلْحَقِّ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَـٰرِهُونَ ﴿٧٨﴾ أَمْ أَبْرَمُوٓا۟ أَمْرًا فَإِنَّا مُبْرِمُونَ ﴿٧٩﴾ أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُم ۚ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ﴿٨٠﴾)

المفـردات :

(إِنَّ الْمُجْرِمِينَ) أى : الكافرين ؛ لذكرهم فى مقابلة المؤمنين .

(لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ) أى : لا يخفف .

(وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ) : آيسون من تخفيف العذاب ، من الإبلاس : وهو الحزن من شدة اليأس .

(لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ) أى : لِيُمِتْنَا فنستريح ، من قضى عليه : أماته .

(إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ) أى : مقيمون متلبثون ، من باب قتل .

(أَمْ أَبْرَمُوٓا۟ أَمْرًا) أى : أحكموا كيدهم ، من الإبرام : وهو الإحكام والإتقان ، يقال : أبرم الحبل : أتقن فتله .

(سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ) أى : الحديث الذى حدثوا به أنفسهم ، والذى تحدثوا به فيما بينهم ولم يطلع عليه أحد سواهم .

التفسير

٧٤ ، ٧٥ ، ٧٦ - (إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِى عَذَابِ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ . لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ . وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَـٰكِن كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ) :

لما ذكر - سبحانه - أحوال أهل الجنة أتبعها ذكر أحوال أهل النار ؛ ليبين فضل المطيع على العاصى .

والمعنى : إن المجرمين الذين تمادوا فى الإجرام ، ورسخوا فيه ، وهم الكفار حسبما ينبىء عنه إيرادهم فى مقابلة المؤمنين : فى عذاب جهنم خالدون ماكثون فيها أبدا ، وعليه فلا تدل الآية على خلود عصاة المؤمنين فيه كما ذهب إليه المعتزلة والخوارج . حيث تبين أن المراد بالمجرمين الكافرون ، وخلودهم فى النار بسبب كفرهم أى : لا يخفف عنهم وهم فيه مبلِسُونَ ، أى : لا يخفف عنهم العذاب لحظة بل يستمر على شدته ، وقوة حدته (وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ) أى : آيسون من كل أمل ورجاء فى أن يفتر عنهم العذاب أو يخفف (وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَـٰكِن كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ) بمعنى : وما ظلمناهم بعقابنا لهم ولكن كانوا هم الذين ظلموا أنفسهم بسوء اختيارهم لما يؤدى إلى العذاب الخالد لهم وهو الشرك .

٧٧ - (وَنَادَوْا يَامَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُم مَّاكِثُونَ) :

المعنى : لما اشتد بهم العذاب ، ويئسوا من فتوره ، ووقع عليهم من الجوع ما يعدل ما هم فيه من العذاب . كما فى بعض الآثار ، حينئذ نادوا مالكا وهو خازن جهنم ، خلقه الله لغضبه إذا زجر النار زجرة أكل بعضها بعضاً ، نادوه فقالوا : (يَامَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ) أى : سل ربك أن يميتنا حتى نستريح مما نحن فيه ؛ أى : قال لهم مالك : (إِنَّكُم مَّاكِثُونَ) فى العذاب أبدا لا خلاص لكم منه بموت ولا بغيره ، كما قال - تعالى - : « لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا »[1] قال بعض الأجلة : فى الجواب استهزاء بهم ؛ لأنه أقام المكث مقام الخلود .

---

(١) سورة فاطر من الآية ٣٦ .

٧٨ - (لَقَدْ جِئْنَـٰكُم بِالْحَقِّ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَـٰرِهُونَ) :

يحتمل أن يكون هذا من تمام قول مالك لأهل النار . أى : إنكم ماكثون فى النار لأننا جئناكم فى الدنيا بالحق فلم تقبلوا ، والمقصود من قوله : (جِئْنَاكُمْ) الملائكة لأنهم رسل الله وهو واحد منهم . ويحتمل أن يكون من كلام الله لهم . أى : جئناكم فى الدنيا بالحق بإرسال الرسل وإنزال الكتب فأعرضتم وكذبتم ، وهو خطاب توبيخ وتقريع لهم من جهته تعالى ، مقررًا لجواب مالك لهم بقوله : (إِنَّكُم مَّاكِثُونَ) ومُبَيِّنا لسبب مكثهم ، ولا مانع من خطابه - سبحانه - للكفرة تقريعاً (وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ) أى : ولكن أكثركم للحق - أىَّ حَق كَانَ - كارهون لا تقبلونه وتنفرون منه ، وفسر الحق بذلك دون تفسيره بالحق المعهود وهو التوحيد أو القرآن ؛ لأنهم كانوا كارهين لكل حق مشمئزين منه سواء أكان الخطاب لقريش أم لأهل النار . وقد يقال :المراد بالحقِّ الحقُّ المعهود ، وعُبِّر بالأكثر ؛ لأن من الأتباع من يكفر تقليدًا .

٧٩ - (أَمْ أَبْرَمُوٓاْ أَمْرًا فَإِنَّا مُبْرِمُونَ) :

قال مقاتل : نزلت فى تدبير المشركين المكر بالنبى ﷺ فى دار الندوة حين استَقَرَّ أمرهم على ما أشار به أبوجهل عليهم أن يبرز من كل قبيلة رجل ليشتركوا فى قتله ﷺ فتضعف المطالبة بدمه ، ولفظ (أَمْ) معناه بل والهمزة الإنكارية ، وبل للإضراب الانتقالى من توبيخ أهل النار إلى حكاية مؤامرة قريش على الرسول . المعنى : بل أأحْكم مشركو مكة بالفعل أمرًا من كيدهم برسول الله ﷺ فى دار الندوة حيث تآمروا على قتله ، كلَّا لم يحكموا أمرهم فلذا نجا منهم ، فإنا مُبْرِمُون ومُحْكِمون رَدَّ كيدهم ، وحمايته منهم ، فلذا أخرجناه من بينهم وهم له راصدون ، ولم ينفعهم كيدهم ولم يغن عنهم شيئاً كقوله تعالى : « أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا فَالَّذِينَ كَفَرُواْ هُمُ الْمَكِيدُونَ »[1] .

وقال قتادة : أم أجمعوا على التكذيب ، فإنا مجمعون على الجزاء بالبعث .

---

(١) سورة الطور الآية ٤٢ .

وكانوا يتناجون فى أنديتهم ، ويتشاورون فى أمره ﷺ ويتحيلون فى رد الحق بالباطل بحيل يسلكونها ، فكادهم الله وردَّ وَبَال ذلك عليهم حيث قال ـ سبحانه ـ :

٨٠ ـ (أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُم بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ) :

أى : بل أيظن هؤلاء المشركون أنالا نسمع سرهم فى أنفسهم ، ولا نسمع نجواهُم مما يتحدثون به فيما بينهم على سبيل التناجى ولم يطلع عليه أحد سواهم (بَلَىٰ) نسمعها ونطلع عليها (وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ) وهم الحفظة الذين يحفظون عليهم أعمالهم ويلازمونهم حيثما كانوا . فهم عندهم دائماً يكتبونها وكل ما صدر عنهم من أقوال وأعمال صغارها وكبارها .

(قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ ﴿٨١﴾ سُبْحَانَ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٨٢﴾)

المفـردات :

(فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ) أى: المنقادين ، وهو جمع عابد ، وَيجمع عابد أيضاً على عُبَّاد وعبدة .

(سُبْحَانَ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ) أى : تنزيهاً له وتقديساً . نزّه الله نفسه وأمر النبى بالتنزيه عما لا يليق به .

(عَمَّا يَصِفُونَ) أى : عما يقولون من الكذب .

التفسير

٨١ ـ (قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ) :

رد لباطل المشركين بتنزيهه ـ جل شأنه ـ عما نسبوه إليه من اتخاذ الولد .

والمعنى : قل -أيها النبي- للمشركين تحقيقاً للحق ، وتنبيهاً لهم على أن الدافع لك على مخالفتهم فى عبادة الملائكة ليس لغضبك وعداوتك لهم أو لمعبوديهم ، وإنما هو لجزمك باستحالة ما نسبوه إليهم وبنوا عليه عبادتهم من كونهم بنات الله . قل لهم : (إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ) أى - : إن صح ذلك وثبت ببرهان واضح تأتون به ، وحجة صحيحة تدلون بها (فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ) أى : أول من يعظم ذلك الولد ، وأسبقكم إلى طاعته والانقياد له كما يعظم الرجل ولد الملك لتعظيم أبيه ، وهذا كلام وارد على سبيل الفَرْض ، والمراد نفى الولد ، وذلك لأنه علق العبادة على كينونة الولد لله ، وهى محال فى نفسها فكان المعلق عليها محالا مثلها . ونظيره قوله تعالى : « لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا [1] » .

وقال ابن الأعرابى : (فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ) أى : الآنفين من أن يكون له - سبحانه - ولد ، وقال ابن عباس والسدى : المعنى ما كان للرحمن ولد ، يجعل (إن) بمعنى (ما) ويكون الكلام على هذا تامًّا . ثم يبتدىء (فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ) أى : الموحدين من أهل مكة على أنه لا ولد له ، والوقف على العابدين تام .

٨٢ - (سُبْحَانَ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ) :

أى : تنزيها وتقديسا لله - تعالى - عما يصفونه به من كونه - سبحانه - له ولد ، وتعاليا عن كل ما يقتضى الحدوث ؛ لأنه واحد أحد فرد صمد .

وفى إضافة رب إلى أعظم الأجرام وأقواها تنبيه على أنها وما فيها من المخلوقات تحت ملكوته وربوبيته عز وجل ، فكيف يتصور أن يكون شىء منها جزءا منه ، وفى إعادة الاسم الجليل تفخيم لشأن العرش .

(فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّىٰ يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ ﴿٨٣﴾)

---

(١) سورة الأنبياء من الآية ٢٢ .

المفـــردات :

(فَذَرْهُمْ يَخُوضُواْ) أى: فاتركهم يدخلوا فى باطلهم ، يقال : خاض فى الأمر : دخل فيه .

(وَيَلْعَبُواْ) بكل ما يريدون ، واللُّعْبَةُ وزن غرفة : ما يُلعَب به ، والفعل من باب فرح .

(حَتَّىٰ يُلَٰقُواْ يَوْمَهُمُ الَّذِى يُوعَدُونَ) وهو يوم القيامة الذى وعدوه .

التفسير

٨٣ - (فَذَرْهُمْ يَخُوضُواْ وَيَلْعَبُواْ حَتَّىٰ يُلَٰقُواْ يَوْمَهُمُ الَّذِى يُوعَدُونَ) :

هذه الآية أُخرجت مخرج التهديد لكفار مكة حين كذبوا بعذاب الآخرة .

والمعنى : فاتركهم - أيها النبى - حيث لم يذعنوا للحق - اتركهم - يدخلوا فى باطلهم وضلالهم ويلعبوا فى دنياهم (حَتَّىٰ يُلَٰقُواْ يَوْمَهُمُ الَّذِى يُوعَدُونَ) وهو يوم القيامة الذى وعدوه ، وسوف يلاقون فيه مصيرهم حيث تحل بهم الشدائد والأهوال التى هى فوق الاحتمال ، وقال عكرمة وجماعة : إنه يوم بدر وقد وُعدُوا الهلاك فيه .

(وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨٤﴾ وَتَبَارَكَ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٥﴾ وَلَا يَمْلِكُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٨٧﴾ وَقِيلِهِۦ يَٰرَبِّ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾ فَٱصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَٰمٌ ۚ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾)

المفـــردات :

(وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ) أى : الحكيم فى تدبير خلقه ، العليم بمصالحهم ما كان وما يكون .

(وَتَبَارَكَ) من : البركة واليمن ، أى : هو سبحانه المتصف بهما .

(إِلَّا مَن شَهِدَ بِالْحَقِّ) وهو التوحيد .

(فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ) أى : فكيف ينقلبون وينصرفون عن عبادته تعالى ؟! مِنْ أَفَكَ يأفك إفكا ، بمعنى كذب ... إلخ .

(وَقِيلِهِ يَارَبِّ) : القيل والقول والقال والمقال واحد .

(فَاصْفَحْ عَنْهُمْ) أى : فأعرض عنهم .

(وَقُلْ سَلَامٌ) أى : تَسَلُّم منكم ومتاركة ، وليس المراد أمره ﷺ بإلقاء السلام عليهم .

التفسير

٨٤ - (وَهُوَ الَّذِى فِى السَّمَآءِ إِلَـٰهٌ وَفِى الْأَرْضِ إِلَـٰهٌ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ) :

هذا تكذيب للمشركين فى أن لله شريكاً وولدا ، وتقرير لوحدانيته - تعالى - والمعنى : أنه - سبحانه - هو المستحق للعبادة فى السماء وفى الأرض ؛ فكل من فيهما خاضعون له أذلاء بين يديه . وفى ذلك نفى للآلهة السماوية والآلهة الأرضية ، وإثبات الألوهية لله وحده مختصة به لا تتعداه - عز وجل - إلى غيره .

(وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ) أى : الحكيم فى تدبير شئون خلقه العليم بأحوالهم ، ما كان منها وما يكون ، وهذا بيان لاختصاص الألوهية به - تعالى - ونفيها عن سواه لأن من لا يتصف بكمال الحكمة والعلم لا يستحق الألوهية .

٨٥ - (وَتَبَارَكَ الَّذِى لَهُ مُلْكُ السَّمَـٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ) :

استمرار فى تقرير وحدانيته — تعالى — وأنه لا شريك له فى شئون الكون خلقاً وملكاً وتدبيرا وتصرفا .

والمعنى : تعظَّم وتَعَالَى الذى له وحده كمال التصرف فى السموات والأرض وفيما بينهما من مخلوقات الجوِّ المشاهدة وغيرها (وَعِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ) أى : وقت قيامها ويراد بها يوم القيامة ، أى : وعنده العلم بالزمان الذى تقوم فيه القيامة .

وفى تقديم الخبر فى قوله — سبحانه — : (وَعِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ) إشارة إلى استئثاره — عز وجل — بعلم ذلك (وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ) للجزاء على ما اقترفتم من آثام ، والالتفات إلى الخطاب للتهديد .

٨٦ — (وَلاَ يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ الشَّفَاعَةَ إِلاَّ مَن شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ) :

بيان لعجز آلهتهم وإشادة بمكانة التوحيد .

والمعنى : ولا يملك آلهتهم الذين يدعون من دون الله الشفاعة كما زعموا أنهم شفعاؤُهم يوم القيامة ونصراؤُهم عند الشدائد والأهوال (إِلَّا مَن شَهِدَ بِالْحَقِّ) وهو التوحيد ؛ فإن هؤلاء هم الذين يشفعون عند الله فى المؤمنين المقصرين ، وقال ابن عباس : أى : إلا من شهد بأنه لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله فيشفعون للمؤمنين إذا أذن لهم ، ويراد بهم عيسى وعزير والملائكة وأضرابهم — عليهم السلام — فإنهم يشهدون بالحق والتوحيد لله (وَهُمْ يَعْلَمُونَ) حقيقة ما شهدوا به واعتقدوه ، والآية تفيد أن الشهادة على غير علم بالمشهود به لا يعوَّل عليها ، وقال مجاهد وغيره : المراد بمن شهد بالحق المشفوع فيهم كأنه قيل : ولا يملك هؤلاء الملائكة وأضرابهم الشفاعة فى أحد إلا فيمن وحد عن إيقان وإخلاص .

وإفراد الضمير فى قوله : (شَهِدَ بِالْحَقِّ) وجمعه فى قوله : (وَهُمْ يَعْلَمُونَ) باعتبار لفظ مَنْ ومعناها .

٨٧ـ(وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ) :

أى : ولئن سألت العابدين والمعبودين عمن خلقهم ليقولن : خلقنا الله لا الأصنام ولا الملائكة لتعذر المكابرة فى ذلك مع فرط ظهوره (فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ) :

أى : فكيف يُصرفون عن عبادته ويصرفون عنها إلى عبادة غيره ، ويشركونه معه ـعز وجل ـ مع إقرارهم بأنه ـ تعالى ـ خالقهم جميعاً ، أو مع علمهم بإقرار آلهتهم بذلك والمراد التعجب من إشراكهم مع رجاء شفاعتهم لهم وهم يعترفون بأن الله خالقهم ، وقيل المعنى : ولئن سألت الملائكة وعيسى (مَنْ خَلَقَهُمْ) لقالوا : الله ، ومعنى (فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ) أى : فكيف يؤفك هؤلاء المشركون ويصرفون وينقلبون عن الحق فى ادعائهم إياهم آلهة .

٨٨ـ (وَقِيلِهِ يَارَبِّ إِنَّ هَٰؤُلَاءِ قَوْمٌ لَّا يُؤْمِنُونَ) :

الكلام خارج مخرج التحزن والتحسر والتشكى من عدم إيمان أولئك الذين أشركوا بالله ، أى : وعند الله علم الساعة ، وعلم قول الرسول ـعليه السلام ـ : (يَارَبِّ إِنَّ هَٰؤُلَاءِ . .) الآية بعطف قيله على الساعة من قوله ـ تعالى ـ : (وَعِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ) وقيل : إن الواو للقسم ، وقوله تعالى : (إِنَّ هَٰؤُلَاءِ قَوْمٌ لَّا يُؤْمِنُونَ) جوابه ، وفى الإقسام به من رفع شأنه ـ عليه السلام ـ وتفخيم دعائه والتجائه إليه ـ تعالى ـ ما لا يخفى .

وخلاصة المعنى : أن رسول الله ﷺ التجأ إلى ربه يشكو قومه الذين كذبوه ، وعبدوا غير الله . بما يشير إلى التحسر والتحزن والتشكى من عدم إيمانهم ، وأشار ـ عليه السلام ـ إليهم بهؤلاء ، دون قومى ، تحقيراً لهم ، وبراءة منهم لسوء حالهم .

والمراد من الإخبار بعلمه أنهم لا يؤمنون وعيده إياهم حيث تمسكوا بشركهم ، وأبوا أن ينقادوا لدعوة الإيمان .

٨٩- (فَاصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَامٌ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ) :

أى : فأعرض - أيها النبى - عن هؤلاء الكفار من مشركى مكة ، ولا تطمع فى إيمانهم لشدة كفرهم وعنادهم ، وقل لهم : أمرى تسلُّم منكم ومتاركة لكم ، فليس ذلك أمرا بتحيتهم والسلام عليهم ، وإنما هو أمر بالتباعد عنهم ، والتبرؤ منهم . . .

(فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ) أى : فسوف يعلمون عاقبة إجرامهم وتكذيبهم بما يلاقونه من جزاء عادل ينزل بهم حين يسأل المرء عما قدمت يداه ، وهو وعيد وتهديد للمشركين ، وتسلية للرسول ﷺ .

« سورة الدخان »

هذه السورة مكية وآياتها تسع وخمسون ، وسميت بسورة الدخان لقوله -تعالى- فيها : (يَوْمَ تَأْتِي السَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ) وهى تناسب ما قبلها فى أنه -عز وجل -ختم ما قبلُ بالوعيد والتهديد حيث قال تعالى : (وَقُلْ سَلَامٌ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ) وافتتح هذه بالحديث عن القرآن الكريم ثم عقب بالإنذار الشديد لهؤلاء المشركين بقوله تعالى : (إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ) وقوله -سبحانه- : (فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ) كما ذكر- تعالى -هناك قول الرسول ﷺ : (يَارَبِّ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ لَّا يُؤْمِنُونَ) وهنا نظيره فيما حكى عن موسى - عليه السلام- (فَدَعَا رَبَّهُ أَنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ) إلى غير ذلك من المناسبات بين السورتين .

اهم اهـداف السورة :

تحدثت عن نزول القرآن الكريم فى ليلة مباركة وهى ليلة القدر ، وبينت شرف تلك الليلة العظيمة التى تُفصل فيها أُمور الخلْق وتقدر ، وقد اختارها الله لإنزال آيات التنزيل هُدًى لعباده ورحمة بهم وذكرت آيات التوحيد ، والآيات التى تكشف عن أحوال الكفار ، وعرضت حديث موسى وبنى إسرائيل وفرعون . وكشفت عما حل بقوم فرعون وبينت عاقبة أمرهم وردت على منـكرى البعث من مشركى قريش . وأشارت إلى أن هؤلاء المكذبين ليسوا بأَكرم على الله من الأُمم الطاغية التى تعرضت لانتقام الله وإهلاكه جريا على سنته -سبحانه -مع الطغاة المجرمين ، ثم أكدت أن يوم القيامة هو موعد الفرق بين جميع الخلائق ، وختمت السورة بتسجيل ذل الكفار بالعقوبة وبيان ما يحيق بهم . وعزِّ المؤمنين فى الجنة بتفصيل ما ينالونه من نعمة وكرم ، ومنزلة الرسول ﷺ وشرفه بتيسير القرآن على لسانه فى قوله -تعالى- : (فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ) كما بدأت بالحديث عنه .

بسم الله الرحمن الرحيم

(حمٓ ﴿١﴾ وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴿٢﴾ إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُّبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ﴿٣﴾ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ﴿٤﴾ أَمْرًا مِّنْ عِندِنَا إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿٥﴾ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٦﴾ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٧﴾ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ ﴿٨﴾ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ ﴿٩﴾)

المفـــردات :

(وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ) أى : والقرآن الواضح للمتدبرين ، من أبان : بمعنى اتضح

(فِي لَيْلَةٍ مُّبَارَكَةٍ) : كثيرة البركة ، هى ليلة القدر على الأصح .

(فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ أَمْرًا مِّنْ عِندِنَا) أى : يفصل ويبين كل أمر ذى حكمة وهو ما قضاه الله من أحوال العباد وحاجاتهم فى هذه الليلة المباركة ، ومن أعظمها نزول القرآن .

(إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ) أى : تريدون اليقين وتطلبونه . كما يقال : فلانٌ يُتْهِمُ أى : يريد تِهَامة .

(بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ) أى : فى تردد ولعب فيما يظهرونه من الإيمان والإقرار بأن الله خالقهم .

التفسير

١ - (حمٓ) سبق الحديث مفصلا عن حروف المعجم التى افتتحت بها أوائل بعض السور ولا سيما أول سورة البقرة .

٢ ، ٦ - (وَالْكِتَـٰبِ الْمُبِينِ . إِنَّآ أَنزَلْنَـٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَـٰرَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ . فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ . أَمْرًا مِّنْ عِندِنَآ إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ . رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ) :

أقسم الله سبحانه بالقرآن العظيم تشريفا له وتنويها بعلو قدره حيث قال : (وَالْكِتَـٰبِ الْمُبِينِ) وأشار جواب هذا القسم إلى أن إنزاله فى ليلة ذات فضل وبركة لما ينزل الله على عباده فيها من البركات والخيرات بنزوله المستتبع للفوائد الدينية والدنيوية بأجمعها حيث قال سبحانه : (إِنَّآ أَنزَلْنَـٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَـٰرَكَةٍ) وهى ليلة القدر على الأصح بدليل قوله تعالى : « إِنَّآ أَنزَلْنَاهُ فِى لَيْلَةِ الْقَدْرِ »[1] وقوله : « شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِى أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ »[2] ويراد من إنزاله فيها أنه ابتدئ إنزاله كما قيل ، أو أنزل جملة فيها إلى السماء الدنيا من اللوح المحفوظ ، ثم نزل به جبريل - عليه السلام - على الرسول منجما فى ثلاث وعشرين سنة على حسب الأسباب ، وقيل : كان ينزل منه فى كل ليلة من ليالى القدر إلى سماء الدنيا ما ينزل فى سائر السنة .

وفى تعيين هذه الليلة من شهر رمضان أقوال كثيرة ، أشهرها : أنه أنزل فى إحدى ليالى الوتر من العشر الأخير منه ، ومنهم من قال : إنها ليلة السابع والعشرين منه ، وهو المشهور بين الناس . ومن العلماء من قال : إن الليلة المباركة هى ليلة النصف من شعبان ، وقال القرطبى نقلا عن الزمخشرى : وليس فى ليلة النصف من شعبان حديث فى فضلها ولا فى نسخ الآجال فيها فلا تلتفتوا إليها ، وفى البحر قال الحافظ أبو بكر ابن العربى : لا يصح فيها شىء ولا نسخ الآجال فيها ، وعلق الآلوسى على ذلك بأنه لا يخلو من مجازفة ، والله أعلم

(إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ) : استئناف مبين لما يقتضى الإنزال كأنه قال : إنا أنزلناه لأن من شأننا ألا نترك الناس دون إنذار وتحـذير من العذاب رحمة بهم لنلزمهم الحجة

(١) سورة القدر ، الآية الأولى .

(٢) سورة البقرة ، من الآية : ١٨٥

(فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ) : استئناف كالذى قبله ، فإن كونها مفرق الأُمور المحكمة يستدعى أن ينزل فيها القرآن الذى هو من عظائمها ، ومعنى يفرق أنه يكتب ويفصل فيها كل أمر حكيم بمعنى محكم أو منزل على ما تقتضيه الحكمة من بيان أرزاق العباد وآجالهم وجميع أُمورهم ، فهى مبتدئة من هذه الليلة إلى الليلة الأُخرى من السنة القابلة . وهذا الأَمر لا يغيّر ولا يبدل بعد إبرازه للملائكة ، بخلافه قبله وهو فى اللوح المحفوظ ، فإن الله يمحو منه ما يشاءُ ويثبت ، قال ابن عباس : يحكم الله أمر الدنيا إلى قابل فى ليلة القدر ما كان من حياة أو موت أو رزق ، وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن ربيعة بن كلثوم قال : كنت عند الحسن فقال له رجل : يا أبا سعيد ليلة القدر فى كل رمضان هى ؟ قال : إى والله إنها لفى كل رمضان ، وإنها لليلة يفرق فيها كل أمر حكيم ، فيها يقضى الله تعالى كل أجل وعمل ورزق إلى مثلها ، وروى هذا التعميم عن غير واحد من السلف ، قال ابن عيسى : هو ما قضاه الله فى الليلة المباركة من أحوال عباده (أَمْرًا مِّنْ عِندِنَا) منصوب على الاختصاص ، أى : أعنى بهذا الأَمر أمرا عظيما حاصلا من عندنا . والمراد بالعندية أنه أمر على وفق الحكمة والتدبير ، فهو بيان لفخامته الإضافية بعد بيان فخامته الذاتية بقوله ـ سبحانه ـ : (كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ) .

وحاصل المعنى : أن جميع ما نقدره فى تلك الليلة ، وما نوحى به إلى الملائكة من شئون العباد أمر من جهتنا على مقتضى حكمتنا وتدبيرنا . فزاد بذلك فخامة وجلالا (إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ) بدل انتقال من (إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ) لتفصيله أى : إنا أنزلنا القرآن ؛ لأَن من شأْننا إرسال الرسل بالكتب إلى العباد لأَجل إفاضة رحمتنا عليهم ، أو لاقتضاء رحمتنا بهم التى سبقت إرسالهم بالشرائع ، ووضع الرب موضع الضمير فقيل : رحمة من ربك . ولم يقل مِنَّا للإيذان بأَن الربوبية تقتضى الرحمة على المربوبين وإضافته إلى ضميره ـ عليه الصلاة والسلام ـ لتشريفه .

(إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ) أى : إنه هو السميع لكل مسموع من أقوال العباد ، العليم بكل معلوم من أحوالهم وذلك تحقيق لربوبيته وأنها لا تكون إلا لمن هذه أوصافه

وحاصل المعنى للآيات السابقة : أنه تعالى أنزل القرآن على رسوله ﷺ في ليلة القدر المباركة التي يُبَيَّن فيها للملائكة كل أمر حكيم من الأمور المتعلقة بعباده ، التي تصدر من جهته -تعالى- وفق الحكمة والتدبير ، ومن أجلِّها وأعظمها القرآن ، وقد أنزله الله على رسوله ﷺ رحمة بالعباد جريا على سنته في خلقه حيث أرسل الرسل بالكتب لإفاضة رحمته سبحانه بهم ، وهو يسمع كل مسموع ويعلم كل معلوم .

٧- (رَبِّ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ) :

أي : إن كنتم موقنين في اعترافكم بأنه تعالى رب السموات والأرض وما بينهما وخالقهن ، إذا سئلتم من خلقهن يلزمكم الاعتراف بأن من حقه إرسال الرسل وإنزال الكتب ؛ لإرشاد الخلق بأنه لا معبود سواه ، ولذا عقبه بقوله :

٨- (لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَآئِكُمُ الْأَوَّلِينَ) :

الآية مستأنفة مقررة لما قبلها ، أي : لا رب غيره ، ولا معبود سواه يحيي الأموات ويميت الأحياء وهو خالقكم وخالق من تقدم من آبائكم . وإليه المرجع والمآب ، فإذا كان هذا شأنه فما لكم أيها المشركون لا تتقون تكذيب محمد ﷺ حتى لا ينزل بكم العذاب الأليم حيث تفقدون الولي والنصير .

٩- (بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ) :

إضراب إبطالي أبطل به إيقانهم المزعوم في قوله تعالى : (إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ) لعدم جريانهم على مقتضاه ، أي : ماقالوا ذلك عن جد وإذعان ، وإنما قالوه تقليدا لآبائهم ، وهم في شك مما ذكر من شئونه تعالى ، لعدم التفاتهم إلى البراهين القاطعة ، وقيل : يلعبون . يضيفون إلى النبي ﷺ الافتراء استهزاء . شأنهم شأن الصبي الذي يلعب فيفعل مالا يدري عاقبته . والالتفات عن خطابهم إلى الغيبة إعراض عنهم لفرط عنادهم وعدم التفاتهم .

(فَٱرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِى ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾ يَغْشَى ٱلنَّاسَ هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١﴾ رَّبَّنَا ٱكْشِفْ عَنَّا ٱلْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ ﴿١٢﴾ أَنَّىٰ لَهُمُ ٱلذِّكْرَىٰ وَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ ﴿١٣﴾ ثُمَّ تَوَلَّوْا۟ عَنْهُ وَقَالُوا۟ مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ ﴿١٤﴾ إِنَّا كَاشِفُوا۟ ٱلْعَذَابِ قَلِيلًا إِنَّكُمْ عَآئِدُونَ ﴿١٥﴾ يَوْمَ نَبْطِشُ ٱلْبَطْشَةَ ٱلْكُبْرَىٰٓ إِنَّا مُنتَقِمُونَ ﴿١٦﴾)

المفــردات :

(فَارْتَقِبْ) أى : فانتظر أيها النبى .

(بِدُخَانٍ مُّبِينٍ) أى : واضح بيِّن ، ويراد به الغبار المتصاعد بسبب الجَدْب .

(يَغْشَى النَّاسَ) أى : يشملهم ويحيط بهم .

(أَنَّىٰ لَهُمُ الذِّكْرَىٰ) أى : من أين لهم الاتعاظ بشىء مما شاهدوه ، والذكرى والذكر بمعنى واحد .

(ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ) : أعرضوا مكذبين .

(يَوْمَ نَبْطِشُ) أى : نعاقب بشدة ، من بَطَش يبطِش-بكسر الطاء وضمها-إذا أخذه بعنف وقوة .

التفسير

١٠ ، ١١ - (فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِى السَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ . يَغْشَى النَّاسَ هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ) :

تسلية للرسول ﷺ وتهديد ووعيد للمشركين . والفاء فى قوله تعالى : (فَارْتَقِبْ) لترتيب الارتقاب أو الأمر به على ماقبلها. فإن كونهم فى شك ولعب مما جاءهم به رسولهم

يقتضى ترقب عذابهم ، والمعنى : فانتظر أيها النبى عذابهم يوم تأتى السماء بجدب ومجاعة ، فإن الجائع جدا يرى بينه وبين السماء كهيئة الدخان ، وهى ظلمة تعرض للبصر لضعفه ، فيتوهم ذلك ،فهو كناية عنه ، وفسر أبو عبيدة الدخان به ، وبعض العرب تسمى الشر الغالب دخانا ، ووجه ذلك أن الدخان مما يتأذى منه فأطلق على كل مؤذ .

وسبب نزول الآية : أن قريشا لما استعصت على الرسول ﷺ وأبى أكثرهم الإسلام . دعا عليهم فقال : «اللهم أعِنى عليهم بسبع كسبع يوسف » . فأصابهم قحط شديد وبلاء حتى أكلوا الميتة والجلود والعظام . وكنى عنه بالدخان لِمَا تقــدم بيانه ، وكلما اشتد الجدب اشتد الدخان تكاثفًا . فكان الرجل يحدث الرجل فيسمعه ولايراه وذلك قوله -سبحانه- : (يَغْشَى النَّاسَ) أى : يضمهم ويحيط بهم . وقيل : هو يوم فتح مكة كما فى البحر عن عبد الرحمن الأعرج أنه قال :(يَوْمَ تَأْتِى السَّمَآءُ) هو يوم فتح مكة ، ويُروى عن أبى هريرة أنه قال : كان يوم فتح مكة دخان وهو قول الله تعالى :(يَوْمَ تَأْتِى السَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ) وقال الآلوسى :يحسن على هذا القول أن يكون كناية عما حلّ بأهل مكة فى ذلك اليوم من الخوف والذل ونحوهما ، وقيل : إنه دخان يأتى من السماء قبل يوم القيامة ، وهو شَرَط من أشراطها. قاله علىّ -كرم الله وجهه- وابن عمر وابن عباس وغيرهم (هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ) أى : يقول الله لهم ذلك تهويلا وتقريعا . وقيل : إن الناس هم القائلون لذلك حينما يرون الدخان ،أى : أنه عذاب شديد الألم بالغ الأثر . والإشارة بهذا للدلالة على قرب الوقوع وتحققه .

١٢- (رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ) :

الآية - كما صرح به غير واحد من المفسرين- وعد منهم بالإيمان إن كشف عنهم -جل وعلا-العذاب ، وكأنهم قالوا : ربنا إن كشفت عنا العذاب آمنا. ولكنهم عدلوا عنه إلى مافى النظم الكريم حيث قالوا : (إِنَّا مُؤْمِنُونَ) إظهارا لمزيد الرغبة فى الإيمان . كما فى بعض الروايات أنه لما اشتد القحط بقريش مشى أبو سفيان ومعه نفر إلى رسول الله ﷺ

يناشدونه الله تعالى والرحم، وواعدوه إن دعا لهم وزال عنهم ما بهم أن يؤمنوا، وذلك قولهم: (رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ . . .) وهذا قول ابن عباس وابن مسعود- رضي الله عنهما – وبه أخذ مجاهد ومقاتل وهو اختيار الفراء والزجاج .

١٣ ، ١٤- (أَنَّىٰ لَهُمُ الذِّكْرَىٰ وَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ . ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقَالُوا مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ) :

رد لكلامهم بنفي صدقهم في الوعد بالإيمان . حيث إن غرضهم هو كشف العذاب عنهم والخلاص منه فحسب، أي : من أين لهم التذكر والاتعاظ والوفاء بما وعدوه من الإيمان عند كشف العذاب عنهم (وَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ) أى : والحال أنهم شاهدوا من دواعي التذكر ، وموجبات الاتعاظ ماهو أعظم وأدخل في الادكار من كشف العذاب ، حيث جاءهم رسول بَيِّن الرسالة مؤيد بالآيات الواضحة . والمعجزات القاهرة التي تخرلها صم الجبال ، لبيان مناهج الحق وشواهد التوحيد، ومع هذا لم يؤمنوا به بل كذبوه (ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقَالُوا مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ) أى : ثم انصرفوا عن ذلك الرسول المؤيد من الله وظلوا كافرين بعد ماشاهدوا منه ماشاهدوه من العظائم الموجبة للإقبال عليه ، والتعبير بثم للاستبعاد أو التراخي الرُّتبي ، ولم يكفهم التولى عنه ، والإعراض عن اتباعه ، بل بهتوه (وَقَالُوا مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ) يعلمه غلام أعجمي لبعض ثقيف ، كما قالوا عنه : مجنون لايعي مايقول ، فهل يتوقع من قوم هذه طبيعتهم أن يتأثروا بالعظة والتذكير ؟! .

١٥ ، ١٦- (إِنَّا كَاشِفُوا الْعَذَابِ قَلِيلًا إِنَّكُمْ عَآئِدُونَ . يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَىٰٓ إِنَّا مُنتَقِمُونَ) :

والمعنى : أننا نكشف عنكم العذاب كشفا قليلا، أو زمانا قليلا ، لأنكم عائدون إلى ماكنتم عليه من العتو والثبات على الكفر ، وقد تحقق كلاهما حيث كشف الله عنهم العذاب بدعاء النبي ﷺ ، فما لبثوا أن عادوا إلى ماكانوا عليه من الكفر ، ومن قال إن الدخان يكون قبل يوم القيامة وهو شَرَط من أشراطها قال بإمكان الكشف وعدم انقطاع التكليف .

(يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَىٰ) أى : واذكر يوم نبطش بالكفار البطشة الكبرى حيث يؤخذون بقوة وشدة . أخرج ابن جرير وعبد بن حميد بسند صحيح عن عكرمة قال : قال ابن عباس : البطشة الكبرى : يوم بدر لما وقع فيه من قَتْلٍ وأَسْر وتَشْريد لمشركى قريش ،واختار ابن كثير أنها يوم القيامة وكونها يراد منها يوم القيامة هو الأنسب . قال الرازى :القول الثانى أصح ؛لأن يوم بدر لايبلغ هذا المبلغ الذى يوصف به هذا اليوم العظيم ، ولأن الانتقام التام إنما يحصل فيه . ولمّا وصفت البطشة بأنها الكبرى وجب أن تكون أعظم أنواع البطش على الإطلاق ، ولاشك أنها لاتكون إلا يوم القيامة (إِنَّا مُنتَقِمُونَ) أى : يومئذ ننتقم من هؤلاء المشركين انتقاماً قويا شديدا يظهر أثره فيهم .

(* وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ ﴿١٧﴾ أَنْ أَدُّوا إِلَيَّ عِبَادَ اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٨﴾ وَأَن لَّا تَعْلُوا عَلَى اللَّهِ إِنِّي آتِيكُم بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿١٩﴾ وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَن تَرْجُمُونِ ﴿٢٠﴾ وَإِن لَّمْ تُؤْمِنُوا لِي فَاعْتَزِلُونِ ﴿٢١﴾)

المفـــردات :

(فَتَنَّا) : اختبرنا وامتحنا .

(أَنْ أَدُّوا إِلَيَّ عِبَادَ اللَّهِ) : أن أسلموا لى بنى إسرائيل . أو أجيبوا دعوتى وصـــدقوا رسالتى .

(وَأَن لَّا تَعْلُوا عَلَى اللَّهِ) : ألّا تتجبروا وتتكبروا على الله بالاستهانة بوحيه ورسوله .

(بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ) : حجة واضحة لا سبيل إلى إنكارها .

(عُذْتُ بِرَبِّي) : التجأت إليه ، وتوكلت عليه .

(أَن تَرْجُمُونِ) : أن تقتلونى رجماً بالحجارة ؛ أو بغير ذلك .

(فَاعْتَزِلُونِ) : فخلونى واتركونى كفافا لالىَ ولا علىّ .

التفسير

١٧ ـ (وَلَقَد فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَآءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ) :

حكت الآيات السابقة على هذه الآيات أحوال مشركى مكة ، وما كان منهم من معارضة دعوة النبى ﷺ وتورطهم فى العناد وإلحاق العذاب بالمؤمنين ، وتماديهم فى ذلك حتى استحقوا ما وقع عليهم من عذاب أليم ، بدخان مبين غشيهم من كل صوب وناحية ، واضطرهم أن يلجئوا إلى الرسول ﷺ ليدعو لهم برفع العذاب عنهم فقد آمنوا وتابوا ؛ وقد كشف الله عنهم العذاب قليلا ، وهو عليم بحقيقتهم . وسوء طويّتهم إمهالاً لهم إلى الانتقام الأعظم والبطشة الكبرى يوم القيامة إن أصروا على كفرهم (يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَىٰٓ إِنَّا مُنتَقِمُونَ) وجاءت هذه الآيات تقرّر أن فتنة مشركى مكة لم تكن بدعا من النفوس البشرية ولاحَدَثا فريدًا فى الطبيعة الإنسانية ، وإنما جرت فيهم على سنن ما جرت عليه فى قوم فرعون وغيرهم من الأمم السابقة .

والمعنى : ولقد امتحنا واختبرنا قبل مشركى مكة قومَ فرعونَ بإرسال موسى عليه السلام إليهم فلم يكن منهم إلّا التمرد والعصيان ، وأصل الفتنة : وضع المعدن فى النار وَصَهْرُه لِتُعرف جودته وينفى خبثه ، أى : عاملناهم معاملة المختبر الممتحن ليظهر حالهم ، وتتضح حقيقتهم ، فأمهلناهم ، ووسعنا عليهم فى الرزق ووفرة النعمة ، فيكون معنى الفتنة ما يفتن به الشخص ويغترّ به فيصرفه عما فيه صلاحه ، كما فى قوله ـ تعالى ـ : « إِنَّمَآ أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ »[1] ومعنى (وَجَآءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ) أى : وشاهدوا من دواعى التذكر ، وموجبات الاتعاظ ما يوجب السمع والطاعة حيث جاءهم موسى ـ عليه السلام ـ وهو كريم على الله ، كريم فى نفسه ، متصف بالخصال الحميدة ، والصفات الجليلة حسباً ونسباً ،

---

(١) سورة التغابن ، من الآية : ١٥

لأن الله تعالى لم يبعث نبيًّا إلّا فى أحساب قومه ، وأشرف أنسابهم ، جامعاً لأنواع المحامد ، وكريم المنافع .

١٨ ، ١٩ – (أَنْ أَدُّوٓاْ إِلَىَّ عِبَادَ اللهِ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ . وَأَن لَّا تَعْلُواْ عَلَى اللهِ إِنِّىٓ ءَاتِيكُم بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ) :

هذا مقول على لسان موسى – عليه السلام – لفرعون وقومه .

والمعنى (وَجَآءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ) وطلب منهم فقال : (أَدُّوٓاْ إِلَىَّ عِبَادَ اللهِ) أى : أطلقوا معى بنى إسرائيل ، وخلصوهم من الاستعباد والذُّل ، والعذاب والتسخير ، فهو كقوله تعالى: « فَأَرْسِلْ مَعِىَ بَنِىٓ إِسْرَآئِيلَ »[1] والتعبير عنهم بعباد الله للإشارة إلى أن استعبادهم ظلم وطغيان ، ويجوز أن يكون المعنى :أدوا إلىَّ ما آمركم به ، وأدعوكم إليه من الإيمان . وقبول الدعوة ، فيكون المقصود بعباد الله قوم فرعون .

وقوله –تعالى– : (إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ) تعليل لوجوب المأمور به ، أى : أدوا إلى ما أدعوكم إليه ، فإنى رسول من الله ، أمين على ما أُوَدِّيه ، وأدعوكم إليه ، قد ائتمننى ربى– جل شأنه– على وحيه وصدقنى بالآيات الباهرة ، والمعجزات الظاهرة .

(وَأَن لَّا تَعْلُواْ عَلَى اللهِ إِنِّىٓ آتِيكُم بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ) أى : أَدُّوا إلى عباد الله ولا تتجبروا ولا تتكبروا على الله بالاستعلاء على أمره ، والاستهانة بوحيه ورسوله ، لأنى آتيكم من جهته – تعالى – بسلطان مبين ، وحجة واضحة فى ذاتها . موضحة صدق دعواى لاسبيل إلى إنكارها ، ولا إلى الإنكار علىّ فى تبليغها .

وقال قتادة : « لَا تبغوا عَلَى الله » وقال ابن عباس : « لاتفتروا على الله » والفرق بين البغى والافتراء أن البَغْىَ بالفعل والافتراء بالقول .

وفى ذكر الأمين بعد الأمر بالأداء ، والسلطان بعد النهى عن العلو والاستكبار – فيه – من روعة الأُسلوب وجزالة التنسيق مالا يخفى .

---

(١) سورة الأعراف ، من الآية : ١٠٥ .

٢٠ ، ٢١ – (وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَن تَرْجُمُونِ ، وإن لَّمْ تُؤْمِنُوا لِي فَاعْتَزِلُونِ) :
قيل إنه لمَّا قال : (وَأَن لَّا تَعْلُوا عَلَى اللهِ إِنِّي آتِيكُم بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ) توعّدوه بالقتل فقال : (وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي . .) الآية .

أي : التجأت إليه وتوكلت عليه ليحفظني من شركم، ويعصمني من كيدكم . فلا ينالني منكم أذى من شتم أو ضرب أو رجم بالحجارة ، وإن دمتم على كفركم ، وعنادكم ؛ ولم تؤمنوا لي وتصدقوا دعوتي فاعتزلوني واجتنبوني وامنعوا عني شركم وكفوا أذاكم فليس ذلك جزاء من يدعوكم إلى ما فيه فلاحكم .

(فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ ﴿٢٢﴾ فَأَسْرِ بِعِبَادِى لَيْلًا إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٢٣﴾ وَٱتْرُكِ ٱلْبَحْرَ رَهْوًا ۖ إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ ﴿٢٤﴾ كَمْ تَرَكُوا۟ مِن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٢٦﴾ وَنَعْمَةٍ كَانُوا۟ فِيهَا فَٰكِهِينَ ﴿٢٧﴾ كَذَٰلِكَ ۖ وَأَوْرَثْنَٰهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴿٢٨﴾ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ وَمَا كَانُوا۟ مُنظَرِينَ ﴿٢٩﴾)

المفـــردات :

(فَأَسْرِ) : أمر من أسْرَى ، أي : فَسِرْ بهم ليلاً ، وسرى من غير همز بمعنى سار ليلا .

(رَهْوًا) : مفتوحاً ، ويصح أن يكون (رَهْوًا) بمعنى (ساكناً) أي : اترك البحر ساكنا على هيئته بعد ما جاوزته ، من رها البحر : إذا سكن ، وبابه عدا .

(جَنَّاتٍ) : بساتين .

(وَعُيُونٍ) : جمع عين ، والمراد عين الماء .

(وَنَعْمَةٍ) النَّعمة – بالفتح – : التنعيم ، يقال : نَعَمَ الله فلانا فتنعم ، والنِّعمة – بالكسر – : ما أنعم الله به عليك ، واليد والصنيعة والمنة ، وكذلك النُّعمى .

(فَاكِهِينَ) : متنعمين ، (وقرئ فَكِهِينَ) بمعنى أَشِرِين بطرين لا تؤدون حق النعمة .

التفسير

٢٢ – (فَدَعَا رَبَّهُ أَنَّ هَٰؤُلَاءِ قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ) : لما أدرك موسى –عليه السلام – تناهى قومه فى الكفر وإصرارهم على التكذيب واستيأس من هدايتهم ، وانقطع رجاؤه فى إيمانهم ، مع تماديهم فى الإيذاء ، دعا ربَّه أن يعذبهم وينتقم منهم وينزل بهم ما يستحقون ، وقوله تعالى : (أَنَّ هَٰؤُلَاءِ قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ) تعريض بالدعاء عليهم بذكر سبب ما يستحقون العقاب ، ولذلك سُمِّى دعاء ، أى : دعا رَبَّه بأن هؤلاء قوم مجرمون يستحقون تعجيل العذاب ، قيل : كان دعاؤه : « اللهم عجل لهم ما يستحقون بإجرامهم » وقيل : هو قوله تعالى : « رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ »[1] « وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِى الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَن سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَىٰ أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ »[2] .

٢٣ ، ٢٤ – (فَأَسْرِ بِعِبَادِى لَيْلًا إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ * وَاتْرُكِ الْبَحْرَ رَهْوًا إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ) :

قوله –تعالى– فأسر بعبادى على تقدير جملة قولية بعد الفاء ، أى : فقال له ربه عند دعائه : أسر بعبادى ليلا ، وهم بنو إسرائيل ، أو على تقدير القول قبلها ، أى : إذْ كان الأمر كما تقول فأسر ببنى إسرائيل ليلا ، فقد دبَّر الله أن تتقدموا ويتبعكم فرعون وجنوده فينجى الله

---

(١) سورة يونس من الآية: ٨٥ .

(٢) سورة يونس آية: ٨٨ .

المتقدمين ، ويغرق التابعين ، فمعنى (متبعون) : يتبعكم فرعون وجنوده ، ليلحقوا بكم فيغرقوا ، فإن الله-تعالى-قدر عليهم الغرق ، قال القرطبي : وسير الليل فى الغالب إنما يكون عن خوف ، والخوف يكون بوجهين : إما من العدو فيتخذ الليل ستراً مسدلا فهو من أستار الله تعالى ، وإما من خوف المشقة على الدواب والأبدان بحرٍّ أو جدب فيتخذ السرى لذلك ، وكان النبى ﷺ يسرى ويُدلج ، ويترفق ويستعجل بحسب الحاجة وما تقتضيه المصلحة ، وفى الصحيح عن النبى ﷺ : «إذا سافرتم فى الخِصْب فأعطوا الإبل حظَّها من الأرض ، وإذا سافرتم فى السَّنةِ[1] فبادروا بها نِقْيَها[2] » ولهذه المعانى ذكر الليل ، مع أن السرى لا يكون إلَّا ليلا ، وليدل ذكره على أن ذلك كله وقع فى جزء من الليل . (وَاتْرُكِ الْبَحْرَ رَهْوًا إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ) هذا تعليم لموسى-عليه السلام-بما يفعله فى سيره قبل أن يسير ، وقبل أن يلج البحر ، وعبارة الخطيب : « واترك البحر » أى : إذا سرت بهم ، وتبعك العدوّ ووصلت البحر ، وأمرناك بضربه بالعصا ودخلتم فيه ونجوتم منه فاتركه بحاله ، ولا تضربه بعصاك ليلتئم ، بل أبقه على حاله ليدخله فرعون وقومه فينطبق عليهم ، وقيل: كان ذلك الأمر بعد أن خرج من البحر وأراد أن يضربه ليلتئم .

والمعنى : واترك البحر بعد ولوجك فيه وخروجك منه -اتركه- مفتوحاً أو ساكناً ثابتا على هيئته عند دخولك فيه ، ليلجه فرعون وقومه خلفكم فيغرقوا (إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ) أى : أنهم جماعة قدر الله عليهم الغرق فى البحر ، عقوبة لهم على عنادهم وإصرارهم على الكفر ، وتماديهم فى التجبر والضلال .

٢٥ ، ٢٦ ، ٢٧ - (كَمْ تَرَكُوا مِن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ • وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ) :

هذه الآيات انتقال بالحديث عما وقع لفرعون وقومه من عذاب وجزاء بالإغراق - انتقال من ذلك - إلى خسارتهم ما كانوا فيه من نعمة وشرف ، تعظيماً لعقابهم .

---

(١) السنة : الجدب .

(٢) نقيها - بكسر النون وسكون القاف منها -ومعناه : أسرعوا فى السير بالإبل لتصلوا إلى المقصد وفيها بقية من قوتها .

والمعنى : كثيرًا جدًّا كانت لهم أموال وخيرات متعددة الأصناف والأنواع تركوها فى مصر من بساتين كثيرة وجميلة ، وعيون ثَرَّة يجرى ماؤُها فى قنواتٍ بين الزروع والأشجار فتزيدها بهجة وروعة ، وكم تركوا فيها من زروع مختلفة الألوان والمطاعم متفاوتة الأشكال والمظاهر ، ومجالس شريفة ، ومحافل غاصّة ، ونواد خاصّة ، وغير ذلك من صنوف النعم وألوان الخيرات التى كانوا يتنعمون بها فاكهين متمتعين مسرورين لا يزعجهم إقلال ولا يخافون حرمانا ، وقرئ (فَكِهِينَ) بمعنى أَشِرِين بطرين لم يشكروا هذه النعم ولم يَحْمَدُوا عليها .

٢٨ ، ٢٩ - (كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْماً آخَرِينَ * فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَآءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُواْ مُنظَرِينَ) :

أى : مثل ذلك التنعيم نعمناهم وأترفناهم فلم يقيموا لها وزناً فحرمناهم من هذه النعم كلها وأورثناها قوماً آخرين وهم بنو إسرائيل كما فى قوله تعالى فى سورة الشعراء : « كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِيٓ إِسْرَآئِيلَ »(1) أى : أنهيناها إليهم سهلة سائغة فى غير جهد ولا مشقة ، وصارت لهم بعد أن كانوا مستعبدين فيها ، وصدق الله العظيم : « وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُواْ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِى بَارَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَآءِيلَ بِمَا صَبَرُواْ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُواْ يَعْرِشُونَ(2) »

والمقصود من هذه الآية أنهم ورثوا من ملك فرعون فى أرض الشام ، التى هاجروا إليها وكانت تابعة لمصر فى عهد فرعون ، ولم يثبت تاريخاً أنهم عادوا إلى مصر بعد أن هاجروا إلى الشام ، (فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَآءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُواْ مُنظَرِينَ) المعنى : أنزلنا بفرعون وقومه ما أنزلنا من إهلاك وإغراق واستئصال أموال وأحوال ، وأورثنا ما كان لهم من جنات وعيون وزرع ومقام كريم ونعمة كانوا فيها فاكهين أورثناها قوما ليسوا منهم فى دين ولا قرابة ولا ولاء ، فما بكت عليهم أرض ولا سماء ، لظلمهم وعدوانهم ، والمقصود من عدم بكائهما عليهم هوانهم على الله وسائر العالمين ، فالآية تمثيل للمبالغة فى تهوين شأنهم وتحقير أمرهم

(1) الآية : ٥٩

(2) سورة الأعراف آية: ١٣٧ .

وقوله - تعالى - : (وَمَا كَانُواْ مُنظَرِينَ) معناه : وما كان فرعون وقومه ممهلين ولا مؤجّلين من وقوع العذاب بهم حين جاء حينه وحضر وقته - ماكانوا مؤجلين - إلى وقت آخر أو إلى يوم القيامة بل عُجِّل لهم عذاب الاستئصال فى الدنيا لشدة جرمهم .

(وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴿٣٠﴾ مِن فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ كَانَ عَالِيًا مِّنَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾ وَلَقَدِ ٱخْتَرْنَٰهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٢﴾ وَءَاتَيْنَٰهُم مِّنَ ٱلْءَايَٰتِ مَا فِيهِ بَلَٰٓؤٌاْ مُّبِينٌ ﴿٣٣﴾)

المفـردات :

(الْعَذَابِ الْمُهِينِ) : العذاب البالغ الحد فى الإهانة .

(عَالِياً مِّنَ الْمُسْرِفِينَ) : متكبرا من المسرفين فى الظلم .

(عَلَىٰ عِلْمٍ) : على معرفة بحالهم .

(الْآيَاتِ) : المعجزات .

(بَلَاءٌ مُّبِينٌ) : امتحان كاشف واختبار واضح .

التفسير

٣٠ ، ٣١ - (وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِيٓ إِسْرَآءِيلَ مِنَ الْعَذَابِ الْمُهِين . مِن فِرْعَوْنَ إِنَّهُ كَانَ عَالِياً مِّنَ الْمُسْرِفِينَ) :

هذه الآيات تمثل مرحلة أُخرى من قصة قوم فرعون تقرر معانى الآيات السابقة . وتصرح بمفهومها؛ فإن هلاك فرعون وقومه ، ومآل ملكهم إلى بنى إسرائيل نجاة أية نجاة لهم .

والمعنى : ولقد كان فى إهلاكنا فرعون وقومه أن نَجَّينا بنى إسرائيل ، وخلصناهم من الاستعباد والتسخير والعذاب المعن فى المهانة بقتل الأبناء واستخدام البنات وغير ذلك مما كان يقع عليهم من فرعون ذلك الطاغية المتجبّر المتناهى فى الشدة ، المسرف فى صنوف الإجرام .

وفى التصريح باسم فرعون مايشعر بأن مجرد ذكره كاف فى تصور مايصدر منه من العنت والفساد ، والتجبر والطغيان .

٣٢ ، ٣٣ - (وَلَقَدِ اخْتَرْنَاهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى الْعَالَمِينَ • وَآتَيْنَاهُم مِّنَ الْآيَاتِ مَا فِيهِ بَلَاءٌ مُّبِينٌ) :

تضيف هذه الآيات إلى بنى إسرائيل فضلا آخر زائدا على فضل إنجائهم من عذاب فرعون .

والمعنى : لم يقف أمرنا مع بنى إسرائيل على تخليصهم من فرعون ، بل اصطفيناهم واخترناهم عالمين استحقاقهم لذلك بما يصدر عنهم من العدل والإحسان ، والفهم والإيمان بعد أن استقام أمرهم فى أواخر عهد موسى وفى عهد يوشع من بعده ، حيث فتح بهم أريحا ، وأطاح بالشرك فى هذا الإقليم ، وغير ذلك من حسن السيرة ، ولكنهم لم يحافظوا على هذه الاستقامة التى تأدبوا بها بعد عقابهم فى التيه أربعين عاما ، فبغوا فى الأرض فسلط عليهم غيرهم ، ومعنى (عَلَى الْعَالَمِينَ) أى : عالمى زمانهم ، فلا يلزم اصطفاؤهم على أمة سيدنا محمد -عليه الصلاة والسلام- لقوله تعالى : « كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ »[1] وقوله - تعالى - : « وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ »[2] .

وقيل : اصطفيناهم على العالمين بكثرة أنبيائهم .

(وَآتَيْنَاهُم مِّنَ الْآيَاتِ مَا فِيهِ بَلَاءٌ مُّبِينٌ) أى : وأنزلنا عليهم من المعجزات والبراهين كفلق البحر وتظليل الغمام وإنزال المن والسلوى وغيرها من الآيات ما فيه بلاء مبين

(١) سورة آل عمران من الآية: ١١٠ .
(٢) سورة البقرة من الآية: ١٤٣ .

أي : اختبار ظاهر وامتحان واضح من النعمة أو الشدة ؛لأن البلاء يكون بالشدة والرخاء ، والحرمان والعطاء « وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً »[1] وماكان من هذه الآيات لموسى عليه السلام فهو لهم ، أيضا ، ومن أجل هدايتهم وإيمانهم ، فهو من جملة ما أوتوه فى الجملة .

وهكذا عرضت الآيات الشريفة فى ثنايا الكلام عن مشركى مكة فتنة قوم فرعون - ونظمتها - فى مراحل ثلاث :

(الأولى) : إرسال موسى -عليه السلام- إليهم ودعوته إياهم من قوله تعالى : « وَجَآءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ » إلى قوله تعالى : « وَإِن لَّمْ تُؤْمِنُواْ لِي فَاعْتَزِلُونِ » .

(الثانية) : دعاؤه عليهم بعد أن استيأس من طاعتهم ، وضاق بعنادهم وكفرهم واستئصالهم بالغرق وانتقال أموالهم إلى بنى إسرائيل ، من قوله تعالى :(فَدَعَا رَبَّهُ أَنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ) إلى قوله تعالى : (وَمَا كَانُواْ مُنظَرِينَ) .

(الثالثة) : ماكان نتيجة طبيعية لهلاك فرعون وقومه من نجاة بنى إسرائيل واصطفائهم على عالمى زمانهم أو بكثرة أنبيائهم ، وإيثارهم بملك فرعون فى الأرض المباركة بالشام على علم وبصيرة بأحوالهم . من قوله -تعالى- : (كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ) .

(إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَيَقُولُونَ ﴿٣٤﴾ إِنْ هِيَ إِلَّا مَوْتَتُنَا ٱلْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ ﴿٣٥﴾ فَأْتُواْ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٦﴾ أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ أَهْلَكْنَٰهُمْ إِنَّهُمْ كَانُواْ مُجْرِمِينَ ﴿٣٧﴾)

(١) سورة الأنبياء من الآية ٣٥ .

المفـردات :

(هَٰٓؤُلَآءِ) : مشركى مكة .

(مَوْتَتُنَا الْأُولَىٰ) : الموتة التى نموتها فى الدنيا ثم لانحيا ولا نبعث بعدها .

(بِمُنشَرِينَ) : بِمُعادين ولا مبعوثين مرة أُخرى .

(تُبَّعٍ) : لقب لملك سبأ كلقب كسرى لملوك الفرس ، ولقب قيصر لملوك الروم والمراد تبع الحميرى الأكبر .

التفسير

٣٤ ، ٣٥- (إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَيَقُولُونَ * إِنْ هِيَ إِلَّا مَوْتَتُنَا الْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ) :

عادت الآيات إلى مابدأت به فى أول السورة من الحديث عن مشركى مكة وعنادهم بعد أن ذكرت طرفا من أحوال قوم فرعون ، ومعارضتهم لموسى عليه السلام ومناهضتهم لدعوته ، وما حاق بهم من عذاب ، تحذيراً لقريش أن يصيبهم بسوء صنيعهم ما أصاب قوم فرعون ، وتسلية للرسول ﷺ فهى موصولة بقوله تعالى : (يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَىٰ) قبلها ، وبقوله : (أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ) بعدها .

والمعنى : إن هؤلاء المشركين من قريش ومن غيرهم ليصرون على الكفر والعناد وينكرون فى إصرار أَمْرَ البعث والجزاء ويقولون : (إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ) أى : ما العاقبة وما نهاية أمرنا إلا الموتة الأُولى أى الوحيدة بعد حياتنا والتى نفارق بها الدنيا ثم لانعود بعدها ، ولايكون لنا نَشْرٌ ولا عود كما يخبر المؤمنون وصاحبهم ، فالمقصود بقولهم الموتة الأُولى : الموتة الوحيدة التى لاتتكرر ، ولايقصدون إثبات موتة ثانية .

٣٦ ، ٣٧- (فَأْتُوا بِآبَائِنَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ * أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ أَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ) :

قوله تعالى :(فَأْتُوا بِآبَائِنَا) استمرار فى الحديث عن إنكارهم البعث ، قيل : إن مشركى مكة طلبوا من الرسول - عليه الصلاة والسلام - تصديقا لأخبار البعث أن يدعو

الله ليُحيى لهم قصى بن كلاب- وكان فى أيامه كبيرهم ومستشارهم فى النوازل-ليشاوروه فى صحة النبوة والبعث ، فيدل ذلك على صدقكم إذا أحييتموه ، أو إذا سألناه فصدقكم ، والخطاب فى قوله : (فَأْتُواْ بِآبَآئِنَآ) لمن وعدوهم بالبعث والنشور من الرسول والمؤمنين ،أى : فأحيوا لنا مَنْ مات مِن آبائنا إن كنتم صادقين فى دعوى قيام الساعة وبعث الموتى .

ولما كان قولهم هذا ينطوى على جهل ،وتجبر واستعلاء بعيداً عن الحجة جاء قوله تعالى :(أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ) يهددهم بأنهم ليسوا أعظم قوة ولا أعز منعة من هؤلاء الأقوام الذين أهلكهم الله بسبب إجرامهم .

والمعنى : أهؤلاء المشركون المنكرون للبعث خير فى القوة والمنعة والجاه والسلطان ، أم قوم تبع الأكبر الحميرى من أهل سبأ الذين كانت بساتينهم عن يمين وشمال والذين من قبلهم من عاد وثمود وأضرابهم .

وقوله تعالى :(أَهْلَكْنَاهُمْ) استئناف لبيان عاقبة أمرهم ، ونهاية بغيهم ، كما أن قوله تعالى : (إِنَّهُمْ كَانُواْ مُجْرِمِينَ) تعليل لإهلاكهم ليعلم أن أولئك حيث أهلكوا بسبب إجرامهم مع ماكانوا فيه من غاية القوة والمنعة فأنتم بالاستئصال أهون منهم ، لأنكم أضعف منهم قوة ، وأوهن شأناً .

(وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿٣٨﴾ مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ مِيقَٰتُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٠﴾ يَوْمَ لَا يُغْنِى مَوْلًى عَن مَّوْلًى شَيْـًٔا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ ٱللَّهُ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٢﴾)

المفـردات :

(لَاعِبِينَ) : لاهين عابثين .

(يَوْمَ الْفَصْلِ) : يوم القيامة الذى يفصل الله بين عباده فيه .

(مِيقَاتُهُمْ) : موعدهم .

(مَوْلًى) : صاحب يتولى معونة صاحبه ، أو ولى يتصرف فى أُمور وليه ، من الولاية .

(الْعَزِيزُ) : الغالب الذى لايعجزه شىء .

(الرَّحِيمُ) : الواسع الرحمة .

التفسير

٣٨ ، ٣٩ـ (وَمَاخَلَقْنَا السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ * مَاخَلَقْنَاهُمَآ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَايَعْلَمُونَ) :

هذه الآيات دخول فى بيان حكمة البعث ، وإيضاح غايته تعميقا لإيمان المؤمنين وتسفيها لإنكار المنكرين .

والمعنى : وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما من عوالم ـ ماخلقناهما ـ لاهين بخلقهما لغير غرض، عابثين به فى غير غاية ـ ماخلقناهما وما بينهما ـ إلا بالحق . ملتزمين بصدق الغاية وتحقيق الحِكمة ، وهو أن ينال كل إنسان جزاء عمله ، الخير بالخير والشرّ بالشرّ « وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا » ، ولكن أكثر الناس من الجهل وسفاهة العقل لايعلمون أن الأمر كذلك فينكرون ، مع أنهم يعلمون أن الله خالق كل ذلك وأنه حكيم ، وليس من الحكمة أن لايبعث الخلائق حتى يأْخذ للمحق حقه ، ويعاقب المسىء .

ويجوز أن يكون الاستثناء من عموم الأسباب ، والمعنى : ماخلقنا السموات والأرض وما بينهما بسبب من الأسباب إلا بسبب الحق ، وهو عبادة الله «وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ» ثم بعثُهم وحسابُهم وجزاؤُهم .

٤٠ ، ٤١ ، ٤٢ـ (إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ مِيقَاتُهُمْ أَجْمَعِينَ * يَوْمَ لَايُغْنِى مَوْلًى عَن مَّوْلًى شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ * إِلَّا مَن رَّحِمَ اللهُ إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ) :

هذه الآيات تهديد بملاقاة الجزاء بعد تقرير إمكان البعث ، وأنه سيكون ، أى : إن يوم القيامة الذى يفصل الله فيه بين الحق والباطل ، وبين المحق والمبطل ، هو موعد الخلق وميقاتهم أجمعين ، المؤمن والكافر ، والبر والفاجر ، ليواجه كلٌّ جزاء ماقدم فإما ناراً وزقوماً وإما جنات ونعيما .

(يَوْمَ لَايُغْنِى مَوْلًى عَن مَّوْلًى شَيْئًا وَلَاهُمْ يُنصَرُونَ) أى : يوم الفصل هذا يوم لايغنى صاحب عن صاحبه ، ولايعين قريب قريبه ، ولايغنى والد عن ولده ولا ولد عن والده ولايدفع حليف عن حليفه ، ولا تتعصب قرابات ، ولا تتناصر صلات «لِكُلِّ امْرِىءٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ * وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ * ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ * وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ »[1] لاتجد نصيرًا ولا مجيرًا (إِلَّا مَن رَّحِمَ اللهُ إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ) :

أى : لايمنع من عذاب يوم الفصل شىء ، ولا يمتنع عليه أحد إلا من يتجلَّى الله عليه بالرحمة والعفو وقبول الشفاعة فيه من المؤمنين ، إن الله هو العزيز الغالب الذى لاينصر أحدٌ من أراد عذابه ، الواسع الرحمة لمن أراد أن يرحمه .

وفى هذا الاستثناء تنفيس لهول الكربة ، وانفراج لِبَابِ الرحمة حتى لا ييئس عائذ ، ولا ينقطع رجاء لائذ .

(١) سورة عبس الآيات من ٣٧ – ٤٠ .

(إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ ﴿٤٤﴾ كَٱلْمُهْلِ يَغْلِي فِي ٱلْبُطُونِ ﴿٤٥﴾ كَغَلْيِ ٱلْحَمِيمِ ﴿٤٦﴾ خُذُوهُ فَٱعْتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ صُبُّواْ فَوْقَ رَأْسِهِۦ مِنْ عَذَابِ ٱلْحَمِيمِ ﴿٤٨﴾ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ ﴿٤٩﴾ إِنَّ هَٰذَا مَا كُنتُم بِهِۦ تَمْتَرُونَ ﴿٥٠﴾)

المفردات :

(شَجَرَةَ الزَّقُّومِ) : شجرة مرة .

(الْأَثِيمِ) : كثير الإثم ، والمراد : الكافر .

(الْمُهْلِ) : مايمهل ويصهر فى النار حتى يذوب ، وقيل : دُرْدِيُّ الزيت .

(فَاعْتِلُوهُ) : فجروه بعنف ومهانة .

(سَوَآءِ الْجَحِيمِ) : وسط النار .

(تَمْتَرُونَ) : تشكُّون .

التفسير

٤٣ ، ٤٤ ، ٤٥ ، ٤٦ - (إِنَّ شَجَرَةَ الزَّقُّومِ * طَعَامُ الْأَثِيمِ * كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ * كَغَلْيِ الْحَمِيمِ) :

هذه الآيات تصوير لنوع من العذاب الذى يتجرعه الكافر فى نار جهنم .

والمعنى : إن شجرة الزقوم هذه الشجرة المرة التى تنبت فى أصل الجحيم ، طلعها كأنه رءوس الشياطين ، إن هذه الشجرة طعام الكافر كثير الإثم يطعمها فتنزل فى جوفه

غاية فى الحرارة كدُرْدِىٍّ الزيت ، أو دردى القطران يغلى فى جوفه كغلى الماء الذى بلغ أعلى درجات الحرارة فيقطع أمعاءه .

٤٧ ، ٤٨ـ (خُذُوهُ فَاعْتِلُوهُ إِلَى سَوَآءِ الْجَحِيمِ * ثُمَّ صُبُّواْ فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ) :

يقال لزبانية جهنم :جرّوه فى عنف وشدة واحتقار ومهانة فارموه وسط النار ، ثم ضاعفوا عليه العذاب فصبوا فوق رأسه من هذا العذاب مايحرق جلده ، فيجتمع عليه من العذاب عذاب الباطن والظاهر .

٤٩ـ (ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ) :

وقولوا له ـ زيادة فى الامتهان ، وإمعانا فى الإذلال والتقريع والتوبيخ ـ : ذق وتجرع من صنوف العذاب وألوانه ، فلطالما ادّعيت لنفسك فى كفرك وغُلَوَائك أنك أنت العزيز الذى لا يُذل ، الكريم الذى لايُمتهن ولا يبتذل .

روى أن أبا جهل عمرو بن هشام قال لرسول الله ﷺ : مابين جبليها أعز ولا أكرم منى ، فوالله ماتستطيع أنت ولا ربّك أن تفعلا بى شيئا . لقد علمت أنى أمنع أهل البطحاء وأنا العزيز الكريم ، فنزلت :

٥٠ـ (إِنَّ هَٰذَا مَا كُنتُم بِهِ تَمْتَرُونَ) :

أى :إن هذا العذاب الذى تقاسون ، والجزاء الذى تلاقون ، إن هذا ما كنتم تنكرون وتشكُّون فيه ، وعدل الأُسلوب من الإفراد إلى الجمع باعتبار المعنى ؛ لأن المراد جنس الأثيم .

(إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى مَقَامٍ أَمِينٍ ﴿٥١﴾ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٢﴾ يَلْبَسُونَ مِن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٥٣﴾ كَذَٰلِكَ وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ ﴿٥٤﴾ يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَٰكِهَةٍ ءَامِنِينَ ﴿٥٥﴾ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ وَوَقَىٰهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿٥٦﴾ فَضْلًا مِّن رَّبِّكَ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٥٧﴾)

المفردات :

(أَمِينٍ) : يأمن صاحبه الآفات ، أو فناء نعيمه ونعمه .

(سُندُسٍ) : هو الحرير الرقيق .

(وَإِسْتَبْرَقٍ) : هو الديباج الغليظ شديد البريق .

(حُورٍ) : جمع حَوْراء ، من الحور : وهو شدة سواد العين فى شدة بياضها .

(عِينٍ) : جمع عيناء وهى واسعة العينين .

(وَوَقَاهُمْ) : وحفظهم .

(فَضْلًا) : تفضلا .

التفسير

٥١ ، ٥٢ ، ٥٣ ـ (إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِى مَقَامٍ أَمِينٍ * فِى جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * يَلْبَسُونَ مِن سُندُسٍ وإِسْتَبْرَقٍ مُّتَقَابِلِينَ) :

حكت الآيات السابقة عذاب الآثمين الكافرين ، وعددت ألوانه وصوره ، وجاءت هذه الآيات تعرض نعيم المتقين وهناءتهم ، لتتألف صورة متكاملة تمثل هوان الآثمين فى

عذابهم وذلّهم ومهانتهم ، وبهجة المتقين فى نعيمهم وعزّهم ومكانتهم ، ليهلك من هلك عن بينة ويحيا من حىّ عن بينة .

والمعنى : إن المؤمنين المتقين الذين حققوا لأنفسهم الأمن ، وزكوها بعمل الصالحات الباقيات فَوَقَوْها من العذاب – إن هؤلاء المؤمنين – ينزلون يوم القيامة فى مقام أمين يأمنون فيه من الآفات والمنغصات ، ومن كل ما يكرهون ، لا يخافون من حرمان أو إقلال أو فوات .

وقوله : (فِى جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ) بيان للمقام الأمين ، وما يحتويه من ألوان النَّعيم من بساتين مثمرة مورقة ، وعيون من الماء ثرة ، بين الأشجار والزهور دافقة ، وملابس متنوعة متفاوتة من رقيق الحرير ، وغليظ الديباج الأخاذ البرّاق مما كانوا يتحاشون استعماله فى الدنيا طاعة ، وتواضعا ، وعزوفاً عن نعيمها ، وهم بين هذا كله يتنعّمون بالجلوس على الأرائك متقابلين ينظر بعضهم وجوه البعض ولا يُعْرِض عنه؛ زيادة فى التكريم والنَّعيم .

٥٤ ، ٥٥ – (كَذَٰلِكَ وَزَوَّجْنَاهُم بِحُورٍ عِينٍ * يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَاكِهَةٍ آمِنِينَ) :

لا تزال الآيات موصولة فى وصف نعيم المتقين ، أى : الأمر كذلك ، أو مثل هذه الإثابة أثبناهم ، وقرنّاهم زيادة فى النعيم بحور عين كثيرات ، من حور الجنة الجميلات اللاتى ترغب النفس فى النظر إلى وجوههن وعيونهن الجميلة .

وقوله–تعالى– : (يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَاكِهَةٍ آمِنِينَ) إشارة إلى أن نعيمهم لا يقف عند ما بين أيديهم وتحت نظرهم ، وإنما هو شامل لكل ما يخطر ببالهم من كل ما يشتهون ، أى : يدعون ويطلبون كل ما يحبون وما يشتهون من كل فاكهة فتتوفّر لهم ، لا يتخصص شىء منها بزمان أو مكان ، آمنين لايخافون من تعاطيها مضرّة أووجعا أو قلة أو نفادا .

٥٦ ، ٥٧ – (لَا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَىٰ ، وَوَقَاهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ فَضْلًا مِّن رَّبِّكَ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ) :

أى : ومن جملة ما يتنعمون به الخلود الدائم فى الجنَّة لا يذوقون فيها الموت ، ولا يلحقهم إلا الموتة الأُولى التى فارقوا بها الحياة لينعموا بعدها بنعيم الآخرة ، والمقصود أنهم لايذوقون فيها الموت أبدا ، ولفظ (إلّا) بمعنى لكن ، أى : لكن يذوقون الموتة الأُولى فحسب .

(وَوَقَاهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ) أى : حقق الله لهم هذا النعيم كله وحفظهم من العذاب وجنبهم دار الجحيم ، وفيه الإشارة إلى أن وقايتهم من عذاب جهنم وحدها أعظم نعمة ، وأجلّ تكريم ، فكيف إذا انضم إليها كل هذا النعيم .

وإنما خصهم بذلك ، وإن كان أهل الآخرة كلهم لايموتون ، لما فى ذلك من البشارة لهم بالحياة الهنيئة فى الجنة ، فأمّا من يكون فى النار ، وفيما هو فيه من الشدة والهول فإنه لا تطلق عليه هذه الصفة ؛ لأنه يموت موتات كثيرة بما يقاسيه من أهوال ، وما يعانيه من عذاب ونكال ، ثم يحيا بعد كل موتة ليعود إليه العذاب ، وقوله تعالى : (فَضْلًا مِّن رَّبِّكَ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ) معناه : هذا الذى نالوه من ألوان النعيم فى الجنة نالوه وأُعطوه تفضلا من الله وتكرُّماً ، فإن جميع أعمالهم الصالحة لاتكافىء أبسط نعم الله عليهم فى الدنيا . ذلك الذى نالوه هو الفوز العظيم الذى لا فوز وراءه ؛ لأنه خلاص من المكاره والمعاطب ، وتحقيق للمطالب والرغائب .

(فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾ فَارْتَقِبْ إِنَّهُم مُّرْتَقِبُونَ ﴿٥٩﴾)

المفردات :

(يَسَّرْنَاهُ) : سهلناه .

(بِلِسَانِكَ) : بلغتك العربية

(فَارْتَقِبْ) : فانتظر .

التفسير

٥٨، ٥٩ - (فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ * فَارْتَقِبْ إِنَّهُم مُّرْتَقِبُونَ) :

تنتهى هذه السورة المباركة بمثل ما بدأت به من الحديث عن القرآن الكريم وإنزاله فى ليلة مباركة ، ليكتمل فيها شرف البدء والختام بالحديث عن أعظم كتاب وأصدق كلام .

أى : فإنما أنزلنا الكتاب المبين بلغتك وسهّلناه بنزوله قرآناً عربيا بلسانك ولسان قومك ليسهل فهمه وتدبّره لكى يتذكروا ، وينتفعوا بهديه ، فيعملوا بموجبه ، وإن لم يستجيبوا ويتعظوا فانتظر عاقبة أمرهم ، وما يحلّ بهم ، فإنهم منتظرون عاقبة أمرك وما يحلّ بك ، وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون ، والعاقبة عند ربك للمتقين .

وفى الآية تكريم للرسول والعرب بنزول القرآن بلسانهم أى تكريم .

((سورة الجاثية))

سورة الجاثية من جملة سور «آل حم» لباب القرآن وعرائس آياته ، وهى سورة مكية ، وآياتها سبع وثلاثون آية .

نزلت بعد سورة الدخان على ماهو معروف من نزول سور « آل حم » جملةً مرتبة متتابعة.

وسميت سورة الجاثية لقوله-تعالى-فيها : (وَتَرَى كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً) أى : باركة على الرُّكب مستوفزة ، وتسمّى أيضا سورة الشريعة ، وسورة الدهر لذكر هذه الألفاظ فيها ، والأصل أن تسمى السورة باسم أمر ذى بال مذكور فيها ، وغلب عليها هذا الاسم لما جاء فيها من الأهوال التى يلقاها الناس يوم الحساب حيث تجثو الخلائق على الرّكب فى انتظار الحساب ، ويغشاهم من الفزع مالايخطر على بال .

وبدأت بالحديث عن القرآن جريا على أسلوب السور التى تبدأ بِسَرْدِ حروف المعجم ، وليتصل أولها بآخر السورة التى قبلها .

أهدافها :

تناولت هذه السورة العقيدة الإسلامية ، وأفاضت فى الحديث عنها ، والتوسع فى تحقيقها ، فتكلمت عن الإيمان ، والوحدانية ، والرسالة المحمدية ، والقرآن والبعث والجزاء .

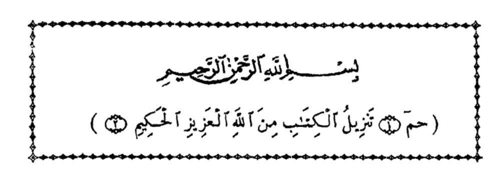
وقد بدأت كغيرها من سور «آل حم » بالكلام عن القرآن ، وإنزاله من العزيز الحكيم ، ثم عرضت لذكر آيات الله فى خلق السموات والأرض ، وما بثّ فيهما من إنسان وحيوان ، وبدائع صنع ، وروائع حكمة ، وتجلّى هذا فى اختلاف الليل والنهار ، وتسخير الرّياح والأمطار ، وإنبات الزرع والأشجار ، وجرى البحور والأنهار ، ثم عرضت لأحوال الكافرين الذين يصمّون أسماعهم ، ويعطلون عقولهم ، فلا يتدبرون فى هذه الكائنات ولا يتّعظون بهذه الآيات ، ثم تنتقل إلى الحديث عن نعم الله تعالى على العباد ، وتسخير مافى السموات ومافى الأرض جميعا لتيسير حياتهم ، وتسهيل معاشهم ، وتُعَقِّب ذلك بأن لكل واحد جزاءه (مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ ، وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا) .

ثم تتحدث عن بنى إسرائيل وما أفاء الله عليهم من النبوات والحكمة ، وما يسّره لهم من الطيبات ، وآتاهم من البينات والآيات فلم يكن منهم إلا الخلاف ، والاندفاع فى الطغيان والانحراف .

ثم تتجه الآيات إلى نبوّة سيدنا محمد ﷺ وأنها جاءت على منهاج واضح ، وشريعة مستقيمة يجب اتباعها ، والسلوك على هديها ، والبعد عن الأهواء وسلوك سبيل الطغاة الجاحدين الذين لا يفلتون من عذاب الله ، ولايكونون أبدا كالذين آمنوا وعملوا الصالحات .

ثم خوّفت الآيات فى أسلوب شديد من اتباع الهوى والضلال على علم ؛ فيختم على السمع والقلب ، ويغشى النظر فلا يكون لصاحبه هداية ، ويندفع فى ضلاله فينكر البعث والجزاء ، وإذا تتلى عليه آيات الله ولّى مستكبرا معرضا عن الاتعاظ والاعتبار خلودا إلى الدنيا ، وغرورا بها ، وكفرا بالله الذى خلقهم ، وأحياهم ثم يميتهم ويجمعهم إلى يوم القيامة لاريب فيه ، وتدعى كل أمة إلى كتابها لتلقى جزاءها ، فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيدخلهم ربهم فى رحمته ، وأما الذين كفروا فيقال لهم : ألَمْ تكن آياتى تتلى عليكم فاستكبرتم وكنتم مجرمين . فاليوم جزاؤُكم جهنَّمُ لاتخرجون منها ولا تستعتبون .

ثم تنتهى آيات السورة بإثبات الحمد والكبرياء لله ربّ السموات والأرض العزيز الحكيم .



المفـردات :

(حمٓ) : حرفان من المعجم .

(الْكِتَابِ) : القرآن .

(الْعَزِيزِ) : القوى الغالب .

(الْحَكِيمِ) : العالم المتقن للأمور الذى يضع الشىء فى موضعه .

التفسير

١ ، ٢- (حمٓ * تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ) :

ختمت سورة الدخان بقوله -تعالى- : «فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ» ثم بدأت هذه السورة بالحديث عن القرآن أيضا تنويها بفضله ، وإبرازا لمنزلته ومكانته ؛ وقوله تعالى : (حمٓ) سرد لحرفين من المعجم لاتشكيل على أواخرهما ، والكلام عنهما مثل الكلام عن سوابقهما من السور المبدوءة بحروف المعجم معنى وموقعا وإعرابا وبخاصة سورة البقرة .

(تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ) : أضاف الله -سبحانه وتعالى- تنزيل القرآن إلى نفسه فى مواضع من السور استفتاحا بتعظيم شأنه ، وتفخيم قدره ، وما اقتضى هذا المعنى لايكون تكريرا .

(إِنَّ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَـٰتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ وَفِى خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ ءَايَـٰتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ وَٱخْتِلَـٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَـٰحِ ءَايَـٰتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٥﴾)

المفردات :

(يَبُثُّ) : ينشر ويفرّق .

(وَٱخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ) : وتعاقبهما وتفاوت أحوالهما .

(رِزْقٍ) : مطر يتسبب عنه الرزق .

(أَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ) : أحياها بالزروع .

(مَوْتِهَا) : جفافها ويبسها .

(تَصْرِيفِ الرِّيَاحِ) : اختلاف أحوالها .

التفسير

٣- (إِنَّ فِى ٱلسَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ) :

كلام مستأنف مسوق للتنبيه على الآيات التكوينية ، الآفاقية والنفسية ، أى : إن فى خلق السموات وما حوت من كواكب وأفلاك ،وفى خلق الأرض ومايجرى فى جوّها من طيور وسحب ، وما يختلف عليها من صحو وغيم ، وما يسمع فيها من رعد ،ويُرى من برق ، وفى خلق الأرض وبسطها وما بث فيها من خلائق وأجرى فيها من أنهار ، وأنبت من زروع ، وأرسى من جبال ، وأبدع من عجائب ـ إن فى هذا كله ـ لآيات وحججا تدل

على أن لها خالقا قادرا . ومدبّرا حكيما ، وعالما بصيرا -لآيات- ينتفع بها الذين يطلبون الإيمان ، وينشدون الهداية ، ويحسنون التدبّر فى الآيات ، والإذعان للمعجزات .

٤- (وَفِى خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ) :

المعنى : وفى خلق الله إياكم ، وما ينطوى عليه هذا الخلق من بدائع الصنعة ، وعجائب الخلقة ، واختلاف الأشكال والألوان ، والألسن والأجناس ، وما يتعاقب عليكم من أحوال وأطوار ، منذ أول نشأتكم ، وأنتم أجنّة فى بطون أمهاتكم حتى انتهاء آجالكم ، وفى خلق مايبثّ من دابة ، وما ينتشر على الأرض من أجناس الحيوانات ، وأصناف الحشرات مما يمشى على بطنه ، وما يمشى على رجليه ، وما يمشى على أربع أو أكثر ، مع اختلاف منافعها ، والمقاصد المطلوبة منها - إن فى هذا كلّه - دلائل وبراهين لقوم يطلبون الاطمئنان على وجود الصانع الحكيم ، وينشدون اليقين والاستقرار ليصل بهم ذلك إلى الإيمان والتوحيد ، والتزام الطاعة ، والسلوك السديد .

٥- (وَٱخْتِلَافِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَاحِ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ) :

أى : وفى اختلاف أحوال الليل والنهار من التعاقب والطول والقصر ، والحرّ والقرّ والنور والظلمة ، وما يتبع ذلك من تغاير الفصول ، واختلاف المنافع ، والمقاصد ، وفيما ينزل من السماء من مطر تحيا به الأرض بعد يبسها وجفافها ، فينبت الزرع ، ويَحْفُل الضرع ، وتجرى الأرزاق ، وتعمر الآفاق ، وفى تصريف الرياح فتهب مرّة جنوبا وأخرى شمالا ، وحيناً صَبا بالرحمة وماء السحاب ، وحيناً دَبُورا تبعث العذاب ، وفيما تؤديه من تزاوج النبات ، وتيسير سير السفن فى الأنهار والمحيطات - إن فى هذا كله - شواهد صدق وآيات حق لقوم يعقلون الآيات والأدلة ، ويحسنون الانتفاع بالعقل فيديرون فيها الفكر والرأى ، ليعلموا أن لهذه الأشياء صانعا حكيما ، وخالقا قادرا عظيما .

وفى تنكير الآيات فى المواضع الثلاثة تنبيه إلى كثرتها ، وتفخيمها كمًّا وكيفا ،

(تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ ۖ فَبِأَيِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾ وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٧﴾ يَسْمَعُ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا ۖ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٨﴾ وَإِذَا عَلِمَ مِنْ ءَايَٰتِنَا شَيْـًٔا ٱتَّخَذَهَا هُزُوًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٩﴾ مِّن وَرَآئِهِمْ جَهَنَّمُ ۖ وَلَا يُغْنِى عَنْهُم مَّا كَسَبُوا۟ شَيْـًٔا وَلَا مَا ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠﴾ هَٰذَا هُدًى ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ ﴿١١﴾)

المفردات :

(وَيْلٌ) : هلاك ، وهى كلمة تقال للعذاب ، كما يقال : وَيْحٌ للرحمة .

(أَفَّاكٍ) : كثير الكذب .

(أَثِيمٍ) : مذنب كثير الإثم .

(يُصِرُّ) : يستمسك ويدوم .

(فَبَشِّرْهُ) البشارة فى الأصل : الخبر المغير للبشرة خيرا كان أو شرًّا، وخصها العرف بالخبر السار ، واستعمالها فى الشر تهكم .

(مُسْتَكْبِراً) : متعالياً عن الإيمان بما سمع .

(هُزُواً) : سخرية واستهزاء .

(مِن وَرَآئِهِمْ) الوراء : اسم للجهة التي يواريها الشخص من خلف وقدام .

(الرِّجْزِ) : أشد العذاب – ويطلق أيضا على القَذَر كالرجس .

التفسير

٦ – (تِلْكَ آيَاتُ اللهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ) :

هذه الآيات وعيد لمن لم يصدق الآيات السابقة فلا يؤمن بالله وملائكته واليوم الآخر ، وبكل ماتجيء به والنبوات من الشرائع .

والمعنى : تلك الآيات من القرآن أو السورة أو ماذكر من السموات والأرض وما فيهما الناطقة بالبراهين على وجود الله ووحدانيته ، وكمال قدرته نقرؤها عليك ونتلوها مقرونة بالصدق ، لتبلِّغها وتقرأها عليهم ، فلا ينبغي أن يكون منهم إلاَّ تصديقها والإيمان بها ، فإنه ليس وراءها غاية ، ولا بعدها بيان ، وإذا لم يؤمنوا بها فبأى حديث بعد حديث الله وآياته المفصلات يؤمنون ويصدقون ، فإنه لا أبين من هذا البيان ، ولا آيات أوضح من هذه الآيات فى صدق الدلالة ونصوع البرهان .

فالمقصود بالحديث القصص القرآنى الذى يستخرج منه عبر تميز الحق من الباطل ، والصحيح من الفاسد ، عن الإلهيات وأحوال الآخرة .

٧ ، ٨ – (وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ * يَسْمَعُ آيَاتِ اللهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ) :

أىْ : هلاك وعذاب لكل مبالغ فى الكذب دائم عليه ، كثير الإثم ملازم للمعصية .

وقوله–تعالى– :(يَسْمَعُ آيَاتِ اللهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ) بيان لحال الأفاك المستحق للويل ، أوصفة له ، أى : يسمع هذا الأفاك الأثيم آيات الله من القرآن الكريم تتلى عليه وتقرأ ثم لايلبث بعد سماعها أن يغلبه جهله ويشده عناده وكفره فيعرض عنها ويصرّ على إنكارها ، ويقيم على هذا الكفر ويلازمه مستكبرا عن الإيمان بما سمعه متعظّما فى نفسه عن الانقياد للحق مثل غير السامع أصلًا .

(فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ) أى : فأخبره ساخرا مستهزئا بعذاب بالغ أقصى غايات الإيلام والإيجاع على إصراره ذلك .

٩ ، ١٠ ـ (وَإِذَا عَلِمَ مِنْ آيَاتِنَا شَيْئاً اتَّخَذَهَا هُزُوًا أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ * مِّن وَرَآئِهِمْ جَهَنَّمُ وَلَا يُغْنِى عَنْهُم مَّاكَسَبُواْ شَيْئاً وَلَا مَا اتَّخَذُواْ مِن دُونِ اللهِ أَوْلِيَآءَ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ) :

كان النضر بن الحارث يشترى أحاديث الأعاجم يلهى بها عن القرآن ، ويعارضه ، ولما سمع أبو جهل قوله ـ تعالى ـ : « إِنَّ شَجَرَةَ الزَّقُّومِ طَعَامُ الْأَثِيمِ » سخر واستهزأ ، وأحضر تمرا وزبدا فجمع بينهما ، وأكل منهما وهو يقول فى سخرية : هذا هو الزقوم الذى يخوفنا محمد به ، نحن نتزقمه ، أى : نملأ به أفواهنا ، والمعنى : وإذا علم هذا الأفاك الأثيم وبلغه شىء من آياتنا من حجج أو وعيد بادر إلى الاستهزاء بالآيات كلها ولم يقتصر على الاستهزاء بما علمه .

أولئك الكذابون الآثمون لهم عذاب بالغ المهانة توفية لحق استكبارهم واستهزائهم ، وقوله ـ تعالى ـ : (مِن وَرَآئِهِمْ جَهَنَّمُ . .) . الآية :

أى : من قدامهم جهنم ؛ لأنهم متوجهون إليها ، وإلى ما أُعدّ لهم فيها ، أو من خلفهم بعد موتهم ، فإن الوراء اسم للجهة التى يواريها الشخص من خلف أو من قدّام ، ولايغنى عنهم ماكسبوا من الأولاد والأموال ولايدفع شيئا من عذاب الله ، كما لايغنى عنهم ما اتخذوا من دون الله من الأصنام شيئا ، وإن زعموا غير ذلك . ولهم عذاب عظيم لايقادر قدره ، واختلاف الفواصل للترقى فى وصف العذاب تبعًا لتعاظم الذنب ، فالعذاب الأليم جزاء الإصرار على الإعراض عن الآيات ، والعذاب المهين جزاء للاستهزاء بها أشد وأبلغ ، والعذاب العظيم جزاء أوفى لاتخاذ آلهة غير الله .

١١ ـ (هَٰذَا هُدًى وَالَّذِينَ كَفَرُواْ بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ) :

بهذه الآية تختم آيات الوعيد .

والمعنى : أن القرآن الكريم فى غاية الكمال من الهداية كأنه الهداية نفسها ، والذين كفروا به وبآياته لهم عذاب من أشد العذاب وأقساه وقعا وألما .

وتنكير عذاب فى المواقع الثلاثة للتهويل ، وزيادة التخويف ، كما أن وضع آيات ربهم موضع الضمير لزيادة تشنيع كفرهم ، وتفظيع حالهم مع التنويه بمنزلة القرآن الكريم .

(* ٱللَّهُ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَكُمُ ٱلْبَحْرَ لِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٣﴾ قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَغْفِرُوا۟ لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ لِيَجْزِىَ قَوْمًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۖ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴿١٥﴾)

المفردات :

(سَخَّرَ) : ذلَّل .

(بِأَمْرِهِ) : بإذنه وتسخيره .

(يَغْفِرُوا) : يعفوا ويصفحوا .

(لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللهِ) : لايتوقَّعون وقائعه بأعدائه ونقمته فيهم .

(لِيَجْزِىَ قَوْمًا) : لِيُكَافِئ المؤمنين الغافرين

(وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا) أى : ومن أساء فعلى نفسه أساء .

التفسير

١٢ - (اللهُ الَّذِى سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لِتَجْرِىَ الْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ) :

بعد أن ساق القرآن فيما تقدم من الآيات أدلَّة كونية وعقلية على عقيدة الإيمان وتوعد المخالفين الآثمين بما توعَّد . ذكر هُنَا بعض نِعَم الله وآلائه ، وفضله الَّذى

منّ به على عباده ، ليشكروه على مابه أنعم ، وليتفكَّروا فى بديع صُنْعه ، وعظيم قُدرته فقال ـ سبحانه ـ : (اللهُ الَّذِى سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ ...) إلخ .

والمعنى : الله وحده ـ لاشريك له ـ هو الَّذى ذلَّل لكم البحر وهيأه وأعده سائلا يطفو عليه مايتخلخل كالأخشاب ، لِتَسير السفن فيه مَاخِرَة عُبَابه ، حاملة النَّاس وأرزاقهم ومتاعهم بأمره ـ سبحانه ـ وإذنه ، ولتطلبوا من فضله من خيرات البحر ومنافعه بالتِّجارة والصيد واستخراج المعادن ، ولكى تشكروه على حصول المنافع المجلوبة لكم من الأقاليم النَّائية ، فتُخْلِصُوا له الدين والعبادة .

١٣ـ (وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى السَّمٰوَاتِ وَمَا فِى الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ) :

أى : وذلَّل لكم مافى السموات من شمس وقمر ونجوم لتنتفعوا بحرارتها وضوئِها ، وسخر لكم مافى الأرض من دابة وشجر وزرع وبحار وأنهار وغيرها من جميع ما تنتفعون به ويُسَهِّل لكم سُبُل الحياة ، هذه الأشياء وغيرها كائنة منه ، وحاصلة من عنده ، فهو مُكَوِّنها ومُوجِدها بقدرته وحكمته ثم سخَّرها لخلقه .

إنَّ فيما ذُكر من نِعَمٍ لآيات عظيمة الشأن كثيرة العدد لقوم يتفكَّرون ويتدبرون فى بدائع صنعه تعالى وعظائم شئونه ـ جلَّ شأنه ـ فإنَّ ذلك يدعوهم إلى الإيمان به والشُّكر له .

١٤ ـ (قُل لِّلَّذِينَ آمَنُواْ يَغْفِرُواْ لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللهِ لِيَجْزِىَ قَوْمًا بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ) :

سـبب النزول :

حكى النَّحاس والمهدوى عن ابن عباس أنَّها نزلت فى عمر ـ رضى الله عنه ـ شتمه مُشرك من غفَارٍ [1] بمكة قبل الهجرة فهم أنْ يَبْطِش به فنزلت ، ورُوى ذلك عن مقاتل ، وهذا ظاهر فى كونها مكِّية كأخواتها من آيات السورة (ذكر ذلك الآلوسى والزمخشرى) .

وقيل : إنَّ النبى ﷺ وأصحابه نزلوا فى غزوة بنى المُصْطَلِق على بئر يقال لها (المُرَيْسِيع) فأرسل ابن أُبَيٍّ غلامه ليستقى فأبطأ عليه ، فلما أتاه قال له : ماحبسك ؟

---

(١) غفار : اسم قبيلة .

قال : غلام عمر قعد على طرف البئر فما ترك أحدا يستقى حتى مَلَأَ قِرَبَ النبى - ﷺ وقرب أبى بكر ، فقال ابن أبى : ما مثلُنا ومثل هؤلاء إلا كما قيل : سَمِّن كلبك يأْكُلْكَ فبلغ ذلك عمر - رضى الله عنه - فاشتمل سيفه يريد التوجه إليه فأَنزل الله الآية ، وحكاه الإمام عن ابن عباس أيضا ، وهو يدل على أنَّها مدنية ، وكذلك ماروى عن ميمون بن مهران قال : لما أنزل الله قوله - تعالى - : (مَن ذَا الَّذِى يُقْرِضُ اللهَ قَرْضًا حَسَنًا . . .) إلخ قال فِنْحَاصُ اليهودى : آحتاج رب محمد ؟ فسمع بذلك عمر فاستلَّ سيفه وخرج فبعث النبى ﷺ فى طلبه حتى رده ، ونزلت الآية . (ذكره الآلوسى) .

والمعنى : قل - أيها النبى الكريم - للمؤمنين : اغفروا لمن أساء إليكم فيغفروا ويصفحوا عن الأذى الذى أصابهم من الذين لايتوقعون وقائع الله تعالى ، ولايخافون نقمته عليهم لكفرهم ، ولو عقلوا لخافوها وبدلوا بكفرهم إيمانا حتى لاتنزل بهم وقائعه ونقمه ، وقد أمر الله رسوله أن يبلغ المؤمنين أمره - تعالى - بأَن يغفروا لمن أساء إليهم حتى لايشغلوا أنفسهم بقتالهم قبل أوانه ويتركوا أمر عقابهم لله تعالى فيجزيهم بما كانوا يكسبون .

١٥ - (مَنْ عَمِلَ صَٰلِحاً فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ) :

الآية مستأْنفة لبيان الجزاء المذكور فى الآية السابقة ، والمعنى : من عمل صالحاً فلنفسه الأَجر والثواب على عمله ، ومن أَساء بفعل القبائح وعمل السيئات فَعَلَى نَفْسِه أَسَاءَ ، فعليه وِزْرُ عمله وقُبْح فعله ، ثم إلى مُرَبِّيكم وخالقكم ومالك أُموركم تُرجعون وتعودون يوم القيامة فيُجَازيكم على أعمالكم خيرًا على الخير ، وشرًّا على الشَّر .

(وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ وَءَاتَيْنَٰهُم بَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ ۖ فَمَا ٱخْتَلَفُوٓا۟ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٧﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا۟ عَنكَ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۖ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٩﴾ هَٰذَا بَصَٰٓئِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٢٠﴾)

المفـردات :

(ٱلْكِتَابَ) : التَّوراة ، أو هى والزَّبور والإنجيل .

(وَالْحُكْمَ) : والقضاء بين الناس ، أو الفقه فى الدِّين .

(وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ) : وفضَّلناهم بكثير من نِعَم الدنيا على العالمين ،أو فضَّلناهم فى الدين على عَالَمِى زمانهم الوثنيين .

(بَيِّنَاتٍ مِّنَ الْأَمْرِ) : أدلَّة فى أمر الدِّين ويندرج فيها المعجزات .

(بَغْيًا بَيْنَهُمْ) : ظلما وعداوة وحسدا .

(شَرِيعَةٍ) : منهاج وطريقة .

(وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ) : ولا تَتَّبِع مالاحجة عليه من آراء الجهال التابعة للشهوات .

(هَٰذَا) أى : القرآن .

(بَصَآئِرُ) : بينات واضحات .

التفسير

١٦ - (وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا بَنِىٓ إِسْرَآءِيلَ الْكِتَٰبَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ الطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَى الْعَٰلَمِينَ) :

والمعنى : ونقسم لقد أعطينا بنى إسرائيل التَّوراة والزَّبور والإنجيل والقضاء بين النَّاس والحكم بما فى هذه الكتب ، والنُّبوة المُعْطاةَ من عند الله ، حيث أرسل فيهم كثيرًا من الأنبياء -عليهم السلام - لكثرة أمراضهم الخلقية وشدة مُخَالفتهم ، ورزقناهم من المُسْتَلَذَّات والخيرات المتنوِّعة كالمنّ والسلوى وغيرهما من خيرات الشام ، وفضَّلناهم بكثير من النِّعم فى الدنيا - فضلناهم - على العالمين حيث آتيناهم مالم نُؤْت غيرهم من فلق البحر وإظلال الغمام ونظائرهما ، فما رَعَوا هذه النِّعم حق رعايتها ، وما شكروا الله عليها ، فالمراد تفضيلهم على العالمين من بعض الوجوهَ ، فلا ينافى ذلك تفضيل أُمَّة مُحَمَّد ﷺ عليهم من جهة المرتبة والشَّرف والثَّواب ، قال -تعالى- : « كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ »[1] وقيل : المراد بالعالمين عَالمُو زمانهم .

١٧ - (وَءَاتَيْنَٰهُم بَيِّنَٰتٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَمَا اخْتَلَفُوٓا۟ إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ) :

وأعطيناهم دلائل ظاهرة وحججاً واضحة فى أمر الدين كمعجزات موسى -عليه السلام- وعن ابن عباس : آيات من أمر النَّبى ﷺ وعلامات مبيِّنة لصدقه ، ككونه يُهَاجر

---

(١) سورة آل عمران من الآية : ١١٠ .

من مَكَّة إلى يثرب ويكون أنصاره أهلها إلى غير ذلك مِمّا ذكر فى كُتُبهم ، فما وقع بينهم اختلاف فى ذلك الأمر إلَّا من بعدما جاءهم العلم ، فجعلوا ما يُوجب زوال الخلاف مُوجبا لحُدُوثه وحصوله ظلما وعداوة وحسدا منهم للنبى ﷺ ،وفى ذلك يقول الله ـ تعالى ـ فى سورة البينة : « وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَةُ » إنَّ رَبك ـ أيّهَا الرسول ـ سيفصل بينهم يوم القيامة بحكمه العدل فيما كانوا فيه يتنازعون ويتفرقون من أمر الدين ، وسينال كل ما يستحقُّه من الجزاء ، وفى هذا تحذير لأُمَّة محمد أنْ تسلك مَسْلكهم وتنهج منهجهم لئلاَّ يصيبها ما أصابهم وما سيُصيبهم ، ولهذا قال سبحانه .

١٨ ـ (ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ) :

ثم جعلناك ـ أيهَا الرسول ، بعد اختلاف أهل الكتاب ـ على طريقة واضحة ، ومنهاج قويم من أمر الدِّين الَّذِى شرعناه لك ولِمَنْ سَبَقَك مِنْ رُسلنا ، فاتَّبع ما يُوحى إليك مِنْ ربِّك وهو شريعتك الحقَّة الثَّابتة بالدلائل والحُجَج ، ولا تتَّبع مالا دليل عليه مِنْ آراء الجهال فى دينهم الباطل المبنىِّ على البدع والأهواء .

قيل : المُراد بهم بنو قريظة والنَّضير ، وقيل : رؤَساء قُريش كانوا يقولون له ﷺ : ارجع إلى دين آبائك ، واللَّفظ عام يصدق على كل مُعَوِّق عن طريق الحقِّ مُضِلٍّ عن الصِّراط المستقيم .

ولقد جاء فى البحر : الشَّريعة فى كلام العرب : الموضع الذى يَرِد منه النَّاس فى الأنهار ونحوها ، فشريعة الله حيث يرد النَّاس منها أمر الله ـ تعالى ـ ورحمته والتقرب منه عزَّ وجل : (ذكره الآلوسى)

١٩ ـ (إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا عَنكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ) :

الجملة مستأنفة وهى تعليل للنَّهى السابق فى قوله ـ تعالى ـ : (وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ) أى : أنَّ الطَّامِعِين فى اتِّباعك لهم ، الباذلين فى سبيل ذلك كل نفيس ، لن يدفعوا عنك من عذاب الله شيئاً لو اتَّبَعْتهم ، وإنَّ الظَّالمين المتجاوزين حدود الله

بعضهم أنصار بعض وأعوان لهم على الباطل ، فلا تُوَالهم باتِّباع أهوائهم ، ودم على ما أنت عليه مِنْ مُوَالاتك لله - سبحانه - والإعراض عمن سواه واتِّباع شريعته ، فذلك خُلُق المتقين وأنت قدوتهم وإمامهم ، والله ناصرهم وَوَلِيهم ، وشتَّان بَيْنَ مَنْ كان وليُّه الشَّيطان ومَنْ كان وليّه الرّحمن وما أبْيَنَ الْفَرْق بين الولايتين

٢٠ - (هَٰذَا بَصَآئِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ) :

أى : هذا القرآن الّذى أُنزل عليك معالم للنّاس ودلائل تبصّرهم بالدِّين الحقّ ، وهو هُدى يعصمهم من الضّلالة ويُرْشدهم إلى طريق الخير ومسالك البرّ ، ورحمة من العذاب لقوم يطلبون اليقين ، فإذا عرفوا دليل الحق آمنوا به ولم يجادلوا فيه .

(أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٢١﴾ وَخَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٢﴾ أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَـٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَـٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٣﴾)

المفردات :

(اجْتَرَحُواْ السَّيِّئَاتِ) : اكتسبوا الكفر والمعاصى

والاجتراح : الاكتساب ، ومنه الجوارح ، وفلان جارحة أهله ، أى : كَاسِبُهم .

(سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ) : قَبُح ما يقضون به .

(أَفَرَأَيْتَ) أى : أنظرت من هذه حالُه فرأيت[١]

(مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ) : من اتخذ هواه معبودًا له فخضع له وأطاعه .

(وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ) أى : تخلى الله عن هدايته لعلمه أنه يستحقُّ ذلك ، لاختياره له بعد بلوغ العلم إليه وإعراضه عنه .

(وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ) : وأغلق سمعه فلا يقبل ما ينفعه ، وختم على قلبه فلا يعتقد حقا لإصراره على كفره .

(وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَاوَةً) : غطاء أو ظُلْمَةً فلا يُبصر دواعى الهدى .

(فَمَن يَهْدِيهِ مِن بَعْدِ اللَّهِ) : فمن يهديه من بعد إعراض الله عنه؟ أى : لا أحد يهديه .

(أَفَلَا تَذَكَّرُونَ) أى : أتتركون النظر فلا تتعظون .

التفسير

٢١ ـ (أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ) :

استئناف مسوق لاستنكار التَّسوية بين حال المسيئين والمحسنين .

سـبب النزول :

جاء فى البحر عن الكلبى أن عُتبة وشيبة والوليد بن عُتبة قالوا لعلىّ ـ كرّم الله وجهه ـ ولحمزة ـ رضى الله عنه ـ وللمؤمنين : والله ما أنتم على شىء ولئن كان ما تقولون حقًّا لَحَالُنَا أفضلُ من حالكم فى الآخرة كما هو أفضل فى الدّنيا ، و (أَمْ) فى الآية بمعنى بل والهمزة لإنكار الحسبان ، أى : بل أَحَسِب .

---

(١) أبو حيان جعل (أفرأيت) بمعنى أخبرنى .

والمعنى : بل أحسب الَّذين اكتسبوا ما يسيء إليهم من الكفر والآثام أن نُصَيِّرهم كالذين آمنوا وعملوا الصّالحات ونُسَوِّى بين الفريقين بعد الممات بالجنة ونعيمها كما يزعم الكافرون ؟ ! قَبُحَ ما يَقْضُون به مِن الحُكْم الجائر الَّذى يُسَوِّى بين المحسنين والمسيئين ، فإنهم وإن تساووا محيا فى نحو الرزق والصحة لا يستوون مماتا ، فالمؤمنون فى روضة يحبرون ، والكافرون فى النار خالدون ، وقال الزَّمخشرى: المعنى إنكار أن يستوى المحسنون والمسيئون محيا وأن يستووا مماتا لافتراق أحوالهم فى ذلك ، والآية مُتَضَمِّنة للرد على الكفَّار كما يُعرف بأدنى تدبّر ؛ لأَنَّ الله إذا أنكر عليهم المُساواة فكيف بالأَفضليّة ؟ ! قال ابن عطيّة : إنَّ لفظ الآية يعطى أَنَّ اجتراح السيئات هو اجتراح الكفر لمعادلته بالإيمان .

٢٢ - (وَخَلَقَ اللهُ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ) :

الآية الكريمة دليل على إنكار حسبانهم السابق؛ لأَن خلق العالم بالحقّ المقتضى للعدل يستدعى انتصاف المظلوم من الظَّالم والتَّفاوت بين المسىء والمحسن ، وإذا لم يكن فى الْمَحْيَا كان بعد الممات حقًّا ، والمعنى : وخلق الله السَّموات والأَرض بالحكمة والصّواب دون العبث والباطل ، وأَقام نظامهما على العدل والإنصاف لتظهر دلائل أُلوهيته وأَمارات قدرته وحكمته ، ولتُجْزى كلّ نفس بما فعلت من خير أَو شرّ وهم لا يُظْلَمُون بنقص ثواب أَو زيادة عقاب ، وذلك منه تفضُّل وكرم ؛ لأَنَّ الخلق عبيده يفعل بهم مايشاء ، ولكن شاءت حكمته وعدله ذلك ووعد به ، ووعده لا يتخلَّف .

٢٣ - (أَفَرَءَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ اللهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ ، وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِن بَعْدِ اللهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ) :

هذا القول الكريم تَعْجيب مِنْ حال مَنْ ترك مُتَابعة الهُدى إلى مُطاوعة الْهَوَى فكأنه يعبد الهوى ، فالكلام على التَّشبيه .

والمعنى : أنظرت فرأيت – أيها الرسول – حال من اتَّخَذَ إلٰهه هواه ، فهو مطواع لهوى النَّفس ، يتبع ما تدعوه إليه ، فكأنَّه يعبده كما يعبد الرَّجل إلهه :وقرىء (آلِهَةً هَوَاهُ) لأنه كان يستحسن الحجر فيعبده ، فإذا وجد ماهو أحسن منه رفضه إليه أو أبقى عليه فكأنَّه اتَّخذ هواه إلها أو آلهةً شَتَّى يعبد كلّ وقت واحدا منها . وأضلَّه الله فصرفه عن الهداية وخذله عن طريق الحقّ على علم منه – تعالى – بذلك ؛ لأنَّه علم أنَّ ذلك اختياره وإرادته وإصراره عليه ، أو أضلَّه الله بعد بلوغ العلم إليه وقيام الحجة عليه وأغلق الله سمعه وقلبه فَحِيلَ بينه وبين أن يسمع ما ينفعه مِنَ الهُدَى ، أو يَعى شيئا بعقله ويهتدى به ، وجعل على بصره غطاء وغشاوة ، فلا يُبصر الحقّ ولا يرى حجّةً يستضيء بها ؛ لأنه محجوب عن الاستبصار والاعتبار ، والكلام على التمثيل كما يُقرِّر ذلك العلّامة الآلوسى ، فمن يهديه من بعد إضلال الله إيّاه وإعراضه عنه وخذلانه له لاستحقاقه ذلك بإصراره على الكفر؟أى لا أحد يهديه ، (أَفَلَا تَذَكَّرُونَ) أى : أتتركون التفكر والنَّظر فلا تتذكَّرون ولا تتَّعظون ؟ .

(وَقَالُواْ مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٢٤﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُواْ ٱئْتُواْ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٥﴾ قُلِ ٱللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾)

المفردات :

(مَاهِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا) : ما الحياة إلّا حياتنا الدنيا الّتى نحياها .

(نَمُوتُ وَنَحْيَا) :يموت بعض ويولد آخرون ولامعاد ولاقيامة ، وسيأتى فى التفسير زيادة إيضاح .

(وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا الدَّهْرُ) : وما يُهلكنا إلّا مُرور الزّمان .

(إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ) أى : ماهم إلّا قوم يتوهمون .

(مَاكَانَ حُجَّتَهُمْ) أى : ماكان قولهم الّذى ساقوه مساق الحجّة وليس بِحُجّة .

(ائْتُواْ بِآبَآئِنَا) : أحضروا آباءنا أحياء فى هذه الدنيا بعد أن ماتوا .

(قُلِ اللهُ يُحْيِيكُمْ) : يُخرجكم إلى الوجود بعد أن كنتم نطفا .

(ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ) : ثم يجمعكم أحياء فى يوم القيامة لا فى هذه الدنيا .

التفسير

٢٤ - (وَقَالُواْ مَاهِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ) :

وقال المشركون : ما الحياة إلّا حياتنا الدنيا الّتى نحن فيها ولا حياة سواها .

(نَمُوتُ وَنَحْيَا) أى : تموت طائفة وتحيا أُخرى ولا حشر أصلا ، وقيل المعنى : نحيا ونموت ،يزعمون أن الحياة فى الدّنيا والموت بعدها وليس وراء ذلك حياة بالبعث ، وقيل : أرادوا بالحياة بقاء النّسل والذّريّة مجازًا ،كأنّهُمْ قالوا : نموت بأنفسنا ونحيا ببقاء أولادنا وذرارينا ، وقيل : نكون مواتا نُطفا فى الأصلاب ونحيا بعد ذلك . (وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا الدَّهْرُ) أى : وما يفنينا إلّا طول الزّمان ومرور اللّيالى والأيّام ،وينكرون بذلك ملك الموت وقَبْضَه الأرواح بأمر الله .

وما يقولون ذلك القول وهو قصر حياتهم على الحياة الدنيا ونسبة الإهلاك إلى الدّهر ، ما يقولونه عن علم صحيح ويقين معتمد على عقل أو نقل ولكن عن ظن وتخمين وتوهُّم وتخيُّل .

٢٥ - (وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُواْ ائْتُواْ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ) :

أى : وإذا قُرئت عليهم آيات الله واضحات الدّلالة على قدرته تعالى على البعث ما كانت حجتهم فى رد البعث إلا قولهم ائتوا بآبائنا أحياء فى هذه الدنيا إن كنتم صادقين فى أَنَّنَا نُبْعَثُ بعد الموت ، وتسمية القرآن قولهم هذا حجّةً لسوقهم إيّاه مساق الْحُجَّة ، وعلى سبيل التّهكم بهم ، أى : ما كان حجّتهم إلّا ما ليس بحجّة ،والخطاب فى قوله تعالى : (ائْتُواْ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ) للرّسول والمؤمنين ، إذ هم قائلون بمقالته من البعث طالبون من الكفرة الإقرار به ، ويجوز أن يكون للرّسول وللأنبياء قبله الّذين يقولون مقالته .

٢٦ - (قُلِ اللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ) :

أى : قل - أيّها الرّسول - لهؤلاء المنكرين للبعث : الله يحييكم ابتداءً كما تشاهدون ذلك إذ يُخرجكم من النُّطف إلى هذا الوجود ، ثم يُميتكم عند انقضاء آجالكم - لا الدّهر كما تزعمون - ثم يجمعكم أحياءً فى يوم القيامة للحساب ، لا شكّ فى هذا الجمع .

ودليل إمكانه : أنَّ من قدر على الخلق ابتداءً قادر على الإعادة، وهى عليه أهون ، ودليل وقوعه وحصوله : أنَّ البعث أمر مُمْكن - كما قدّمنا - وتقتضيه الحكمة لإعطاء كل ذى حق حقه ، وأخبر به الرّسول الصّادق ، وكلّ ما هو كذلك واقع لامحالة ، ولكن أكثر النّاس لا يعلمون قدرة الله على البعث لإعراضهم عن التفكُّر فى الدّلائل ، والقادر على البعث قادر على الإتيان بآبائكم ، وهو من تمام الكلام الّذِى أُمربه الرّسول ، أو كلام مسوق من جهته تعالى تحقيقاً للحقّ ، وتنبيهاً لهم على أنَّ ارتيابهم لجهلهم وعجزهم عن النظر والتّفكّر .

(وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٢٧﴾ وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً ۚ كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰٓ إِلَىٰ كِتَـٰبِهَا ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾ هَـٰذَا كِتَـٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٩﴾)

المفردات :

(الْمُبْطِلُونَ) : أهل الباطل وهم الكفَّار .

(جَاثِيَةً) : باركة على الرُّكَب مُسْتَوْفِزة ، وعن ابن عبّاس : جاثيةً : مُجْتَمِعَة ، وعن السّدى جاثية : خاضعة بلغة قريش .

(كِتَابِهَا) : صحيفة أعمالها ، وأفرد على الجنس . (يَنطِقُ) : يشهد .

(نَسْتَنسِخُ) : نستكتب الملائكة أعمالكم .

التفسير

٢٧ - (وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَـٰوَاتِ وَالْأَرْضِ.وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ الْمُبْطِلُونَ) :

بيان للاختصاص المطلق والتصرف الكلى فى السّموات والأرض وفيما بينهما بالله -عزّوجلّ- إثر بيان تصرفه تعالى بالإحياء والإماتة والجمع والبعث للمجازاة ؛ فهو تعميم للقدرة بعد تخصيص ، يخبر الله تعالى أنه - وحده - مالك السّموات والأرض والحاكم فيهما والمسيطر عليهما فى الدنيا والآخرة ، ولذا قال : (وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ) أى : وفى هذا اليوم -وهو يوم القيامة- يخسر أهل الباطل وهم الكافرون بالله المُكَذِّبون بما أنزله على رسله من الآيات ، المنكرون للبعث .

٢٨ ـ (وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰٓ إِلَىٰ كِتَـٰبِهَا الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ) :

وترى ـ أيُّها المكلف ـ كلّ أمّة من الأُمم المجموعة باركة على ركبها متحفّزة وهى هيئة المذنب الخائف المنتظر لما يكره ، وذلك من عظم الموقف وهول المحشر ، كلّ أمّة تُدعَى إلى صحيفة أعمالها الّتى كتبها الحفظة لتُحاسَب على ما فيها ، ويقال لهم : اليوم تستوفون جزاءَ ماكنتم تعملون فى الدنيا من خير أو شرّ ، فنى الدنيا كان العمل ، واليوم يوم الجزاء على هذا العمل ، والمراد من كتاب كل أمة : كتاب كل واحد من مكلفيها .

٢٩ ـ (هَـٰذَا كِتَابُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ) :

هذا القول من تمام ما يقال لهم حينئذ .

والمعنى : ويُقَال لهم : هذا كتابنا الذى سجّلنا فيه أعمالكم ، يشهد عليكم بالعدل وينطق بالصّدق ، ويستحضر جميع ما عملتم من غير زيادة ولانقصان ، وعلّل لشهادته عليهم بالحقّ فقال :

(إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ) أى : إنّا كنّا نأمر الملائكة الحفظة أن تكتب أعمالكم لتُحَاسَبُوا عليها .

(فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِى رَحْمَتِهِۦ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ (٣٠) وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَفَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنتُمْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ (٣١) وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱلسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُم مَّا نَدْرِى مَا ٱلسَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ (٣٢) وَبَدَا لَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُواْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ (٣٣) وَقِيلَ ٱلْيَوْمَ نَنسَىٰكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ (٣٤) ذَٰلِكُم بِأَنَّكُمُ ٱتَّخَذْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًا وَغَرَّتْكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا فَٱلْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ (٣٥) فَلِلَّهِ ٱلْحَمْدُ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَرَبِّ ٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ (٣٦) وَلَهُ ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ (٣٧))

المفــردات :

(فِى رَحْمَتِهِ) : فى جنته . (مَا السَّاعَةُ) : أى شىء الساعة ؟ ما حقيقتها؟ .

(وَحَاقَ بِهِم) : وأحاط بهم ونزل . (نَنسَاكُمْ) : نتركم فى العذاب ترك المنسى .

(كَمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا) : كما تركتم الاستعداد للقاء ربكم فى هذا اليوم بالإيمان ، والعمل الصالح .

(آيَاتِ اللهِ) : القرآن . (هُزُوًا) : سُخريًا .

(وَغَرَّتْكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا) : وخدعتكم فاطمأننتم إليها . (وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ) : ولاهم يُطلب منهم الْعُتبى وهى أن يُرْضُوا ربَّهم بالتَّوبَةِ والاعتذار .

(الْعَالَمِينَ) : ماسوى الله ، وجُمع لاختلاف أنواعه .

(وَلَهُ الْكِبْرِيَاءُ) : وله وحده العظمة والجلال والسلطان .

التفسير

٣٠ - (فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّٰلِحَاتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِى رَحْمَتِهِ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ) :

هذه الآية والتى بعدها تفصيل للجزاء المترتب على قوله - تعالى - فيما تقدّم : (هَٰذَا كِتَابُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِالْحَقِّ) أو (الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعمَلُونَ) : لما فيه من الوعد والوعيد .

والمعنى : فأمَّا الَّذين آمنت قلوبهم وعملت جوارحهم الأعمال الصَّالحة الموافقة للشَّرع فيُدخلهم ربهم فى رحمته وهى الجنَّة ، كما ثبت فى الصَّحيح أنَّ الله تعالى قال للجنَّة : « أنتِ رحمتى أَرْحمُ بِكِ مَنْ أشاء » ذلك الجزاء وهو الإدخال فى الجنة هو الفوز الظاهر كونه فوزًا لا فوز وراءه .

٣١ - (وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَفَلَمْ تَكُنْ آيَاتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَاسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنتُمْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ) :

أى : وأمَّا الَّذين كفروا فيقال لهم تقريعًا وتوبيخًا : ألم تأتكم رُسلى فلم تكن آياتى تُقرأ عليكم فاستكبرتم عن اتِّباعها ، وأعرضتم عن سماعها ، وتعاليتم عن قبولها ، وكنتم قومًا كافرين لتكذيبكم إيَّاها ؟!

٣٢ـ (وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ ، وَالسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُم مَّا نَدْرِى مَا السَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ) :

وإذا قال لكم رسول الله المُبَلِّغ عن ربّه - أيُّهَا المنكرون للبعث - : إنَّ ما وعدكم الله به من البعث والجزاء حقٌّ ثابت وواقع ، والسَّاعة لا شكّ فى مجيئها ووقوعها قُلتم استغرابًا ، وتكذيبًا : ما نعلم ما السَّاعة ؟ أى شيء هى ؟ وما حقيقتها ؟ ما نتوهَّم وقوعها إلَّا توهمًا مرجوحًا وما نحن بمتحققين أنَّها آتية .

وقيل : المعنى : وما نحن بمستيقنين إمكان السَّاعة ، أى :لا نتيقن إمكانها أصلًا فضلًا عن تحقق وقوعها المدلول عليه بقوله ـ تعالى ـ :(إِنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا) فقولهم هذا ردٌّ لذاك .

قال الآلوسى : ولعلَّ المُثْبتين لأنفسهم الظَّنّ من غير إيقان بـأمر السَّاعة غَيْرُ القائلين : (إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا . .) الآية فانَّ ذلك ظاهر فى أنَّهم منكرون للبعث جازمون بنفى السَّاعة ، فالكفرة صنفان : صنف جازمون بنفيها كأئِمَّتهم ، وصنف متردّدون مُتَحيِّرون فيها ، فإذا سمعوا ما يُؤثر عن آبائهم أنكروها ، وإذا سمعوا الآيات الْمتْلُوَّة تقهقر إنكارهم فَتَرَدَّدُوا ، ويحتمل اتحاد قائل ذاك وقائل هذا إلَّا أنَّ كُلًّ قول فى وقت وحال ، فهو مضطرب مختلف الحالات ، تارة يجزم بالنَّفى فيقول : (إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا . . .) الآية ، وأُخرى يظنّ فيقول : (إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا) إهـ :آلوسى بتصرف .

٣٣ـ (وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُواْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ) :

وظهر حينئذ لهؤلاء الكُفَّار سيئات ما عملوا ، أى : قبائح أعمالهم ، فإن العقوبة دليل على ذلك ، أو سيئات ما عملوا ، أى : جزاء أعمالهم السيئات وأحاط بهم من كل جانب العذاب والنَّكال جزاء استهزائهم بـآيات الله وسخريتهم منها .

٣٤ـ (وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنسَاكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ) :

وقيل لهؤلاء المشركين من قبل رب العزة توبيخًا وتقريعًا : اليوم نترككم فى العذاب كما تركتم الاستعداد للقاء ربّكم فى هذا اليوم بالتّقوى والإيمان ، ونجعلكم بمنزلة الشّيء المنسى الذى لايبالى به كما لم تُبَالوا أنتم بلقاء ربّكم هذا ولم تخطروه ببال فأنتم كالشّيء الّذى يطرح نسيا منسيا ، ومقرّكم ومنزلكم النّار ، وليس لكم من ناصرين ينقذونكم من عذابها ولا مانعين لكم ومدافعين عنكم من ويلاتها وعقابها .

وقد ثبت فى الصّحيح أنّ الله يقول لبعض العباد : ألم أزوّجك ؟ ألم أكرمك ؟ ألم أُسَخِّر لك الخيل والإبل ؟ فيقول : بلى يارب ، فيقول : أظننت أنّك ملاقىّ ؟ فيقول : لا فيقول الله- تعالى - : « فَالْيَوْمَ أَنْسَاكَ كَمَا نَسِيتَنِى » ذكره ابن كثير .

٣٥ - (ذَٰلِكُم بِأَنَّكُمُ اتَّخَذْتُمْ آيَاتِ اللهِ هُزُواً وَغَرَّتْكُمُ الْحَيَوٰةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ لَايُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ) :

ذلكم العذاب الّذى نزل بكم والجزاء الّذى جازيناكم به لأنّكم كفرتم بالله واتّخذتم قرآنه وحُجَجَه ومُعجزاته سُخريًّا ، تسخرون منها وتهزءُون بها ، وخدعتكم الحياة الدّنيا بزينتها وزُخْرفها فاطمأننتم إليها ووثقتم بها ، وحسبتم أنْ لاحياة سواها ولاحياة لكم بعدها ، فاليوم لايستطيع أحد إخراج هؤلاء من النار ولاهم يُطلب منهم أنْ يُعتبوا ربهم سبحانه ، أى : ولا هم يطلب منهم إرضاؤه بالتّوبة والاعتذار لفوات الأوان ، والالتفات فى قوله- تعالى - : (لَايُخْرَجُونَ مِنْهَا) إلى الغيبة للإيذان بإسقاطهم من رتبة الخطاب استهانة بهم .

٣٦ - (فَلِلَّهِ الْحَمْدُ رَبِّ السَّمَٰوَاتِ وَرَبِّ الْأَرْضِ رَبِّ الْعَٰلَمِينَ) :

هذه الآية تفريع على ما اشتملت عليه السّورة الكريمة ، فقد احتوت على آلاء الله وأفضاله واشتملت على الدلائل الكونية ، وانطوت على البراهين السّاطعة والنّصوص القاطعة فى المبدأ والمعاد .

والآية إخبار عن استحقاقه - تعالى - الحمد وحده ؛ لأنه رب السموات والأرض ورب العالمين ، ويجوز أن يراد بها الإنشاء وهو طلب الحمد لله ، والمعنى : فلله وحده الحمد والثناء فاحمدوه وحده فهو خالق السموات والأرض وما بينهما وما فيهما ورب ذلك كله ، وهذه الربوبيّة تُوجب تخصيص الحمد بالله على نعمه الكثيرة وآلائه العظيمة .

٣٧ - (وَلَهُ الْكِبْرِيَاءُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ) :

وله - وحده - العظمة والملك والسلطان والكمال ، فهو سبحانه الذى كلُّ شىء خاضع لديه فقير إليه ، وقيل الكبرياء : كمال الذات وكمال الوجود ، وخُصّ ذلك بالسموات والأرض لظهور آثار الكبرياء وأحكامها فيها ، وقد ورد فى الحديث الصحيح : « العَظَمةُ إزارى والكبرياءُ ردائى ، فَمَن نازَعنِى واحدًا مِنْها ، أَسْكَنْتُه نارى » ذكره ابن كثير .

(وَهُوَ الْعَزِيزُ) الذى لا يُقْهر (الْحَكِيمُ) فى كل ماقضى وقدّر ، يضع الشىء فى موضعه .

وفى هذه الجمل إرشاد - على ماقيل - إلى أوامر جليلة ، كأنّه قيل : له الحمد فاحمدوه ، وله الكبرياء فكبّروه ، وهو العزيز الحكيم فأطيعوه - عزّ وجلّ - وجعلها بعضهم مجازا أو كنايات عن الأوامر المذكورة . والله أعلم .

طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الاميرية

رئيس مجلس الادارة
رمزى السيد شـعبان

رقم الإيداع بدار الكتب ١٦٧٩/١٩٨٧

الهيئة العامة لشئون المطابع الاميرية
٢٥٠٠٤ — ١٩٨٧ — ٢٥٩٠



التفسير الوسيط

للقرآن الكريم

تأليف

لجنة من العلماء

بإشراف

مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر

المجلد الثالث

الحزب الواحد والخمسون

الطبعة الأولى ١٤١٠هـ - ١٩٨٩م

القاهرة

الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

١٩٨٩

« سورة الأحقاف »

هذه السورة مكية وآياتها خمس وثلاثون

صلتها بما قبلها

تحدثت كلتا السورتين – الجاثية والأحقاف – عن القرآن الكريم ، وأنه منزل من عند الله العزيز الحكيم فى خلقه وتدبيره ، كما أن كلا من السورتين ذكرت نموذجاً شريراً من البشر ؛ فنى سورة الجاثية جاء ذكر اليهود وما أفاء الله عليهم من الخير « وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِىَ إِسْرَآئِيلَ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ » ولكنهم اختلفوا فيه بعد ماجاءهم العلم وبغى بعضهم على بعض ؛ حسداً وعناداً ، وكذلك الأمر فى سورة الأحقاف حيث عاند الكفار واستكبروا عن الحق ، قال تعالى : (وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ آمَنُواْ لَوْ كَانَ خَيْراً مَّاسَبَقُونَآ إِلَيْهِ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُواْ بِهِ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَآ إِفْكٌ قَدِيمٌ) .

بعض مقاصد هذه السورة :

١ – أنها – كشأن السور المكية – تدعو إلى العقيدة الصحيحة من توحيد الله – تعالى – إلى تصديق رسالة الرسل – عليهم السلام – إلى الإيمان باليوم الآخر وما فيه من ثواب وعقاب .

٢ – أنها تؤكد صحة رسالة رسولنا ﷺ وصدق ما جاءهم به عن الله – تعالى – .

٣ – أنها أوضحت ضلال الكفار وبهتانهم وخطأهم فى عبادة الأوثان والأصنام التى لا تضر ولا تنفع ، ولا تبصر ولا تسمع .

٤ – أنها ردت على المشركين وسفهتهم فى زعمهم أن القرآن سحر مبين ، قال تعالى : (قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ اللهِ وَكَفَرْتُم بِهِ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّن بَنِىَ إِسْرَآئِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِ فَآمَنَ وَاسْتَكْبَرْتُمْ) .

٥ – أنها جاءت بمثالين : أحدهما للولد الصالح البار بوالديه وقد بلغ كمال عقله ورشده فقال : (رَبِّ أَوْزِعْنِىَ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِىَ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَى وَالِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحاً تَرْضَاهُ) وثانى المثالين جاءت به للولد الفاجر العاق لوالديه الذى يقابل نصحهما

له وحرصهما عليه بالسخرية والاستهزاء ، وذلك عندما يدعوانه إلى الإيمان بالله فيقول : (أُفٍّ لَّكُمَآ أَتَعِدَانِنِيٓ أَنْ أُخْرَجَ) إلى أن يقول : (مَا هَٰذَآ إِلَّآ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ) .

٦ - عرضت السورة لأُولئك النفر من الجن الذين صرفهم الله ووجههم إلى رسول الله ﷺ لسماع القرآن الكريم فأَنصتوا إليه عند سماعه ، ثم ذهبوا إلى قومهم منذرين ومخوفين لهم من أن يخالفوه ؛ لأَن القرآن مصدق لما جاء به موسى - عليه السلام - ولأَنه يهدى إلى الحق الثابت والصراط المستقيم ، وآمرين لهم باتباع ماجاء فيه ليغفر الله لهم ذنوبهم وينجيهم من عذاب أليم ، وذلك تنبيه وتوبيخ للمشركين ؛ حيث آمن به الجن وكفر به المشركون وعاندوا .

٧ - جاء فى هذه السورة أن الله الذى خلق السموات والأَرض ولم يصبه إعياءٌ أوضعف أو تعب هو - سبحانه - قادر على إحيائهم بعد موتهم ، وحسابهم على ما اقترفوا من كفر ومعاصٍ فى الدنيا ، وهذا تهديد لهم . وكانت نهايتها أمرًا من الله لرسوله أن يصبر على تكذيب قومه وإيذائهم له كما صبر أَصحاب العزائم العالية من الرسل - عليهم السلام - ونهاه - جل شأْنه - أن يستعجل لهم العذاب فإنه آتيهم لامحالة ، و(كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوٓا إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ) .

سبب تسمية السورة بهذا الاسم :

أنه قد ذكر فيها كلمة الأَحقاف ، وهى اسمٌ للمكان الذى كانت فيه مساكن عاد قوم هود ، وقد دمرهم الله بالريح الصرصر العاتية جزاء كبرهم وطغيانهم ، قال تعالى : (وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ) إلى قوله تعالى : (تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ كَذَٰلِكَ نَجْزِى الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ) .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

(حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلُ الْكِتَٰبِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴿٢﴾ مَا خَلَقْنَا السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ وَالَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَمَّآ أُنذِرُوا۟ مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾ قُلْ أَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى السَّمَٰوَٰتِ ۖ ائْتُونِى بِكِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ هَٰذَآ أَوْ أَثَٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤﴾)

المفـردات :

(وأَجَلٍ مُّسَمًّى) : زمان محدود تنتهى عنده ؛ وهو مُدَّة بقاء الدنيا .

(أُنذِرُوا۟) : خُوِّفوا .

(مُعْرِضُونَ) : مولون ومضربون عنه ، من أعرضت عنه : أضربت ووليت عنه .

(أَرَأَيْتُمْ) : أخبرونى .

(شِرْكٌ) أى : مشاركة وإسهام .

(أَثَارَةٍ مِّنْ عِلْمٍ) : بقية من علوم الأولين ، وقيل غير ذلك ، وسيأتى بيانه فى الشرح .

التفسـير

١ - (حمٓ) : هما حرفان من حروف المعجم تقدم الكلام فيهما وفيما يماثلهما من الحروف الواردة فى أوائل بعض سور القرآن الكريم كسورة البقرة وغيرها ، وكل ماقيل

فى هذا الشأن مبنى على فهم واجتهاد ، وليس له سند قاطع من كتاب الله - تعالى - أو من سنة رسوله ﷺ والأسلم والأحكم أن نترك أمر المراد منها إلى علم الله فنقول : الله أعلم بمراده .

٢ - (تَنزِيلُ ٱلْكِتَابِ مِنَ اللهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ) :

أى : هذا القرآن العظيم منزل من عند الله العزيز الذى لايغالب ولا يقهر ، بل هو القاهر فوق عباده وهو - سبحانه - الحكيم فى خلقه وتدبيره ، وليس لأحد من الخلق دخل فى تأليف هذا القرآن الكريم على أية صورة من الصور .

٣ - (مَا خَلَقْنَا السَّمٰوَاتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَالَّذِينَ كَفَرُواْ عَمَّآ أُنذِرُواْ مُعْرِضُونَ) :

أى : ما خلق الله السموات والأرض وما بينهما مما يعلمه ومالا يعلمه المخلوقون جميعاً إلَّا خلقاً ملازما للحق لا ينفك عنه ولا سبيل إلى العبث فيه ؛ قال تعالى : « أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا [١] » ، وقال تعالى : « وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلاً [٢] » وقال جل شأنه : « وَمَا خَلَقْنَا السَّمٰوَاتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ . مَا خَلَقْنَاهُمَآ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ [٣] » فهذا الخلق منه - سبحانه - قد ارتبط بالتدبير الحكيم ، والتقدير العظيم ليدل به - تعالت عظمته - على تفرّده ووحدانيته وكمال قدرته ، وأنه هو الذى يجب أن يعبد دون سواه كما أن هذا الخلق للسموات والأرض وما بينهما مقدر بأجل وزمان ينتهى عنده ، ثم بعده يكون فناء الدنيا وقيام الساعة : « يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمٰوَاتُ [٤] » وإن هؤلاء الكفار عن الهول والنكال الذى أنذروا وخوفوا به من أهوال الآخرة من الحشر والحساب والصراط والميزان وما ينتهى إليه أمرهم من العذاب المقيم - إن هؤلاء الكفار - معرضون عنه لا يلتفتون اليه ولا يفكرون فيه جهلا وكبراً واستهزاء . .

---

(١) المؤمنون ، من الآية : ١١٥
(٢) ص ، من الآية : ٢٧
(٣) الدخان ، الآيتان : ٣٨ ، ٣٩
(٤) إبراهيم ، من الآية : ٤٨

وبعد أن بين الله - سبحانه - أنه منزل الكتاب الحكيم وأنه - وحده - خالق السموات والأرض وما بينهما على مقتضى حكمته ، وأن هؤلاء الكفار مع هذا كله معرضون ومدبرون عما خوفوا به من العذاب جاء قوله تعالى :

٤ - (قُلْ أَرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ ائْتُونِي بِكِتَابٍ مِّن قَبْلِ هَٰذَا أَوْ أَثَارَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ) :

جاء هذا القول الحكيم تسفيهاً لهم ، وقاطعاً عليهم سبيل اللجاج والجدل ، أى : قل - يا محمد - لهؤلاء الضالين المكذبين الذين يعبدون غير الله من مخلوقاته أو مما تصنعه أيديهم - قل لهم - : أخبرونى عما تعبدون من دون الله وتزعمون أنها آلهة تتزلفون إليها وتتقربون منها - أعلمونى وأرشدونى - عن المكان الذى استقلت آلهتكم بخلقه من الأرض أخلقوا الماء أو اليابس ؟ الشرق أو الغرب ؟ السهل أو الجبل ؟ الحيوان أم الجماد ؟ عالم البر أو عالم البحر ؟ دقيق المخلوقات أم عظيمها ؟ .

إن هذه المعبودات أقل شأناً وأدنى منزلة من أن تخلق شيئاً ، إنها مخلوقة لله ، أو مصنوعة بيد الإنسان الذى خلقه الله ، إنها لا تملك لكم رزقاً فى السموات ولا فى الأرض ، إنها لاتضر ولا تنفع ولا تملك موتاً ولا حياة ولا نشوراً .

قل لهم - أيها الرسول على سبيل التدرج معهم - : (أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ) أى : بل ألهم شركة وإسهام مع الله - جل شأنه - فى خلق السموات؟ هل ساعدوا الله وأعانوه فى شىء من ذلك ؟ - قل لهم يامحمد - : (ائْتُونِي بِكِتَابٍ مِّن قَبْلِ هَٰذَا أَوْ أَثَارَةٍ مِّنْ عِلْمٍ) أى : هاتوا لى الدليل وأقيموا لدىَّ الحجة ، هل عندكم من كتاب من الكتب المنزلة من عند الله قبل القرآن تشهد لكم بذلك ؟ أو هل لديكم بقية من علوم الأولين تنطق باستحقاقهم العبادة وأنهم خلقوا شيئاً من الأرض ، أو اشتركوا فى خلق السموات ، أو هل اختصكم الله وحدكم بعلم من عنده يؤيد ما تدّعون (إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ) أى : إن كنتم محقين فى دعواكم فهاتوا مالديكم من الأدلة ؛ فإن الدعوى لا تصح مالم يقم عليها برهان عقلى أو دليل نقلى ، وحيث لم يقم عليها شىء من العقل أو النقل فقد تبين بطلانها ، وأقيمت الحجة عليكم وظهر ضلالكم وبهتانكم .

(وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ ﴿٥﴾ وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُواْ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُواْ بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ ﴿٦﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَلَا تَمْلِكُونَ لِى مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ ۖ كَفَىٰ بِهِۦ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۖ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٨﴾)

المفــــردات :

(غَافِلُونَ) :أصله من : غفل عن الشيء : تركه وسها عنه ، والمراد هنا أنهم لاهون لا يسمعون.

(حُشِرَ النَّاسُ) : جمعوا يوم القيامة فى صعيد واحد .

(افْتَرَاهُ) : نسبه كذبًا إلى الله .

(تُفِيضُونَ فِيهِ) : تندفعون وتخوضون فيه .

التفســير

٥ ، ٦ –(وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُواْ مِن دُونِ اللهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَن دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ * وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُواْ لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُواْ بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ) :

(وَمَنْ أَضَلُّ) الاستفهام هنا لإنكار أن يكون فى الضالين كلهم من هو أشد ضلالا من عبدة غير الله ، أى : ليس هناك من هو أبلغ ضلالا وأبعد إفكاً وانحرافاً عن الحق من هؤلاء الذين يعبدون غير الله من المخلوقات : أوثانًا أو ملائكة أو جنًّا أو بشرًا ، ويتركون عبادة السميع العليم القادر على كل شىء ، إنهم يعبدون معبودات لا ينفعون ولا يضرون ، قال

– تعالى – : « لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَيْءٍ إِلَّا كَبَاسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ » .(١) إن هذه الآلهة المزعومة لاتستجيب ولا تلبي ما يطلبونه منها مدة بقاء السموات والأرض وإلى أن تقوم الساعة؛ إذ لاقدرة لها على ذلك فهى لاتسمع ولاتدرى ، قال تعالى : « إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ »(٢) فإذا قامت القيامة وحشر النّاس وجمعوا فى صعيد واحد واشتد كربهم كانت هذه المعبودات أعداءً لمن عبدوهم ، وكانوا عليهم ضداً يخالفونهم ويلحقون بهم الذل والهوان ، بعد أن اتخذوهم فى الدنيا ليكونوا لهم مجداً وعزاً وذخراً ، قال تعالى : « وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللهِ آلِهَةً لِّيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا * كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا »(٣) وقال أيضًا : « إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ »(٤) . كما أن العابدين الضالين ينكرون – يوم القيامة – أنهم عبدوا هذه المخلوقات ، ويزعمون أنهم ما أشركوا بالله شيئًا ، قال – تعالى – حكاية عنهم : « ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَن قَالُوا وَاللهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ . انظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ »(٥) .

والمعنى : لا أحد أضل ولا أشقى ممن يعبدون آلهة غير الله لا تستجيب ولا تلبى نداءهم فى الدنيا ؛ إذ أنها لاتسمع ولاتبصر ، فهى جماد ، أمّا إذا كانت من الجن أو الإنس أو الملائكة فإنهم مشغولون بأمر أنفسهم ، أو أن الله يحمى أسماعها عن أن تسمع دعاء هؤلاء ، فضلًا عن أنها لا تملك شيئًا ، وفى يوم الحشر تكون هذه المعبودات أعداء لعابديهم تكذبهم وتتبرأ منهم ، كما يتبرأ العابدون من معبوداتهم ويقولون : « وَاللهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ » فيجمعون بين الشرك بالله والكذب ، وكل ذلك لا يغنيهم من الله شيئًا .

---

(١) سورة الرعد الآية : ١٤ (٢) فاطر ، من الآية : ١٤ (٣) سورة مريم الآيتان : ٨١ ، ٨٢

(٤) البقرة ، الآية: ١٦٦ (٥) الأنعام ، الآيتان: ٢٣ ، ٢٤

٧ـ (وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ) :

أى : وإذا تقرأ – يامحمد – على هؤلاء الكفار المعاندين آياتنا المنزلة عليك – وهى واضحات ظاهرات لا لبس فيها ولا غموض ، أو مظهرات ومُبيِّنات لما أُنزلت فى شأنه من الأمور التى يلزم إظهارها وبيانها ، قال الذين كفروا وجحدوا هذه الآيات دون تدبر وتأمل – : (هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ) أى : ماجئت به – يامحمد – سحر واضح بيّن ، وذلك لأنهم عجزوا عن الإتيان بمثلها ، وإذا سمعها غير المعاند آمن بها ، فلهذا قالوا عنها : إنها سحر بين ؛ لأنها تأخذ بألباب العقلاء فيؤمنون .

٨ـ (أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئًا هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ كَفَىٰ بِهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ) :

فى هذه الآية الكريمة ينكر الله عليهم ويوبخهم على شناعة قولهم : إنه ﷺ افترى وكذب على الله – جل شأنه – ونسب إليه القرآن .

أى : بل أيقولون افترى محمد على ربه القرآن ونسبه إليه ؟ قل لهم – مسفها – : لو افتريتُه ونسبتُه زورًا وبهتانًا إلى ربى – كما تزعمون – لعاجلنى الله بعقوبة هذا الكذب ، وأنتم لاتقدرون على منع ربى – جل شأنه – وكفه عن معاجلتى ، ولاتستطيعون دفع شىء من عقابه عنى ، فكيف أفترى القرآن على الله وأتعرض لعقابه ؟ أيفعل ذلك من لديه بقية من عقل ؟ ! .

(هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ) أى : هو – سبحانه – عليم بالذى تأخذون وتندفعون بحماقة وتسرع فى القدح والذم والطعن فيه ، وتسميته سحرًا تارة وافتراءً تارة أُخرى إلى غير ذلك من ضروب النيل من كتاب الله .

(كَفَىٰ بِهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ) أى : يكفينى ويملأُ قلبى اطمئنانًا أن الله – سبحانه – شهيد بينى وبينكم ، يشهد لى بالصدق فيما أبلغه لكم عنه ، ويشهد عليكم بالجحود ، والنكران والكفر .

وفى هذه الآية الكريمة ما لا يخفى من التهديد والوعيد على إفاضتهم واندفاعهم فى تنقيص ما أوحى الله به إلى رسوله .

(وَهُوَ الْغَفُورُ) أى : وهو وحده الذى يغفر الذنوب ويتجاوز عن السيئات ، بل قد يبدلها حسنات ، وهو (الرَّحِيمُ) بعباده يفتح لهم أبواب رحمته وييسر لهم طرق الخير ، وينعم عليهم بنعمه الدقيقة التى لا يفطن إليها إلَّا من جعل الله له نوراً فى قلبه .

وفى ختم وتذييل الآية الكريمة بهذين الوصفين الجليلين له - سبحانه - فتح لِبَاب الرجاء فى الله ، وسدٌّ لِبَابِ اليأس والقنوط من رحمته ، أى : هلم أيها العاصون والكافرون إلى ساحة رضوانى ، تتوبون فأتوب عليكم ، وتستغفرون فأغفر لكم ، وتلجأون إلى رحابى فأضمكم إلى جنابى وأشملكم بفيض رحمانى .

(قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ وَمَآ أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِى وَلَا بِكُمْ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ وَمَآ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٩﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِۦ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِۦ فَـَٔامَنَ وَٱسْتَكْبَرْتُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠﴾)

المفردات :

(قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ الرُّسُلِ) : ما كنت مستحدثًا فى الدين ، وهو من قولهم : فلان بدْعٌ فى هذا الأمر ، أى : هو أول من فعله ، فيكون المعنى : قل : ما أنا أول من جاء بالوحى من الله .

التفسير

٩ - (قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ الرُّسُلِ وَمَآ أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِى وَلَا بِكُمْ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَىَّ وَمَآ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ) :

قيل فى سبب نزول هذه الآية الكريمة : إن الكفار كانوا يقترحون على رسول الله ﷺ آيات عجيبة ، ويسألونه عمّا لم يوح به الله من الغيوب - عنادًا ومكابرة- فأمر الله رسوله أن يقول لهم : (قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ الرُّسُلِ) أى : قل يامحمد لهؤلاء الكفار المنكرين الظالمين : ما أنا أول من جاء بالوحى من عند الله ، بل قد أرسل الله الرسل قبلى مبشرين ، ومنذرين ومبلغين ما أنزل إليهم من ربهم ، ولا يقترحون على الله الآيات ، ولا يتحدثون عن الغيب الذى استأثر الله بعلمه ، فكيف أقترح على الله تلك الآيات التى تريدونها ، أو أخبركم بالغيب الذى استأثر الله بعلمه ،فكيف تستنكرون وتستبعدون بعثتى إليكم وأنا على هداهم وطريقتهم ؟

(وَمَآ أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِى وَلَا بِكُمْ) أى : لا أعلم مايحدث بى ، أأخرج من بلدى وأهلى كما أخرجت الأنبياء - عليهم السلام- قبلى ؟ أم أقتل كما قتل بعض الأنبياء قبلى ؟ ولا أدرى مايفعل بكم ؟ أأمتى المكذّبة أم أمتى المصدقة؟ أأمتى المرمية بالحجارة من السماء قذفًا أم المخسوف بها خسفًا ؟أو المراد : أتؤمنون فتدخلوا الجنة ، أم تكفرون فتُعذبوا ، وتُستأصلوا بكفركم وشرككم ؟ثم أنزل الله بعد ذلك قوله تعالى : « إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ »[١] فعرف أنه لا يقتل ، ثم أنزل : « هُوَ الَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ »[٢] فعرف أن دينه سيظهر على الأديان كلها ، ثم أنزل : «وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ »[٣] فأخبره الله بما يصنع به وما يصنع بأمته.

(إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ) أى : ما أنا إلا متبع وممتثل وحى الله أبلغه إليكم ، وليس لى من الأمر شىء فيما تقترحون وتطلبون .

---

(١) الإسراء ، من الآية : ٦٠ (٢) التوبة ، من الآية : ٣٣

(٣) الأنفال ، الآية : ٣٣

(وَمَآ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ) أى : لست إلَّا منذركم ومخوفكم عقاب الله حسبما يوحى إلىّ مظهرا ومبيِّنًا ذلك لكم بالحجج القاطعة والمعجزات الباهرة التى يؤيدنى الله بها .

والمعنى الإجمالى : لست أول رسول جاء بالوحى من الله ، بل قد سبقنى الرُّسل إلى أقوامهم مبشرين الطائعين ، ومنذرين ومخوفين الكافرين والعاصين ، ولست أعلم مايحصل لى فى الدنيا من البقاء فى بلدى أم أخرج إلى غيرها وأُهاجر إلى سواها ، أم أُقتل كما قتل بعض الأنبياء قبلى ، ولا أدرى مايحصل لكم : أتكذبون فتعذبوا وتستأْصلوا أم تصدقون فتنصروا ثم تدخلوا الجنة ، ولست إلَّا متبعًا وممتثلاً أمر ربى ؛ فليس لى من الأمر شئ فيما تقترحون وتطلبون من الآيات الغريبة والمعجزات العجيبة ، وما أنا إلَّا منذر لكم ومخوف عقاب الله وَفق مايأْمرنى به رَبِّى مُؤيدًا منه - سبحانه - بالحجج والبراهين الساطعة . وحسبكم القرآن فى الدلالة على صدقه ، فإنه آية الآيات .

١٠ - (قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ اللهِ وَكَفَرْتُم بِهِ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّن بَنِى إِسْرَآئِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِ فَآمَنَ وَاسْتَكْبَرْتُمْ إِنَّ اللهَ لَا يَهْدِى الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ) :

روى البخارى ومسلم والنسائى عن سعد بن أبى وقاص - رضى الله عنه - قال : (ما سمعت رسول الله ﷺ يقول لأحد يمشى على وجه الأرض : إنه من أهل الجنة إلَّا لعبد الله بن سلام - رضى الله عنه - وفيه نزلت : (وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّن بَنِىٓ إِسْرَآئِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِ) وعلى هذا تكون الآية مدنية .

وقد رُوى أنه (لَمَّا قَدِمَ رسول الله ﷺ المدينة نَظَر عبد الله بن سلام إلى وجهه ﷺ فَعَلِمَ أنه ليس وجه كَذَّاب ،وتأَمَّلَهُ فتحقق أنه النبىُّ المُنْتَظَر ، وقال له : إنِّى سائلك عن ثلاث لايعلمهن إلَّا نبىّ : ما أَوَّل أَشْرَاط الساعة ؟ وما أَوَّل طَعَام يأْكله أهل الجنَّة؟ وما بال الولد ينزع إلى أبيه أو إلى أمه ؟ فقال - عليه الصلاة والسلام - : أَمَّا أول أشراط الساعة

فنار تحشرهم من المشرق إلى المغرب، وأمّا أول طعام يأكله أهل الجنّة فزيادة كبد الحوت، وأمّا الولد فإذا سبق ماءُ الرجل نزعه وإذا سبق ماءُ المرأة نزعته، فقال عبد الله: أشهد أنّكَ رسول الله حقًّا، ثم قال: يارسول الله إن اليهود قومٌ بهت، وإن علموا بإسلامى قبل أن تسألهم عنى بهتونى[1] عندك، فجاءت اليهود فقال لهم رسول الله ﷺ: أى رجل عبد الله فيكم؟ فقالوا: خيرنا وابن خيرنا، وسيدنا وابن سيدنا، وأعلمنا وابن أعلمنا، فقال الرسول ﷺ: أرأيتم إن أسلم عبد الله؟ فقالوا: أعاذه الله من ذلك، فخرج إليهم عبد الله فقال: أشهد أنْ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ وأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُول الله، فقالوا: شرنا وابن شرنا، وانتقصوه، قال: هذا ماكنت أخاف يا رسول الله وأحْذر).

وعلى هذا فالشاهد هو عبد الله بن سلام.

والمعنى: قل - يامحمد لهؤلاء اليهود -: أخبرونى إن اجتمع كون القرآن من عند الله مع كفركم به، واجتمعت شهادة أعلم بنى إسرائيل على نزول مثله ومسارعته ومبادرته إلى الإيمان به مع استكباركم عليه، وعن الإيمان بالذى جاء به، ألستم أضل الناس وأظلمهم؟ والمراد من قوله - تعالى -: (عَلَىٰ مِثْلِهِ) هو التوراة؛ فإن كلاًّ منهما مُنزل من عند الله، أو على مثل القرآن الكريم فى المعنى، وهو ما فى التوراة من المعانى المطابقة لمعانى القرآن من التوحيد والوعد والوعيد، ويدل على ذلك قوله - تعالى -: (وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الْأَوَّلِينَ)،[2] وقوله: (إِنَّ هَٰذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَىٰ)[3]، وقيل: (مِثْل) فى قوله تعالى: (عَلَىٰ مِثْلِهِ) كناية عن القرآن نفسه مبالغة، ويكون المعنى: وشهد شاهد على القرآن بأنه من عند الله، وقيل: الشاهد موسى - عليه السلام - وشهادته بما فى التوراة من بعثة النبى ﷺ وبه قال الشعبى.

(وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ) أى: والله - تعالى - لا يأخذ بيد الظالم فيرشده ويهديه إلى سواء السبيل؛ فأنتم بظلمكم أنفسكم واستعلائكم على الإذعان للحق لا يهديكم الله، وستمكثون فى الحيرة والضلال ومأواكم النار وبئس المصير.

---

(١) بهته بهتا وبهتاً وبهتانا: قال عليه ما لم يفعل: القاموس.

(٢) الشعراء، الآية: ١٩٦ (٣) الأعلى، الآية: ١٨

(وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ ۚ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُواْ بِهِۦ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَآ إِفْكٌ قَدِيمٌ ﴿١١﴾ وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً ۚ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا لِّيُنذِرَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢﴾)

المفـــردات :

(إِفْكٌ) : كذب وبهتان .

(إِمَامًا) : قدوة وأسوة يؤتم ويقتدى به .

التفسير

١١ - (وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ آمَنُواْ لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُواْ بِهِ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَآ إِفْكٌ قَدِيمٌ) :

وردفى سبب نزول هذه الآية الكريمة أقوالٌ ، منها : أنها نزلت فى بنى عامر وغطفان وتميم وغيرهم لَمَّا قالوا ذلك فى شأن مَنْ أَسْلَمَ منهم ، وقيل : إنها نزلت فى اليهود لَمَّا أسلم عبد الله ابن سلام ، وقيل : نزلت لَمَّا أسلمت زنّيرة- وكانت أمة لعمر بن الخطاب وقد أسلمت قبله وكان يضربها لإسلامها - فأُصيبت فى بصرها ، فقال المشركون لها : أصابك اللّات والعزى ، فرد الله عليها بصرها ، فقال عظماءُ قريش : لو كان ماجاء به محمدٌ خيرًا ما سبقتنا إليه زنيرة .

أي : قال الذين كفروا بالقرآن الكريم وبالرسول العظيم - استكبارًا واستعلاءً - قالوا فى شأن المؤمنين الذين آمنوا برسول الله وبما أُنزل عليه : لو كان خيرًا وهداية ما سبقَنَا فى الإيمان به هؤلاء الأدنون الأراذل والمستضعفون والعبيد والإماءُ .

وما دفع هؤلاء الكافرين المكذبين إلى ما ذهبوا إليه إلَّا أنهم يظنون أن لهم عند الله وجاهة ومنزلة ومكانة ، فهم يبنون أمر الدين على أمر الدنيا ، وقد حكى القرآن الكريم ذلك عنهم فقال – تعالى – : (لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ) والكفار بظنهم هذا قد أخطأوا خطأً بينًا ؛ فقد غاب عنهم ، بل أعماهم كبرهم فلم يهتدوا إلى أن الميل إلى الخير والانعطاف نحو الرسل واتباعهم إنما يكون ذلك منوطًا بكمالات نفسية وملكات رُوحيَّة ، مبناها الإعراض عن زخارف الدنيا والإقبال على الآخرة وما يقرب منها : (وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ) أى : أنهم لَمَّا لم يصيبوا الهدى والرشاد بالقرآن الكريم مع وضوح إعجازه عادوه ونسبوه إلى الكذب ، وقالوا : هذا كذبٌ قديم وأساطير مأثورة نسبها محمد إلى الله .

وقيل لبعضهم : هل فى القرآن : (من جهل شيئًا عاداه ؟) قال : نعم ، قال الله – تعالى – : (وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ) ، ومثله : « بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ »[1] .

١٢ – (وَمِن قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَىٰ إِمَامًا وَرَحْمَةً وَهَٰذَا كِتَابٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا لِّيُنذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ) :

أى : ومن قبل القرآن كانت التوراة التى أنزلها الله على موسى – عليه السلام – إمامًا يقتدى به فى شرائعه – سبحانه – ورحمة لمن صدق به وعمل بما جاء فيه ؛ وأنتم أيها الكفرة المكذبون لا تنازعون فى ذلك ؛ فالتوراة التى تؤمنون بها مشتملة على البشارة بمحمد ﷺ فإذا سلمتم أنها من عند الله – وأنتم مقرون بذلك – فاقبلوا حكمها بأن محمدًا رسولٌ – حقًّا – من عند الله .

(وَهَٰذَا كِتَابٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا) أى : وهذا القرآن كتاب رفيع القدر عظيم الشأن مصدق لما نزل قبله من الكتب ، وقد جاء لسانًا عربيًّا فصيحًا نازلًا بلغتكم التى برعتم فى

(١) يونس ، من الآية : ٣٩

فنونها وضروبها ، فكيف تنكرونه وتجحدونه ؛ وهو أفصح بيانًا وأظهر برهانًا وأبلغ إعجازًا من التوراة ؟

(لِيُنذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ) أى : ليكون القرآن الكريم إنذارًا وتخويفًا متجددًا للذين ظلموا غيرهم بالافتراء والكذب عليهم ، كما ظلموا أنفسهم بحرمانها من الخير العظيم والنعيم المقيم فى الآخرة ، مع تعريضها للعذاب الأليم والهوان والذل فى النار ، كما يكون القرآن بشارة وإخبارًا بالمنزلة الكريمة عند الله للذين أحسنوا وأخلصوا أعمالهم وراقبوا مولاهم فى سرهم وعلانيتهم .

وفى هذا تحذيرٌ للمؤمنين أن يسلكوا مسالك الذين ظلموا ؛ ودعوة إلى الكافرين أن يتوبوا إلى الله ويرجعوا إليه ليعمهم بإحسانه وفضله ، فباب التوبة مفتوح ؛ والله - سبحانه - يقول : « إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ »[1] .

(إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٣﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾)

التفسير

١٣ - (إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ) :

أى : إن الذين قالوا بلسانهم تعبيرًا عما اشتملت عليه قلوبهم ، ودلالة على ما اطمأنت به نفوسهم ، وأذعنت له أفئدتهم ، قالوا : ربنا الله رعانا بإحسانه وحفّنا بلطفه ، وتكفل

(١) النساء ، من الآية : ١١٦

- سبحانه - تفضلا منه بأسباب حياتنا ، ثم استقاموا على شريعته فامتثلوا أوامره واجتنبوا نواهيه ولزموا محجته فلا يلحقهم ما يخافونه ويكرهونه فى الآخرة ، ولا يُرَوَّعون ؛ لأنهم خافوه - سبحانه - فى الدنيا فأمنهم فى الآخرة ؛ إذ لا يجمع الله على المؤمن خوفين : خوف الدنيا وخوف الآخرة ، كما أنه لايصيبهم حزن ولا أسف على ما خلفوه فى الدنيا من مال أو ولد أوجاه ، فكل نعيم دون الجنة زائل .

١٤ - (أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا جَزَآءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) :

أى : أولئك الذين سمت بهم أعمالهم ، وعلت منزلتهم لدى ربهم هم أصحاب الجنة الذين يمكثون فيها أبدًا ، ويقيمون بها سرمدًا ، يتفضل الله عليهم بهذا النعيم الدائم كفاءً وجزاءً على ما كانوا يعملونه - بتوفيق الله - فى دنياهم من خير ، ويقدمون من برّ ، ويبذلون من طاعة .

(وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَٰنًا ۖ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا ۖ وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَصْلِحْ لِى فِى ذُرِّيَّتِىٓ ۖ إِنِّى تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٥﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟ وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّـَٔاتِهِمْ فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلْجَنَّةِ ۖ وَعْدَ ٱلصِّدْقِ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ﴿١٦﴾)

المفـــردات :

(وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ) : ألزمناه وأمرناه .

(حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهاً وَوَضَعَتْهُ كُرْهاً) : بكره ومشقة وتعب فى الحمل والوضع .

(وَفِصَالُهُ) الفصال : الفطام ، وهو مصدر (فَاصَل) فكأن الولد فاصل أمه والأم فاصلته .

(أَشُدَّهُ) : كمال قوته وعقله ورشده .

(أَوْزِعْنِى) : ألهمنى ووفقنى .

مناسبة هذه الآيات لما قبلها :

لما كان أمر الأولاد يختلف مع والديهم براً وعقوقاً كما يختلف أمر الأمم مع أنبيائهم استجابة لهم وإعراضاً عنهم كانت هذه الآيات متصلة بما قبلها .

التفسير

١٥ – (وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَاناً حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهاً وَوَضَعَتْهُ كُرْهاً . . .) الآية :

سبب النزول :

هذه الآية الكريمة نزلت فى أبى بكر الصديق – رضى الله عنه – روى ذلك عن ابن عباس وعلىّ – رضى الله عنهم – .

قال علىّ – كرم الله وجهه – : هذه الآية نزلت فى أبى بكر الصديق – رضى الله عنه – أسلم أبواه جميعاً ، ولم يجتمع لأحد من المهاجرين أن أسلم أبواه غيره فأوصاه الله بهما ولزم ذلك .

وعند قوله – تعالى – : (وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحاً تَرْضَاهُ) قال ابن عباس – رضى الله عنهما – : فأجاب الله أبا بكر فأعتق تسعة من المؤمنين يعذبون فى الله ، منهم : بلال ، وعامر بن فهيرة ، ولم يدع شيئاً من الخير إلَّا أعانه الله عليه .

وفى الصحيح عن أبى هريرة - رضى الله عنه - قال : قال رسول الله ﷺ : « مَنْ أصبح منكم اليوم صائماً ؟ » قال أبو بكر : أنا . قال : « مَن تَبِع منكم اليوم جنازة ؟ » قال أبو بكر : أنا . قال : « مَنْ أطعم منكم اليوم مسكيناً ؟ » قال أبو بكر : أنا . قال : « فمن عاد منكم اليوم مريضاً ؟ » قال أبو بكر : أنا . قال رسول الله ﷺ : « ما اجْتَمَعْنَ فِى امرىءٍ إلَّا دخَلَ الجنة » .

وقال ابن عباس - رضى الله عنهما - : ودعا أبو بكر أيضاً فقال : (وَأَصْلِحْ لِى فِى ذُرِّيَّتِى) فأجابه الله تعالى ؛ فلم يكن له ولد إلَّا آمنوا ، وقد أدرك أبواه وولَدُه عبد الرحمن وولده أبو عتيق النبىّ ﷺ وآمنوا به ، ولم يكن ذلك لأحد من الصحابة - رضى الله عنهم أجمعين - .

وقد استدل الإمام علىّ - كرم الله وجهه - بهذه الآية الكريمة مع التى فى سورة لقمان : « وَفِصَالُهُ فِى عَامَيْنِ » مع قوله - تعالى - فى سورة البقرة : « وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ » استدل - رضى الله عنه - بذلك على أن أقل مدة الحمل ستة أشهر ، وهو استنباط قوى صحيح ، ووافقه على ذلك عثمان وجماعة من الصحابة - رضى الله عنهم - فعن معمر بن عبد الله الجهنى قال : تزوج رجل منا امرأة من جهينة فولدت له لتمام ستة أشهر ، فذُكر ذلك لعثمان - رضى الله عنه - فأمر عثمان برجمها فبلغ ذلك عليًّا - كرم الله وجهه - فأتاه فقال له : ما تصنع ؟ قال : ولدت تماماً لستة أشهر وهل يكون ذلك ؟ فقال له علىّ : أما تقرأ القرآن ؟ فقال : بلى . قال : أما سمعت الله - عز وجلَّ - يقول :(وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا) وقال : (حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ) فما نجده بقى إلَّا ستة أشهر . قال عثمان - رضى الله عنه - : والله مافطنت بهذا .

قال معمر : فوالله ما الغراب بالغراب ولا البيضة بالبيضة أشبه منه بأبيه ، فلما رآه أبوه قال : هذا ابنى ولا أشك فيه .

وفى هذا إشارة إلى أن مدة الحمل والرضاع معاً لا تتجاوز الثلاثين شهرا ؛ فعن ابن عباس - رضى الله عنهما - قال : إذا وضعت المرأة لتسعة أشهر كفاه من الرضاع واحد وعشرون

شهرًا ، وإذا وضعته لسبعة أشهر كفاه من الرضاع ثلاثة وعشرون شهرًا ، وإذا وضعته لستة أشهر فحولان كاملان ؛ لأن الله ــ تعالى ــ يقول : (وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا) .

والمعنى : وألزمنا الإنسان وأمرناه أن يحسن إلى والديه إحساناً عظيماً وأن يبرهما براً كريماً ، فالإحسان إلى الوالدين هو ثانى أفضل الأعمال ، فعن ابن مسعود ــ رضى الله عنه ــ أنه سأل رسول الله ﷺ : أى الأعمال أحب إلى الله ؟ قال : « الصلاة على وقتها » . قلت : ثم أىّ ؟ قال : « بر الوالدين » قلت : ثم أىّ ؟ قال : « الجهاد فى سبيل الله » متفق عليه .

كما عد رسول الله ﷺ عقوقهما ثانى أكبر الكبائر ؛ فعن أبى بكرة نفيع بن الحارث ــ رضى الله عنه ــ قال : قال رسول الله ــ ﷺ : « ألا أنبئكم بأكبر الكبائر ؟ ــ ثلاثاً ــ قلنا : بلى يارسول الله ، فقال : الإشراك بالله ، وعقوق الوالدين ، وكان متكئا فجلس فقال : ألا وقول الزور ، فمازال يكررها حتى قلنا : ليته سكت » متفق عليه .

(حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا) أى : قاست بسببه فى حال الحمل به مشقة وتعباً من وحم وغثيان وثقل وكرب (وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا) أى : بمشقة أيضاً من الطلق وشدته (وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا) أى : أنها لم تقف مشقتها وتعبها عند الوضع بل استمر ذلك فى مدة رضاعه وفطامه ؛ فقد سهرت عليه وقامت على أمره وعانت من تربيته فى تلك الفترة الدقيقة من حياته ماجعلها تتعب ليستريح ، وتشقى ليسعد ، وتسهر لينام ، كل ذلك مع حسن رعاية وكمال عناية رجاء أن تستمر حياته ويمتد به العمر وتنعم به كبيرًا كما سعدت به صغيرًا .

(حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ) أى : حتى إذا قوى وشب واكتهل واستحكمت قوته (وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً) أى : تناهى عقله وكمل فهمه وحلمه ؛ فسنُّ الأربعين تمام النضج وتمام الحلم ، فعنده تكمل الملكات وتتناهى الكمالات ، ولايرجى لأحد بعد أن يبلغ هذا العمر أن يزاد فى عقله ، فإذا بلغ هذه السن (قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَالِدَىَّ) أى : اتجه إلى ربه الذى رعاه ورباه وجعله يتقلب فى مَنِّه وكرمه وإنعامه قائلا : يارب رغبنى وألهمنى أن أقوم بحق نعمتك العظيمة التى أنعمت بها على ، واهدنى إلى القيام بصرفها

وتوجيهها إلى ما خلقتها له ، فنعمك يارب وفيرة وآلاؤك جليلة ؛ فقد وفقتنى إلى نعمة الإسلام ، وجعلتنى من خير أمة أخرجت للناس، وأنعمت علىّ بالصحة والعافية والغنى عن الناس ، ورزقتنى الولد ولم تجعلنى فردًا منقطع الذرية ، وأسألك أن تديم علىّ شكر النعمة التى أنعمت بها على والدىّ من الإيمان بك وبرسولك ، وبالتحنن والشفقة علىّ حتى ربيانى صغيرًا (وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحاً تَرْضَاهُ) أى : اجعل عملى كثيرًا عظيماً سالماً من عدم قبولك له ، وذلك بأن يكون خالصاً من الرياء والعجب حتى يكون على وفق رضاك (وَأَصْلِحْ لِى فِى ذُرِّيَّتِى) أى : اجعل الصلاح والبر وعمل الخير ساريا فى ذريتى راسخاً فيهم حتى يكونوا لك عبيد حق ، ولى خلف صدق . (إِنِّى تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّى مِنَ الْمُسْلِمِينَ) أى : إنى رجعت عما كنت عليه مما لا ترضاه أو يشغلنى عنك ، وإنى من الذين أسلموا إليك أمرهم وأخلصوا أنفسهم لك وأفردوك بالعبادة .

جاء فى كتاب الجامع لأحكام القرآن للإمام القرطبى : وكان مالك بن أنس يقول : اشتكى أبو معشر ابنه إلى طلحة بن مصرف ؛ فقال له : استعن عليه بهذه الآية وتلا : (رَبِّ أَوْزِعْنِى أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِى أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَى وَالِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحاً تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِى فِى ذُرِّيَّتِى إِنِّى تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّى مِنَ الْمُسْلِمِينَ) :

نقول : هذا توجيه سديد وإرشاد حكيم ؛ فخير الدعاء ما كان بالمأثور من كتاب الله - تعالى - أو من السنة النبويّة المطهرة .

١٦ - (أُوْلَٰئِكَ الَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَاعَمِلُواْ وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّئَاتِهِمْ فِىٓ أَصْحَابِ الْجَنَّةِ وَعْدَ الصِّدْقِ الَّذِى كَانُواْ يُوعَدُونَ) :

أى : أولئك الموصوفون بتلك الصفات الجليلة التى بها علت منزلتهم وسمت مكانتهم عند ربهم يتقبل الله - سبحانه - منهم أفضل أعمالهم وأحسنها - من الأعمال المفروضة والمندوبة - فيجازيهم عليها أفضل جزاء وأكمل ثواب ، أما الأعمال المباحة فليست محل ثواب إلا إذا اقترنت بها نيّة الطاعة والقربى لله - عزّ وجل - وذلك كمن يأكل ناوياً أن

أن يتقوى بذلك على أمر مفروض أو مندوب ونحو ذلك ، فإن الله يثيبه عليه ، والحكم عكس ذلك إذا اقترنت بالمباح ولابسته نية المعصية فإن الله يعاقب عليه « وإنما لكل امرىء مانوى » .

(وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّئَاتِهِمْ) أى : يتجاوز الله عن سيئات المذنبين ؛ لتوبتهم المشار إليها بقوله ـ تعالى ـ فى الآية السابقة : (إِنِّى تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّى مِنَ الْمُسْلِمِينَ) أو لغلبة حسناتهم على سيئاتهم ، لقوله ـ تعالى ـ : « إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ »[1] أو لاجتناب الكبائر ، لقوله ـ تعالى ـ فى سورة النساء : « إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَاتُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيماً » أما أصحاب السيئات الذين لم يكونوا من هؤلاء وهم مسلمون مؤمنون ، فأمرهم مفوض إلى الله تعالى ، فإما أن يعفو عنهم أو يعاقبهم .

وهؤلاء الذين يتجاوز الله عن سيئاتهم (فِىٓ أَصْحَابِ الْجَنَّةِ وَعْدَ الصِّدْقِ الَّذِى كَانُوا يُوعَدُونَ) أى : فى عداد أصحاب الجنة منتظمون فى سلكهم يحقق الله لهم وعد الصدق الذى كانوا يوعدون به فى الدنيا على ألسنة الرسل ـ عليهم الصلاة والسلام ـ من الجزاء الحسن والنعيم المقيم فى جنة عرضها السموات والأرض ، ويتمتعون فيها بما لاعين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر ، فسبحانه من إله كريم برّ رحيم .

(وَٱلَّذِى قَالَ لِوَٰلِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَآ أَتَعِدَانِنِىٓ أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ ٱلْقُرُونُ مِن قَبْلِى وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ ٱللَّهَ وَيْلَكَ ءَامِنْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٧﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ خَٰسِرِينَ ﴿١٨﴾)

(١) سورة هود ، من الآية : ١١٤

المفـــردات :

• (أُفٍّ لَّكُمَا) الأفّ : صوت يصدر عن المرء عند تضجره ، وأصله : الوسخ الذى حول الظفر ، وقيل : الأُف : وسخ الأذن ، يقال ذلك عند استقذار الشىء ثم استعمل ذلك عند كل شىء يُتضجر ويُتأذى منه [1] .

(أُخْرَجَ) : أُبعث من القبر بعد الموت .

(وَقَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ) : وقد مضت الأزمان .

(وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ اللَّهَ) : وهما يلجآن إلى الله أن يدفع الكفر عن ولدهما .

(وَيْلَكَ) : هَلَاكا لك ، وأصل الويل : دعاءٌ بالهلاك يُقام مقام الحث على الفعل أو الترك ؛ إشعارًا بأن ماهو مرتكب جدير أن يُهْلِك مرتكبَه ، والمراد هنا : الحث والتحريض على الإيمان لا حقيقة الدعاء بالهلاك .

(أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ) : أباطيل وأكاذيب السابقين التى سطروها فى الكتب من غير أن يكون لها حقيقة .

(حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ) : ثبت ووجب .

التفســير

١٧ - (وَالَّذِى قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَا...) الآية :

هذه الآية الكريمة عامة تتناول كل كافر عاق لوالديه منكر للبعث ؛ فقد جاء فى الاية التالية : (أُولَٰٓئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِىٓ أُمَمٍ . .) فدل ذلك على أن الحكم عام لكل من يقول ذلك لوالديه ، ونزولها فى شخص معين لاينافى العموم ؛ لأن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب ، فالمراد من الذى قال لوالديه أف لكما : كل من يقول ذلك لهما .

---

(١) اللسان : مادة (أفف) .

وجاء فى كتاب روح المعانى للعلامة الآلوسى : وزعم مروان – عليه ما يستحق – أنها نزلت فى عبد الرحمن بن أبى بكر الصديق – رضى الله عنهما – وردت عليه السيدة عائشة – رضى الله عنها – أخرج ابن أبى حاتم وابن مردويه عن عبد الله [بن المدائنى] قال : إنى لفى المسجد حين خطب مروان فقال : إن الله – تعالى – قد أرى لأمير المؤمنين – يعنى معاوية – فى يزيد رأيًا حسناً ، أن يستخلفه فقد استخلف أبو بكر وعمر ، فقال عبد الرحمن ابن أبى بكر : أهرقلية ؟ إن أبا بكر – رضى الله عنه – والله ما جعلها فى أحد من ولده ، ولا لأحد من أهل بيته ، ولا جعلها معاوية إلا رحمة وكرامة لولده . فقال مروان : ألست الذى قال لوالديه : (أُفٍّ لَّكُمَا) ؟ فقال عبد الرحمن : ألستَ ابن اللعين الذى لعن رسولُ الله ﷺ أباه ؟ فسمعت عائشة – رضى الله عنها – فقالت : مروان ؛ أنت القائل لعبد الرحمن كذا وكذا ؟ كذبت – والله – مافيه نزلت . نزلت فى فلان بن فلان .

ومعنى الآية : أن هذا الولد الكافر بالله المنكر للبعث ، قال لوالديه وقد دعواه إلى الإيمان بالبعث : إنى أتضجر منكما ، وأضيق بما تُلقيان على مسامعى من سقط القول وسخف الكلام ، أتعدانني وتخبرانني أن أخرج حيا من قبرى ، وأبعث بعد موتى ؛ وقد مضت القرون والأزمان ولم يبعث أحد من قبره يخبرنا بذلك ؟ وكأن هذا العاق قد تمثل بقول القائل :

ما جاءنا أحد يُخبرُ أنه فى جنَّةٍ لَمَّا مضى أو نارِ

ولكن شفقة الوالدين وفرط حنانهما عليه دفعهما إلى الالتجاء إلى الله والاستغاثة به رجاء أن يغيثه بالتوفيق حتى يرجع عما هو فيه من الضلال والكفر وإنكار البعث ؛ وحملهما ذلك أيضاً على أن يحضانه على الإيمان بالله ويحذرانه مغبة ماهو مقيم عليه ، فيقولان له : (وَيْلَكَ آمِنْ إِنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ) أى : هلاكاً لك إن أصررت على ما أنت عليه من الكفر ، صدق بالله وبالبعث ، فإن وعد الله حق لايتخلف ، فأولى لك أن تقبل على مادعوناك إليه من الإيمان ، ولكن هذا الشقى الفاجر – مع الحث والتحذير له من والديه – يصر ويقول : (مَا هَٰذَآ إِلَّآ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ) أى : ما هذا الذى تسميانه وعد الله إلا أباطيل وأكاذيب السابقين الأولين قد كتبوها وسطروها من غير أن يكون لها حقيقة .

١٨ –(أُوْلَٰٓئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ خَاسِرِينَ) :

أى : هؤلاء الكفار الذين بعدوا من الحق وعن الصراط المستقيم قد وجب عليهم القول والوعيد الذى قاله الله لإبليس ومن تبعه - عليهم اللعنة - : « لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ »[1] وسيكونون فى عداد أمم وجماعات من الجن والإنس كانوا على شاكلتهم كذبوا كما كذبوا وعاندوا واستكبروا وساروا على نهجهم فباءوا بالخسران والحرمان من الجنة التى خسروها بسوء معتقدهم وفحش عملهم .

(وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُوا۟ ۖ وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٩﴾ وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا وَٱسْتَمْتَعْتُم بِهَا ۖ فَٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ ﴿٢٠﴾)

المفردات :

(الْهُونِ) : الهوان والذل .

التفسير

١٩ - (وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِّمَّا عَمِلُوا وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَالَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ) :

أى : ولكل فريق من الأبرار الأتقياء ، والعاقين الأشقياء لكل منهما منازل ينزلون فيها فى أخراهم ، فأهل الجنة لهم درجات ونعيم يتقلبون فيه ، فى سعادة غامرة ، وقلوب بالرضا عامرة ، ونفوس مطمئنة فى جنات تختلف منازلها رفعة وعلوا ، فالذين رفعتهم أعمالهم إلى درجات أعلى لا يجدون فى نفوسهم على مَنْ دونهم فى الجنة استكبارا أو استعلاء ، كما لا يجد الذين منحهم الله فى جناته دون ذلك فى صدورهم غلاًّ وَلَا حقدًا على من فوقهم منزلة فى الجنة ، قال - تعالى - : « وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ »[2] .

---

(١) سورة ص ، الآية : ٨٥ . (٢) سورة الحجر ، الآية : ٤٧

أما الفريق العاق العاصى فإنه يتدنّى ويتسفل فى دركات النار يلق سعيرها ويعذّب بأليم عقابها يتلاومون فيها ويلقى كلٌّ على صاحبه التبعة ، ويتبرأ الذين اتُّبِعُوا من الذين اتَّبعوا ، وهم يومئذ بعضهم لبعض عدوٌّ .

وهذا النعيم المقيم ، وذاك العذاب الأليم يجزيهم الله - سبحانه - به جزاءً وفاقًا على أعمال عملوها فى الدنيا فلاينقص الله من أجر الطائعين ، ولا يزيد فى عقاب العاصين : « وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا »[1] .

٢٠ - (وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُواْ عَلَى النَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُم بِهَا ...) الآية :

لَمَّا ذكر - سبحانه وتعالى - أحوال بعض الأشقياء ومآلهم أردفه - جل وعلا - بذكر حال الكافرين عامة فى أخراهم ، أى : ذكِّرْ يا محمد هؤلاء المعاندين المكابرين - ذكرهم - يوم يُظهر الله للكفار نار جهنم فينظرون إليها ويعلمون أنهم ملاقوها فيقال لهم - تقريعا وتوبيخًا وتسفيهًا لهم عمَّا قدموا - : استنفدتم طيباتكم من المآكل والمشارب والملابس والمفارش وأنواع المتع والشهوات ، وتمتعتم بتلك اللذائذ واستعجلتموها فى الدنيا ، فليس لكم حظٌّ ولا نصيبٌ منها فى الآخرة ؛ لأنكم لم تكونوا مؤمنين حتى تنالوا النعيم الأبدى الخالد ، بل اشتغلتم بشهوات الدنيا ولذائذها ، وقضيتم حياتكم فى لهو الشهوات وحمأة المعاصى ، وعميت أبصاركم عمَّا ينفعكم فى الآخرة من الإيمان بالله والعمل فى مرضاته ، فنى هذا اليوم -وهو يوم القيامة- يُجازيكم الله عذاب الذُّل وعِقَاب الهَوَان ؛ لأنكم كنتم فى الدنيا تَسْتَعْلُونَ وَتَتَكَبَّرُونَ بغيرِ استحقاقٍ لكم فى ذلك الصلف والكِبْرِ ، وتستنكفون أن تعترفوا بأنكم خلق الله وعباده ؛ فترفعتم عن الإيمان بالله إلهًا واحدًا ، ومع هذا الكُفْر الصَّريح الدَّائم مِنْكُم كُنْتم مستمرين على الفسق خارجين عن طاعته - سبحانه - فقد جمعتم بين ذنب القلب بالكفر ، وذنب الجوارح بالعصيان والفسق .

---

(١) سورة الكهف ، من الآية : ٤٩

هذا ، والترفع والزهد فى الاستمتاع بلذائذ الحياة سمة الصالحين وحلية الأولياء ، وأسوتهم فى ذلك رسولنا ﷺ فقد ورد فى صحيح مسلم وغيره أن عمر - رضى الله عنه - دخل على النبى - عليه الصلاة والسلام - فى مشربته حين هجر نساءه ، قال عمر : فالتفت فلم أر شيئًا يرد البصر إلّا أهُبًا[1] (جلودًا معطونة قد سطع ريحها) ، فقال : يارسول الله ؛ أنت رسول الله وخيرته ، وهذا كسرى وقيصر فى الديباج والحرير ؟ فقال :فاستوى جالسًا وقال : « أفى شك أنت يابن الخطّاب ؟ أولئك قوم عجلت لهم طيباتهم فى حياتهم الدنيا » ، فقلت : استغفر الله لى ، فقال : « اللهم اغفر له » .

وقال حفص بن أبى العاص: كنت أتغدى عند عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - الخبز والزيت ، والخبز والخلّ ، والخبز واللّبن ، والخبز والقديد ، وأقل ذلك اللحم الغريض (الطرى غير المجفف) ،وكان يقول : لا تنخلوا الدقيق فإنه طعام كله ، فجيء بخبز متفلع (مشقق غليظ) فجعل يأكل ويقول : كلوا ، فجعلنا لا نأكل ، فقال : مالكم لا تأكلون ؟ فقلنا : والله ياأمير المؤمنين نرجع إلى طعام ألين من طعامك هذا ، فقال : يابن العاص ، أما ترى بأنى عالم أن لو أمرت بعناق[2] سمينة فيلقى عنها شعرها ثم تخرج مصليّة (مشويّة) كأنها كذا وكذا ، أما ترى بأنى عالم أن لو أمرت بصاع أو صاعين من زبيب فأجعله فى سقاء ثم أشنّ عليه من الماء فيصبح كأنه دم غزال ، إلى أن قال : والله الذى لَا إلٰهَ إلَّا هُو لَوْلَا أنى أخاف أن تنقص حسناتى يوم القيامة لشاركناكم العيش ، ولكنّى سمعت الله - تعالى - يقول لأقوام :(أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُم بِهَا) .

وقال جابر : اشتهى أهلى لحمًا فاشتريته لهم فمررت بعمر بن الخطاب - رضى الله عنه - فقال : ما هذا ياجابر؟ فأخبرته ، فقال : أو كلما اشتهى أحدكم شيئًا جعله فى بطنه ؟ أما يخشى أن يكون من أهل هذه الآية : (أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُم بِهَا)

(١) أهبا : جمع إهاب ، وهو الجلد الذى لم يدبغ .

(٢) العناق : الأنثى من ولد المعز .

قال ابن العربى : وهذا عتاب منه على التوسع بابتياع اللحم والخروج عن جلف الخبز والماء ؛ فإن تعاطى الطيبات من الحلال تستشره له الطباع وتستمرئه العادة ، فإذا فقدتها استسهلت في تحصيلها بالشبهات حتى تقع فى الحرام المحض بغلبة العادة واستشراه الهوى على النفس الأمّارة بالسوء ، فأخذ عمر الأمر من أوّله وحماه من ابتدائه كما يفعله مثله .

والذى يضبط هذا الباب ويحفظ قانونه : على المرء أن يأكل ما وجد طيِّبًا أو قَفارًا (طعام بلا أدم) ولا يتكلف الطيب ويتخذه عادة ؛ وقد كان النبى ﷺ يشبع إذا وجد ، ويصبر إذا عدم ، ويأكل الحلوى إذا قدر عليها ، ويشرب العسل إذا اتفق له ، ويأكل اللحم إذا تيسر ، ولا يعتمد أصلًا ولا يجعله دَيْدَنًا ، ومعيشة النبى ﷺ معلومة ، وطريقة الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ منقولة ، فأما اليوم عند استيلاء الحرام وفساد الحطام فالخلاص عسير ، والله يهب الإخلاص ، ويعين على الخلاص برحمته .

وقيل : إن التوبيخ واقع على ترك الشكر لا على تناول الطيبات المحلّلة ، وهو حسن ؛ فإن تناول الطيب الحلال مأذون فيه ؛ فإذا ترك الشكر عليه واستعان به على مالا يحل فقد أذهبه .

* (وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُۥ بِالْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ النُّذُرُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦٓ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٢١﴾)

المفـــردات :

(وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ) : هو هود ـ عليه السلام ـ وكانت أخوته لعاد فى النسب لا فى الدين .

(إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ) : وهى جمع حقف ، وهو : ما استطال من الرمل العظيم واعوج ولم يبلغ أن يكون جبلًا ، من احقوقف الشىء : إذا اعوج .

(وَقَدْ خَلَتِ النُّذُرُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ) أى : وقد مضت الرسل من قبل هود ومن بعده ، والنذر : جمع نذير .

التفسير

٢١ - (وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ النُّذُرُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ) :

لَمَّا كان أهل مكة مستغرقين فى الكفر معرضين عن الإيمان وماجاء به الرسول ﷺ ناسب تذكيرهم بما جرى لعادٍ ، وقد كانوا أكثر أموالا وأشد قوة وأعظم جاهًا منهم ؛ فسلط الله عليهم العذاب العظيم بسبب شركهم وطغيانهم ، وفى ذلك تسلية للنبى ﷺ عن تكذيب من كذبه من قومه ، وإنذارٌ لقريش لكفرهم .

والمعنى : واذكر -أيها النبىُّ- لهؤلاء المشركين قصة هود - عليه السلام -وقت إنذاره قومه عادًا عاقبة الشرك - وهى العذاب العظيم - ليعتبروا بها ، وقيل : أمره بأن يتذكر فى نفسه قصة هود - عليه السلام - ليقتدى ويهون عليه تكذيب قومه له .

وكان قومه بالأحقاف وهى مساكنهم ، وكانت رمالاً عظيمة مشرفة على البحر بأرض يقال لها : الشِّحْر ، والشِّحْر قريب من عدن ، يقال : شِحْر عُمَان ، وهو ساحل البحر بين عُمَان وعدن ، وقال ابن إسحاق : مساكنهم من عمان إلى حضرموت ، أى : فى الجنوب الشرقى من جزيرة العرب .

وبعض المنقبين فى الزمن القريب يرى أن مساكنهم شرق العقبة ، معتمدين على كتابات خطية عثروا عليها فى خرائب معبد كشفوا عنه فى جبل إرَم ، ووجدوا فى جانب الجبل آثارا جاهلية قديمة ، فرجحوا أن هذا المكان هو موضع إرم التى ذكرها القرآن الكريم[1] (وَقَدْ خَلَتِ النُّذُرُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ) أى : وقد مضت الرسل من قبل هود ومن بعده ، أى : واذكر زمان إنذار هود قومه بما أنذر به الرسل قبله وبعده ، وهو

(١) المنتخب عند تفسير الآية .

أن لا تعبدوا إلا الله ، إيذاناً باشتراك المنذرين جميعاً فى معنى العبارة المحكية ، وتنبيهاً على أنه إنذار ثابت قديماً وحديثاً ، اتفقت عليه الرسل فى دعوتهم إلى التوحيد وإخلاص العبادة لله وحده لا شريك له . (إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ) وهو يوم القيامة إن عبدتم غير الله ، والجملة تعليل للنهى ، أى : لا تعبدوا إلا الله ؛ لأنى أخاف عليكم أشد العذاب وأقساه .

(قَالُوٓاْ أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٢﴾ قَالَ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ وَأُبَلِّغُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦ وَلَٰكِنِّيٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٢٣﴾ فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُواْ هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا بَلْ هُوَ مَا ٱسْتَعْجَلْتُم بِهِۦ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٤﴾ تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍۭ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُواْ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمْ كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٢٥﴾)

المفـــردات :

(لِتَأْفِكَنَا عَنْ آلِهَتِنَا) أى : لتصرفنا وتمنعنا عن عبادة آلهتنا .

(فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا) من العذاب ، وهذا يدل على أن الوعد قد يوضع موضع الوعيد ، فكما يقال : وعده خيرا وبالخير ، يقال : وعده شرا وبالشر .

(قَوْماً تَجْهَلُونَ) أى : تتصفون بالجهل وعدم الإدراك فى سؤالكم استعجال العذاب ممن بعث إليكم منذرا .

(فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ) : جمع واد ، وهو كل منفرج بين جبال أو آكام يكون منفذا للسيل .

(رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ) أى : بل الذى زعمتموه سحاباً ممطراً هو ريح متكاثفة فيها عذاب مؤلم لكم .

(فَأَصْبَحُواْ لاَ يُرَىٰٓ إِلاَّ مَسَاكِنُهُمْ) أى : فاجأتهم الريح فدمرتهم ولم يبق شىء يرى إلا مساكنهم .

(كَذَٰلِكَ نَجْزِى الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ) أى : مثل هذه العقوبة نعاقب من أجرم مثل جرمهم .

التفسير

٢٢ - (قَالُوٓاْ أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ آلِهَتِنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ الصَّٰدِقِينَ) : أى : قال قوم هود إنكارا عليه : أجئتنا لتصرفنا عن عبادة آلهتنا - كما قال الضحاك - من الأفك بمعنى الصرف ، وقد وعدتنا بإنزال العذاب بنا عقاباً لنا على الشرك فى الدنيا فعجل بهذا العذاب إن كنت صادقاً فى وعدك بنزوله بنا .

٢٣ - (قَالَ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِندَ اللهِ وَأُبَلِّغُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِ وَلَٰكِنِّىٓ أَرَاكُمْ قَوْماً تَجْهَلُونَ) : أى : فأجابهم - عليه السلام - قائلا : إنما العلم بوقت نزول العذاب ، أو بجميع الأشياء التى من جملتها ذلك عند الله وحده ، فيعلم إن كنتم مستحقين لتعجيل العذاب فيفعل ذلك بكم ويأتيكم به فى وقته ، وأما أنا فلا علم لى بوقت نزوله ولا مدخل لى فى اقتراح إتيانه وحلوله . (وَأُبَلِّغُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِ) من مقاصد الرسالة التى من جملتها بيان نزول العذاب إن لم تنتهوا عن الشرك ، من غير وقوف على وقت نزوله (وَلَٰكِنِّىٓ أَرَاكُمْ قَوْماً تَجْهَلُونَ .) أى : شأنكم الجهل حيث تقترحون علىَّ ما ليس من وظائف الرسل من الإتيان بالعذاب وتعيين وقته ، ولو كنتم على شىء من العلم لأدركتم أن الرسل بعثوا منذرين لا مقترحين ولا سائلين غير ما أذن لهم فيه .

٢٤ ، ٢٥ - (فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُواْ هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا بَلْ هُوَ مَااسْتَعْجَلْتُم بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ تُدَمِّرُ كُلَّ شَىْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُواْ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ كَذَٰلِكَ نَجْزِى الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ) :

أى : فأتاهم العذاب الذى استعجلوه ، فلما رأوه سحاباً ممتداً فى عرض الأفق متوجها نحو أوديتهم حسبوه سحاباً ممطراً ، وكان المطر قد أبطأ عليهم فاستبشروا به ، حيث (قَالُواْ هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا) فرحاً به ، ولا سيما أنه قدجاء من واد جرت العادة أن ما جاء منه يكون غيثاً - قاله ابن عباس وغيره - ولكن ما توقعوه تبين لهم أنه سراب خادع حين قال لهم هود - عليه السلام : (بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ) أى : هو العذاب الذى استعجلتموه لما قلتم : (فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ) أتاكم متمثلاً فى ريح كثيفة عاصفة تحمل الفساطيط[1] وترفع الظعينة[2] بين السماء والأرض ثم تضرب بها الصخور ، وقد اعتزل هود ومن معه فى حظيرة -كما روى عن ابن عباس - ما يصيبهم من الريح إلا ما تلين به الجلود وتلذه الأنفس ، وإنها لتمر من عاد بالظعن بين السماء والأرض ، وتدمغهم بالحجارة .

ونقل القرطبى عن ابن عباس أيضاً أنه قال : أول ما رأوا العارض قاموا فمدوا أيديهم وأول ما عرفوا أنه عذاب رأوا ما كان خارجاً من ديارهم من الرجال والمواشى تطير بهم الريح ما بين السماء والأرض مثل الريش ، وأمر الله الريح فأمالت عليهم الرمال فكانوا تحتها سبع ليال وثمانية أيام حسوماً ، ولهم أنين ، ثم أمر الله الريح فكشفت عنهم الرمال ، واحتملتهم فرمتهم فى البحر ، فهى التى قال الله فيها : (تُدَمِّرُ كُلَّ شَىْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا) اهـ .
أى : تهلك هذه الريح كل شىء مرت عليه من نفوسهم وأموالهم بإذن ربها وتقديره ، وفى ذكر الأمر والرب والإضافة إلى ضمير الريح من الدلالة على عظمة شأنه - عز وجل - ما لا يخفى ، وكان الرسول ﷺ إذا عصفت الريح قال : « اللهم إنى أسألك خيرها وخير

(١) الفساطيط : جمع فسطاط ، وهو السرادق .

(٢) تطلق الظعينة على الجمل يظعن عليه ، وعلى الهودج فيه امرأة أو لا .

ما فيها وخير ما أرسلت به ، وأعوذ بك من شرها وشر ما فيها وشر ما أرسلت به » فإذا تخيلت السماء تغير لونه وخرج ودخل وأقبل وأدبر فإذا أمطرت سُرِّى عنه ، فسألته السيدة عائشة فقال : لعله يا عائشة كما قال قوم هود : (فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضاً مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا) أخرج الحديث مسلم والترمذى والنسائى وابن ماجه عن عائشة .

(فَأَصْبَحُوا لَا يُرَىٰ إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ) أى : فجاءتهم الريح فدمرتهم عن آخرهم فأصبحوا بحيث لا يرى إلا مساكنهم وقد بقى منها ما يدل عليها ، وقرأ الجمهور « ترى » بالتاء ونصب مساكنهم خطاباً لكل أحد يتأتى منه الرؤية تنبيها على أن حالهم بحيث لو حضر كل أحد بلادهم لا يرى فيها إلا مساكنهم ، أو الخطاب لسيد المخاطبين ﷺ .

(كَذَٰلِكَ نَجْزِى الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ) أى : مثل تلك العقوبة التى نزلت بعاد ، يجزى الله كل من كذب رسله .

(وَلَقَدْ مَكَّنَّٰهُمْ فِيمَآ إِن مَّكَّنَّٰكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَٰرًا وَأَفْـِٔدَةً فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُهُمْ وَلَآ أَفْـِٔدَتُهُم مِّن شَىْءٍ إِذْ كَانُوا۟ يَجْحَدُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ (٢٦) وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْقُرَىٰ وَصَرَّفْنَا ٱلْـَٔايَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (٢٧) فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ قُرْبَانًا ءَالِهَةًۢ بَلْ ضَلُّوا۟ عَنْهُمْ وَذَٰلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ (٢٨))

المفـــردات :

(وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيمَآ إِن مَّكَّنَّاكُمْ فِيهِ) أي : جعلنا لهم سلطاناً وقدرة على التصرف في الذى ما مكناكم فيه ولا سخرناه لكم .

(فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَارُهُمْ وَلَآ أَفْئِدَتُهُم مِّن شَىْءٍ) أى : لم تنفعهم تلك الحواس أى نفع فى دفع العذاب عنهم ؛ حيث أهملوا الانتفاع بها فانغمسوا فى الضلال .

(إِذْ كَانُواْ يَجْحَدُونَ بِـَٔايَاتِ اللهِ) أى : يكفرون بها .

(وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ) أى : أحاط بهم العذاب الذى كانوا يستعجلونه استهزاءً به .

(وَصَرَّفْنَا الْآيَاتِ) أى : كررنا الحجج والدلالات لكى يرجعوا عن كفرهم .

(قُرْبَاناً آلِهَةً) القربان : كل ما يتقرب به إلى الله – تعالى – من طاعة ونسيكة – قاله الكسائى – وجمعه : قرابين ، أى : اتخذوا الآلهة متقرَّباً بها إلى الله – تعالى – .

(بَلْ ضَلُّواْ عَنْهُمْ) أى : غابوا عن نصرتهم .

(وَذَٰلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُواْ يَفْتَرُونَ) أى : وضلال آلهتهم عنهم وامتناع نصرتهم إياهم هو دليل كذبهم وافترائهم فى قولهم : إنها تقربهم إلى الله زلفى .

التفسير

٢٦ – (وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيمَآ إِن مَّكَّنَّاكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَارُهُمْ وَلَآ أَفْئِدَتُهُم مِّن شَىْءٍ إِذْ كَانُواْ يَجْحَدُونَ بِـَٔايَاتِ اللهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ) :

خطاب لأهل مكة على سبيل التهديد ، والمعنى : ولقد مكنا الأُمم السابقة فى الدنيا وأعطيناهم من القوة والسعة وطول الأعمار وسائر التصرفات ما لم نعطكم مثله ياأهل مكة ، وجعلنا لهم سمعاً وأبصارا وأفئدة ليستعملوها فيما جعلها الله له فيعرفوا بكل منها مختلف النعم التى يستدلون بها على شئون الخالق المنعم – عز وجل – فى تفضله عليهم فيؤمنون به ويداومون على شكره . (فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَارُهُمْ وَلَآ أَفْئِدَتُهُم مِّن شَىْءٍ) أى : أنها لم تغن عنهم أى شىء من الإغناء ، ولم تُذهب عنهم شيئاً من عذاب الله ، حيث

لم يستعملوا سمعهم فى استماع الوحى ومواعظ الرسل ، وأبصارهم فى اجتلاء الآيات الكونية الناطقة بقدرة الله ووحدانيته ، وقلوبهم فى التأمل طلباً لمعرفة الله .

وإفراد السمع فى النظم الكريم وجَمْعُ غيره لاتحاد المدرك به وهو الأصوات ، وتعدد مدركات غيره ، وقد تأتى الإضافة إلى جمع مرادا بها الجمع ، فكأنه قيل : أسماعهم .

(إِذْ كَانُواْ يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللهِ) : تعليل لما سبق من عدم إغناء سمعهم عنهم ولا أبصارهم ولا أفئدتهم ، أى : لأنهم كانوا يكفرون بالله وينكرون آياته المنزلة على رسله إعراضاً عنهم ، وتكذيباً لهم .

(وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ) أى : ونزل بهم العذاب الذى أحاط بكل جهاتهم ، وكانوا يستعجلونه بطريق السخرية والاستهزاء فلم يبق منهم ولم يذر أحدا .

٢٧ ـ (وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم مِّنَ الْقُرَىٰ وَصَرَّفْنَا الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ) : تهديد آخر لكفار مكة وتخويف لهم بذكر سوء عاقبة أمثالهم السابقين .

والمعنى : ولقد أهلكنا القرى المجاورة لكم والمحيطة بكم كقرى عاد وحِجر ثمود ومساكن سبأ وقرى قوم لوط ، وكانوا يمرون بها فى أسفارهم وكانت أخبارها متواترة عندهم ، وكررنا الحجج وأنواع البينات والعظات ووضحناها لأهل تلك القرى (لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ) أى : لكى يرجعوا عما هم فيه من الكفر والمعاصى إلى الطاعة والإيمان .

٢٨ ـ (فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُواْ مِن دُونَ اللهِ قُرْبَاناً آلِهَةً بَلْ ضَلُّواْ عَنْهُمْ وَذَٰلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُواْ يَفْتَرُونَ) :

الآية تهكم بالمشركين ، والمعنى : فهلاّ نصرهم الذين اتخذوهم آلهة يتقربون بها إلى الله تعالى لتشفع لهم ، حيث كانوا يقولون : « مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى اللهِ زُلْفَى » وهؤلاء شفعاؤنا عند الله ، فهلاّ منعوهم من الهلاك الواقع بهم ؟ ! (بَلْ ضَلُّواْ عَنْهُمْ) أى : غابوا عنهم ولم ينصروهم ؛ لأنهم آثمون بعبادتهم فكيف ينصرونهم أو يشفعون لهم ؟ هذا إذا

كانت معبوداتهم عاقلة كالبشر أو الملائكة ، فإن كانت غير عاقلة كالأصنام والكواكب كان المعنى : غاب عنهم نفعهم لعدم فائدتهم ، فهم جمادات فكيف ينصرونهم ؟

وقيل المعنى : ترك المشركون الأوثان وتبرأوا منها ، أو هلكت معبوداتهم فاستحال نصرها لهم (وَذَٰلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ) أى : وضلال آلهتهم عنهم فى الدنيا ويوم القيامة هو أثر كذبهم فى قولهم : إنها تقربنا إلى الله ، وإنها شفعاؤنا عنده .

(وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓا۟ أَنصِتُوا۟ ۖ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْا۟ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴿٢٩﴾ قَالُوا۟ يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾ يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُوا۟ دَاعِىَ ٱللَّهِ وَءَامِنُوا۟ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣١﴾ وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِىَ ٱللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءُ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٢﴾)

المفــــردات :

(وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ) أى : وجهنا إليك نفرا من الجن ، والنفر : من ثلاثة إلى عشرة ، وقيل : إلى سبعة من الرجال .

(فَلَمَّا قُضِىَ) أى : فرغ من تلاوته .

(وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ) : رجعوا إليهم مخوفين من عذاب الله .

(كِتَابًا أُنزِلَ مِن بَعْدِ مُوسَىٰ) : وهو القرآن الكريم .

(مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ) أى : لما قبله من التوراة ؛ لأنهم كانوا مؤمنين بموسى .

(فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ) أى : لا يفوت الله طلباً ، ولا يعجزه هرباً ، وإن هرب كل مهرب من أقطارها أو دخل فى أعماقها .

(أُوْلَٰئِكَ فِى ضَلَالٍ مُّبِينٍ) أى : أولئك الذين لا يستجيبون لله فى خسران واضح بيِّن بحيث لا يخفى على أحد .

التفسير

٢٩ - (وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓا أَنصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ) :

فى القصة المذكورة توبيخ لمشركى قريش حيث إن الجن سمعوا القرآن فآمنوا به ، وعلموا أنه من عند الله ، وهؤلاء معرضون عنه مصرون على الكفر به ، مع أنهم من أهل اللسان الذى نزل به ، ومن جنس الرسول الذى جاء به ، والجن ليسوا كذلك .

والمعنى : واذكر - أيها النبى - لقومك الوقت الذى صرفنا فيه ووجهنا إليك نفراً من الجن يستمعون القرآن منك وهم - كما قال ابن عباس - سبعة نفر من جن نصيبين ، وقال زر بن حبيش : كانوا تسعة أحدهم زوبعة ، وقيل : كانوا سبعة ، ثلاثة من أهل نجران وأربعة من أهل نصيبين ، كذلك قيل - والله أعلم - فلما بلغوا تهامة اندفعوا إلى بطن نخل ، فوافوا رسول الله ﷺ وهو قائم يصلى فى جوف الليل ، وقيل : يؤم أصحابه فى صلاة الفجر ، فلما حضروا تلاوته قال بعضهم لبعض : أنصتوا تمكيناً لنا من سماعه وتأدباً معه ، وحينما قُضِى القرآن وفُرِغ من تلاوته (وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ) أى : انصرفوا قاصدين مَنْ وراءهم من قومهم منذرين لهم عاقبة مخالفة القرآن ، ومخوفين إياهم بأس الله إن لم يؤمنوا .

وروى عن سعيد بن جبير ما يشير إلى أن رسول الله ﷺ ماقرأ على الجن ولا رآهم وإنما كان يتلو فى صلاته فوقفوا مستمعين وهو لا يشعر بهم فأنبأه الله تعالى باستماعهم حيث أوحى إليه قوله تعالى : (قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ . .) وقيل : بل أمره الله - تعالى - أن ينذر الجن ويقرأ عليهم القرآن ، فصرف إليه نفرا منهم ليستمعوا منه وينذروا قومهم . فقد روى أنه ﷺ قال : « إنى أمرت أن أقرأ على الجن الليلة فمن يتبعنى ؟ قالها ثلاثا ، فأطرقوا إلا عبد الله بن مسعود - رضى الله عنه - قال : فانطلقنا حتى إذا كنا بأعلى مكة فى شعب ، خط لى خطا فقال : لا تخرج منه حتى أعود إليك ثم افتتح القرآن ، وسمعت لغطا شديداً حتى خفت على رسول الله ﷺ إلى أن قال : ثم انقطعوا كقطع السحاب ، فقال رسول الله : هل رأيت شيئاً ؟ قلت : نعم ، رجالاً سودا ، مستشعرى ثياب بيض . فقال : أولئك جن نصيبين » وكانت هذه القصة قبل الهجرة بثلاث سنين على ما صح عن ابن عباس . وهذه الرواية لا تعارض الرواية التى تقول : إنهم صادفوا وقت قراءته ﷺ فإن ذلك كان فى واقعة أخرى ، بل قيل : إن وفادة الجن كانت ست مرات ، ولتعدد الوقائع اختلفت الروايات فى عدد الجن الذين حضروا وفى المكان والزمان لاستماعهم القرآن .

ويستفاد من الآية : أن فى الجن نذرًا وليس فيهم رسلاً كقوله - تعالى - : « وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِيٓ إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰٓ »[1] وأما قوله - تعالى - : « يَا مَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ »[2] فالمراد من مجموع الجنسين فيصدق على أحدهما ، وتعلق قوم بظاهر النص فقالوا : إن الجن كانت لهم رسل منهم - انظر تفسير الآية فى الكشاف .

٣٠ - (قَالُوا۟ يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ) :

أى : قال الجن لقومهم حينما رجعوا إليهم : يا قومنا إنا سمعنا كتاباً عظيم القدر رفيع الشأن أنزل على رسول من بعد موسى ، وقد ذكروا بعديته لموسى دون بعديته لعيسى ؛ لأن عيسى كان مأموراً بالعمل بمعظم ما فى التوراة أو بكله ، حيث أنزل عليه

(١) سورة يوسف من الآية ١٠٩ .   (٢) سورة الأنعام من الآية ١٣٠ .

الإنجيل مشتملا على كثير من المواعظ ، وقليل من التحليل والتحريم . فهو فى الحقيقة كالمتمم لشريعة التوراة ، أو لأن الجن كانت يهوداً – كما قال عطاء – (مُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ) أى :أن القرآن مصدق لما تقدمه ، وأرادوا به التوراة أو جميع الكتب الإلٰهية السابقة . (يَهْدِىٓ إِلَى الْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ) أى : أنه يرشد إلى العقائد الصحيحة وإلى طريق مستقيم من الأحكام الفرعية ، أو مايعمها وغيرها من الأركان والقواعد على أنه من ذكر العام بعد الخاص .

٣١- (يَا قَوْمَنَآ أَجِيبُواْ دَاعِيَ ٱللهِ وَآمِنُواْ بِهِ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ) :

يحتمل أنهم أرادوا بداعى الله ما سمعوه من القرآن الذى طلبوا الاستجابة له والإيمان به ، ووصفوه بالهداية إلى الحق والصراط المستقيم لتلازمهما ،

ويحتمل أنهم أرادوا به محمدًا ﷺ حيث دعاهم إلى الله وقرأ عليهم السورة التى فيها خطاب الفريقين –الإنس والجن – وتكليفهم ووعدهم ووعيدهم وهى سورة الرحمن فطلبوا الاستجابة له والإيمان به ، وهذا يدل على أنه كان مبعوثاً إلى الجن والإنس ،قال مقاتل : لم يبعث الله نبياً إلى الجن والإنس قبل محمد ﷺ ويؤيد هذا مافى صحيح مسلم عن جابر بن عبد الله الأنصارى قال : قال رسول الله ﷺ : « أُعطيتُ خَمْسا لم يُعْطهنَّ أحدٌ قَبْلِى ، كانَ كلُّ نَبِىٍّ يُبعثُ إلى قومِهِ خاصةً ، وبُعثتُ إلى كلِّ أحمرَ وأسودَ إلى آخر الحديث » قال مجاهد : الأحمر والأسود : الجن والإنس ، وفى رواية من حديث أبى هريرة : « بعثت إلى الخلق كافة ،وختم بى النبيون » .

(يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ) أى : يغفر لكم بعض ذنوبكم .وهو الذنوب السالفة ،وقيد الخطاب معهم بمايدل على التبعيض دفعاً لتوهمهم أنهم إذا أجابوا داعى الله –تعالى –وآمنوا به يغفر لهم ماتقدم من ذنوبهم وما تأخر ، وقال أبو السعود : أى : بعض ذنوبكم وهو ماكان فى خالص حق الله تعالى ؛ فإن حقوق العباد لا تغفر بالإيمان .

(وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ) مُعَدٌّ للكفرة ،ويدل هذا على أن الجن مكلفون ، واختلف فى أن لهم أجرًا غير غفران الذنوبِ والإجارةِ من العذاب الأليم أَوْ لا ،والأظهر أنهم فى حكم بنى آدم ثواباً وعقاباً ، قال ابن عباس : لهم ثواب وعليهم عقاب يلتقون فى الجنة ويزدحمون على أبوابها . وقال آخرون : إنهم كما يعاقبون فى الإساءة يجازون فى الإحسان مثل الإنس ، وإليه ذهب مالك والشافعى وابن أبى ليلى وغيرهم ، وقال الضحاك : يدخلون الجنة ويأكلون ويشربون لقوله تعالى : « لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ »[1] ولعل الاقتصار على ما ذكر من غفران الذنوب لهم والإجارة من العذاب الأليم ؛لأن المقام مقام إنذار ، فلذا لم يذكر فيه شىء من الثواب ، وقيل : لاثواب لمطيعهم إلا النجاة من النار قال الحسن : ليس لمؤمنى الجن ثواب غير نجاتهم من النار ، فيقال لهم : كونوا تراباً فيكونون تراباً ، وبه قال أبوحنيفة ، وعلق القشيرى على هذا الخلاف فقال : والصحيح أن هذا مما لم يقطع فيه بشىء والعلم عند الله ، على أن ماذكر من الجزاء على الإيمان بتكفير الذنوب والإجارة من العذاب يستلزم دخول الجنة ؛ لأنه ليس فى الآخرة إلا الجنة أو النار ، فمن أجير من النار دخل الجنة لامحالة .

٣٢ - (وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِيَ اللهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِى الْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِن دُونِهِ أَوْلِيَآءُ أُوْلَـٰٓئِكَ فِى ضَلَالٍ مُّبِينٍ) :

إيجاب للإجابة بطريق الترهيب بعد إيجابها بطريق الترغيب، أى : ومن لايؤمن بالله استجابة لداعيه ، فإنه لايفوت الله طلباً ، ولا يعجزه هرباً ، لبالغ قدرته وعظيم سلطانه ، وقد نجح هذا الأسلوب فى كثير منهم ، فجاءوا إلىٰ رسول الله يبتغون سبيل الهدى والرشاد ، وتقييد الإعجاز بكونه فى الأرض لتوسيع الدائرة، بمعنى أنه ليس بمعجز - له تعالى- بالهرب وإن هرب كل مهرب من أقطارها أو دخل فى أعماقها . (وَلَيْسَ لَهُ مِن دُونِهِ أَوْلِيَآءُ) إبراز لاستحالة نجاته بمعاونة أنصار يمنعونه من عذاب الله بعد بيان استحالة نجاته بنفسه ، وعاد الضمير مفردًا فى قوله -تعالى- : (وَلَيْسَ لَهُ) باعتبار لفظ (مَنْ) والمراد به الجمع ،ويؤيد ذلك قراءة ابن عامر : (ولَيْسَ لَهُمْ) بضمير الجمع (أُوْلَـٰٓئِكَ فِى ضَلَالٍ مُّبِينٍ) أى : أولئك الموصوفون

(١) سورة الرحمن الآية ٧٤ .

بعدم إجابة داعى الله فى ضلال واضح بيِّن لا يخفى على أحد كونه ضلالًا ؛ لبعده عن الحق ومجافاته له ، وجمع (أولئك) باعتبار معنى (مَنْ) .

(أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَـٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ ۚ بَلَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٣﴾ وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَلَى ٱلنَّارِ أَلَيْسَ هَـٰذَا بِٱلْحَقِّ ۖ قَالُواْ بَلَىٰ وَرَبِّنَا ۚ قَالَ فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٤﴾ فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ ۚ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ ۚ بَلَـٰغٌ ۚ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ ﴿٣٥﴾)

المفــــردات :

(أَوَلَمْ يَرَوْاْ) أى : أو لم يعلموا ؛ لأن المراد بالرؤية هنا العلم .

(وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ) أى : لم يتعب به أصلاً .

(وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُواْ عَلَى النَّارِ) أى : يوقفون عليها ويمررون بها .

(كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ) أى : كأنهم حين يرونها لم يمكثوا فى الدنيا إلا وقتاً يسيراً من نهار لشدة العذاب وطول مدته .

(بَلَاغٌ) أى : أن ما وعظوا به كفاية فى الموعظة ، أو تبليغ من الرسول .

(فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ) أى : الخارجون عن طاعة الله ، أو عن الاتعاظ بما وعظوا به .

التفسير

٣٣ - (أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللهَ الَّذِى خَلَقَ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْيِىَ الْمَوْتَىٰ بَلَىٰٓ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ) :

الهمزة فى (أَوَلَمْ يَرَوْا) للإنكار . والمعنى : أغفل هؤلاء الكفار المنكرون للبعث ولم يعلموا علماً جازماً أن الله العظيم أبدع خلق السموات والأرض ابتداء من غير مثال يحتذيه ، ولم يلحقه بذلك تعب أصلاً ، أو لم يعجز عنه - أَوْ لم يُرِدْهُ - (بِقَادِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْيِىَ الْمَوْتَىٰ) أى : أنه - سبحانه - وقد أبدع خلق السموات والأرض فى الابتداء قادر قدرة بالغة على أن يحيى الموتى بعد الفناء ، ويعيدهم بعد تفرق الأشلاء .

ودخلت الباء هنا فى خبر أَنَّ تأكيدًا للمعنى لاشتمال النفى فى أول الآية على أن ومافى حيزها كأنه قيل : أوليس الله بقادر على أن يحيى الموتى ؟ ولذلك أجيب عنه بقوله تعالى : (بَلَىٰٓ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ) تقريرًا للقدرة على وجه عام ليكون كالبرهان على المقصود ، فكأنه قيل : إحياء الموتى شىء ، وكل شىء مقدور له - تعالى - فينتج عنه أن إحياء الموتى مقدور له ، ويلزمه أنه قادر على إحياء الموتى : تفسير الآلوسى .

٣٤ - (وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَلَيْسَ هَٰذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ) :

أى : وذكِّر الكفار يوم يوقفون على النار فيقال لهم تقريعاً : (أَلَيْسَ هَٰذَا بِالْحَقِّ) إشارة إلى ما يشاهدونه من حيث هو من غير لفظ يدل عليه إذ هو اللائق بتهويله وتفخيمه ، أو إشارة إلى العذاب الذى كانوا يكذبون به بدليل التصريح به بعد فى قوله : (فَذُوقُوا الْعَذَابَ) وفى ذلك توبيخ لهم على استهزائهم بوعد الله ووعيده ، وكان جوابهم مؤكداً بالقسم حيث قالوا : (بَلَىٰ وَرَبِّنَا) كأنهم يطمعون فى الخلاص من العذاب بالاعتراف بحقية ذلك ، وأنى لهم ذلك ؟ ! (قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ) أى : فيقول المقرِّر : فذوقوا العذاب بسبب استمراركم على الكفر فى الدنيا

ومعنى أمرهم بذوق العذاب : الاستهانة بهم والتهكم والتوبيخ لهم ، وذوق العذاب تمثيل لإدراك آثاره الأليمة والإحساس بها إحساساً لاشك فيه .

٣٥ - (فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ بَلَاغٌ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ) :

أى : إذا كانت عاقبة أمر الكفرة إنزال العذاب بهم بسبب كفرهم فاصبر - أيها النبى - على الدعوة إلى الحق ومكابدة الشدائد بما يصيبك من أذى قومك الذى أنزلوه بك وبمن اتبعك. اصبر كما صبر أُولو العزم والثبات من الرسل المجتهدين فى تبليغ الوحى فلم يصرفهم عنه صارف ، ولم يعطفهم عنه عاطف ، وإنك من جملتهم بل من عليتهم . فكل الرسل كانوا أُولى عزم كما قال ابن عباس ، ولفظ (من) على هذا للتبيين ، وقيل : هى للتبعيض ، والمراد من أُولى العزم : أصحاب الشرائع الذين اجتهدوا فى تأسيسها وتقريرها ، وصبروا على تحمل مشاقها ومعاداة الطاغين فيها ، وقد اختلفوا فى تعيينهم على أقوال : أشهرها أنهم نوح وإبراهيم وموسى وعيسى وخاتم الأنبياء محمد ﷺ فهم خمسة - قاله مجاهد - وقال مقاتل : هم ستة: نوح صبر على أذى قومه مدة طويلة ، وإبراهيم صبر على النار، وإسحاق[1] صبر على الذبح ويعقوب صبر على فقد الولد ، وذهاب البصر ، ويوسف صبر على البئر والسجن ، وأيوب صبر على الضر ، وهناك أقوال أُخرى كثيرة ذكرها القرطبى وغيره فمن أرادها فليرجع إليها .
(وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ) أى : لاتدعُ على كفار مكة بتعجيل العذاب لهم فإنه على شرف النزول بهم يوم القيامة وهو قريب لاشك فيه « إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا ، وَنَرَاهُ قَرِيباً »[2].

(كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ) من العذاب الذى أمروا بذوقه لم يمكثوا فى الدنيا حتى جاءهم هذا العذاب ، أو فى قبورهم حتى بعثوا للحساب - كما قال النقاش لم يمكثوا - إلا وقتاً يسيرًا

(١) الأصح أن الذبيح إسماعيل - عليه السلام - .
(٢) المعارج ، الآيتان : ٦ ، ٧

يقدر بساعة من نهار فى جنب يوم القيامة لما يشاهدون من شدة العذاب وطول مدته حتى أنساهم هولُ ذلك طول مكثهم فى الدنيا أو فى قبورهم ، وهذا الذى وعظتم به (بلاغٌ) أى : كاف فى الموعظة ، أو هذا القرآن بلاغ للناس - قاله الحسن - بدليل (إِنَّ فِي هَٰذَا لَبَلَاغاً لِّقَوْمٍ عَابِدِينَ) (فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ) أى : لا يكون الهلاك والدمار إلا للكافرين الخارجين عن الاتعاظ بأمر الله ، أو عن الطاعة ، وفى الآية من الوعيد والإنذار ما فيها .

« سورة محمد »

هذه السورة مدنية وعدد آياتها ثمان وثلاثون ، ولها اسمان سميت بهما ، أحدهما : سورة محمد ؛ لقوله - تعالى - فى أول السورة : (وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ) وثانيهما : القتال لقوله - تعالى - فيها : (فَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ) من الآية رقم ٢٠

ومناسبتها للسورة التى قبلها أن حديثها عن الكفار الذى بدئت به متصل بما ختمت به سابقتها التى ذكرت حالهم يوم يعرضون على النار ، بسبب كفرهم وإيذاء الرسول وإنكار البعث ، وقررت مصيرهم بقوله - تعالى - : (فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ) حتى قال ابن كثير : لا يخفى قوة ارتباط أولها بآخر السورة قبلها واتصاله وتلاحمه بحيث لو سقطت من البين البسملة لكانا كلاماً واحداً لا تنافر فيه ، كالآية الواحدة آخذاً بعضها بعنق بعض .

اهم اهداف السورة :

١ - بينت فى بدايتها أن الله أبطل أعمال الكافرين لإعراضهم عن الحق واتباع الباطل ، والوقوف فى وجه الدعوة ليصدوا الناس عن دين الله ، وأنه - سبحانه - كفّر عن المؤمنين سيئاتهم ؛ لأنهم نصروا الحق وسلكوا طريقه واتبعوا ما أنزل على محمد ﷺ .

٢ - بينت - بإطناب - وجوب الدفاع عن الحق وما يتطلبه ذلك عند لقاء الكفار فى بدء المعركة ونهايتها ، وذكرت جزاء من قتل فى سبيل الله (فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ) الآيات : ٤ ، ٥ ، ٦

٣ - وعدت المؤمنين المدافعين عن دين الله بالتأييد والنصر (يَآأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوآ إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ) ... الآية ، وأوضحت أن للكافرين الشقاء والخسار (وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعْسًا لَّهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ) ؛ لأنهم كرهوا ما أنزل الله فأبطل أعمالهم .

٤ - حذرت كفار مكة سوء المصير فضربت لهم الأمثال بالطغاة المتجبرين من الأمم السابقة ، وبينت أن الله دمر عليهم بسبب إجرامهم وطغيانهم (أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِى الْأَرْضِ

فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ) الآية ، ثم ذكرت جزاء الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، وعاقبة الذين يتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام والنار مثوى لهم ، وأشارت إلى أن سنة الله إهلاك القرى الظالمة التي هي أشد من قريتك التي أخرجتك (فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ) .

٥ - ذكرت أنهار الجنة التي ينعم بها المؤمنون ، وشراب الكافرين الذي يقطع أمعاءهم .

٦ - تحدثت بإسهاب عن المنافقين ، وعما جبلوا عليه من الإنكار لما يسمعون من الرسول حيث كانوا يقولون لأولى العلم : ماذا قال آنفاً ؟ تمادياً فى الإعراض عن الحق وعلى جهة الاستهزاء ،واستمرت آيات السورة تعدد مساوئهم مع تحذير المؤمنين أن يكونوا بينهم حتى لايستمعوا لتثبيطهم ، وهددتهم بهتك أستارهم بإظهار الرسول على أحقادهم التى يخفونها حيث كانوا يقولون مالا يفعلون . (أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ اللهُ أَضْغَانَهُمْ) .

٧ - ثم ختمت السورة مؤكدة أن الذين صدوا عن سبيل الله وشاقوا الرسول من بعد ما وضح الحق وتبين الهدى لن يضروا الله شيئاً ، وسيحبط أعمالهم ، وأنهم إذا ماتوا وهم كفار فلن يغفر الله لهم ، وذمّت البخلاء فى الإنفاق وبينت استغناء الحق ، وفقر الخلق فى قوله : (وَاللهُ الْغَنِىُّ وَأَنتُمُ الْفُقَرَآءُ ..) الآية .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

(ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿١﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَءَامَنُواْ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ﴿٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱتَّبَعُواْ ٱلْبَٰطِلَ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّبَعُواْ ٱلْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَٰلَهُمْ ﴿٣﴾)

المفـــردات :

(وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ اللهِ) أى : أعرضوا عن الإسلام وامتنعوا عن الدخول فيه ، من : صد صُدودًا ، أو منعوا الناس عن الدخول فيه ، من : صده صدًّا .

(أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ) أى : أبطل كيدهم ومكرهم وتدبيرهم .

(كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ) أى : أزالها ومحاها بالإيمان والعمل الصالح .

(وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ) أى : حالهم فى الدين والدنيا ، والبال كالمصدر ولايعرف منه فعل .

(اتَّبَعُواْ الْبَاطِلَ) أى : الشرك أو الشيطان .

(اتَّبَعُواْ الْحَقَّ) : التوحيد والقرآن .

التفسير

١ - (الَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ اللهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ) :

قال ابن عباس : نزلت فى المطعمين يوم بدر وهم اثنا عشر رجلاً من أهل الشرك منهم أبو جهل ، والحارث بن هشام ، وعتبة وشيبة ابنا ربيعة ، وأُبَىُّ وأُمية ابنا خلف كانوا يمنعون

الناس عن الإسلام ويأمرونهم بالكفر ، وقد أنفقوا فى سبيل ذلك نفقة كثيرة ، وقيل : المراد بهم أهل الكتاب الذين كفروا وصدوا من أراد منهم ومن غيرهم أن يدخل فى الإسلام ، وقيل : هم أهل مكة الذين كفروا بتوحيد الله وصدوا عن الإسلام من أراد الدخول فيه ، والحق أن الآية عامة لكل من كفر وأعرض عن الإسلام ، أو كفر ومنع الناس من الدخول فيه[1] ويدخل فى العموم كل ما نقل من أقوال دخولًا أوليا ، هؤلاء أبطل الله أعمالهم وجعلها ضائعة ليس لها من يثيب عليها ، ولا أثر لها أصلاً ، بمعنى أنه حكم ببطلانها وضياعها لابمعنى أنه أبطلها وأحبطها بعد أن لم تكن كذلك ، وبطلانها بإبطال كيدهم ومكرهم بالنبى ﷺ حيث جعل الدائرة تدور عليهم ، أو بإبطال ما عملوه فى كفرهم مما كانوا يسمونه مكارم من صلة الأرحام ، وقرى الأضياف ، وحفظ الجوار وعمارة المسجد الحرام ونحوها من كل مكرمة لهم وفخر .

٢ - (وَالَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ وَآمَنُواْ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ) :

قال ابن عباس فيما صح عنه : هم أهل المدينة الأنصار ، وقيل : هم ناس من قريش ، وقيل : من أهل الكتاب ، والحق أن الآية عامة ويدخل فيها من ذكر دخولا أوليا ، وتخصيص الإيمان بما نزل على محمد مع دخوله فيما قبله تنبيه على سمو مكانته بين الكتب السابقة التى جاء بها الرسل قبله .

والمعنى : والذين آمنت قلوبهم ، وانقادت جوارحهم فعملوا الأعمال الصالحة ، وآمنوا بما أنزله الله على رسوله محمد ﷺ وهو القرآن الكريم ، أولئك المؤمنون الذين وصفوا بما ذكر (كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ) التى حدثت منهم قبل الإيمان فأزالها ولم يؤاخذهم بها . (وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ) أى : حالهم وشأنهم بالتوفيق فى أمور الدين ، والتسليط على الدنيا بما أعطاهم من النصر والتأييد على عدوهم حتى دانت لهم مشارق الأرض ومغاربها .

---

(١) لأن (صد) تستعمل لازمة بمعنى أعرض ، والمصدر : الصدود ، ومتعدية بمعنى منع ، والمصدر : الصد .

٣ - (ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱتَّبَعُواْ ٱلْبَاطِلَ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ آمَنُواْ ٱتَّبَعُواْ ٱلْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ) :

بدئت الآية بالإشارة إلى مامر من إضلال أعمال الكافرين ، وتكفير سيئات المؤمنين وإصلاح بالهم .

والمعنى : أن إضلال أعمال الذين كفروا بسبب أنهم اتبعوا الباطل وهو الذى لا أصل له أو اتبعوا الباطل وهو الشيطان - قاله مجاهد - ففعلوا ما فعلوا من الكفر والصد عن سبيل الله ، وأن رعاية المؤمنين بسبب أنهم اتبعوا الحق الذى لا محيد عنه كائن من ربهم ، فآمنوا به وعملوا الأعمال الصالحة (كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ) أى : مثل هذا البيان الواضح يبين الله للناس أحوال الفريقين المؤمنين والكافرين وأوصافهما الجارية فى الغرابة مجرى الأمثال ، وهى اتباع المؤمنين الحق وفوزهم وفلاحهم ، واتباع الكافرين الباطل وخيبتهم وخسرانهم .

ويجوز أن يراد بضرب الأمثال التمثيل والتشبيه بأن جعل - سبحانه - اتباع الباطل مثلًا لعمل الكفار ، والإضلال مثلًا لخيبتهم ، واتباع الحق مثلا لعمل المؤمنين ، وتكفير السيئات مثلا لفوزهم .

(فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّواْ ٱلْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّۢا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَاْ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ وَٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٤﴾ سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ﴿٥﴾ وَيُدْخِلُهُمُ ٱلْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ ﴿٦﴾)

المفـــردات :

(فَشُدُّواْ الْوَثَاقَ) أى : فأحكموا قَيْدَ مَنْ أسرتموهم بعد إثخانهم بكثرة القتل وإضعافهم بالجراح . والوثاق - بالفتح والكسر - : اسم لمـا يوثق به كالقيد والحبل ونحوهما ، والجمع وُثُق .

(فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً) المن : إطلاق الأسير بغير عوض ، والفداءُ : إطلاقه بعوض .

(حَتَّىٰ تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا) أى : آلاتها وأثقالها التى لا تقوم إلَّا بها كالسلاح والكُراع [1] وغير ذلك ، وإسناد الوضع للحرب وهو لأهلها على سبيل المجاز .

(لَانتَصَرَ مِنْهُمْ) أى : لانتقم منهم فأهلكهم بغير الحرب كالزلزلة .

(وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ) أى : أمركم بالحرب ليختبر بعضكم ببعض فيمتحن المؤمنين بالكافرين تمحيصًا للمؤمنين ، ويمتحن الكافرين بالمؤمنين تمحيقًا لهؤلاء الكافرين .

---

(١) الكراع - بضم الكاف - : اسم يجمع الخيل : مختار الصحاح .

(فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ) أى : فلن يضيعها وإنما يجازيهم بها أحسن الجزاء .

(عَرَّفَهَا لَهُمْ) أى : يهدى أهل الجنة إلى مساكنهم فلا يخطئونها ، وذلك إلهامٌ منه تعالى.

التفسير

٤ - (فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً حَتَّىٰ تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَآءُ اللَّهُ لَانتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَـٰكِن لِّيَبْلُوَا بَعْضَكُم بِبَعْضٍ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِى سَبِيلِ اللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ) :

بدئت الآية بالفاء لترتيب ما فى حيزها من الأمر بجهاد الكافرين على ما قبلها من ضلال أعمال الكفرة وخيبتهم ، وصلاح أحوال المؤمنين وفوزهم ، مما يقتضى أن يترتب على كل من الجانبين ما يليق به من الأحكام .

والمراد بالذين كفروا - كما قال ابن عباس - : المشركون عبدة الأوثان ، وقيل : كل من خالف دين الإسلام من مشرك أو كتابى إذا لم يكن صاحب عهد ولا ذمة ، ذكره الماوردى ، واختاره ابن العربى وقال : وهو الصحيح لعموم الآية فيه .

وهؤلاء الكافرون أنتم مأمورون بضرب رقابهم فى الحرب ، وهو كناية عن قتلهم فى أى موضع ، وعبر به عنه لتصوير القتل بأبشع صورة وهو حز العنق ، وفصل العضو الذى هو رأس البدن وأشرف أعضائه ، ومجمع حواسه ، وفى بقاء الجسد ملقى بدون رأسه شناعة ما بعدها شناعة . (حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ) بأن أكثرتم فيهم القتل ، وأخذتم من لم يقتل منهم أسرى بعد أن أوهنتموهم بالجراح . (فَشُدُّوا الْوَثَاقَ) أى : فأحكموا قيدهم حتى لا يفلتوا منكم ، وعندما يتم التحفظ عليهم تكون عاقبة أمرهم التخيير فيهم . (فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً) وظاهر الآية على ما ذكره السيوطى فى أحكام القرآن العظيم - : امتناع القتل بعد الأسر ، وبه قال الحسن ، وأخرج ابن جرير وابن مردويه عنه أنه قال : أتى الحجاج بأسارى فدفع إلى ابن عمر - رضى الله تعالى عنهما - رجلا يقتله فقال ابن عمر : ليس بهذا أمرنا ، إنما قال

الله - تعالى - : (حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّواْ ٱلْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّۢا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً) ذكر ذلك الآلوسى .

ويقول القرطبي : وليس فى تفسير المن والفداء منع من غيره مع الأسرى ، فقد بين الله فى الزنى حكم الجلد ، وبين الرسول حكم الرجم ، ولهذا اختلف العلماء فى حكم الأسارى ، فذهب الأكثرون إلى أن الإمام بالخيار إن شاء قتلهم إن لم يسلموا ؛ لأن النبى ﷺ قتل صبرا - عقبة بن أبى معيط وطعيمة بن عدى والنضر بن الحارث ؛ لأن فى قتلهم حسماً لمادة فسادهم بالكلية ، وليس لواحد من الغزاة أن يقتل أسيرًا بنفسه فذلك من حق الإمام ، ما لم يتوقع شرًّا منه ، وإن شاء الإمام استرقهم ؛ لأن فيه دفع شرهم مع وفور المصلحة لأهل الإسلام ، وإن شاء تركهم أهلَ ذمة كما فعل ذلك عمر مع أهل السواد إلَّا أسارى مشركى العرب والمرتدين فإنه لا تقبل منهم جزية ولا يجوز استرقاقهم ، والحكم فيهم إما الإسلام أو السيف ، وعن سعيد بن جبير : لا يكون فداء ولا أسر إلَّا بعد الإثخان والقتل بالسيف لقوله - تعالى - : « مَا كَانَ لِنَبِىٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ »[1] فإذا وقع بعد ذلك أسر فللإمام أن يحكم بما رآه من قتل وغيره ، وتفصيل هذه الأحكام تكفل بها الفقهاء . (حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا) أى : آلاتها وأثقالها من السلاح وغيره مما لا تقوم الحرب إلَّا به ، وإسناد وضع الأوزار إليها - وهو لأهلها - إسناد مجازى ، والمراد من هذا الرأى أن هؤلاء الكافرين يقتلون حتى تنتهى الحرب ، فيكون بعدها إمَّا الأسر وإمَّا الفداء ، وتستمر الأحكام السابقة جارية فيهم إلى أن يظهر الإسلام على الدين كله ، ولا يبقى للمشركين شوكة بهزيمتهم أو بالموادعة وإلقاء السلاح ، أو حتى يترك المشركون شركهم ومعاصيهم ويسلموا . (ذَٰلِكَ) أى : ذلك حكم الكفار ، أو : افعلوا ذلك ، وهى كلمة يستعملها الفصيح عند الخروج من كلام إلى كلام . (وَلَوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ) بغير قتال ، بأن يهلكهم بخسف ونحوه كرجفة وغرق وريح صرصر عاتية ، وقال ابن عباس : ولو يشاء لأهلكهم بجند من الملائكة .

---

(١) سورة الأنفال من الآية ٦٧

(وَلَـٰكِن لِّيَبْلُوَاْ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ) أى : ولكن أمركم بالقتال ليبلو المؤمنين بالكافرين بأن يجاهدوهم ، فينالوا الثواب العظيم ، ويُخلَّد فى صحف الدهر ما لهم من الفضل الكبير ، وليبلو الكافرين بالمؤمنين بأن يعاجلهم - عز وجل - ببعض انتقامه ، فيتعظ به بعض منهم ويكون سبباً لإسلامه . (وَالَّذِينَ قُتِلُواْ فِى سَبِيلِ اللهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ) أى : والذين استشهدوا فى قتال المشركين ، فلن يضيع الله ثواب أعمالهم ، وهم عنده - عز وجل - أحياء ينعمون برزق دائم ، ونعيم مقيم ، فرحين بما آتاهم ربهم من فضله .

قال قتادة : ذكر لنا أن هذه الآية نزلت يوم أُحد ، ورسول الله ﷺ فى الشِّعب وقد فشت فيهم الجراحات والقتل ، وقد نادى المشركون : اعْلُ هبَل ، ونادى المسلمون : الله أعلى وأجل ، وقال المشركون : يوم أُحد بيوم بدر والحرب سجال ، فقال النبى ﷺ : « قولوا : لَا سواءً ؛ قتلانا أحياءٌ عند ربهم يرزقون ، وقتلاكم فى النار يعذبون . فقال المشركون : إن لنا العزى ولا عزى لكم ، فقال المسلمون : الله مولانا ولا مولى لكم .

(سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ) المراد : هداية هؤلاء الشهداء إلى الجنة بإرشادهم إلى مسالكها والطرق المفضية إليها ليصلوا إلى ثواب أعمالهم من النعيم الخالد والفوز الدائم والفضل العظيم ، أو سيحقق الهداية لمن بقى منهم بصونهم عمَّا يورث الضلال ويحبط الأعمال ، وكما أنه - سبحانه وتعالى - تكفل بأنه سيهديهم فقد تكفل كذلك بأن يصلح بالهم ، أى : شأنهم ، قال الطبرسى : المراد إصلاح ذلك فى العقبى . ولا تكرار لذلك مع قوله - سبحانه - : (كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ) لأن المراد به هناك إصلاح شأنهم فى الدين والدنيا ، فاختلف المراد .

٦ - (وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ) :

أى : إذا دخلوها يقال لهم : تفرقوا إلى منازلكم التى حددت لكم، وهديتم إليها ،أخرج عبد بن حميد وابن جرير عن مجاهد أنه قال : يهدى أهل الجنة إلى بيوتهم ومساكنهم كأنهم ساكنوها منذ خلقوا ، لا يستدلون عليها أحدًا ، وفى الحديث : « لأَحَدُكم بمنزله فى الجنة أَعْرَفُ منه بمنزله فى الدنيا » وذلك إلهامٌ منه - عز وجل - أو طيبها لهم بأنواع الملاذ

- كما قال ابن عباس - من العَرْف : وهو الرائحة الطيبة ،ومنه : طعام مُعَرَّف ، أى : مطيَّب ، وعن الجبائى أن التعريف فى الدنيا ، وهو بذكر أوصافها ، والمراد أنه - تعالى - لم يزل يمدحها لهم حتى عشقوها ، فاجتهدوا فيما يوصلهم إليها . وقال الحسن : وصف الله - تعالى - لهم الجنة فى الدنيا فلما دخلوها عرفوها بصفتها .

(يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴿٧﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَتَعْسًا لَّهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٨﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٩﴾)

المفـــردات :

(وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ) : عند القتال ، أو على محجة الإسلام ، أو على الصراط .

(فَتَعْسًا لَّهُمْ) أى : هلاكًا ، والتعس كما يطلق على الهلاك يطلق على العثار والسقوط والشر والبعد والانحطاط كما فى القاموس . والفعل من باب (منع) ، وجوز قوم تَعِسَ - بكسر العين - من باب فَرِح ، ومنه حديث أبى هريرة : « تَعِسَ عبد الدينار والدرهم » .

(وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ) أى : أبطلها ؛ لأنها كانت للشيطان وفى سبيله .

(فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ) أى : أهدرها وكانت فى صور الخيرات كعمارة المسجد وقرى الضيف وأصناف القُرب .

التفسير

٧- (يَٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ) :

أى : إن تنصروا دين الله ورسوله ﷺ بتحمل مشاق الدعوة وما تتطلبه من بذل وتضحية ينصركم على أعدائكم ، ويفتح لكم ؛ إذ هو - سبحانه - المعين الناصر ، وغيره هو المُعَان

المنصور ، ويثبت أقدامكم فى مواطن الحرب ومواقفها ، أو على محجة الإسلام ، ويمدكم دائماً بالتمسك بالطاعة والتوفيق .

٨ - (وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعْسًا لَّهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ) :

دعاء على الذين كفروا بالله وأعرضوا عن دينه ، أى : فهلاكًا لهم وشقاء ، وهو منصوب بفعل من لفظه محذوف وجوبا سماعًا ، وعن ابن عباس - رضى الله عنهما - يريد فى الدنيا القتل ، وفى الآخرة التردى فى النار ، وقيل غير ذلك .

(وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ) لأنها كانت للشيطان الذى زين لهم الضلال ، وحبب إليهم الفسوق والعصيان وبذلك استحبوا العمى على الهدى .

٩ - (ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ) :

أى : ما ذكر من التعس وضلال الأعمال بسبب أنهم كرهوا ما أنزل الله من القرآن الكريم لما فيه من التوحيد وسائر الأحكام التى تخالف ما ألفوه واشتهته أنفسهم الأمارة بالسوء ، فأهدر الله لأجل ذلك أعمالهم التى كانت موطن فخرهم من صور الخيرات كعمارة المسجد الحرام وقِرَى الأضياف ، وأصناف القرب الأخرى ، إذ الإيمان شرط للإثابة على الأعمال فلا يقبل الله العمل إلّا من مؤمن ، وقيل : أحبط أعمالهم ، أى : عبادة الأصنام .

وفى الآية تخصيص وتصريح بسببية الكفر بالقرآن الكريم للتعس والإضلال .

* (أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا ﴿١٠﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ ﴿١١﴾ إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ﴿١٢﴾ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَاهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ ﴿١٣﴾ أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ كَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُم ﴿١٤﴾)

المفـــردات :

(عَاقِبَةُ) : آخرة ، وعاقبة كل شيء : آخره .

(دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ) : أهلك الله عليهم ما يختص بهم ، يقال : دمَّرهم ، أى : أهلكهم ، ودمَّر عليهم ، أى : أهلك عليهم ما يختص بهم وهو أبلغ .

(مَوْلَى) : ناصر .

(مَثْوًى) : منزل ودار إقامة .

التفسير

١٠ - (أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا) :

بينت الآيات السابقة فى مستهل هذه السورة شيئًا من أحوال الكافرين ، والمؤمنين ، ووعدت المؤمنين بالنصر والتمكين فى الأرض ، والتثبيت على محجة الإسلام ، إذا نصروا الله ورسوله ونَعَتْ على الكافرين كفرهم وما يجرى عليهم من التعس والخسران وبطلان الأعمال ، ثم جاءتْ هذه الآية التى تدعو إلى النظر فى عاقبة الأمم السابقة التى سلكت مسالك الكفر فوقعت فى متاهات الضلال .

والمعنى : أَقَعَدَ هؤلاء الكفار فلم يسيروا فى نواحى الأرض ، ولم يضربوا فى مناكبها فيروا عاقبة الذين كانوا من قبلهم على مثل حالهم من الكفر والعناد ، وما نزل بهم من عذاب ، وحَلّ بديارهم من تدمير وخراب ؟! أهلكهم الله ودمّر عليهم كل ما لهم من أموال ومنازل . ولكم - أيها الكافرون - أمثال ما لهؤلاء السابقين فإنكم جميعًا فى الكفر سواء .

ووضع الظاهر موضع الضمير لإبراز الجزاء مع الإشارة إلى استحقاقه بذكر سببه .

١١ - (ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ) :

أى : ذلكَ الجزاء الذى مضى به قضاء الله ، وجرت عليه سنته من تدمير الكافرين ، واستئصال المفسدين مع نصر الموحدين والتمكين للطائعين - ذلك كله - جار على سنة أنه - تعالى - ولى المؤمنين يهديهم وينصرهم ، ويصلح حالهم ، وأن الكافرين ضائعون ، لا ناصر ينصرهم ، ولا مُعين يُعينهم أو يدفع عنهم .

ولا يخالف هذا قوله - تعالى - : « وَرُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ »[1] فإن المولى فيه بمعنى المالك ، وفى الآية التى نحن بصددها بمعنى الناصر .

---

(١) سورة يونس من الآية ٣٠

سأل أبو سفيان يوم أحد عن النبي ﷺ وعن أبي بكر ، وعمر - رضى الله عنهما - فلم يُجَبْ ، قال : أمّا هؤلاء فهلكوا ، وأجابه عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - فقال : كذبت ياعدوَّ الله ، بل أبقى الله - تعالى - مايسوؤك ، وإن الذين عددت أحياءٌ ، فقال أبو سفيان : يومٌ بيوم ، والحربُ سجال ، أما إنكم ستجدون مُثْلَةً[1] لم آمر بها ولم أنْهَ عنها ، ثم ذهب يرتجز ويقول : اعْلُ هُبَل - اعْلُ هبل . فقال النبي ﷺ : ألا تجيبوه ؟ قالوا : وما نقول يا رسول الله ؟ قال : قولوا : الله أعلى وأجلّ . ثم قال أبو سفيان : لَنَا العُزَّى ولا عُزَّى لَكُم . فقال ﷺ : ألا تجيبوه ؟ قالوا : ومانقول يا رسول الله ؟ قال : قولوا : اللهُ مَوْلَانَا وَلَا مَوْلَى لَكُم .

١٢ - (إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَالَّذِينَ كَفَرُواْ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ) :

هذه الآية بيان لثمرة ولايته - تعالى - للمؤمنين الأخروية بعد بيان ثمرتها فى الدنيا بالنصر ، والتمكين فى الأرض .

والمعنى : إن الله - تعالى - يتفضل على عباده الذين آمنوا به والتزموا طاعته بفعل المأمورات وترك المنهيات - يتفضل عليهم - فى الآخرة فيدخلهم جنات تزدهى بألوان الجمال من أشجار تجرى من تحتها الأنهار ، ومناظر تعجب الأبصار ، زاخرة بأطايب الخيرات ، والثمار ، وأصناف من الفواكه كثيرة ، لامقطوعة ولاممنوعة ، وفرش مرفوعة .

والذين كفروا وركنوا إلى الدنيا ، وغرتهم زخارفها ، وجرفهم متاعها فاندفعوا وراء شهواتهم يأكلون كما تأكل الأنعام نهمِين غافلين ، لا يهمهم إلا إشباع بطونهم ، وإرضاء غرائزهم، لايفكرون فى حساب ، ولا يتدبرون فى عاقبة هواهم - هؤلاء فى الآخرة - النار مثواهم ودار إقامتهم ، يطعمون زقّومها ، ويشربون حميمها ، ويصطلون بلهيبها جزاء غفلتهم فى دنياهم ، وبعدهم عن سواء السبيل .

---

(١) المثلة : التمثيل بالقتيل بنحو قطع اليد أو الأنف بعد القتل .

١٣ - (وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَاهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ) :

الخطاب فى هذه الآية إلى الرسول ﷺ تسلية له وتهوينًا عليه أمر هجرته من بلدته ، وتهديدًا للمشركين بالهلاك والدمار كما هلك من كانوا قبلهم من الطغاة المتجبرين الذين كانوا أشد منهم بطشًا ، وأعظم قوة ومنعة فأقفرت منهم الدنيا ، وخلت الديار .

والمعنى : وكم من قرية كان أهلها أشد قوة ، وأعتى بطشًا ، وأعز سلطانا ومنعة من أهل قريتك : مكة التى أخرجك منها أهلها بتتابع أذاهم ، وتلاحق كيدهم ، وسوء مكرهم ، وتدبيرهم ، فكانت نهاية أمرهم الهلاك بأنواع العذاب ، فلم يكن لهم دافع يدفع عنهم ، ولا ناصر ينصرهم ، فهؤلاء المشركون من أهل مكة لهم نهاية كنهايتهم إن استمروا على كفرهم .

أخرج عبد بن حميد وأبو يعلى وابن جرير وابن أبى حاتم وابن مردويه ، عن ابن عباس أن النبى ﷺ لما خرج من مكة إلى الغار التفت إلى مكة وقال : « أنتِ أحبُّ بلاد الله - تعالى - إلى الله وأنتِ أحبُّ بلاد الله - تعالى - إلىَّ ، ولولا أنَّ أهلَكِ أخرجونى منك لم أخرج منك » .

١٤ - (أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ كَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُم) :

هذه الآية تستحث العقل وتستنهض الفكر إلى ضرورة النظر ، والتمييز بين الحق ، والباطل ، والصحيح والفاسد ، والضار والنافع ، والتسامى عن الانقياد الأعمى للآباء ، واتباع الشهوات ، بعد بيان نعيم المؤمنين ، وشقاء الكافرين .

والمعنى : أيستقيم فى العقل السليم ، والفكر القويم أن يستوى مَنْ كان على حجة ظاهرة وبرهان نيّر من الله مالك أمره ومربّيه ، فأيده بالقرآن وسائر المعجزات والحجج العقلية - أفمن كان كذلك - يماثل من زيّن له الشيطان سوء عمله ، وحسن له سبل غوايته ، فأمعن فى الشرك الذى هو أقبح القبائح ، وانغمس فى المعاصى والمنكرات ، وجرى مع الغواة والمفسدين فاتبعوا أهواءهم الفاسدة ، ونزواتهم الطائشة ، وانهمكوا فى الملذات ، وذابوا فى الضلالات ؟!!

وجمع الضمير فى قوله : (وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُم) مراعاة لمعنى (مَنْ) وأفرد مع قوله : (أَفَمَن كَانَ) مراعاة للفظها .

(مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ فِيهَآ أَنْهَـٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَـٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَـٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّـٰرِبِينَ وَأَنْهَـٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى ۖ وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ ۖ كَمَنْ هُوَ خَـٰلِدٌ فِى ٱلنَّارِ وَسُقُوا۟ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ (١٥))

المفـــردات :

(مَثَلُ) المثل : الوصف العجيب الشأن .

(آسِنٍ) : متغير الطعم والرائحة .

(لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ) : لم يصر فيه حموضة كألبان الدنيا ولا ما يكره من الطعوم .

(مُصَفًّى) : خال من الشمع ومن جميع العلائق والمخلفات .

(حَمِيماً) : حارًّا بالغ الحرارة .

(أَمْعَآءَهُمْ) : جمع مِعًى . وهى ما ينتهى إليها الطعام فى البطن .

التفســير

١٥ - (مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِى وُعِدَ الْمُتَّقُونَ . . .) الآية :

هذه الآية كلام مستأنف مسوق لشرح محاسن الجنة الموعودة للمؤمنين فى قوله - تعالى - آنفًا : (إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ ...) وتصوير نعيمها ، وتعداد خيراتها ، ومقارنة نعيم أهلها بعذاب أهل الجحيم .

والمعنى : مثلُ الجنة الموعودة للمؤمنين ، وشأنها العجيب ما يتلى عليكم من جلائل النعم ، فى هذه الجنة أنهار من الماء النقى المتجدد الذى لم يداخله كدر ، ولم يلحقه تغير فى لون أو طعم لطول مكثه ، وأنهار من لبن لم تطرأ عليه حموضة ولم يستكره له طعم ، كما يحدث فى ألبان الدنيا ، وأنهار من خمر لذيذ الطعم مستساغ المذاق ليس فيها كراهية ريح ، ولا غائلة سكر ، ولا يجد شاربها إلّا اللذة والمتعة ، وأنهار من عسل خالص صرف مصفًّى من الشمع ، ومن جميع الشوائب وفضلات النحل ، وفيها غير هذا من كل الثمرات ، وأصناف المطعومات ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ، وكل ذلك من الوفرة والكثرة بحيث لا يخاف منه حرمان ، ولا إقلال . ولهم قبل هذا مغفرة واسعة من ربهم تمحو ذنوبهم ، وترفع درجاتهم .

وقوله تعالى : (كَمَنْ هُوَ خالِدٌ فِى النَّارِ) معناه : أَمَثَل الجنة التى أعدت للمتقين وعلمتم أوصافها كمثل جزاء من هو خالد فى النار متهاوٍ فى دركاتها ، شرابُهم فيها الحميمُ الشديد الحرارة ، فإذا شربوا منه قطع أمعاءهم ؟!

والتعبير عن فريق المؤمنين بالمتقين يؤذن بأن الإيمان والعمل الصالح من باب التقوى الذى هو عبارة عن فعل الواجبات بأسرها ، وترك السيئات عن آخرها ليتقى عذاب الله على تركها . كما أن التعبير عن فريق الكافرين بمن هو خالد فى النار ، لإبراز مهانتهم بسوء مآلهم ، وتأبيد عذابهم .

(وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُوا۟ مِنْ عِندِكَ قَالُوا۟ لِلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مَاذَا قَالَ ءَانِفًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ ﴿١٦﴾ وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ ﴿١٧﴾ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً ۖ فَقَدْ جَآءَ أَشْرَاطُهَا ۚ فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَآءَتْهُمْ ذِكْرَىٰهُمْ ﴿١٨﴾ فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَىٰكُمْ ﴿١٩﴾)

المفـــردات :

(ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ) : الصحابة الذين وعوا حديث رسول الله ﷺ .

(آنِفًا) أى : سابقًا ، وهو اسم للساعة التى قبل الساعة التى أنت فيها ، وهو اسم فاعل على غير قياس ؛ لأنه لم يسمع له فعل ثلاثى .

(طَبَعَ اللهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ) : طمس الله على قلوبهم وختم عليها .

(بَغْتَةً) : فجأة .

(أَشْرَاطُهَا) : علاماتها .

(مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ) أى : مكان تقلبكم فى الدنيا ، وموطن إقامتكم فى الآخرة .

التفسير

١٦ - (وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُوا۟ مِنْ عِندِكَ . . .) الآية :

تحكى هذه الآية صورة من صور بعض المشركين ، ونموذجًا من سلوكهم فى مجلس النبى ﷺ وأصحابه الذين يجلسون إليه ، ويتلقون عنه ، ثم تمضى الآيات بعدها فى مقارنة

بين الذين طبع الله على قلوبهم ، وبين المهديين من المؤمنين لتُبرز مقدار سفه المشركين ، ورشد المؤمنين .

والمعنى : ومن هؤلاء الكافرين المتورطين فى نعيم الدنيا بغير اعتبار ولا تدبر للعاقبة - من هؤلاء - من يحضر إلى مجلسك ليستمع ما تقرؤه على أصحابك من قرآن ، وما توجههم إليه من هَدْى ، حتى إذا خرجوا من عندك وفارقوا المجلس قالوا لمن حضرك وكان معهم من الصحابة رضوان الله عليهم - قالوا - فور خروجهم : ماذا قال محمد سالفًا فى المجلس الذى كنا فيه ؟ يقولون ذلك سخرية واستهزاء كأنَّهم لم يفهموا ما قال الرسول ، أو كأنه كلام لا ينهض إلى درجة الفهم ، أو لا ينبغى سماعه فضلًا عن فهمه - أُولئك القائلون هذا القول - هم الذين طمس الله على قلوبهم ، وأظلم بصيرتهم بسوء اختيارهم ، واتبعوا أهواءهم الفاسدة ، ونزعاتهم الطائشة فقالوا ما قالوا ، وفعلوا ما فعلوا مما لا خير فيه .

١٧ - (وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ) :

أى : الذين طلبوا الهداية وحرصوا عليها حتى نالوها ، وهداهم الله إلى طريق الحق وثبتهم عليها - هؤلاء - زادهم الله هدى بالتوفيق والفهم وآتاهم تقواهم ، أى : أعانهم على العمل الصالح الذى يقيهم عذاب الله ، ويدنيهم من ثوابه .

وقوله - تعالى - : (وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ) مقابل لقوله - تعالى - فى شأن الكافرين : (وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُم) ومن بديع التنسيق وإحكام الإعجاز أن أغلب الآيات فى هذه السورة جارٍ على هذا التقابل ؛ كما فى قوله - تعالى - : (ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ) . وقوله : (إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ) ومن ذلك أيضًا : (طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ) . مقابل : (وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا) .

١٨ - (فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَاءَتْهُمْ ذِكْرَاهُمْ) :

أى : فهل ينتظر هؤلاء الغافلون اللاهون إلا القيامة تباغتهم ، وتأتيهم فجأة وهم فى غفلة

لايتذكرون بذكر أحوال الأمم الخالية ، ولا بالإخبار بإتيان الساعة وما فيها من عظائم الأهوال فقد جاء أشراطها ، وظهرت أماراتها فلم يرفعوا لها رأسا ، ولم تنبه فيهم غافلا ، ولم يعدوها من مبادئ إتيانها مع مشاهدتهم لها كانشقاق القمر ، وغير ذلك من الأشراط التي أهمها بعثة الرسول ﷺ ولهذا جاء في أسمائه أنه نبيّ التوبة ، ونبيّ المَلْحَمَة ، والحاشر الذي يحشر الناس على قدميه ، وقال البخاري : حدثنا أحمد بن المقدام ، حدثنا فضيل بن سليمان ، حدثنا أبو رجاء حدثنا سهل بن سعد - رضي الله عنه - قال : رأيت رسول الله ﷺ قال بأصبعيه هكذا بالوسطى والتي تليها : « بعثتُ أنا والساعة كهاتين » .

وقوله تعالى : (فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَاءَتْهُمْ ذِكْرَاهُمْ) معناه : فكيف للكافرين المنكرين الانتفاع بالتذكير إذا جاءتهم القيامة ، وأي سبيل لهم إليه ؟ وهو حكم بخطئهم وفساد رأيهم في تأخير التذكر إلى إتيانها ببيان استحالة نفعه حينئذ كقوله - تعالى - : « يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنسَانُ وَأَنَّىٰ لَهُ الذِّكْرَىٰ »[1] .

١٩- (فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ) :

قوله تعالى : (فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ) أمر مسبب عن مجموع القصة من مفتتح السورة حتى هنا ، على معنى : إذا علمت أن الأمر كما ذكر من سعادة هؤلاء وشقاوة أولئك فاثبت على ما أنت عليه من العلم بوحدانية الله ، فهو من موجبات السعادة ولا يهمك كفر هؤلاء بوحدانيته ، فقلوب العباد ونواصيهم بيده ، ومصادر الأمور ومواردها بأمره ، يضل من يشاء ويهدى من يشاء ، ولا يقع في ملكه إلا ما يريد ، واستغفر لذنبك ، وتضرع إلى الله أن يغفر لك في كل حال ما هو دونه ، فقد ذكر العلماء أن لنبينا - عليه الصلاة والسلام - في كل لحظة عروجًا إلى مقام أعلى مما كان فيه ، فيكون ما عرج منه في نظره الشريف ذنبًا بالنسبة لما عرج إليه فيستغفر منه ، وحملوا على ذلك قوله - عليه الصلاة والسلام - : « وإنه ليران على قلبي » .

---

(١) سورة الفجر ، من الآية : ٢٣ .

ويجوز أن يكون استغفاره ﷺ من قبيل ترك الأولى بالنسبة إلى منصبه الجليل مما يمكن أن يكون بالنسبة لغيره من أجلّ الحسنات ، من باب حسنات الأبرار سيئات المقربين .

ومهما يكن أو يُقَلْ فإن النبى ﷺ يؤدى لله جميع الطاعات ، ويتضرع برفع الدعوات أداء لشكر آلائه ، ورفعًا لدرجاته ، وإرشادًا للمؤمنين .

(وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ) أى : والله يعلم أطواركم فى الدنيا ومراحلكم فيها ، فإنها أطوار ومراحل لابد من قطعها لا محالة ، يستقيم فيها من يستقيم ، ويضل من يضل ، ويعلم مثواكم ومستقركم فى الآخرة ، أهل النعيم فى دار النعيم ، وأهل العذاب فى الجحيم ، فإن الآخرة هى العقبى ، وهى منازلكم ، ومواطن إقامتكم فلا يأمركم إلا بماهو خير لكم فيهما فبادروا إلى الامتثال بما أمركم به فى المقامين ، فإنه زادكم عند من لا تخفى عليه أحوالكم .

وخص المتقلب فى الدنيا ، والمثوى فى الآخرة ؛ لأن الدنيا دار حركة دائبة ، وتقلب مختلف لطلب الرزق وغيره ، أما الآخرة فدار سكون واستقرار ، لا تقلب فيها ولا مدار . فالرزق فيها موفور والنعيم مقيم .

(وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ ۖ فَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا ٱلْقِتَالُ ۙ رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ ٱلْمَغْشِىِّ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ ۖ فَأَوْلَىٰ لَهُمْ ﴿٢٠﴾ طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ ۚ فَإِذَا عَزَمَ ٱلْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا۟ ٱللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ﴿٢١﴾ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوٓا۟ أَرْحَامَكُمْ ﴿٢٢﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰٓ أَبْصَٰرَهُمْ ﴿٢٣﴾ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾)

المفردات :

(سُورَةٌ) : طائفة من آيات القرآن تأذن بالجهاد .

(مُحْكَمَةٌ) : مبينة قاطعة لاتأول فيها .

(مَرَضٌ) : ضعف إيمان ونفاق .

(الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ) : من حضرته أعراض الموت وغشيته .

(أَوْلَىٰ لَهُمْ) : هلاك وعذاب لهم .

(عَزَمَ الْأَمْرُ) : جد الأمر .

(عَسَيْتُمْ) : قاربتم .

(أَقْفَالُهَا) : جمع قفل : وهو مايحكم به الغلق .

التفسير

٢٠ - (وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَأَوْلَىٰ لَهُمْ) :

عرضت الآيات السابقة شيئاً من أحوال الكافرين ، واختصت منهم طائفة تسمع إلى الرسول ﷺ في مجلسه ثم تنكر ما سمعت فور خروجها من المجلس ، وتتساءل عنه سخرية واستهزاء ، وإمعانًا في العناد ، ثم جاءت هذه الآيات بعدها على سنن هذا النسق تتناول الذين اهتدوا وبارك الله هداهم ، وآتاهم تقواهم ، واختصت منهم جماعة يتعجلون تنزيل آيات من القرآن قاطعة في الإذن بالجهاد ليضربوا على أيدى المشركين ، ويردوا كيدهم ، وينهنهوا[1] جبروتهم ، فإذا أنزلت هذه الآيات أشفق من نزولها مرضى القلوب وضعاف الإيمان ، وشملهم الضجر ، وتغشاهم الخوف حتى أفزع قلوبهم ، ونظروا إلى الرسول نظر المغشى عليه من الموت .

وفسر بعض المفسرين (الذين فى قلوبهم مرض) بالمنافقين ، والسورة مكية والمجتمع المكى كان صريحاً لا نفاق فيه ولاضعف إيمان ، اللهم إلا أن يكون ذلك مما سبق حُكْمُهُ نزولُهُ ، أو تكون الآية مدنية .

والمعنى : ويقول الذين آمنوا بالله وصدقوا رسوله وأجابوا دعوته - يقولون - حرصا على الجهاد ، وتحمسا لنصرة الدعوة ، وتوعدا للمشركين : هلّا أنزل الله طائفة من القرآن بينة قاطعة بمشروعية الجهاد ، والإذن به حتى ننتصر لدعوتنا ، ونرد كيد أعدائنا ، فإذا أنزلت سورة محكمة لاتشابه فيها ، وذكر فيها الإذن بالجهاد ، والأمر به صراحة بحيث لايحتمل التأويل بوجه آخر - وكل آيات الجهاد محكمة كما قال قتادة - إذا أنزلت سورة محكمة وذكر فيها القتال رأيت الذين فى قلوبهم مرض من ضعاف الإيمان والمنافقين خائفين مشفقين ، ينظرون - إليك - أيها الرسول الكريم - نظر من حضرته أعراض الموت ، وغشيته أماراته فشخص بصره جبنا وهلعا ، وقوله - تعالى - : (فَأَوْلَىٰ لَهُمْ) تهديد ووعيد

---

(١) أى : يلجموه ويكفوه .

بمعنى فأهلكهم الله - تعالى - هلاكاً أقرب لهم من كل شر وهلاك ، أو الكلام على تقدير مبتدأ وأولى خبره ، أى : فأولى لهم الهلاك .

٢١ - (طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ) :

كلام مستأنف ، أى : أمرهم طاعة ، أو طاعة وقول معروف خير لهم ، ويجوز أن يكون حكاية لقولهم ، ويؤيده قراءة أبى : (يقولون طاعة) أى : أمرنا طاعة ، وقولنا معروف (فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ) أى : إذا جدّ الأمر بالقتال وأخذ طريق التنفيذ خالفوا وتخلفوا ، أو ناقضوا ، أو كرهوا ، فلو صدقوا الله فى الحرص على الجهاد ، ورجاء مشروعيته لكان الصدق خيرًا لهم مما صاروا إليه وظهر عليهم ، وقيل : لو صدقو الله فى الإيمان ، وتأكد فى يقينهم ، ويجوز أن يكون جواب «إذا» جملة (فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ) على طريقة قولك : إذا حضرنى طعام فلو جئتنى لأطعمتك .

٢٢ - (فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِى الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ) :

الخطاب للذين فى قلوبهم مرض ، والمعنى : فهل عسيتم إن أعرضتم عن القرآن وفارقتم أحكامه أن تعودوا إلى جاهليتكم الأولى من الإفساد فى الأرض وقتل بعضكم بعضاً ، وتقطيع الأرحام بينكم تناصرًا على الباطل ، وتهالكا على الدنيا ، فإن ضعفكم فى الدين ، والحرص على الدنيا جعلكم حين أمرتم بالجهاد الذى هو السبيل إلى إحراز كل خير وصلاح ، ودفع كل شر وبلاء جعلكم حين أمرتم به تشفقون على أنفسكم ، وتنقضون عهدكم ، ومن كان كذلك لايبعد عنه التولى عن الإيمان والعودة إلى الشرك لكى تفسدوا فى الأرض وتقطعوا أرحامكم ، كعادتكم فى الجاهلية .

ويصح أن يكون المعنى : فهل عسيتم إن توليتم أمور الناس وتأمّرتم عليهم أن تفسدوا فى الأرض ، وترجعوا إلى التناهب والقتل وقطع الأرحام ووأد البنات : كما كنتم فى الجاهلية .

وتخصيص الأرحام بالذكر تأكيد لحقها ، وذم لما يشيع بين كثير من الناس من جفائها ، وتحذير منه ، وقد قال - تعالى - : (وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِى تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ)

٢٣ - (أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰ أَبْصَارَهُمْ) :

الإشارة فى (أُولَٰئِكَ) للمخاطبين فى قوله تعالى : (فَهَلْ عَسَيْتُمْ) بأسلوب الالتفات تحقيراً لشأنهم ، وحكاية لفظائع أحوالهم .

والمعنى : أولئك المذكورون آنفاً لعنهم الله فطردهم من رحمته ، وأبعدهم عن مغفرته فأذهب أسماعهم لتصامّهم عن سماع الحق ، والإذعان له ، وأعمى أبصارهم لتعاميهم عن مشاهدة الآيات الكثيرة الماثلة فى أنفسهم ، وفى الآفاق المنصوبة حولهم ، فعلوا كل ذلك باختيارهم فتركهم الله ولم يُنقذهم ، وأبقاهم فى صممهم عن آيات الحق ، وعماهم عن دلائله .

٢٤ - (أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا) :

أى : أغفل هؤلاء ، وضلوا فلا يتدبرون القرآن ،ولا يراجعون ما فيه من المواعظ والزواجر حتى يُخلصوا فى إيمانهم ، ويمتثلوا أمر الله بالجهاد كما امتثله المؤمنون ، إنهم لم يتدبروا ولم يتفكروا ، بل قلوبهم مقفلة محكمة الغلق بالأقفال والمغاليق ، فلا يكاد يصل إليها ذكر ، ولا يتحرك فيها تأمل أو فكر فتحولوا عن التفكر إلى الطمس والتحجر .

وتنكير القلوب : إما لتهويل حالها بإبهام أمرها فى القساوة والجهالة فهى قلوب منكرة لايُعْرَف مثل حالها ، ولايُقادر قدرها فى الغفلة والجمود ، وإما لأن المراد منها قلوب بعضهم ، فالتنكير للتقليل .

وإضافة الأقفال إلى القلوب للدلالة على أنها أقفال مخصوصة بها مناسبة لحالها من القسوة والفظاظة غير مجانسة لسائر الأقفال المعهودة .

واستدل عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - بالآية على منع بيع الجارية إذا ولدت ، أخرج الحاكم وصححه وابن المنذر عن بريدة قال : كنت جالساً عند عمر إذ سمع صائحاً ، فسأل ، فقيل : جارية من قريش تباع أمها ، فأرسل يدعو المهاجرين والأنصار ، فلم تمض ساعة حتى امتلأت الدار والحجرة ، فحمد الله - تعالى - وأثنى عليه ثم قال : أما بعد :

فهل تعلمون أن كان مما جاء به محمد ﷺ القطيعة ؟ قالوا : لا ، قال : فإنها قد أصبحت فيكم فاشية ، ثم قرأ : (فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوٓا۟ أَرْحَامَكُمْ) ثم قال : وأىُّ قطيعة أقطع من أن تباع أُم امرىء فيكم ؟ قالوا : فاصنع ما بدا لك ، فكتب فى الآفاق : أنْ لَاتباعَ أُمُّ حُرٍّ ، فإنها قطيعة رحم وإنه لايحل .

ويلاحظ أن الجارية تعتق بعد وفاة سيدها من أجل ولدها منه ذكرًا كان أو أنثى ، فلا يحل له بيعها ويحرمها من حريتها المرتقبة .

(إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَى ۙ ٱلشَّيْطَٰنُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ ﴿٢٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لِلَّذِينَ كَرِهُوا۟ مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِى بَعْضِ ٱلْأَمْرِ ۖ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ ﴿٢٦﴾ فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ ﴿٢٧﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱتَّبَعُوا۟ مَآ أَسْخَطَ ٱللَّهَ وَكَرِهُوا۟ رِضْوَٰنَهُۥ فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٢٨﴾ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ ٱللَّهُ أَضْغَٰنَهُمْ ﴿٢٩﴾ وَلَوْ نَشَآءُ لَأَرَيْنَٰكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَٰهُمْ ۚ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِى لَحْنِ ٱلْقَوْلِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَٰلَكُمْ ﴿٣٠﴾)

المفـــردات :

(ٱرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَارِهِم) : رجعوا إلى ما كانوا عليه من الكفر .

(سَوَّلَ لَهُمْ) : سهل لهم وحسّن ،

(وَأَمْلَىٰ لَهُمْ) : أمهلهم ومد فى الأمانى .

(أَسْخَطَ اللَّهَ) : أوجب غضبه وعقابه .

(أَحْبَطَ) : أبطل وأذهب .

(أَضْغَانَهُمْ) : أحقادهم جمع ضغن .

(بِسِيمَاهُمْ) : بعلامتهم المميزة لهم .

(لَحْنِ الْقَوْلِ) : فحواه ومعاريضه من لحنت له ، بمعنى قلت له قولا فهمه عنى وخفى على غيره ، وفيه : لحِن –بالكسر – من باب طرب بمعنى فطن ، ولحنَ – بالفتح – من باب نفع بمعنى أخطأ .

التفسير

٢٥ – (إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ) :

هذه الآيات امتداد للحديث عن مرضى القلوب ضعاف الإيمان ، تكشف دخائلهم ، وتفضح سرائرهم ، وتهددهم بإظهار أمرهم ، وسوء عاقبتهم ، قال الآلوسى : وفى إرشاد العقل السليم : هم المنافقون الذين وصفوا فيما سبق بمرضى القلوب وغيره من قبائح الأحوال فإنهم قد كفروا به – عليه الصلاة والسلام – وقال ابن عباس وغيره : نزلت فى منافقين كانوا قد أسلموا ثم نافقت قلوبهم ، وما قاله ابن عباس لايخالف ما جاء فى إرشاد العقل السليم الذى تقدم ذكره ، فهم جميعاً ارتدوا عن الإسلام ، وهم جميعاً مرضى القلوب الذين سبق وصفهم بقبائح الأعمال ، وقيل : هم اليهود ، وقيل : هم أهل الكتاب جميعاً .

والمعنى : إن الذين رجعوا إلى ماكانوا عليه من الكفر وارتكاب المعاصى ، وإشاعة الفساد من بعد ماتبين لهم الهدى ، واتضح أمامهم السبيل والقصد ، والسلوك السوى بالدلائل الباهرة ، والمعجزات القاطعة القاهرة – إنهم – وقعوا فى حبائل الشيطان الذى سهل لهم سبل الغواية ، ويسر أسباب الكفر ، وأمهلهم فى هذا السبيل ، ومد لهم فيه ما شاء من إضلال وإغواء ، وما شاءوا من قبائح وجوامح أهواء

٢٦ ـ (ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُواْ لِلَّذِينَ كَرِهُواْ مَانَزَّلَ اللهُ سَنُطِيعُكُمْ فِى بَعْضِ الْأَمْرِ وَاللهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ) :

المعنى : ذلك الارتداد إلى الكفر ، والنكسة إلى الجاهلية بسبب أن هؤلاء المرتدين قالوا للذين كرهوا ما نزل الله من القرآن على سيدنا محمد ﷺ حقداً وحسداً مع علمهم أنه من عند الله ، وطمعاً فى إنزاله عليهم ، وهم يهود بنى قريظة والنضير الذين قال لهم المرتدون : سنطيعكم فى بعض الأمر ، أى : فى بعض أموركم وأحوالكم ، وهو ما حكى عنهم فى قوله ـ تعالى ـ : « أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُواْ يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ ، وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا ، وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ ، وَاللهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ »[1] أى : سنطيعكم فى بعض ما تأمرون به كالقعود عن الجهاد ، والموافقة على الخروج معهم إذا خرجوا ، والتناصر مع اليهود ، وغير ذلك مما بيّتوه سرًّا ، ودبّروه خفية ففضحه الله ، والله يعلم إسرارهم وإخفاءهم فيكشفه فى الدنيا ، ويعذبهم عليه فى الآخرة .

٢٧ ـ (فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَآئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ) :

المعنى : هؤلاء المرتدون يفعلون ما يفعلون ، ويحتالون بحيلهم الخسيسة فى الدنيا ، فكيف يكون حالهم ، وأى شىء يفعلون إذا حضرهم الموت ، وغلّلتهم أعراضه وغشيتهم أهواله ، فلم تبق لهم حيلة ، ولم يستطيعوا فكاكاً أو وسيلة ، وتتوفاهم الملائكة على أهول الوجوه وأفظع الحالات ، يضربون وجوههم احتقارًا وأدبارهم امتهاناً واستصغاراً .

وضرب الوجوه والأدبار زيادة فى المهانة والإذلال ، وعن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ : « لا يتوفى أحد على معصية إلا تضرب الملائكة فى وجهه وفى دبره » .

٢٨ ـ (ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُواْ مَآ أَسْخَطَ اللهَ وَكَرِهُواْ رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ) :

ما تزال الآيات تمضى فى أحوال المرتدين وتكشف سلوكهم .

---

(١) سورة الحشر ، الآية : ١١

والمعنى : ذلك الذى يجرى عليهم من المهانة عند الموت من ضرب وجوههم وأدبارهم إذلالا واستهزاء بسبب أنهم اتبعوا ما أسخط الله واستوجب غضبه من الكفر وارتكاب المعاصى وكرهوا ما يرضاه – جلّ شأنه – من الإيمان وعمل الطاعات ، وما يقتضى مغفرته ورضوانه فأحبط الله أعمالهم ، أى : أبطل ثواب الأعمال الطيبة التى عملوها حال إيمانهم .

وفى تعليل ضرب الوجوه والأدبار باتباع ما أسخط الله وكراهة رضوانه ما يشير إلى أن اتباع ما أسخط الله يقتضى التوجه والتحول فيناسبه ضرب الوجه ، وكراهة رضوان الله يقتضى الإعراض والتولى فيناسبه ضرب الأدبار .

٢٩ – ٣٠ – (أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَانَهُمْ وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَاهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ) :

المعنى : بل أحَسِبَ الذين فى قلوبهم مرض ، فأخفوا كفرهم وأسروا ضغنهم وعداوتهم أنه لن يخرج الله أحقادهم فيظلوا مستورين مجهولين لا يفضح الله أحقادهم ، ولا يعلن أضغانهم للرسول ﷺ وللمؤمنين ؟ كلا ، فهو حسبان باطل ، وظن خاطىء ، ولو نشاء إعلامك لأعلمناك بهم ، ولعرفناكهم بدلائل تعرفهم بها بأعيانهم فلعرفتهم بسياهم وبعلاماتهم التى نسمهم بها ، والله لتعرفنّهم فى فحوى القول ومعاريضه ، دون حاجة إلى تعريفك بسياهم والعلامات المميزة لهم ، والله يعلم أسراركم وخفاياكم فيجازيكم – أيها المنافقون – عليها لا يخفى على الله منها شىء .

والالتفات إلى نون العظمة فى قوله – تعالى –: (وَلَوْ نَشَاءُ) لإبراز العناية بالإراءة ، وعن أنس – رضى الله عنه – : « ماخفى على رسول الله ﷺ بعد هذه الآية شىء من المنافقين » .

(وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبْلُوَا۟ أَخْبَارَكُمْ ﴿٣١﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَشَآقُّوا۟ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَىٰ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَسَيُحْبِطُ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٣٢﴾ * يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوٓا۟ أَعْمَٰلَكُمْ ﴿٣٣﴾

المفــردات :

(وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ) : لنختبرنكم .

(شَاقُّوا الرَّسُولَ) : عادوه وعاندوه .

(سَيُحْبِطُ أَعْمَالَهُمْ) : سيبطل أعمالهم ويمحو ثوابها .

التفسير

٣١ - (وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَا أَخْبَارَكُمْ) :

هذه الآية الكريمة بمثابة التذييل الشامل للآيات السابقة التى تناولت طوائف المؤمنين ، والكافرين ، والمنافقين الذين فى قلوبهم مرض ، توضح أن حكمة الله - تعالى - تقتضى أن يعامل خلقه وعبيده معاملة الممتحن لهم ، المختبر لأحوالهم لتنكشف حقائقهم ، ويظهر - واقعاً وعملا - ما يعلمه الله أزلا. فيجرى عليهم جزاؤه على مقدار ما يكون من أحوالهم ومايجنيه عليهم اختيارهم السيئ فى سلوكهم وأعمالهم .

والمعنى : ولنعاملنكم معاملة الممتحن لكم ، المتطلب معرفة أخباركم وأسراركم حتى نعلم من واقع أعمالكم ، ونعرف من ظواهر أحوالكم ، ومشاهد سلوككم فيما فرض عليكم من

التكاليف والأوامر والنواهى ، التى من جملتها الجهاد ، ونعلم الصابرين على مشاقها ، الصادقين فى أدائها ، وتظهر أحوالكم وأخباركم فيترتب على هذا جزاؤكم العادل الذى تشهد به أعمالكم ، وتصدقه جوارحكم ، يوم تشهد عليكم ألسنتكم وأيديكم وأرجلكم بما كنتم تعملون .

٣٢ - (إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَشَاقُّواْ الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَىٰ لَن يَضُرُّواْ اللَّهَ شَيْئاً وَسَيُحْبِطُ أَعْمَالَهُمْ) :

هذه الآية وعيد لمن يكشف الامتحان حقيقة كفره ، ويفضح قبح طويته .

والمعنى : إن الذين كفروا فأنكروا وحدانية الله ، وعارضوا رسالة محمد ﷺ وصدوا الناس عن اتباعه وشاقوه ، وبالغوا فى عداوته وعناده حتى صاروا فى شق غير شقه من بعد ما تبين لهم الهدى فى معجزاته الحاسمة فى صدقه ، القاطعة برسالته ، ومن بعد ما علموا من نعوته ﷺ التى صرحت بها كتبهم ، وتحدثوا بها هم أنفسهم ، إن هؤلاء أيًّا كانوا ومهما كانوا لن يضروا الله بكفرهم ومشاقتهم وعنادهم شيئاً من الأشياء ، أو شيئا من الضرر ، والله بالغ أمره لأنه هو القادر الغالب ، وسيبطل مكايدهم التى نصبوها لإبطال دينه ، ومشاقة رسوله ، ويضيع ثواب ماعسى أن يكونوا عملوه من صالحات فى دنياهم .

٣٣ - (يَآأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوٓاْ أَطِيعُواْ اللَّهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوٓاْ أَعْمَالَكُمْ) :

هذه الآية من جملة ثمرة الابتلاء وغايته ، فكما هددت الآية قبلها الكافرين وأوعدتهم جاءت هذه الآية تنبه المؤمنين إلى مداومة الطاعات والحرص على سلامتها .

والمعنى : يا أيها الذين صدقوا فى إيمانهم وتمحيص عقيدتهم ، وسلكوا مسالك الطاعة ، داوموا على هذه الأعمال الصالحة واحرصوا على سلامتها لتنالوا ثوابها ، فلا تُلْبِسُوها غشًّا ولا نفاقاً ، ولا تخلطوها بعُجْب أو رياء ، ولاتذهبوا بها مذهبا يأكل الحسنات من منٍّ أو أذى.

قيل : إن ناساً من بنى أسد قد أسلموا ، وقالوا لرسول الله ﷺ : قد آثرناك ، وجئناك بنفوسنا وأهلينا . كأنهم يمنُّون ، فنزلت .

(إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا۟ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ﴿٣٤﴾ فَلَا تَهِنُوا۟ وَتَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّلْمِ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ وَٱللَّهُ مَعَكُمْ وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَـٰلَكُمْ ﴿٣٥﴾)

المفــردات :

(فَلَا تَهِنُوا۟) : فلا تضعفوا ولا تزلوا .

(السَّلْم) – بفتح السين وكسرها – : الصلح والمهادنة .

(الْأَعْلَوْنَ) : القاهرون الغالبون .

(وَاللَّهُ مَعَكُمْ) : والله ناصركم ومعينكم .

(وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ) : ولن ينقص أعمالكم ولن يضيعها .

التفسـير

٣٤ –(إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا۟ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ) :

فى الآية السابقة أمر الله – تبارك وتعالى – عباده المؤمنين بطاعته وطاعة رسوله ، ونهاهم عن الارتداد عن الدين ؛ لأن الارتداد مبطل للأعمال فقال : (يَـٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ اللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ الرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوٓا۟ أَعْمَالَكُمْ) وهنا يذكر صفة الكفار ونهايتهم فيقول – سبحانه – : (إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا۟ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ) .

قيل : نزلت هذه الآية فى أهل القليب ، وحكمها عام فى كل من مات على كفره ؛ لأن مدار عدم المغفرة هو الإصرار على الكفر حتى الموت .

والمعنى : إن الذين امتنعوا عن الدخول فى الإسلام وسلوك طريقه والاهتداء بهديه وصدوا الناس عنه ، ومنعوهم من الانضواء تحت لوائه ، ثم ماتوا وهم كفار فلن يغفر الله لهم .

٣٥ - (فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ) :

الخطاب هنا للمؤمنين ، أى : إذا علمتم أن الله - تعالى - مبطل أعمال الكافرين ومعاقبهم وخاذلهم فى الدنيا والآخرة ، فلا تبالوا بهم ولا تظهروا ضعفاً أمامهم وتدعوا إلى المهادنة والمسالمة ووضع القتال بينكم وبينهم ،فأنتم الذين قدر الله لهم النصر والغلبة . قال ابن كثير : أما إذا كان الكفار فيهم قوة وكثرة بالنسبة إلى جميع المسلمين ، ورأى الإمامُ فى المهادنة والمعاهدة مصلحة فله أن يفعل ذلك ، كما فعل رسول الله ﷺ عام الحديبية ، حين صده كفار قريش عن دخول مكة للعمرة ، ودعوه إلى الصلح ووضع الحرب بينهم وبينه عشر سنين فأجابهم ﷺ إلى ذلك ، بل وسمى الله ذلك الصلح فتحاً مبينا ، وقوله - جلت قدرته - : (وَاللَّهُ مَعَكُمْ) بشارة عظيمة بالنصر على الأعداء والظفر بهم ؛ لأن من كان فى معية الله ومصاحبته لايخذل ولايذل ولاينتصر عليه مخلوق .

وقوله - تعالى - : (وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ) أى : ولن يحبط أعمالكم ويبطلها ويسلبكم إياها ، بل يوفيكم ثوابها ولا ينقصكم منها شيئاً .

(إِنَّمَا الْحَيَوٰةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَإِن تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلَا يَسْـَٔلْكُمْ أَمْوَٰلَكُمْ ﴿٣٦﴾ إِن يَسْـَٔلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا وَيُخْرِجْ أَضْغَٰنَكُمْ ﴿٣٧﴾ هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا فِى سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِۦ وَاللَّهُ الْغَنِىُّ وَأَنتُمُ الْفُقَرَآءُ وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا أَمْثَٰلَكُم ﴿٣٨﴾)

المفـــردات :

(فَيُحْفِكُمْ) : فيجهدكم بطلب كل المال ويلحف عليكم فى المسألة .

(أَضْغَانَكُمْ) : أحقادكم الدفينة .

التفسـير

٣٦ - (إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَإِن تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلَا يَسْأَلْكُمْ أَمْوَالَكُمْ) :

أى : ما الحياة الدنيا إلا كاللعب واللهو ، فلا ثبات لها ولا استقرار ، ولا اعتداد بها ، شأنها كذلك إلا ماكان منها لله - عز وجل - وإن تؤمنوا بما أنزل عليكم ، وتتركوا المعاصى والآثام ، وتفعلوا ما أمركم الله به من أنواع البر والخير وقاية لأنفسكم ، يؤتكم ثواب إيمانكم وتقواكم بعمل الباقيات الصالحات التى يتنافس فيها المتنافسون ، ولايطلب منكم التصدق بكل أموالكم ، فهو - سبحانه - يعطيكم كل الأجور على أعمالكم ولا يسألكم إلا بعض المال ، وهو ما شرعه الله - سبحانه وتعالى - من الزكاة وغيرها لمواساة البائسين والتنفيس عن الفقراء والمحتاجين .

وقيل : معنى (وَلَا يَسْأَلْكُمْ أَمْوَالَكُمْ) : لا يسألكم ماهو مالكم حقيقة وإنما يسألكم ماله - عز وجل - فهو المالك الحقيقى لهذه الأموال التى أنعم بها عليكم .

وقيل : (وَلَا يَسْأَلْكُمْ أَمْوَالَكُمْ) أى : ولا يسألكم أموالكم لحاجته إليها بل ليرجع ثواب إنفاقكم إليكم فى يوم أنتم فى أشد الحاجة إلى هذا الثواب .

٣٧ - (إِن يَسْأَلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا وَيُخْرِجْ أَضْغَانَكُمْ) :

أى : إن يسألكم الله أموالكم فيجهدكم بطلب كل الأموال تبخلوا بالأموال وتمتنعوا عن بذلها لمستحقيها ويظهر الله أحقادكم لمزيد حبكم لهذه الأموال ، وحرصكم عليها وكراهيتكم لإنفاقها .

قال ابن كثير : قال قتادة : إن فى طلب إخراج المال إخراج الأضغان . وصدق قتادة ؛ فإن المال محبوب ولايصرف إلا فيما هو أحب إلى الشخص منه .

وذكر الزمخشرى فى تفسير قوله – تعالى – : (وَيُخْرِجْ أَضْغَانَكُمْ) أى : تحقدون على رسول الله وتضيق صدوركم لذلك ، وتظهرون كراهتكم ومقتكم لدين يذهب بأموالكم .

وقال سفيان بن عيينة : أى : لايسألكم كثيرًا من أموالكم ، إنما يسألكم ربع العشر ، فَطَيِّبوا أنفسكم .

٣٨ – (هَٰأَنتُمْ هَٰؤُلَآءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُواْ فِى سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِ ، وَاللَّهُ الْغَنِىُّ وَأَنتُمُ الْفُقَرَآءُ وَإِن تَتَوَلَّوْاْ يَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓاْ أَمْثَالَكُمْ) :

(هَآ أَنتُمْ هَٰؤُلَآءِ) أى : أنتم أيها المخاطبون–هؤلاء الموصوفون بما تضمنه قوله – تعالى – : (إِن يَسْأَلْكُمُوهَا) . . . إلخ . وكررت هاء التنبيه للتأكيد .

(تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُواْ فِى سَبِيلِ اللَّهِ) استئناف مقرر ومؤكد لما قبله لاتحاد معناهما ، فإن دعوتهم للإنفاق معناه سؤال الأموال منهم ، وأنَّ بخل ناس منهم معناه عدم الإعطاء المذكور ، والإنفاق فى سبيل الله الذى دعى المخاطبون إليه هو الإنفاق المطلوب شرعاً مطلقاً ، فيشمل النفقة للعيال والأقارب ، والجهاد فى سبيل الله وإطعام الضيوف والزكاة ، وليس خاصاً بالإنفاق فى الغزو أو بالزكاة كما قيل .

(فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِ) أى : فمنكم ناس يبخلون ويمتنعون عن الإنفاق فى سبيل الله وأوجه الخير ، والذى يبخل عن بذل المال وإنفاقه فى سبيل الله لايضر إلانفسه ؛ لأنه سيحرمها من ثواب البذل ، ثم أخبر – سبحانه – أنه لايأمر بالإنفاق ولا يدعو إليه لحاجته له ، ولكن لحاجتكم أنتم واحتياجكم للثواب فقال : (وَاللَّهُ الْغَنِىُّ وَأَنتُمُ الْفُقَرَآءُ وَإِن تَتَوَلَّوْاْ يَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓاْ أَمْثَالَكُمْ) :

أى : والله – سبحانه – هو الغنى الحقيقى بالذات لا غيره ، ، وأنتم الفقراء بالذات الكاملون فى الفقر ، فما يأمركم به – سبحانه – فهو لخيركم ومصلحتكم لاحتياجكم

إلى ما فيه من المنافع فى الدنيا والآخرة ، فإن امتثلتم فلكم ، وإن تعرضوا عن الإيمان وطاعة الله واتباع شرعه بالإنفاق وغيره من أنواع الخير يخلق مكانكم قوماً آخرين ، وهذا كقوله – تعالى – : « وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ »[1] ثم لا يكون هؤلاء القوم أمثالكم فى التولى عن الإيمان وطاعة الله ، بل يكونون راغبين فيهما ، مطيعين لأوامر الله ، قيل : هم الأنصار ، وقيل : أهل اليمن وقيل : كندة والنخع ، وقيل : الروم ، وقيل : غير ذلك ، والخطاب لقريش أو لأهل المدينة : قولان .

والشرطية غير واقعة ، أى : قوله – تعالى – : (وَإِن تَتَوَلَّوْاْ يَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ) فعن الكلبى : شرط فى الاستبدال توليهم ، لكنهم لم يتولوا فلم يستبدل – سبحانه – قوماً غيرهم . اه : آلوسى بتصرف .

(١) سورة فاطر من الآية ١٦

« سورة الفتح »

(وهى مدنية وآياتها تسع وعشرون)

مناسبتها لما قبلها

قال العلامة الآلوسى : حسن وضعها هنا بعد سورة محمد (القتال) :

١ - لأن الفتح بمعنى النصر رتب على القتال .

٢ - ولأنه ذكر فى كل منهما المؤمنين المخلصين والمنافقين والمشركين .

٣ - ولأنه قد جاء فى السورة الأولى محمد (القتال) الأمر بالاستغفار ، قال -تعالى - : « فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا اللهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ » الآية ١٩ من سورة محمد ، وذكر هنا فى سورة الفتح وقوع المغفرة فى قوله - تعالى - : (لِيَغْفِرَ لَكَ اللهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ) الآية رقم ٢ ، إلى غير ذلك من المناسبات المتعددة .

مقدمة :

جاء فى حديث صحيح أخرجه أحمد وأبو داود وغيرهما ما يدل على أن سورة الفتح نزلت بعد مُنصَرَفه ﷺ من الحديبية ، وأن ذلك عند كراع الغميم (مكان قرب مكة) فقرأها -عليه الصلاة والسلام- وهو على راحلته ، ومثل ذلك يعد مدنياً على المشهور ، وهو أن المدنى ما نزل بعد الهجرة .

ولقد بدئت السورة الكريمة بالبشارة بالفتح المبين ، وبما أفاء الله به على رسوله والمؤمنين من نصر عزيز وتأييد ، وبما أنزله من سكينة فى قلوب المؤمنين ليزدادوا إيماناً مع إيمانهم ، وذكرت جزاء المؤمنين وعذاب المشركين والمنافقين الذين تشككوا فى انتصار الرسول على أعدائه ، ثم تمضى الآيات مبينة أن الله أرسل محمداً للناس شاهداً ومبشراً ونذيراً ، ليتحقق الإيمان بالله ورسوله ، ويعم الخير والحق بين الناس بطاعته وتعظيمه - عز وجل - ومحدثة عن قدر الذين بايعوا الرسول وعاهدوه على نصرته ، والاستشهاد فى سبيل دعوته ، وأنهم بعملهم هذا ومبايعتهم له إنما يبايعون الله ، ويد الله فوق أيديهم بالنصر والتأييد ، فمن نقض منهم العهد بعد ميثاقه فضرر ذلك عليه ، ومن أوفى بالعهد فسيؤتيه الله أجراً عظيماً .

ووضحت الآيات صورة الموقف المخزى للأعراب الذين تخلفوا عن القتال مع رسول الله حينما دعاهم إلى النفير ، وأعذارهم الواهية الكاذبة فى ذلك ، وفضحتهم وكشفت عن نفاقهم وسوء طويتهم ، وأنهم تخلفوا عن القتال لظنهم السىء أن الله لن ينصر نبيه - وذكرت طلبهم الخروج معه بعد ذلك لا حبًّا فى القتال والجهاد ، ولكن حُبًّا للغنائم وابتغاء متاع الحياة الدنيا .

وتناولت الآيات أصحاب الأعذار الذين يباح لهم التخلف عن القتال لعجزهم عن مباشرته وأنهم لا إثم عليهم فى ذلك ، كما بينت السورة الخير العظيم الذى حظى به من رضى الله عنهم فى بيعة الرضوان ، وذكرت منَّة الله فى كف الكافرين عن المؤمنين ، والمؤمنين عن الكافرين يوم فتح مكة بعد أن نصرهم الله وأقدرهم عليهم ، وختمت السورة ببيان أن الله صدق رسوله الرؤيا بالحق ، وكان الرسول قد رأى فى منامه أنه يدخل هو ومن معه من المؤمنين المسجد الحرام آمنين محلقين رءوسهم ومقصرين لايخافون ، وبيان خُلُق محمد وأصحابه : (أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ) وببيان نعتهم وصفتهم فى التوراة والإنجيل، وبذكر ما أعده الله للذين آمنوا وعملوا الصالحات من المغفرة والأجر العظيم .

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

(إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴿١﴾ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٢﴾ وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ﴿٣﴾)

المفـــردات :

(فَتَحْنَا) أصل الفتح : إزالة الإغلاق ، وفتح البلد - كما فى الكشاف - : الظفر به عنوة أوصلحاً بحرب أو بغيرها ؛ لأنه منغلق مالم يُظْفر به ، فإذا ظفر به فقد فتح .

(نَصْرًا عَزِيزًا) : يقل وجود مثله ويصعب مناله .

التفسير

١ - (إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحاً مُّبِيناً) :

المعنى : إنا فتحنا لك يامحمد فتحاً عظيماً بيناً ظاهراً بانتصار الحق وأصحابه وخذلان الباطل وأربابه ، وقال قتادة : معناه : حكمنا وقضينا لك قضاء بيناً على أهل مكة أن تدخلها أنت وأصحابك من قابل لتطوفوا بالبيت الحرام ، يعنى فى عمرة القضاء .

فالفتح على هذا من الفتاحة : وهى الحكومة .

وقوله - تعالى - : (إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحاً مُّبِيناً) هو إخبار عن صلح الحديبية عند الجمهور سنة ست من الهجرة وروى ذلك عن ابن عباس وأنس ، قال ابن عطية : وهو الصحيح . وقال الزهرى : لم يكن فتح أعظم من صلح الحديبية ، اختلط المشركون بالمسلمين وسمعوا كلامهم ، وتمكن الإسلام من قلوبهم ، وأسلم فى ثلاث سنين خلق كثير ، وكثر ، بهم سواد الإسلام قال القرطبى : فما مضت تلك السنون إلا والمسلمون قد جاءوا إلى مكة فى عشرة آلاف ففتحوها .

وقد خفى كون مافى الحديبية - فتحاً على بعض الصحابة حتى بيّنه - عليه الصلاة والسلام -

أخرج البيهقى عن عروة قال : أقبل رسول الله - صلى ﷺ من الحديبية راجعاً فقال رجل من أصحاب رسول الله : والله ماهذا بفتح ؛ لقد صُدِدْنا عن البيت وصُدَّ هدينا ، وعكف رسول الله بالحديبية ، ورَدَّ رجلين من المسلمين خرجا ، فبلغ رسول الله ﷺ ذلك - فقال : « بئس الكلام هذا ، بل هو أعظم الفتح ، لقد رضى المشركون أن يدفعوكم بالراح عن بلادهم ويسألونكم القضية ، ويرغبون إليكم فى الأمان ، وقد كرهوا منكم ماكرهوا ، وقد أظفركم الله عليهم ، وردكم سالمين غانمين مأجورين فهذا أعظم الفتح ، أنسيتم يوم أُحُد ؟ إذ تصعدون ولا تلوون على أحد وأنا أدعوكم فى أخراكم ؛ أنسيتم يوم الأحزاب ؟ إذجاءوكم من فوقكم ومن أسفل منكم ، وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر وتظنون بالله الظنونا » ؟ قال المسلمون : صدق الله ورسوله ، هو أعظم الفتوح ، والله يانبى الله ما فكرنا

فيما ذكرت ولأنت أعلم بالله وبالأمور منا . وذهب جماعة إلى أن المراد بالفتح الوارد فى السورة فتح مكة وهو - كما فى زاد المعاد - .الفتح الأعظم الّذى أعزّ الله به دينه ، واستنقذ به بلده وطهّر حرمه ، واستبشر به أهل السماء ، ودخل الناس بعده فى دين الله أفواجاً ، وأشرق وجه الأرض به ضياءً وابتهاجاً .

وعلى هذا الرأى فى مجىء المستقبل بصيغة الماضى فى قوله - تعالى - : (إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحاً مُّبِيناً) تنزيله منزلة المحقق ، وفيه من الفخامة والدّلالة على علوّ شأن المخبِر مالايخفى - كما فى الكشّاف - وذلك - على ما قيل - لأنه يدلّ على أنّ الأزمنة كلّها عند الله على السّواء وأنّ مُنْتَظَره كمُحَقَّقِ غيره ، وأنّه - سبحانه - إذا أراد أمرًا تحقّق لامحالة ، وأنّه - لجلالة شأنه - إذا أخبر عن حادث فهو كالكائن لما عنده من الأسباب القريبة والبعيدة .

ولم يُذْكر المفعولُ للقصد إلى نفس الفعل والإيذان بأنّ مناط التبشير نفس الفتح الصادر عنه - سبحانه - لاخصوصية المفتوح ، وذكر لفظ (لَكَ) فى الآية لبيان مقام الرسول الرّفيع عند الله - عزّ وجلّ - .

٢ - ٣ - (لِيَغْفِرَ لَكَ اللهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطاً مُّسْتَقِيماً * وَيَنصُرَكَ اللهُ نَصْرًا عَزِيزًا) :

(لِيَغْفِرَ لَكَ اللهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ) أى : ليغفر لك الله ما تقدم وما تأخر مما يعد ذنبا لمثلك ، فهو من قبيل : حسنات الأبرار سيئات المُقَرَّبين . أو ليغفر لك ماهو ذنب فى نظرك ، وإنْ لم يكن ذنباً ولاخلاف الأولى عنده - تعالى - كما ترشد إلى ذلك الإضافة فى لفظة (ذَنبِكَ) وقد صح أنه ﷺ لما نزلت صام وصلى حتى انتفخت قدماه ، فقيل له : أتفعل هذا بنفسك وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ، فقال : « أفلا أكون عبداً شكورًا » (وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ) أى : ويكمّل نعمته عليك بإعلاء الدين وانتشاره فى البلاد ، وغير ذلك مما أفاضه الله - تعالى - عليه من النعم الدّينيّة والدّنيوية بعد الفتح

(وَيَهْدِيَكَ صِرَاطاً مُّسْتَقِيماً) أى : ويرشدك إلى الطّريق المستقيم فى تبليغ الرّسالة وإقامة الحدود وبما يُشَرِّعه الله لك من الشّرع العظيم والدِّين القويم .

وهذا وإن كان حاصلا قبل الفتح لكن حصل بعد ذلك من اتّضاح سُبُل الحقّ واستقامة مناهجه مالم يكن حاصلا من قبل .

(وَيَنصُرَكَ اللهُ نَصْراً عَزِيزاً) أى : وينصرك الله على أعداء الرّساله والكافرين بالدّعوة والمحاربين لها نصراً يعز وجود مثله ويصعب مناله ويرفع به قدرك وذلك بسبب تواضعك وشدة خضوعك لأمر الله – عزّ وجلّ – كما جاء فى الحديث الصّحيح : «ما زاد الله عبدا بعَفْو إلا عزّاً ، وما تواضع أحد لله – عزّ وجلّ – إلا رفعه الله » قال الآلوسى : وفى الكشّاف : لم يجعل الفتح علّة للمغفرة ، لكن لاجتماع ماعدّد من الأمور الأربعة وهى :

١ – المغفرة .

٢ – وإتمام النّعمة .

٣ – وهداية الصّراط المستقيم .

٤ – والنّصر العزيز كأنه قيل : يسّرنا لك فتح مكّة ونصرناك على عدوّك لنجمع لك بين عزّ الدارين وأغراض العاجل والآجل .

وحاصله أن الفتح علة لمجموع المتعاطفات ، لا لكل واحدة منها على حدة .

وقال الصّدر : أظهر الاسم الجليل فى الصّدر فى قوله – تعالى – : (لِيَغْفِرَ لَكَ اللهُ) وهنا فى قوله :(وَيَنصُرَكَ اللهُ)؛ لأن المغفرة تتعلّق بالآخرة والنّصر يتعلّق بالدّنيا فكأنّه أشير بإسناد المغفرة والنّصر إلى صريح اسمه – تعالى – إلى أن الله – عزّ وجلّ – هو الّذى يتولّى أمرك فى الدّنيا والآخرة ، وقال الإمام : أظهرت الجلالة فى قوله : (وَيَنصُرَكَ اللهُ) إشارة إلى أن النّصر لايكون إلا من عند الله ، كما قال – تعالى – : « وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندَ اللهِ »[1] .

---

(١) سورة آل عمران من الآية : ١٢٦

(هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ ۗ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٤﴾ لِّيُدْخِلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عِندَ ٱللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٥﴾ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ ۚ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ ۖ وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٦﴾ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿٧﴾)

المفـــردات :

(السَّكِينَةَ) : الطمأنينة والثبات والسُّكون .

(ظَنَّ السَّوْءِ) : ظنَّ الأمر الفاسد المذموم ، وهو أنَّ اللهَ لاينصر نبيَّه والمؤمنين .

(عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ السَّوْءِ) : دعاء عليهم بالهلاك والدَّمار الَّذِى يتربَّصونه بالمؤمنين .

التفسير

٤ ـ (هُوَ الَّذِىٓ أَنزَلَ السَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَاناً مَّعَ إِيمَانِهِمْ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللهُ عَلِيمًا حَكِيماً) :

بيان لما أنعم الله به عليهم من مبادىء الفتح ، أى : هو وحده ـ سبحانه ـ الَّذِى أنزل

الطمأنينة فى قلوب المؤمنين بسبب الصلح والأمن ؛ ليعرفوا فضل الله عليهم بتيسير الأمن بعد الخوف والهدنة بدل القتال ، ليزدادوا إيماناً مع إيمانهم ويقيناً مع يقينهم برسوخ العقيدة واطمئنان النفس عليها .

أو : هو الَّذِى أنزل فى قلوب المؤمنين السُّكون والاطمئنان إلى ما جاء به الرّسول من الشرائع ليزدادوا إيماناً مع إيمانهم بالله واليوم الآخر ، والرأى الأول أظهر .

وبهذه الآية الكريمة وبنصوص كثيرة أخرى ، ومنها ما رُوى عن ابن عمر – رضى الله عنهما – : قلنا : يا رسول الله ، إنَّ الإيمان يزيد وينقص ؟ قال : « نعم ، يزيد حتى يدخل صاحبه الجنة ، وينقص حتى يدخل صاحبه النار » أقول : بهذا وبأمثاله استدل جمهور الأشاعرة والفقهاء والمحدثين والمعتزلة على أنَّ الإيمان يزيد وينقص ، ونقل ذلك عن الشافعى ومالك ، وقال البُخارىّ : لقيت أكثر من ألف رجل من العلماء بالأمصار فما رأيت واحداً منهم يختلف فى أنَّ الإيمان قول وعمل ويزيد وينقص .

وهذه قولة حقٍّ ، وإلَّا لكان إيمان آحاد الأمة المنهمكين فى الفسق والمعاصى مساوياً لإيمان الأنبياء والصديقين .

وقال جماعة من العلماء أعظمهم الإمام أبو حنيفة وتبعه صحبه وكثير من المُتكلمين : الإيمان لا يزيد ولا ينقص ، واحتجوا بأنه اسم للتصديق البالغ حدّ الْجزْم والإذعان وهذا لا يُتصَور فيه زيادة ولا نقصان ، واختار هذا الرَّأى إمام الحرمين ، وفى هذا الموضوع كلام كثير ذكره العلامة الآلوسى وغيره فليرجع إليه فى الموسوعات من أراد التوسّع فى هذا المقام .

ثم ذكر سبحانه – أنّه لو شاء لانتقم من الكافرين فقال : (وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيماً حَكِيماً) أى : ولله جنود السّموات والأرض يُدَبِّر أمرها كيفما يريد ، فيُسَلِّط بعضها على بعض تارة ، ويجعل السّلم بينها تارة أخرى حسبما تقتضيه مشيئته ، ومن ذلك ما وقع فى الحديبية ، ولو أرسل على الكفّار ملكا واحدا لأباد خضراءهم ولكنّه – سبحانه – شرع لعباده المؤمنين الجهاد والقتال ليثيبهم عليه ، وكان اللهُ

ولا يزال - مُحيطا علمه بجميع الأُمور ، ذا حكمة بالغة يضع الشّىء فى موضعه اللاّئق على مقتضى حكمته .

٥- (لِيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّاتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَكَانَ ذَٰلِكَ عِندَ اللهِ فَوْزًا عَظِيماً) :

أخرج ابن جرير وجماعة عن أنس قال : أُنزلت على النبىّ ﷺ : (لِيَغْفِرَ لَكَ اللهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ) فى مرجعه من الحديبية ، فقال : « لقد أُنزلت علىّ آية هى أحبّ إلىّ مما على الأرض » ثم قرأها عليهم ، فقالوا : هنيئاً مريئًا يا رسول الله ، قد بيّن اللهُ - تعالى - ذلك ماذا يفعل بك ، فماذا يفعل بنا ؟ فنزلت (لِيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ . . . .) حتى ، بلغ (فَوْزًا عَظِيماً) آلوسى .

وهذه الآية وما بعدها علّة لما دلّ عليه قوله - تعالى - :(وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ) من التصرف والتدبير أى : دبّر - سبحانه وتعالى - ما دبّر من تسليط المؤمنين ونصرهم على الكافرين ؛ ليعرفوا نعمة الله فى ذلك ويشكروها ، فيدخلهم ربّهم جنّات تجرى من تحتها الأنهار دائمين فيها باقين أبدا ، ويمحو عنهم سيّئاتهم ولا يؤاخذ عليها بل يعفو ويرحم ويصفح ويغفر ، وكان ذلك الجزاء عند الله فوزا بالغ العظم ؛ لأنه منتهى ما تصبو إليه النّفوس ، وتهوى الأفئدة .

وذكر المؤمنات فى الآية بعد المؤمنين دفعا لتوهم اختصاص الحكم بالذكور ؛ لأن الجهاد والفتح على أيديهم ، وهكذا فى كل موضع يوهم الاختصاص يصرّح بذكر النّساء .

وتقديم الإدخال فى الذّكر على التّكفير - مع أنّ التّرتيب فى الوجود على العكس للمسارعة إلى بيان ما هو المطلوب الأعلى ، قال الآلوسى : ويجوز عندى أن يكون التّكفير فى الجنّة ، على أنّ المعنى : يُدخلهم الجنّة ويُغطى سيّئاتهم ويسترها عنهم فلا تمرّ لهم ببال ولا يذكرونها أصلا ؛ لئلا يخجلوا فيتكدر صفو عيشهم .

٦ـ (وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا) :

قوله ـ تعالى ـ :(وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ) عطف على قوله ـ تعالى ـ :(لِيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ) أى : فعل الله ما فعل ودبرما دبر ليُدخل المؤمنين والمؤمنات جنّات تجرى من تحتها الأنهار ، ويُعذِّب المَنافقين الّذين يُظهرون خلاف ما يُبطنون والمنافقات ، والمشركين مع الله غيره والمشركات الظانين بالله ظنّا سَيِّئاً ، وهو أنَّه ـ سبحانه ـ لن ينصر رسوله والمؤمنين ، وكذلك سائر ظنونهم الفاسدة من الشّرك وغيره ـ عليهم وحدهم دائرة السّوء والهلاك والدّمار ، وما يظنّون ويتربّصونه بالمؤمنين فهو حائق بهم ودائر عليهم لا يفلتون منه ، وسَخِط الله عليهم وطردهم من رحمته وأبعدهم عن نعيمه وجَنته ، وأعدّ لعذابهم جهنّم وساءت جهنّم نهاية ، وقبُحت مرجعاً ومآلا لهم .

٧ـ (وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيماً) :

أى : ولله جُنود السّموات والأرض يدبِّر أمرها بقدرته وحكمته وبأْسه وسطوته وكان اللهُ غالبا على كلّ شىء ، ذا حكمة بالغة فى تدبير كُلِّ شأْن .

وقوله ـ تعالى ـ : (وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ) ذكرت هذه الآية سابقا ، على أنَّ المراد أنَّه ـ عزَّ وجلّ ـ المدبِّر لأمر المخلوقات بمقتضى حكمته ، فلذلك ختمت الآية السابقة بقوله ـ تعالى ـ : (وَكَانَ اللَّهُ عَلِيماً حَكِيماً) .

وأُعيد ذكرها هنا للتّهديد بأنّهم فى قبضة الله المنتقم ، ولذلك ختمت الآية بقوله ـ تعالى ـ : (وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيماً) فلا تكرار كما قال الشِّهاب .

(إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٨﴾ لِّتُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٠﴾)

المفـــردات :

(وَتُعَزِّرُوهُ) : وتنصروه .

(وَتُوَقِّرُوهُ) : وتُعظِّموه وتُبجِّلوه .

(وَتُسَبِّحُوهُ) : وتُنزِّهوه ، وتُصَلّوا له .

(بُكْرَةً وَأَصِيلاً) : غدوة وعشيًّا .

(يُبَايِعُونَكَ [1]) يعاهدونك على الجهاد والانتصار لدعوتك وذلك فى بيعة الرِّضوان بالحُدَيبية .

(إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللهَ) أى : إنّما يعاهدون اللهَ ؛ لأنَّ المقصود من البيعة إطاعة الله وامتثال أمره .

(يَدُ اللهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ) أى : قدرته وقوته فوق قدرتهم وقوّتهم .

---

(١) (يبايعونك) مفاعلة من البيع ، يقال : بايع فلان السلطان مبايعة إذا ضمن بذل الطاعة له ، وكثيرا ما تطلق على البيعة المعروفة للسلاطين ونحوهم .

(فَمَن نَّكَثَ) : فمن نقض العهد والبيعة .

(فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِ) أى : فإنه يضر نفسه ويوردها موارد الهلكة ، فلا يعود وبال نقضه وضرر نكثه إلا عليه .

التفسير

٨ - (إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً) :

هذا توضيح وبيان لما بعث من أجله الرّسول ﷺ والمعنى : إنّا أرسلناك يا محمد شاهدا على أمتك لقوله - تعالى - : « وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا »[١] وعن قتادة : شاهدا على أمّتك وشاهدا على الأمم التى قبلك، وعلى الأنبياء الذين سبقوك بأنهم قد بلّغوا، ومبشرا المتّقين بحسن الثّواب على الطّاعة ، ونذيرا للعصاة بالعذاب على المعصية .

٩ - (لِتُؤْمِنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً) :

الخطاب للنبى ﷺ ولأمته كقوله - تعالى - : « يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ »[٢] .

فيفيد أنّ النّبى مخاطب بالإيمان برسالته كالأمة ، وقال الواحدى : الخطاب فى (لِتُؤْمِنُوا) وما بعدها للأمة .

والمعنى : أرسلناك يا محمد شاهدا ومبشرا ونذيرا ، لكى تؤمنوا ياأمته بالله ورسوله وتنصروا الله بنصر دينه وتعظموه - سبحانه - وتنزّهوه عما لا يليق به أولَ النهار وآخره .

وقيل : البكرة والأصيل جميع النهار ، ويكنى بالتعبير عن جميع الشىء بطرفيه .

وقال ابن عباس : المراد بهما صلوات الفجر والظهر والعصر .

١٠ - (إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللهَ يَدُ اللهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَىٰ[٣] بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْراً عَظِيماً) :

المعنى : إنّ الذين يعاهدونك يا محمد يوم الحُديبية على الجهاد فى سبيل نُصرتك

---

(١) سورة البقرة من الآية : ١٤٣ (٢) سورة الطلاق من الآية : الأولى

(٣) يقال : وفى بالعهد وأوفى به إذا تممه . وأوفى : لغة تهامة ومنه قوله تعالى : (أوفوا بالعقود) اهـ . كشاف .

إنّما يُعاهدون اللهَ ؛ لأَنّ المقصود من بيعة الرّسول وإطاعته : إطاعة الله – تعالى – وامتثال أوامره لقوله – تعالى – : « مَن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللهَ »[1] .

(يَدُ اللهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ) : استئناف مُؤَكِّد لما قبله ، والمراد بيد الله : قدرته ونصره ، أى : قدرة الله معك وتأْييده فوق قدرتهم وتأْييدهم ، فَثِق بنصرة الله – تعالى – قبل نصرتهم وإن صدقوا فى مبايعتك . والسّلف يأْخذون بظاهر الآية كما جاءت مع تنزيه الله – تعالى – عن الجوارح وصفات الأَجسام ، وكذلك يفعلون فى جميع المُتَشابهات يقولون : إنّ معرفة حقيقة ذلك فرع معرفة حقيقة الذّات ، وأنّى ذلك وهيهات هيهات ! !

(فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِ) أى : فَمَن نقض عهدك بعد ميثاقه ورجع فى بيعته بعد تأْكيدها وتوثيقها فلا يرجع وبال نقضه إلّا على نفسه ، ولا يعود ضرر نكثه إلّا عليه (وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيماً) أى : ومن أوفى بالعهد الذى عاهد عليه الله بإتمام بيعتك وألزم نفسه تحقيقها والقيام بأَعبائها فسيُعطيه الله ثواباً بالغ العظم وهو الجنّة وما يكون فيها ممّا لا عين رأت ولا أُذن سمعت ، ولاخطر على قلب بشر .

من حديث البيعة : بعث الرسول – عليه الصلاة والسلام – عثمان بن عفان – رضى الله عنه – إلى أشراف قريش بمكّة يخبرهم أنّه لم يأْت لحرب وإنما جاء زائرا للبيت الحرام ومُعظِّما له ، واحتبسته قريش عندها ، وبلغ الرّسول أنّ عثمان قد قُتِل فقال رسول الله : (لا نبرح حتى نُنَاجز القوم) ودعا النّاس إلى البيعة فكانت بيعة الرّضوان تحت الشّجرة على الموت فى سبيل الله ، أو على ألّا يفرّوا من قريش ، فبايع النّاس ولم يتخلف أحدٌ من الحاضرين إلا الْجدّ بن قيس أحد بنى سلمة ، فكان جابرٌ يقول : لكأنّى أنظر إليه لاَصِقاً بإبْطِ ناقته قد صبأ إليها يستتر بها من النّاس ، وضرب الرسول بإحدى يديه على الأُخرى مُبَايِعا عن عثمان ، وقال : « اللّهم إنّ عثمان فى حاجة الله – تعالى – وحاجة رسوله » ثم أتى رسول الله أنّ الذى كان من أَمر عثمان باطل . ا هـ : ملخصا بتصرف عن محمد بن إسحاق فى السير وذكره ابن كثير .

---

(١) سورة النساء من الآية : ٨٠

(سَيَقُولُ لَكَ ٱلْمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَآ أَمْوَٰلُنَا وَأَهْلُونَا فَٱسْتَغْفِرْ لَنَا ۚ يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ ۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًۢا ۚ بَلْ كَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًۢا ﴿١١﴾ بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِى قُلُوبِكُمْ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًۢا بُورًا ﴿١٢﴾ وَمَن لَّمْ يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ فَإِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَعِيرًا ﴿١٣﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٤﴾)

المفـــردات :

(الْمُخَلَّفُونَ)[1] قال الطَّبرىّ : المُخلَّفون هم الذين تَخلَّفوا فى أَهليهم عن صحبة رسول الله يوم الحديبية ، جمعُ مُخلَّف .

(الْأَعْرَابِ) فى المشهور : سكّان البادية من العرب لا واحد له .

(فَمَن يَمْلِكُ لَكُم) : استفهام بمعنى النفى أى : لا أحد يملك لكم .

(وَظَنَنتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ) : وهو ظنّهم أن لن ينقلب الرَّسول والمؤمنون إلى أَهليهم أَبدا بل يقتلون .

(١) (المخلفون) جمع مخلف : وهو المتروك فى المكان خلف الخارجين من البلد مأخوذ من الخلف ، وضده المقدم .

(بُورًا)[١] ؛ هالكين لفساد عقيدتكم .

(سَعِيرًا) : نارًا موقدة ملتهبة ، ونكّرت للتّهويل أو التنويع .

التفسير

١١ـ (سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَآ أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ اللهِ شَيْئاً إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعاً بَلْ كَانَ اللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا) :

أى : سيقول لك من خلّفهم النِّفاق من أهل البَادية وهم قبائل جُهينة ومُزينة وغِفار وغيرهم ، اسْتنفَرهم رسول الله ﷺ حين أراد المسير إلى مكّة عام الحديبية ليخرجوا معه حذرا من قريش أن يعرضوا له بحرب أو يصدّوه عن البيت ، وأحرم رسول الله ﷺ وساق معه الهدى ليعلم أنّه لا يُريد حربا ، ورأى أُولئك الأعراب أنّه ـ عليه السلام ـ يستقبل عدوًّا قويًّا من قريش وثقيف وكنانة والقبائل المجاورة لمكة وهم الأَحابيش ، ولم يكن الإيمان لدى الأَعراب قد تمكّن فى قلوبهم ، فقعدوا عن الخروج مع النبى ﷺ وتَخلفوا عن الجهاد معه ، ، وقالوا : نذهب إلى قوم قد غزوه فى عقر داره بالمدينة وقتلوا أصحابه فنقاتلهم ؟ وقالوا : لن يرجع مُحمّد ولا أصحابه إلى المدينة من هذه السفرة ففضَحهُم الله فى هذه الآية وأعلم رسوله بقولهم واعتذارهم قبل أن يصلوا إليه ، وحين جاءُوا مُعْتَذرين إليه قائلين :

شغلتنا أَموالنا وأَهلونا عن الذّهاب معك ، إذ لم يكن لنا من يقوم بحفظها ويحميها من الضّياع ، فاستغفر لنا الله ليغفر لنا تخلُّفَنا عنك ، حيث لم يكن عن تكاسل وتباطؤ فى طاعتك ، فأَنزل الله تكذيبا لهم فى اعتذارهم بما سبق : (يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّالَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ) أى : إنَّ كلامهم من طرف اللِّسان غيرُ مطابق لما فى الجَنَان ، ثُمَّ أمر ـ سبحانه وتعالى ـ رسوله أن يردّ عليهم عند اعتذارهم بتلك الأَباطيل فقال :

---

(١) بورا : مصدر كالهلك ، أو جمع بائر كباذل وبذل ، وعائذ وعوذ .

(قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ اللهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا) أى : لايقدر أحد أن يردّ ما أراده الله فيكم ويدفع عنكُم قضاءه إن أراد بكم مايضركم أو أراد بكم ماينفعكم ، وليس الشُّغل بالأهل والمال عذرا ، فلا ذاك يدفع الضّرر إن أراده -عزّ وجلّ- ولا محاربة العدوّ تمنع النّفع إن أراد بكم نفعا ، ثم أعقب ذلك بما يتضمن تهديدا لهم فقال :(بَلْ كَانَ اللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا) أى : بل كان الله بكل ماتعملون محيطا ، فيعلم - سبحانه - سرّ تخلّفكم وقصدكم فيه ، ويجازيكم عليه يوم القيامة ، ثم هتك الله سترهم وبين مكنون ضمائرهم بقوله :

١٢ - (بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًا بُورًا) :

والمعنى : لم يكن الأمر كما تقولون ، بل ظننتم أن لن يرجع الرّسول والمؤمنون من ذلك السّفر إلى عشائرهم وذوى قرباهم أبدا ، فلم يكن تخلّفكم تخلّف مَعْذور ولا مَقْهور بل تخلّف نِفاق ؛ لأنّكم اعتقدتم أنّ الرّسول ومن معه من المؤمنين سيُقتلون وتُسْتَأْصل شَأْفَتهم ، وتُبَادُ خَضْرَاؤُهم ولايرجع منهم أحد ، فتخلّفتم لذلك ، وحسّن لكم الشيطان والنّفاق ذلك الظّن الخبيث فى قلوبكم ، حتى تمكّن منكمْ وحملكم على مافعلتم ، فاشتغلتم بشأن أنفسكم ومصلحة ذواتكم غير مبالين بالرّسول ﷺ وبالمؤمنين . (وَظَنَنتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ) وهو ظنهم ألاّ يرجع الرسول والمؤمنون إلى أهليهم أبدا وأعيد لفظ (ظَنَنتُمْ) لتشديد التوبيخ والتسجيل عليهم بالسّوء ، أو هو عام فيشمل ذلك الظنّ وسائر ظنونهم الفاسدة الّتى من جملتها الظّن بعدم رسالته ﷺ فإن الجازم بصحّتها لايحوم فكره حول ماذُكِر من الاسْتِئْصَال للرّسول وأصحابه ، وكنتم فى علم الله الأزلىّ قوماً هالكين ، لفساد عقيدتكم وسوء نيّتكم ، أو فاسدين فى أنفسكم وقلوبكم ونياتكم ولاخير فيكم .

١٣ - (وَمَن لَّمْ يُؤْمِن بِاللهِ وَرَسُولِهِ فَإِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَعِيرًا) :

هذا كلام مبتدأ من جهته - عزّ وَجَلّ - غير داخل فى الكلام السابق ، مُقرِّر لبوارهم وهلاكهم ، ومبين لكيفيته ، أى : ومن لم يُصدّق بالله ورسوله كهؤلاء المخلّفين فإنّا أعددنا

للكافرين نارا مسعورة موقدة ملتهبة ، وكان الظَّاهر أن يقال : فإنَّا أعددنا لهم ، فعدل عن ذلك إلى الظاهر وهو لفظ (الكافرين) إيذانا بأنَّ من لم يجمع بين الإيمان بالله — سبحانه — والإيمان برسوله ﷺ فهو كافر مستحق للسّعير بكفره .

١٤ — (وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَّحِيماً) :

أى : ولله — وحده — ملك السّموات والأرض يدبّره تدبير قادر حكيم ، وهو — جلّ شأنه — المتصرّف فى الجميع كما يشاء ، — له هذا الملك — يغفر لمن يشاء المغفرة له ويعذّب من يشاء أن يُعَذِّبه ، من غير دخل لأحد فى شئ من غفرانه أو تعذيبه ، وكان الله — ولايزال — عظيم المغفرة لمن يشاء ، ولايشاء — سبحانه — المغفرة إلا لمن تقتضى الحكمة المغفرة له ممن يؤمن بالله وبرسوله ، وأما من عدا ذلك من الكافرين المُجَاهرين والمنافقين فهم بمعزل عن ذلك ، وفى تقديم المغفرة وختم الآية بكونه (غَفُوراً رَّحِيماً) بصيغة المبالغة فيهما فيه من واسع غفرانه وعظيم رحمته مافيه ، وفى الحديث : « كتب ربكم على نفسه بيده قبل أن يخلق الخلق : رحمتى سبقت غضبى » أى : قضى بذلك وأوجبه على نفسه ، والآية كما قال أبو حيّان لبعث الرجاء فى قلوب المنافقين إذا آمنوا حقيقة ، وقيل : لقطع أطماعهم الفارغة فى طلب استغفاره — عليه السّلام — لهم .

(سَيَقُولُ ٱلْمُخَلَّفُونَ إِذَا ٱنطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا۟ كَلَٰمَ ٱللَّهِ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبْلُ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا بَلْ كَانُوا۟ لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥﴾)

المفـــردات :

(ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ) : اتركونا نخرج معكم لخيبر .

(كَلَامَ اللهِ) : حكمه القاضى باختصاص أهل الحديبية بمغانم خيبر .

التفسير

١٥- (سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللهِ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ اللهُ مِن قَبْلُ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا بَلْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا) :

المراد من المغانم هنا مغانم خيبر التى انطلقوا إليها بعد الحديبية كما عليه عامّة المُفسِّرين وأيِّد بأن السِّين تدلّ على القرب ، وخيبر أقرب المغانم التى انطلقوا إليها من الحديبية فإرادتها كالمتعينة ؛ وقد جاء فى الأخبار الصحيحة أن الله وعد أهل الحُديبية أن يُعَوِّضهم من مغانم مكة مغانم خيبر إذا قفلوا مُوَادِعين لايُصيبون شيئا ، وخصّ - سبحانه - ذلك بهم .

والمعنى : سيقول الأعراب الذين تخلفوا عن رسول الله ﷺ فى عمرة الحديبية : إذا ذهبتم إلى مغانم لتأخذوها (ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ) : دعونا واتركونا نخرج معكم إلى خيبر

ونشهد معكم قتال أهلها ، وذلك لطمعهم فى عرض الدنيا لِمَا يرون من ضعف العدوّ ، ويتحققون النصر عليه ، يريدون بذلك تغيير كلام الله ووعده وحكمه وقضائه باختصاص أهل الحُديبية بمغانم خيبر ، قل لهم يامحمّد : لن تتبعونا ، والمراد نهيهم عن الاتباع الذى أرادوه من قولهم : (ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ) وهو الانطلاق معهم إلى خيبر .

(كَذَٰلِكُمْ قَالَ اللَّهُ مِن قَبْلُ) أى : مثل ذلك الحكم بعدم اتباعكم لهم - حكم الله - من قبل ذلك بتلك الغنائم لمن خرج إلى الغزو مع رسوله فى عمرة الحديبية (فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا) أى : فسيقول المُخلفون للمؤمنين عند سماع هذا النهى : لم يأمركم الله بذلك بل تحسدوننا أن نُشارككم فى هذه الغنائم .

(بَلْ كَانُواْ لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلاً) أى : ليس الأمر كما زعموا بل كانوا لايفهمون إلَّا فهما قليلا ، وهو فهمهم لبعض أمور الدُّنيا ، وهو ردّ لقولهم الباطل فى المؤمنين ؛ ووصف لهم بما هو شر من الحسد وهو الجهل المفرط وسوء الفهم فى أُمور الدين .

(قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ ۖ فَإِن تُطِيعُوا يُؤْتِكُمُ اللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا ۖ وَإِن تَتَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (١٦) لَّيْسَ عَلَى الْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ ۗ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ۖ وَمَن يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا (١٧))

المفردات :

(أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ) : أصحاب شدّة وقوّة فى الحرب.

(فَإِن تُطِيعُوا) أى : تستجيبوا وتنفروا للجهاد .

(حَرَجٌ) : إثم فى التخلف عن الجهاد وقتال الكفار .

التفسير

١٦- (قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ فَإِن تُطِيعُوا يُؤْتِكُمُ اللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا وَإِن تَتَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا) :

المعنى : قل للمُتخلِّفين من أهل البادية الذين دُعُوا للخروج مع رسول الله زمن الحُديبية فتقاعسوا – قل لهم – : سَتُدْعَوْن إلى قتال قوم ذوى شدّة وبأس وقوّة فى الحرب ، شُرِع لكم جهادهم ، وقتالهم ، ولكم النُّصرة عليهم أو يُسْلمون فيدخلون

فى دينكم بلا قتال بل باختيارهم ، فإن تستجيبوا لهـذه الدّعوة وتلبّوا أمر الله وداعى الجهاد يعظم الله لكم الأجر فى الدّنيا بالغنيمة ، وحسن الأُحدوثة والذّكر ، وفى الآخرة بالجنَّة ، وإن تُعْرِضُوا عن الجهاد وتُصِمّوا آذانكم عن داعى الله كما أعرضتم من قبل عن الخروج إلى الحديبية يعذبكم الله عذابا أليما فى الدنيا والآخرة لتضاعف جُرمكم . وهنا أمور :

١ – قال – تعالى – : (قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ) كررّ ذكرهم بهذا العنوان مبالغة فى ذمّهم وإشعارا بقُبْح التخلف وشناعة القُعود عن الجهاد فى سبيل الله ونصرة دينه.

٢ – اختلف المُفسِّرون فى هؤُلاءِ القوم الذين سيُدْعَوْن إلى قتالهم وهم أُولوا بأس شديد على أقوال : فرجّح الزّمخشرىّ والآلوسىّ : أنَّ المراد بهم بنو حنيفة قوم مسيلمة وأهل الرّدة الَّذين حاربهم أبو بكر – رضى الله عنه – لأنَّ مشركى العرب والمرتدّين هم الَّذين لايُقبل منهم إلاَّ الإسلام أو السّيف عند أبى حنيفة ، ومن عداهم من مشركى العجم وأهل الكتاب والمجوس تُقبل منهم الجزية ، وعند الشّافعىّ لاتُقبل الجزية إلاَّ من أهل الكتاب والمجوس دون مشركى العجم والعرب (راجع الآلوسى والكشاف) .

وعن عطاء والحسن : المراد بهم الفرس والرّوم ، وفسّر القائلون بهـذا الرأى قوله – تعالى – : (أَوْ يُسْلِمُونَ) بأو ينقادون ؛ لأنَّ الرّوم نصارى ، وفارس مجوس يُقْبَل منهم إعطاء الجزية ، وعن قتادة : ثقيف وهوازن ، وعن سفيان : هم الترك ، وقيل : هم الأكراد (ابن كثير والكشاف) .

٣ – ذكر الزّمخشرىّ والآلوسىّ : أنَّه شاع الاستدلال بهذه الآية على صِحّة إمامة أبى بكر – رضى الله عنه – قال الآلوسى : والإنصاف أنَّ الآية لاتكاد تصحّ دليلا على إمامة الصّديق – رضى الله عنه – إلاَّ إن صحّ خبر مرفوع فى كون المراد بالقوم بنى حنيفة[1] ، ودون ذلك خرط[2] القتاد (آلوسى) .

(١) هم قوم مسيلمة الكذاب (٢) القتاد : شجر له شوك ، وخرط القتاد : تنظيفه من الشوك .

١٧ - (لَيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَمَن يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا) :

ذكر الله - سبحانه وتعالى - فى هذه الآية الكريمة الأعذار المبيحة لترك الجهاد فمنها ماهو لازم كالعمى والعرج البيِّن ، ومنها ماهو عارض كالمرض الَّذى يطرأ أيّاما ثم يزول ، فهو فى حال مرضه مُلْحق بذوى الأعذار اللَّازمة حتى يبرأ فقال : (لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ) أى : ليس على الأعمى إثم فى التخلُّف عن الجهادِ فى سبيلِ الله ، ولا على الأعرج إثم ولا على المريض إثم كذلك لما بهم من العذر والعاهة ، وليس فى نفى الإثم عنهم نهى لهم عن الغزو ، بل قالوا : إن أجرهم مضاعف إذا خرجوا للقتال ، ولقد غزا ابن أمّ مكتوم - رضى الله عنه - وكان أعمى ، وحضر فى بعض حروب القادسيَّة وكان يحمل الرَّاية ، كما غزا بعض العلماء (وهو أعمى) مع الجيش الإسلامىّ وهو يحارب التَّتار والصَّليبيِّين ولما سُئِل عن ذلك - وقد أذن الله له فى ترك الجهاد - وما سَيُقدِّم من خدمات للجيش المقاتل ؟ فقال : أُكثِّر سواد المسلمين وأحرس متاعهم وأُحرِّضهم على القتال ، وأستجيب لقول الله : « انفِرُواْ خِفَافًا وَثِقَالًا »[1] وفى البحر : « لو حُصِر المسلمون فالغَرضُ مُتوجِّه بحسب الوُسْع فى الجهاد »

ثم قال - تبارك وتعالى - مُرَغِّبا فى الجهاد وطاعة الله ورسوله : (وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَن يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا) أى : ومن يُطع الله ورسوله فى كل ماذُكر من الأوامر والنَّواهى يدخله جنَّات تجرى من تحتها الأنهار ، ومن يُعرض عن طاعة الله ورسوله يعذِّبه عذابا بالغ الألم بالذِّلة والصَّغار فى الدّنيا والنَّار فى الآخرة ، وقيل فى الوعيد :(يُعَذِّبْهُ) إلخ دون يدخله نارا أو نحوه؛ لأنَّ العقاب يوم القيامة بالعذاب الأليم يستلزم إدخال النار ، وإدخالهم فيها لايستلزم ذلك ، والله أعلم .

---

(١) سورة التوبة من الآية : ٤١ .

طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

رئيس مجلس الادارة
رمزى السيد شعبان

رقم الإيداع بدار الكتب ١٦٧٩ / ١٩٨٧

الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية
٧٦٩٢س ١٩٨٧ - ٤٠٠٠ ٢٥



التفسير الوسيط

للقرآن الكريم

تأليف

لجنة من العلماء

بإشراف

مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر

المجلد الثالث

الحزب الثاني والخمسون

الطبعة الأولى ١٤١٠هـ - ١٩٨٩م

القاهرة

الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

١٩٨٩

(* لَقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٩﴾)

المفـــردات :

(لَقَدْ رَضِيَ اللهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ) : قبل منهم بيعتهم .

(يُبَايِعُونَكَ) : يعاهدونك على السمع والطاعة .

(السَّكِينَةَ) : طمأنينة القلب .

(وَأَثَابَهُمْ) : جازاهم .

التفسـير

١٨ – (لَقَدْ رَضِيَ اللهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَافِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحاً قَرِيباً) :

المراد من المؤمنين هنا : أهل الحديبية [١] إلا جد بن قيس فإنه كان منافقاً فلم يبايع ، وهى بيعة الرضوان لقوله – تعالى – : (لَقَدْ رَضِيَ اللهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ) .

وخبر الحديبية : أن النبى ﷺ خرج معتمراً ومستنفراً الأعراب الذين حول المدينة فأبطأ عنه أكثرهم وخرج – عليه الصلاة والسلام – بمن معه من المهاجرين والأنصار ومن اتبعه من العرب وكانوا فى ألف وأربعمائة على أرجح الأقوال فأحرم – عليه الصلاة

(١) الحديبية – وقد تشدد الياء – : بئر قرب مكة – حرسها الله – أو شجرة حدباء هناك .

والسلام – وساق معه الهدى ليعلم الناس أنه لم يخرج لحرب ، فلما وصل ﷺ الحديبية بركت ناقته فقال الناس : خلأت[١] خلأت ، فقال النبى ﷺ : (ماخلأت وما هو لها بخلق ، ولكن حبسها حابس الفيل[٢] عن مكة . لاتدعونى قريش اليوم إلى خطة يسألوننى فيها صلة رحم إلا أعطيتهم إياها) ثم نزل هناك ، فقيل : يارسول الله ،ليس بهذا الوادى ماء فأخرج – عليه الصلاة والسلام – سهماً من كنانته فأعطاه رجلاً من أصحابه فنزل فى قليب[٣] من تلك القلب فغرزه فى جوفه فجاش بالماء الرَّوَاء[٤] حتى كَفى الجيش .

وبعث رسول الله ﷺ خِرَاش – بكسر الخاء – بن أمية الخزاعى رسولًا إلى أهل مكة يعلمهم أنه جاء معتمرًا لايريد قتالًا فلما كلمهم عقروا جمله وأرادوا قتله ، فمنعه الأحابيش[٥] فخلوا سبيله حتى أتى الرسول ﷺ فدعا عمر – رضى الله عنه – ليبعثه فقال : يارسول الله ،إن القوم عرفوا عداوتى لهم وغِلَظى عليهم وإنى لا آمن ، وليس بمكة أحد من بنى عدىّ يغضب لى إن أوذيت ، فَأَرْسِل عثمان بن عفان فإن عشيرته بها وهم يحبونه ، وإنه يُبَلِّغ ما أردت ، فدعا رسول الله ﷺ عثمان فأرسله إلى قريش وقال له – عليه الصلاة والسلام – : أخْبِرْهم أنَّا لم نأت لقتال وإنما جئنا عُمَّارًا ، وادعهم إلى الإسلام ، وأمره – عليه الصلاة والسلام – أن يأتى رجالا بمكة مؤمنين ونساءً مؤمنات فيبشرهم بالفتح ، ويخبرهم أن الله – سبحانه – يظهر دينه بمكة قريباً ، فذهب عثمان – رضى الله عنه – إلى قريش وكان قد لقيه أبان بن سعيد بن العاص فأجاره ، فأتى قريشاً فأخبرهم ، فقالوا له : إن شئت فطف بالبيت ، وأمَّا دخولكم فلا سبيل إليه ، فقال – رضى الله عنه – : ما كنت لأطوف به حتى يطوف به رسول الله ﷺ فاحتبسوه ، فبلغ رسول الله والمسلمين أن

(١) خلأت : حرنت وبركت من غير علة .

(٢) حبسها حابس الفيل : أى : أن الله الذى منع فيل أبرهة أن يشترك فى هدم الكعبة حبسها ومنعها كذلك أن تتجاوز هذا المكان لحكمة يعلمها الله – سبحانه وتعالى – .

(٣) القليب : هو البئر قبل أن تبنى بالحجارة .

(٤) الرواء : الكثير .

(٥) الأحابيش : هم الأعراب الذين حول مكة ، حبشى – بالضم – جبل أسفل مكة ، إليه تنسب أحابيش قريش ، لأنهم تحالفوا : إنهم لَيد على غيرهم ، ما سجى ليل ووضح نهار ، وما رسا حبشى .

عثمان قد قُتل ، فقال ﷺ : لانبرح حتى نناجز[1] القوم ، ونادى مناديه ﷺ : ألا إن رُوح القدس (جبريل) قد نزل على رسول الله — عليه الصلاة والسلام — فأمره بالبيعة ، فاخْرجوا على اسم الله — تعالى — فبعضهم بايعه على ألا يفر ، وبعضهم بايعه على الموت ، وبعضهم بايعه على مافى نفس رسول الله ﷺ ولما بايع الناس قال — عليه الصلاة والسلام — : (اللهم إن عثمان فى حاجة الله وحاجة رسوله) فضرب بإحدى يديه على الأُخرى فكانت يد رسول الله ﷺ لعثمان خيرًا من أيديهم لأنفسهم ، ولما سمع المشركون بالبيعة خافوا وبعثوا عثمان — رضى الله عنه — وجماعة من المسلمين ثم جرى السفراء بين رسول الله ﷺ و كفار قريش وطال التراجع والتنازع إلى أن جاء سهيل بن عمرو العامرى فقاضاه على أن ينصرف — عليه الصلاة والسلام — عامه هذا حتى لايتحدث العرب أنَّا أخذنا ضُغطة[2] ، فإذا كان مِنْ قابلٍ أتى ﷺ معتمرًا ودخل هو وأصحابه مكة بغير سلاح حاشا السيوف فى قُربها ، فيقيم بها ثلاثاً ويخرج ، وعلى أن يكون بينه وبينهم صلح عشرة أعوام يتداخل الناس ويأْمن بعضهم بعضاً ، وعلى أنَّ من جاء من الكفار إلى المسلمين مسلماً من رجل أو امرأة رُدّ إلى الكفار ، ومن جاء من المسلمين إلى الكفار مرتدًّا لم يردوه إلى المسلمين ، فقالوا : يارسول الله ،أنكتب هذا ؟ قال : نعم إنه مَنْ ذهب منا إليهم فأبعده الله ، ومن جاءنا منهم فسيجعل الله له فرجاً ومخرجاً ، فجاء عمر بن الخطاب — رضى الله عنه — فقال : يارسول الله ، ألسنا على الحق وهم على الباطل ؟ قال :(بلى) قال : أليس قتلانا فى الجنة وقتلاهم فى النار ؟ قال : (بلى) قال : ففيم نعطى الدَّنية فى ديننا ونرجع ولما يحكم الله بيننا وبينهم ؟ فقال : (يابن الخطاب إنى رسول الله ولن يضيعنى الله أبدًا) فانطلق عمر فلم يصبر متغيِّظا ، فأتى أبا بكر فقال له ما قاله لرسول الله ﷺ فقال له أبو بكر : يابن الخطاب إنه رسول الله ولن يضيعه الله أبدا فنزل القرآن على رسول الله ﷺ بالفتح ، فأرسل إلى عمر فأقرأه إيَّاه ، فقال : يارسول الله أَوَ فَتْحٌ هو ؟ قال : (نعم) فطابت نفسه ورجع ...

حقًّا لقد كان صلح الحديبية فتحاً عظيماً ، فبعده دخل كثير من العرب فى الإسلام وجاءت

(١) المناجزة فى الحرب : المبارزة .

(٢) ضغطة : قهرا .

الوفود إلى رسول الله ﷺ من جهات شتى تدخل فى دين الله ، وما ظنه بعض المسلمين كعمر - رضى الله عنه - أنه دنيّة ونقيصة وذل فى دينهم ما كان إلّا عزة ومنعة ، فقد صح أن رسول الله ﷺ بعد أن رجع إلى المدينة جاءه أبو بصير - وهو رجل من قريش قد أسلم - فأرسلوا فى طلبه رجلين فقالوا : العهد الذى جعلت لنا ، فدفعه إلى الرجلين فخرجا به ، وفى الطريق خدع أبو بصير أحد الرجلين وأخذ سيفه وقتله به ، وفرّ الآخر إلى المدينة ، وقال لرسول الله ﷺ : قد قتل - والله - صاحبى وإنى لمقتول ، فجاء أبو بصير فقال : يارسول الله قد - والله - أوفى اللهُ ذمتك وقد رددتنى إليهم ، ثم نجانى الله - تعالى - منهم ، فقال ﷺ : (ويل أمّه مِسْعر[1] حرب لو كان معه أحد) فلما سمع أبو بصير ذلك عرف أن رسول الله ﷺ سيرده إليهم ، فخرج حتى أتى سيف[2] البحر ، ولحق به - هربا من قريش - أبو جندل ابن سهيل بن عمرو وكان قد جاء إلى رسول الله ﷺ مسلما فى الحديبية بعد الصلح ، فطلب أبوه سهيل بن عمرو أن يرده رسول الله ﷺ إليه إنفاذًا للعهد ، ففعل الرسول ذلك ودعا لأبى جندل أن يجعل الله له مخرجاً .

ولحق بأبى بصير وبأبى جندل من كان يسلم من قريش ، حتى اجتمعت منهم جماعة فما يسمعون بِعير خرجت من قريش إلا اعترضوا لها فقتلوهم ، وأخذوا أموالهم جزاء ما أصاب المسلمين على أيديهم من القتل والتعذيب وأخذ الأموال ظلماً ، فأرسلت قريش إلى النبى ﷺ تناشده الله والرحم ، وقالوا له : اضممهم إليك حتى نأمن ، ففعل ﷺ وأجابهم إلى ما طلبوا .

ومما تجدر الإشارة إليه والتنويه به ما حدث بعد فراغ الرسول ﷺ من إتمام عقد صلح الحديبية أنه قال لأصحابه : (قوموا فانحروا ثم احلقوا) فما قام رجل منهم حتى قال ﷺ ذلك ثلاث مرات ، فلما لم يقم منهم أحد دخل ﷺ على زوجه السيدة أم سلمة - رضى الله عنها - فذكر لها ما لقى من الناس ، قالت له : يا نبىّ الله أتحب ذلك ؟

---

(١) مسعر حرب : موقد نار حرب .
(٢) سيف البحر - بالكسر - : ساحله .

اخرج فلا تكلم أحدًا منهم كلمة حتى تنحر بُدْنَك وتدعو حالقك فيحلقك ، فخرج رسول الله ﷺ فلم يكلم أحدًا منهم حتى فعل ذلك : نحر بيده ، ودعا حالقه فحلقه ، فلما رأوا ذلك قاموا فنحروا وجعل بعضهم يحلق بعضاً حتى كاد بعضهم يقتل بعضاً غمًّا .

لقد رضى الله عن المؤمنين وقبل منهم مبايعتهم لرسول الله ﷺ ومعاهدتهم له على السمع وبذل الطاعة بما رضوا به ورضخوا له من بيع أنفسهم وأموالهم لله بأن لهم الجنة ، مع علمه – سبحانه – بما فى قلوبهم من الصدق والإخلاص فى مبايعتهم وحبهم للإسلام وحرصهم عليه ونصرتهم له ، فأنزل – جل شأنه – الطمأنينة وسكون القلب عليهم بصدق وعده وتحقق جزائه وأثابهم وجزاهم على تلك البيعة (فَتْحاً قَرِيباً) هو فتح خيبر والصلح مع أهلها ، بعد عودتهم من الحديبية مباشرة .

وفى تقييد البيعة بأنها كانت تحت الشجرة إشارة إلى عظم منزلتها لدى الله لأنها كانت امتثالا لأمر رسوله ﷺ بعد أن نزل عليه جبريل – عليه السلام – وأمره بها ، ولم تكن لخوف منه – عليه الصلاة والسلام – ولذا استحقت رضاه – تعالى – الذى لايعادله شىء ، وقد ترتب على هذا الرضا من الثواب مالا يكاد يخطر على بال ، ويكفى فى ذلك ما أخرج أحمد عن جابر عن النبى ﷺ أنه قال : (لايدخل النار أحد بايع تحت الشجرة) كما صح برواية الشيخين وغيرهما أنه ﷺ قال لهم : (أنتم خيرُ أهل الأرض) .

١٩ – (وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا وَكَانَ اللهُ عَزِيزًا حَكِيماً) :

أى : ومنحهم – سبحانه – مع هذا الفتح والصلح غنائم كثيرة وأموالا وفيرة أفاءَ الله بها على المسلمين من خيبر ، فجمع الله لهم بهذا الصلح أمناً واطمئناناً على نفوسهم من جانب هؤلاء اليهود مع رزق واسع وخير عميم ، والفضل فى هذا كله لله – سبحانه – فهو العزيز الذى لايغالب ولا يُقهر (وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ) والحكيم : الذى لا تجرى أحكامه وقضاياه إلا على مقتضى الحكمة .

هذا ، وقد قسم النبىّ ﷺ غنائم خيبر بين المقاتلين فأعطى للفارس سهمين وللراجل سهماً واحدًا .

(وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِۦ وَكَفَّ أَيْدِىَ ٱلنَّاسِ عَنكُمْ وَلِتَكُونَ ءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٢٠﴾ وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُوا۟ عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ ٱللَّهُ بِهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا ﴿٢١﴾ وَلَوْ قَٰتَلَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوَلَّوُا۟ ٱلْأَدْبَٰرَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٢٢﴾ سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾)

المفــردات :

(وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنكُمْ) : دفعها ومنعها أن تحول بينكم وبين اغتنامها..

(آيَةً) : علامة وأمارة .

(قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا) : قد قَدَرَ الله عليها واستولى .

(لَوَلَّوُا الأَدْبَارَ) : لانهزموا وأعطوكم ظهورهم هرباً منكم .

(وَلِيًّا) الولىّ : من ينفع برفق ولين .

(نَصِيرًا) النصير : من ينفع بعنف .

(سُنَّةَ اللهِ) : طريقة الله .

(خَلَتْ) : مضت وسلفت .

(تَبْدِيلاً) : تغييرًا .

التفسير

٢٠ - (وَعَدَكُمُ اللهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَـٰذِهِ وَكَفَّ أَيْدِىَ النَّاسِ عَنكُمْ وَلِتَكُونَ آيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطاً مُّسْتَقِيمًا) :

أى :وعدكم الله - أيها المسلمون - ووعد الله لايتخلف ؛ إذ الخلف فى الوعد كذب وحاشا لله ذلك .

أى : وعدكم - سبحانه - بمغانم كثيرة من أموال وسلاح وأرض وسبى تأخذونها من الكفار فى مستقبل أيامكم إلى يوم القيامة إذا تحققت فيكم صفات المؤمنين ، إذ قد وعد الله رسله والمؤمنين النصر على أعدائهم ، قال - تعالى - : « إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُواْ فِى الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ »[١] .

(فَعَجَّلَ لَكُمْ هَـٰذِهِ وَكَفَّ أَيْدِىَ النَّاسِ عَنكُمْ) أى : فقدم لكم مغانم خيبر عاجلة دون مشقة أو قتال تطييبا لخاطركم ، ومنع أهل خيبر ومن جاء لنصرتهم من بنى أسد وغطفان أن ينالوكم بسوء ؛ حيث قذف الله فى قلوبهم الرعب فنكصوا على أعقابهم وولوا الأدبار هاربين فارين فزعا وخوفاً . (وَلِتَكُونَ آيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ) أى : ولتكون هذه الغنائم أمارة وعلامة للمؤمنين يعرفون بها أنهم من الله بمنزلة عظيمة ومكانة رفيعة ، وأنه - سبحانه - كفيل بنصرهم والفتح عليهم ، أو يعرف بها المؤمنون صدق الرسول ﷺ فى وعده إياهم فتح خيبر وما يلى ذلك من فتح مكة ودخول المسجد الحرام ، (وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطًا مُّسْتَقِيماً) أى : ويثبتكم الله على الهدى والطاعة ولا يفتنكم فى دينكم ، أو يزيدكم هدى وتقوى ؛ فإن قوماً هذا شأنهم وفيهم رسول الله ﷺ جدير بهم أن يكونوا على الجادّة والصراط السوىّ والطريق المستقيم .

٢١ - (وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُواْ عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ اللهُ بِهَا وَكَانَ اللهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا) :

أى : وأعطاكم ومنحكم غنائم أخرى غير ما غنمتموه من خيبر وهى غنائم هوازن فى

---

(١) سورة غافر الآية : ٥١

غزوة حنين ، إذ لم تستطيعوا اغتنامها والحصول عليها وقت أن ركنتم إلى كثرتكم ، واعتززتم بقوتكم ، واعتمدتم على كثرة عددكم وقلة عدوّكم فقلتم : لن نغلب اليوم عن قلة ، وكان الجيش الإسلامى فى اثنى عشر ألفاً وجيش الكفار فى أربعة آلاف ، فلم تغن عنكم هذه الأعداد شيئاً حتى ضاقت عليكم الأرض بما رحبت ثم وليتم الأدبار منهزمين ، ثم أدركتكم عناية ربكم – سبحانه – فأنزل سكينته على رسوله وعلى المؤمنين وملأ قلوبهم اطمئناناً وثقة فى الله – جل وعلا – وأنزل جنوداً من الملائكة لم تبصروها فكانت عوناً لكم على عدوّكم وعذّب الله الذين كفروا فهزمهم وأعطاكم غنائمهم بعد أن أحاط بها وحفظها لكم ومنعها من سواكم ؛ والله – سبحانه – قدير لا يعجزه ولا يفوته شىء فى الأرض ولا فى السماء ولا فيما وراء ذلك مما لا نعلمه ، فغلبة المؤمنين على هؤلاء الكفار واغتنام أموالهم أمر واقع لامحالة إذ قد حكم به الله وقضاه .

٢٢ – (وَلَوْ قَاتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوُا الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا) :

أى : ولو امتنع المشركون وغيرهم عن أن يصالحوكم ، وأصروا على قتالكم وحاربوكم لانهزموا وفرّوا وأعطوكم أدبارهم وظهورهم تُعْمِلون فيها أسلحتكم قتلاً وجرحاً ، ولأمكنكم منهم أخذاً وأسراً ، ثم هم مع ذلك لا يجدون من ولىّ يتولى أمرهم ويحرسهم من بأس الله على أيدى المؤمنين ، ولا يجدون أحداً ما ينصرهم ويقاتل معهم ، قال الإمام الفخر الرازى : أريد بالولى : من ينفع باللطف . وبالنصير : من ينفع بالعنف ، أى : لا ينالون ولا يصيبون عوناً من أحد يدفع عنهم برفق ولين أو يقف بجانبهم يحمل السلاح ويخوض معهم الحرب فى قتالهم للمؤمنين .

٢٣ – (سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا) :

أى : سنّ الله – سبحانه – غلبة أنبيائه ونصرتهم – عليهم الصلاة والسلام – سنة وطريقة قديمة فيمن مضى من الأمم ، قال – تعالى – : « كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي[1] » والمراد :

(١) من الآية ٢١ من سورة المجادلة .

أن سننه - تعالى - أن يكون النصر والعاقبة لأنبيائه - عليهم السلام - ولن تتغير سنة الله وطريقته معك ، فالغلبة والعاقبة لك عليهم لامحالة .

وفى هذا تثبيت لفؤاد رسول الله ﷺ وإنزال للطمأنينة على قلوب المؤمنين ، وبشارة ووعد بأن النصر لهم ، كما أن فيه تهديدا للمشركين بأن الدائرة تدور عليهم .

(وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٢٤﴾ هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْهَدْىَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُۥ ۚ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَٰتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَـُٔوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌۢ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۖ لِّيُدْخِلَ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ لَوْ تَزَيَّلُوا۟ لَعَذَّبْنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٢٥﴾)

المفـــردات :

(كَفَّ) : دفع ومنع .

(بِبَطْنِ مَكَّةَ) المراد : الحديبية .

(أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ) : أمكنكم منهم وجعلكم ذوى غلبة تامة عليهم .

(وَٱلْهَدْىَ) : ما يهدى ويساق إلى البيت الحرام من النَّعَم تقربًا إلى الله .

(مَعْكُوفًا) : محبوسًا وموقوفًا .

(تَطَئُوهُمْ) : تدوسوهم بأقدامكم ، والمراد : أن تبيدوهم وتهلكوهم .

(مَعَرَّةٌ) : مكروه ومشقة ، من : عرَّه بمعنى عراه إذا دهاه بما يكره ويشق عليه . وقيل : من العُرّ ، وهو الجرب الصعب اللازم .

(تَزَيَّلُواْ) : تفرقوا وتميز بعضهم عن بعض .

التفسير

٢٤ - (وَهُوَ الَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِن بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا) :

أخرج الإمام أحمد وابن أبى شيبة وعبد بن حميد ومسلم وغيرهم عن أنس بن مالك قال : لَمَّا كان يوم الحديبية هبط على رسول الله ﷺ وأصحابه ثمانون رجلًا من أهل مكة فى السلاح من قِبل جبل التنعيم يريدون غِرة[1] رسول الله ﷺ فدعا عليهم فأخذوا ، فعفا عنهم ، فنزلت هذه الآية (وَهُوَ الَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ ...) إلخ الآية ، فهذا امتنان من الله على عباده المؤمنين حين كفّ أيدى المشركين عنهم فى الحديبية فلم يصل إلى المسلمين منهم سوءٌ كما منع - سبحانه - أيدى المؤمنين عن المشركين مع تمكنهم منهم فلم يقاتلوهم ، وحفظ كلاً من الفريقين وأوجد بينهم صلحاً فيه خير للمؤمنين ، وعاقبة كريمة لهم فى الدنيا والآخرة ، والله - سبحانه - بصير بكم وبأعمالكم - أيها المؤمنون - يعلم مافيه الخير لكم ، ولذلك منعكم عن قتال المشركين حفظا لكم ورحمة بكم ، ورعاية لحرمة بيته العتيق من أن تراق فيه الدماءُ وتزهق الأرواح ، كما أن فى هذا الكف أيضاً إبقاءً على قوم لكم بهم رحم وقربى ، ولعل الله يهدى بعضهم إلى الدخول فى الإسلام .

٢٥ - (هُمُ الَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَدْىَ مَعْكُوفاً أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُ ...) الآية :

---

(١) الغرة - بالكسر - : الغفلة ، أى : يريدون أن يصادفوا من رسول الله ومن أصحابه غفلة عن التأهب لهم . إه : القرطبى .

جاءت هذه الآية الكريمة للإشارة إلى أن الاختلاف بين المؤمنين والكفار باق ، والنزاع قائم ، والعداوة مستمرة ، ولم ينته ما بينهما بالاتفاق والصلح ومنع أيدى كل فريق عن الآخر ، إذ أن هؤلاء لايزالون على كفرهم ، وإمعانهم فى عداوتكم ، فلهذا قاموا بصدكم ومنعكم عن دخول المسجد الحرام للزيارة والاعتمار ، مع أنهم قد علموا أنكم لا تريدون بهم شراً فقد سُقْتم الهدى من البدن إلى البيت الحرام ، وعكفتموها وحبستموها عليه قربى وزلفى لله — سبحانه وتعالى — فقد أشعرتموها فحززتم أسنمتها حتى سالت منها الدماء ليعلم أنها هدى ، فمنعوا تلك البدن أن تبلغ المحل الذى اعتاد زُوَّار بيت الله وقُصَّاده أن يذبحوها فيه وهو منى[1] ، وقد سبق أن حدثهم فى هذا الشأن الحليس بن علقمة الكنانى ، وكانوا قد أرسلوه إلى رسول الله ﷺ فقال لهم : يامعشر قريش لقد رأيت مالا يحل صده ؛ الهدى فى قلائده قد أكل أوباره من طول الحبس عن محله ، ولكن المشركين ركبوا رءوسهم وقالوا له : اجلس إنما أنت أعرابى لاعلم لك .

أى : أن هؤلاء الكفار قد ازدادوا كفراً وعداوة لكم فلا تأمنوهم ، وإنما كان كف الله أيديكم عنهم بعد أن أظفركم عليهم وأمكنكم منهم لحكمة يعلمها هو — سبحانه — .

وقد جاء بيانها فى قوله — تعالى — : (وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَاتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَأُوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌۢ بِغَيْرِ عِلْمٍ) :

أى : ولولا كراهة أن تهلكوا أناساً مؤمنين يقيمون بين ظهرانى المشركين وأنتم غير عالمين بهم وبأماكنهم فيصيبكم بإهلاكهم مكروه ومشقة ، كأن يقول المشركون : إن المسلمين قد فعلوا بأهل دينهم من الإهلاك مثل ما فعلوا بنا ، وكذلك ما يصيب المسلمين وينالهم من الضيق والمشقة من أن يقتلوا إخوانهم فى الإسلام وهم عدّتهم على أعدائهم ، فضلا عن الرحمة التى تسود وتعم المسلمين فهم كالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحمى ، أى : لولا كراهة إهلاككم المؤمنين لما كف أيديكم عن قتال أهل مكة من المشركين .

---

(١) منى : مكان قرب مكة ، وسمى بذلك لما يمنى به من الدماء ، أى : يراق .

(لِيُدْخِلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ) أى : كفَّ أيديكم عنهم ليدخل الله فى رحمته الواسعة من يريده – جل شأنه – من المؤمنين الذين يعيشون بين المشركين فى مكة ، فيجعل لهم بعد خوفهم أمنًا ، وبعد ذلهم عزًّا ، فيؤدون فى ظل ذلك عباداتهم لربهم على أكمل وجه وأتم صورة فى علانية دون استخفاء ، أو : ليَمُنَّ الله ويدخل من يشاء من المشركين فى رحمته ، وذلك باعتناقهم الإسلام بعد أن رأوا ما عليه المؤمنون من تواد وتراحم وخلق كريم ودين قويم .

(لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا) أى : لو تفرق هؤلاء المؤمنون والمؤمنات وتميزوا عن الكفار وخرجوا من مكة ولم يبقوا بينهم لعذبنا هؤلاء الكفار فى الدنيا بالقتل والسبى وغير ذلك من ضروب التنكيل الشديد والإيلام العظيم .

(إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ وَكَانُوٓا۟ أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٢٦﴾)

المفـــردات :

(الْحَمِيَّةَ) : الكبر والأنفة .

(سَكِينَتَهُ) السكينة : هى الوقار والحلم .

(أَلْزَمَهُمْ) : اختار لهم وطلب منهم .

(كَلِمَةَ التَّقْوَىٰ) : هى : لَا إِلَٰهَ إِلا الله ، كما جاء فى حديث الترمذى وغيره مرفوعًا ، وقيل غير ذلك .

(أَحَقَّ بِهَا) أى : أولى بها من غيرها ومتصفين بمزيد استحقاق لها .

(وَأَهْلَهَا) : وأصحابها المستأهلين لها .

التفسير

٢٦ - (إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِى قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ . . .) الآية :

هذه الآية الكريمة تحكى ما كان من المشركين عند كتابة صلح الحديبية وتوثيقه ، وذلك أن النبىّ ﷺ دعا عليا - كرم الله وجهه - فقال له : اكتب (بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ) فقال سهيل بن عمرو : لا أعرف هذا ولكن اكتب : باسمك اللهم ، فقال رسول الله ﷺ : اكتب (باسمك اللهم) فكتبها ، ثم قال - عليه الصلاة والسلام - : (اكتب : هذا ما صالح عليه محمد رسول الله سهيل بن عمرو) فقال سهيل : لو كنا نعلم أنك رسول الله ما صددناك عن البيت ولا قاتلناك ، ولكن اكتب اسمك واسم أبيك . فقال رسول الله ﷺ : (والله إنى لرسول الله وإن كذبتمونى. اكتب : هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله سهيل بن عمرو) إلى آخر ما جاء فى كتاب الصلح .

أى : تذكر - يا محمد - وذكر المؤمنين بذلك الوقت الذى ملأ فيه الكافرون قلوبهم كبرًا وأنفة بعدت بهم عن الحق ، ونأت عن الصراط المستقيم ، حيث لم يذعنوا لما جاء به رسول الله ﷺ ورفضوا الإقرار بالبسملة والتسليم برسالة الرسول ﷺ ولم يرضوا بكتابة ما أملاه رسول الله ﷺ فى وثيقة صلح الحديبية ، ولكن الله برعايته ولطفه أدرك المؤمنين بكريم عطفه وعظيم فضله ، فأنزل الطمأنينة والوقار والحلم عليهم ، وثبتهم وأرضاهم وشرح صدورهم إلى ما أمر به رسول الله ﷺ ولم يدخل قلوبهم ما دخل فى قلوب المشركين من الحمية .

وقال الإمام الفخر الرازى : إن الله - تعالى - أبان غاية البون بين الكافر والمؤمن فأشار إلى ثلاثة أشياء :

(أحدها) : جعل ما للكافرين بجَعْلهم فقال : (إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِى قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ) ، وجعل ما للمؤمنين بِجَعْل الله - تعالى - فقال : (فَأَنزَلَ اللهُ) وبين الفاعِلَيْن ما لا يخفى .

(ثانيها) : جعل للكافرين الحمية ، وللمؤمنين السكينة ، وبين المفعولَيْن تفاوت .

(ثالثها) : أضاف الحمية إلى الجاهلية ، وأضاف السكينة إلى نفسه حيث قال : (حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ) ، وقال : (سَكِينَتَهُ) وبين الإضافتين ما لا يذكر ، ثم استطرد الإمام الفخر فقال : قال الله فى حق الكافر : (جَعَلَ) ، وفى حق المؤمن : (أَنزَلَ) ولم يقل : خلق ولا جعل سكينته إشارة إلى أن الحمية كانت مجعولة فى الحال ، أما السكينة فكانت كالمحفوظة فى خزائن رحمته معدَّة لعباده فأنزلها . وقال : (الْحَمِيَّةَ) ثم أضافها بقوله : (حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ) ، لأن الحمية فى نفسها صفة مذمومة ، وبالإضافة إلى الجاهلية تزداد قبحاً ، وللحمية فى القبح درجة لا يعتبر معها قبح القبائح كالمضاف إلى الجاهلية ، وأما السكينة فى نفسها وإن كانت حسنة لكن الإضافة إلى الله فيها من الحسن ما لا يبقى معه لِحُسْنٍ اعتبار ، فقال : (سَكِينَتَهُ) اكتفاء بحسن الإضافة .

(وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَىٰ وَكَانُوٓا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا) أى : اختارها لهم وألزمهم بها – سبحانه – تكريماً وتشريفًا لهم ، وكانوا أحق وأولى من سواهم وأجدر من غيرهم بهذا التكريم ؛ فهم صفوة خلقه وأصحاب رسوله – رضى الله عنهم – المختارون لدينه الحنيف . وقيل : هم أحق بها فى الدنيا وهم أهلها بالثواب فى الآخرة .

وكلمة التقوى هى : (بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ ، ومُحَمَّد رَسُول الله) التى أبى سهيل ابن عمرو أن تكتب فى صلح الحديبية ، وقيل : هى لَا إِلٰهَ إلا الله ، والله أكبر ، وقيل : هى الثبات والوفاء بالعهد .

(وَكَانَ اللهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا) أى : يعلم – سبحانه – حق كل شىء فيسوق ويعطى الحق لمن يستحقه ، ويمنع العطاء من يستأهله ، وذلك حسب ما تقتضيه حكمته وتوجبه رحمته .

(لَقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا۟ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿٢٧﴾)

سبب النزول :

أخرج ابن المنذر وغيره أن رسول الله ﷺ رأى فى المنام أنه هو وأصحابه دخلوا مكة آمنين وقد حلقوا وقصروا ، فقص الرؤيا على أصحابه ففرحوا واستبشروا وحسبوا أنهم داخلوها فى عامهم وقالوا : إن رؤيا رسول الله ﷺ حق ، فلما تأخر ذلك إلى العام القابل بسبب صلح الحديبية قال بعض المنافقين – استهزاء – : والله ما حلقنا ولا قصرنا ولا رأينا المسجد الحرام . فنزلت هذه الآية .

التفسير

٢٧ – (لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِن شَآءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ . . .) الآية :

أى : لقد أرى الله – سبحانه – رسوله الرؤيا الصادقة ، ورؤيا الأنبياء كلها كذلك صادقة محققة ؛ إذ هى أحد وجوه الوحى إلى الأنبياء ، وهذه الرؤيا ملتبسة ومرتبطة بالحق ؛ وهو الغرض الصحيح والحكمة البالغة ، فقد أظهرت وأبانت حال المتردد والمتزلزل فى إيمانه ، وحال المطمئن الراسخ فيه الذى انشرح به صدره .

(لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِن شَآءَ اللَّهُ) أى : والله لتدخلن المسجد الحرام ؛ ويكون دخولكم إياه بمشيئته – سبحانه – وحده ، ولا يرجع ذلك إلى قوة المسلمين وجلادتهم ومصابرتهم ولا إلى إرادة المشركين ومشيئتهم .

وفى تعليق الدخول على مشيئة الله مع أنه - سبحانه - خالق الأشياء كلها وعالم بها قبل وقوعها ليُعَلِّم العبادَ أن يقولوا ذلك عندما يريدون فعل شيء أو تركه تأدُّبًا معه - جل شأنه - وتأكيدًا لقوله - تعالى - : « وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا * إِلَّآ أَن يَشَآءَ اللَّهُ »[1]. قال ثعلب : استثنى - سبحانه وتعالى - فيما يعلم ليستثنى الخلق فيما لا يعلمون ، أى : علق الدخول على مشيئته ، ليفعل الخلق مثل ذلك فيما لا يعلمونه .

(آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ) أى : أنكم تدخلون المسجد الحرام آمنين متمكنين من أدائكم النسك وتصلون به إلى غايته ؛ يحلق بعضكم ويقصر آخرون .

هذا ، والحلق أفضل وأولى بالرجال ، والتقصير أحق بالنساء .

(لَا تَخَافُونَ) قد تكفل الله - سبحانه - لرسوله ومن معه بكمال الأمن بعد تمام النسك ، أى : تدخلون آمنين تحلقون وتقصرون ، ويبقى ويدوم أمنكم بعد خروجكم من الإحرام فأنتم فى حفظ الله ورعايته فى حال الإحرام وبعده .

(فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا) أى : فعلم الله ما فى صلح الحديبية من الحكمة والخير والمصلحة لكم ما لم تعلموا أنتم به ؛ عَلِمَهُ - سبحانه - واقعًا وحاصلًا ، وقد علمه أزلًا قبل وقوعه وهو بكل شيء عليم .

(فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا) أى : جعل الله لكم من قبل دخولكم المسجد الحرام محلقين مقصرين - جعل لكم - من دون ذلك ومن قبله فتحًا عظيمًا قريبًا هو فتح خيبر ، وما أصبتم فيه من الغنائم دون قتال ، أو المراد من الفتح القريب : هو صلح الحديبية الذى قال عنه الزهرى : ما فتح الله فى الإسلام كان أعظم من صلح الحديبية ؛ لأنه إنما كان القتال حين يلتقى الناس ، فلما كانت الهدنة وضعت الحرب أوزارها وأمن الناس بعضهم بعضًا ، فالتقوا وتفاوضوا الحديث والمناظرة فلم يُكلَّم أحد بالإسلام يعقل شيئًا إلا دخل فيه ، فلقد

---

(١) سورة الكهف ، الآية ٢٣ ، وبعض الآية ٢٤

دخل فى تَيْنِكَ السنتين فى الإسلام مثل ما كان فى الإسلام قبل ذلك وأكثر . يدلك على ذلك أنهم كانوا سنة ستٍّ يوم الحديبية ألفا وأربعمائة ، وكانوا بعد عام الحديبية سنة ثمان فى عشرة آلاف .

(هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿٢٨﴾)

المفــردات :

(لِيُظْهِرَهُ) : ليعليه ويرفعه .

(عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ) : على كل ما يدين ويتعبد به الناس من حق أو باطل .

التفسـير

٢٨ ـ (هُوَ الَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا) :

أى : هو ـ سبحانه ـ الذى أرَى نبيه الرؤيا الصادقة هو ـ كذلك ـ الذى أرسله وبعثه مصاحبًا للهدى والدليل الواضح والحجة البالغة والمعجزة الباهرة ، وأرسله بالدين الحق الذى لا يأتيه الباطل ، ولا ينال منه الزيف ، ولا يعتريه التحريف ، ليعليه ـ سبحانه ـ ويرفعه على كل ما يدين الناس ويتعبدون به من الشرائع والملل من الحق والباطل ، وإظهار الإسلام على الحق من الشرائع والملل يكون بنسخ بعض أحكامه المستبدلة والمتغيرة بتبدُّل الأعصار والأزمان ، وأما إظهاره على الباطل فيكون ببيان بطلانه وزيفه .

هذا ، والإسلام بمبادئه وتعاليمه وشرائعه يسمو فى كل زمان ومكان على كل شرعة ومنهاج ، وذلك عند أصحاب الفطر المستقيمة والقلوب النقية السليمة ، كما أنه - كذلك - عند من له أدنى بصر وبصيرة ، ولا يضير الإسلام أن خالفه المخالفون ، فهم فى واقع أمرهم معترفون فى داخلهم ، ولكنهم يستكبرون فينكرون ، وصدق الله القائل : « فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللهِ يَجْحَدُونَ »[1] . (وَكَفَىٰ بِاللهِ شَهِيدًا) هذه تسلية لرسول الله ﷺ ووعد له بأنه - سبحانه - لا محالة سيحقق له ما وعده به من إظهار دينه على جميع الملل والنحل وكفى الله شهيدًا لنبيه ﷺ على ذلك ، وشهادته له تكون بإظهار المعجزات على يديه ، وقيل : (شَهِيدًا) على رسالته ﷺ ، وفى الآية - على هذا - تسفيه للكفار الذين أبَوْا أن يكتبوا فى عقد صلح الحديبية (محمد رسول الله) .

(مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ ۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا ﴿٢٩﴾)

(١) سورة الأنعام من الآية ٣٣

المفــــردات :

(يَبْتَغُونَ) : يطلبون فى جد واجتهاد .

(سِيمَاهُمْ) : علامتهم وأمارتهم التى تميزهم .

(مَثَلُهُمْ) : وصفهم العجيب الشأن الجارى مجرى المثل فى الغرابة .

(شَطْأَهُ) شطء الزرع : فروخه ، وهو ماخرج منه وتفرع فى شاطئيه ، أى : جانبيه .

(فَآزَرَهُ) : فأعانه وقواه .

(فَاسْتَغْلَظَ) : فصار من الدقة إلى الغلظ .

(فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ) : استقام على قصبه . والسُّوق : جمع ساق .

التفسير

٢٩ - (مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ . . .) الآية :

أى : هو محمد الذى وصف بالرسالة فى قوله - تعالى - : (لَّقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ) ، وفى قوله - جل شأنه - : (هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ) وجاء النص فى هذه الآية بالتصريح بذكر اسم الرسول ﷺ تفخيماً لشأنه وزيادة فى إنزال السكينة والطمأنينة فى قلوب المؤمنين ، بعثاً للرجاء لدى بعض الشاكّين المترددين كى يثبتوا على الإسلام ، فضلاً عن أن ذلك يغيظ قلوب الحاسدين والحاقدين على رسوله ﷺ ، وجاء وصف الرسول ﷺ ومن معه من الصحابة - رضوان الله عليهم - بأنهم أشداء على الكفار لقطع أمل الكفار ورجائهم فى أن يداهنهم أو أن ينزل ويتجاوز عن بعض ما جاء به ، وقد أمر الله رسوله ﷺ فى غير هذه الآية بالغلظة على الكفار فقال : « يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ »[1] كما وصفه ربه - جل وعلا - بالرحمة والرأفة بالمؤمنين فقال : « لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ

---

(١) من الآية رقم ٩ : من سورة التحريم .

رَءُوفٌ رَّحِيمٌ » [١] أما صحابته – رضى الله عنهم – فشأنهم معه ﷺ هو الطاعة والتأسى وبذل النفس والمال فى سبيل الله، وقد قال الله فى حقهم: « أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ » [٢]. وشدة الرسول – عليه الصلاة والسلام – ومن معه على الكفار تكون عند ملاقاتهم فى الحروب، فلا تضعف عزائمهم ولا تلين قناتهم، فالمؤمن قد وعده الله إحدى الحسنيين إما الشهادة والموت فى سبيل الله، أو الظفر والنصر، أما فيما يتصل بمعايشة الكفار غير الحربيين فينبغى أن يكون المسلم على حذر منهم، لأنهم لا يألون جهدًا فى المكر والكيد للمسلمين والنيل منهم، وصدق الله القائل: « يَٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّواْ مَا عَنِتُّمْ » [٣] وهذا لا يمنع حسن الجوار معهم والبر بهم والعدل فيهم

وقوله – تعالى –: (رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ) أى: يتراحمون فيما بينهم، فلا يبغى بعضهم على بعض؛ فهم فى تعاطف وتوادّ كالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى.

وعن الحسن – رضى الله عنه –: بلغ من تشددهم على الكفار أنهم كانوا يتحرزون من ثيابهم أن تلزق بثيابهم، ومن أبدانهم أن تمس أبدانهم، وبلغ من تراحمهم فيما بينهم أنه كان لا يرى مؤمن مؤمنًا إلا صافحه وعانقه.

أخرج أبو داود عن البراء قال: قال رسول الله ﷺ: « إذا التقى المسلمان فتصافحا وحمدا الله واستغفراه غفر لهما » كما أثر (أن أحد الصحابة قدم على رسول الله فى المدينة فاعتنقه وقبّله) غير أن الإمام النووى فى كتابه الأذكار قال فى التقبيل وكذا المعانقة: لا بأس به عند القدوم من سفر ونحوه، ومكروه كراهة تنزيه فى غيره، ولعل دليله فى هذا ما روى أن رسول الله ﷺ – فى حديث أخرجه الترمذى عن أنس فى زيادة رزين – لما سئل عن الرجل يلقى أخاه أينحنى له ؟ قال: (لا). قال: أفيلتزمه ويقبله ؟ قال: (لا، إلا أن يأتى من سفره).

---

(١) سورة التوبة، الآية: ١٢٨

(٢) سورة المائدة، من الآية: ٥٤

(٣) سورة آل عمران، من الآية: ١١٨

(تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا) الخطاب هنا لكل من تتأتى منه الرؤية ، أى : تبصر وترى منهم كثرة الصلاة فى أغلب أحوالهم وكثرة أحيانهم ليلا ونهارًا ؛ ينبئ ويدل على ذلك التعبير بالفعل المضارع (تَرَاهُمْ) فإنه يدل على استمرار الفعل وتجرده (يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللهِ وَرِضْوَانًا) أى : يرجون فى جد واجتهاد بانكسار قلب . وذلة نفس أن يمنحهم الله من فضله ويمن عليهم من رضوانه تفضلًا منه وتكرمًا ، لأنهم لا يرون لهم أجرًا على ما قدموا من عمل طيب ، وأن ما قاموا به من طاعة وعبادة فهى - فضلًا على أنها بتوفيقه - دون أقل نعمة تفضل الله بها عليهم ، فنعم الله وأفضاله كثيرة تجل وتعظم عن الإحصاء والحصر . ويقف الإنسان منها عاجزًا عن عدّها وبيانها « وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ اللهِ لَا تُحْصُوهَا »[1] .

(سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ) أى : العلامة التى تميز المؤمنين عن سواهم أن ترى فى وجوههم سمة حسية وأمارة تنبئ عنهم وتدل عليهم . وذلك يكون من كثرة ما يسجدون لربهم . قال جار الله الزمخشرى فى الكشاف : وكان كل من العَلِيَّيْنِ : على بن الحسين زين العابدين ، وعلى بن عبد الله بن عباس أبى الأملاك يقال له : ذو الثَّفِنَات[2] ؛ لأن كثرة سجودهما أحدثت فى مواقعه منهما أشباه ثفنات البعير .

وعن سعيد بن جبير : هى سمة فى الوجه ، فإن قلت : فقد جاء عن النبيِّ ﷺ : (لا تعلبوا صوركم)[3] .

وعن ابن عمر - رضى الله عنه - أنه رأى رجلًا قد أثر فى وجهه السجود فقال : إن صورة وجهك أنفك فلا تعلب وجهك ولا تَشِنْ صورتك . قلت : ذلك إذا اعتمد بجبهته على الأرض لتحدث فيه تلك السمة ، وذلك رياء ونفاق يستعاذ بالله منه . ونحن نتحدث فيما حدث فى جبهة السَّجاد الذى لا يسجد إلا خالصًا لوجه الله - تعالى - وعن بعض المتقدمين : كنا نصلى فلا يُرى بين أعيننا شىء ونرى أحدنا الآن يصلى فيرى بين عينيه ركبة البعير ، فما ندرى أثقلت الرءوس أم خشنت الأرض ؟ وإنما أراد من تعمد ذلك للنفاق . وقيل : هو صفرة

---

(١) سورة إبراهيم من الآية : ٣٤ .

(٢) ثفن البعير : غلظت وصلبت المواضع التى يبرك عليها .

(٣) العلب : هو الأثر ، أى : لا تعيبوا صوركم بما تحدثون من أثر كما يثلم ويكسر حرف الإناء والسيف .

الوجه من خشية الله ، وقال بعضهم : ليس هو النحول والصفرة ولكنه نور يظهر على وجوه العابدين يبدو من باطنهم على ظاهرهم يتبين ذلك للمؤمنين ولو كان فى زنجى أو حبشى . وعن عطاء – رحمه الله – استنارت وجوههم من طول ما صلوا بالليل ، وفى الأثر : (مَنْ كثُرتْ صلاتُهُ بِالليْلِ حَسُنَ وجْهُهُ بالنَّهار) ، وأخرج الطبرانى فى الأوسط والصغير وابن مردويه بسند حسن عن أُبىّ بن كعب قال : قال رسول الله ﷺ فى قوله – تعالى – : (سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ) : « النور يوم القيامة » . قال الإمام الآلوسى : ولا يبعد أن يكون النور علامة فى وجوههم فى الدنيا والآخرة ، لكنه لما كان فى الآخرة أظهر وأتم خصه النبىّ ﷺ بالذكر .

(ذَٰلِكَ) إشارة إلى ما سبق من صفاتهم الحميدة وشمائلهم العظيمة ، وجاء اسم الإشارة (ذَٰلِكَ) الذى يدل على البعد للإيذان بعلو شأنهم وبعد منزلتهم فى الكمال والفضل .

وقوله – تعالى – : (مَثَلُهُمْ فِى التَّوْرَاةِ) أى : وصفهم العجيب الشأن الجارى فى الغرابة مجرى المثل لكونهم على صورة فريدة طيبة ومثال غريب لتميزهم فى عباداتهم ، وأنهم أسوة لسواهم ، وقدوة يحتذيها غيرهم ممن يأتى بعدهم ، وجاء هذا الوصف الجليل لهم فى الكتاب الذى أنزله الله على سيدنا موسى – عليه السلام – وهو التوراة .

(وَمَثَلُهُمْ فِى الْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ) أى : وصفتهم العظيمة فى الإنجيل الذى أنزله الله على سيدنا عيسى – عليه السلام – كزرع أخرج فِراخه من أغصان وأفنان وأوراق ، فتفرعت فى جانبيه فأعانه ذلك وقوّاه فصار من الدقة إلى الغلظ ، واشتد فاستقام وانتصب هذا الزرع على أصوله وقصبه وسيقانه .

(يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ) أى : معجبًا لهم بقوته وكثافته وغلظه وحسن منظره ، وخص الله – سبحانه – الزُّرَّاع بالذكر ؛ لأنهم أعرف من غيرهم بجيِّد الزرع من رديئه ، وبقَويِّه من ضعيفه ، ويحيطون علمًا بآفاته وعلله وعيوبه ، فإذا أعجبهم وظفر باستحسانهم له – وهم أهل الخبرة فيه – فسواهم أولى وأجدر بالإعجاب ، وأحق أن يحظى لديهم بما يملأ نفوسهم رضًا عنه وانفعالاً به .

وذكر ابن جرير ، وعبد بن حميد عن قتادة أنه قال : مكتوب فى الإنجيل : سيخرج قوم يشبهون نبات الزرع يخرج منهم قوم يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر . نقول : وعلى هذا يكون الوصف للصحابة وحدهم .

وقال صاحب الكشاف : هو مثل ضربه الله - تعالى - لبدء الإسلام وترقيه فى الزيادة إلى أن قوى واستحكم ؛ لأن النبى ﷺ قام وحده ثم قواه الله - تعالى - بمن معه كما يقوى الطاقة الأولى ما يحتف بها مما يتولد منها .

وظاهر قول الزمخشرى أن الزرع هو رسول الله ﷺ ، والشطء هو الصحابة ، ولكل وجهة .

(لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ) أى : فعل الله - تعالى - هذا لمحمد ﷺ ولأصحابه ليغيظ بهم الكفار ويجلب لهم الحسرة والندامة .

(وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا) أى : وعد الله أصحاب رسول الله ﷺ الذين آمنوا بالله حق الإيمان وعملوا من الصالحات ما جعلهم أهلًا لصحبة رسوله ﷺ وعدهم وبشرهم بمغفرة منه لما عسى أن يكون قد بدر منهم من ذنوب هى إلى الصغائر أقرب ، كما وعدهم وبشرهم بأجر عظيم وثواب كريم فى الآخرة .

وقد استنبط الإمام مالك من هذه الآية تكفير الذين يبغضون الصحابة - رضوان الله عليهم أجمعين - فإن الصحابة يغيظونهم ، ومن غاظه الصحابة فهو كافر ، ووافقه كثير من العلماء ، وفى كلام السيدة عائشة - رضى الله عنها - ما يشير إلى ذلك ، فقد أخرج الحاكم وصححه عنها فى قوله - تعالى - : (لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ) قالت : أصحاب رسول الله ﷺ أمروا بالاستغفار لهم فسبوهم .

أعاذنا الله من ذلك ، وثبت قلوبنا على محبته ﷺ ومحبة أصحابه الذين قال فيهم : « خير القرون قرنى ثم الذين يلونهم » ، وقال : « لا تسبوا أصحابى ؛ فلو أن أحدكم أنفق مثل أحُدٍ ذهبًا لم يدرك مُدّ أحدهم ولا نصيفه »[1] خرجهما البخارى - والله أعلم .

---

(١) أى : لم يدرك مد أحدهم ولا نصف المد إذا تصدق بمثل جبل أحد ذهبا ، والمد - بالضم - مكيال هو رطلان أو رطل وثلث ، أو ملء كفى الإنسان المعتدل إذا ملأهما ومد يده بهما وبه سمى مدا ، وقد جربت ذلك فوجدته صحيحا . القاموس المحيط .

« سورة الحجرات »

مدنية وآياتها ثمانى عشرة

مجمل معانيها :

تضمنت هذه السورة ألوانًا من الأدب الرفيع ، منها وجوب انتظار حكم الله ورسوله فى أمور الدين وعدم سبقه بالحكم ، وأن لا يرفع المسلمون أصواتهم فوق صوت النبىّ ﷺ ولا يجهروا له بالقول كجهر بعضهم لبعض ، وبيان أن الذين يخفضون أصواتهم عنده لهم مغفرة وأجر عظيم ، كما تضمنت أن نداءه ﷺ من وراء الحجرات فى وقت راحته لا يجوز وأن على أولئك المنادين أن ينتظروه حتى يخرج إليهم ، ليتحدثوا معه فيما جاءوا من أجله ، وحذرت من قبول المؤمنين خبر الفاسقين حتى يتحققوا من صدقه ، لكيلا يصيبوا قوما بجهالة فيصبحوا على ما فعلوا نادمين ، وأوجبت عليهم الإصلاح العادل بين الطائفتين المتقاتلتين من المؤمنين ، فإن لم يتم الصلح قاتلوا الطائفة الباغية حتى ترجع إلى حكم الله – تعالى – : (فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓاْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ) .

ونهت عن سخرية بعضهم من بعض ذكورًا كانوا أو إناثًا ، وعن التعاير بالألقاب ، وأمرت باجتناب كثير من الظن « إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ » ونهت عن التجسس وعن الغيبة ، وبينت أن الله – تعالى – خلق عباده من ذكر وأنثى وجعلهم شعوبًا وقبائل ليتعارفوا ، لا ليتفاخروا بالأحساب والأنساب ، فإن أكرمهم عند الله أتقاهم .

وكشفت كذب بعض الأعراب فى ادعائهم الإيمان ، ودعتهم إلى صدق الإيمان فإن الله بهم عليم (إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ) .

وجه ارتباطها بما قبلها :

ترتبط سورة الحجرات بسورة الفتح قبلها بعدة روابط ، منها : أنهما مدنيتان ومشتملتان على أحكام ، وأنّ سورة الفتح فيها قتال الكفار ، وهذه فيها قتال البغاة ، وتلك ختمت

بالذين آمنوا ، وهذه افتتحت بالذين آمنوا ، وتلك تضمنت تشريفا له ﷺ وبخاصة مطلعها وهذه تضمنت تشريفا له فى مطلعها ، إلى غير ذلك .

السبب العام لنزول هذه السورة :

قال القرطبى : قال العلماء : كان فى العرب جفاءٌ وسوءُ أدب فى خطاب النبىّ ﷺ ، وفى تلقيب الناس ، فالسورة فى الأمر بمكارم الأخلاق .

الأسباب الخاصة لنزول آياتها :

تشتمل هذه السورة على عدة أحكام وآداب ، ولكل آية منها سبب اقتضى نزولها ، وسنبين ذلك فى موضعه — إن شاء الله تعالى — .

بسم الله الرحمن الرحيم

(يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرْفَعُوٓاْ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُواْ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٢﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَٰتَهُمْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمْتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰۚ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٣﴾)

المفـــردات :

(لَا تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيِ اللهِ وَرَسُولِهِ) : لاتقدموا أمرًا قبل أن يحكم الله فيه ورسوله .

(لَا تَرْفَعُوٓاْ أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ) : لاتجعلوا أصواتكم أعلى من صوته .

(وَلَا تَجْهَرُواْ لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ) أى : ولا تساووه فى الجهر كما يساوى بعضكم بعضًا فيه .

(أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لَاتَشْعُرُونَ) أى : كراهة أن يبطل ثوابها وأنتم لاتدرون .

التفسير

١ - (يَٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لَاتُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيِ اللهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُواْ اللهَ إِنَّ اللهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ) :

تشتمل هذه الآية على صورة بلاغية ، حيث استعير التقدم بين اليدين استعارة تمثيلية للقطع بالحكم فى أمر دون اقتداءٍ بكتاب الله وبرسوله ، تصويرًا لشناعته بصورة المحسوس :

فمثله كمثل تقدم الخادم بين يدى سيده فى مسيره ، فالمراد من الآية : لا تقطعوا أمرًا ، ولا تجرؤوا على ارتكابه قبل أن يحكم الله فيه ورسوله ، فإن ذلك شديد القبح كالذى يسبق سيده فى سيره .

سبب النزول :

اختلف الرواة فى سبب نزول هذه الآية ، فقد روى الواحدى بسنده عن ابن جُرَيْج قال : حدثنى ابن أبى مُلَيْكَة أن عبد الله بن الزبير أخبره أنه قَدِم ركبٌ من بنى تميم على رسول الله ﷺ فقال أبو بكر : أَمِّر القعقاع بن معبد ، وقال عمر : أَمِّر الأقرع بن حابس ، فقال أبو بكر : ما أردت إلَّا خلافى ، وقال عمر : ما أردت خلافك ، فتماريا حتى ارتفعت أصواتهما ، فنزل فى ذلك قوله - تعالى - : (يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ) إلى قوله : (وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا۟ حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ) ورواه البخارى عن محمد ابن الصباح .

وروى المهدوى بسنده أن النبى ﷺ أراد أن يستخلف على المدينة رجلًا إذا مضى إلى خيبر ، فأشار عمر برجل آخر فنزل : (يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ) .

وروى الماوردىّ عن الضحاك عن ابن عباس - رضى الله عنهما - أن النبى ﷺ أنفذ أربعة وعشرين رجلًا من أصحابه إلى بنى عامر فقتلوهم إلا ثلاثة تأخروا عنهم فَسَلِمُوا ، وانكفأوا إلى المدينة فلقوا رجلين من بنى سليم ، فسألوهما عن نسبهما ، فقالا : من بنى عامر لأنهم أعز من بنى سليم فقتلوهما ، فجاء نفرٌ من بنى سليم إلى رسول الله ﷺ فقالوا : إن بيننا وبينك عهدًا ، وقد قتل منا رجلان ، فوداهما النبى ﷺ بمائة بعير فى قتلهم الرجلين.. إلى غير ذلك من الأقوال ، ولا نرى مانعًا من حدوث هذه الأسباب جميعًا قبل نزول الآية فلا تعارض بينها ، فتكون الآية قد نزلت بشأنها جميعًا ، ليلتزم أصحابها بالأدب مع رسول الله ﷺ وأن لا يُحْدثوا أمرًا قبل سؤاله وحكمه .

ويقول بعض العلماء : لعلها نزلت من غير سبب ، لتكون دستورًا للمسلمين فى أعمالهم وأقوالهم ، فلا يقدموا طاعة عن وقتها ، ولا يخالفوا عمل رسول الله ﷺ أو قوله فيها ، فهو

إمام أمته وأسوتها : « لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللهَ كَثِيرًا »[١] ..

ويدخل في عموم هذه الآية – كما قال ابن كثير – حديث معاذ قال : قال النبي ﷺ حين بعثه إلى اليمن : « بِمَ تحكم ؟ » قال : بكتاب الله . قال : « فإن لم تجد ؟ » قال : بسنة رسول الله ﷺ . قال : « فإن لم تجد ؟ » قال : أجتهد رأيي ، فضرب في صدره وقال : « الحمد لله الذى وفق رسولَ رسولِ الله، لما يرضي رسولَ الله » .

وقد ختم الله الآية بالتحذير من مخالفة هذا النهى فقال : ﴿ وَاتَّقُوا اللهَ إِنَّ اللهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ أي : وخافوا الله واجعلوا لأنفسكم وقاية من عقابه ، فإنه سميع لأقوالكم عليم بها ، وبأعمالكم ، فيجزيكم الجزاء اللائق بامتثالكم أو مخالفتكم .

المعنى الإجمالي للآية :

يا أيها الذين آمنوا اتَّبعُوا رسول الله في أقواله وأفعاله ، ولا تسبقوه بالحكم في أمر من أمور الدين أو سياسة الأمة ، فإن ذلك ليس من حقكم ، بل انتظروه حتى يحكم فيه فهو إمام أمته ، إن الله عظيم السمع واسع العلم ، فيسمع أقوالكم ، ويعلم بها وبأعمالكم فيجازيكم بالخير إذا امتثلتم ، ويعاقبكم إذا خالفتم .

بعض ما يستنبط من احكام الآية :

تعتبر الآية أصلًا في إيجاب اتباع رسول الله ﷺ وعدم مخالفته في قوله أو فعله ، فإنه كما قال – تعالى – : « وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ »[٢] .

ه ولهذا قال النبي ﷺ في مرض موته : « مُرُوا أبا بكر فَلْيُصَلِّ بالناس » فقالت عائشة لحفصة – رضي الله عنهما – : قولي له : إن أبا بكر رجل أسيف – أي : سريع البكاء – ، وإنه متى يقم مقامك لا يُسْمِع الناسَ من البكاء ، فَمُرْ عمر فليصل بالناس ، فقال ﷺ : « مُرُوا أبا بكرٍ فَلْيُصَلِّ بالناس » .

(١) سورة الأحزاب الآية : ٢١ .

(٢) سورة النجم ، الآيتان : ٣ ، ٤ .

ويفهم من الآية أن كل عبادة مؤقتة بوقت لا يجوز تقديمها عليه ،كالصلاة والصوم والحج .

واختلف فى تقديم الزكاة عن وقت وجوبها ، فأجازه قوم وبه قال أبو حنيفة ، والشافعى ، ومنعه قوم منهم أشهب ، فلا تقدم على وقتها لحظة واحدة .

وقد اعتمد الذين أجازوا تقديمها على وقتها – اعتمدوا – على فعل النبى ﷺ ، فقد استعجل من العباس صدقة عامين ، ولأنه ﷺ قد أقر جمع زكاة الفطر قبل يوم الفطر ، حتى تعطى لمستحقيها قبل يوم الوجوب ، وهو يوم عيد الفطر ، وبهذا القول نقول . فيجوز إعطاء الزكاة قبل تمام الحول ، فإذا حال الحول وقد نقص المال فما دفعه من الزيادة عن الواجب عليه يعتبر صدقة تطوع ، وإذا زاد كما فى عروض التجارة ، فإنه يستكمل الزكاة بإخراج نصيب هذا القدر الذى زاد .

وقد ختم الله الآية بقوله – سبحانه – : (وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ) أى : وخافوا الله واجعلوا لأنفسكم وقاية من عقابه بفعل ما أمر به وترك ما نهى عنه ، إن الله سميع لأقوالكم عليم بها وبأعمالكم ، فيجزيكم الجزاء اللائق بامتثالكم أو مخالفتكم .

٢ –(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ) :

سبب نزول الآية :

روى البخارى والترمذى بسندهما عن أبى مُلَيْكَةَ قال : حدثنى عبد الله بن الزبير أن الأقرع بن حابس قَدِم على النبى ﷺ فقال أبو بكر : يا رسول الله ، استعمله على قومه [١] ، فقال عمر : لا تستعمله يا رسول الله ، فتكلما عند النبى ﷺ حتى ارتفعت أصواتهما ، فقال أبو بكر لعمر : ما أردت إلا خلافى ، فقال عمر : ما أردت خلافك – قال – : فنزلت هذه الآية : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ ...) الآية ، قال :

---

(١) أى : اجعله واليا وأميرا عليهم .

فكان عمر بعد ذلك إذا تكلم عند النبي ﷺ لم يسمع كلامه حتى يستفهمه . قال أبو مُلَيْكَة : وما ذكر ابن الزبير جده - يعني أبا بكر - فقد كان والد أمه أسماء ذات النطاقين .

وسيأتى فى أسباب نزول الآية التالية رواية تفيد أن أبا بكر - رضى الله عنه - قال : (والله لا أرفع صوتى إلا كأخى السِّرار) .

وهذه قد سبق مثلها فى أسباب نزول الآية التى قبلها ، فتكون قصة أبى بكر وعمر من أسباب نزول الآيتين ، بل والآية التالية كما سيجىء - إن شاء الله تعالى - ويلاحظ على هذه الرواية أن الذى اقترح الأقرع بن حابس هو أبو بكر ، فى حين أن الرواية السابقة تفيد أنه اقترح تأمير القعقاع بن معبد ، وأن الذى اقترح تأمير الأقرع بن حابس هو عمر .

وعلى أى حال فالواقعة صحيحة وإن اختلفت الروايتان فى الشخص الذى اقترح كلاهما تأميره .

وروى الإمام أحمد بسنده عن أنس قال : لَمَّا نزلت هذه الآية : (يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرْفَعُوٓاْ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِىِّ ...) إلى (وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ) ، وكان ثابت ابن قيس رفيع الصوت فقال : أنا الذى كنت أرفع صوتى على رسول الله ﷺ أُحْبِطَ عملى ، أنا من أهل النار ، وجلس فى أهله حزينًا . فتفقده رسول الله ﷺ فانطلق بعض القوم إليه ، فقالوا له : تَفَقَّدكَ رسول الله ﷺ مالَكَ ؟ قال : أنا الذى أرفع صوتى فوق صوت النبى ﷺ وأجهر له بالقول حَبِط عملى ، أنا من أهل النار ، فأتوا النبى ﷺ فأخبروه بما قال . فقال : « لَا ، بل هو من أهل الجنة » قال أنس : فكنا نراه يمشى بين أظهرنا ونحن نعلم أنه من أهل الجنة ، فلما كان يوم اليمامة كان فينا بعض الانكشاف ، فجاء ثابت ابن قيس بن شماس ، وقد تحنط ولبس كفنه وقال : (بئسما تقودُون أقرانكم ، فقاتلهم حتى قتل) . وجاءت قصته فى الصحيحين عن أنس نحو هذه الرواية .

وقال عطاء الخراسانى : حدثتنى ابنة ثابت بن قيس قالت : لَمَّا نزلت (يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرْفَعُوٓاْ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِىِّ ...) دخل أبوها بيته وأغلق عليه بابه ، ففقده النبى ﷺ فأرسل إليه يسأل ما خبره ؟ فقال : أنا رجل شديد الصوت ، وأنا أخاف أن يكون حُبِطَ عملى ، فقال ﷺ : « لست منهم بل تعيش بخير » . قالت : ثم أنزل

« إِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ » فأغلق بابه وطفق يبكى ، ففقده النبى ﷺ فأرسل إليه فأخبره ، فقال : يا رسول الله ، إنى أحب الجَمَال وأحب أن أسود قومى ، فقال : « لست منهم ، بل تعيش حميدًا وتقتل شهيدًا وتدخل الجنة » قالت : فلما كان يوم اليمامة خرج مع خالد بن الوليد إلى مُسَيلمة[1] ، فلما التقوا انكشفوا ، فقال ثابت وسالم مولى أبى حذيفة : ما هكذا كنا نقاتل مع رسول الله ﷺ ثم حفر كل واحد منهما له حفرة ، فثبتا وقاتلا حتى قُتِلَا ، وعلى ثابت يومئذ درع له نفيسة ، فمرَّ به رجل من المسلمين فأخذها ، فبينما رجل من المسلمين نائمٌ أتاه ثابت فى منامه فقال له : أوصيك بوصية ، وإيَّاك أن تقول : هذا حلم فتضيعه ، إنى لَمَّا قُتِلت أمس مَرَّ بى رجل من المسلمين فأخذ درعى ، ومنزله فى أقصى الناس وعند خبائه فرس يَسْتَنُّ فى طِوَله[2] ، وقد كفأ على الدرع بُرْمَة ، وفوق البرمة رَحْل ، فائت خالد بن الوليد فمره أن يبعث إلى درعى فيأخذها ، وإذا قدمت المدينة على خليفة رسول الله ﷺ - يعنى أبا بكر - فقل له : إن عَلَىَّ من الدين كذا وكذا ، وفلان من رقيقى عتيق وفلان ، فأتى الرجل خالدًا فأخبره ، فبعث إلى الدرع فأتى بها ، وحدث أبا بكر برؤياه فأجاز وصيته - قال - : ولا نعلم أحدًا أجيزت وصيته بعد موته غير ثابت .

رأينا فى تعدد أسباب النزول :

لا نرى مانعًا من أن تكون الآية بسبب رفع الصوت على رسول الله ﷺ من كل من أبى بكر وعمر وثابت بن قيس أو غيرهم ، لتكون قاعدة عامة فى مخاطبة النبى ﷺ توقيرًا له ، ورفعًا لمقامه فوق كل مقام .

وكلُّ ما حدث من رفع الصوت على الرسول قبل نزول هذه الآية لا عقاب عليه ، فلما نزلت وجب الالتزام بها .

معنى الآية :

يا أيها الذين آمنوا بالله ورسوله : عظموا رسول الله ﷺ إذا حدثتموه ، فلا ترفعوا أصواتكم فوق صوته ، فإذا نطق ونطقتم فعليكم أن لا تبلغوا بأصواتكم الحد الذى يبلغه

---

(١) هو مسيلمة الذى ادعى النبوة كاذبا ، وكان خالد بن الوليد قائدا للجيش الذى يقاتله .

(٢) أى : وعند خيمته فرس مربوط بحبل طويل يمرح فيه فى المرعى .

بصوته ، وأن تغضوا وتخفضوا منها ، بحيث يكون كلامه غالبًا لكلامكم ، وجهره باهرًا لجهركم ، حتى تكون مزيته عليكم واضحة ، وسابقة ظاهرة ، وامتيازه بَيِّنًا ، فَلَا تغمروا صوته بلَغَطكم ، ولا تبهروا منطقه بصخبكم ، ولا تخاطبوه بيا محمد ويا أحمد ، ولكن قولوا : يا نبي الله ، أو يا رسول الله – انتهوا عمَّا نهيتم عنه – لئلا يتأذى نفسيًّا برفعكم أصواتكم ، واجتنابكم أسلوب التوقير له ، فتحبط أعمالكم ويضيع ثوابكم ، وأنتم لا تشعرون بذلك فى دنياكم ، بل تعلمونه فى أخراكم .

وإذا وصل الجهر بالصوت إلى حد الاستخفاف والاستهانة فذلك كفر – والعياذ بالله – فالغرض من الآية أن يكون صوت المؤمن عند خطابه لرسول الله ﷺ خفيضًا مناسبًا لمقامه وهيبته ، لكن بحيث يسمعه .

ولا يتناول النهى رفع الصوت الذى لا يتأذى به ، وهو ما كان منهم فى حرب أو مجادلة معاند أو إرهاب عدو وما أشبه ذلك ، ففى الحديث أنه ﷺ قال للعباس بن عبد المطلب لَمَّا انهزم الناس يوم حنين : « اصرخ بالناس » .

وكان العباس أجهر الناس صوتًا ، روى أن غارة أتتهم ، فصاح العباس : يا صباحاه فأسقطت الحوامل لشدة صوته ، وفيه يقول نابغة بنى جعدة :

زَجْرَ أبِى عُرْوَة السباعَ إذا أشفق أن يختلطن بالغنم

وأبو عُرْوة كنية العباس – رضى الله عنه –

وقد أثنى الله على من يخفضون أصواتهم عند رسول الله ﷺ ووعدهم المغفرة والأجر العظيم فقال :

٣ – ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِندَ رَسُولِ اللهِ أُوْلَٰئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ :

أى : إن الذين يخفضون أصواتهم عند رسول الله ﷺ حين يكلمونه أو يكلمون غيره

بين يديه إجلالًا له ، أولئك الذين أخلص الله قلوبهم للتقوى ، لهم مغفرة لذنوبهم ، وأجر عظيم على خفض أصواتهم عنده .

ولفظ (امْتَحَنَ) من قولهم : امتحنْتُ الفضة ، أى : اختبرتها حتى خَلَصتْ ، وروى عن أبى هريرة أنه قال : لَمَّا نزلت : (لَا تَرْفَعُوٓاْ أَصْوَاتَكُمْ ...) قال أبو بكر : (والله لا أرفع صوتى إلا كأخى السِّرار) أى : إلا كصاحب المسارَّة ، وقال عبد الله بن الزبير : لَمَّا نزلت : (لَا تَرْفَعُوٓاْ أَصْوَاتَكُمْ ...) ما حدث عمر عند النبى ﷺ بعد ذلك فسمع كلامه حتى يستفهمه مِمَّا يخفض ، فنزلت : (إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَٰٓئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ) .

(إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ الْحُجُرَٰتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُواْ حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥﴾)

المفـــردات :

(يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ الْحُجُرَاتِ) : يرفعون أصواتهم من خارج حجرات أزواجه ﷺ طالبين خروجه إليهم ، وسيأتى الحديث عنهم .

التفسير

٤ - (إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ) :

كان الأعراب ذوى خشونة وجفاء فى أخلاقهم وطباعهم قبل أن يدخلوا الإسلام فيرقق طباعهم ويحسن أخلاقهم .

وكان من عادة رسول الله ﷺ أن ينام القائلة - أى : نصف النهار - فجاء وفد من أعراب بنى تميم يفادون أسراهم عند رسول الله ﷺ فجعلوا ينادونه من وراء الحجرات أن يخرج إليهم دون أن ينتظروه حتى يخرج من حجرته ، فأنزل الله عليه تلك الآية .

قال مجاهد وغيره : نزلت فى أعراب بنى تميم ؛ قَدِم الوفد منهم على النَّبى ﷺ فدخلوا المسجد ونادوا النبى ﷺ من وراء حجراته : أن اخرج إلينا فإن مدحنا زَيْنٌ وذمنَا شَيْنٌ ، وكانوا سبعين قدموا لفداء ذرارى لهم ، وكان النبى ﷺ نَام القائلة .

وروى أن الذى ناداه منهم هو الأقرع بن حابس ، وأنه هو القائل : إن مدحى زين وإن ذمى شين ، فقال النبى ﷺ : « ذاك الله » رواه الترمذى عن البراء بن عازب ، والمراد من قوله ﷺ : « ذاك الله » أن الذى مَدْحُهُ زين وذمه شين هو الله تعالى .

وفى رواية عن زيد بن أرقم قال : « أتَى أُناس النبى ﷺ فقال بعضهم لبعض : انطلقوا بنا إلى هذا الرجل ، فإن يك نبيًّا فنحن أسعد الناس باتباعه ، وإن يك مَلِكًا نَعِش فى جنابه فأتوا النبى ﷺ فجعلوا ينادونه : يا محمد ، يا محمد .

وهناك روايات أُخرى لسبب النزول ، وحَسْب القارئ ماتقدم .

والحجرات جمع حجرة[1] والمراد بها بيوت النبى ﷺ التى أسكن فيها زوجاته ، وقد بينت الآية أن أكثر هؤلاء المنادين لا يعقلون ، ويفهم منها أن أقلهم يعقلون وهم الذين لم يوافقوا على ندائه قبل أن يخرج إليهم .

والمعنى الإجمالى للآية : أن الأعراب الذين ينادونك - أيها النبى - من وراء الحجرات وقت راحتك فى النهار أو الليل ، أكثرهم لا يعقلون ، حيث لم يفرقوا بين مايليق وما لا يليق وقد أوضح الله لهم ولغيرهم كيف يكون الأدب مع رسول الله ﷺ فقال :

٥ - (وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُواْ حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ) :

كان النبى ﷺ لا يحتجب عن الناس إلا فى أوقات يشتغل فيها بمهمَّات نفسه ، وذلك حقٌّ له ، فمن سوء الأدب إزعاجه وقت راحته ، وعلى من أراد لقاءه أن ينتظره حتى يخرج .

---

(١) والحجرة : الرقعة من الأرض المحجورة بحائط يحيط بها ، وكل ما منعت أن يوصل إليه فقد حجرت عليه .

ومعنى الآية : ولو أن هؤلاء الذين نادوك من وراء الحجرات وأنت مستريح – لو أنهم – انتظروك حتى تخرج إليهم ، لكان انتظارهم وصبرهم خيرًا لهم فى دينهم ودنياهم ، والله – تعالى – واسع المغفرة شامل الرحمة . فيقبل التوبة ممن تاب وآمن ، ومن هذا الأدب نعلم أنه ينبغى أن لا ينادى الناس بعضهم بعضًا من وراء مساكنهم ، وأن لا يستأذنوا فى أوقات الراحة ، وينبغى أن يكون الاستئذان بالقرع الخفيف على الباب ، وقد قام مقامه الضغط على (زر الكهرباء) ليصلصل الجرس ، فإذا فتح للطارق سلم على من فتح له . أى : قال له : السلام عليك ، ولا يدخل البيت إلا بإذن ممن له حق الإذن . وفى هذا يقول الله – تعالى – : « يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُواْ لَا تَدْخُلُواْ بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُواْ وَتُسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَهْلِهَا ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ . فَإِن لَّمْ تَجِدُواْ فِيهَآ أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤْذَنَ لَكُمْ وَإِن قِيلَ لَكُمُ ارْجِعُواْ فَارْجِعُواْ هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ »[1]

(يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقُۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوْمًۢا بِجَهَٰلَةٍ فَتُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَٰدِمِينَ ﴿٦﴾ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ ٱللَّهِ ۚ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِى كَثِيرٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ﴿٧﴾ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعْمَةً ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٨﴾)

(١) سورة النور ، الآيتان : ٢٧ ، ٢٨

المفردات :

(فَاسِقٌ) : مرتكب للمعصية خارج عن الطاعة ، من فَسَقَت الرُّطَبة : خرجت عن قشرها.

(بِنَبَإٍ) : بخبر .

(فَتَبَيَّنُوا) : فتثبتوا .

(أن تُصِيبُوا قَوْماً بِجَهَالَةٍ) : لئلا تعتدوا على قوم بغير علم .

(لَعَنِتُّمْ) : لأصابكم العنت وهو المشقة والإثم .

(أُوَلَٰئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ) : أولئك هم المستقيمون على طريق الحق مع تصلب فيه ، من الرشادة : وهى الصخرة .

التفسير

٦ - (يَٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقُۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوْمًۢا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ) :

الخبر الكاذب تكون آثاره بعيدة عن الصواب مجانبة للحق ، ولذا ينبغى التدقيق فى التعرف على راوى الخبر ، هل هو ممن عرف بالصلاح والصدق فيقبل خبره ، أم هو ممن عرف بالفسق والكذب فيتحرى عن خبره ويتثبت منه .

ولهذا أنزل الله هذه الآية الكريمة لتوعية المسلمين بالتدقيق فى تلقى الأخبار ، لما يترتب على قبولها من الفساق من سئ الآثار .

سبب نزول الآية :

روى سعيد عن قتادة أن النبى ﷺ بعث الوليد بن عُقْبَة مُصَدِّقًا إلى بنى المصطلق - أى : جابياً للصدقة منهم وهى الزكاة - فلما أبصروه أقبلوا نحوه فهابهم لإحنة كانت بينه وبينهم - كما جاء فى بعض الروايات - فرجع إلى النبى ﷺ فأخبره بأنهم قد ارتدوا عن الإسلام ، فبعث نبى الله ﷺ خالد بن الوليد ، وأمره أن يتثبت ولا يعجل ، وانطلق خالد حتى أتاهم

ليلًا ، فبعث عيونه – أى : جواسيسه – فلما جاءوا أخبروا خالدًا أنهم متمسكون بالإسلام ، وسمعوا أذانهم وصلاتهم ، فلما أصبحوا أتاهم خالد ورأى صحة ما ذكروه ، فعاد إلى النبى ﷺ فأخبره فنزلت الآية ، فكان نبى الله يقول : « التأنى من الله والعجلة من الشيطان » .

وجاء فى رواية أخرى أن وفدهم قدم على النبى ﷺ فقالوا : يارسول الله سمعنا رسولك فخرجنا إليه لنكرمه ونؤدى إليه ماعندنا من الصدقة ، فاستمر راجعًا ، وبلغنا أنه يزعم لرسول الله ﷺ أنا خرجنا لنقاتله ، والله ماخرجنا لذلك ، فأنزل الله هذه الآية .

هل كان الوليد فاسقا ؟ :

تقول الآية : (إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓاْ) وهى تشير إلى أن الوليد كان فاسقًا ، فكيف يبعثه النبى لجلب الصدقة من المسلمين ؟

والجواب : أنه ﷺ لم يكن يعلم بحاله ، فلما أرسله وحدث منه ما حدث ظهر فسقه ، فنزلت الآية للتحذير من قبول من يحتمل أنه فاسق حتى يتبينوا .

المعنى الاجمالى للآية :

يا أيها الذين آمنوا بالله ورسوله : إن جاءكم من يحتمل فسقه بخبر خطير فتثبتوا من صدقه ، لكى لا تصيبوا قومًا وتعتدوا عليهم وأنتم جاهلون للحقيقة ، فتصبحوا نادمين على ما فعلتم من التسرع فى الانتقام منهم ، قبل التثبت من حال خبرهم ، وذلك حين تظهر الحقيقة مخالفة للخبر بعد التورط فى آثاره .

٧ – (وَاعْلَمُوٓاْ أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِى كَثِيرٍ مِّنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِى قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَٰٓئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ) :

المعنى : واعلموا يا صحابة رسول الله أن فيكم رسول الله فاصدقوه ولا تكذبوه ، وعظموه ووقروه ، وتأدبوا معه وانقادوا لأمره ، فإنه أعلم بمصالحكم وأشفق عليكم ، ورأيه فيكم أتم من رأيكم لأنفسكم ، فلو سارع إلى ما أردتم قبل وضوح الأمر ، لنالتكم المشقة والإثم ،

فإنه لو قاتل الذين كذب عليهم الوليد بن عقبة ، لكان خطأً كبيرًا ، ولأصاب العنت ، والإثم الوليد بن عقبة الذى أراد قتالهم ولأصاب من كان على رأيه منكم .

ثم خاطبهم الله مشيرًا إلى أنهم- مع خطئهم فى المشورة فى كثير من الأمور- مقيمون على الحق فقال : (وَلَٰكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ) أى : ولكن الله حبب إليكم الإيمان بالله ورسوله وحسَّنه فى قلوبكم حتى اخترتموه (وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ) فرفضتموها « أُولَٰئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ » أولئك الموصوفون بهذه الصفات هم المستقيمون على طريق الحق مع تصلب فيه .

والرشد مأخوذ من الرشادة ، وهى الصخرة ، كما تقدم فى المفردات .

٨ - (فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ) :

أى : فعل الله ذلك بكم فضلا وإنعاماً منه ، والله عليم بما يصلحكم ، حكيم فى تدبير أموركم .

(وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ فَإِن فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴿٩﴾ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٠﴾)

المفـــردات :

(طَائِفَتَانِ) : جماعتان .

(فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا) : فإن تعدت وظلمت .

(حَتَّىٰ تَفِيٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ) : حتى ترجع إلى أمره .

(وَأَقْسِطُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ) الإقساط[1] : العدل أى : واعدلوا فى الإصلاح بين الطائفتين إن الله يحب العادلين .

التفسير

٩ - (وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُواْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا) الآية :

مقـدمة :

بعث الله محمدًا بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ، ولا يتحقق ذلك إلا بالوحدة وعدم التفرق بين المسلمين ، امتثالا لقوله - تعالى - : « وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعاً وَلَا تَفَرَّقُواْ ... »[2] فإذا وسوس الشيطان بين فريقين منهم حتى اقتتلوا ، وجبت المسارعة إلى الإصلاح بينهما ، كما كان النبى ﷺ يصنع مع أصحابه ، وعلى الفريقين أن ينقادوا إلى الصلح حفاظاً على الوحدة بين المسلمين ، ومن أجل ذلك نزلت هذه الآية والتى تليها .

سبب النزول :

روى المعتمر بن سليمان عن أنس بن مالك قال : (قلت : يارسول الله ، لو أتيت عبد الله بن أُبَىّ - يعنى ابن سلول رأس المنافقين - فانطلق إليه النبى ﷺ فركب حماراً وانطلق المسلمون يمشون ، وهى أرض سبخة ، فلما أتاه النبى ﷺ قال : إليك عنى ، قد آذانى نَتَنُ حمارك ، فقال رجل من الأنصار : والله لَحِمَارُ رسول الله ﷺ أطيب ريحاً منك ، فغضب لعبد الله رجل من قومه ، وغضب لكل واحد منهما أصحابه ، فكان بينهم حرب بالجريد والأيدى والنعال ، فبلغنا أنه أنزل فيهم هذه الآية)[3] وعلى أساسها أصلح النبى بينهم .

---

(١) إفعال من القسط - بكسر القاف - وهو العدل ، أما القسط - بفتح القاف - فهو الظلم ، ومنه قوله - تعالى - : « وأما القاسطون فكانوا لجهنم حطبا » .

(٢) من الآية ١٠٣ من آل عمران .

(٣) رواه الإمام أحمد بسنده عن معتمر ، ورواه البخارى فى الصلح عن مسدد ، ورواه مسلم فى المغازى بسنده عن محمد بن عبد الأعلى ، كلاهما عن المعتمر بن سليمان عن أبيه .

وقال مجاهد : نزلت فى الأوس والخزرج ، قال مجاهد : تقاتل حيّان من الأنصار بالعصى والنعال فنزلت .

وتوفيقاً بين الروايتين نقول : إن عبد الله بن أبى بن سلول والذين تعصبوا له أوسيون والذين جابهوهم خزرجيون وعلى رأسهم عبد الله بن رواحة كما جاء فى إحدى الروايات .

كيف يكون الإصلاح بينهما ؟

يكون الإصلاح بين الطائفتين المتقاتلتين من المؤمنين بالعدل وعدم التحيز إلى فئة على حساب الأخرى ، فإن دين الإسلام دين مساواه ، وبذلك ترضى نفوسهما ويزول ما بينهما ، ومن وسائل الصلح التنازل عن حق الإمارة ، فقد بويع الحسن بن على - رضى الله عنهما - بعد قتل أبيه ، ثم تنازل عن حقه فى الإمارة والخلافة ، حقناً لدماء المسلمين وجمعا لكلمتهم وقد أخبر النبى ﷺ بذلك فى طفولة الحسن .

روى الإمام البخارى بسنده عن أبى بكرة أن رسول الله ﷺ خطب يوماً ومعه على المنبر الحسن بن على ، فجعل ينظر إليه مَرَّةً وإلى الناس أخرى ويقول : « إن ابنى هذا سيِّدٌ ، ولعل الله - تعالى - أن يصلح به بين فئتين عظيمتين من المسلمين » فكان كما قال ﷺ فقد أصلح الله به بين أهل الشام وأهل العراق ، بعد الحروب المدمرة التى كانت بين أبيه وبين معاوية .

(فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ فَإِن فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ) :

أى : فإن تطاولت إحداهما على الأخرى ولم تستجب للصلح فهى باغية عليها ، فيجب على المسلمين قتالها حتى ترجع إلى حكم الله فى كتابه وسنة رسوله ، فإن رجعت إليه فكُفُّوا عن قتالها ، وأصلحوا بينهما بالعدل وأقسطوا إن الله يحب المقسطين .

بعض ما يستنبط من احكام الاية :

١ - استدل البخارى وغيره بالآية على أن المؤمن لايخرج عن إيمانه بالمعصية وإن عظمت ، لا كما يقول الخوارج وفريق من المعتزلة ، والآية صريحة فى ذلك ، فإنها سمَّتهم (المؤمنين) مع قتالهم ، وكما صرح به الحديث الصحيح السابق « ولعل الله أن يصلح به بين فئتين عظيمتين من المسلمين » .

٢ - دلت الآية على وجوب قتال الفئة الباغية على الإمام وعلى سواه من المسلمين ، كما أنها حجة على من منع قتال المؤمنين مطلقاً ، محتجاً بقوله ﷺ : « قتال المؤمن كفر » فلو كان قتال المؤمن الباغى كفرا ، لكان أمر الله بقتاله أمرا بما يكفر ، تعالى الله عن ذلك علوًّا كبيرًا - كما أن هذا القول مخالف لقوله ﷺ : « خذوا على أيدى سفهائكم » ولو كان قتال المؤمن محرماً على الإطلاق ، لما قاتل أبو بكر الصديق والصحابة مانعى الزكاة من المؤمنين .

وقد أمر الصديق أن لايتبع فارٌّ ، ولا يجهز على جريح منهم ، ولا تَحِلُّ أموالهم ، بخلاف الواجب فى الكفار .

ويقول الطبرى : لو كان الواجب فى كل خلاف بين فريقين الهرب منه ولزوم المنازل ، لما أُقيم حَدٌّ ولا أُبطل باطل ، ولوجد أهل النفاق والفجور سبيلا إلى استحلال كل ماحرم عليهم من أموال المسلمين ، وسبى نسائهم وسفك دمائهم ، بأن يتحزبوا عليهم ويكف المسلمون أيديهم عنهم ، وذلك مخالف لقوله ﷺ : « خذوا على أيدى سفهائكم » : إهـ . فلذلك كله يحمل حديث « قتال المؤمن كُفْرٌ » على قتال غير البغاة منهم استحلالاً له .

قتـال على ومعاوية :

كان القتال لشبهة قامت بينهما ، فالإمام علىٌّ طلب البيعة من أهل الشام وعلى رأسهم معاوية ، ومعاوية طلب الأخذ بثأر عثمان ممن يوجد منهم فى معسكر على ، فكان علىٌّ يقول : ادخلوا فى البيعة واطلبوا الحق تصلوا إليه ، وكان معاوية ومن معه يقولون : لاتستحق البيعة وقتلة عثمان معك تراهم صباحاً ومساءً .

وكان علىٌّ أحسن رأيا من معاوية فى هذا ، لأنه لوقتل الذين قتلوا عثمان قبل تمام البيعة ، لتعصبت لهم قبائلهم وصارت حربا أخرى ، فانتظر بهم أن يستوثق الأمر وتنعقد البيعة ، ويقع الطلب من أولياء دم عثمان فى مجلس الحكم ؛ فيجرى القضاء بالحق والمسلمون يد واحدة .

٣ – يستنبط من قوله – تعالى – : « فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ » أن لا يطالبوا بما جرى بينهما من دم ، ولا ما أنفق من مال ، فنى طلب ذلك منهم تنفير لهم عن الصلح .

٤ – قال القرطبى : لا يجوز أن يُنْسبَ إلى أحد من الصحابة خطأٌ مقطوع به ، إذكانوا كلهم اجتهدوا فيما فعلوه ، وأرادوا الله–عز وجل– ، وهم كلهم لنا أئمة ، وقد تعبدنا الله بالكف عما شجر بينهم ، وأن لا نذكرهم إلا بأحسن الذكر لحرمة الصحبة ، ونهى النبى ﷺ عن سبهم ، وذكر أن الله غفر لهم وأخبر بالرضا عنهم ، قال –تعالى – فى سورة التوبة : « وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ ... »[1] وقال فى سورة الفتح : « لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ ... »[2] هذا مع ما ورد من الأخبار من طرق مختلفة عن النبى ﷺ « أن طلحة شهيد يمشى على الأرض » فلو كان ما خرج له معصية لم يكن بالقتل فيه شهيداً .

ثم قال القرطبى : وسئل بعضهم عن الدماء التى أريقت فيما بينهم فقال : تلك دماء طهر الله منها يدى فلا أُخضِّب بها لسانى . يريد التحرز من الحكم على بعضهم بما لايكون مصيباً فيه .

ثم قال القرطبى : وقال الحسن البصرى : قتال شهده أصحاب محمد ﷺ وغِبْنَا ، وعلموا وجهلنا ، واجتمعوا فاتبعنا ، واختلفوا فوقفنا . قال المحاسبى : فنحن نقول كما قال الحسن ، ونعلم أن القوم كانوا أعلم بما دخلوا فيه منا ، ونتبع ما اجتمعوا عليه ، ونقف

---

(١) من الآية ١٠٠

(٢) من الآية ١٨

عما اختلفوا فيه ، ولا نبتدع رأياً منّا ، ونعلم أنهم اجتهدوا وأرادوا الله – عز وجل – إذ كانوا غير متهمين فى الدين – انتهى ما قاله القرطبى وما نقله عن غيره بتصرف يسير .

١٠ –(إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ) :

إنما المؤمنون إخوة فى الدين ، والأخوة فيه أقوى من الأخوة فى النسب ، فاتقوا الله فى الإصلاح بينهم لعلكم ترحمون فى الدنيا والآخرة .

أخرج الصحيحان بسندهما عن النبى ﷺ أنه قال : « المسلم أخو المسلم ، لايظلمه ولا يخذله ولا يحقره ، التقوى هاهنا – ويشير إلى صدره – بِحَسْبِ امرئ من الشر أن يَحْقِرَ أخاه المسلم ، كل المسلم على المسلم حرام ، دمه وماله وعرضه » .

راى على فيمن قاتلوه :

سئل الإمام على – رضى الله عنه – عمّن قاتلوه : أمشركون هم ؟ قال : لا ، من الشرك فَرُّوا ، فقيل له : أمنافقون هم ؟ قال : لا ؛ لأن المنافقين لايذكرون الله إلا قليلا ، فقيل له : فما حالهم ؟ قال : إخواننا بَغَوْا علينا .

(يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ ۖ وَلَا تَلْمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلْأَلْقَٰبِ ۖ بِئْسَ ٱلِٱسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَٰنِ ۚ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿١١﴾)

المفـــردات :

(قَوْمٌ) : هم الرجال دون النساء .

(وَلَا تَلْمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمْ) : ولا يعب بعضكم بعضاً .

(بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ) أى : بئس أن يسمى المسلم كافرًا أو زانياً بعد إيمانه .

التفسير

١١ - (يَٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ ..) الآية :

من أهداف الإسلام العظمى أن يجعل المؤمنين مجتمعا فاضلا يقوم على مكارم الأخلاق ، وقد اشتملت هذه الآية على آداب رشيدة من دستور الإسلام الخلقى ، وبيان ذلك فيما يلى :

نهى الله المؤمنين فى صدر هذه الآية عن سخرية بعضهم ببعض ، والاستهزاء بهم ، والقوم يطلق على الرجال بخاصة ، وقد يدخل النساء فى القوم مجازًا ، ولكن الله شاء أن يعنى بهذه الخصلة ، فنهى النساء عنها نهياً مستقلا عن نهى الذكور لكثرة وقوعها بينهن .

سبب نزول الآية :

اختلف فيه ، فقال الضحاك : نزلت فى وفد بنى تميم الذين تقدم ذكرهم فى تفسير أول السورة ، استهزءوا بفقراء الصحابة مثل عمّار وخباب وابن فهيرة ، وبلال وصهيب وسلمان الفارسى ، وسالم مولى أبى حذيفة وغيرهم حين رأوا رثاثة حالهم ، فنزلت فى الذين آمنوا من هؤلاء المستهزئين .

وقيل : نزلت فى عكرمة بن أبى جهل حين قدم المدينة مسلماً ، وكان المسلمون إذا رأوه قالوا : ابن فرعون هذه الأمة ، فشكا ذلك إلى رسول الله ﷺ فنزلت ، وقيل غير ذلك .

وسواء كان السبب هذا أو ذاك أو غيرهما ، فالمراد أن لايقدم أحد من الرجال أو النساء على الاستهزاء بمن يقتحمه بعينه إذا رآه رث الهيئة أو ذا عاهة فى بدنه أو غير ذلك ، فلعله أخلص ضميرًا وأنقى قلباً ممن هو على ضد صفته ، فيظلم نفسه بتحقير من وقره الله .

وقد كان السلف يبالغون فى البعد عن السخرية ، وهو لا يكلفنا شيئاً ، فينبغى أن نكون مثلهم ، فالعبرة فى الإسلام بالقلوب لا بهيئات الناس ومظاهرهم قال ﷺ : « إن الله لا ينظر إلى صوركم ، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم » وإذا رأيت إنسانا على معصية فانهه ولا تسخر منه .

ويقول الله – تعالى – :(وَلَا تَلْمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمْ) واللمز : العيب ، وقد يكون باللسان أو الإشارة أو العين أو غير ذلك ، وقال : (وَلَا تَلْمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمْ) ولم يقل : ولا يلمز بعضكم بعضاً ، ليشير بذلك إلى أن المؤمنين كنفس واحدة ، فمن عاب غيره منهم فكأنما عاب نفسه ، قال ﷺ : « المؤمنون كجسد واحد ، إن اشتكى عضو منه تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى » أو : لا تفعلوا ماتلمزون به ؛ فإن من فعل ما استحق به اللمز فقد لمز نفسه .

ثم يقول الله – تعالى – : (وَلَا تَنَابَزُواْ بِالْأَلْقَابِ) والنَّبَز – بالتحريك – : اللقب ، ويكثر إطلاقه على لقب السوء ، وبالتسكين (النَّبْز) المصدر ، تقول : نبزه ينبزه نبْزًا : إذا لقبه بما يسوءه ، أخرج الترمذى فى سبب نزولها عن أبى جبير بن الضحاك قال : كان الرجل منا يكون له الاسمان والثلاثة ، فيدعى ببعضها فعسى أن يكره ، فنزلت هذه الآية (وَلَا تَنَابَزُواْ بِالْأَلْقَابِ) قال : هذا حديث حسن .

وقال قتادة : هو قول الرجل للرجل : يافاسق ، يا منافق .

ومن الآية وسبب النزول عرفنا أن تلقيب الرجل بما يكره منهى عنه .

وجاء فى الآية « بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ » أى : بئس أن يسمى الرجل كافرًا أو فاسقاً بعد إسلامه وتوبته ، روى أن أبا ذرٍّ كان عند النبى ﷺ فنازعه رجل ، فقال له أبوذر : يا ابن اليهودية ، فقال ﷺ : « ما ترى ؟ ها هنا أحمر وأسود ؟ ما أنت بأفضل منه » .

وقيل فى معنى الآية : إن من لقّب أخاه أو سخر منه فهو فاسق .

واستثنى من ذلك ما غلب عليه الاستعمال ولم يكن لصاحبه فيه كسب ولا يتأذى منه ، لأنه لمجرد التمييز لا الإيذاء ، كالأعرج والأحدب والطويل والقصير ، ومثل ذلك قد يأتى فى أسانيد الحديث ورجاله .

ويجوز تلقيب الإنسان بما يحب ، ولهذا لقب الرسول ﷺ عُمَرَ بالفاروق ، وأبا بكر بالصديق ، وعثمان بذى النورين ، قال ﷺ : « من حق المؤمن على المؤمن أن يسميه بأحب أسمائه إليه » ولهذا كانت التكنية من السنة والأدب الحسن ، وقد لقب أبو بكر بالعتيق كما لقب بالصديق ، وحمزة بأسد الله ، وخالد بن الوليد بسيف الله .

المعنى الاجمالى للآية :

يا أيها الذين شرفهم الله بالإيمان : لا يسخر أحد من أحد ، فلا يستهزئ الرجال بالرجال ، ولا النساء بالنساء ، عسى أن يكون المسخور به خيرًا عند الله من الساخر ، لنظافة قلبه وصفاء نفسه ، ولا يَعِبْ بعضكم بعضا بالقول أو الإشارة أو نحوهما ، فإن المؤمنين كنفس واحدة ، فإذا لمزتَ أخاك وعبتَهُ فكأنما لمزت نفسك وعبتها ، بئس الوصف الفسوق بعد الإيمان ، فمن حق الإيمان أن يعصم الناس عن أن يعيب بعضهم بعضا ، فإذا فعل المؤمن ذلك فقد فسق بعد الإيمان ، وذلك أمر لا يليق بالمؤمنين ، ومن لم يتب من الاستهزاء بغيره وتنقيصه بالعيب فيه ، فأولئك هم الظالمون لأنفسهم ولإخوانهم المؤمنين .

(يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجْتَنِبُواْ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُواْ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَـٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾)

المفــــردات :

(الظَّنّ) المراد به فى الآية : الاتهام .

(وَلَا تَجَسَّسُواْ) التجسس : هو البحث فى خفية عما يكتم عنك .

(وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضاً) : لا يتحدث عنه فى غيبته بما يكرهه .

(وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَآئِلَ) الشعوب : رءوس القبائل كربيعة ومضر ، والقبائل فروعها ، وقال ابن عباس : الشعوب : الجمهور ، والقبائل : الأفخاذ .

التفسـير

١٢ - (يَـٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اجْتَنِبُواْ كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ ....) الآية :

بعد أن بين الله - تعالى - فى الآية السابقة تحريم السخرية والتنابز بالألقاب ، جاء بهذه الآية استكمالا لحقوق المسلم على أخيه .

وقد اشتملت هذه الآية على تحريم سوء الظن بالناس ، والتجسس عليهم ، وحديث السوء عنهم فى غيبتهم ، وقد جاء فى الصحيحين واللفظ للبخارى عن أبى هريرة أن النبى ﷺ .

قال : « إياكُم والظَّن ، فإنَّ الظَّن أكذبُ الحديثِ ، ولا تَجسَّسُوا ، ولا تَباغَضُوا ، ولا تَنَابَزُوا وَكُونُوا عِبادَ اللهِ إخْواناً » .

والظَّن فى الآية والحديث هو الاتهام ، فلا يحل لمسلم أن يتهم أخاه ، صيانة لأعراض الناس وتأميناً لهم من سوء السمعة بدون مقتض ، ومنعاً للعداوة وآثارها .

ويفهم من النهى عن كثير من الظن أنه يجوز بعض الظن ، وذلك إذا وجدت أمارة تقتضيه ، قال القرطبى : والذى يميز الظنون التى يجب اجتنابها عما سواها ، أن كل مالم نعرف له أمارة صحيحة وسببا ظاهرا كان حراماً واجب الاجتناب ، وذلك إذا كان المظنون به ممن شوهد منه الستر والصلاح ، وأونست منه الأمانة فى الظاهر ، فظنُّ الفساد به والخيانة محرم ، بخلاف من اشتهر عند الناس بتعاطى الرِّيب ، والمجاهرة بالخبائث .

ونزيد على ذلك فنقول : إنه لاينبغى أن تتهم إنسانا بأنه هو الذى أحدث لك بعض الأضرار فى أرضك أو بيتك أو سمعتك ، ما لم تقم أمارة قوية على ذلك ، حتى لا تتورط معه فيما يضرك ويضره ، فربما كان ما أصابك مِمَّن يظهر لك مودة وأنت به واثق .

ويجوز الحذر من شخص أو أشخاص ، خشية أن يأتيك ضرر من جهتهم ، وليس لك أن تتهمهم بغير دليل ، فإن اتهمتهم لوجود أمارة تدل عليه فلك الحق فى اتهامهم ، ولكن ليس لك الحق فى الانتقام منهم ، فربما كانوا برآء ، وعليك أن تلجأ إلى القضاء ، فهو الذى يفصل الحق من الباطل .

ويجوز التجسس لتوقى هذه الأضرار ، دون أى مساس بحرمات من تتجسس عليه ، وكان عمر بن الخطاب يفعل ذلك .

قال عمر بن طلحة فى كتابه (العقد الفريد للملك السعيد) : وأما أمير المؤمنين عمر بن الخطاب — رضى الله عنه — فإنه بذل جهده فى تسديد الأمور ، وسَدِّ الثغور وسياسة الجمهور ، وكان علمه بمن نأى عنه من عماله ورعيته كعلمه بمن بات معه على مهاده ، فلم يكن له فى قطر من الأقطار والٍ ولا عاملٌ ولا أمير إلا وله عليه عَيْنٌ (أى : جاسوس)

لايفارقه ، فكانت أخبار الجهات كلها عنده كل صباح ومساء ، حتى أن العامل كان يتوهم فى أقرب الخلق إليه أنه عين عليه : انتهى بتصرف .

والتجسس : هو البحث فى خفية عما يكتم عنك ، ومنه قيل : رجل جاسوس إذا كان يبحث عن الأمور الخفية .

والمقصود من النهى عنه فى الآية أن يأخذ المؤمنون ما ظهر من الناس ، ولا يتبعوا عورات المسلمين ، فلا يبحث المسلم عن عيب أخيه ليطلع عليه بعد أن ستره الله ، عن أبى بَرْزَةَ الأسلمى قال : قال رسول الله ﷺ : « يامَعْشرَ من آمَن بِلسانِهِ ولم يَدْخُلِ الإيمانُ قَلْبَهُ ، لاتغتابوا المسلمين ، ولاتتبعوا عوراتهم ؛ فإن من تتبع عورة أخيه يتبع الله عورته ، ومن يتبع اللهُ عورَتَهُ يَفضَحْهُ فى بيتِه » .

وجاء عن زيد بن وهب قال : أُتِىَ ابن مسعود فقيل له : هذا فلان تقطر لحيته خمرًا ، فقال عبد الله : إنا قد نُهينا عن التجسس ، ولكن إن يظهرْ لنا شىءٌ نأخذْ به .

(وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا) :

الغِيبة : أن تذكر أخاك فى غيبته بما فيه من المكاره ، فإن ذكرته بما ليس فيه فهو البهتان . فنى صحيح مسلم أن رسول الله ﷺ قال : « أتدرون ما الغيبة ؟ » قالوا : الله ورسوله أعلم ، قال : « ذِكْرُكَ أخاكَ بِما يَكْرَهُ » قيل : أفرأيت إن كان فى أخى ما أقول ؟ قال : « إن كانَ فيهِ ما تَقُولُ فقدِ اغْتَبْتَهُ ، وإن لم يكنْ فقَدْ بَهتَّهُ » .

والمقصود من هذا صيانة أعراض الناس ، وتركهم إلى الله فيما بينهم وبينه .

(أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا) :

هذه الجملة تشير إلى أن غيبة المؤمن تشبه أكل لحمه ميتاً ، واستعمال أكل اللحم مكان الغيبة مألوف فى كلام العرب ، قال شاعر منهم :

فإن أكلوا لَحْمِى وَفَرْتُ لُحومَهم ... وإن هدموا مَجْدِى بنيْتُ لهم مجدًا

وقد مثل الله الغيبة بأكل الميتة ، لأن الميت لا يعلم بأكل لحمه ، كما أن الحىَّ لايعلم بغيبة من اغتابه ، وقال ابن عباس : إنما ضرب هذا المثل للغيبة ؛ لأن أكل لحم الميتة حرام مستقذر ، وكذا الغيبة حرام فى الدين ، وقبيحة فى النفوس .

والغيبة تأكل الحسنات ، قال ﷺ : « ماصام من ظل يأكل لحوم الناس » والغيبة تكون فى الدين والأخلاق والخِلْقة والحسب والنسب ، ولا خلاف بين العلماء فى أنها من الكبائر ، فعلى المغتاب أن يتوب إلى الله .

كيف تكون التوبة من الغيبة ؟

اختلف العلماء فى كيفية التوبة منها ، فقال بعضهم : هى مظلمة يكفى فيها الاستغفار لمن اغتابه إلى جانب الاستغفار لنفسه ، وقال آخرون : هى مظلمة لابد فى التوبة منها من طلب العفو ممن اغتابه ، لقوله ﷺ : « مَنْ كانت له مَظْلمةٌ لأخيه من عِرْضه أو شىء ، فليتحلله منه قبل أن لا يكون له دينارٌ ولا درهم ، إن كان له عملٌ صالح أُخذ منه بقدر مَظْلمته ، وإن لم يكن له حسناتٌ أُخِذَ من سيئاتِ صاحبِه فحُمِلَ عليه » أخرجه البخارى فى صحيحه عن أبى هريرة .

من لا غيبة لهم :

لا تحرم الغيبة للفاسق المجاهر بفسقه ، ولا فى عرض الشكوى على القاضى ، كقولك : فلان ظلمنى أو خاننى أو نحو ذلك ، ولا فى الاستفتاء كقول هند عن زوجها أبى سفيان : إن أبا سفيان رجل شحيح لا يعطينى أنا وولدى ، أفآخذ من غير علمه ؟ فقال : « فخذى بالمعروف » .

ولاتحرم فى النصيحة والتحذير ، ولا فى التعريف : كفلان الأعرج أو الأعمى .

(فَكَرِهْتُمُوهُ) :

أى : فكرهتم أكل لحم أخيكم ميتا ، فكذلك فاكرهوا غيبته ، وقيل : لفظه خبر ومعناه أمر ، أى : فاكرهوا غيبته .

(وَاتَّقُواْ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ) :

ختم الله الآية بهذه الجملة ، لحمل الناس على ترك الغيبة وعلى التوبة منها .

والمعنى : واتقوا الله بترك الغيبة والتوبة إليه منها ومن سائر الذنوب إن الله تواب رحيم يقبل التوبة من التائبين ، ويعفو عن سيئات المسيئين ، إذا حسنت توبتهم لرب العالمين .

١٣ - (يَاأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ) :

بَعْدَ أن ذكر الله - تعالى - تلك الآداب السامية التى حفلت بها هذه السورة ، ختمها بلون من الأدب العالى ، وهو تعليم عباده أن لا كرم ولا شرف عند الله إلا بالتقوى كيفما كانت الأحساب والأنساب ، حتى لايتعالى بعضهم على بعض بغير حق ، فكل الناس من آدم وحواء ، فلا وجه للتعالى بالأحساب والأنساب ؛ ليظل الناس إخوة متواضعين متحابين .

وجاء فى معنى الآية فى كتاب (آداب النفوس) للطبرانى بسنده عن أبى نضرة قال : حدثنى - أو حدثنا - من شهد خطب رسول الله ﷺ بمنى فى وسط أيام التشريق وهو على بعير فقال : « ياأيها الناس : ألا إنَّ ربَّكم واحدٌ ، وإن أباكُم واحدٌ ، ألا لافضل لعربىٍّ على عجمى ولاعجمى على عربى ، ولا لأسودَ على أحمرَ ، ولا لأحمرَ على أسودَ إلا بالتقوى ، ألَا هَلْ بلَّغْت ؟ قالوا : اللهم نعم ، قال : «ليبلغْ الشاهدُ الغائب » .

سبب نزول هـــذه الآية :

أخرج أبو داود بسنده عن الزهرى - مُرْسَلًا - قال : « أمر رسولُ الله ﷺ بنى بياضة أن يزوجوا أبا هند امرأة منهم ، فقالوا لرسولِ الله ﷺ : أنزوج بناتنا موالينا ؟ فأنزل الله - عز وجل - : (إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ .) وقيل فى سبب نزولها غير ذلك ، ولا مانع من نزولها من أجل عدد من الحوادث المتشابهة .

وقد عرف من الآية والحديث وسبب النزول أن الناس متماثلون فى الآدمية ، فلا شرف فيهم إلا بتقوى الله – عز وجل – .

واعلم أن الناس أربعة أصناف : صنف خلق من تراب هو آدم – عليه السلام – وصنف خلق من أب دون أم وهو حواء ؛ فقد خلقت من أحد أضلاع آدم ، وصنف خلق من أم دون أب وهو عيسى – عليه السلام – وصنف خلق من أبوين ذكر وأنثى وهو جميع البشر ماعدا هؤلاء ، وقد خلقهم الله على هذا النحو ليعلم الناس قدرة الله على خلق مايشاء كما يشاء .

وعقب الله خلقه للناس من ذكر وأنثى بقوله :(وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُواْ) والشعوب : جمع شَعْب – بفتح وسكون[1]

والشعب : ماتشعبت منه القبائل ، فالعرب شعب ، وقبائله مثل ربيعة ومضر والأوس والخزرج ، وقد يطلق الشَّعب على القبيلة العظيمة ، قال ابن عباس : الشعوب : الجمهور مثل مضر ، والقبائل : الأفخاذ ، وقد جعلهم الله كذلك ليتمايزوا ويتعارفوا ، كأن يقول الواحد منهم: أنا من شعب مصر: من قبيلة كذا ، فيعرف نسبه .

ولقد جعل الله الشعوب والقبائل تتخذ لها أماكن مستقلة ، ليزداد التعارف بين الناس بذكر المكان ، وقد كان الناس – عربا أو عجما – عند نزول الآية قبائل متمايزة ، ضمن شعوب تعمهم ، ولكنهم الآن فى معظم الأمم ، قد اختلط بعضهم ببعض ، وأصبح التعارف بينهم بالانتماء إلى الأمم ، وبيان البلدان التى يعيشون فيها ، والمساكن التى يأوون إليها .

وعقب الله هذه الجملة بقوله : (إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللهِ أَتْقَاكُمْ) لبيان أن التقوى هى الأمر المُراعَى عند الله ، وليس الحسب والنسب والمال والوظيفة .

(١) أما الشِّعب – بكسر الشين – فهو الطريق إلى الجبل ، وجمعه : شعاب .

عن أبى هريرة عن النبى ﷺ قال : « إن الله - تعالى - يقول يوم القيامة : إنى جعلت نسبا وجعلتم نسبا ، فجعلت أكرمكم عند الله أتقاكم ، وأبيتم إلا أن تقولوا : فلان ابن فلان ، وأنا اليوم أرفع نسبى لأضع أنسابكم ، أين المتقون ؟ ».

وفى حديث مسلم من حديث عبد الله بن عمرو قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول جهارا : « إنَّ أولياء أبى ليسوا لى بأولياء ، إنَّ وليِّىَ اللهُ وصالحو المؤمنين ».

وقد ختم الله الآية بقوله : (إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ) أى : أنه - تعالى - عليم خبير بأحوال الناس نحو هذه الآداب ، فيثيب من تأدب بها ، ويعاقب من أعرض عنها .

صور مشرقة من محو الفوارق الطبقية فى الزواج :

لقد كان لهذا الأدب تأثيره فى محو الفوارق بين طبقات الناس ، فقد ذكر الطبرى بسنده عن أبى الجَعْد قال : تزوج رجل من الأنصار امرأة فطعن عليها فى حسبها ، فقال الرجُلُ : إنى لم أتزوجها لحسبها ، إنما تزوجتها لدينها وخلقها ، فقال النبى ﷺ : « مايضرك أن لا تكون من آل حاجب بن زرارة ؟ » ثم قال النبى ﷺ : « إن الله - تعالى - جاء بالإسلام فرفع به الخسيسة ، وأتمَّ به الناقصة ، فأذهب به اللوم ، فلا لوم على مسلم ، إنما اللومُ لومُ الجاهلية » .

وفى الصحيح عن عائشة - رضى الله عنها - أن أبا حذيفة بن عتبة بن ربيعة - وكان ممن شهد بَدْرا مع النبى ﷺ - تبَنَّى سالما وأنكحه هندا بنت أخيه الوليد بن عتبة بن ربيعة ، وهو مولى امرأة من الأنصار[1] ، وضباعة بنت الزبير كانت تحت المقداد ابن الأسود ، وتزوج بلال بن رباح أخت عبد الرحمن بن عوف ، فدلَّ ذلك على جواز نكاح المولى العتيق من الحرة ، ومَنْ نَسَبُه خامل ممن نسبه عالٍ ، وأن المعوَّل عليه فى الإسلام هو التقوى ، وهى التى اعتبرها المالكية أساس الكفاءة دون الحسب والنسب والغنى[2] وما إلى ذلك من الفوارق الطبقية .

---

(١) أى : عتيقها .

(٢) أما الحنفية والشافعية فقد اشترطوا الكفاءة فى ذلك .

* (قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ ۖ وَإِن تُطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَٰلِكُمْ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿١٥﴾ قُلْ أَتُعَلِّمُونَ ٱللَّهَ بِدِينِكُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٦﴾ يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا۟ ۖ قُل لَّا تَمُنُّوا۟ عَلَىَّ إِسْلَٰمَكُم ۖ بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾)

المفــــردات :

(الْأَعْرَابُ) : هم سكان البادية بخاصة ، والأعراب اسم جنس وليس جمعا ، والنسبة إليه أعرابى ، أما العرب فهم أهل الأمْصار ، وهو اسم جنس أيضا ، والنسبة إليه عربى .

(آمَنَّا) : صدقنا بألسنتنا وقلوبنا .

(أَسْلَمْنَا) : صدقنا بألسنتنا دون قلوبنا .

(وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ) : وحتى الآن لم يدخل التصديق فى قلوبكم .

(لَايَلِتْكُمْ) : لاينقصكم .

(قُلْ أَتُعَلِّمُونَ اللَّهَ بِدِينِكُمْ) : قل لهم أيها الرسول : أتخبرون الله بدينكم بقولكم : آمنا ؟ .

(يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا) : يعدون إسلامهم مِنَّة عليك ، والمنة : النعمة التى لايطلب لها ثواب ممن أُنعِم بها عليه .

التفسير

١٤ ـ (قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَـٰكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِن تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَايَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ) :

ختم الله الآية السابقة بقوله : (إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ) وجاءت هذه الآية لتفيد أن الإيمان باللفظ ليس إيمانا عند الله ، بل هو إسلام وخضوع ظاهرى يقصد به السلامة من القتل لشركهم ، وجر المغانم إن جاهدوا بعد إسلامهم ، ومن كان كذلك فلا تقوى عنده ، ولا كرامة له عند الله تعالى .

قال مجاهد : نزلت هذه الآية فى بنى أسد بن خزيمة ـ قبيلة تجاور المدينة ـ أظهروا الإسلام وقلوبهم دَغِلَةٌ[١] ، إنما يحبون المغانم وعرض الدنيا .

وقال القرطبى : نزلت فى أعراب من بنى أسد بن خزيمة ، قدموا على رسول الله ﷺ فى سنة جَدْبة ، وأظهروا الشهادتين ، ولم يكونوا مؤمنين فى السر ، وأفسدوا طرق المدينة بالعذِرَات[٢] وأغلوا أسعارها ، وكانوا يقولون لرسول الله ﷺ : أتيناك بالأثقال والعيال ، ولم نقاتلك كما قاتلك بنو فلان فأعطنا الصدقة ، وجعلوا يَمُنُّونَ عليه ، فأنزل

---

(١) أى : فاسدة غير مخلصة .

(٢) جمع عذرة : وهى الغائط .

الله - تعالى - فيهم هذه الآية . وقيل غير ذلك فى سبب نزولها ، وتعتبر هذه الرواية تفصيلا لما قبلها .

على أى سبب نقله الرواة فالآية خاصة ببعض الأعراب ، لأن منهم من آمن بالله واليوم الآخر ، وفيهم قال الله - تعالى - : « وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَاتٍ عِندَ اللَّهِ وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ أَلَا إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَّهُمْ سَيُدْخِلُهُمُ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ[١] » .

ومعنى الآية : قالت الأعراب الذين حول المدينة لرسول الله ﷺ : آمنا ، يقصدون إيهامه أنهم صدقوا به وبرسالته مخلصين ، وقد كذبوا ؛ فإنهم منافقون ، ولهذا كذبهم الله - تعالى - بقوله لرسوله ليبلغهم : (قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَٰكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ) أى : قل لهم : لم تصدقوا بقلوبكم ، ولكن قولوا : أسلمنا بألسنتنا ؛ رغبة فى جلب المنافع ودفع المضار ، وحتى الآن لم يدخل الإيمان فى قلوبكم ، وإن تطيعوا الله ورسوله فتُصَدِّقوا بقلوبكم كما صدقتم بألسنتكم لاينقصكم شيئا من أجور أعمالكم التى تؤدونها بعد صدق الإيمان ، إن الله واسع المغفرة عظيم الرحمة ، فبادروا بالإخلاص ليغفر لكم نفاقكم الذى أنتم فيه ، ويرحمكم بقبول توبتكم .

١٥ - (إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ) :

إنما المؤمنون - حقيقة - هم الذين صدقوا بالله ورسوله بقلوبهم ، ثم لم يطرأ على إيمانهم ريبة وشك ، وبذلوا الجهد فى سبيل الله بأموالهم وأنفسهم إذا طلبوا للجهاد ، أولئك الموصوفون بتلك الصفات هم الصادقون فى إيمانهم لا أنتم أيها المنافقون الذين قدمتم لنيل المغانم ، واتقاء المغارم .

---

(١) سورة التوبة ، الآية : ٩٩

ولما نزلت هذه الآية جاءُوا وحلفوا أنهم مؤمنون صادقون ، فأنزل الله فيهم الآية التالية :

١٦ - (قُلْ أَتُعَلِّمُونَ اللهَ بِدِينِكُمْ وَاللهُ يَعْلَمُ مَا فِى السَّمَٰوَاتِ وَمَا فِى الْأَرْضِ وَاللهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ) :

قل - أيها الرسول - لهؤلاء الأعراب المنافقين : أتعرِّفون الله بدينكم وتخبرونه به زاعمين أنكم مخلصون فيه ، والله يعلم مافى السموات وما فى الأرض ، من الكليات والجزئيات ، والله بكل شىء عليم ، فلا يحتاج إلى من يعلمه ويعرفه ، فلا يخفى عليه سِرُّكم ونجواكم .

١٧ -(يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُل لَّا تَمُنُّوا عَلَىَّ إِسْلَامَكُمْ بَلِ اللهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ) :

يعد هؤلاء الأعراب المنافقون أن إظهار إسلامهم مِنَّة ونعمة عليك أيها الرسول ، حيث قالوا : لم نقاتلك كما قاتلك بنو فلان الذين كفروا بك ، قل لهم - أيها الرسول - : لا تمنُّوا علَىَّ إسلامكم الذى زعمتموه إيمانا ، بل الله - تعالى - هو الذى يمن عليكم أنْ وفقكم للإيمان إن كنتم مؤمنين كما زعمتم ، وما أُولئك بالمؤمنين ، ولذا عقب الله هذه الآية بقوله تأكيدا لتكذيبهم:

١٨ - (إِنَّ اللهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ) :

إن الله - تعالى - يعلم ماغاب عن العيون فى السموات والأرض ، والله بصير بما تعملونه أيها الأعراب فى سركم وعلانيتكم ، فكيف يخفى عليه حالكم ؟.

« سورة ق »

مكية وآياتها خمس وأربعون

مجمل معانيها :

تضمنت هذه السورة عجب الكفار من مجيء منذر منهم ، وأنكروا البعث قائلين : (ذَٰلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ) مع أن الله - تعالى - خلقهم أول مرة ؛ وعابت عليهم أنهم لم ينظروا إلى آيات قدرته فى خلق السموات والأرض وما فيهما ومابينهما (تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ) وبينت أنهم يبصرون إحياء الله للأموات من آن لآخر فى الزروع والأشجار (كَذَٰلِكَ الْخُرُوجُ) أى : كذلك البعث ، ثم حكت تكذيب قوم نوح وأصحاب الرس وثمود وعاد وقوم لوط وأصحاب الأيكة وقوم تبع - حكت تكذيبهم - لأنبيائهم ، فنزل بهم وعيد الله باستئصالهم ، وبينت أنه - تعالى - خلق الإنسان ويعلم ماتوسوس به نفسه ، وأنه أقرب إليه من حبل الوريد ، وأن عليه رقباء من الملائكة ثابتين ، وحكت أهوال الموت والقيامة ، وغفلة الإنسان عن ذلك كله ، وأن التابعين والمتبوعين فى الكفر يختصمون لديه - تعالى - فيلقى التابعون مسئولية كفرهم على المتبوعين ، والمتبوعون يتبرأون منهم ، فيقول لهم الله - تعالى - : (لَا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِالْوَعِيدِ . مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ) وحكت فوز المتقين بنعيم الجنة خالدين فيها أبدا (لَهُم مَّا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ) ثم حثت النبى ﷺ على الصبر والتسبيح (فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ . وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَارَ السُّجُودِ) ثم أبانت أنه - تعالى - يحيي ويميت وإليه المصير ، ثم نفت عنه ﷺ مسئولية كفرهم ، وأوجبت عليه مداومة التذكير (نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ) .

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

(قٓ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ ﴿١﴾ بَلْ عَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَىْءٌ عَجِيبٌ ﴿٢﴾ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَٰلِكَ رَجْعٌۢ بَعِيدٌ ﴿٣﴾ قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ ٱلْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِندَنَا كِتَٰبٌ حَفِيظٌۢ ﴿٤﴾ بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ فَهُمْ فِىٓ أَمْرٍ مَّرِيجٍ ﴿٥﴾)

المفـــردات :

(وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ) : ذى المجد والشرف ، فهو من قبيل النسب بغير الياء المشددة كلابن وتامر ، أى : صاحب لبن وصاحب تمر .

(هَٰذَا شَىْءٌ عَجِيبٌ) : هذا شىءٌ يقتضى التعجب والإنكار - كما زعموا - .

(ذَٰلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ) : ذلك البعث رجع بعيد عن الوقوع أو عن الإمكان .

(وَعِندَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ) : وعندنا كتاب حافظ لكليات الأمور وجزئياتها ، والمراد به : علم الله ، أو اللوح المحفوظ .

(فَهُمْ فِىٓ أَمْرٍ مَّرِيجٍ) : فهم فى أمر مضطرب ، من : مَرَجَ الخاتمُ فى أصبعه : إذا تحرك واضطرب من الهزال .

مقـــدمة :

سورة (ق) سورة عظيمة فى مبانيها ومعانيها، لها تأثير واغل فى أعماق النفوس، ولهذا كان النبى ﷺ يخطب بها يوم الجمعة، جاء فى صحيح مسلم عن أم هشام بنت حارثة بن النعمان قالت: (لقد كان تنورنا[1] وتنور رسول الله ﷺ واحداً سنتين أو سنة وبعض سنة، وما أخذت « قٓ وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ » إلا عن لسان رسول الله ﷺ يقرؤها كل يوم جمعة على المنبر إذا خطب الناس).

وعن عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - سأل أبا واقد الليثى: « ماكان يقرأ به رسول الله ﷺ فى الأضحى والفطر؟ فقال: كان يقرأ فيهما بـ « قٓ وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ » و « اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ » .

وعن جابر بن سمرة (أن النبى ﷺ كان يقرأ فى الفجر بِـ « قٓ وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ » وكانت صلاته بعدُ تخفيفا) وكل ذلك قد حدث وهو مروى بصحاح الأحاديث.

التفسير

١ - ٣ (قٓ وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ . بَلْ عَجِبُوٓا أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَٰذَا شَىْءٌ عَجِيبٌ . أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَٰلِكَ رَجْعٌۢ بَعِيدٌ):

(قٓ) سبق الكلام على مثله من الحروف فى سورتى البقرة وآل عمران، فارجع إليه فيهما، والقرآن: هو الكتاب الذى أنزله الله بلفظه على نبيه محمد ﷺ ليكون معجزة مؤيدة له، باقية إلى قيام الساعة، أما معجزات الأنبياء قبله فقد فَنِيَت ولم يبق منها إلَّا الحديث عنها.

وقد وُصِف القرآن بلفظ (الْمَجِيدِ) بمعنى ذى المجد والشرف، وشرفه بالنسبة إلى سائر الكتب واضح، أما غير الإلٰهية فظاهر، وأما الإلٰهية فلإعجازه وكونهٔ غير منسوخ بغيره، واشتماله مع إيجازه على أسرار يضيق عنها كل واحد منها.

(١) التنور: الذى يخبز فيه وهو الفرن.

وقال الراغب : المجد : السعة والكرم ، ثم قال : ووصف القرآن به لكثرة مايتضمن من المكارم الدنيوية والأخروية . إهـ .

وقد أقسم الله بالقرآن المجيد ، وجواب القسم مقدر يدل عليه المقام ، وتقديره : إنا أنزلناه لتنذر به الناس ، أو إنك لمنذر بالبعث وما وراءه .

وقد عقَّب الله هذا القسم بقوله : (بَلْ عَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَٰذَا شَىْءٌ عَجِيبٌ) ، ولفظ (بَلْ) للإضراب الانتقالى عمَّا ينبئ عنه جواب القسم المقدر ، فكأنه قيل : إنا أنزلناه لتنذر الناس بالبعث وما وراءه فلم يؤمنوا ، بل جعلوا كلا من المنذِر والمنذَر به عرضة للتنكير والتعجب ، مع كونهما أقرب شيء إلى العقول والتلقى بالقبول .

ثم أكلوا تعجبهم وبينوا أهم ما ينكرونه ويتعجبون منه فقالوا : (أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَٰلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ) يعنون أنهم إذا ماتوا وتحولت لحومهم وعظامهم إلى تراب ، لا يعقل أن تعود إليهم الحياة مرة أخرى ، وجواب الاستفهام مقدر ، أى : نرجع .

ومعنى الآية : أئذا تحولت لحومنا وعظامنا إلى تراب بعد الموت نرجع إلى الحياة مرةً أخرى ؟ ذلك الرجوع إليها حينئذ رجوع بعيد عن التصديق وعن القبول .

وهذا الاستبعاد ناشئ عن قصر نظرهم وسوء فهمهم ، فإن مَن خلقهم من تراب يُعيد خلقهم منه ، وهو أهون من البدء .

وقد ردَّ الله عليهم ، وعاب سرعة تكذيبهم للحق من غير روية فقال :

٤ ، ٥ - (قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِندَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ . بَلْ كَذَّبُواْ بِالْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ فَهُمْ فِىٓ أَمْرٍ مَّرِيجٍ) :

أى : أن بعثهم حينئذ لا صعوبة فيه على الله - تعالى - فقد علم ما تأكل الأرض من لحوم موتاهم وعظامهم ، وعنده كتاب حافظ لتفاصيل الكون كله ، ومنها ما تنقص الأرض من الموتى بعد موتهم .

والمراد بالكتاب الحفيظ : علم الله - تعالى - على سبيل التمثيل ، أو اللوح المحفوظ ، ثم أضرب عن إنكارهم البعث انتقالًا إلى ما هو أفظع منه ، وذلك فى قوله - جل وعلا - :
(بَلْ كَذَّبُواْ بِالْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ فَهُمْ فِىٓ أَمْرٍ مَّرِيجٍ) :

أى : بل كذبوا بالقرآن الذى هو كلام الله ومعجزته الدالة على نبوة محمد ﷺ ، وكان تكذيبهم به حين جاءهم من غير روية ، وبلا تفكر وتدبر ، وبتكذيبهم له تكذيبا لما فيه من توحيد الله - تعالى - وسائر كمالاته ، وكذبوا بنبوة محمد ﷺ فهم فى أمر مضطرب ، فتارة يقولون : إنما يعلمه بشر وما هو من كلام الله ، وأخرى يقولون : إنه شعر ، وثالثة يقولون : هو أساطير الأولين .

ويقولون عن محمد ﷺ : إنه ساحر وكاهن وشاعر ومجنون ، وكل ذلك ناشئ عن نظرات سطحية لا عمق فيها ، وعن تقليدهم للآباء ، وزعمهم أنه لو كانت نبوة من البشر لكلف بها رجل من الرؤساء ، وذلك قولهم : « لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ »[١] يعنون بهما : مكة والطائف ، فهم فى أمر مريج مضطرب لا يثبتون على حال ، وقد ذابت كل أكاذيبهم مع الزمن ، ودخل الناس فى دين الله أفواجًا ، ومنهم أهل مكة فى السنة الثامنة من الهجرة ، وصدق الله - تعالى - إذ يقول : « وَقُلْ جَآءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا »[٢] .

(١) سورة الزخرف ، من الآية : ٣١
(٢) سورة الإسراء ، الآية : ٨١

(أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ﴿٦﴾ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴿٧﴾ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴿٨﴾ وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّٰتٍ وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ ﴿٩﴾ وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَٰتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ﴿١٠﴾ رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ ﴿١١﴾)

المفـــردات :

(كَيْفَ بَنَيْنَاهَا) : كيف أنشأناها فى عظمتها وحسنها ، ورفعها بغير عمد ترونها .

(وَزَيَّنَّاهَا) : وجعلنا لها زينة بالكواكب على أبدع نظام ، وأكمل إحكام .

(وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ) : وليس فيها شقوق وخلل .

(وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا) : بسطناها فى رأى العين ، وإن كانت فى حقيقتها مكورة .

(وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ) : وأنبتنا فيها من كل صنف حسن يَبْهَج ويَسُرُّ مَنْ نظر إليه ، وفعله بَهِج بوزن طرب ، والبهجة : الحسن ، وفعله بوزن ظَرُف وطَرِب ، فهى مشتركة بين الوزنين .

(جَنَّاتٍ) : بساتين .

(وَحَبَّ الْحَصِيدِ) : وحب الزرع الذى شأنه أن يحصد ، أى : يقطع .

(بَاسِقَاتٍ) : طويلات .

(لَهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ) : لها طلع منضود بعضه فوق بعض .

(كَذَٰلِكَ الْخُرُوجُ) : مثل ذلك خروجكم للبعث من قبوركم .

التفسير

٦ - (أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ إِلَى السَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ) :

جاءت هذه الآية والآيات التى بعدها لتعيب على المشركين شركهم واضطرابهم فى أمر الحق الذى جاء به محمد ﷺ عن ربه ، ومنه البعث والنشور - تعيب عليهم ذلك - مع وجود الآيات الكونية الدالة على توحيد الله وإمكان البعث وهم غافلون عنها .

ولقد أشارت هذه الآية إلى أن لله سماء ، ولهذه السماء زينة ، فأما الزينة فهى الكواكب التى يرونها متلألئة فى الفضاء ، دائرة فيه بقدرة الله - تعالى - وأما السماء الحقيقية فهى محجوبة عنا ؛ لأنها من شأن الله ، ولسنا بحاجة إلى معرفة حقيقتها ووظائفها ، فهى من الغيب الذى استأثر الله بعلمه ، وفى ذلك يقول الله - تعالى - فى سورة الصافات : « إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَآءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ »[١] ، ويقول فى سورة فصلت : « وَزَيَّنَّا السَّمَآءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ »[٢] ، ويقول فى سورة الملك : « الَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ طِبَاقاً مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ الرَّحْمَٰنِ مِن تَفَاوُتٍ »[٣] ثم يقول فيها : « وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَآءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ ... »[٤] إلى غير ذلك من الآيات الناطقة بأن لله سبع سموات ، وأن الكواكب زينة للسماء الأولى منها ، ولا شك أن الزينة غير المزين ، فهى أمر زائد على الذات .

ومعلوم أن طبقات الكواكب وسُدُمها ليست سبعًا ، بل هى ملايين الملايين ، وأن الرسول ﷺ ليلة المعراج عُرج به إلى تلك السموات لا إلى الكواكب .

---

(١) الآية رقم : ٦ .
(٢) من الآية رقم : ١٢ .
(٣) من الآية رقم : ٣ .
(٤) من الآية رقم : ٥ .

ومعنى الآية : أَعَمِيَتْ قريش حين أشركوا وأنكروا البعث - أعموا - فلم ينظروا إلى الكواكب فوقهم بحيث يشاهدونها كل وقت ، كيف بنيناها وأحكمناها ، وجعلناها زينة للسماء الدنيا وما لها من شقوق ولا فتوق ، فهى تامة السلامة من كل عيب .

واعلم أيها القارئ الكريم أن القبة الزرقاء التى تَرى خلالَها الكواكبَ ما هى إلَّا الغلاف الجوى ، وفوقه ظلمة حالكة السواد ، كما اكتشف ذلك علماءُ الفلك ، فإذا أُطلق عليه لفظ (سماء) فهو إطلاق لغوى ، فإن كل ما علاك سماء .

٧ ، ٨ - (وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ . تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ) :

الأرض مثل الكرة ، غير أنها منبعجة[1] من جهة القطبين ، وهى تدور فى الفضاء تحت الشمس ، وتنتقل فى مدارها من برج إلى برج ، ويترتب على ذلك وجود الليل والنهار ، والربيع والصيف والخريف والشتاء .

وظاهر الآية يدل على أن الأرض مفروشة ومبسوطة ، وهذا لا ينافى أنها كروية ، فهى مبسوطة فى رأى العين ، كروية فى الحقيقة ، ولهذا ترى الشمس تشرق فى بعض الأقاليم ، وغيرها مما يليها لا يزال الليل فيه ، فلا تُرَى الشمسُ فيه إلَّا بعد حين يطول أو يقصر حسب البعد والقرب ، وذلك ناشئ من كرويتها ، فَعاليها يحجب ضوء الشمس عن سافلها ، ولو لم تكن الأرض كروية لأشرقت الشمس على جميع أقاليمها فى وقت واحد .

والمعنى : والأرض بسطها الله فى رأى العين ومهَّدها ليتيسر السير عليها والانتفاع بها ، وخلق فيها جبالًا ثوابت تحفظها من أن تميد وتضطرب بمن عليها ، وأنبت فيها بقدرته من كل صنف حسن يسر الناظرين والآكلين ، وقد فعل الله ذلك تبصيرًا وتذكيرًا لكل عبد منيب راجع إلى الحق ، فالصنعة البديعة تدل أوضح الدلالة على الصانع المبدع المتفرد فى إبداعه .

(١) أى : ناقصة .

٩ ـ ١١ـ (وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَآءِ مَآءً مُّبَارَكًا فَأَنبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ . وَالنَّخْلَ[1] بَاسِقَاتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ[2] . رِزْقًا لِّلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا كَذَٰلِكَ الْخُرُوجُ) :

تخصيص النخل بالذكر مع اندراجه فى الجنات ، لبيان فضلها على سائر الأشجار ، وتوسيط الحب بين الجنات والنخل لتأكيد استقلال النخل وامتيازها عنها ، مع ما فيه من رعاية الفواصل .

ومعنى الآية : ونزلنا من السحاب ماء مباركا كثير الخيرات ـ أنزلناه ـ فى جميع الأقاليم فى أوقات مناسبة لمصالح العباد ، فأنبتنا بهذا الماء المبارك بساتين كثيرة مشتملة على أطيب أنواع الثمار والفاكهة ، وأنبتنا به حب الزرع الذى يحصد ويقطع ليستخرج منه حبه كالبر والشعير والذرة وغيرها ، وأنبتنا به النخل طويلات لها طلع منضود بعضه فوق بعض . ـ أنبتنا كل ذلك ـ رزقًا للعباد ، يستوجب الإيمان والشكر ، وأنبتنا بذلك الماء أرضًا جدبة لا نبات فيها ، مثل هذه الحياة الناشئة عن الإحياء خروجُ الموتى من القبور ، فالنبات يذبل ويجف بعد ازدهاره ويصبح ميتا ، والله ـ تعالى ـ يعيد إحياءه ويبعثه بعد الموت ، وإحياء الموتى مثل ذلك ، أفلا تعقلون ؟ .

(كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَٰبُ ٱلرَّسِّ وَثَمُودُ ﴿١٢﴾ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَٰنُ لُوطٍ ﴿١٣﴾ وَأَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ كُلٌّ كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ ﴿١٤﴾ أَفَعَيِينَا بِٱلْخَلْقِ ٱلْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِى لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٥﴾)

---

(١) اسم جنس . واحده نخلة .

(٢) الطلع أول ما يبدو من ثمرة النخل ، قال صاحب المختار : أول الثمر طلع ثم خلال ، ثم بلح ثم بسر ثم رطب ، ثم تمر ـ انظر مادة (بلح) .

المفـــردات :

(قَوْمُ نُوحٍ) : من أرسل إليهم ، والقوم : جماعة الرجال ، وقد يندرج فيه النساء مجازًا كما هنا ، وتأنيث الفعل المسند إليه (كَذَّبَتْ) باعتبار أنه اسم جنس بمعنى الجماعة .

(وَأَصْحَابُ الرَّسِّ) الرس : هى البئر التى لم تُبْن ، وقيل : هو اسم لوادٍ معين .

(فِرْعَوْنُ) : المراد به هو وقومه ، كما تسمى القبيلة باسم أبيها .

(الْأَيْكَةِ) : مجتمع الشجر ، ويطلق عليها لفظ الأجمة .

(وَقَوْمُ تُبَّعٍ) : الحميرى .

(أَفَعَيِينَا) : أفعجزنا ، والعىُّ بالأمر : العجز عنه ، والهمزة للاستفهام الإنكارى .

(بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ) : بخلق آدم وذريته .

(بَلْ هُمْ فِى لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ) : بل هم فى خلط وشبهة من البعث .

التفسير

١٢ـ١٤ـ(كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَابُ الرَّسِّ وَثَمُودُ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَانُ لُوطٍ . وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ) :

هذه الآيات مستأنفة لتقرير أن البعث حق ، وأنهُ مُتَّفق عليه من جميع الرسل ، وأن الأمم التى سبقت قريشًا كذبت رسلها وأنكروا البعث فعاقبهم الله ـ تعالى ـ ، وفى ذلك تسلية للنبى ﷺ وتهديد للكفرة من قومه .

وأصحاب الرَّسّ قيل : إنهم ممن بعث إليهم شعيب ـ عليه السلام ـ وقيل : هم قوم حنظلة ابن صفوان ، وإخوان لوط : قومه وأهله الذين بعث إليهم ، وقيل : إنهم كانوا أصهاره ، وليس المراد بالأخوة القرابة من النسب ، وأصحاب الأيكة أى : سكان مجتمع الشجر ، قيل : إنهم ممن بعث إليهم شعيب غير أهل مدين ، وكانوا يسكنون هذه الأيكة فنُسِبوا إليها .

وتُبَّع : هو تُبَّع الأكبر الحميرى ، واسمه أسعد ، وكنيته أبو كُرَبٍ ، وكان رجلًا صالحًا بين قومه الكافرين ، أخرج الحاكم وصححه عن عائشة قالت : كان تبع رجلًا صالحًا ، ألا ترى أن الله ذم قومه ولم يذمه . وأخرج الإمام أحمد وغيره عن سهل الساعدى قال : قال رسول الله ﷺ : « لَا تَسبُّوا تُبَّعا فإنه كانَ قدْ أَسْلَمَ » .

وأخرج ابن عساكر وابن المنذر عن ابن عباس قال : (سألت كَعْبًا عن تُبَّعٍ ، فإننى أسمع الله - تعالى - يذكر فى القرآن قوم تبع ولا يذكر تبعا . فقال : إنه كان رجلًا من أهل اليمن مَلِكًا منصورًا ، فسار بالجيوش حتى انتهى إلى سمرقند ، فرجع فأخذ طريق الشام فأَسَرَ بها أحبارًا ، فانطلق نحو اليمن ، حتى إذا دنا من مكة طار فى الناس أنه هادم الكعبة ، فقال له الأحبار : ما هذا الذى تحدث به نفسك ؟ فإن هذا البيت لله ، وإنك لن تسلط عليه ؟ فقال : إن هذا لله - تعالى - وأنا أحق من حَرَّمه ، فأسلم من مكانه ، وأحرم فدخلها محرمًا ، فقضى نسكه ثم انصرف نحو اليمن راجعًا ، حتى إذا قدم على قومه ...) إلى آخر ما ذكره كعب فى هذا الأثر الطويل ، وخلاصة ما ذكره بعدُ أنه طلب من قومه أن يؤمنوا كما آمن فامتنعوا ، فنزلت من السماء نار فأحرقت من لم يؤمن منهم [1] .

والمعنى الإجمالى للآيات : كذب بالحق قبل قريش قومُ نوح ، مع أنه كان ينصحهم ويطلب منهم الإيمان به ، كما كذب به أصحاب الرَّسِّ [2] ممن بعث إليهم شعيب ، أو هم قوم حنظلة ابن صفوان ، وكذبت به ثمود قوم صالح وعادٌ قوم هود وفرعون وقومه ، وقوم لوط وأصحاب الأشجار المجتمعة - الأيكة - وقوم تبع ، كل هؤلاء كذبوا جميع رسلهم فحق عليهم وعيدى وثبتت عليهم كلمة العذاب فى الدنيا بعذاب استأصل كفارهم ، وفى الآخرة بعذاب ينتظرهم .

١٥ - (أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِى لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ) :

أى : أقصدنا خلقهم من تراب ثم من نطفة فعيينا وعجزنا عن تحقيق ما قصدناه وأردناه حتى يتوهم عجزنا عن الإعادة ؟ كلا لم نعجز عن خلقهم كذلك ، فلماذا ينكرون بعثنا إياهم

---

(١) انظر الآلوسى فى شرح قوله -تعالى- : « أهم خير أم قوم تبع » فى سورة الدخان ، وقد أطال الكلام فيه ، فارجع إليه إن شئت .

(٢) أى : أصحاب البئر التى لم تبن .

بعد موتهم ، وهو فى القياس أهون من بدئهم ، إنهم معترفون بالخلق الأول صادرًا عنا فلا ينكرونه ، بل هم فى شك واضطراب من خلق جديد ، وهو إحياؤهم بعد موتهم لينال كل امرئ جزاء ما قدم من خير أو شر .

(وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴿١٦﴾ إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴿١٧﴾ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾)

المفـــردات :

(مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ) : ماتحدثه به من الخواطر .

(حَبْلِ الْوَرِيدِ) : الحبل معروف ، والمراد بالوريد : عرق كبير فى العنق ، وأضيف الحبل إليه لإفادة أنه ممتد فى الجسم امتداد الحبل .

(الْمُتَلَقِّيَانِ) : هما ملكان جعلهما الله لكل إنسان ، ليكتبا أعماله من خير أو شر عن اليمين وعن الشمال .

(قَعِيدٌ) أى : كلا الملكين ملازم له ، أحدهما عن يمينه والآخر عن شماله (رَقِيبٌ عَتِيدٌ) : ملك حاضر مهيأ يرقب أقواله وأعماله ويكتبها .

التفسير

١٦ ـ (وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ) :

الوسوسة لغة : الصوت الخفى ، ومنه وَسْواس الحُلِىّ ، (أى : صوت احتكاك بعضه ببعض) وما توسوس به نفسه : ما يخطر بباله من الخواطر الخفية المختلفة .

والمراد من قربه — تعالى — من العبد أكثر من حبل الوريد أنه — سبحانه — أعلم بحاله سِرًّا أو علناً ، فهو أقرب إليه بعلمه من حبل الوريد الذى يمتد فى عنقه ، وليس المراد منه القرب الذاتى ؛ لأنه — تعالى — ليس له مكان ، فهو من باب التمثيل والتشبيه ، وليس من باب الحقيقة .

وعن الأَثْرم أنه يقال : فى العنق الوريد ، وفى القلب الوتين ، وفى الظهر الأَبهر ، وفى الذراع والفخذ الأَكحل والنَّسا ، وفى الخنصر الأَسلم : انتهى .

وبالجملة فحبل الوريد مَثَلٌ فى شدة القرب ، وإضافة الحبل إليه للبيان كشجرالأَراك .

١٧ — (إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ) :

لفظ (إِذْ) ظرف بمعنى حين ، متعلق بلفظ (أَقْرَبُ) فى الآية السابقة ، أو مفعول لفعل مقدر تقديره : اذكر ، والمتلقيان : الملكان الموكلان بكل إنسان يكتبان أعماله وأقواله فى كتاب يتسلمه يوم القيامة ، فيعلم منه أنه من الناجين إن تلقاه بيمينه ، أو من أهل النار إن تلقاه بشماله أو من وراء ظهره — أعاذنا الله من ذلك — .

وعِلْمُ العبد بكتابة أعماله مع علمه بأنه—تعالى—أعلم بحاله مما يحمله على إحسان العمل ،

وقوله — تعالى — : (عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمالِ قَعِيدٌ) معناه عن اليمين قعيد وعن الشمال قعيد ، فحذف قعيد من الأَول لدلالة الثانى عليه ، والمراد من قعود الملك ملازمته للعبد للكتابة .

١٨ — (مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ) :

أى : أن أقوال العباد من خير أو شر أو غيرهما يكتبها ملك ملازم له يرقبها ويسجلها فى صحيفته ، فإن كانت خيراً كتبها الرقيب الذى عن يمينه ، وإن كانت شرًّا كتبها

الرقيب الذى عن يساره ، وتخصيص القول بالذكر للإيذان بأن الفعل الذى هو أظهر من القول يكتب أيضاً من باب أولى ،وقال اللقانى فى شرح الجوهرة : مما يجب اعتقاده أن لله – تعالى – ملائكةً يكتبون أعْمَالَ العباد من خير أو شر أو غيرهما ، قولا كانت أو فعلا أو اعتقادًا ، هَمًّا كانت أو عزما ... إلخ وقال الإمام مالك وجماعة : يكتبان كل شىء حتى الأنين فى المرض.

والمعنى الإجمالى لهذه الآيات : ولقد خلقنا الإنسان جسدًا وروحاً وعقلا ، ونعلم ماتحدثه به نفسه من الخواطر خيرًا كانت أو شرًّا ، ونحن أقرب إليه علماً من حبل الوريد فى عنقه – نحن أقرب إليه – حين يتلقى الملكان المتلقيان أحوال العبد الظاهرة والخفية ليسجلاها فى صحيفة أعماله ، وهذان الملكان أحدهما عن يمينه والآخر عن شماله ، ما ينطق من قول إلا عنده مراقب ملازم له من الملكين الموكلين به ، يكتب ما يصدر عنه من الأقوال وكذا الأفعال والنوايا .

(وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ ۖ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴿١٩﴾ وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ ۚ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْوَعِيدِ ﴿٢٠﴾ وَجَآءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَآئِقٌ وَشَهِيدٌ ﴿٢١﴾ لَّقَدْ كُنتَ فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴿٢٢﴾)

المفـــردات :

(وَجَآءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ) : وأحْضَرَت شدة الموت حقيقة ماكتبه الله على عباده من الموت الذى يليه البعث والجزاء .

(تَحِيدُ) : تميل وتعدل .

(وَنُفِخَ فِي الصُّورِ) : ونفخ فى البوق .

(مَعَهَا سَآئِقٌ وَشَهِيدٌ) : من الملائكة .

(فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ) : فكشفنا عن عقلك الحجاب الذى سببته الغفلة .

(فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ) : فبصرك اليوم حاد ونافذ .

التفسير

١٩ - (وَجَآءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ) :

بعد ما ذكرت الآيات إنكار المشركين للبعث ، وأثبتت بأقوى الحجج أنه سيحصل . جاءت هذه الآية وما بعدها لتبين لهم أن هذا الذى أنكروه سيلقونه حقًّا .

وسكرة الموت : مايحدث للمرء وهو مشرف على الموت من شدائد حتى تخرج روحه من بدنه .

والمعنى : وجاءت شدة الموت بحقيقة الموت الذى يبعث بعده الخلائق للجزاء ، ونبهت إليها رسل الله جميعاً ، ذلك الحق هو الذى كنت تميل وتنصرف عن التفكر فيه أيها الكافر ، لشدة غفلتك وعمق غوايتك .

٢٠ - (وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ذَٰلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ) :

الصور : هو البوق الذى ينفخ فيه إسرافيل ، والله أعلم بحقيقته وحقيقة النفخ فيه ، ولإسرافيل نفختان فى الصور كما جاءت به السنة ، إحداهما يموت عندها الخلائق ، والثانية يبعث عندها الموتى - وهى المرادة هنا - وهذه الآية معطوفة على ما قبلها لبيان مايحدث بعد الموت .

والمعنى : ونفخ إسرافيل فى البوق نفخة البعث ، وقتُ ذلك النفخ يومُ إنجاز الوعيد الذى توعد الله به الكفار فى الدنيا .

٢١ - (وَجَآءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَآئِقٌ وَشَهِيدٌ) :

وجاءت كل نفس من نفوس الخلائق مؤمنهم وكافرهم ، معها ملكان : أحدهما يسوقها إلى المحشر سَوْقاً مُنَاسِباً لعمل المَسُوق ، بحيث يكون برفق للمؤمنين ، وبشدة للكافرين .

جاء فى الحديث مرفوعاً عن جابر أن أحدهما : ملك الحسنات ، وثانيهما : ملك السيئات اللذين كانا يكتبان أعمال العباد فى الدنيا ، أخرجه أبو نعيم فى الحلية ، وقيل : غير ذلك فارجع إليه فى المطولات إن شئت .

٢٢ - (لَقَدْ كُنتَ فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ) :

هذه الآية استئناف مبنى على سؤال مقدر نشأ مما قبلها ، كأنه قيل : فماذا يكون بعد النفخ ومجىء كل نفس معها سائق وشهيد ؟ فقيل : يقال للكافر الغافل إذا عاين الحقائق التى لم يصدق بها فى الدنيا - من البعث وما بعده - يقال له : لقد كنت فى غفلة من هذا الذى تعاينه ، فكشفنا عنك الآن الحجاب الذى غطى عليك أمور المعاد ، وهو الغفلة والانهماك فى أمور الدنيا وحدها ، فبصرك اليوم نافذ لزوال المانع للبصائر فى الدنيا عن إدراك ما بعد الموت .

(وَقَالَ قَرِينُهُۥ هَٰذَا مَا لَدَىَّ عَتِيدٌ ﴿٢٣﴾ أَلْقِيَا فِى جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٢٤﴾ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُّرِيبٍ ﴿٢٥﴾ الَّذِى جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِى الْعَذَابِ الشَّدِيدِ ﴿٢٦﴾)

المفــردات :

(قَرِينُهُ) : شيطانه المقارن فى الدنيا .

(هَٰذَا مَا لَدَىَّ عَتِيدٌ) : هذا ما عندى مُعَدٌّ ومهيأ لجهنم .

(عَنِيدٍ) : مبالغ فى العناد .

(مُرِيبٍ) : شاك فى الله - تعالى - أو فى البعث .

التفسير

٢٣ - ٢٦ - (وَقَالَ قَرِينُهُ هَٰذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ * أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ * مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُّرِيبٍ * الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ) :

لكل إنسان شيطان مقارن له ومصاحب فى الدنيا ، يمتحنه الله بوسوسته ، فإن عصاه دخل الجنة ، وإن أطاعه دخل النار ، جاء فى الحديث : « مَا مِنْ أَحدٍ إلا وقدْ وُكِلَ به قرينه من الجنِّ ، قالوا : ولا أنتَ يا رسولَ اللهِ ؟ قالَ : ولَا أنا إلَّا أن اللهَ - تعالى - أعانني عليْهِ فأَسْلمَ فلا يَأمرُني إلا بِخَيْر » .

والمعنى : وقال الشيطان المقارن للكافر : هذا الإنسان هو ما عندى وتحت إغوائى ، عتيد أعددته لجهنم وهيأته لها بإغوائى فاستحقها .

قال الله -تعالى- مخاطباً للملكين السائق والشهيد : اطرحا فى جهنم كل مبالغ فى الكفر للمُنْعِمِ ونعمته ، مبالغ فى العناد وترك الانقياد للحق ، مبالغ فى منع الخير والبر عن الناس فلا يتصدق على محتاج للصدقة ، معتد ظالم للحق متجاوز له ، شاك فى دين الله وفى البعث الذى أشرك بالله فجعل معه إلهًا آخر ، فألقياه أيها الملكان فى العذاب الشديد .

حاشية

جملة (فَأَلْقِيَاهُ فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ) خبر عن (الَّذِي) وجاءت الفاء فى خبره لأنه فى معنى الشرط ، وقيل : فى الكلام تقدير ، أى : فيقال فى حقه : ألقياه فى العذاب الشديد ، ويلاحظ أن قوله -تعالى- : (فَأَلْقِيَاهُ فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ) فيه تكرار لقوله سابقاً : (أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ) والغرض منه التوكيد كما فى قوله -تعالى- : « لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أَتَواْ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُواْ بِمَا لَمْ يَفْعَلُواْ فَلَا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ الْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ »(١) .

(١) سورة آل عمران ، الآية : ١٨٨

*(قَالَ قَرِينُهُۥ رَبَّنَا مَآ أَطْغَيْتُهُۥ وَلَـٰكِن كَانَ فِى ضَلَـٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴿٢٧﴾ قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا۟ لَدَىَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِٱلْوَعِيدِ ﴿٢٨﴾ مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَىَّ وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّـٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٢٩﴾ يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ ﴿٣٠﴾)

المفردات :

(قَرِينُهُ) : الشيطان المقيّض له .

(مَآ أَطْغَيْتُهُ) : ما حملته على الفساد والطغيان .

(ضَلَالٍ بَعِيدٍ) : مغرق طويل مجاف للحق .

(قَدَّمْتُ إِلَيْكُمْ) : عذرت إليكم.

(بِالْوَعِيدِ) : بالإنذار والتخويف من عاقبة العصيان والطغيان .

(مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ) : ما يغير القول عندى .

التفسير

٢٧ - (قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَآ أَطْغَيْتُهُ وَلَٰكِن كَانَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ) :

كلام مستأنف استئناف الجمل الواقعة فى حكاية التقاول على تقدير أنه جواب لمحذوف دلّ عليه قوله - تعالى - : (رَبَّنَا مَآ أَطْغَيْتُهُ) كأن العبد الكافر قال : قرينى أطغانى وحملنى على العصيان والضلال ، فأجاب قرينه بتكذيبه وإسناد الضلال إليه .

ولهذا الاستئناف تجرّدت الجملة عن العاطف بخلاف الجملة فى قوله - تعالى - : (وَقَالَ قَرِينُهُ هَٰذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ) فإنها قرنت بالعاطف لتدلّ على الجمع بين مفهوميها فى الحصول وهو مجىء كل نفس مع الملكين ، وقول قرينه ، والقرين هنا الشيطان المقيّض له .

والمعنى : قال الشيطان المقيض للكافر ، المقارن له والموكل به - ذا على إنكاره - : ربَّنَا ما أوقعته فى الطغيان ، ولا حملته على الضلال قسرا واستكراها ، ولكن كان هو فى ضلال بعيد عن الحق ، مغرق فى العناد والفساد ، فأعنته عليه بالإغراء والإغواء من غير قسر ولا إلجاء فهو كقوله-تعالى- : « وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي »[1].

٢٨ - ٣٠ - (قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِالْوَعِيدِ * مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ وَمَآ أَنَا بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ * يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ) :

استئناف آخر مبنى على سؤال نشأ عما قبله ، كأنه قيل : ماذا قال الله تعالى ؟ فقيل : قال -عزَّ وجلَّ- : (لَا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ) .

والمعنى : لايخاصم بعضكم بعضاً عندى فى موقف الحساب والجزاء فإن ذلك لن يفيدكم ، ولا يغنى عنكم شيئاً ، وقد قدمت إليكم ، وأعذرت بالوعيد والتخويف ، والتحذير من عاقبة الطغيان فى الدنيا ، على ألسنة رسلى ، وفى كتبى المنزلة عليهم فلم تسمعوا ، ولم تطيعوا فلا تطمعوا فى الخلاص مما أنتم فيه من التعلل بالمعاذير الباطلة ، وقد علمتم ما قدمت وما أعذرتكم به ، ومن جملته ما قلته لإبليس : « لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ »[2] فاتبعتموه معرضين عن الحق ، مغرقين فى الكفر والضلال .

وقوله-تعالى- : (مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ) فضٌّ لخصومتهم ، وقطع لرجائهم ، معناه : لايقع عندى تبديل ولا تغيير لما قررناه وأردناه وقدمناه فى دار الدنيا من أنى أعاقب من جحدنى ، وكذَّب رسلى ، وخالفنى فى أمرى لا يُبَدَّل من ذلك شئ بغيره وقوله- تعالى- : « وَمَآ أَنَا بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ » وارد لتحقيق الحق على أبلغ وجه ، ولتبيين أن عدم التبديل للقول وتحقيق موجَب الوعيد ليس من جهته-تعالى-من غير استحقاق له منهم ، بل إنما ذلك لما صدر منهم من الجنايات الموجبة له .

وصيغة المبالغة لتأكيد هذا المعنى بإبراز ما ذكر من التعذيب بغير ذنب فى معرض المبالغة فى الظلم ، وهو لايكون منه . ويجوز أن يكون لرعاية جميع العبيد من قبيل قولهم : فلان ظالم لعبده ، ظلَّام لعبيده . وقيل إن فعَّالاً تأتى بمعنى فاعل أى : وما ربك بظالم لعبيده.

(١) سورة إبراهيم من الآية ٢٢ .

(٢) سورة ص ، الآية : ٨٥

وقوله ـ تعالى ـ : (يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ ...) إمَّا مرتبط بقوله ـ تعالى ـ : (وَمَآ أَنَاْ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ) ويوم : ظرف معمول لظلام ، وإما مفعول به لفعل محذوف تقديره : اذكرْ لهم يوم . .

وهو سؤال وجواب جيء بهما على منهاج التمثيل والتخييل لتهويل أمر جهنم وأنها مع اتساعها وتباعد أقطارها يُطرح فيها من الجِنّة والناس فوج بعد فوج حتى تمتلىء ، أو أنَّهَا من السعة بحيث يدخلها من يدخلها وفيها بعدُ محلّ فارغ ؟ أو أنها لغيظها على العصاة ، وحنقها منهم تطلب زيادتهم .

والمعنى : وما أنا بظلام للعبيد يوم نقول لجهنم هل امتلأْت ، أو : اذكر يا محمد وأنذر بهذا اليوم الآتى لامحالة يوم نقول لجهنم وقد دفعت إليها أفواج الكافرين الضالين : هل امتلأْت ؟ وتقول بعد امتلائها : هل بقى من موضع لم يمتلىء ؟ ـ تعنى : قد امتلأْت ـ ، أو أنها تستزيد وفيها موضع للمزيد .

هذا ، ويجوز أن يكون الكلام على تحقيق القول من جهنم ، وهو غير مستنكر ؛ فإنه ـ تعالى ـ سوف ينطق الجوارح فتشهد على صاحبها ، والإذن لها بنفسين ، ونحن متعبدون باعتقاد الظاهر مالم يمنع مانع ، ولامانع هنا فإن القدرة صالحة والعقل مجوّز ، وأُمور الآخرة لا ينبغى أن تقاس بأُمور الدنيا .

أخرج أحمد والبخارى ومسلم والترمذى والنسائى وغيرهم عن أنس قال : قال رسول الله ﷺ : « لا تزال جهنم يلقى فيها وتقول : هل مِنْ مزيد ؟ حتى يضع ربُّ العزة فيها قدمه فيزوى بعضها إلى بعض وتقول : قط . قط . وعزتك وكرمك ، ولا يزال فى الجنة فضل حتى ينشىء الله لها خلقاً آخر فيسلكهم فى فضول الجنة » وليس المراد بقدم الله حقيقة ، فإنه ـ تعالى ـ لا يشبه الحوادث ، ولكنه كناية عن أن النار ذليلة لأمره ، وفسره بعضهم بأنه ـ تعالى ـ يضع فيها من يقدمهم للنار ، قال ابن الأثير : قدمه ، أى : الذين قدمهم لها من شرار خلقه ، فهم قَدَمُ الله ـ تعالى ـ للنار ، كما أن المسلمين قدمه للجنة ، والقدم : كل ما قدمت من خير أو شرّ . وقيل : وضع القدم أو الرجل مثل للردع والقمع ، فكأنه قيل : يَأْتِيهَا أَمرُ الله فيكفّها عن طلب المزيد .

(وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴿٣١﴾ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ﴿٣٢﴾ مَّنْ خَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴿٣٣﴾ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُلُودِ ﴿٣٤﴾ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴿٣٥﴾)

المفـــردات :

(أُزْلِفَتْ) : دنت وقربت للمتقين .

(أَوَّابٍ) : رجَّاع إلى الله .

(حَفِيظٍ) يحفظ توبته من النقض أو يحفظ ذنوبه ليرجع عنها ويستغفر منها .

(خَشِىَ الرَّحْمَٰنَ) : خاف عذاب الرحمن .

(بِالْغَيْبِ) أى : خاف الرحمن وهو لايراه ، أو خاف الرحمن وهو فى خلوته بعيدًا عن الناس فلا يراه أحد .

(مُنِيبٍ) : راجع إلى ربه .

التفســير

٣١-٣٣ - (وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ * هَٰذَا مَاتُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ * مَّنْ خَشِىَ الرَّحْمَٰنَ بِالْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ) :

هذه الآيات شروع فى بيان حال المتقين عند النفخة الثانية للصور ، ومجىء النفوس إلى موقف الحساب بعد عرض حال الكافرين ، والأظهر فيه أنه عطف على (وَنُفِخَ فِى الصُّورِ)

والمعنى : وأدنيت الجنة وقربت للمتقين الذين وقوا أنفسهم من الكفر ، وتحاشوا المعاصى ، وقاموا على اتباع الأوامر واجتناب النواهى فاستحقوا أحسن الجزاء ، وأوفر النعيم فى جنات تجمع كل أنواع المتاع من الأنهار والأشجار ، وطيب الثمار ، ومن الأزواج الكرام ، والحور الحسان ، والخدم من الولدان . وهى قريبة منهم فى مكان غير بعيد بحيث يشاهدونها ، ولا يلحقهم تعب أو ضرر ولا مشقة فى الوصول إليها . أو المراد حصول هذا لهم غير بعيد لأنه آت لا محالة ، وكل آتٍ قريب .

وقوله ــ تعالى ــ : « هَٰذَا مَاتُوعَدُونَ » إشارة إلى الجنة ، أى : هذا الذى ذكرناه هو ما وعدتم به من الثواب على ألسنة الرسل لكل رجّاع إلى الله عائذ به مراقب له لا يغفل عن ذكره ، ولاينام عن طاعته ،حفيظ لعهده أن ينتقض ، ولتوبته أن تنتكس ، حافظ لذنوبه حذرًا أن يقع فيها مرة أخرى مستغفرًا منها ، فهو أبداً مع الله ندماً على ما فرط فيه فى ماضيه ، وعزماً على الاجتهاد فى عمل ما يرضيه ، روى عن ابن عباس ، وسعيد بن سنان ، وقريب منه ما أخرجه سعيد بن منصور وابن أبى شيبة وابن المنذر عن يونس بن خباب قال : قال لى مجاهد : « ألا أُنبئكَ بالأواب الحفيظِ ؟ هو الرجلُ يذكُرُ ذنبه إذا خَلا فيستَغفرُ اللهَ ــ تعالى ــ منه » .

وأخرج ابن أبى شيبة وابن المنذر عن عبيد بن عمير : كنّا نعد الأوّاب الحفيظ الذى يكون فى المجلس فإذا أراد أن يقوم قال : اللهم اغفر لى ما أصبت فى مجلسى هذا .

وقوله ــ تعالى ــ : (مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَٰنَ بِالْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ) زيادة فى الإيضاح والبيان لمعنى الأواب الحفيظ .

والمعنى : هذا الجزاء الموفور ، والنعيم المذكور لمن اشتد خوفه من ربّه ، وعظمت مراقبته لخالقه كأنه يراه أو يخشى ربّه ويراقبه فى خلوته وَغيبته عن أعين الناس حياءً من الله .

والمعنى فى قوله ــ تعالى ــ : (وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ) أَنَّهُ يداوم ذلك ، ويقيم عليه حتى يوافيه أجله فيلقى الله بقلب عاش مقبلا على طاعته ، طامعاً فى رحمته . مؤمنا بعاقبته وأوبته حتى أتى الله بقلب سليم .

٣٤، ٣٥ - (ٱدْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُلُودِ * لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ) :

هذا على تقدير القول ، أى : يقال لهم : ادخلوها ، والمعنى : ادخلوا أيها المتقون الأوابون المنيبون ادخلوا الجنة ، واستمتعوا بنعيمها بأمان من كل مكروه ، وسلامة من كل آفة ، وسلام من الله وملائكته عليكم ، ذلك يوم الإقامة الدائمة التى لا ينقطع مداها ، ووقت الخلود الذى تعيشون فى نعيمه بلانهاية ، ولا يستكثر ذلك على أهل الجنة فلهم كل ذلك ، ولهم مايشاءون من صنوف المطالب ، وألوان النعم كائنا ما كان ، فعند الله كل ما يشتهون ، ولديه الزيادة على ما يستشرفون مما لايخطر لهم على بال ، ولا تدركه مشيئتهم من معالى الكرامات ، ومجالى الخيرات مما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ، ومع أن لهم ما يشتهون فى الجنة ، فعند الله مزيد عليه مما لا يخطر على بال .

وقال أنس وجابر : المزيد : النظر إلى وجه الله - تعالى - بلا كيف ، وقد ورد ذلك فى أخبار مرفوعة إلى النبى ﷺ ، منها ما أخرجه الديلمى عن علىّ - كرم الله وجهه - عن النبى ﷺ فى قوله - تعالى - : (وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ) قال : « يتجلى لهم الرب - عز وجل - » إلى غير ذلك من الأحاديث .

(وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشًا فَنَقَّبُوا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ هَلْ مِن مَّحِيصٍ ﴿٣٦﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴿٣٧﴾)

المفردات :

(بَطْشًا) : قوة وشدة ومنعة .

(نَقَّبُوا۟) : جالوا فى أقطارها ، وساروا فى نواحيها وطوفوا .

(مَحِيصٍ) : مهرب وملجأ يلجأُون إليه .

(أَلْقَى السَّمْعَ) : تنبّه وتيقظ .

(شَهِيدٌ) : فَطِنٌ غير متغافل .

التفسير

٣٦ - (وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشًا فَنَقَّبُواْ فِي الْبِلَادِ هَلْ مِن مَّحِيصٍ) :

هذه الآية الكريمة تسلية للرسول ﷺ ، وتطمين لقلبه ببيان أن مشركى قريش لن ينالوا منه شيئًا ولن يخلصوا إليه بسوء ، وأن قوة الله التى أهلكت قبلهم قرونًا كانت أشد منهم بطشًا ، وأقوى منعة فوق قوتهم وجبروتهم ، ولو شاء لأهلكهم كما أهلك من سبقوهم من الطغاة المتجبرين .

والمعنى : وكثيرًا أهلكنا قبل مشركى مكة والمنكرين من أهلها من أهل القرون السابقة من هم أشد منهم بطشًا ، وأعتى قوة ، وأعزّ منعة أمثال عاد وثمود وأضرابهم الذين ملكوا البلاد ، وعاثوا فيها الفساد ، واستبدوا بالعباد ، وساروا فى أقطار الأرض ، وجاسوا خلالها ، وجابوا أقطارها ، فما أفادوا من ذلك ، ولا ظفروا بمهرب من الهلاك ، ولا بمعدل عن الموت ، ولا وجدوا إلا الحسرة والتساؤل (هَلْ مِن مَّحِيصٍ ؟) هل من مهرب نهرب إليه من الهلاك ؟

٣٧ - (إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ) :

أى : إن فى ذلك الإهلاك ،أو فى ذلك المذكور من أول السورة من الآيات والمشاهد والأخبار لعظة بالغة ، وعبرة رادعة لكل من له قلب وعقل واع يعقل ما يقال ، وينتفع به ، ويدرك كنه ما يشاهده ، ويوقظ سمعه ، ويلقيه لكل ما يوجّه إليه فيجتمع له من سلامة القلب وإلقاء السمع ما يحقق له النفع ، والوقوف على جلية الأمر وهو شهيد وحاضر بفطنته ويقظته ، لأن من لا يحضر ذهنه فكأنه غائب .

(وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴿٣٨﴾ فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ ﴿٣٩﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَٰرَ ٱلسُّجُودِ ﴿٤٠﴾ وَٱسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ ٱلْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٤١﴾ يَوْمَ يَسْمَعُونَ ٱلصَّيْحَةَ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُرُوجِ ﴿٤٢﴾)

المفـردات :

(لُغُوبٍ) : تعب وإعياء .

(أَدْبَارَ) : أعقاب الصلاة ، جمع دُبُر ، ويطلق على الظهور أيضًا ، قال - تعالى - : « لَيُوَلُّنَّ الْأَدْبَارَ » .

(الصَّيْحَةَ): المرّة من الصوت الشديد ، والمراد بها نفخة البعث .

(يَوْمُ الْخُرُوجِ): يوم الخروج من القبور للبعث ، وهو من أسماء يوم القيامة .

التفسير

٣٨ - (وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ) :

استئناف كلام آخر لتأكيد ما قبله بتقرير قدرته - تعالى - على خلق السموات والأرض ، وتمهيد لما بعده ببيان أن القادر على خلق السموات والأرض لا يعجزه أمر من أمور الدنيا والآخرة .

قيل : إن هذه الآية تكذيب لليهود فى زعمهم أن الله - تعالى - خلق العالم يوم الأحد ، وفرغ منه يوم الجمعة ، واستراح يوم السبت ، واستلقى على العرش ، وجعلوا هذا اليوم للراحة عندهم.

والمعنى : ولقد خلقنا السموات والأرض وما بينهما من أصناف المخلوقات ، وأنواع الكائنات فى ستة أيام ، وما أصابنا من تعب ولا إعياء مع قلة الزمن ، وضخامة هذه الأجرام ، وتعدّد أنواعها وأشكالها ، واختلاف أحوالها ، وتباين حركاتها ، وذلك ممّا لا تفى بإحصائه القوى والقدر ، فضلًا عن إيجاده .

٣٩ ، ٤٠ – (فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ • وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَارَ السُّجُودِ) :

تتجه الآيات إلى تسلية الرسول ﷺ والترويح عنه بطلب الإعراض عن أقوال المشركين واليهود ، والالتجاء إلى الله بالتسبيح والحمد .

والمعنى : إذا كان أمرنا فى القدرة كما ترى فى خلق السموات والأرض وما بينهما فى أقل زمان وفى غير إعياء ولا نصب ، فاصبر يا رسول الله على ما يقوله المشركون فى شأن البعث من الأباطيل المبنية على الإنكار والاستبعاد ، فإن من قدر على خلق العالم بهذه الصفة قادر على بعثهم ، وعلى الانتقام من المنكرين والمستبعدين .

أو : فاصبر على ما يقوله اليهود من مقالة الكفر والتشبيه ، أو : فاصبر على كل ما يقال من هؤلاء وهؤلاء ، ومهما يكن فإن هذا متصل بقوله – تعالى – : (وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضَ) تسلية للرسول ﷺ ، ومدخلًا لقوله – تعالى – : (وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ) أى : قدس ربك وسبح بحمده ونزّهه عن كل ما يقوله هؤلاء وهؤلاء ، وعن العجز وعن وقوع الخلف فى أخباره التى من جملتها الإخبار بالبعث ، وعن وصفه – تعالى – بما يقتضى التشبيه نزّهه عن هذا كلّه ، وعن كل ما لا يليق بذاته حامدًا له ما أنعم به عليك من إصابة الحق ، مداومًا على هذا التسبيح والحمد قبل طلوع الشمس وقبل الغروب ، وهما وقتا العصر والفجر لأفضليتهما ، وقد نوّه القرآن الكريم بفضلهما فى قوله – تعالى – : « وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا »[1] ، وفى قوله – تعالى – : « حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ

---

(١) سورة الإسراء من الآية : ٧٨

الْوُسْطَىٰ »[١] وهى العصر على رأى كثير من المفسرين ، ومن فضل هذا الوقت أيضًا القسم به فى قوله – تعالى –: « وَالْعَصْرِ » .

وقوله – تعالى –: (وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ) معناه :وسبحه بعض الليل وفى جزء منه ، ولعل المقصود به السَّحَر ، فإنه الوقت المفضل للتهجد والتسبيح والاستغفار ، وأعقاب السجود أى : آخر الصلاة بعد انقضاء السجود والسلام .

وهذا بناءً على تفسير التسبيح بالتقديس والتنزيه والذكر – فإذا فسّر التسبيح بالصلوات الخمس كان المراد بما (قبل الطلوع) الفجر ، وبما (قبل الغروب) الظهرَ والعصرَ ، وبـ (ومن الليل) العشاءين والتهجد وما يُصَلَّى بـأدبار السجود من النوافل بعد المكتوبات .

٤١ – (وَاسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ) :

أى : واستمع – يا أيها الرسول– أخبار ما يوحى إليك من أحوال يوم القيامة يوم ينادى المنادى فيقول : أيتها العظام البالية ، واللُّحوم المتمزقة ، والشعور المتفرقة إن الله يأْمركنّ أن تجتمعن لفصل القضاء .

قيل : إسرافيل ينفخ ، وجبريل ينادى بالحشر ، وفى هذا الأمر تهويل وتفظيع لأخبار هذا اليوم .وقوله : من مكان قريب معناه :من مكان يسمعه الخلائق كلهم على حال واحدة فلا يخفى على أحد قريب أو بعيد ، فكأنهم نودوا جميعا من مكان قريب . قيل : من صخرة فى بيت المقدس ، وقيل : من تحت أقدامهم ، وقيل : من منابت شعورهم . والتعبير القرآنى فوق كل بيان .

٤٢ – (يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ذَٰلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ) :

تتصل هذه الآية بقوله – تعالى – : (وَاسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادِ) أى : استمع يوم ينادى المنادى يوم يسمعون نفخة البعث ناطقة بالحق الذى طالما أنكروه ، وكذبوا أخباره وهو البعث الذى يسمعون النداء به حقا واقعًا ، وحقيقة ماثلة ، ذلك يوم الخروج الذى

---

(١) سورة البقرة من الآية : ٢٣٨

يخرج به الموتى من قبورهم لملاقاة جزائهم . ويجوز أن يكون المعنى : ذلك النداء نداء يوم الخروج من القبور – ويوم الخروج – اسم من أسماء يوم القيامة .

(إِنَّا نَحْنُ نُحْيِۦ وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا ٱلْمَصِيرُ ﴿٤٣﴾ يَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ ﴿٤٤﴾ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ﴿٤٥﴾)

المفـــردات :

(الْمَصِيرُ) : المرجع للجزاء فى الآخرة .

(سِرَاعاً) : مسرعين .

(حَشْرٌ) : جمع بعد البعث .

(يَسِيرٌ) : سهل هيِّن .

(بِجَبَّارٍ) : بمتسلط قهار .

(فَذَكِّرْ) : فخوف وحذر .

التفسير

٤٣ ، ٤٤ –(إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا الْمَصِيرُ * يَوْمَ تَشَقَّقُ الْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ) :

يخبر الله – سبحانه وتعالى – فى هذه الآية عن نفسه .أنه هو القوى القادر الذى يحيي الخلق في الدنيا بعد أن كانوا عدماً ، ثم يميتهم بعد استيفاء أجلهم بعد أن كانوا أحياء ، ثم يبعثهم من قبورهم بعد أن صاروا تراباً ، وذلك بقوله مؤكدًا : (إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ) أى : إنا نحن نحيي ونميت فى الدنيا من غير أن يشاركنا فى ذلك أحد ،وإلينا المصير ، أى :

وإلينا وحدنا الرجوع للجزاء فى الآخرة لا إلى أحد غيرنا استقلالا أو اشتراكاً، يوم تشقق الأرض عنهم سراعاً : يتعلق الظرف بقوله : (وَإِلَيْنَا الْمَصِيرُ) أى : وإلينا المرجع والمآب يوم تتصدع الأرض ، وتنشق عن أجسامهم البالية فيخرجون منها مسرعين إلى الداعى بلا توان ولا تأخير ، (ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ) أى : ذلك الحشر ، وهذا الجمع هين علينا يسير مع شدة التفرق ، وتباعد القبور وتناثر الأشلاء أو تحولها إلى تراب ، لا يشق علينا ، ولا يقدر عليه غيرنا .

٤٥ - (نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ) :

هذه الآية تختم سورة (ق) بما يسلى الرسول ﷺ ويسرى عنه همّه ، ويهدد المشركين ويحذرهم عواقب الكفر والتكذيب .

والمعنى : نحن أعلم بما يقول هؤلاء الكفار من نفى البعث ، وتكذيب الآيات الناطقة به ، وغير ذلك مما لا خير فيه ، فلا تعبأ بقولهم ، ولا تبتئس من أحوالهم ، فما عليك إلا البلاغ وما أنت عليهم بمتسلط تقهرهم على الإيمان ، وتقسرهم على التصديق ، ولا من مهمتك ذلك (فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ) أى : فحذّر وخوّف بالقرآن من يخاف العقاب ويخشى العذاب فيسمع لك ، ويستجيب لدعوتك إشفاقاً من الوعيد ، ورجاءً فى الوعد ، وطمعاً فى رحمة الله . . .

« سورة الذاريات »

سورة الذاريات مكِّية ، وآياتها ستون آية باتفاق ، وقد بدأت بالقسم على تحقيق الوعيد الذى ختمت به السورة قبلها لرعاية التناسب بين ختام السورة السابقة وابتداء السورة اللاحقة .

مقاصـــد السورة :

ابتدأ الله – سبحانه وتعالى – السورة الكريمة بالقسم على صدق البعث وتحقيق وقوعه ، ووقوع الجزاء - أقسم سبحانه – بمخلوقات من مخلوقاته لها آثارها الواضحة ، وظواهرها الشاهدة ، ومنافعها التى لا ينكرها أحد ، ولا يجحد عقلٌ فضلها على الإنسان والحيوان ، والنبات ، فإن الرياح تسوق الأمطار إلى جميع الأقطار ، وتدفع السفن فى البحار تحمل الأمتعة والأثقال والمسافرين ، وتمخر عباب البحار ، فتسهل كل صعب وتقرب كل بعيد ، كل هذا مما يقع تحت العيان ، ولا يستطيع أن ينكره إنسان ، كما أن ما يتفاوت الناس فيه من أحوال وما يجرى عليهم من أحداث ، وما يختلفون فيه من منازل وأرزاق مما يكون فى الأبناء دون الآباء ، أو فى الآباء دون الأبناء ، أو يحظى به العاجز الضعيف ، ولايدركه المتجبر العنيف ، لايكون إلَّا بتقدير ، وبتسخير من الحكيم الخبير .

وبعد أن تؤكد الآيات أمر البعث والجزاء تكشف حال المنكرين للبعث والجزاء ، وتسفه أقوالهم فى الدنيا ، وتصور مآلهم فى الآخرة : (يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ . ذُوقُواْ فِتْنَتَكُمْ هَٰذَا الَّذِى كُنتُم بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ) .

ثم تخلص الآيات من هذا وذاك إلى المتقين فتشيد بما ينتظرهم فى الآخرة من جميل النعيم فى جنَّات وعيون ، لقاء أعمالهم الصالحة فى الدنيا من طاعة الله ، والسهر فى عبادته ، والإنفاق الدائم فى سبيله ، متوخين الإحسان فى كل أعمالهم ، وسائر أحوالهم : (كَانُواْ قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ * وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ * وَفِىٓ أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ وَالْمَحْرُومِ) .

ثم تنتقل الآيات إلى الحديث عن دلائل القدرة ، بأقوى مايشد الانتباه ، ويثير الفكر من نظر الإنسان فى نفسه ، وما أودع فيه من عجائب الصنع ، وبدائع الخلق ، وتفكره فيما يحوى هذا الكون فى سهوله ووهاده فى أرضه وسمائه ،ومايقدّر على الإنسان من أرزاق تقضى بها حكمة الكريم الرزاق ،معقبة ذلك بما لا يدع مجالاً لمن ينكرون أو يتشككون : (فَوَرَبِّ السَّمَآءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ) .

ثم تستهدف الآيات غرضًا آخر فتذكر طرفًا من قصص الرسل والأنبياء ، وأحوالهم مع أقوامهم إعجازًا للقرآن الكريم بإخباره عن أحوال الغابرين ، وتسلية للرسول ﷺ بذكر ما جرى لإخوانه من الرسل السابقين .

واختصت هنا طائفة من الرسل اشتدت معاناتهم مع أممهم وأقوامهم ، فذكرت إبراهيم وموسى – عليهما السلام – وعرضت للأمم التى أوغلت فى الطغيان ، وأغرقت فى التجبر من أمثال عاد وثمود وقوم نوح ، فلاقت أشد النكال وأسوأ المآل .

ثم عرضت الآيات إلى الحديث عن مظاهر القدرة ببناء السموات وامتدادها ، وفرش الأرض وبسطها وتمهيدها ، وتعدد المخلوقات وازدواجها مما لا يتحقق إلا بقدرة لا يقادر قدرها ، وحكمة لا يدرك كنهها ، ويقين يدفعنا إلى صدق الإيمان ، ويسوقنا إلى الفرار إلى الله ، والاعتماد عليه دون سواه .

ثم تختم السورة بالغرض الأسمى ، والمقصد الأعلى ، والغاية العليا من خلق الإنسان والجان ، وهى توحيد الله – تعالى – وعبادته : (وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ) ثم تهدد الكافرين بسوء المصير : (فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن يَوْمِهِمُ الَّذِى يُوعَدُونَ) .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

(وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا ﴿١﴾ فَالْحَامِلَاتِ وِقْرًا ﴿٢﴾ فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا ﴿٣﴾ فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْرًا ﴿٤﴾ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ ﴿٥﴾ وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ ﴿٦﴾)

المفـردات :

(الذَّارِيَاتِ) : الرياح تذرو الغبار وغيره .

(فَالْحَامِلَاتِ وِقْرًا) أى : فالحاملات السحب المثقلة بمياه الأمطار .

(فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا) : فالسفن التى تجرى فى البحار والأنهار فى يسر وسهولة .

(فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْرًا) : فالملائكة التى تنفذ أوامر الله وقضاءه .

(إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ) : إنما البعث الذى توعدونه لصادق .

(وَإِنَّ الدِّينَ) : الجزاء يوم القيامة .

(لَوَاقِعٌ) : حاصل .

التفسير

١ - ٦ - (وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا * فَالْحَامِلَاتِ وِقْرًا * فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا * فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْرًا * إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ * وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ) :

اختتمت سورة (ق) بالتذكير بالوعيد ، والتخويف من وقوعه . وافتتحت سورة الذاريات بتأكيد خبره ، وصدق وقوعه إبداعًا فى الإعجاز ، وإحكاما للتنسيق بين السورتين .

والمعنى : أقسم بالرياح التى تذرو الغبار ،وتطيِّر التراب والرمال ، وتهب بين الزروع فتلقح الأشجار ، وتدفع السفن فى البحار والأنهار ، وتسوق السحب إلى حيث يشاءُ الله بالأمطار ، وأقسم بالسحب المثقلة الموقرة بالمياه التى تفرغها فى الفيافى والقفار ، وتجرى بها القنوات والأنهار ، فيشربها الإنسان والحيوان ، ويُروى بها الزروع والأشجار ، ويعيش عليها جميع الكائنات ، وأقسم بالسفن التى تمخر عبابَ المياه فى يسر ورخاءٍ تحمل الأمتعة والأحمال ، وتعين على الترحل والانتقال ، وتمكِّن من الانتفاع بخيرات البحار ، وتربط بين الأقطار ، فى أمن وسلامة من البحار وأمواجها ، وأقسم بالملائكة تنزل بأوامر الله وأقضيته فتجريها على الخلق كلٌّ بما قدر له رزقًا وحرمانًا وإحياءً وإماتةً ، وإقامة وسفرًا ، وصحة ومرضًا ، وإنجابًا وعقمًا ، وغير ذلك ممَّا يجرى على الإنسان بقضاءِ الله .

وقد ثبت من غير وجه عن أمير المؤمنين على بن أبى طالب ــ كرم الله وجهه ــ أنه صعد منبر الكوفة فقال : لا تسألونى عن آية فى كتاب الله ، ولا عن سنة عن رسوله ﷺ إلا أنبأتكم بذلك ، فقام إليه ابن الكوَّاء فقال : يا أمير المؤمنين ... ما معنى قوله ــ تعالى ــ : (وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا ؟) فقال على ــ رضى الله عنه ــ : الريح . قال : (فَالْحَامِلَاتِ وِقْرًا ؟) قال : السحاب . قال : (فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا) . قال : السفن . قال : (فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْرًا) قال : الملائكة ، ذكره ابن كثير ، ومثله فى الكشاف .

وقد أقسم الله بهذه الأشياءِ لكثرة ما فيها من المنافع ، والمشاهد الواقعة بين الناس بحيث لا ينكرها أحد ، ولما تتضمنه من الدلالة على وحدانية الله ــ تعالى ــ وتناهى قدرته ، وبدائع صنعته .

وفى هذا القسم إشعار بأن لله ــ تعالى ــ أن يقسم بما شاء من مخلوقاته ، وأنه يجوز للمخبر بأمر أو المتحدث عن شأن أن يقسم على صدقه ، وإن كان من القداسة أو المنزلة بحيث لا يتطرق إلى خبره شك تأكيدا للخبر ، واهتماماً بشأنه . وقوله ــ تعالى ــ : (إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ * وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ) هو المقسم عليه ، أى : إنَّ الذى توعدونه من أمر البعث والثواب والعقاب والجنة والنار لصادق ثابت لا مجال فيه لريب ، وإنَّ الجزاءَ على الأعمال لحاصل وواقع لا فوت منه ، ولا مفرّ عنه فافعلوا فعلكم ، وانتظروا جزاءكم .

(وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ ﴿٧﴾ إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُخْتَلِفٍ ﴿٨﴾ يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ ﴿٩﴾ قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَةٍ سَاهُونَ ﴿١١﴾ يَسْأَلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ الدِّينِ ﴿١٢﴾ يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ ﴿١٣﴾ ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ هَٰذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ ﴿١٤﴾)

المفردات :

(الْحُبُكِ) المراد من الحبك هنا : طرائق النجوم . وقال ابن عباس وغيره :ذات الخَلْق المستوى الجيد ، من قولهم : حبكت الشيء : أحكمته وأحسنت عمله .

(مُخْتَلِفٍ) : متخالف متناقض .

(يُؤْفَكُ عَنْهُ) : يصرف عنه .

(الْخَرَّاصُونَ) : الكذَّابون المقدرون مالا صحة له .

(غَمْرَةٍ) : فى لُجَّة تغمرهم من الجهل والضلال .

(يَوْمُ الدِّينِ) : يوم الجزاء وهو يوم القيامة ، من : دِنْتُه ، أى : جازيته .

(يُفْتَنُونَ) : يعرضون على النار للحرق . وأصل الفتنة : عرض المعدن على النار لتظهر جودته ، ثم استعمل فى الإحراق .

التفسير

٧ ـ ١٤ ـ (وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ * إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُخْتَلِفٍ * يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ * قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ * الَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَةٍ سَاهُونَ * يَسْأَلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ الدِّينِ * يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ * ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ هَٰذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ) :

أكَّد القسم فى الآيات السابقة صدق البعث والقيامة ووقوع الجزاء ، ثم جاءت هذه الآيات وأنشأت قَسَمًا آخر يسفِّه عقول المشركين ويندد بغوايتهم وجهلهم فقال-تعالى- : (وَالسَّمَآءِ ذَاتِ الْحُبُكِ) .

والمعنى : وأقسم بالسماء ذات الطرائق المختلفة لمسيرة النجوم فى خَلْق مستو وزينة منتشرة فى نواحيها ، إنكم أيها المشركون لفى قول متخالف متناقض متدافع فتعتقدون وجود الله ، وتقولون بصحة عبادة الأصنام معه سبحانه ، وتقولون فى الرسول تارة : إنه مجنون ، وأخرى إنه ساحر أو شاعر ، والساحر لايكون إلا عاقلًا حرِّيفًا ، والشاعر لايكون إلا موهوبًا متصرفًا وتقولون فى شأن القيامة لاحشر ولاحياة بعد الموت ، وتزعمون أن أصنامكم شفعاؤكم عند الله يوم القيامة إلى غير ذلك من الأقوال المتضاربة ، والآراء المتضادة .

ولعل النكتة فى هذا القسم تشبيه أقوالهم فى اختلافها ، وتنافى أغراضها بطرائق السموات فى تباعدها ، واختلاف هيئاتها ،وقوله-تعالى- : « (يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ) معناه :يصرف عن القرآن أو عن الرسول ﷺ من صرف عن الخير إذ لا صرف أفظع وأشد منه ، وقيل : يصرف عنه من صرف فى علم الله وقضائه .

ويجوز أن يكون الضمير فى (عَنْهُ) للقول المختلف على معنى : يَصْدُر إفك من أُفِكَ عن القول المختلف وبسببه .

وقوله-تعالى- : (قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ) دعاءٌ عليهم كما فى قوله-تعالى- : (قُتِلَ الْإِنسَانُ مَآ أَكْفَرَهُ) وأصله الدعاءُ بالقتل والهلاك ، ثم جرى مجرى لُعن ، أى : أُبعد الكذابون المقدرون لما لايكون ولا صحة له عن رحمة الله ، وهم أصحاب القول المختلف الذين هم فى غمرة وشدة من الجهل والضلال غافلون ساهون عما أُمروا به : (يَسْأَلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ الدِّينِ) أى : متى وقوع يوم الجزاء ؟ لا يقصدون بالسؤال استعلامًا ، ولكن يسألون سخرية واستبعادًا . وقوله-تعالى- : (يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ) جواب لسؤالهم بما يسوءهم من الجزاء الذى لامحالة نازل بهم ، أى : يكون هذا الجزاءُ يوم يعذبون ويحرقون بالنار - قال عكرمة : ألم تر أن الذهب إذا أدخل

النار قيل: فُتِنَ ، فهؤلاء يفتنون بالإحراق كما يفتن الذهب لإظهار حقيقته ، ويقول لهم خزنة جهنم امتهانًا وتبكيتًا: ذوقوا فتنتكم وعذابكم بالإحراق ، هذا الذى كنتم تستعجلونه فى الدنيا تكذيبًا وإنكارًا قد وافاكم ، وحاق بكم فوقعتم فيه ، وعرفتم صدقه .

(إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٥﴾ ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ ﴿١٦﴾ كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿١٨﴾ وَفِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴿١٩﴾ وَفِى ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾ وَفِى ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴿٢٢﴾ فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ ﴿٢٣﴾)

المفـــردات :

(آخِذِينَ مَآ آتَاهُمْ رَبُّهُمْ) : قابلين ما أعطاهم ربهم راضين به .

(يَهْجَعُونَ) : ينامون . والهجوع : النوم ليلًا .

(الْأَسْحَارِ) : جمع سَحَر ، وهو الوقت الذى قبيل الصبح .

(حَقٌّ) : نصيب وافر استوجبوه على أنفسهم .

(لِلسَّآئِلِ) : للمستجدى الذى يسأل الناس .

(الْمَحْرُومِ) : المحتاج المتعفف الذى لا يسأل الناس ، ولا يفطن أحد لحاله فيحرم الصدقة .

(آيَاتٌ) : دلائل واضحات .

التفسير

١٥ ، ١٦ - (إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِى جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * آخِذِينَ مَآ آتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ) :

انتقلت الآيات بعد شرح أحوال المشركين ، وعرض ما يستحقون من العذاب ، وما أعدَّ لهم من سوء الجزاء إلى وصف أحوال المتقين وما ينتظرهم من نعيم لقاء ما أخذوا به أنفسهم فى الدنيا من الإحسان ، وقاموا عليه من الطاعة والانهماك فى العبادة وبذل الصدقات ، فى سبيل الله عن رضًا وسخاء .

والمعنى : إن المتقين الذين سلكوا الطريق السّوى فلزموا الطاعة ووقوا أنفسهم من مهالك الشرك ، ومهاوى المعاصى سيسعدون فى الآخرة بألوان مختلفة من النعيم فى جنات متعددة الأشجار والثمار ، تزيدها العيون الجارية فيها بالماء جمالًا وبهجة ، وتزيد المتقين نعيمًا ومتعة ، ويتلقون هذا النعيم راضين حامدين - وكيف لا يرضون وكل ما آتاهم حسن مرضى يُتَلَقى بحسن القبول ، وعظيم الرضا والشكر ، فإن عملهم الصالح فى الدنيا لا يساوى شيئًا بجانب هذا النعيم .

١٧ ، ١٨ ، ١٩ - (كَانُواْ قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ * وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ * وَفِىٓ أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ وَالْمَحْرُومِ) :

هذه الآيات بيان لأعمالهم الصالحة ، وتعداد لصور من إحسانهم . أى : ومن جملة إحسانهم أنهم كانوا يسهرون ليلهم فى العبادة ، ولا ينامون من الليل إلا قليلًا ، ومع طول السهر فى العبادة وقلة الهجوع كانوا يداومون الاستغفار فى السحر قبيل الفجر ، ويحرصون على ذلك فلا يفوتهم . قال الحسن : مدّوا الصلاة إلى الأسحار ، ثم أخذوا بالأسحار فى الاستغفار .

(وَفِى أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ وَالْمَحْرُومِ) : وفى أموالهم نصيب وافر استوجبوه على أنفسهم لكل محتاج مستعرض للمسألة أو متعفف لا يسأل أحدًا ولا يفطن الناس له فيحرم من الإحسان والصدقة . والمقصود من هذا الحق الصدقة ، لا الزكاة ، لأن السورة مكية والزكاة مدنية ، وقيل : المحروم هو الذى لا سهم له فى الغنيمة ، أو الغارم ، والأصل هو أن المحروم الممنوع الرزق لترك السؤال أو ذهاب المال أو غير ذلك مما يصير به الإنسان فقيرًا ولا يتعرض للمسألة .

وفرّق قوم بين الفقير والمحروم بأنه قد يحرمه الناس بترك الإعطاء وقد يحرم نفسه بترك السؤال ، فإذا سأل لا يكون ممن حرم نفسه بترك السؤال ، وإذا لم يسأل فقد حرم نفسه ولم يحرمه الناس .

٢٠ ، ٢١ ، ٢٢ – (وَفِى الْأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ * وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ * وَفِى السَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ) :

فى هذه الآيات توجيه إلى التدبر فى آيات ومظاهر قدرته –تعالى– للانتفاع بذلك فى ترسيخ العقيدة ، وتعميق الإيمان ، فإن من ينظر فى آثار قدرة الله على الأرض التى تقلُّه ، وفى نفسه وتكوين خلقه وجسمه ، وفى السماء التى تظلُّه – إن من ينظر فى ذلك كله – يجد من دلائل القدرة ما يدعم الإيمان ، ويؤكد اليقين بالصانع الحكيم .

والمعنى : وفى الأرض التى تعيشون عليها ، وتمشون فى مناكبها دلائل على الصانع وحكمته وعلى الخالق وقدرته من حيث إنها كالبساط لما فوقها كما قال–تعالى– : « الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا[1] » وفيها المسالك والفجاج للمتقلبين فيها ، وهى متنوعة بين سهل وجبل ، وصلبة ورخوة ، وخصبة وسبخة ، ويتعدد فيها أنواع النبات وتسقى بماء واحد فتأتى بالثمار مختلفة ، ونفضل بعضها على بعض فى الأُكل ، وكلها موافقة لحوائج الناس ومنافعهم فى صحتهم واعتلالهم ، وحلهم وترحالهم ، وفيها من العيون المتفجرة والمعادن

---

(١) سورة طه من الآية : ٥٣ .

المتنوعة ، والدواب المنبثة ، والحشرات المختلفة فى برها وبحرها المتعددة الصور والأشكال والحركات والأفعال من الوحشى والإنسىّ ، والنافع والمؤذى - فى هذا كله آيات للموقنين الموحدين الذين يلتمسون سبل الهداية والسلوك السوى الموصل إلى المعرفة ، فهم ينظرون بعيون باصرة ، وأفهام نافذة ، كلما رأوا آية عرفوا وجه تأوّلها فازدادوا إيمانًا على إيمانهم .

(وَفِى أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ) أى : وفى خلقكم آيات ودلائل ،أى : وفى حال ابتداء خلقها ، وتنقلها من حال إلى حال ما تتحير فى تصوّره الأذهان - وحسبك بالقلوب - وما ركب فيها من عقول ، وبالألسن والنطق ومخارج الحروف وما فى تركيبها وترتيبها من الآيات الساطعة والبينات القاطعة ، وناهيك بما سوّى فى الأعضاء من المفاصل فإذا تعطل شىء منها جاء العجز ، وإذا استرخى أناخ الذُّلّ ؛ فتبارك الله أحسن الخالقين .

وقوله - تعالى - : (أَفَلَا تُبْصِرُونَ) : أغفلتم فلا تنظروا فى أنفسكم فتبصروا هذا كلّه بعين البصيرة وتقدروا نفعه لكم ، وآثاره فى حياتكم فيزداد إيمانكم ، ويعظم شكركم .

وهو تعنيف على ترك النظر فى الآيات الأرضية والنفسية .

(وَفِى السَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ) أى : وفى السماء تقدير رزقكم وتعيينه ، أو أسباب رزقكم من المطر ، والشمس والقمر والمطالع والمغارب التى تختلف بها الفصول فتختلف المحاصيل ، وتتنوع الأرزاق .

وذهب غير واحد إلى أن المراد بالسماء السحاب ، وبالرزق المطر ، ومعنى قوله -تعالى- : (وَمَا تُوعَدُونَ) أى : الذى توعدونه من خير وشر ، وثواب وعقاب ، أو جنة ونار لأن الأعمال وثوابها مكتوبة مقدرة فى السماء .

٢٣ - (فَوَرَبِّ السَّمَآءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ) :

هذا القسم لتأكيد المقسم عليه وتحقيقه ، والأرجح فى ضمير (إِنَّهُ لَحَقٌّ) أن يكون راجعًا إلى كل ما تقدم من أول السورة .

والمعنى : فورب السماء والأرض إن كل ما تقدم فى هذه السورة من أخبار وأحوال ، وأوصاف وتذكير حقٌّ واقع وأمر ثابت لا يرقى إليه شك ، ولا يختلف فى أحقيته أحد ، وكما أنه لا شك لكم فى أنكم تنطقون ينبغى ألا تشكوا فى حقيته ، فهو كما نقول : إن هذا حق مثل [1] أنك تبصر وتسمع .

روى عن الأصمعى قال : أقبلت من جامع البصرة ، فطلع أعرابىٌّ على قعود له .

فقال : مَن الرجل ؟ قلت : من بنى أصمع . قال : من أين أقبلت ؟

قلت : من موضع يتلى فيه كتاب الرحمن . قال : اتلُ علىَّ ، فتلوت (وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا ...) فلما بلغت قوله ـ تعالى ـ : (وَفِى ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ) . قال : حسبك ، فقام إلى ناقته فنحرها ووزعها على مَنْ أقبل وأدبر ، وعمد إلى سيفه وقوسه فكسرهما وولَّى .

فلما حججت مع الرشيد طفقت أطوف بالبيت ، فإذا بمن يهتف بى بصوت دقيق فالتفت فإذا هو الأعرابى قد نحل واصفر فسلَّم علىَّ واستقرأنى السورة فلما بلغت الآية صاح وقال : « قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا » . ثم قال : وهل غير هذا ؟ « فَوَرَبِّ السَّمَآءِ وَالْأَرْضِ ... » فصاح وقال : يا سبحان الله . مَنِ الذى أغضب الجليل حتى حلف . لم يصدقوه بقوله : حتى ألجأوه إلى اليمين . قالها ثلاثًا ، وخرجت معها نَفْسُه .

---

(١) وكلمة مثل منصوبة على أنها صفة لمحذوف تقديره : إنه لحق حقا مثل ما أنكم تنطقون ، أو منصوبة على أنها حال ، وتوغلها فى الإبهام يمنع تعرفها بالإضافة ، ويصح أن تكون صفة لكلمة حق فى محل رفع ، وبنيت على الفتح لإضافتها لغير متمكن ، كما فى قوله تعالى : « لقد تقطع بينكم » .

(هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴿٢٤﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَٰمًا ۖ قَالَ سَلَٰمٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٢٥﴾ فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ فَجَآءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ﴿٢٦﴾ فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٢٧﴾ فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ۖ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ ۖ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ ﴿٢٨﴾ فَأَقْبَلَتِ ٱمْرَأَتُهُۥ فِى صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ﴿٢٩﴾ قَالُوا۟ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٠﴾)

المفـردات :

(ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ) الضيف : النازل على محلة قوم وليس منهم ، ويقال للواحد والجمع ، ويجمع على ضيوف ، وضِيفَان وأضياف ، واختلف فى عددهم، قيل : ثلاثة ، وقيل : تسعة ، وقيل : اثنا عشر .

(مُنكَرُونَ) : مجهولون .

(فَرَاغَ) : مال فى خفية .

(فَقَرَّبَهُ) : قدّمه .

(فَأَوْجَسَ) : أحس فى نفسه .

(صَرَّةٍ) : صيحة وضجة .

(فَصَكَّتْ) : ضربت .

(عَقِيمٌ) : عاقر .

التفسير

٢٤ ، ٢٥ - (هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ * إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ مُنكَرُونَ) :

هذه الآيات شروع فى مقصد آخر من مقاصد هذه السورة يتمثل فى عرض طائفة من القصص والأخبار الصادقة ليتسلى بها الرسول - صلى الله عليه وسلم - ، ويتأسى بما لاقاه الأنبياء السابقون من عنت أقوامهم ، وعانوا من عنادهم وكفرهم وبما وقع للأمم التى أغرقت فى العناد وأسرفت فى الفساد ، وأمعنت فى الضلال والإضلال .

وقد بدأت هذا المقصد بحديث ضيف إبراهيم الذين استضافوه من الملائكة ، واستهلته بالاستفهام المشوق إلى طرافة الحديث ، المؤذن بأنَّهُ حديث تستلذه الأسماع ،وتطيب بسماعه النفوس ، لأنه مما لا يعلمه الرسول إلا بطريق الوحى .

والمعنى : هل أتاك -أيها الرسول- حديث ضيف إبراهيم الذين استضافوه من الملائكة المكرمين عند الله فى المنزلة وفى شرف الوفادة ، وعند إبراهيم -عليه السلام - حيث قام على خدمتهم بنفسه وزوجه .

وقوله -تعالى- : (إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ) توقيت للحديث أى :هل أتاك هذا الحديث وقت دخلوا عليه بيته فبادروه بقولهم : نؤمنك أمانا ونسلم عليك سلاما حتى لايروعك ولا يخيفك دخولنا ، قال ردًّا عليهم : عليكم سلام دائم ،أو أمرى معكم سلام .وقوله : قوم منكرون ، أى : أنتم قوم مجهولون عندى لامعرفة لى بكم، ولا عهد لى معكم، والظاهر أن هذا خاطر حدَّث به نفسه ، لأنه ليس من كرم الضيافة أن يقول المُضيف مهما كان لمضيفه : أنا لا أعرفك فضلا عن أن يكون القائل إبراهيم ، المضياف الكريم .

٢٦ ، ٢٧، ٢٨، ٢٩ -(فَرَاغَ إِلَىٰ أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ * فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ * فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ * فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ) :

المعنى : فمال إلى أهله فور دخولهم عليه فى خفية منهم فإن من حسن أدب المضيف أن يبدأ ضيفه بالقرى ، وأن يبادره به حذرًا من أن يكفه ويمنعه ، أو يعذره أو يصير منتظرًا ، وقوله - تعالى - : (فَجَآءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ) أى : مكتنز لحماً وشحماً غير مهزول جاء به بسرعة .

(فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ) أى : فقدم الطعام إلى الضيف وطلب إليهم تناوله يقوله : ألا تأكلون ؟ فهو بمثابة قولنا للضيف عند إحضار الطعام : تفضل لتناوله. ولم يقبل الضيف على الطعام ، ولم يتقدموا للأكل (فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً) فأحس فى نفسه خيفة وإشفاقا منهم ، وعرفوا ذلك منه (قَالُواْ لَا تَخَفْ) فقالوا له مطمئنين : لاتخف ، وكشفوا عن حقيقتهم (وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ) يشب ويكبر حتى يدرك مدارك الرجال ، ويصير من أهل العلم والمعرفة ، وهو إسحاق - عليه السلام - لقوله - تعالى - : « وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ[1] » والظاهر أن زوجه كانت تقف قريباً من إبراهيم وضيفه بحيث تسمعهم ولا يرونها ، فلما سمعت البشارة دهشت ، ونسيت ما ينبغى منها (فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِى صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ) أى : فأقبلت عليهم فى صيحة وضجة ، وضربت جبهتها بأصابعها على عادة النساء إذا سمعن أمرا عجيباً ، وقالت : أنا عجوز عاقر ، فكيف تتأتى هذه البشارة ؟ ! ! وكيف ألد ؟ ! !

٣٠ - (قَالُواْ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ) :

قالت الملائكة : الأمر كما سمعت ، أو مثل ذلك القول الكريم قال ربّك ، وإنما نحن معبّرون بخبرك به - عنه تعالى - لا أنّا نقول ذلك من تلقاء أنفسنا ، إنّه هو الحكيم الذى يضع الأمر فى موضعه وضعاً متقنا ، العليم الذى يكون قوله حقاً لا محالة .

وقد تعددت رواية هذه القصة هنا وفى سورة هود وسورة الحجر ، واختلفت أساليبها فبرز فى كل واحدة من هذه الروايات جانب لم يظهر فى الموقع الآخر على أسلوب القصص القرآنى إذا تعددت رواياته .

---

(١) سورة الصافات الآية : ١١٢

طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

رئيس مجلس الادارة
رمزى السيد شعبان

رقم الإيداع بدار الكتب ١٦٧٩/١٩٨٨

الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية
٧٦٩٣ — ١٩٨٧ — ٤٠٠٠ ٢٥



التفسير الوسيط

للقرآن الكريم

تأليف

لجنة من العلماء

بإشراف

مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر

المجلد الثالث

الحزب الثالث والخمسون

الطبعة الأولى ١٤١٠هـ - ١٩٩٠م

القاهرة

الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

١٩٩٠

* (قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٣١﴾ قَالُوٓاْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ ﴿٣٣﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ ﴿٣٤﴾ فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٥﴾ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٦﴾ وَتَرَكْنَا فِيهَآ ءَايَةً لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٣٧﴾)

المفردات :

(فَمَا خَطْبُكُمْ) : فما شأنكم الخطير الذى جئتم من أجله .

(مُسَوَّمَةً) : مُعَلَّمة ، من السُّومة - بالضم - وهى العلامة ، أو مُرْسلة - من : أُسِيمت الإبلُ فى المرعى إذا : أُرْسلتْ .

(لِلْمُسْرِفِينَ) : للمُجاوزين الحدّ فى الفُجُور .

(آيَةً) : عَلَامة دَالَّة على ما أصابهم مِنْ عذاب .

التفسير

٣١ - (قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ) :

قال إبراهيم - عليه السّلام - لضيوفه المُكرَمين لَمَّا عَلِم أَنَّهُم ملائكة وهم لا ينزلون إلا بإذن الله لأمر خطير ويفعلون ما يؤمرون : فما شأنكم العظيم الَّذِى أُرسلْتم إليه غير البشارة بالغُلَام؟ وفيم جئتم ؟ .

٣٢ ، ٣٣ ، ٣٤ - (قَالُوٓا إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ * لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ * مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ) :

قالت الملائكة لإبراهيم : إنا أُرسلنا مِنْ قِبَل الله إلى قوم مُفْرِطين فى العصيان ، وهم قوم لُوط ؛ لنُلْقِى عليهم حجارة من طين لا يعلم كنهها إلَّا الله ، وهذه الحجارة مُسَوَّمة ، أى : مُعَلَّمَة بما

يدل على أنها ليست من طين أرضنا ، وقيل : مُسوَّمة ، أى : مُرسلة ، مِنْ : أُسِيمَتِ الإبلُ إذا أُرْسلت من (عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ) أى : أنَّهَا مُعَدَّة فى علم الله للمُجاوزين الحدّ فى الفُجُور ، التَّاركين ما أحلّ الله لهم من الطَّيِّبات ،المُقبلين على ماحرّم الله من الخبائث ،حيث كانوا يأتون الذُّكْران من العالمين مع كفرهم وشِرْكهم .

ووضع الظَّاهر موضع ضميرهم فى قوله-تعالى- : (لِلْمُسْرِفِينَ) ذمًّا لهم بالإسراف بعد ذمّهم بالإجرام وإشارة إلى علَّةِ الحكم .

٣٥ ، ٣٦ - (فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ * فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ الْمُسْلِمِينَ) :

هذَا الكلام حكاية من جهته-تعالى-لِمَا جرى على قوم لُوط-عليه السَّلَام - بطريق الإجمال بعد حكاية ما جرى بين الملائكة وبين إبراهيمَ - عليه السلام - من الكلام ، والفَاءُ مُفْصِحَةٌ عن جُمَل لمْ تُذْكَر اكتفاءً بذكرها فى مواضع أُخَرَ ، كَأَنَّهُ قِيل : فقاموا من عنده وجاءوا لُوطا فجرى بينهم وبينه ماجَرَى ، فَبَاشروا ما أُمِرُوا به فذلك قوله-تعالى- : (فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ) أى : فأخرجنا مَنْ كان فى قُرى قوم لُوط مِمّن آمن بِلُوط - عليه السَّلَام- فما وجدنا فيها غير أهل بيت من المُسْلِمِين ،والمراد بهم - كما أخرج ابن المنذر عن مجاهد - لوط وابنتاه ، وأخرج ابن أبى حاتم عن سعيد بن جُبير أنَّهُ قال : كانوا ثلاثة عشر . «آلوسى ».

واحتجّ بهذه الآية من ذهب إلى رأى المعتزلة الذين لا يفرقون بين الإسلام والإيمان لأنَّه أطلق عليهم المؤمنين والمسلمين؛لأنَّ المعنى : فأُخرجنا مَن كان فيها مِن المؤمنين فلم يكن المُخْرَج إلَّا أهل بيت واحد . وبهذا الرأى أخذ بعض أهل السنة ومنهم البخارى. قال ابن كثير : وهذا الاستدلال ضعيف ، لأن هؤلاء كانوا قوماً مؤمنين . وعندنا : أنَّ كُلَّ مُؤمن مُسْلم ولا ينعكس ، فاتّفق الاسمان ههنا لخصوصية الحال ، ولا يلزم ذلك فى كل حال . ا هـ : ابن كثير ص ٢٣٦ .

والوجدان فى قوله-تعالى- : (فَمَا وَجَدْنَا) معناه : العلم-على ما قاله الراغب-وذهب بعض الأجلَّةِ إلى أنَّهُ لا يُقَال :ما وجدت كذا إلَّا بعد الفحص والتَّفتيش ،وحُمِل عليه معنى الآية ،أى :

فأخرج ملائكتنا (مَن كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ) فما وجد ملائكتنا فيها (غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ الْمُسْلِمِينَ) .

٣٧ ـ (وَتَرَكْنَا فِيهَآ ءَايَةً لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الأَلِيمَ) :

أي :وتركنا في القُرى التي أهلكناها وهي قُرى قوم لُوط « وإضمارها بغير ذكر لشُهرتها » ـ تركنا فيها ـ علامة دالَّة على ما أصابهم من العذاب وما نزل بهم من العقاب ؛ ليكون ذلك عبرة بالغة وعظة نافعة للَّذِين من شأنهم أن يخافوا العذاب الأَلِيم لسلامة فِطْرَتهم ورقَّة قلوبهم ، وهم المؤمنون ، دُون مَنْ عَدَاهم مِنْ ذوى القُلُوب القاسية فإِنَّهُمْ لايعتدّون بها ولايعتبرون بهذه الآيات ، والمراد بها تلك الأحجار الّتى أهلكوا بها ، وقيل :ماء مُنْتِن ،قال الشّهاب : كأنّه بحيرة طبريّة .

(وَفِى مُوسَىٰٓ إِذْ أَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ فَتَوَلَّىٰ بِرُكْنِهِۦ وَقَالَ سَٰحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٣٩﴾ فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿٤٠﴾ وَفِى عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ ﴿٤١﴾ مَا تَذَرُ مِن شَىْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَٱلرَّمِيمِ ﴿٤٢﴾ وَفِى ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا۟ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٤٣﴾ فَعَتَوْا۟ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَهُمْ يَنظُرُونَ ﴿٤٤﴾ فَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ مِن قِيَامٍ وَمَا كَانُوا۟ مُنتَصِرِينَ ﴿٤٥﴾ وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٤٦﴾)

المفـردات :

(بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ) : بدليل واضح له سلطان على القلوب ، وهو ما ظهر على يديه من المعجزات .

(فَتَوَلَّىٰ بِرُكْنِهِ) : فأعرض فرعون بقوّته وسلطانه عن الإيمان ، ومنه قوله - تعالى - : « أَوْ آوِي إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ » وستأتى فى الشرح معان أخرى .

(مُلِيمٌ) : آت بما يلام عليه من الكفر والطغيان .

(الرِّيحَ الْعَقِيمَ) : الشّديدة الّتى لا خير فيها فقد دمرتهم .

(كَالرَّمِيمِ) : كالشّىء البالى الهالك المُتَفَتِّت مِنْ عَظْمٍ أو نبات أو غير ذلك .

(فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ) : فأهلكتهم الصّيحة ، أو نار من السّماء .

التفسـير

٣٨ - (وَفِي مُوسَىٰ إِذْ أَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ) :

وفى قصة مُوسى عظة وعبرة إذْ أرسلناه إلى فرعون مُؤَيَّدًا مِنَّا بسُلطان مُبين وهو ما أظهرناهُ على يده من مُعجزات باهرة وحجج واضحة ودلائل ظاهرة .

٣٩ - (فَتَوَلَّىٰ بِرُكْنِهِ وَقَالَ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ) :

أى : فازْوَرَّ فرعون وأعرض عن الإيمان بما جاء به موسى من الحقّ المبين استكبارًا وعنادًا - على أنَّ رُكْنه جانب بدنه وعِطْفِه - والتّولّى به كناية عن الإعراض كِبْرًا وخُيَلاء وعُجْبًا ، وقيل : تولّى بما كان يتقوّى به من قومه وجنوده وملكه وسلطانه ، والرّكن يُسْتَعار للقوّة وقال فرعون عن مُوسى : لا يخلو أمره فيما جاءنا به من أن يكون ساحرًا أو مجنوناً ، كأنّ فرعون جعل ما ظهر على يديه - عليه السّلام - من الخوارق العجيبة منسوبة إلى الجنّ ، وتردّد فى أنّه حصل باختياره فيكون سحرًا ، أو بغير اختياره فيكون جُنوناً .

وقال أبو عبيدة: (أو) بمعنى الواو؛ لأنَّ القرآن حكى عن اللَّعين « فِرْعَوْن » أنَّهُ قال « الأَمْرَين » قال عن مُوسى مرّة: « إِنَّ هَٰذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ »[1] وقال مرّة أُخرى: « إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ »[2] وهكذا كان يتلوّن تلوّن الحرباء.

٤٠ - (فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَاهُمْ فِى الْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ):

فأخذنا فرعون ومَن اعتزّ بهم وتقوّى من جنوده وأعوانه فطرحناهم فى اليمّ غير مُقَدِّرين لهم، ورميناهم فى البحر غير مُبَالِين بهم - فعلنا بهم ذلك - وفرعون مُرتكب مايلام عليه من الكفر والطُّغيان لتكذيبه بالرّسول وادِّعائه الأُلوهيّة، وشاركه فى ذلك جنوده فأُغرقوا معه، وفى الكلام من الدّلالة على غاية عظم شأْن القدرة الربّانية ونهاية قماءة فرعون وقومه وذلتهم أمام قدرة الله.

٤١ - (وَفِى عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ):

وفى قصة عاد وإهلاكهم عبرة وعظة إذ أرسلنا عليهم الرّيح العقيم، وهى الشّديدة الّتى لا خير فيها، فهى لاتُلقح شيئاً - كما أخرجه جماعة عن ابن عبّاس وصَحّحه الحاكم - وفى لفظ: هى ريح لا بركة فيها ولا منفعة ولا ينزل منها غيث ولا يلقح بها شجر، كأنه شبّه عدم تضمّن المنفعة بعقم المرأة.

وهذه الرّيح كانت « الدّبور » لما صحّ من قوله - صلى الله عليه وسلم -: « نُصِرت بالصَّبَا وأُهلِكت عاد بالدّبور ».

٤٢ - (مَا تَذَرُ مِن شَىْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ):

أى: ما تدع من شىء مرّت عليه هذه الريح إلّا صيّرته كالرّميم، أى: كالشّىء البالى المتفتّت من عظم أو نبات أو غير ذلك، فالرّميم مِنْ: رمّ الشىءُ، أى: بَلِى.

---

(١) سورة الشعراء، من الآية: ٣٤

(٢) سورة الشعراء، الآية: ٢٧

وفسّره السّدى هنا بالتُّراب ،وفسّره ابن عيسى بالمُنْسَحِق الذى لا يُرَمّ ،أى : لا يُصْلح ، والشىءُ هنا عام مخصوص ،أى : ماتذر الريح مِنْ شىء أراد الله تَدْمِيره وإهْلَاكه مِنْ ناس أو ديار أو شجر أو غير ذلك إلّا جعلته كالرّميم ، رُوِى أنّ الرّيح كانت تمرّ بالنّاس فيهم الرّجل من عاد فتنتزعه من بينهم وتُهلكه .

٤٣ ، ٤٤ - (وَفِى ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا حَتَّىٰ حِينٍ * فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ وَهُمْ يَنظُرُونَ) :

وفى قصّة ثمود وإهلاكهم آيات ،أى : عظات وعبر . إذ قيل لهم : تمتّعوا فى دياركم إلى وقت معلوم وهو وقت انقضاء آجالهم وفناء أعمارهم ،فاستكبروا عن امتثال أمر ربّهم وتعالوا عن الاستجابة لما دعاهم إليه الرّسول فأهلكتهم الصّاعقة وهى نار من السّماء،وقيل : صيحة منها فهلكوا وهم ينظرون إليها ويُعَايِنُون وقوعها بهم ؛ لأنّها كانت نهارا .

وقال مجاهد : (وَهُمْ يَنظُرُونَ) بمعنى ينتظرون ، أى : وهم ينتظرون الأخذ والعذاب ، وانتظار العذاب أشدّ من العذاب .

٤٥ - (فَمَا اسْتَطَاعُوا مِن قِيَامٍ وَمَا كَانُوا مُنتَصِرِينَ) :

أى : فما تمكّن أهل ثمود من النُّهوض للهرب حين نزول العذاب بهم ووقوعه عليهم ، وما كانوا قادرين على الانتصار بدفع العذاب عنهم بغيرهم بعد أن عجزوا عن دفعه بأنفسهم .

٤٦ - (وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْماً فَاسِقِينَ) :

أى : وأهلكنا قوم نوح من قبل هؤلاء المذكورين ؛ لأنّهم كانوا قوماً خارجين عن طاعة الله لما كانوا فيه من الكفر والمعاصى .

(وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْيدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴿٤٧﴾ وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ ﴿٤٨﴾ وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٤٩﴾ فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾ وَلَا تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥١﴾)

المفردات :

(بِأَيْدٍ) : بقوة .

(وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ) : لقادرون ، من الوُسْع : بمعنى الطَّاقة والقدرة .

(وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا) : والأَرض مهّدناها وبسطناها كالفراش للاستقرار عليها .

(زَوْجَيْنِ) : صِنْفَين مُزْدوجين ونوعين مختلفين .

(فَفِرُّوا إِلَى اللهِ) : فالجأُوا إليه وسارعوا إلى طاعته .

التفسير

٤٧ ، ٤٨ - (وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ۞ وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ) :

يقول الله - تعالى - مُنَبِّهًا على خلق العالم العُلْوىّ والسُّفْلِىّ ؛ ليفكِّر النَّاس فى بديع صنعه وعظيم خلقه فيعبدوه ولا يشركوا به شيئاً - يقول - : والسَّماء أحكمنا خلقها وجعلناها سقفاً محفوظاً بقوة عظيمة ، وإنَّا لقادرون على أكثر من هذا ، فقد وَسِعَت قُدْرَتُنَا كُلَّ شىء فضلا عن السَّماء ، أى : قد وسّعنا أرجاءها ورفعناها بغير عمد .

والآية الكريمة تشير إلى أنَّ التَّوسعة مُستمرة على الزَّمن ، وهو ما أثبته العلم الحديث ، وعرف بنظرية التَّمدّد الَّتِى أصبحت حقيقة علميّة فى أوائل هذا القرن ، أشار إليها القرآن الَّذِى

أُنْزِلَ على النبيّ الأُمّي محمد ـ صلَّى الله عَلَيْهِ وسلَّم ـ منذ أربعة عشر قرناً (اهـ :المنتخب بتصرف)
والأرض هَيَّأْنَاهَا وبسطناها لتستقروا عليها وتصلح لحياتكم فوقها ، فنعم المُهَيِّئُون لها نحن ونعم الجاعلون لها كالمهاد .

٤٩ ـ (وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ) :

أى : ومن جميع المخلوقات خلقنا أزواجاً : سماء وأرضاً ، وليلا ونهاراً ، وشمساً وقمراً ، وبرًّا وبحرًا وضياءً وظلاماً ، وإيماناً وكفرًا ، وموتاً وحياةً ، وشقاءً وسعادة ، وجنةونارًا ، حتى الحيوانات والنباتات خلقنا فى كل صنف منها الذكور والإناث ، ولهذا قال ـ تعالى ـ : (لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ) أى : فعلنا ذلك كلَّهُ من بناء السّماء وفرش الأرض وخلق الأزواج كى تتذكّروا فتعرفوا أنَّهُ ـ عزّ وجلّ ـ الرّبّ القادر الَّذِى لا يُعْجزه شىءٌ فتعملوا بطاعة الله ولاتعبدوا سواه ، وقيل : المراد بجميع ماذكر الاستدلال على قدرة الله على البعث والحشر والنشر ؛ لأن من قدر على إيجاد ذلك فهو قادر على إعادة الأموات يوم القيامة .

٥٠ ، ٥١ ـ (فَفِرُّوٓاْ إِلَى اللهِ إِنِّى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ＊ وَلَا تَجْعَلُوا مَعَ اللهِ إِلَـٰهاً ءَاخَرَ إِنِّى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ) :

ثم فَرّع على قوله ـ تعالى ـ : (لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ) فقال : ففِرُّوا إلى الله ، أى : قُلْ لهم يا مُحَمّد : فسارعوا إلى طاعته وثوابه وفروا من معصيته وعقابه ، وهو تمثيل للاعتصام به ـ سبحانه ـ واللُّجوء إليه والاعتماد فى الأمور عليه ، إنِّى لكم من عقابه المُعَدّ لمن لَمْ يفرّ إليه ـ سبحانه ـ ولم يوحّده نذير مبين ، بيِّنه الله ـ سبحانه ـ بالمعجزات ، أو مُبيِّن ما يجب أن يُحْذَر منه .

(وَلَا تَجْعَلُوا مَعَ اللهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ ...) إلخ عطف على الأمر السّابق فى قوله ـ تعالى ـ : (فَفِرُّوٓاْ إِلَى اللهِ) وهو نهى صريح عن الإشراك بالله ، على نحو : وحدوه ولا تشركوا به .

والمعنى : ولا تشركوا به شيئاً إنِّى لكم من الله نذير مبين عاقبة الإشراك ، وكرّر قوله تعالى : (إِنِّى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ) فى الآيتين السابقتين لاتِّصال الأوّل بالأمر والثّانى بالنّهى والغرض من ذلك كلِّه الحثّ على التّوحيدِ والمبالغة فى النّصيحة والتّأْكِيد ، وعلل لذلك

الآلوسيّ فقال : المُنْسَاق إلى الذهن – على تقدير كون المراد بالفرار إلى الله تعالى العبادة – أنه تعالى أمر بها أوّلا وتَوَعَّدَ تاركها بالوعيد المعروف له فى الشّرع وهو العذاب دون خُلُود ، ونَهَى – جَلَّ شأنُه – ثانياً أنْ يُشْرَكَ بعبادته ، وتَوَعَّدَ المُشرك بالوعيد المعروف له وهو الخلُود فى النار ، وعلى هذا يكون الوعيدان مُخْتلفَين مُتَغَايرَين ، وتكون الآية فى تقديم الأمر على النَّهى فيها نظير قوله – تعالى – : « فَمَن كَانَ يَرْجُوا لِقَآءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا »[1] وقوله : « وَاعْبُدُوا اللهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً »[2] .

(كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٥٢﴾ أَتَوَاصَوْاْ بِهِۦ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٥٣﴾ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَآ أَنتَ بِمَلُومٍ ﴿٥٤﴾ وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٥﴾ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴿٥٨﴾ فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ ذَنُوبًا مِّثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَٰبِهِمْ فَلَا يَسْتَعْجِلُونِ ﴿٥٩﴾ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن يَوْمِهِمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ﴿٦٠﴾)

المفـردات :

(طَاغُونَ) : مُتَجاوزون الحدّ فى الكفر .

(بِمَلُومٍ) : بفاعل مايلام عليه .

---

(١) سورة الكهف ، من الآية : ١١٠

(٢) النساء ، من الآية : ٣٦

(لِيَعْبُدُونِ) : ليخضعوا لى ويتذللوا ، أو ليعرفونى .

(الْمَتِينُ) : شديد القوّة .

(ذَنُوباً)[1] : نصيباً من العذاب .

(فَوَيْلٌ) : فهلاك ، أو حسرة ، أو شِدّة عذاب .

التفسير

٥٢ - (كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ) :

يقول الله ـ سبحانه وتعالى ـ مُسَلِّياً لنبيِّه ـ عليه الصّلاة والسّلام ـ : مثل هذا الشأن كان شأن الأُمم السّابقة مع رسلهم : فكما قال لك هؤلاء المشركون من أهل مكّة قال مثله المُشركون الأوّلُونَ لرسلهم ، فهذه شِنْشِنَةُ المكذِّبين وتلك سِمَةُ الكافرين .

وفى البحر : (أو) للتفصيل ، أى : قال بعضهم : هو ساحر ، وقال بعض : هو مجنون ، وقال بعض : هو ساحر ومجنون ، فجمع القائلون فى الضمير ، ودلّت (أو) على التفصيل .

واستشكلت الآية بأن قوله ـ تعالى ـ : (إِلَّا قَالُوا) يدلّ على أنّ الّذين من قبلهم كُلَّهُم كَذَّبوا مع أنّهُ ما مِنْ رسول إلّا آمن به قوم ، وأجاب الإمام بأن إسناد القول إلى ضمير الجمع على إرادة الكثير بل الأكثر ، وذكر المكذب فقط ؛ لأنه الأوفق بغرض التّسْلية .

٥٣ - (أَتَوَاصَوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ) :

المعنى : أتَواصَى الأوّلون والآخرون بهذا القول ؟ أى : أوصى بعضهم بعضاً بهذا القول حتّى قالوه جميعاً مُتّفقين عليه ؟

وهؤلاء وأُولئك لم يتواصوا به فى الحقيقة ؛ لأنّهُمْ لم يلتقوا فى زمن واحد بل هم قوم طُغاة مُتَجاوزون للحدّ خارجون عن طاعة الله تشابهت قلوبهم . فقال مُتَأَخِّرُهم كما قال مُتَقَدِّمهم ، جمعهم المقصد الواحد وتلاقوا فى الطّعن على الرّسل ، والحامل لهم على هذا القول هو الطغيان والعناد والتّمرُّد والتّكذيب لرسالات السّماء .

---

(١) أصل الذنوب : الدلو العظيمة الممتلئة ماء ، أو القريبة من الامتلاء ، قال الجوهرى : لا يقال لها ذنوب وهى فارغة ، وتذكر وتؤنث ، وجمعها أذنبة وذنائب فاستعيرت للنصيب مطلقا شراً كان النصيب أو خيرا ، وفى الكشاف : هذا تمثيل ، أصله فى السقاة يقتسمون الماء فيكون لهذا ذنوب ولهذا ذنوب (١ هـ : آلوسى ص ٢٤) .

والضمير فى (بِهِ) للقول السابق ، ومقصود الاستفهام فى (أَتَوَاصَوْابِهِ) التَّعجيب من إجماعهم على هذا القول الكاذب .

٥٤ ـ (فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَآ أَنتَ بِمَلُومٍ) :

أى : فأعرض -يامُحَمّد- عن جدال هؤُلاء المُعانِدِين فقد كَرّرت عليهم الدّعوة ولم تأْل جهدًا فى البيان فلم يستجيبوا ،وعرفت منهم العناد واللَّجاج فلا لوم عليك فى إعراضك بعد ما بَلَّغت الرِّسالة وأديت الأَمانة وبذلت مجهودك فى التبليغ والدّعوة ، وما أنت بملوم على عدم استجابتهم إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا البلاغ ، وإِنَّمَا أنت منذر . وقد فعلت .

٥٥ ـ (وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَىٰ تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ) :

أخرج ابن جرير وابن أبى حاتم والبيهقىّ فى الشُّعَب وجماعة من طريق مجاهد عن علىّ -كرّم الله وجهه- قال : لمّا نزلت (فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَآ أَنتَ بِمَلُومٍ) لم يبق منّا أحد إِلَّا أيقن بالهلكة إذ أُمِر النبىّ -صلَّى الله عليه وسلم- أن يتولّى عنّا ، فنزلت (وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَىٰ تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ) فطابت أنفسنا .

وعن قتادة : أنّهم ظنُّوا أنّ الوحى قد انقطع وأن العذاب قد حضر فأنزل الله (وَذَكِّرْ) الخ ، والمعنى : دُمْ على التَّذكير والموعظة ولاتَدَعْ ذلك :فالأمر بالتذكير للدّوام عليه ، فإنّ الذكرى تفيد وتُجْدى مــع الَّذين قدّر الله هدايتهم وعلم أَنَّهُمْ سيدخلون فى ساحة الإيمان لاختيارهم ذلك ، أو مع المؤمنين بالفعل : فإنها تزيدهم بصيرة بالدّين وقوّة فى اليقين .

٥٦ ـ (وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ) :

استئناف مؤكّد للأمر الّذى قبله مُقَرِّر لمضمونِ تعليله ؛ فإنّ خلقهم للعبادة مما يدعوه -صَلَّى الله عليه وسلَّم- إلى تذكيرهم ، ويُوجب عليهم التَّذكُّر والاتعاظ ، ولعل تقديم الجنّ فى الذكر لتقدّم خلقهم على خلق الإنس فى الوجود ، ولم يذكر الملائكة لاستغنائهم عن التذكير والموعظة ؛ لأَنَّهُمْ عباد مُكرمون ، لايعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يُؤمرون .

والمعنى : وما خلقت الجنّ والإنس لشيء يعود علىّ بالنفع ،وإنّما خلقتهم لتكون غايتهم العبادة (والعبادة غاية التّذلّل) أى :خلقتهم مهيئين صالحين للعبادة حيث رَكّبتُ فيهم عقولًا وجعلت لهم حواس يدركون بها الطاعة والمعصية حتى لايكون للعصاة حجة على الله .

وقال ابن جريج ومجاهد :(إِلَّا لِيَعْبُدُونِ) أى : ليعرفونى ، وهو مجاز مرسل من إطلاق اسم المسبب على السبب ، ولَعَلّ السِّرّ فيه : التّنبيه على أنّ المعتبر هى المعرفة الحاصلة بعبادته تعالى لا ما يحصل بغيرها كمعرفة الفلاسفة ، قيل : وهو حسن ؛لأنه لو لم يخلقهم –عزّ وجلّ– لم يُعْرَف وجوده وتوحيده –سبحانه وتعالى– وهذا إشارة إلى ما صحّحوه عن رسول الله فيما رواه عن ربّه : « كنت كنزًا مَخْفِيًّا فأحببت أن أعرف فخلقت الخلق لأُعْرَفَ » .

قال الآلوسىّ : والّذى ينساق إليه الذّهن : أنّ الحصر الوارد فى الآية حصر إضافىّ ،أى : خلقهم للعبادة دون ضِدّها أو دون طلب الرّزق والإطعام ؛أخذا من تعقيب ذلك بقوله تعالى : (مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ) .

٥٧ – (مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ) :

هذه الآية الكريمة لبيان أنّ شأنه –تعالى– مع عباده ليس كشأن السّادة مع عبيدهم؛ لأنهم إنّما يملكونهم ليستعينوا بهم فى تحصيل معاشهم وأرزاقهم أو للقيام على خدمتهم ورعايتهم ففيها نفى أن يكون ملكه إيّاهم لذلك ،فكأنّه –سبحانه وتعالى– قال : ما أُريد أن أستعين بهم كما يستعين مُلّاك العبيد بعبيدهم ، وما أُريد منهم تحصيل رزق ؛فأنا الرزاق الغنى عن العالمين وما أُريد أن يطعمونى ؛فأنا أُطْعِم ولا أُطْعَم ،غنى عنهم وعن مُرَافقتهم ،فَلْيشتغلوا بما ينفعهم ويُسعدهم وما خُلِقوا لأجله مِنْ عبادتى وطاعتى والخضوع لى .

وفى الآية الكريمة لطائف :

الأُولى : أنّه –سبحانه وتعالى– كرر نفى الإرادتين ؛ لأنّ السيد قد يطلب من العبد التّكسّب له وهو طلب الرّزق وقد لا يطلب ؛لأنّه غنىّ ،ولكن يطلب قضاء حوائجه من حفظ المال وإحضار الطّعام ، فنفى الإرادة الأُولى لا يستلزم نفى الإرادة الثّانية ؛ فكرر النّفى على معنى لا أُريد هذا ولا أُريد ذلك .

الثانية : أنَّ ترتيب النَّفيين كما تضمّنه النظم الجليل من باب التَّرق فى بيان غناه -عزَّ وجلَّ -فكأنَّهُ قال- سبحانه - : لَا أُريد منهم رزقاً ولا ما هو دون ذلك من تقديم الطَّعَام .

الثالثة : أنَّهُ-سبحانه وتعالى-قال : (مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ) دون ما أُريد منهم أن يرزقون ؛ لأن المقصود عين الرزق لا الفعل .

وقال-سبحانه- : (وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ) دون : وما أُريد من طعام ؛لأن المقصود نفى الفعل نفسه - وهو تقديم الطعام - والمراد أن الله-تعالى-غنى عن أن يقدم عباده له رزقاً أو يقوموا على خدمته .

٥٨ - (إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ) :

أى : إن الله هو الرَّزَّاق الَّذِى يرزق جميع خلقه - لاغيره سبحانه - وهو ذو القدرة شديد القُّوة لا يعجز عن شىء ، والجملة تعليل لنفى الإرادة فيما تقدّم فى قوله-تعالى-: (مَآ أُرِيدُ مِنهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ) قال الإمام : كونه-تعالى-هو الرَّزَّاق ناظر إلى عدم طلب الرزق ؛لأنَّ من يطلبه يكون فقيراً محتاجاً وكونه (ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ) ناظر إلى عدم طلب العمل المراد من قوله-سبحانه- : (وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ) ؛لأن من يطلبه يكون عاجزاً لا قوة له ، فكأنَّه قيل : لا أُريد منهم من رزق ؛لأنِّى أنا الرَّزَّاق ،وما أُريد منهم من عمل كالإطعام ؛ لأنِّى قوى متين .

وكان الظَّاهر أن يأتى السياق الكريم (إِنِّى أَنَا الرَّزَّاقُ) كما جاء فى قراءة له-صلى الله عليه وسلم- لكن التفت إلى التصريح بالاسم الجليل لبعث الهيبة فى النفوس وأنه هو الرازق وحده دون سواه .

٥٩ - (فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذَنُوباً مِّثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَٰبِهِمْ فَلَا يَسْتَعْجِلُونِ) :

أى :إذا ثبت أنَّ الله-تعالى-ما خلق الجنَّ والإنس إلا ليعبدوه وأنَّه سبحانه مايُريد منهم من رزق إلى آخر ما تقدَّم ، فإنَّ للَّذين ظلموا أنفسهم باشتغالهم بغير ما خُلِقوا له من العبادة

وإشراكهم بالله - عزّ وجلّ - وتكذيبهم رسوله - صلى الله عليه وسلم - وهم أهل مكّة وأحزابهم من الكُفَّار قد أعدّ الله لهؤلاء نصيباً من العذاب مثل نصيب نظرائهم من الأُمم السَّابقة ، وعن قتادة : سجْلا[1] من العذاب مثل سَجْل أصحابهم ، فلا يطلبوا مِنِّى أن أعجل فى الإتيان بالعذاب قبل أوانه ، فهو لاحق بهم لامحالة .

٦٠ ـ (فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِن يَوْمِهِمُ الَّذِى يُوعَدُونَ) :

أى :فهلاك وعذاب شديد لِّلَّذين كفروا من يومهم الَّذى يُوعدونه لما ينالهم فيه من الشَّدائد والأَهوال وما يلاقونه فيه من عذاب وعقاب ، وفى الآية بعض اللطائف :

١ ـ وضع الموصول موضع الضميرفجاء النَّظم (فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا) بدل فَوَيْلٌ لهم ؛ تسجيلا عليهم بما فى حَيِّز الصِّلة من الكفر ، وإشعارا بعلِّة الحكم .

٢ ـ الفاءُ فى قوله : (فَوَيْلٌ) لترتيب ثبوت الويل لهم على أنّ لهم عذاباً عظيماً .

٣ ـ المراد بذلك اليوم ، قيل : يوم بدر ، ورُجِّح بأنَّه الأَوفق لما قبله مِنْ حيث إنَّه ذنوب من العذاب الدُّنيوىّ ، وقيل : يوم القيامة ، ورُجِّح بأَنَّه الأَنسب لما فى صدر السورة الكريمة الآتية : والله أعلم .

---

(١) السجل : الدلو المليئة (المختار) .

تفسير سورة الطور

هذه السورة مكيّة كما رُوِى عن ابن عبّاس وابن الزبير -رضى الله عنهم- ولم نقف على استثناء شيء منها ، وهى تسع وأربعون آية .

ومناسبة أوّلها لآخر ما قبلها اشتمال كُلّ منهما على الوعيد .

وقال الجلال السّيوطىّ : وجه وضعها بعد الذّاريات تشابههما فى المطلع والمقطع ، فإنّ فى مطلع كلٍّ منهما صفة حال المتّقين ،وفى مقطع كلٍّ منهما صفة حال الكفّار ،ولا يخفى ما بين السّورتين الكريمتين من الاشتراك فى غير ذلك :كالدّعوة إلى وحدانيّة الله وترك الشّرك ، وهو المقصد الأوّل من مقاصد القرآن ، بل من مقاصد جميع الأديان .

مقاصد السورة :

يقسم الله -تعالى- فِى أوّل سورة الطُّور بخمسة أشياء لها شأن عظيم على وقوع العذاب يوم القيامة بالمُكذّبين ، ثم تمضى آيات السُّورة مُبَيِّنة بعض ألوانه وضروبه ،وبعض التّغييرات الكونيّة والآيات الإلهيّة الّتى تقع فى ذلك اليوم (يَوْمَ تَمُورُ السَّمَآءُ مَوْرًا وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْراً) ثم تنتقل إلى ذِكْرِ ما أعدّه الله للمتّقين من جنّات ونعيم وما يتلذّذون به ويلقونه من صنوف التّكريم ، حيث يُلْحِق اللهُ بهم ذريّتهم المؤمنة ويرفعهم إلى درجتهم لتقرّ بذلك عيونهم ويتمّ سرورهم .

ثم تدعو الآيات رسول الله -صلى الله عليه وسلم- إلى المُدَاومة على التّذكير ؛فهذه رسالته ،وهو -بفضل ما أنعم الله به عليه من النُّبوة ورجاحةِ العقل- ليس بكاهن ولا مجنون ولا شاعر ، كما تدعوه إلى عدم الالتفات إلى ما يتقوّله عليه المتقوّلون ،وعدم المبالاة بما يصفون به القرآن الّذى عجزوا عن الإتيان بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً . ثم تأْخذ الآيات فى توبيخ الكافرين والمُشْركين وتقبيح آرائهم الضّالّة ،وتَسْفِيه مُعتقداتهم الفاسدة ، مُظْهِرة ضلالهم

مُعْلنة سوءَ تقديرهم ، آمرة الرّسولَ بأَنْ يَدَعَهم غير مُكترث بهم حتى يلاقوا يومهم الَّذى فيه يُصعقون ، يوم لايُغنى عنهم مكرهم شيئاً من العذاب ولاهم يُنصرون ، فإنَّ للَّذين كفروا عذاباً فى الآخرة غير العذاب الَّذى يُصيبهم فى الدّنيا ، ولكنّ أكثرهم لايعلمون .

وتُختم السّورة بأَمر الرّسول بالصّبر لحكم ربّه ؛ فهو فى عنايته وكلاءته ، وبالتّسبيح بحمده (وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ * وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَارَ النُّجُومِ) .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

(وَالطُّورِ ﴿١﴾ وَكِتَابٍ مَّسْطُورٍ ﴿٢﴾ فِي رَقٍّ مَّنشُورٍ ﴿٣﴾ وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ ﴿٤﴾ وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ ﴿٥﴾ وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ ﴿٦﴾ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ ﴿٧﴾ مَّا لَهُ مِن دَافِعٍ ﴿٨﴾ يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا ﴿٩﴾ وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْرًا ﴿١٠﴾ فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١١﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي خَوْضٍ يَلْعَبُونَ ﴿١٢﴾ يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ﴿١٣﴾ هَٰذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٤﴾ أَفَسِحْرٌ هَٰذَا أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ﴿١٥﴾ اصْلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾)

المفردات :

(الطُّورِ) : جبل بسيناء .

(كِتَابٍ مَّسْطُورٍ) : مكتوب على وجه الانتظام .

(رَقٍّ): ما يُكْتب فيه جلداً أو غيرهُ .

(مَنشُورٍ) : مبسوط ظاهر .

(الْبَيْتِ الْمَعْمُورِ): هو بيت فى السّماء السّابعة اسمه الضُّراح ، وقيل : الكعبة .

(وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ) : السّماء .

(وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ): المُوقَد أو المملوء ناراً يوم القيامة .

(لَوَاقِعٌ) : لنازل وكائن على شِدّة .

(تَمُورُ) : تضطرب ، وبه قال ابن عبّاس ، أو تدور كالرّحى ، وبه قال مجاهد .

(فِى خَوْضٍ[1]): فى اندفاع عجيب فى الأباطيل والأكاذيب .

(يُدَعُّونَ): يُدْفَعُون بعُنف وشِدّة .

(اَصْلَوْهَا): ادخلوها وقاسوا حرّها وشدائدها .

التفسير

يُقسم الله -تعالى- بمخلوقاته الدّالة على قدرته العظيمة إنّ عذابه لواقع بأعدائه لا محالة وإنّهُ لا دافع له عنهم .

١ - (وَالطُّورِ) :

أى :ومن جملة ما يقسم الله به الطور ،وهو الجبل الّذى يكون فيه أشجار ،مثل الجبل الّذى كلّم الله موسى عنده ،فإن لم يكن فيه شجرلا يُسمَّى طورًا وإنّمايقال له جبل ،والمراد به هنا جبل سيناء ويُسَمَّى طور سيناء .

---

(١) أصل الخوض : المشى فى الماء ، ثم تجوز فيه عن الشروع فى كل شىء ، وغلب فى الخوض فى الباطل ، قال -تعالى- : (وخضتم كالذى خاضوا) سورة التوبة من الآية ٦٩ .

٢ - (وَكِتَابٍ مَّسْطُورٍ) :

ويقسم الله بكتاب مسطور ، أى : مكتوب على وجه الانتظام ؛ فإنَّ السَّطر ترتيب الحروف المكتوبة ، والمراد به على ما قاله الفرَّاء : الكتاب الَّذى تكتب فيه الأعمال ويُعطاه العبد يوم القيامة بيمينه أو شماله ، وهو المذكور فى قوله - تعالى - : « وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَاباً يَلْقَاهُ مَنشُورًا »[1] وقيل : هو اللَّوح المحفوظ ، وقيل : هو القرآن وغيره من الكتب السَّماوية المنزَّلة المكتوبة فى صحف مُيَسَّرة للقراءة يقرؤها الناس جهارًا ولهذا قال : (فِى رَقٍّ مَّنشُورٍ) .

٣ - (فِى رَقٍّ مَّنشُورٍ) :

ويقسم - سبحانه - وتعالى بالرَّق المنشور ، والرَّق : ما يكتب فيه جلدا أو غيره ، ونشره : بسطه وظهوره للناس يرجعون إليه ويهتدون بهديه ويقرأونه بسهولة ويسر .

وقيل : وصفه بالنَّشر والظُّهور للإشارة إلى صحَّة الكتاب وسلامته من الخطأ حيث جُعِلَ مُعَرَّضاً لنظر كل ناظر مع الأَمن عليه من الاعتراض لسلامته .

٤ - (وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ) :

ويقسم الله - تعالى - بالبيت المعمور ، قال ابن كثير : ثبت فى الصَّحيحين أنَّ رسول الله - صلَّى اللهُ عَلَيْهِ وسلَّم - قال فى حديث الإسراء بعد مجاوزته للسَّماء السَّابعة : « ثُمَّ رُفِعَ بِى إِلَى البَيْتِ المعمور وإذا هو يدخله كلَّ يوم سبعون ألفا لا يعودون إليه » : فهو فى السَّماء يتعبَّد فيه الملائكة ويطوفون به كما يطوف أهل الأَرض بكعبتهم ، وقال الحسن : هو الكعبة وعمرانها بالمُجاورين عندها والحجّاج إليها .

٥ - (وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ) :

ويُقسم الله - تعالى - بالسقف المرفوع وهو السَّماء كما رواه جماعة وصحَّحه الحاكم عن على - كرم الله وجهه - وبه قال سفيان وتلا قوله تعالى : « وَجَعَلْنَا السَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظاً وَهُمْ عَنْ ءَايَتِهَا مُعْرِضُونَ »[2] .

---

(١) سورة الإسراء ، من الآية : ١٣ . (٢) الأنبياء ، الآية : ٣٢ .

وعن ابن عبّاس : هو العرش ، وهو سقف الجنَّة ، أو سقف لجميع المخلوقات .

٦ - (وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ) :

ويُقسم الله بالبحر المسجور ، والجمهور على أنَّ المراد به بحر الدّنيا ،وبأن المسجور بمعنى الموقد نارا قال - تعالى - : « وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ »[1] أى : أضرمت فتصير نارًا تتأجج محيطة بأهل الموقف :رواه سعيد بن المسيّب عن علىّ- كرّم الله وجهه - وقيل المسجور : المملوء .

والواو الأُولى فى قوله -تعالى- : (وَالطُّورِ) للقسم ،وما بعدها للعطف كما قال أبو حيان ، والجملة المقسم عليها قوله - تعالى - : (إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ) .

٧ - (إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ) :

هذا هو المقسم عليه بما سبق ،أى : إنَّ عذاب ربِّكَ الَّذِى تَوَعَّد به الكافرين لكائن لامحالة على شدة ؛كأنَّهُ مهيّأٌ ومعدّ فى مكان مرتفع فيقع وينزل على من يحلّ به من مستحقِّيه من الكُفَّار والمكذِّبين ، وفى إضافة العذاب إلى لفظ الرّب مع إضافة الرّب إلى ضميره -عليه الصَّلاة والسَّلام - أمان له - صلَّى الله عليه وسلم - وإشارة إلى أنَّ العذاب واقع بمن كذَّبه .

٨ - (مَّالَهُ مِن دَافِعٍ) :

عن جعفر بن زيد العبدىّ قال : خرج عمر يَعُسُّ[2] فى المدينة ذات ليلة فمرّ برجل من المسلمين فوافقه قائماً يُصلِّى ، فوقف يستمع قراءته ، فقرأ (وَالطُّورِ) حتَّى بلغ (إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ ۞ مَّالَهُ مِن دَافِعٍ) قال : قسم-وربّ الكعبة-حقّ ، فنزل عن حماره ، واستند إلى حائط فمكث مليّا ، ثم رجع إلى منزله فمكث شهرًا يعوده الناس لايدرون ما مرضه - رضى الله عنه - .

وأخرج أحمد وسعيد بن منصور وابن سعد عن جبير بن مطعم قال :

قدمت المدينة على رسول الله لأُكلِّمه فى أُسارى بدر ، فدُفِعْت إليه وهو يُصلِّى بأصحابه صلاة المغرب ،فسمعته يقرأ : (وَالطُّورِ)إلى قوله -تعالى- : (إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ ۞ مَّالَهُ

---

(١) سورة التكوير ، الآية : ٦ . (٢) أى : يطوف بالليل ، وهو من باب رد : مختار الصحاح .

٢ ـ (وَكِتَابٍ مَّسْطُورٍ) :

ويقسم الله بكتاب مسطور ،أى :مكتوب على وجه الانتظام ؛ فإنّ السّطر ترتيب الحروف المكتوبة ، والمراد به على ما قاله الفرّاء : الكتاب الّذى تكتب فيه الأعمال ويُعطاه العبد يوم القيامة بيمينه أو شماله ،وهو المذكور فى قوله ـ تعالى ـ : « وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَاباً يَلْقَاهُ مَنشُوراً »[1] وقيل : هو اللّوح المحفوظ ،وقيل :هو القرآن وغيره من الكتب السّماوية المنزّلة المكتوبة فى صحف مُيَسَّرة للقراءة يقرؤها الناس جهارًا ولهذا قال : (فِى رَقٍّ مَّنشُورٍ) .

٣ ـ (فِى رَقٍّ مَّنشُورٍ) :

ويقسم ـ سبحانه ـ وتعالى بالرّق المنشور ، والرّق : ما يكتب فيه جلدا أو غيره ، ونشره : بسطه وظهوره للناس يرجعون إليه ويهتدون بهديه ويقرأونه بسهولة ويسر .

وقيل : وصفه بالنّشر والظّهور للإشارة إلى صحّة الكتاب وسلامته من الخطأ حيث جُعِلَ مُعَرَّضاً لنظر كل ناظر مع الأمن عليه من الاعتراض لسلامته .

٤ ـ (وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ) :

ويقسم الله ـ تعالى ـ بالبيت المعمور ، قال ابن كثير : ثبت فى الصّحيحين أنّ رسول الله ـ صلَّى اللهُ عَلَيْهِ وسلَّم ـ قال فى حديث الإسراء بعد مجاوزته للسّماء السّابعة : « ثُمَّ رُفِعَ بِى إِلَى الْبَيْتِ المعمور وإذا هو يدخله كلّ يوم سبعون ألفا لا يعودون إليه » : فهو فى السّماء يتعبّد فيه الملائكة ويطوفون به كما يطوف أهل الأرض بكعبتهم ، وقال الحسن : هو الكعبة وعمرانها بالمُجاورين عندها والحجّاج إليها .

٥ ـ (وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ) :

ويُقسم الله ـ تعالى ـ بالسقف المرفوع وهو السّماء كما رواه جماعة وصحّحه الحاكم عن على ـ كرم الله وجهه ـ وبه قال سفيان وتلا قوله تعالى : « وَجَعَلْنَا السَّمَآءَ سَقْفاً مَّحْفُوظاً وَهُمْ عَنْ ءَايَٰتِهَا مُعْرِضُونَ »[2] .

---

(١) سورة الإسراء ، من الآية : ١٣ . (٢) الأنبياء ، الآية : ٣٢ .

وعن ابن عبّاس : هو العرش ، وهو سقف الجنّة ، أو سقف لجميع المخلوقات .

٦ - (وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ) :

ويُقسم الله بالبحر المسجور ، والجمهور على أنّ المراد به بحر الدّنيا ،وبأن المسجور بمعنى الموقد نارا قال - تعالى - : « وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ »[1] أى : أضرمت فتصير نارًا تتأجج محيطة بأهل الموقف :رواه سعيد بن المسيّب عن علىّ - كرّم الله وجهه - وقيل المسجور : المملوء .

والواو الأُولى فى قوله - تعالى - : (وَالطُّورِ) للقسم ،وما بعدها للعطف كما قال أبو حيان ، والجملة المقسم عليها قوله - تعالى - : (إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ) .

٧ - (إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ) :

هذا هو المقسم عليه بما سبق ،أى : إنّ عذاب ربِّكَ الّذِى تَوَعّد به الكافرين لكائن لامحالة على شدة ،كأنّهُ مهيّأ ومعدّ فى مكان مرتفع فيقع وينزل على من يحلّ به من مستحقّيه من الكُفّار والمكذّبين ، وفى إضافة العذاب إلى لفظ الرّب مع إضافة الرّب إلى ضميره - عليه الصّلاة والسّلام - أمان له - صلّى الله عليه وسلم - وإشارة إلى أنّ العذاب واقع بمن كذّبه .

٨ - (مَا لَهُ مِن دَافِعٍ) :

عن جعفر بن زيد العبدىّ قال : خرج عمر يَعُسّ[2] فى المدينة ذات ليلة فمرّ برجل من المسلمين فوافقه قائماً يُصلّى ، فوقف يستمع قراءته ، فقرأ (وَالطُّورِ) حتّى بلغ (إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ • مَّا لَهُ مِن دَافِعٍ) قال : قسم - وربّ الكعبة - حقّ ، فنزل عن حماره ، واستند إلى حائط فمكث مليّا ، ثم رجع إلى منزله فمكث شهرًا يعوده الناس لايدرون ما مرضه - رضى الله عنه - .

وأخرج أحمد وسعيد بن منصور وابن سعد عن جبير بن مطعم قال :

قدمت المدينة على رسول الله لأُكلّمه فى أُسارى بدر ، فدُفِعْت إليه وهو يُصلّى بأَصحابه صلاة المغرب ،فسمعته يقرأ : (وَالطُّورِ) إلى قوله - تعالى - : (إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ • مَّا لَهُ

---

(١) سورة التكوير ، الآية : ٦ . (٢) أى : يطوف بالليل ، وهو من باب رد : مختار الصحاح .

مِن دَافِعٍ) فكأنَّمَا صدع قلبى ، وفى رواية فأسلمت خوفاً من نزول العذاب ، وماكنت أظنّ أن أقوم من مقامى حتّى يقع بى العذاب . والمعنى : ليس له دافع يدفعه عنهم إذا أراد الله بهم ذلك .

٩ ، ١٠ – (يَوْمَ تَمُورُ السَّمَآءُ مَوْرًا * وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْرًا) :

يحكى القرآن بعض التّغيرات الكونيّة والآيات الإلهيّة الّتى تحدث فى يوم القيامة فيقول : (يَوْمَ تَمُورُ السَّمَآءُ مَوْرًا) ويوم : ظرف للعذاب الواقع الّذى ليس له دافع أى : يقع ذلك العذاب ويحدث يوم تضطرب السّماء اضطراباً شديدًا ، وتدور كالرّحى وتموج بعضها فى بعض . ولمّا ذكر من مشاهد يوم القيامة ما يحدث للسّماء ذكر مايحدث للأرض فقال : (وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْرًا) أى : وتنتقل الجبال مِنْ مَقَارِّها وتتحرك تحركاً ظاهرًا ، وتذهب فتصير هباءً منبثاً وتُنْسَفُ نسفاً ، والإتيان بالمصدرين فى (مَوْرًا وَسَيْرًا) للإيذان بغرابتهما وخروجهما عن الحدود المعهودة والأعراف المألوفة ؛ لأن ذلك من أحوال يوم القيامة ، أى : تمور السّماء موراً عجيباً ، وتسير الجبال سيرًا غريباً لايدرك كنههما .

١١ ، ١٢ – (فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ * الَّذِينَ هُمْ فِى خَوْضٍ يَلْعَبُونَ) :

(فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ) أى : إذا وقع ذلك ، أو كان الأمر كما ذكر فويل فى ذلك اليوم للمُكَذِّبين بالحقّ من عذاب الله ونكاله بهم وعقابه لهم .

(الَّذِينَ هُمْ فِى خَوْضٍ يَلْعَبُونَ) أى : الذين هم فى أباطيلهم وأكاذيبهم يلهون ويعبثون ، وغلب الخوض فى الاندفاع فى الباطل والكذب .

١٣ ، ١٤ – (يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا * هَٰذِهِ النَّارُ الَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ) :

(يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا) أى : يوم يُدْفعون إلى جهنّم دفعاً عنيفاً بأن تُغلّ أيديهم إلى أعناقهم وتُجمع نَوَاصِيهم إلى أقْدَامِهم فيُدفَعُون إلى النّار دفعاً على وجوههم .

(هَٰذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ) أى :وتقول لهم الزَّبانية-تقريعاً وتوبيخاً- :هذه النار التى كنتم بها تكذِّبون فى الدُّنيَا ، ومثلها فى التكذيب بها تكذيبهم بالوحى النَّاطق بها .

١٥ - (أَفَسِحْرٌ هَٰذَآ أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ) :

استفهام قصد به التقريع والتهكم بهم ، كأنه قيل : كنتم تقولون للوحى الَّذِى أنذركم: هذا سحر ، أفهذا الَّذِى تشاهدونه من العذاب فى النَّار سحر أيضاً ؟ أم أنتم عمى عن المخبر به كما كنتم فى الدنيا عمياً عن الخبر ؟ .

١٦ - (اَصْلَوْهَا فَاصْبِرُوٓاْ أَوْ لَا تَصْبِرُواْ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ) :

أى :ادخلوا النار وقاسوا شدائدها وذوقوا حرّها ، فافعلوا ما شئتم من الصّبر وعدمه وسواء أصبرتم على عذابها ونكالها أم لم تصبروا لا محيد لكم عنها ولا خلاص لكم منها والأمران (الصّبر وعدمه) سواء عليكم فى عدم النَّفع ، إذ كلّ لايدفع العذاب ولا يُخفّفه وإنّما تُلاقون اليوم فى الآخرة جزاء ما كنتُم تعملون فى الدُّنيا .

وقوله-تعالى- : (إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ) تعليل للاستواء ، فإن الجزاء لمّا كان مُحتّم الوقوع لسبق الوعيد به وقضائه - سبحانه وتعالى - إيّاه بمقتضى عدله « وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا »[1] كان الصّبر وعدمه مُستويين فى عدم النفع .

ووجّه الزَّمخشريّ كَوْنَ قوله-تعالى- : (إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ) تعليلا للاستواء فقال : لأنَّ الصّبر يكون له مزية على الجزع لنفعه فى العاقبة بأن يُجَازَى عليه الصّابر جزاء الخير ، فأمّا الصّبر على العذاب - الَّذِى هو الجزاء - ولا عاقبة له ولا منفعة فيه ؛ فلا مزيَّة له على الجزع .

---

(١) سورة الكهف ، من الآية : ٤٩ .

(إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَعِيمٍ ﴿١٧﴾ فَٰكِهِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ وَوَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٨﴾ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ ۖ وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ ﴿٢٠﴾)

المفردات :

(فَاكِهِينَ) : متلذذين ناعمين .

(مَصْفُوفَة) : موصول بعضها ببعض باستواء حتى يصير صفا .

(وَزَوَّجْنَاهُمْ) : وقرنّاهم .

(بِحُورٍ) : حُورٍ : جمع حوراء ، من الحَوَر : وهو شدة بياض العين فى شدة سوادها ، وامرأة حوراء بيِّنة الحَوَر .

(عِينٍ) : جمع عيناء ، وهى المرأة واسعة العين ، أى : وقرنّاهم بنساء واسعات العيون حسانها .

التفسير

١٧ – (إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِى جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ) :

شُروع فى ذكر حال المؤمنين وما أُعدّ لهم من نعيم مقيم بعد ذكر حال الكفّار وما أُعدّ لهم من عذاب أليم كما هو نَسَق القرآن وطريقته فى التّرغيب والتّرهيب .

والمعنى : إنَّ المتقين المطيعين لله العاملين بشرعه الّذين جعلوا لهم بعقيدتهم وسلوكهم وقاية من النّار ، فى جنّات فسيحات لا يحاط وصفها ونعيم عظيم لايقادر قدره ، والتنوين فى الموضعين (فِى جَنَّاتٍ ، وَنَعِيمٍ) للتعظيم ، ويجوز أن يكون للتنويع ، أى : نوع من الجنات ونوع من النعيم مخصوصين بهم ، ويجوز أن تكون الآية من جملة القول للكفّار إذ ذاك زيادة فى غمّهم وحزنهم وتكديرهم .

١٨ - (فَاكِهِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ وَوَقَاهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ) :

أى : مُتَنَعِّمين مُتَلَذِّذين بما أعطاهم ربهم من أنواع الإحسان والنّعم وبما منحهم من أصناف الملاذِّ من مآكل ومشارب وملابس ومساكن ومراكب وغير ذلك ، وقد نجّاهم الله من عذاب النّار وتلك نعمة مستقلّة بذاتها مع ما أُضيف إليها من نعمة دخول الجنة الّتى فيها من النّعيم مالا عين رأت ولا أُذن سمعت ولا خطر على قلب بشر .

وإظهار لفظ الرّبّ فى موضع الإضمار مضافاً إلى ضميرهم فى قوله-تعالى- : (رَبُّهُمْ) للتّشريف والتعليل .

١٩ - (كُلُواْ وَاشْرَبُواْ هَنِيٓئًا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ) :

أى : ويقال لهم : كلوا واشربوا أكلا وشرباً هنيئاً ، أو طعاماً وشراباً هنيئاً لاتنغيص فيه ، ولا يلحقكم فيه مشقّة ولا يُعقِب وَخَامة ، جزاء ما كنتم تعملون فى الدُّنيا من عمل صالح .

٢٠ - (مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ وَزَوَّجْنَاهُم بِحُورٍ عِينٍ) :

أى : متكئين على سرر مجعولة على صف وخط مستقيم مع تقابل وجوه بعضها إلى بعض لتعدّد الصفوف كما قال-تعالى- : « عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ[1] » وجعلنا لهم قرينات صالحات وزوجات حساناً من الحور العين . قال الرّاغب : لم يجىء فى القرآن : زوجناهم حوراً ، كما يقال زوجته امرأة . تنبيها على أنّ ذلك لايكون على حسب المتعارف فيما بيننا من المناكحة ، وقال الفّراء : تزوجت بامرأة : لغة (أزد شنوءة) .

(وَالَّذِينَ ءَامَنُواْ وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَـٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَآ أَلَتْنَـٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَىْءٍ كُلُّ امْرِيٍٕ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴿٢١﴾ وَأَمْدَدْنَـٰهُم بِفَـٰكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٢٢﴾ يَتَنَـٰزَعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَّا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ ﴿٢٣﴾)

(١) سورة الصافات ، الآية : ٤٤ .

المفردات :

(وَمَآ أَلَتْنَاهُمْ) : وما نقصنا الآباء بسبب إلحاق الأبناء بهم .

والفعل (ألَت) من باب : ضَرَبَ ، وعَلِمَ ، وبهما قرئ .

(رَهِينٌ) : مرهون عند الله بعمله .

(يَتَنَازَعُونَ) : يتجاذبون ويتعاورُون ، وقيل : التّنازع مجاز عن التّعاطى .

(كَأْساً) : [1] إناءٌ به خمر ، والكأْس مؤنث سماعى كالخمر .

(لَّا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ) :لا كلام ساقط أثناء شربها ، ولا فعل يستوجب الإثم ، وقال مجاهد : لا يَسْتَبُّون ولا يُؤَثِّمُون .

التفسير

٢١- (وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَآ أَلَتْنَاهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَىْءٍ كُلُّ امْرِىءٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ) :

كلام مستأْنف مسوق لبيان حال طائفة من أهل الجنّة .

والمعنى : والّذين آمنوا واستحقُّوا درجات عالية ، واتّبعتهم ذرّيتهم بإيمان ولم يبلغوا درجات الآباء ، ألحقنا بهم ذرِّيَّتهم فى الدّرجة ، وإن كانوا لا يستأهلونها تفضّلا عليهم وعلى آبائهم ، ليتم سرورهم ويكمل نعيمهم ، وما نقصنا الآباء بهذا الإلحاق من ثواب عملهم شيئاً بأَن أعطينا الأبناء بعض مَثُوباتهم ، وإنما رفعنا منزلة الأَبناء إلى منزلة الآباء بمحض التفضل والإحسان ، ولما أخبر-سبحانه-عن مقام الفضل وهو رفع درجة الذّرية ، إلى منزلة الآباء من غير عمل منهم يقتضى ذلك أخبر عن مقام العدل ،وهو أنَّهُ لا يؤاخذ أحد بذنب أحد ، فلا يحمل الآباءُ شيئاً من أخطاء ذرّيتِهم ؛لأَنَّ كلَّ إنسان مرهون بعمله لايؤخذ به غيره ، فقال : (كُلُّ امْرِىءٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ) .

---

(١) قال الراغب : الكأس : الإناء بما فيه من الشراب ويسمى كل واحد بانفراده كأسا ، ولكن المشهور أنها لا تسمى كأسا إلا إذا امتلأت خمراً أو كانت قريبة من الامتلاء (آلوسى) .

والآية الكريمة تشير إلى أنَّ الكسب بمنزلة الدَّيْن ،ونفس العبد بمنزلة الرَّهن ، ولايفكّ الرّهن مالم يؤدّ الدَّيْن . فإن كان العمل صالحاً فقد أدّى ؛لأنَّ العمل الصَّالح يقبله ربُّه - سبحانه وتعالى - ويصعد إليه - عزّ وجلّ - وإن كان غير ذلك فلا أداء ولا خلاص إذ لا يصعد إليه - سبحانه - غير الطيِّب ، أخرج سعيد بن منصور وابن جرير والحاكم والبيهقى فى سننه عن ابن عبّاس قال : « إنَّ الله ليرفع ذريَّة المؤمن معه فى درجته فى الجنة وإن كانوا دونه فى العمل لتقرّ بهم عينه ، ثم قرأ الآية » وفى رواية الطبرانى وابن مردويه عنه أنه قال : إن النبى - صلَّى الله عليه وسلَّم - قال : « إذا دخل الرَّجل الجنَّة سأل عن أبويه وزوجته وولده فَيُقَال له : إنَّهمّ لم يبلغوا درجتكَ وعملك ، فيقول : يارَبِّ قد عملت لى ولهم فيؤْمَر بإلحاقهم به ، وقرأ ابن عباس الآية » .

والآية على ما ذهب إليه كثير من المُفَسِّرين فى الكبار من الذُّرِّيَّة ، وقال منذر بن سعيد : هى فى الصِّغار .

ورُوى عن الحبر والضَّحَّاك أنهما قالا : إنَّ الله يلحق الأبناء الصِّغار وإن لم يبلغوا زمن الإيمان بـآبائهم المؤمنين ، وجعل (بإيمانٍ) على هذا الرَّأى متعلقاً بـألحقنا ،أى :ألحقنا بالآباء المؤمنين الصالحين ذُرِّيَّتَهم الصِّغار الَّذين لم يبلغوا التكليف - أوكانوا كبارًا مكلفين مؤمنين ولكنهم لم يبلغوا درجة آبائهم فى العمل الصالح ، والبعد عن المعاصى - ألحقناهم بـآبائهم فى درجتهم فى الجنة إكراماً لهم ، ولنكمل بهم مسرتّهم :

٢٢ - (وَأَمْدَدْنَاهُم بِفَاكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ) :

أى :وزدناهم على ماكان لهم من مظاهر النِّعم فى وقت بعد وقت بفواكه كثيرة ولحوم من أنواع شتَّى مما يُستطاب ويُشْتَهى وإن لم يُصَرِّحوا بطلبه .

٢٣ - (يَتَنَازَعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَّا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ) :

أى : يَتَجَاذَبُون فى الجنَّة - تَجَاذُبَ مُلَاطفة ويَتَعَاطَوْنَ تَعَاطِىَ تَوَادّ - كأساً مليئة بالشَّراب لا يكون منهم بِشُرْبِها كلام باطل من لغو الحديث وسقط الكلام ولاعمل فاحش يستوجب

الإثم فاعلُه كما هو دَيْدَنُ النَّدامى فى الدُّنيا ، وإنما ينطقون بالحكَم وأحَاسِن الكلام ويفعلون ما يفعل الكرام . والله أعلم .

(* وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ ﴿٢٤﴾ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴿٢٥﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِىٓ أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ﴿٢٦﴾ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْبَرُّ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٨﴾)

المفردات :

(يَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ) : يخدمهم غلمان مترددون عليهم .

(مَّكْنُونٌ) : مصون ومحفوظ فى صدفه .

(مُشْفِقِينَ) : أرقاء القلوب من خشية الله .

(فَمَنَّ اللهُ عَلَيْنَا) : فتفضل علينا كرماً منه .

(السَّمُومِ) : النار الشديدة الحرارة ، وسميت سموما ؛ لأنها تخترق مسام الجلد .

التفسير

٢٤ - (وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ) :

بعد أن ذكر الله النعيم الذى تفضل به على أهل الجنة أتبعه نعماً أخرى ،وأولها يتضمنه قوله-تعالى- : (وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ) أى : ويقوم على خدمتهم من آن لآخر ولدان لهم لم يصلوا إلى درجة البلوغ ، وفى ذلك مزيد إيناس لمن يخدمهم

وفى قوله- تعالى- : (غِلْمَانٌ لَّهُمْ) ما يشير ويوحى بأن هؤلاء الولدان قد خصهم الله بأولئك المخدومين فى الآخرة لاينفكون عن خدمتهم ولا ينقطعون عن تبعيتهم لهم وأنهم مع تلك الخصال الطيبة على الصورة الحسنة والمنظر البهيج كأنهم اللؤلؤ المصون فى صدفه صفاء وبياضاً ونقاء ونفاسة ، هذا هو شأن الخادم ، فما بالك بالمخدوم .

أخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر عن قتادة قال : بلغنى أنه قيل : يا رسول الله هذا الخادم مثل اللؤلؤ فكيف بالمخدوم ؟ فقال - عليه الصلاة والسلام - : « والذى نفسى بيده إن فضل ما بينهم كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب » .

٢٥ - (وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ) :

أى : وأقبل كل واحد منهم على أخيه بوجهه ، وقد امتلأ بشرًا وحبورًا ، يسأل كل واحد منهم أخاه ورفيقه فى الجنة كما يسأله أخوه ، كل يسأل عن الأحوال والأعمال التى استوجبت ماهم فيه ، يسأله سؤال تلذذ وفرح بما ينعمون من ثواب حسن عظيم ، لا يشوبه خوف من انقطاع أو إشفاق من نقصان فيجيبون على هذا التساؤل بما حكاه عنهم فى قوله :

٢٦ - (قَالُوٓاْ إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِىٓ أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ) :

أى : قال كل واحد منهم : إنا كنا فى الدنيا بين أهلينا وأولادنا لايشغلنا عن مولانا وإلٰهنا شىءٌ ، كنا خائفين من عصيانه ، رقاق القلوب من خشيته ، منصرفين إلى طاعته ، وجلين من عاقبة الأمر ونهاية المطاف وهو اليوم الآخر .

٢٧ - (فَمَنَّ اللهُ عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ) :

أى : فتفضل علينا بمنّه وكرمه وحفظنا وجعلنا فى وقاية من عذاب النار وسعيرها ، وكانت الجنة هى دار المقام لنا ؛ لأنه فى الآخرة : إما إلى جنة ، وإما إلى نار ، وليس فيما حل بنا من حفظ وما أقمنا فيه من كريم المنزل والمقعد الصدق عند ربنا ليس لنا فى ذلك من فضل ، فإن أعمالنا الصالحة بتوفيق الله ومعونته ، وهى مع هذا قليلة بالنسبة إلى هذا النعيم وذلك بعد أن زحزحنا - سبحانه - عن النار بفضله وسعة كرمه ، قال النبىّ - صلى الله عليه وسلم - : « لن يدخل الجنة أحدٌ منكم بعمله ، قالوا : ولا أنت يا رسول الله ؟ قال :

ولا أنا إلّا أن يتغمدنى الله بفضل رحمته ، فسددوا وقاربوا ، ولا يتمنينّ أحدكم الموت ، إما محسناً فلعله يزداد خيرًا ، وإما مسيئاً فلعله يستعتب » ومهما عبد العبد ربه فآلاء الله التى غمره بها لا تحصى ونعمه لا تعد ، وإن أدقّ نعمة من الله على عبده لتزيد على أضعاف أضعاف ما يؤدى العبد لربه من عبادة وطاعة ، ولو كان من خاصة المقربين وقضى حياته ساجدًا لله - تعالى - والسموم : اسم من أسماء النار كما قال الحسن ، ثم أشار - سبحانه - إلى كمال تعظيمهم لأمر الله بقوله :

٢٨ - (إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ) :

أى : إنّا كنا فى الدنيا قبل أن نقدم ونصير إليه - سبحانه - لم تشغلنا أولادنا ولا أهلونا ولا أموالنا ولا ماكنا فيه من جاه زائف وسلطان زائل ، فكنا ندعوه ونلجأ إليه ونعبده فهو - جل شأنه - حقيق بالطاعة والانقياد والإذعان لأمره ، فهو البر التام الإحسان العميم الفضل إذا عُبد أثاب وإذا سئل أجاب .

(فَذَكِّرْ فَمَآ أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ ﴿٢٩﴾ أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ ﴿٣٠﴾ قُلْ تَرَبَّصُوا۟ فَإِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُتَرَبِّصِينَ ﴿٣١﴾ أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَٰمُهُم بِهَٰذَآ ۚ أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٣٢﴾ أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥ ۚ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾ فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ ﴿٣٤﴾)

المفردات :

(بِنِعْمَةِ رَبِّكَ) : بسبب تفضل الله عليك بالنبوة وغيرها .

(بِكَاهِنٍ) الكاهن : هو الذى يخبر بالغيب بضرب من الظن ، والمشاهد أنه يستمد إخباره بالغيب عن الجن ، وهذا عن الماضى ، أما عن المستقبل فلا سبيل له إليه فقد استأثر الله بعلمه .

(نَتَرَبَّصُ) : ننتظر .

(رَيْبَ الْمَنُونِ) : حوادث الدهر ومصائبه . والمنون : هو الدهر ، وقيل : هو الموت .

(أَحْلَامُهُمْ) : جمع حلم وهو العقل .

(طَاغُونَ) : مجاوزون الحد فى العناد .

(تَقَوَّلَهُ) : اختلقه من تلقاء نفسه .

التفسير

٢٩ - (فَذَكِّرْ فَمَا أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ) :

أى : فدم على التذكير بما أوحاه الله إليك ولا تبال بافترائهم ، فإن من أنعم الله عليه بالنبوة يستحيل أن يكون أحد هذين فضلا عن أن الرسول - صلى الله عليه وسلم - كان قبل النبوة أعلاهم رأياً ، وأرجحهم عقلاً ، وأبينهم حجة ومنطقاً منذ أن ترعرع وشب إلى أن بلغ الأشد ، فما أبعد من كان هذا شأنه عن أن يكون كاهناً أو مجنوناً ، والكاهن يعتمد فى إخباره عن الغيب على الجن وبضرب من الظن .

والراغب الأصفهانى فى مفرداته خص الكاهن بمن يخبر بالأخبار الماضية الخفية ، والعراف بمن يخبر بالأخبار المستقبلة ، فضلا على أن الكهان كانوا عندهم من أكثرهم فطنة وهو ضد المجنون الذى لايعقل ، فكيف جمعوا بين هذين الوصفين المتناقضين فى افترائهم على الرسول؟! .

٣٠ - (أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ) :

المنون : الدهر ، من المن بمعنى القطع ؛ لأنه يقطع الأعمار ، والريب : مصدر (رابه) إذا أقلقه فيكون المراد حوادث الدهر وصروفه التي تقلق النفوس ، أو المراد بالمنون : الموت ، وريبه : نزوله .

روى أن قريشاً اجتمعت في دار الندوة وكثرت آراؤهم فيه - عليه الصلاة والسلام - حتى قال قائل منهم : تربصوا به ريب المنون ؛ فإنه شاعر يهلك كما هلك زهير والنابغة والأعشى فافترقوا على هذه المقالة فنزلت هذه الآية ، وقد نفى الله - تعالى - عنه فقال : « وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلاً مَّا تُؤْمِنُونَ .. » الآية ٤١ من سورة الحاقة .

٣١ - (قُلْ تَرَبَّصُوا فَإِنِّى مَعَكُم مِّنَ الْمُتَرَبِّصِينَ) :

أي : قل لهم - يا محمد متهكماً بهم مهدداً لهم - : انتظروا موتى ما شئتم فإني أتربص وأنتظر هلاككم وفناءكم كما تتربصون هلاكى « وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ » .

وفي هذا الأسلوب عِدَةٌ وبشارة لرسوله - صلى الله عليه وسلم - بأن الله مهلكهم ومبيدهم . ثم تنتقل الآيات مستهزئة بهم ساخرة منهم ومن عقولهم وذلك في قوله - تعالى - :

٣٢ - (أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَامُهُم بِهَٰذَا أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ) :

أي : بل أتأمرهم عقولهم وألبابهم بهذا التناقض في القول ، فتارة هو عندهم كاهن ؛ وتارة مجنون ، وتارة أخرى شاعر ، وكانت قريش يُدْعَوْن أهل النهى والأحلام الراجحة ، لأن جميع العالم العربي يأتونهم ويخالطونهم ، ولكنهم في شأن الرسول أغفلوا عقولهم وأهدروا الاحتكام إليها والعمل بمقتضاها .

وقيل لعمرو بن العاص : ما بال قومك لم يؤمنوا وقد وصفهم الله - تعالى - بالعقل ؟ ! فقال : تلك عقول كادها الله - عَزَّ وَجَلَّ - أي : لم يصحبها التوفيق ، فلذا لم يؤمنوا وكفروا .

قال الإمام الآلوسى : وأنا لا أرى فى الآية دلالة على رجحان عقولهم ،ولعلها تدل على ضد ذلك (بهذا) التناقض فى المقال ،فإن الكاهن والشاعر يكونان ذَوَىْ عقل تام وفطنة وقَّادة ، والمجنون مغطى عقله مختل فكره ، وهذا يعرب عن أن القوم لتحيرهم وعصبيتهم وقعوا فى حيصَ بيصَ حتى اضطربت عقولهم ، وتناقضت أقوالهم ،وكذبوا أنفسهم من حيث لايشعرون ا هـ . ولكل وجهته .

(أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ) أى : بل هم قوم مجاوزون الحدود فى المكابرة موغلون فى العناد ، ولا يحومون حول الرشد والسداد ، لذلك تناقضوا فى وصفه ـ صلى الله عليه وسلم ـ .

٣٣ ـ (أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ) :

أى : بل أيقولون ـ كذباً وزوراً ـ: إن محمدًا اختلق القرآن الكريم من تلقاء نفسه ونسبه إلى ربه بهتاناً وافتراءً ، فليس الأمر كما يقولون (بَل لَّا يُؤْمِنُونَ) بل إنهم لا يؤمنون بك ولا بما جئت به مع وضوح الحق لديهم جحدًا واستكبارًا ، قال الله ـتعالى ـ : « فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ » .

٣٤ ـ (فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ إِن كَانُوا صَادِقِينَ) :

أى : فليأتوا بكلام يماثله فى البلاغة والإعجاز إن كانوا صادقين فيما يدّعونه من أنك يا محمد أتيت به من عندك ؛ فما أنت إلا واحد منهم نشأ بينهم ولم يفارقهم ،مع أن بلغاء العرب قد عجزوا وأفحموا ـبعد أن تحديتهم ـ عن الإتيان حتى بسورة من مثله ،ومحمد عربى مثلهم ولم يعرف عنه أنه تبارى مع الفصحاء والبلغاء ، فإذا كنتم قد عجزتم عن الإتيان بمثله ، فمحمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ مثلكم يعجز عن الإتيان بمثله ، لأنه فوق مستوى البشر أجمعين ، لقد كان وعاش أميًّا لايعرف القراءة والكتابة مثلكم ، فلو أنه قدر على نظمه لكان غيره من الفصحاء والبلغاء أقدر على ذلك منه ،ومع ذلك بدا عجزهم حتى عن معارضة القرآن بعد أن تحداهم الله وأبان عجزهم فقال : « قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا » .

(أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ عِندَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ الْمُصَيْطِرُونَ ﴿٣٧﴾ أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ ۖ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُم بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ أَمْ لَهُ الْبَنَاتُ وَلَكُمُ الْبَنُونَ ﴿٣٩﴾ أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ﴿٤٠﴾ أَمْ عِندَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴿٤١﴾ أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا ۖ فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ ﴿٤٢﴾ أَمْ لَهُمْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ ۚ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٤٣﴾)

المفردات :

(خَزَآئِنُ رَبِّكَ) الخزائن : هى البيوت التى تُهيأ لجمع أنواع مختلفة من النفائس والذخائر ، والمراد بها هنا : مفاتيح الرحمة والرزق وغير ذلك من عظائم النعم .

(الْمُصَيْطِرُونَ) : الأرباب الغالبون والمتسلطون القاهرون .

(سُلَّمٌ) : مُرْتَقًى ومصعد .

(بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ) : بحجة بينة .

(مَغْرَمٍ) : من الغرم والغرامة ، قال الراغب : ما ينوب الإنسان فى ماله من ضرر لغير جناية منه .

(مُثْقَلُونَ) : محملون ما يثقلهم ويجهدهم . (كَيْدًا) : مكرا .

(الْمَكِيدُونَ) : المكور بهم الذين يلقون جزاء مكرهم .

٣٥ - (أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ) :

(أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ) أى : أم خُلِقُوا هذا الخلق الدقيق العظيم وصوروا هذا التصوير البديع ، فجاءُوا على هذا النظام الحسن من استقامة فى أبدانهم ، ونطق بألسنتهم ، وإدراك فى عقولهم ، وتدبير لأمر معاشهم ، واهتداء إلى ما يصلحهم ويحفظهم . أَخُلِقُوا هذا الخلق وقدروا التقدير المحكم الذى عليه فطرتهم من غير خالق ومقدر ؟

(أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ) أى : أم هم الذين خلقوا أنفسهم فلذلك لا يعبدون الله - عَزَّ وَجَلَّ - ولا يلتفتون إلى رسوله - صلى الله عليه وسلم - وكيف يتصور عقل سليم وفكر مستقيم أن المعدوم يخلق ويوجد سواه فضلًا عن أن يخلق نفسه ؟ وهم مع شركهم يعترفون بأن الله هو الذى خلقهم . قال -تعالى- : « وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ »[1] وإذا اعترفوا بأن ثَمَّ خالقاً قد خلقهم وهو الله - سبحانه وتعالى - فما الذى يمنعهم من الإذعان له بالعبادة دون الأصنام ؟ إنه هو التقليد لآبائهم ، ومن أجله أهدروا عقولهم ، وعاندوا فى الإقرار بالحق .

٣٦ - (أَمْ خَلَقُوا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بَل لَّا يُوقِنُونَ) :

أى : بل أهم الذين خلقوا السموات والأرض ؟ كلا ، إنهم لم يخلقوها بل لم يقفوا على شىء من أسرارها وما تضم من مخلوقات جليلة عظيمة وعديدة ، فضلا عن أنهم أقروا بأن الله هو الذى خلقهن فقال - عز من قائل - : « وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ »[2] .

٣٧ - (أَمْ عِندَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ الْمُصَيْطِرُونَ) :

أى : بل أعندهم وتحت أيديهم ووفق تصريفهم مفاتيح رزق الله ورحمته من النبوة وغيرها من عظائم نعمه ودقائقها فيقسموها على من يشاءُون ويؤثروا بها من يريدون ويمسكوها

---

(١) سورة الزخرف ، من الآية : ٨٧ .

(٢) سورة الزخرف ، الآية : ٩ .

عمن لايرغبون ولا يحبون ؟ فلهذا رأوا أن تكون الرسالة لرجل من القريتين عظيم ؟ واستبعدوا النبوة عن محمد - صلى الله عليه وسلم - لفقره .

(أَمْ هُمُ الْمُصَيْطِرُونَ) أى : بل أهم الأرباب الغالبون والمعبودون القاهرون حتى يدبروا أمر الخلق ، وينفردوا بهذا التقدير المحكم والتدبير المتقن ، ويعطوا النبوة لمن شاءوا ، ويستعبدوها من سواه ، إنهم ليسوا كذلك ، فالله وحده هو قيوم السموات والأرض وليس له نِدٌّ ولا شريك .

٣٨ - (أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُم بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ) :

أى : بل أَيَدَّعُونَ أن لهم مرتقى ومصعدًا منصوبًا إلى السماء يستمعون وهم صاعدون فيه إلى كلام الملائكة وما يوحى به إليهم من علم الغيب حتى يعلموا أن الظفر والغلبة والعاقبة لهم على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إذا ادعوا ذلك وزعموه لزمهم أن يأتوا بحجة واضحة ودليل ظاهر بيّن يصدق دعواهم ، وأنّى لهم هذا الدليل ؟ وليس لهم إليه من سبيل .

٣٩ - (أَمْ لَهُ الْبَنَاتُ وَلَكُمُ الْبَنُونَ) :

هذا إنكار وتوبيخ ووعيد لهؤلاء الذين بلغ بهم التَّدنِّى فى السفه والغلو فى العناد إلى أن ادعوا أنَّ الملائكة إناث ، وأن الله قد اختارها لنفسه وآثرهم بالبنين ، وهم لم يشهدوا خلق الملائكة ولم يعرفوا فطرتهم ، ولم يقفوا على حقيقتهم حتى يصفوهم بالأنوثة ويزعموا مع ذلك أنهم بنات الله « أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ »[1] وهم يزعمون أن لهم البنين فيختارون لله ما يكرهون ، ولهم ما يحبون « وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَٰنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ »[2] . ليس الأمر كما تزعمون أيها الحمقى - تعالى الله عما تقولون علوًّا كبيرًا - فهو - سبحانه - منزه عن الشريك والصاحبة والولد .

٤٠ - (أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ) :

أى : بل أتطلب منهم أجرًا وجزاءً على هدايتك لهم وإرشادهم إلى دين الله الحق تلزمهم بهذا الأجر وتجبرهم عليه ، فهم من هذا الغرم الثقيل الفادح المجهد لهم يزهدون فى اتباعك

(١) سورة الزخرف من الآية : ١٩ .
(٢) سورة الزخرف الآية : ١٧

ويصدون عنك ؟ إنك لم تطلب منهم أجرًا على تبليغ رسالة ربك ؛ بل لقد أديت الأمانة وبلغت الرسالة على خير أداءٍ وأفضل تبليغ امتثالًا لأمر ربك ؛ وكنت مع ذلك شديد الشفقة عليهم والرحمة بهم رغبة فى إيمانهم .

٤١ ـ (أَمْ عِندَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ) :

أى : بل أعندهم ولديهم علم ما غاب عن الناس مما هو مسطور فى اللوح المحفوظ وغيره ومما استأثر الله بعلمه ، فعرفوا أن ما أخبرهم به محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ من أمر القيامة وما فيها من بعثٍ وحساب ، ثم جنة أو نار ، أعلموا أن ما أخبرهم به الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ ليس له حقيقة ، وإنما هو أمرٌ باطلٌ ،وهم لذلك يكتبون للناس بذلك ويخبرونهم ؟ ليس هذا لديهم ولاهم فى شيءٍ منه .

٤٢ ـ (أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ) :

هذه الآية الكريمة من الإخبار بالغيب ؛لأنها نزلت قبل اجتماع المشركين فى دار الندوة قبيل هجرته ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلى المدينة وائتمارهم عليه ، فمنهم من كان يرى أن يحبس حتى يموت ، واقترح آخرون أن يخرج وينفى من ديارهم ، ثم اتفقوا جميعاً على أن يختار من كل قبيلة شاب جَلْد فيضربوا الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ ضربة رجل واحد فيتفرق دَمُهُ فى القبائل فلا يقدر بنو عبد مناف على قتالهم فيقبلون ديته ،ولكن الله ـ سبحانه ـ أعماهم فهم لايبصرون ، وخرج ـ صلى الله عليه وسلم ـ من بينهم بعد أن حثا التراب عليهم . والمعنى : بل أيريدون الخديعة والمكر بك لينالوا منك ويقضوا عليك ، إن الله ـ سبحانه ـ لن يمكنهم منك ،ولن يصلوا فيك إلى ما يريدون ،فالله راعيك وحافظك ، أما هم فبسبب كفرهم سينزل الله بهم عاقبة مكرهم ،ووبال خداعهم « وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ »[1] وسيلقون جزاءهم فى الدنيا هوانا وقتلا ، ولهم فى الآخرة عذاب عظيم .

---

(١) سورة فاطر ، من الآية : ٤٣

٤٣ - (أَمْ لَهُمْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ) :

أى : بل ألهم إله خلقهم ورزقهم يحييهم ويميتهم ويعطيهم ويمنعهم غير ربِّ السموات والأرض رب العالمين ، فهم لإلٰههم هذا يدينون بالربوبية ويشركونه مع الله فى العبادة ، إن الله - سبحانه - تنزه وتعالى عما يشركون فهو الذى تقدس عن أن يكون له شريك أو ند أو نظير .

« لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ »[1] .

(وَإِن يَرَوْا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا يَقُولُوا سَحَابٌ مَّرْكُومٌ ﴿٤٤﴾ فَذَرْهُمْ حَتَّىٰ يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ ﴿٤٥﴾ يَوْمَ لَا يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا دُونَ ذَٰلِكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٧﴾ وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ۖ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٤٨﴾ وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَارَ النُّجُومِ ﴿٤٩﴾)

المفــردات :

(كِسْفًا) : قطعة .

(مَرْكُومٌ) : ملقى بعضه فوق بعض .

(فَذَرْهُمْ) : فدعهم واتركهم .

(يُصْعَقُونَ) : يهلكون ويموتون .

---

(١) سورة الشورى ، من الآية : ١١

(دُونَ ذَٰلِكَ) : سوى ذلك .

(لِحُكْمِ رَبِّكَ) : لقضاء ربك فيما حملك من رسالته .

(بِأَعْيُنِنَا) : فى حفظنا وحراستنا .

(إِدْبَارَ النُّجُومِ) : غيبها وذهاب ضوئها بطلوع الفجر الثانى .

التفسير

٤٤ - (وَإِن يَرَوْا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا يَقُولُوا سَحَابٌ مَّرْكُومٌ) :

أى : وإن يروا بأعينهم ويظهر لهم قطعة عظيمة من السماء تسقط عليهم لتهلكهم وتقضى عليهم لقالوا - من فرط طغيانهم وشدة عنادهم -:هذا سحاب متراكم بعضه فوق بعض يحفل بالمطر ويمتلىء بالغيث يسقينا ويروينا ،ولم يصدقوا أنه كِسْف وقطعة تنزل لعذابهم ، وهم بقولهم هذا يتبعون طريق وسنن من كان قبلهم فى صلفهم وكبرهم كعاد قوم هود عند ما رأوا سحاباً استقبل أوديتهم فرحوا به واستبشروا وقالوا : هذا يأتينا بالمطر ، وقد حكى القرآن الكريم عن رسولهم هود - عليه السلام - أنه قال لهم :

« بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ * تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَىٰ إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ »[1] .

٤٥ - (فَذَرْهُمْ حَتَّىٰ يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ) :

أى : اتركهم - يا محمد - غير مكترث بهم ولا ملقياً لهم بالاً حتى ذلك اليوم الذى فيه يلقون حتفهم وهلاكهم وهو يوم غزوة بدر حيث ينصرك الله نصرًا مبيناً مؤزرًا تطمئن به قلوبكم ،ويقهر به عدوكم ،ويُلقى الله به الرعب فى قلوب من تحدثه نفسه أن ينازلكم أو يتعرض لملاقاتكم .

---

(١) سورة الأحقاف ، من الآية : ٢٤ والآية : ٢٥ .

٤٦ - (يَوْمَ لَا يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ) :

أى : فى هذا اليوم الذى هو يوم بدر لا يفيد ولا يغنى عنهم ما مكروا به ودبروه فى دار الندوة لإلحاق الأذى برسول الله - صلى الله عليه وسلم - هذا الكيد والمكر الذى عاونهم فيه إبليس - عليه اللعنة - كما لم ينفعهم ما أعدوه من العدد والعُدّة لمناصبة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وهم وراء ذلك لايجدون أحدًا ينصرهم ويمنع عنهم نزول الهزيمة بهم ، وقتل سادتهم وشجعانهم وأشرافهم .

٤٧ - (وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَاباً دُونَ ذَٰلِكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ) :

أى : لا يقف شأن إنزال الهوان والعذاب بهم عند هذا الحد ولا يقتصر على إحاطته بهم يوم بدر ، بل وإن لهؤلاء الظالمين أنفسهم بكفرهم ،والظالمين غيرهم بالقتل والتعذيب والإذلال ،إن لهؤلاء جزاء ظلمهم - عذاباً مهيناً غير هذا العذاب الذى نزل بهم وهو ما يصيبهم من القحط والجدب فى السنين السبع التى أكلوا فيها الجيف ، ورديء الطعام ومُرّه ، أومايلقونه من مصائب الدنيا وعذاب القبر ،وهم عن ذلك فى غفلة ،وأكثرهم لايعلمون ما سيحل بهم من الوبال والهلاك ، وبعضهم يعرفه ويعلمه غير أنه يصر على الكفر والضلال عنادًا وكبرًا وَصَدًّا .

٤٨ - (وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ) :

أى : اصبر - يا محمد - على ما حملك الله من رسالته ،وما يتبع ذلك مما ابتلاك الله به من سفه قومك وإعراضهم (فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا) أى : بمرأى ومنظر منا نرى ونسمع ما يحدث منك وما يفعله أعداء الله بك ،فنحفظك ونرعاك ونحرسك ، وفى التعبير بصيغة الجمع فى قوله - تعالى - : (بِأَعْيُنِنَا) للدلالة على المبالغة فى الحفظ ،كأن معه من الله - تعالى - حُفَّاظًا يكلؤونه بأعينهم ، وقال الإمام الآلوسى نقلا عن العلامة الطيبى : إنما أفرد هناك - يعنى فى سورة طه - فقال فى شأن موسى - عليه السلام - : « وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي » لإفراد الفعل هناك وهو كلاءة موسى « رعايته وحفظه » وهنا لما كان لتصبير الحبيب - يعنى محمدًا ، صلى الله عليه وسلم - على المكايد ومشاق التكاليف والطاعات ناسب الجمع لأنها

أفعال كثيرة كل منها يحتاج إلى حراسة منه – عز وجلَّ – ثم قال : ومن نظر بعين بصيرة علم من الآيتين الفرق بين الحبيب والكليم – عليهما أفضل الصلاة والتسليم – وفى هذا وعد للرسول – صلى الله عليه وسلم – بالنصر والحفظ والرعاية ، وبشارة للمسلمين بالظفر والأمان .

(وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ) أى : نزه ربك وقدسه ، قال عون بن مالك وابن مسعود وغيرهما : المراد : يسبح الله حين يقوم من مجلسه فيقول : سبحان الله وبحمده . أو سبحانك اللهم وبحمدك ، فإن كان المجلس خيراً ازددت ثناء حسناً ، وإن كان غير ذلك كان كفارة له ، ودليل هذا ما أخرجه الترمذى عن أبى هريرة قال : قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم – : « من جلس فى مجلس فكثر فيه لغطه فقال قبل أن يقوم من مجلسه : سبحانك اللهم وبحمدك ، أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك ، إلَّا غفر له ما كان فى مجلسه ذلك » وقيل : المعنى : حين تقوم من منامك . قال حسان بن عطية : ليكون متفتحاً لعمله بذكر الله ، وقال الكلبى : واذكر الله باللسان حين تقوم من فراشك إلى أن تدخل الصلاة وهى صلاة الفجر ، وعن ابن عباس – رضى الله عنهما – أنَّ رسول الله – صلى الله عليه وسلم – كان يقول إذا قام إلى الصلاة من جوف الليل : « اللهم لك الحمد ، أنت نور السموات والأرض ومن فيهن ، ولك الحمد أنت قيوم السموات والأرض ومن فيهن ، ولك الحمد أنت ربُّ السموات والأرض ومن فيهن ، وأنت الحق ، ووعدك الحق ، وقولك الحق ، ولقاؤك حق ، والجنة حق ، والنار حق ، والساعة حق ، والنبيون حق ، ومحمد حق ، اللهم لك أسلمت ، وعليك توكلت ، وبك آمنت ، وإليك أنبت ، وبك خاصمت ، وإليك حاكمت . فاغفر لى ما قدمت وما أخرت ، وأسررت وأعلنت ، أنت المقدم وأنت المؤخر ، لا إله إلَّا أنت ولا إله غيرك » متفق عليه .

وعن ابن عباس أيضاً أنَّهُ – عليه الصلاة والسلام – كان إذا استيقظ من الليل مسح النوم عن وجهه ، ثم قرأ العشر الآيات الأواخر من سورة آل عمران .

٤٩ ـ (وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَارَ النُّجُومِ) :

أى : وفى بعض الليل نزه ربَّك وقدِّسه وعظِّمه ، وخص ـ سبحانه ـ بعض الليل وأفرده بالتسبيح والتقديس له ـ جلَّ شأنه ـ لأن العبادة فى جوف الليل أشق على النفس وأبعد عن الرياء ، ويجوز أن يراد بالتسبيح هنا : الصلاة فى الليل والتهجد فيه ، وهذه الصلاة من خصوصياته ـ صلى الله عليه وسلم ـ الواجبة عليه وحده ، والصلاة تسمى تسبيحاً لما فيها من التسبيح لله ، ومنه سُبحة الضحى ، أى : صلاة الضحى (وَإِدْبَارَ النُّجُومِ) : هو ذهاب ضوئها إذا طلع الفجر الثانى ، وهو البياض المنشق من سواد الليل ، والمراد به : صلاة ركعتين قبل الفجر ، وهذا مروى عن كثير من الصحابة كعمر وعلى وأبى هريرة وغيرهم ـ رضى الله عنهم جميعا ـ كما هو مأثور أيضا عن كثير من التابعين كالحسن البصرى والنخعى والشعبى وغيرهم ، كما روى عن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ قوله : بت ليلة عند النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فصلى ركعتين قبل الفجر ، ثم خرج إلى الصلاة فقال : « يا بن عباس ، ركعتان قبل الفجر إدبار النجوم ، وركعتان بعد المغرب إدبار السجود » وفى صحيح مسلم عن عائشة ـ رضى الله عنها ـ قالت : لم يكن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ على شىء من النوافل أشد معاهدة منه على ركعتين قبل الصبح . وعنها أن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال : ركعتا الفجر خير من الدنيا وما فيها . والله أعلم .

سورة والنجم

وتسمى – أيضاً – سورة النجم – بدون واو – وهى مكية وآياتها ثنتان وستون آية ،وهى كما روى عن ابن مسعود – رضى الله عنه – أنه قال :أول سورة أعلن النبى – صلى الله عليه وسلم – بقراءتها فقرأها فى الحرم والمشركون يسمعون ، وأخرج البخارى وغيره قال : أول سورة أُنزلت فيها سجدة : (والنجم) فسجد رسول الله – صلى الله عليه وسلم – وسجد الناس كلهم إلّا رجلاً رأيته أخذ كفًّا من تراب فسجد عليه ، فرأيته بعد ذلك قتل كافرًا ، وهو أُميّة بن خلف ، وفى البحر أنه – عليه الصلاة والسلام – سجد وسجد معه المؤمنون والمشركون والجن والإنس غير أبى لهب ،فإنه رفع حفنة من تراب وقال : يكفى هذا ، فيحتمل أنه هو وأُمية بن خلف فعلا ذلك .

وعن عروة بن الزبير – رضى الله عنهما – أن عتبة بن أبى لهب ، وكانت تحته بنت رسول الله – صلى الله عليه وسلم – أراد الخروج إلى الشام فقال : لآتين محمدًا فلأُوذينّهُ ، فأتاه فقال : يا محمد هو كافر بالنجم إذا هوى والذى دنا فتدلى ، ثم تفل فى وجه رسول الله – صلى الله عليه وسلم – وردّ عليه ابنته وطلقها ، فقال رسول الله – صلى الله عليه وسلم –: (اللّهم سلط عليه كلباً من كلابك) وكان أبو طالب حاضرًا فوجم لها وقال : ما كان أغناك يابن أخى عن هذه الدعوة ، فرجع عتبة إلى أبيه فأخبره ، ثم خرجوا إلى الشام فنزلوا منزلا فأشرف عليهم راهب من الدير فقال لهم : إن هذه الأرض مسبعة (كثيرة السباع) فقال أبو لهب لأصحابه : أغيثونا يا معشر قريش هذه الليلة ، فإنى أخاف على ابنى دعوة محمد ، فجمعوا جمالهم وأناخوها حولهم وأحدقوا بعتبة ، فجاء الأسد يتشمم وجوههم حتى ضرب عتبة فقتله » وقال حسان :

من يرجع العام إلى أهله فما أكِيلُ السبع بالراجع

ومناسبتها لما قبلها : أن سورة الطور ختمت بقوله – تعالى – : (وَإِدْبَارَ النُّجُومِ) ، وافتتحت سورة النجم بقوله – تعالى – : (وَالنَّجْمِ) ، وأيضاً فى مفتتحها ما يؤكد الإنكار

والرد على الكفرة فيما نسبوه إلى الرسول - صلى الله عليه وسلم - من الشعر والكهانة والجنون ، ومن الزعم بأنه يتقول ويختلق على الله القرآن ، ويدّعى أنه من عند الله ، مما هو مذكور فى سورة الطور كقوله - تعالى - : « فَذَكِّرْ فَمَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ » وقوله- تعالى- : « أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ » .

وذكر أبو حيان : أن سبب نزولها قول المشركين : إن محمدًا - عليه الصلاة والسلام - يختلق القرآن ، فنزلت السورة الكريمة للرد عليهم .

بعض مقاصد السورة :

١ - أنها - شأن السور المكية - تعنى بالرسالة وتؤكدها ، قال -تعالى- : (وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰٓ * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ) .

٢ - أن السورة الكريمة تحدثت عن المعراج الذى كان تسلية لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - بعد عام الحزن على وفاة زوجه أم المؤمنين السيدة خديجة - رضى الله عنها - وعمه أبى طالب ، وما رآه - عليه الصلاة والسلام - من آيات ربه الكبرى ،وعجائبه العظمى فى الملكوت الأعلى ، عند سدرة المنتهى التى عندها جنة المأوى .

٣ - أنها تنعى وتعيب على هؤلاء المشركين عبادة غير الله من الأوثان والأصنام وغيرها من المخلوقات التى لا تضر ولا تنفع ،ولا تسمع ولا تبصر ، بل إن بعضها قد صنعوه بأيديهم (أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ * وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَىٰ) الآيات. ثم إنها تسفههم على أن آثروا أنفسهم بالبنين ، وجعلوا لله ما يكرهونه ويأنفون منه وهو البنات قال تعالى : (أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنثَىٰ * تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ) .

٤ - أَنَّهَا أخبرت عن الحساب والجزاء يوم القيامة : (لِيَجْزِىَ الَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِىَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى) .

٥ ـ أنّها تحدثت عن أن الله هو الذى يحيي ويميت وأنه إليه المنتهى والمصير ، وأنه وحده هو الذى خلق الزوجين الذكر والأنثى ، قال ـ تعالى ـ : (وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا * وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ * مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ * وَأَنَّ عَلَيْهِ النَّشْأَةَ الْأُخْرَىٰ) .

وكانت خاتمة السورة أن ذكرت أصنافاً من العذاب لأُمم خالفت أنبياءها وآذتهم ، فأنزل الله بهم ما يستحقون ، وذلك تسلية لرسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ووعد له وللمؤمنين بنصر الله ، كما أن فيها وعيداً وتهديداً للمشركين أن يحل بهم ما نزل بغيرهم ممن هم على شاكلتهم ، قال ـ تعالى ـ : (وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَىٰ * وَثَمُودَ فَمَآ أَبْقَىٰ * وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ * وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ) .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

(وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ﴿١﴾ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾ عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ ﴿٥﴾ ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَىٰ ﴿٦﴾ وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَىٰ ﴿٧﴾ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ﴿٨﴾ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ﴿٩﴾ فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ ﴿١٠﴾ مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ ﴿١١﴾ أَفَتُمَارُونَهُ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ﴿١٢﴾)

المفـــردات :

(هَوَىٰ) : سقط أو نزل .

(مَا ضَلَّ) : مازلَّ ولا بعد عن طريق الهدى .

(وَمَا غَوَىٰ) : ماخاب ولا أمعن فى الجهل .

(ذُو مِرَّةٍ) : ذو حصافة فى رأيه ومتانة فى دينه .

(فَاسْتَوَىٰ) : فاستقام على صورته الحقيقية .

(دَنَا) : قرب .

(فَتَدَلَّىٰ) : امْتَدَّ من أعلى إلى أسفل فزاد قربه .

(قَابَ قَوْسَيْنِ) القاب : ما بين المقبض وطرف القوس، والقوس : آلة على هيئة الهلال ترمى بها السهام ، أى : مقدار قوسين عربيتين .

(أَفَتُمَارُونَهُ) : من المِراء ، وهو الملاحاة والمجادلة ، أى : أفتجادلونه .

التفسير

١ ، ٢ ، ٣ ، ٤ - (وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ * مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ * وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ) :

(وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ) المراد بالنجم هنا : هو جنس النجوم ،وهى من خلق الله ، يُهتدى بها فى ظلمات البر والبحر ، وتصك وترمى بِجُزَيْئَات منها الشياطين التى تسترق السمع فيتبعها من هذه النجوم الشهاب الثاقب الذى يصدها ويدفعها ، كما أنها تزين السماء الدنيا بالزينة الحسنة ،والحلية البهيجة قال-تعالى- : « إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ * وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَانٍ مَّارِدٍ »[1] فضلا عن أن هذه النجوم آية باهرة تدل على كمال اقتداره - سبحانه - وعظيم سلطانه ؛ إذ هى فى أفلاكها ومداراتها لاتضل ولايصطدم بعضها ببعض بل تسير وفق نظام بديع محكم والمراد بِهُوِىِّ النجم سقوطه على الشياطين ، وفيه إشارة إلى أن أمر رسول الله - صلى الله عليه وسلم- سيظهر ويقهر الله أعداءه ، كما تفعل الصواعق التى تهوى من النجوم بما يكون فى طريقها .

أقسم- جل شأنه-بالنجم الذى له هذه الصفات الجليلة والخصائص العظيمة (مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ) على أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - لم يضل ولم يبعد عن الحق ولم يغب أو ينأ عن الهدى ، بل هو على الصراط المستقيم (وَمَا غَوَىٰ) أى : وما خاب ولا انخرط فى سلك الجهال المارقين عن الدين الصحيح ، بل هو راشد مهتد وليس كما تزعمون من نسبتكم إياه إلى الضلال والغىّ . وفى القسم بالنجم بهذا المعنى على أنه - عليه الصلاة والسلام- منزه عن شائبة الضلال والغواية - فى هذا القسم - من البراعة البديعية ، وحسن التصوير ، وجمال الواقع مالاغاية وراءه؛ لأن النجم شأنه أن يهتدى به السارى إلى مسالك الدنيا كأنه قيل : والنجم الذى يهتدى به السابلة إلى مقاصدهم ،ويسترشدون به فى مسالكهم نحو غاياتهم ماعدل محمد عن طريق الحق الذى هو مسلك الآخرة ، وفى هذا من التمثيل مايعطى

---

(١) الآيتان : ٦ ، ٧ من سورة الصافات .

بأنه ـ عليه الصلاة والسلام ـ على الصواب فى أفعاله وأقواله ، ما اعتقد باطلا قط ، وعطف قوله : (وَما غَوَىٰ) على قوله : (مَا ضَلَّ) من قبيل عطف الخاص على العام .

(وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ * إِنْ هُوَ إِلَّا وحْيٌ يُوحَىٰ) أى : وما يتكلم به محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ من القرآن الكريم عن هوى نفسه ورأيه أصلا إنما هو وحى من عند الله يوحيه الله إليه ، وقيل المراد : ما يصدر نطقه ـ عليه الصلاة والسلام ـ فى شأن الدين مطلقاً ـ قرآنا كان أو غيره ـ عن هوى بل كُلُّهُ وحى . وهناك من المفسرين من يرى أن نطق رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ واجتهاده ليس صادرًا عن هوى النفس ، وإنما هو واسطة بين ذلك والوحى ، ويجعل الضمير فى قوله : (إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ) راجعاً للقرآن الكريم ، وبهذا قال العلامة الآلوسى . كأنه قيل : إذا كان هذا شأنه ـ عليه الصلاة والسلام ـ أنه لا ينطق عن الهوى فما هذا القرآن الذى جاء به وخالف ما عليه قومه ، واستمال به قلوب كثير من الناس ، وكثرت الأقاويل فيه . ما هو إلا وحى يوحيه الله ـ عزَّ وجلَّ ـ إليه ـ صلى الله عليه وسلم ـ ليبلغه الناس .

وفى قوله ـ تعالى ـ : (وَمَا يَنطِقُ) مضارعاً وهو مايدل على الحال والمستقبل مع قوله ـ سبحانه ـ : ما (ضَلَّ) (وَمَا غَوَىٰ) بصيغة الماضى فيهما ما يدل على أنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ لم يكن له سابقة غواية وضلال منذ ميَّز ، وقبل أن يتدرج ويترق فى أمور الحياة ويتدرب عليها ، وقبل أن يختاره ربه ـ جل وعلا ـ نبيًّا ورسولا فكيف به وقت أحكمته التجارب وتوجته الرسالة فهو لاشك ـ وهذه حاله ـ أبعد من أن ينطق عن هوى نفسه ، أو يتكلم عن شهوة ، وفى هذا الأسلوب ـ كما يقول العلامة الآلوسى ـ : حث لهم على أن يشاهدوا منطقه الحكيم .

٥ ـ (عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ) :

أى : علم رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ القرآن الكريم وأنزله عليه من عند الله ـ عز وجل ـ ملك شديدة قواه وهو جبريل ـ عليه السلام ـ ومن قوته أنه اقتلع قرى قوم

لوط ثم قلبها ، وقد صاح صيحة بثمود قوم صالح ـ عليه السلام ـ فأصبحوا جاثمين هالكين ، كما كان هبوطه على الأنبياء ـ عليهم السلام ـ وصعوده فى أسرع من رجعة الطرف .

٦ ـ (ذُومِرَّةٍ فَاسْتَوَىٰ) :

(ذُو مِرَّةٍ) أى :ذو حصافة فى عقله ، وجزالة فى رأيه ، ومتانة فى دينه ، وقد ائتمنه الله ـ تعالى ـ على وحيه إلى جميع الأنبياء ـ عليهم الصلاة والسلام ـ (فَاسْتَوَىٰ) أى : فاستقام جبريل ـ عليه السلام ـ على صورته الحقيقية التى خلقه الله ـ تعالى ـ عليها دون الصورة التى كان يتمثل بها كلما هبط بالوحى ، وكان ينزل على رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى صورة الصحابى الجليل « دحية الكلبى » كما كان يتمثل وينزل فى صورة أعرابى ، وذلك أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أحب أن يراه فى صورته التى جبل وخلق عليها .

٧ ـ (وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَىٰ) :

أى : جبريل ـ عليه السلام ـ بالجهة العليا من السماء فاستقام وظهر وملأ الأفق ، وكان ذلك عند غار حراء فى أوائل النبوة .

٨ ـ (ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ) :

أى : ثم قرب جبريل ـ عليه السلام ـ من رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ (فَتَدَلَّىٰ) فتعلق فى الهواء ودنا من رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ دُنُوًّا خاصاً ونزل بقربه .

٩ ـ (فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ) :

أى : فكان مقدار مسافة قرب جبريل ـ عليه السلام ـ من رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ كمقدار قوسين عربيتين أو أقرب من ذلك على تقديركم ومعاييركم ،وهذا كناية عن شدة القرب .

١٠ ـ (فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ) أى : فأوحى جبريل ـ عليه السلام ـ إلى عبد الله ورسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ الذى أوحاه إليه من عند الله ـ سبحانه ـ ولم يبين ـ جل شأنه ـ الموحى به ، وذلك لتفخيمه وتعظيمه ، أى : أوحى إليه أمرًا عظيماً .

١١ ـ (مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ) :

أى : ما كذب قلب محمد ما أبصره بعينيه من صورة جبريل ـ عليه السلام ـ أى : ما قال فؤاده ـ صلى الله عليه وسلم ـ لما رآه ببصره : لم أعرفك ، ولو قال ذلك لكان كاذباً وحاشاه أن يكون كذلك ، بل إنه ـ عليه السلام ـ عرفه بقلبه كما رآه ببصره .

١٢ ـ (أَفَتُمَٰرُونَهُۥ [1] عَلَىٰ مَا يَرَىٰ) :

أى : أفتكذبونه فتجادلونه على ما يراه معاينة من صورة جبريل ـ عليه السلام ـ الحقيقية بعد ما رآه قبل على صور تمثل فيها بصورة آدمية ؟ كان ذلك حتى لا يشتبه عليه بأى صورة ظهر فيها .

---

(١) وهو من المراء، وهو المجادلة، واشتقاقه من مرى الناقة : إذا مسح ضرعها ليخرج لبنها وتدر به، فشبه به الجدال لأن كلا من المتجادلين يطلب الوقوف على ما عند الآخر ليلزمه الحجة ، فكأنه يستخرج دره : الآلوسى .

(وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿١٤﴾ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ ﴿١٥﴾ إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ﴿١٦﴾ مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴿١٧﴾ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ ﴿١٨﴾ أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴿٢٠﴾ أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢١﴾ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ ﴿٢٢﴾ إِنْ هِىَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٢٣﴾ أَمْ لِلْإِنسَٰنِ مَا تَمَنَّىٰ ﴿٢٤﴾ فَلِلَّهِ ٱلْءَاخِرَةُ وَٱلْأُولَىٰ ﴿٢٥﴾)

المفـردات :

(نَزْلَةً أُخْرَىٰ) : مرة أخرى من النزول .

(سِدْرَةِ الْمُنْتَهَىٰ) السدرة : شجرة نبق فى السماء، إليها ينتهى علم كل الخلائق .

(جَنَّةُ الْمَأْوَىٰ) : الجنة التى يأوى إليها المتقون ، وقيل غير ذلك .

(مَازَاغَ الْبَصَرُ) : ما مال بصر الرسول عما رآه .

(وَمَا طَغَىٰ) : وما تجاوز ما رآه إلى غيره .

(آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَىٰ) : عجائبه الملكية والملكوتية .

(اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ ، وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَىٰ) : أصنام لهم كانوا يعبدونها .

(قِسْمَةٌ ضِيزَىٰ) : قسمة جائرة .

(مِن سُلْطَانٍ) : من برهان وحجة .

(مَا تَمَنَّىٰ) : ما تشتهى نفسه .

التفسير

١٣ - (وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ) :

أى : ولقد رأى النبىُّ - صلى الله عليه وسلم - جبريل - عليه السلام - فى صورته التى جبل عليها مرة أخرى ، والرؤية فى هذه المرة كانت بنزول كالرؤية فى المرة الأُولى عند غار حراء يشير إلى ذلك قوله تعالى : (نَزْلَةً أُخْرَىٰ) وقيل : رأى محمد - عليه الصلاة والسلام - ربه - جل وعلا - بلا كيف ولا انحصار . كما ذهب إلى ذلك ابن عباس وغيره .

١٤ - (عِندَ سِدْرَةِ الْمُنتَهَىٰ) :

هذه السدرة هى شجرة نبق عن يمين العرش فى السماء السابعة . (الْمُنتَهَىٰ) : اسم مكان ؛ لأنها - كما أخرج عبد بن حميد وابن أبى حاتم عن ابن عباس - إليها ينتهى علم كل عالم ، وما وراءها لايعلمه إلَّا الله - تعالى - وقيل : لأنها تنتهى إليها أعمال الخلائق بأن تعرض على الله عندها ، أو تنتهى عندها أرواح الشهداء ، أو أرواح المؤمنين مطلقاً .

١٥ - (عِندَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَىٰ) :

أى : عند سدرة المنتهى تكون جنة المأوى التى يأوى ويرجع إليها المتقون ، أو يصير وينزل فيها أرواح الشهداء .

١٦ - (إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ) :

أى : رأى محمد - صلى الله عليه وسلم - جبريل - عليه السلام - وقت ما يغطى ويستر السدرة ما يغطيها ويسترها من الأشياء الدالة على عظمة الله وجلاله مما لا يحيط به الوصف ، ولا يقدر على إدراك حقيقته الأفهام ، وقيل : ما غشاها وسترها من الملائكة . أخرج عبد بن حميد قال : استأذنت الملائكة الرب - تبارك وتعالى - أن ينظروا إلى النبى - عليه الصلاة والسلام - فأذن لهم فغشيت الملائكة السدرة لينظروا إليه - صلى الله عليه وسلم -

١٧ - (مَازَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ) :

أى : ماعدل بصر الرسول - عليه الصلاة والسلام - عن رؤية العجائب التى أمر برؤيتها ، وما تجاوز ما أذن له فى رؤيته ولا تعداه إلى سواه ، فقد أثبت ما رآه إثباتاً مستيقناً صحيحاً من غير أن يزيغ بصره أو يتجاوزه ، وهذه صفة عظيمة فى الثبات والطاعة ، فإنه ما فعل إلَّا ما أمر به ، ولايسأل فوق ما أعطى له ، ولله درّ القائل :

رأى جنة المأوى وما فوقها ولو رأى غيره ما قد رآه لتاها

١٨ - (لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَىٰ) :

أى : لقد نظر وأبصر رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بعضاً من عجائب خلق الله وآياته العظمى كرؤيته جبريل - عليه السلام - فى صورته الحقيقية وكرؤية سدرة المنتهى وما شاهده فيها ، وقد أخرج البخارى وجماعة ،عن ابن مسعود فى الآية :(رأى رفرفاً أخضر من الجنة قد سد الأفق) .

١٩ ، ٢٠ - (أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ • وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَىٰ) :

لما ذكر الوحى إلى النبى - صلى الله عليه وسلم - فى الآيات السابقة وذكر - سبحانه - أيضاً بعض آثار قدرته حاجَّ المشركين وسفههم ووبخهم إذ عبدوا مالا يعقل ، وقال : أفرأيتم هذه الآلهة التى تعبدونها وقد أوحت وأنزلت إليكم شيئاً كما أوحينا إلى محمد ؟ وهل رأيتم من عجائب خلقها كما رأى محمد من آيات ربه الكبرى ؟ واللات والعزى ومناة أصنام لهم كانوا يعبدونها من دون الله : فاللات لثقيف بالطائف . وقيل فى هذا الصنم : إنه كان رجل يلت السويق للحاج على حجر ، فلما مات عبدوا ذلك الحجر إجلالا له وسموه بذلك ، وهناك أقوال أخرى غير هذه فى سبب التسمية ، وبقيت اللات إلى أن أسلمت ثقيف ، فبعث رسول الله - صلى الله عليه وسلم - المغيرة بن شعبة فهدمها وحرقها بالنار ، أما العزى : فكانت لقريش أو لغطفان وهى سمرة ببطن نخلة بعث إليها رسول الله - صلى الله عليه وسلم - خالد بن الوليد فقطعها فخرجت منها شيطانة ناشرة شعرها ، داعية ويلها ، واضعة يدها على رأسها ، فضربها بالسيف حتى قتلها وهو يقول :

ياعز كفرانك لاسبحانك إنى رأيت الله قد أهانك

ورجع وأخبر رسول الله – صلى الله عليه وسلم – فقال – عليه الصلاة والسلام – : « تلك العزى ولن تعبد أبدًا » . وكانت مناة لهذيل وخزاعة ،وقيل : لبنى هلال ، فبعث رسول الله – صلى الله عليه وسلم – عليًا – كرم الله وجهه – فهدمها عام الفتح ، وسميت (مناة) ؛ لأن دماء الذبائح والنسائك كانت تمنى (تراق) عندها تقرباً إليها ، أو هى مأخوذة من النوء لأنهم كانوا يستمطرون عندها الأنواء تبركاً بها (الْأُخْرَىٰ):صفة ذم وهى المتأخرة الوضيعة ، وهى – أيضاً – تدل على ذم السابقتين (اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ) ، لأن أخرى تأنيث آخر تستدعى المشاركة مع السابق عليها فى الحكم ، وهو هنا الذل والوضاعة ونزول القدر والمكانة .

٢١ – (أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنثَىٰ) :

بعد أن سفه الله أحلامهم ووبخهم على ما اقترفوه من عبادة هذه الأصنام مع وضوح آثار عظمة الله فى ملكه وملكوته ، وجلاله وجبروته – بعد ذلك – أنحى عليهم مرة أخرى بالتقريع والتوبيخ لتفضيلهم أنفسهم على جنابه – عز وجل – حيث جعلوا له – سبحانه– الإناث التى يأنفون منها ، واختاروا لأنفسهم الذكور ، وكانوا يقولون : إن هذه الأصنام والملائكة بنات الله وكانوا يعبدونها ويزعمون أنها شفعاؤهم عند الله – تعالى – فقال لهم :

(أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنثَىٰ) أى : أيستقيم قولهم هذا لدى أرباب العقول السليمة والفطر المستقيمة ؟

٢٢ – (تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰ) :

أى : قسمتكم هذه قسمة جائرة ظالمة حيث اصطفيتم لأنفسكم الذكور ، وجعلتم لله الإناث ، ومن شأنكم أنكم تستنكفون من أن يولدن لكم وينسبن إليكم ، فضلا عن أن تجعلوا هؤلاء الإناث أندادًا لله وتسمونهن آلهة .

٢٣ – (إِنْ هِيَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَآبَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنفُسُ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ الْهُدَىٰ) .

(إِنْ هِيَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ) :

أى :ما الأصنام التى تدَّعون أنها آلهة-ما هى-إلا أسماءٌ ليس تحتها فى الحقيقة مسميات ، وما تزعمونه لها هو أمر أبعد شىء عنها ، وأشد منافاة لها ، فهى لاتدفع عن نفسها ولاتنفع ولا تضر غيرها (أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمْ) أى : قد تابعتم آباءكم وقلدتموهم فى عبادتها واتخاذها آلهة ، وهى ليست إلَّا مجرد تسميات لجمادات وضعتموها أنتم (مَّآ أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ) .

أى : ما هى إلَّا أسماء سميتموها بهواكم وشهوتكم ، ليس لكم على صحة تسميتها آلهة برهان ودليل من الله تتعلقون وتتمسكون به .

(إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنفُسُ) :المراد بالظن هنا : هو التوهم ، وشاع استعماله فيه ، أى : ما تتبعون ولا تسيرون إلَّا وراء وهم باطل حيث يدور فى خلدكم العليل وعقلكم السقيم أنَّ ما أنتم عليه حق ، وأن ما تزعمونه من آلهة تشفع لكم .

(وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ الْهُدَىٰ) :أى : والحال أن الله-سبحانه-قد أرسل إليكم رسوله -صلى الله عليه وسلم - تفضلا منه وإنعاماً عليكم يهديكم إلى الحق وإلى صراط مستقيم ، فكيف تتركون ما جاءكم من الهدى والرشاد إلى ما أنتم عليه من دين باطل واعتقاد فاسد .

٢٤ - (أَمْ لِلْإِنسَانِ مَا تَمَنَّىٰ) :

أى : بل ليس للإنسان مطلقاً ما يتمناه وتشتهيه نفسه يتصرف فيه حسب إرادته ، وهذا يقتضى نفى أن يكون للكفرة ما كانوا يطمعون فيه من شفاعة الآلهة والظفر بالحسنى لدى الله يوم القيامة ، قال تعالى - حكاية - عن بعض هؤلاء الكفار :

« وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّ لِي عِندَهُ لَلْحُسْنَىٰ » كما ينفى ما كانوا يشتهونه من نزول القرآن على رجل من القريتين عظيم ، أو يكون بعضهم هو النبى ونحو ذلك من أمانيهم الكاذبة الخادعة .

٢٥ - (فَلِلَّهِ الْآخِرَةُ وَالْأُولَىٰ) :

أى : هو سبحانه - وحده مالك الدنيا والآخرة يعطى منهما من يشاء ويمنع من يشاء وليس لأحد أن يعقب عليه فى شىء منهما ، بل ماشاء الله - تعالى - له كان ومالم يشأ لم يكن .

والله أعلم .

(وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِي شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ ﴿٢٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ لَيُسَمُّونَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ تَسْمِيَةَ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢٧﴾ وَمَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ ۖ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا ﴿٢٨﴾ فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱهْتَدَىٰ ﴿٣٠﴾)

المفردات :

(وَكَم مِّن مَّلَكٍ) كم هنا : اسم استفهام خبرى فلا يحتاج إلى جواب ، والمراد منه التكثير ، ومحله الرفع على الابتداء ، وخبره جملة (لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئاً) ومعناه : وكثير من الملائكة .

(لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰ) أى : لمن يشاء الله أن يشفع له الملائكة ويراه أهلا للشفاعة .

(يُسَمُّونَ الْمَلَائِكَةَ تَسْمِيَةَ الْأُنثَىٰ) بأن يقولوا : إنهم بنات الله ، « تَعَالَى اللهُ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا » .

(إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ) : ما يتبعون إلا التوهم الباطل .

(لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا) : لا ينفع الظن من الحق شيئاً من النفع .

(فَأَعْرِضْ عن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا) : اترك ولا تهتم بمن أعرض عن قرآننا .

التفسير

٢٦ - (وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي السَّمَاوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِن بَعْدِ أَن يَأْذَنَ اللهُ لِمَن يَشَاءُ وَيَرْضَىٰ) :

بهذه الآية يوبخ الله من عبد الملائكة والأصنام ، وزعم أن عبادتهم تقرب إلى الله تعالى ، فقد نبهت ودلت على أن الملائكة مع كثرة عبادتهم وكرامتهم على الله لاتملك أن تشفع إلا لمن أذن الله - تعالى - أن يشفعوا له من عباده ممن يستحق الشفاعة من الموحدين فكيف تطمعون أن يشفعوا لكم ، لأنكم تعبدونهم ؟ وَإذا كانت الملائكة المقربون إلى الله لاتشفع لكم فكيف تطمعون فى شفاعة الأصنام أيها المشركون .

ومعنى الآية على هذا : وكثير من الملائكة لا تنفع شفاعتهم شيئاً من النفع لأحد من عباده المذنبين إلا من بعد أن يأذن الله لهم فى الشفاعة لمن يشاؤه من عباده ويرضاه أهلا للشفاعة من أهل التوحيد ، وأما من عداهم من أهل الكفر والطغيان فالله لايأذن لأحد من الملائكة فى الشفاعة لهم ، أولا تكون منهم شفاعة أصلا إلا من بعد أن يأذن الله ...الخ . وأجاز بعضهم أن يكون معنى الآية : وكثير من الملائكة لا تنفع شفاعتهم إلا من بعد أن يأذن الله لمن يشاؤه منهم بالشفاعة ، ويراه أهلا لها .

٢٧ ، ٢٨ - (إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ لَيُسَمُّونَ الْمَلَائِكَةَ تَسْمِيَةَ الْأُنثَىٰ . وَمَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا) :

إن الذين لايصدقون بالبعث والحساب والجزاء فى الآخرة ليسمون الملائكة تسمية الأنثى ، فيقولون : هم بنات الله - تعالى الله عما يقولون علوًّا كبيرًا - وليس لهم بهذا الادّعاء من علم ، فإنه ليس عليه دليل عقلى ولانقلى ، ما يتبعون فى هذه التسمية إلَّا التوهم الباطل ، وإنه لا يغنى من الحق شيئاً من الإغناء .

وقد أنكر الله فى هاتين الآيتين أمرين ونفاهما :

أحدهما : دعوى أنوثتهم .

وثانيهما : أنهم بنات الله ، وقد توعدهم الله على ذلك فى سورة الزخرف فقال - سبحانه - : « وَجَعَلُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًا ، أَشَهِدُوا۟ خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَٰدَتُهُمْ وَيُسْـَٔلُونَ »(١) .

٢٩ ، ٣٠ - (فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا . ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱهْتَدَىٰ) :

اترك ولا تهتم أيُّها الرسول بمن أعرض عن ذكرنا المفيد للعلم بالحق ، وهو القرآن العظيم ، المشتمل على العقائد الصحيحة ، وعلى علوم الأولين والآخرين ، ولم يرد إلا الحياة الدنيا قاصرًا نظره عليها كالنضر بن الحرث ، والوليد بن المغيرة ، ولا تحرص على هداهم أكثر مما فعلت ، ولا تأس على القوم الكافرين ، ذلك الذى تقدم فى شأن عقيدتهم ، وقصر نظرهم على الدُّنيا وإنكارهم للآخرة هو منتهى ما وصلوا إليه من الإدراك والفهم ، إن ربك هو أعلم بمن انحرف عن السبيل الموصل إلى مرضاته ، وهو أعلم بمن اهتدى إليه ، فسوف يجزى كليهما بالجزاء الذى يستحقه .

---

(١) سورة الزخرف ، الآية : ١٩ .

(وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ بِمَا عَمِلُواْ وَيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُواْ بِٱلْحُسْنَى ﴿٣١﴾ ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ ﴿٣٢﴾)

المفردات :

(وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى) : ويجزى الذين اهتدوا بالمثوبة الحسنى .

(الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الإِثْمِ) الذين :خبر لمبتدأ محذوف ، أى :هم الذين يجتنبون .إلخ والجملة بيان لمن اهتدى ، وكبائر الإثم : ما عظم من الذنوب ويكبر عقابه .

(اللَّمَمَ) : ما صغر من الذنوب ، وأصله : ما قل قدره ، ومنه لمة الشَّعَر ، لأنها دون الوفرة .

(فَلَا تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ) : فلا تصفوها بالطهارة .

التفسير

٣١ - (وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى) :

أى : ولله وحده جميع ما فى السموات وما فى الأرض من أجزائهما وما استقر فيهما ، -له تعالى كل ذلك - خلقاً وملكاً وتصرفاً ، خلقهما وخلق ما فيهما ومَلَّكه ليجزى الذين أساءوا بعقاب ما عملوا ، ويجزى الَّذِين أحسنوا فآمنُوا وعملوا الصالحات بالمثوبة الحسنى .

٣٢ - ﴿الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ﴾ :

هذه الآية بيان للذين أحسنوا ومدح لهم ، فكأنه قيل : المحسنون هم الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش ولا يفعلونها ، ولكن قد يفعلون اللمم .

وكبائر الإثم : ما عظم من الذنوب ، ووصفها بعضهم بما ورد فيه وعيد شديد كالغيبة والنميمة ، والفواحش هي نفس الكبائر - كما ذهب إليه بعض العلماء - فعطفها على الكبائر لتقبيحها ، وذهب آخرون إلى التفرقة بينهما ، فالكبائر : ما ورد فيه وعيد شديد أو لعن بلا إقامة حدّ ، والفواحش : ما ورد فيها الحد كالزنى والسرقة والقتل بغير حق ، ويشبه هذا الرأى ما نقل عن مقاتل : كبائر الإثم : كل ذنب ختم بالنار ، والفواحش : كل ذنب فيه الحد .

واللَّمَمَ : ما يُلم به العبد من صغائر الذنوب ، ومثّل له أبو سعيد الخدرى بالنظرة ، والغمزَة ، والقبلة ، وفسره الرُّمّانى : بأنه هو الهم بالذنب وحديث النَّفْس دون ارتكاب له ، وعليه فالاستثناء فيه منقطع بمعنى : (لكن) قد يحدث منهم اللمم ، وعن ابن عباس : هو الرجل يُلِمُّ بالذنب ثم يتوب ، وبه قال مجاهد والحسن ، ودليل ذلك قوله - تعالى - : « وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ »[1] ثم قال : « أُولَٰئِكَ جَزَاؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ .. »[2] ودليله من الآية ﴿إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ﴾ وعليه يكون متصلا .

والآية عند الأكثرين تدل على انقسام المعاصى إلى كبائر وصغائر حقيقة كما تقدم [وقال جماعة من الأئمة منهم أبو إسحاق الإسفرايني والباقلانى وإمام الحرمين - قالوا - : إن المعاصى كلها كبائر ، وإنما يقال لبعضها كبيرة والأخرى صغيرة بالنسبة إليها ، وكلها قابلة للتوبة منها وتكفر بها ، وبهذا قال معظم المعتزلة . وقال بعض العلماء : إنه لا خلاف فى المعنى بين الرأيين ، فإنه لا خلاف بين العلماء فى أنّ من المعاصى ما يقدح فى العدالة ، ومنها مالا يقدح فيها ، وإنما سَمّوها كلها كبائر نظرًا لعظمة الله الذى لا يصح أن يعصى .

(١) سورة آل عمران ، من الآية : ١٣٥ .
(٢) سورة آل عمران ، من الآية : ١٣٦ .

وبعد هذا نقول : استفت قلبك وإن أفتاك الناس وأفتوك ، واحذر الصغائر فإنها مدرجة إلى الكبائر ، نسأل الله العصمة منها .

(إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ) حيث يغفر الصغائر بتجنب الكبائر ؛ بل ويغفر الكبائر بالتوبة منها .

(هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ فَلَا تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَىٰ) الله أعلم بكم أيها الناس حين أنشأكم من الأرض ، حيث خلق أباكم آدم من ترابها ، أو أنشأكم جميعاً منها ؛ فإن النطفة التى خلقكم منها ناشئة من الأغذية ، والأغذية منشؤها الأرض .

والله تعالى أعلم بكم وقت كونكم أجنة فى بطون أمهاتكم على أطوار مختلفة بعضها يلى بعضاً ، وإذا كان الأمر كذلك فلا تزكوا أنفسكم وتصفوها بالطهر من الإثم ، هو أعلم بمن اتقى المعاصى كما يعلم من فعلها ، فيجازى كلا على عمله ، إن خيراً فخير وإن شراً فشر .

وهذه الآية نزلت -على ما قيل- فى قوم من المؤمنين ، كانوا يعملون أعمالا حسنة ثم يقولون استعظاما لها وتكاثرا : صلاتنا وصيامنا وحجنا . وهذا مذموم منهى عنه إذا كان بطريق الإعجاب أو الرياء ، أما إذا لم يكن كذلك فلا بأس به ، ولذا قيل : المسرة بالطاعة طاعة ، وذكرها شكر .

(أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى تَوَلَّىٰ ﴿٣٣﴾ وَأَعْطَىٰ قَلِيلًا وَأَكْدَىٰٓ ﴿٣٤﴾)

المفردات :

(الَّذِى تَوَلَّىٰ) : الذى رجع معرضاً عن الإسلام بعد ما كان مقبلا عليه .

(وَأَكْدَىٰ) : أمسك ورجع عن الإسلام ، وأصله : بلغ الكُدْية : وهى الصخرة ، يقال لمن

يحفر الأرض وتصادفه كدية فيمسك عن الحفر - يقال له - : أكدى ، ثم استعمله العرب فيمن أعطى ولم يتمم العطاء ، ولمن طلب شيئاً ولم يبلغ آخره .

التفسير

٣٣ ، ٣٤ - (أَفَرَءَيْتَ الَّذِى تَوَلَّىٰ . وَأَعْطَىٰ قَلِيلًا وَأَكْدَىٰ)[١] :

هاتان الآيتان وما بعدهما مما يتصل بهما نزلت فى الوليد بن المغيرة ، وكان قد اتبع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - على دينه فعيَّره بعض المشركين وقال : لم تركت دين الأشياخ وضللتهم وزعمت أنهم فى النار ؟ فقال : إنى خشيت عذاب الله ، فضمن له أن يتحمل عنه عذاب الله إن أعطاه شيئاً من ماله ، فأعطاه ما كان قد وعده به ثم بخل بباقيه فنزلت .

وقال مقاتل : كان الوليد قد مدح القرآن ثم أمسك عنه فنزل (وَأَعْطَىٰ قَلِيلًا) أى : من الخير بلسانه ثم قطع ذلك وأمسك عنه ، وقيل غير ذلك .

ووجه صلة هذه الآيات بما قبلها : أنه - تعالى - لما بين فى الآيات السابقة جهل المشركين فى عبادة الأصنام ، ذكر فى هذه الآيات قصة أحد زعمائهم فى جهله ورجوعه عن الحق .

والمعنى : أفرأيت -أيها الرسول- هذا الذى رجع عن الحق ولم يثبت عليه ، وأعطى قليلا من مدح الإسلام والإقبال عليه ، وقطع العطاء فلم يستمر عليه ، بل رجع إلى شركه ودين قومه .

---

(١) « أفرأيت » الهمزة هنا : للتعجيب من سوء حال الذى تولى ، ورأيت : بمعنى علمت ، وأبصرت .

(أَمْ عِندَهُ عِلْمُ الْغَيْبِ فَهُوَ يَرَىٰ ﴿٣٥﴾ أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّىٰ ﴿٣٧﴾ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴿٣٨﴾ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾ ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَىٰ ﴿٤١﴾)

المفردات :

(يُنَبَّأْ) : يُعْلم ويُخْبر .

(وَفَّىٰ) : أتم ما أمر بتبليغه على أكمل وجه فى الوفاء .

(أن لَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ) أن : مخففة من الثقيلة ، واسمها ضمير الشأن ، أى : أنه ، والوِزْر : الحمل .

(سَوْفَ يُرَىٰ) : سوف يعرض عليه وعلى أهل القيامة ، من : أريته الشيء أى : جعلته يراه .

(ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَىٰ) قال الأخفش : يقال : جزيته الجزاء ،وجزيته بالجزاء سواء لا فرق بينهما .

التفسير

٣٥ - (أَعِندَهُ عِلْمُ الْغَيْبِ فَهُوَ يَرَىٰ) :

أى : أعند هذا الَّذِى أكدى علم بما غاب عنه من أمر عذاب الآخرة وأهوالها فهو يعلم أن صاحبه يتحمل عنه يوم القيامة ما يخافه ، أو معناه : فهو يرى أن ما سمعه من القرآن باطل .

٣٦ - ٣٨ - (أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِى صُحُفِ مُوسَىٰ • وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِى وَفَّىٰ • أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ) :

أى : بل ألم يخبر هذا الَّذِى تولى عن الإسلام وأعطى قليلا منه ولم يستمر عليه ، ألم يخبر بتوراة موسى وصحف إبراهيم الذى وفى ما كلف به ؟ فما أمره الله بشىء إلَّا فعله ، وما نهاه عن شىء إلَّا تركه - ألم يُخْبَر بما فى هذه الصحف - أن لا تحمل نفس حاملة حمل نفس أخرى من الذنوب ؟! فلا يؤاخذ أحد بذنب غيره ، ولا يعاقب إلَّا بذنب نفسه .

وأطلق على النفس لفظ وازرة « حاملة » لأن من شأنها حمل الذنوب ، سواء أكانت مذنبة أم لم تكن مذنبة .

فإن قيل : إن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال : « من سنَّ سُنَّةً سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة » فقد دل على أن الإنسان يحمل ذنب غيره ، فالجواب أنه فى ذلك يحمل ذنب إضلاله لغيره الذى هو ذنبه لاذنب سواه ، بالإضافة إلى ذنب نفسه ، أمَّا الآخر الذى قَلَّده فإنه يحمل ذنب ضلال نفسه .

وتخصيص صحف موسى وإبراهيم بالذكر دون سائر الأنبياء؛ لأن موسى أقرب أصحاب الشرائع إليهم ، وأن إبراهيم كان رسول الله إليهم ، ولا تزال بقية مما جاء به معروفة بينهم ، أما صحف غيرهما من الأنبياء فإنها لم تكن لها بقية لديهم .

وفى تفسير (أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ) قال الإمام ابن عباس - رضى الله عنهما - : كانوا قبل إبراهيم - عليه السلام - يأخذون الرجل بذنب غيره ، يأخذون الولى بالولى - أى : القريب بالقريب - فى القتل والجراحة فيقتل الرجل بذنب أبيه وابنه وأخيه وعمه وخاله وابن عمه ، والزوجة بزوجها ، وزوجها بها وبعبْدِهِ ، فبلغهم إبراهيم -عليه السلام- عن الله تعالى : (أَلَّا تَزِرُ نَفْسٌ وِزْرَ أُخْرَى) .

وقال الحسن وقتادة وسعيد بن جبير : « وفَّى » أى : عمل بما أمر به وبلغ رسالات ربه ، قال القرطبى : وهذا أحسن لأنه عام .

ونحن نقول : لاخلاف بينهم وبين ابن عباس فيما قالوه ، لأن ابن عباس لايقصد أنه اقتصر على تبليغهم ذلك ، فإنه بعض ما أمره الله تعالى به ووفاه ، ولذا قال تعالى فى شأنه :

٣٩ - ٤١ - (وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ . وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَىٰ . ثُم يُجْزَاهُ الْجَزَآءَ الْأَوْفَىٰ) :

أى : وجاء فى صحف موسى وإبراهيم - عليهما السلام - : أن عمل الإنسان سوف يراه حَاضِرُو القيامة ويطلعون عليه ، تشريفاً للمحسن وتوبيخاً للمسىء ، أو يعرض عليه ويكشف له يوم القيامة فى صحيفة أعماله .

وجاء فى هذه الصحف أيضاً أن الإنسان سوف يجزى يوم القيامة على سعيه وعمله الجزاء الأوفى .

(وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿٤٢﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ ﴿٤٣﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا ﴿٤٤﴾ وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ ﴿٤٥﴾ مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ ﴿٤٦﴾ وَأَنَّ عَلَيْهِ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُخْرَىٰ ﴿٤٧﴾)

المفردات :

(الْمُنتَهَىٰ) المراد به : انتهاء الخلق ورجوعهم إلى الله - تعالى - .

(مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ) أى : من نطفة إذا تصب وتدفق فى الرحم ، يقال : أمنى الرجل ومنى ، ومعناهما واحد ، وأصل النطفة فى اللغة : الماء القليل ، ثم أطلقت على المنى لقلته .

(النَّشْأَةَ الْأُخْرَىٰ) : الإحياء بعد الإماتة .

التفسير

٤٢ - (وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الْمُنتَهَىٰ) :

أى : أن الخلق ينتهون إلى الله - تعالى - ويرجعون إليه وحده لا إلى غيره ، حيث يحاسبهم فيثيب المحسن ويعاقب المسىء .

وقيل : معناه : أنه - عز وجل - منتهى الأفكار ، فلا تزال الأفكار تبحث فى حقائق الأشياء حتى إذا اتجهت إلى ذات الله وصفاته انتهى سيرها فلا تفكر فى ذلك وإلَّا هلكت ، وأيد هذا المعنى بما أخرجه البغوى عن أبى بن كعب عن النبى - صلى الله عليه وسلم - أنه قال فى الآية : « لا فكرة فى الرب » .

٤٣ - ٤٧ : (وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ . وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا . وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ . مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ . وَأَنَّ عَلَيْهِ النَّشْأَةَ الْأُخْرَىٰ) :

معنى هذه الآيات : أنه - تعالى - أضحك عباده وسرهم بما يبعث على فرحهم وسرورهم ، وأبكاهم بما يبعث على حزنهم وبكائهم ، ومن ذلك أنه - تعالى - وحده أمات الأحياء فأبكى من حولهم ، وأحياهم حين منَّ عليهم بالذرية فضحكوا عند ميلادهم ، وأنه - تعالى - خلق الزوجين الذكور والإناث من الإنسان وغيره - خلقهم من نطفة إذا تدفقت فى الأرحام ، وأنه - تعالى - سوف يحيى الموتى فى النشأة الأخرى ليحاسبهم ويجزى المحسن بالإحسان ، والمسىء بالإساءة وفاءً بوعده الذى لا يخلف ، وذلك لكى لا يتساوى المحسن والمسىء .

(وَأَنَّهُۥ هُوَ أَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ ﴿٤٨﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ رَبُّ ٱلشِّعْرَىٰ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّهُۥٓ أَهْلَكَ عَادًا ٱلْأُولَىٰ ﴿٥٠﴾ وَثَمُودَا۟ فَمَآ أَبْقَىٰ ﴿٥١﴾ وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ ﴿٥٢﴾ وَٱلْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ ﴿٥٣﴾ فَغَشَّىٰهَا مَا غَشَّىٰ ﴿٥٤﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ ﴿٥٥﴾)

المفردات :

(وَأَنَّهُ هُوَ أَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ) أى : أنه هو أغنى من شاء وأعطاه القنية ، وهى : ما يبقى من المال.

(الشِّعْرَىٰ) : ألمع كوكب وأضوؤه .

(عَادًا الْأُولَىٰ) : أولى القوم هلاكاً بعد قوم نوح ، وللكلام بقية فى التفسير .

(الْمُؤْتَفِكَةَ) : قرى قوم لوط ائتفكت بأهلها ، أى : انقلبت .

(أَهْوَىٰ) أى : أهواها الله - تعالى - إلى الأرض بعد أن رفعها .

(فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ) : فبأى نعم ربك تتشكك ؟ ! .

التفسير

٤٥ - (وَأَنَّهُ هُوَ أَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ) :

أى : وأنه - تعالى - هو وحده أغنى من شاء من عباده وأعطاهم القَنية ، وهى ما يبقى ويدوم من الأموال ، كالرياض والحيوان والبناء والتحف ،وإفراد ذلك بالذكر مع دخوله فى قوله -تعالى- : (أَغْنَىٰ) لأن القنية هى أشرف الأموال وأنفسها ، وعن ابن زيد والأخفش : معناهما : أغنى وأفقر ، ووُجِّه ذلك بأنَّهُمَا جعلا الهمزة للسلب والإزالة فى أقنى ، كما فى أشكى ، أى : أزال شكواه ؛ وقيل غير ذلك .

٤٦ - (وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشِّعْرَىٰ) :

الشعرى :كوكب قوى الإضاءة ، ويطلع بعد الجوزاء فى شدة الحر ، وأُطلق عليها لفظ العبُور ؛لأنها عبرت الحجرة فلقيت سهيلا ؛ كذا قيل ، وهما شِعْريان : الشعرى العبور ، والشعرى الغُمَيصاء ، ويقال : إن الشعرى أكبر من الشمس ، وإنما ترى أصغر منها لأنها بعيدة عنها بُعْدًا كبيرًا فى جو السماء ، ولهذا جاء ذكرها فى الآية ، فكان ذلك من آيات إعجاز القرآن .

وقيل : إنما ذكرت لأن العرب كانوا يعبدون شِعرَى العبور ، لأنها أكبر حجماً من شِعرى الغميصاء ، فقيل لهم : إنه - تعالى - هو رب الشعرى ومالكها ، فهو أحق بالعبادة منها .

قال السُّدِّى : عبدتْها حمير وخزاعة ، وقال غيره : أول من عبدها أبو كبشة ، رجل من خزاعة ؛ أو هو سيدهم ، واسمه وَجْز بن غالب .

ومن العرب من كان يعظمها ويعتقد تأثيرها فى العالم ، ويزعمون أنها تقطع السماء عرضاً ، وسائر النجوم تقطعها طولا ، ويتكلمون على المغيبات عند طلوعها ، ولكن هذا الفريق من العرب كان لا يعبدها ويقتصر على تعظيمها .

وجاء فى هامش المنتخب الذى أصدره المجلس الأعلى للشئون الإسلامية – جاء فيه – أن قدماء المصريين كانوا يعبدونها أيضاً ، لأن ظهورها من جهة الشرق حوالى منتصف شهر يوليو قُبَيْلَ شروق الشمس متفق مع زمن الفيضان فى مصر الوسطى ، أى : مع أهم حادث فى العام عندهم .

ولما كانت الشعرى لاتظهر قبيل شروق الشمس إلا مرة واحدة فى العام ، فلهذا جعلوا ظهورها أول العام الجديد . انتهى بتصرف يسير .

٥٠ – ٥٢ – (وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَىٰ . وَثَمُودَاْ فَمَآ أَبْقَىٰ . وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُواْ هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ) :

وصف القرآن الكريم عادًا المهلكة بأنَّهَا الأُولى ، والمراد من هذا الوصف : أنَّهَا أُولى الأُمم هلاكاً بعد قوم نوح – كما قاله جمهور المفسرين .

وقال الطبرى : وصفت بالأُولى لأن فى القبائل عادًا الأُخرى ، وهى قبيلة كانت بمكة مع العماليق ، وقال المبرد : عاد الأُخرى هى ثمود ، وقيل غير ذلك .

والمعنى : وأنه – تعالى – أهلك عادًا الأُولى لتكذيبهم رسولهم وبقائهم على الشرك بالله ، وأهلك ثمودًا فما أبقى أحدًا من كفارهما ، وأهلك كفار قوم نوح من قبل إهلاك عاد وثمود ، لأنَّهم كانوا أشد منهما ظلما للحق ولأنفسهم ، وأشد منهما طغياناً ، فإن نوحاً – عليه السلام – مكث يدعوهم إلى الحق ألف سنة إلَّا خمسين عاماً ، فلم يؤمن منهم سوى من ركبوا سفينته ، فهم الذين نجوا من الإهلاك بالطوفان .

٥٣ – ٥٥ – (وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ . فَغَشَّاهَا مَا غَشَّىٰ . فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ) :

أى : وأسقط قرى لوط إلى الأرض بعد أن رفعها إمعاناً فى تعذيبهم ، لأنَّهم كانوا مع

شركهم يأتون الرجال دون النساء ، ولم ينفع فيهم نصح لوط - عليه السلام - فَغَشَّى الله أهلها ما غشى من الحجارة التى رجمهم وغطاهم بها ، كما جاء فى قوله - تعالى - : « فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ »[1] فبأى نعم ربك تتشكك يا أيها الذى أعطى قليلا وأكدى .

(هَٰذَا نَذِيرٌ مِّنَ ٱلنُّذُرِ ٱلْأُولَىٰٓ ﴿٥٦﴾ أَزِفَتِ ٱلْءَازِفَةُ ﴿٥٧﴾ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ كَاشِفَةٌ ﴿٥٨﴾ أَفَمِنْ هَٰذَا ٱلْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ ﴿٥٩﴾ وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ ﴿٦٠﴾ وَأَنتُمْ سَٰمِدُونَ ﴿٦١﴾ فَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ وَٱعْبُدُوا۟ ﴿٦٢﴾)

المفردات :

(هَٰذَا نَذِيرٌ مِّنَ النُّذُرِ الْأُولَىٰ) : هذا القرآن منذرٌ لكم من نوع الكتب الأُولى التى أنذر بها الأنبياء .

(أَزِفَتِ الْآزِفَةُ) : قربت القيامة الموصوفة فى القرآن بقربها .

(كَاشِفَةٌ) : نفس قادرة على تبيين وقتها ، من الكشف بمعنى التبيين .

(الْحَدِيثِ) أى : القرآن .

(وَأَنتُمْ سَامِدُونَ) : وأنتم لاهون .

---

(١) سورة الحجر ، الآية : ٧٤ .

التفسير

٥٦ - (هَٰذَا نَذِيرٌ مِّنَ النُّذُرِ الْأُولَىٰ) :

لفظ (هذا) يشير إلى القرآن الكريم ، ومعنى الآية : هذا القرآن نذير لكم من جنس الكتب الأُولى التى جاء بها الرسل السابقون ، فإنها أنذرتهم من عذاب الله على شركهم كما أنذركم القرآن ، وبهذا الرأى قال قتادة .

وقيل : إنَّهُ يشير إلى نبينا محمد - صلى الله عليه وسلم - والمعنى : هذا النبى منذرٌ لكم ، من جنس الأنبياء المنذرين قبله ، فإن أطعتموه نجوتم من عذاب الله ، وإن خالفتموه لَحِق بكم ما حلّ بمكذبى الرسل السابقين .

وهذان الرأيان من أفضل ما قيل فى معنى الآية :

٥٧ ، ٥٨ - (أَزِفَتِ الْآزِفَةُ . لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ) :

أى : قربت الساعة الموصوفة بالقرب فى عدة مواضع من القرآن الكريم ؛ وقيل : لفظ الآزفة : عَلَمٌ بالغلبة على الساعة .

وقد أخبر الله - تعالى - أن هذه الآزفة ليس لها من غير الله نفس كاشفة ومبينة لوقت وقوعها ، لأنها من أخفى المغيبات ، فالكشف هنا بمعنى التبيين ، وهذا هو رأى الطبرى والزجاج ، وهذا التفسير موافق فى المعنى لقوله - تعالى - : « لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ »[1] هو من أحسن ما قيل فى معنى الآية .

والتَّاء فى (كَاشِفَةٌ) لتأنيث الموصوف المُقَدَّر ، وهو كلمة (نفس) التى ذكرناها فى معنى الآية ؛ وقيل : إن كلمة (كَاشِفَةٌ) مصدر من المصادر السماعية كالعافية وخائنة الأعين ، أى : ليس لها من دون الله كشف وتَبْيِين .

---

(١) سورة الأعراف ، من الآية : ١٨٧ .

٥٩ - ٦٢ - (أَفَمِنْ هَٰذَا الْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ . وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ . وَأَنتُمْ سَامِدُونَ . فَاسْجُدُوا لِلَّهِ وَاعْبُدُوا) :

الاستفهام فى لفظ (أَفَمِنْ هَٰذَا الْحَدِيثِ) للتوبيخ . والحديث : ما يتحدث به ، والمراد به هنا : القرآن ، ولفظ (سَامِدُونَ) معناها : لاهون - كما قال ابن عباس - واستشهد عليه بشعر هزيلة بنت بكر وهى تبكى قوم عاد :

ليت عادًا قبلوا الحـــق ولم يبـــدوا جحودًا

قيل قم فانظر إليهم ثم دَعْ عنك السمودا

وقال الضحاك : سامدون : شامخون متكبرون .

وفى الصحاح : سَمَد سُمُودًا : رفع رأسه تكبرًا ، وكل رافع رأسه فهو سامد ، وقيل غير ذلك .

ومعنى هذه الآيات : أفمن هذا القرآن الذى حدثتكم به تعجبون إنكارًا ، وتضحكون استهزاء وأنتم لاهون عنه ، غير مقبلين عليه ، فاسجدوا لله واعبدوه ، ولاتسجدوا لأصنامكم ومعبوداتكم .

سورة القمر

مقاصدها :

تحدثت هذه السورة عن قرب الساعة وإعراض المشركين عن الإيمان بها ، مع أنهم قد جاءهم من الأنباء ما فيه مزدجر ، وتحدثت عن تكذيب قوم نوح له وكفرهم بما جاءهم به ، فأغرقهم الله – تعالى – ، ثم عقبته بقوم عاد وتكذيبهم لرسولهم هود – عليه السلام – فأهلكهم الله بالريح الصرصر العاتية ، وذكرت بعده قصة ثمود ، وأنهم عوقبوا بصيحة واحدة جعلتهم كهشيم المحتظر ، لتكذيبهم رسولهم صالحاً – عليه السلام – وعقرهم الناقة التى جعلها الله آية لصدقه .

وجاءت بعدها قصة قوم لوط وعقابهم صباحاً بريح تحمل الحصباء ، وتقذفهم بها حتى هلكوا ، لأنهم كانوا يأتون الرجال من دون النساء مع شركهم .

وتلتها قصة آل فرعون الذى ادعى الألوهية فأغرقه الله مع جيشه الذى تبع بنى إسرائيل وهم هاربون من قتله لهم وتسخيرهم – تبعهم – ليردهم إلى مصر .

وذكرت عقب ذلك أن كفار قريش ليسوا خيراً من هؤلاء المهلكين ، فسيهزمهم الله ويولون الدبر ، وسوف يعذبهم الله فى الآخرة ، وأن عذابهم فيها أدهى وأمر من إهلاكهم فى الدنيا .

وبينت السورة أن كل شىء خلقه الله بقدر ، وما أمره فى الإتيان بالساعة إلا كلمح بالبصر ، وأن كل شىء فعلوه مثبت فى كتب أعمالهم ، يكتبها ملائكة جعلهم الله لكتابة أعمال العباد ، وختمت السورة بقوله – تعالى – : (إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ * فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكٍ مُقْتَدِرٍ) .

تفسير سورة القمر

هذه السورة مكية ، وآياتها خمس وخمسون

بسم الله الرحمن الرحيم

(اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ ﴿١﴾ وَإِن يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ﴿٢﴾ وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ ﴿٣﴾ وَلَقَدْ جَاءَهُم مِّنَ الْأَنبَاءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ﴿٤﴾ حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ فَمَا تُغْنِ النُّذُرُ ﴿٥﴾)

المفردات :

(السَّاعَةُ) : القيامة .

(سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ) : دائم .

(وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ) وكل أمر من الأمور منته إلى غاية يستقر عندها .

(مُزْدَجَرٌ) : ازدجار ومنعٌ من القبائح .

(حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ) أى : واصلة إلى غاية الإحكام .

(فَمَا تُغْنِي النُّذُرُ) : فما يفيد المنذرون لهؤلاء ، والنذر :جميع نذير ،بمعنى منذر ، وكلمة (ما) فى قوله تعالى : (فَمَا تُغْنِي النُّذُرُ) إمَّا نافية فتكون حرفاً ، أو استفهامية للإنكار والتوبيخ فتكون اسماً .

التفسير

١ - (اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ) :

هذه السورة تبين مواقف الكفار فى مواجهة الحق مثل التى قبلها ، والمراد من اقتراب الساعة شِدَّةُ قربها ، وذلك بنسبة ما بقى من عمر الدنيا إلى ما مضى منه ، فالباقى منها قليل وإن مضى أكثر من أربعة عشر قرناً بعد نزول هذه الآية ، والله - تعالى - هو وحده الذى يعلم مقدار ما مضى من عمرها منذ إنشاء الخليقة ، فقد يكون ملايين السنين ، وقد جاء من حديث رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ما يشير إلى ذلك ، روى قتادة عن أنس قال : خطب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وقد كادت الشمس تغيب فقال : « ما بقى من دنياكم فيما مضى إلا ما بقى من هذا اليوم » وما نرى من الشمس إلا يسيرا . ولا صحة لما روى عن كعب ووهب ، وهو أن عمر الدنيا ستة آلاف سنة ، مضى منها خمسة آلاف وستمائة ، فهذا رجم بالغيب ولم يُرْوَ عن المعصوم - صلى الله عليه وسلم - ولأن الباقى من عمرها على ما قالوا هو أربعمائة سنة ، مع أنه قد مضى بعد نزول الآية أكثر من أربعة عشر قرناً ، وذلك يوضح كذب هذا الخبر .

وانشقاق القمر حقيقة وقعت قبل هجرة النبى - صلى الله عليه وسلم - فقد صح من رواية الشيخين وابن جرير عن أنس : (أن أهل مكة سألوه - عليه الصلاة والسلام - أن يريهم آية ، فأراهم القمر شقتين ، حتى رأوا حراء بينهما) .

وفى الصحيحين وغيرهما من حديث ابن مسعود : انشق القمر على عهد رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فرقتين ، فرقة على الجبل ، وفرقة دونه ، فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « اشهدوا » .

ومن حديثه أيضاً : « انشق القمر على عهد رسول الله - عليه الصلاة والسلام - فقالت قريش : هذا سحر ابن أبى كبشة ، فقال رجل : انتظروا ما يأْتيكم به السُّفَّار ، فإن محمدا لايستطيع أن يسحر الناس كلهم ، فجاء السُّفَّار فأَخبروهم بذلك » رواه أبو داود الطيالسى

وفي رواية البيهقي : فسألوا السفار وقَدْ قَدِموا من كل وجه ، فقالوا : رأيناه : فأنزل الله - تعالى - : (اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ) .

وقد أجمع جمهور المحدثين والمفسرين على أن الانشقاق حقيقة ، قال القرطبي : ثبت ذلك في صحيح البخاري وغيره ، من حديث ابن مسعود وابن عمر ، وأنس ، وجبير ابن مطعم ، وابن عباس - رضي الله تعالى عنهم - ثم قال : وقال قوم : لم يقع انشقاق القمر بَعْدُ ، وهو منتظر ، أي : قرب وقوعه ، يقول الماوردي تقريرًا لعدم وقوعه : إنه إذا انشق ما بقي أحد إلا رآه لأنه آية ، والناس في الآيات سواء .

وقيل معناه : وضح الأمر وظهر ، والعرب تضرب بالقمر مثلا فيما وضح . ثم قال القرطبي :

قلت : قد ثبت بنقل الآحاد العدول أن القمر انشق بمكة ، وهو ظاهر التنزيل ، ولا يلزم أن يستوي الناس في رؤيته ، لأنها كانت آية ليلية ، وأنها كانت باستدعاء النبي - صلى الله عليه وسلم - من الله عند التحدي ...[1] إلى آخر ما قاله القرطبي .

ونحن نقول : إنه آية وحقيقة مرئية ، بدليل قوله - تعالى - عقب ذلك ما يلي :

٢ - (وَإِن يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ) :

فهذه الآية ناطقة بأنهم رأوا انشقاق القمر ، ووصفوه بأنه سحر مستمر . أي : متتابع ، وهو ظاهر في ترادف معجزاته - صلى الله عليه وسلم - وقد اختلف في تفسير كلمة (مُسْتَمِرٌّ) فقيل : معناه دائم ، وقيل : معناه ذاهب ، قاله أنس وقتادة ومجاهد والفراء وغيرهم ، واختاره النحاس ، وهو يفيد أنهم يتعللون بذهابه تسلية لأنفسهم ، وقال أبو العالية والضحاك معناه : محكم قوي شديد ، من المِرَّة ، وهي القوة ، وقيل غير ذلك ، والمعنى : وإن تُشاهِد قريش علامة وبرهاناً على صدق محمد - صلى الله عليه وسلم - يعرضوا عن الإيمان بنبوته ، ويقولوا : هذا سحر ؛ فإنه لابقاء له ، مع أن هذه الآية من أقوى الأدلة على نبوته ، وإن مثلها كمثل

---

(١) ويجاب أيضا بأن الانشقاق في وقت الغفلة ، فلم يكن مهمًا بأمره سوى قريش ، وقد ذهب الناس إلى مضاجعهم فقريش هم الذين رأوه وقت التحدي ، ولأن زمن الانشقاق كان قليلا ، ورؤية القمر في بلد لاتستلزم رؤيته في غيره ، لاختلاف المطالع ، فقد يكون القمر مرئيا في بلد ولكنه لا يرى في بلد آخر ، لأن الأرض كروية ، إلى غير ذلك مما ذكره الآلوسي ، فارجع إليه فإنه وفى المقام حقه .

انشقاق البحر لبنى إسرائيل حتى عبروا على أرض يابسة ، والماء على أيمانهم وشمائلهم ، لايصيبهم منه شيء ، وكذلك شأن آيات المرسلين ، فهى خارقة للعادة ، لايمكن للبشر أن يأتوا بمثلها ، حتى تكون آية ومعجزة أيدهم الله بها ، للدلالة على صدقهم .

٣ - (وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ وَكُلُّ أَمْرٍ مُسْتَقِرٌّ) :

وكذبت قريش هذه الآية ، واتبعوا أهواءهم فى تكذيبهم إياها ، مع أنها واضحة الدلالة على صدقه ، وكل أمر من الأمور منته إلى غاية يستقر عليها لا محالة ، ومن حجتها أمر النبى - صلى الله عليه وسلم - فسوف يمضى إلى غاية يتبين عندها حقيقته وعلو شأنه ، ولن ينجح عنادهم فى إبطال أمره ، ومنع استقراره .

٤ ، ٥ - (وَلَقَدْ جَاءَهُم مِّنَ الْأَنبَاءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ . حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ فَمَا تُغْنِ النُّذُرُ) :

أى : وبالله لقد جاء قريشاً فى القرآن من أخبار الأولين وأخبار الساعة ، مافيه ازدجار وانتهاء عَمَّا هُمْ فيه من الضَّلال والقبائح . هو حكمة واصلة إلى غاية الإحكام لاخلل فيها « وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافاً كَثِيرًا »[1] ولكنهم أصروا على الكفر والتكذيب ، فأىّ إغناء تغنيه النذر عنهم ، وأية فائدة تحصل لهم .

والنُّذُر : جمع نذير ، بمعنى منذر .

(فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَىٰ شَيْءٍ نُّكُرٍ ﴿٦﴾ خُشَّعًا أَبْصَٰرُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ﴿٧﴾ مُّهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ يَقُولُ الْكَٰفِرُونَ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ ﴿٨﴾)

(١) سورة النساء ، من الآية : ٨٢ .

المفردات :

(فَتَوَلَّ عَنْهُمْ) : فأعرض عنهم .

(الدَّاعِ) الداعى : هو إسرافيل – عليه السلام – وقيل : غيره .

(إِلَىٰ شَيْءٍ نُّكُرٍ) النكر : بمعنى المنكر الفظيع ، وهو أهوال يوم القيامة .

(خُشَّعًا أَبْصَارُهُمْ) أى : ذليلة ، والمراد ذليلة نفوسهم ، لأن خشوع الأبصار ناشىء عن خشوع النفوس ، فهو كناية عنه .

(الْأَجْدَاثِ) : القبور ، وهو جمع جَدَث .

(مُّهْطِعِينَ) : مسرعين مادين أعناقهم .

التفسير

٦ – ٨ – (فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَىٰ شَيْءٍ نُّكُرٍ . خُشَّعاً أَبْصَارُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ . مُّهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ) :

الأمر فى قوله – تعالى – : (فَتَوَلَّ عَنْهُمْ) مترتب على ما قبله من عدم إفادة النُّذُر لهم ، ولذا قُرِن بالفاء التى هى لترتيب ما بعدها على ما قبلها ، وكأنه قيل : إذا كانت النذر لا تغنى عنهم ولا تفيد فأعرض عنهم واترك الاهتمام بهم ، والأسى على عدم إيمانهم ، فقد أديت الرسالة ووفيت الأمانة فلا تذهب نفسك عليهم حسرات .

وليس الغرض منه الأمر بترك تبليغ الرسالة لهم ، فإنه – صلى الله عليه وسلم – ظل يدعوهم إلى الحق قبل الهجرة وبعدها ، حتى آمنوا جميعاً فى العام الهجرى الثامن ، فالغرض منه أن لا يبالى بكفرهم ، وقد عقَّب الله هذا الأمر بوعيدهم بعذاب الآخرة بقوله : « يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَىٰ شَيْءٍ نُّكُرٍ » أى : اذكر لهم يوم ينادى المنادى إلى شىء منكر فظيع ، قال الآلوسى : يكنى بالنُّكر عن الفظيع (خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ) ذليلة نفوسهم ، يخرجون من القبور كأنهم فى كثرتهم وانتشارهم فى كل مكان – كَأَنَّهُمْ – جراد منتشر – يخرجون – مسرعين إلى الداعى ، مادين أعناقهم خوفاً وهلعاً ، يقول الكافرون من شدة الهول وسوء المنقلب – يقولون – : هذا يوم صعب شديد . نسأل الله السلامة .

* (كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ ﴿٩﴾ فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ ﴿١٠﴾ فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ ﴿١١﴾ وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴿١٢﴾ وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ ﴿١٣﴾ تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِمَنْ كَانَ كُفِرَ ﴿١٤﴾ وَلَقَدْ تَرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ ﴿١٥﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿١٦﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ ﴿١٧﴾)

المفردات :

(وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ) أى : وصفوا نوحًا ــ عليه السلام ــ بالجنون وزجروه عن التبليغ بأنواع الأذية والتخويف .

(فَانْتَصِرْ) : فانتقم لى منهم . (بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ) : كثير متتابع ، يقال : همره يهمِره ويهمُره بكسر ميم المضارع وضمها : صبّه . فهمر وانهمر .

(عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ) أى : قد قضاه الله أزلا ، وهو هلاكهم بالطوفان .

(عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ) . على سفينة ذات ألواح عريضة ومسامير تثبت بها تلك الألواح ، ودسر جمع دِسار أو دَسْر : وهو المسمار .

(بِأَعْيُنِنَا) : بكلاءة وحفظ منا .

(وَلَقَد تَرَكْنَاهَا آيَةً) أى : أبقينا خبرها أمرا داعيا للعظة والاعتبار .

(فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ) أى : فهل من معتبر بتلك الآية ؟ والأصل مدتكر : أبدلت التاء دالا وأدغمت الدال فى الدال ، وقيل غير ذلك فى أصلها .

التفسير

٩ - ١٧ - (كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا۟ عَبْدَنَا وَقَالُوا۟ مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ . فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَغْلُوبٌ فَانتَصِرْ . فَفَتَحْنَآ أَبْوَابَ السَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ . وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ . وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ . تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا جَزَآءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ . وَلَقَد تَّرَكْنَٰهَآ ءَايَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ . فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ . وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ) :

شروع فى تعداد بعض ماذكر من الأنباء الموجبة للازدجار ، وتفصيل لها ، وبيان عدم تأثرهم بها تقريراً لما يشير إليه قوله - تعالى - : (فَمَا تُغْنِى النُّذُرُ) .

والمعنى : كذب قبل أهل مكة قومُ نوح فكذبوا عبدنا نوحاً - عليه السلام - تكذيباً إثر تكذيب كلما خلا منهم قرن مكذّب جاء عقيبه منهم قرن آخر مكذب مثله .

وقيل : معنى (كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ) ابتدأت التكذيب ، ومعنى (فَكَذَّبُوا۟ عَبْدَنَا) أتموه وبلغوا نهايته . أو : لما كانوا مكذبين للرسل جاحدين للنبوة رأساً كذبوا نوحاً لأنه من جملة الرسل ، والفاء - عليه - للسببية ، وفى ذكره - عليه السلام - بعنوان العبودية مع الإضافة إلى نون العظمة تفخيم له وتشنيع على مكذبيه الذين لم يقتصروا على مجرد التكذيب ، ولم يقنعوا به بل دفعهم حقدهم وسوء طويتهم إلى أن ينسبوه إلى الجنون حيث قالوا عنه : إنه مجنون ؛ يقول مالا يقبله عاقل ، وزجروه عن تبليغ الرسالة بأنواع الأذية والتخويف ، والوعيد الشديد فقالوا له : « لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰنُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ » (1) .

ولما استحكم يأسه من استجابتهم له بعد أن دعاهم ليلاً ونهارًا ، وسرًا وعلنا لجأ إلى ربه فدعاه قائلا : (أَنِّى مَغْلُوبٌ) من جهة قومى ، مالى قدرة على الانتقام منهم (فَانتَصِرْ) لى

(١) سورة الشعراء ، الآية : ١١٦ .

بإعانتى عليهم وتمكينى من الإيقاع بهم ، وذلك بعد أن صبر على إيذائهم له طويلا .
روى أن الواحد منهم كان يلقاه فيخنقه حتى يخرّ مغشيًّا عليه ويقول : اللهم اغفر لقومى فإنهم لا يعلمون . وقد استجاب ــ سبحانه وتعالى ــ لدعائه بما أشار إليه قوله ــ جل وعلا ــ : (ففتحنا أبواب السماء - أى : السحاب ــ بماء منهمر) أى : كثير منصب ، وهذا كناية عن كثرة الأمطار وشدة انسيابها من السحاب حتى كأنها أنهار تفتحت بها أبواب السماء ، وإلى ذلك ذهب الجمهور ، ومما يدعو إلى العجب أنهم كانوا يطلبون المطر سنين فأهلكهم الله بما طلبوا جزاء تمردهم والتمادى فى تكذيبهم للرسل ، وكما فتحت أبواب السماء بماء منهمر استجابة لدعوته ــ عليه السلام ــ كذلك فجرت الأرض عيوناً بأن جعلت كلها كأنها عيون متفجرة ، وهذا أبلغ فى الدلالة على كثرة الماء وغزارته . وقد اشتد بهم الهول ، وعظم الفزع حينما التقى ماء السماء وماء الأرض على حال قدرت وسويت ، وهى قدر ما أنزل على قدر ما أخرج ، كما قال ــ سبحانه ــ : (فَالْتَقَى الْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ) أى : على مقدار لم يزد أحدهما على الآخر ، أو المعنى : فالتقى الماء على أمر قدره الله فى اللوح المحفوظ وهو إهلاك قوم نوح بالطوفان . وهذا المعنى خير من سابقه وأظهر .

(وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ) أى : وحملنا نوحاً ومن آمن معه على سفينة ذات ألواح عريضة شد بعضها إلى بعض بمسامير ، وقال الليث : الدسار : خيط من ليف تشد به ألواح السفينة ، ولعله بعض الحشو الذى يوضع بين الألواح ، ثم يطلى بالقار ليمنع دخول الماء . (تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا جَزَآءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ) وقدرنا لهذه السفينة أن تجرى فى ذلك الماء المتلاطم الأمواج بحفظنا ورعايتنا وجعلنا ذلك جزاءً وثواباً لنوح ــ عليه السلام ــ ، لأنه كان نعمة ورحمة لقومه كفروها وجحدوا فضلها . وقرىء : جزاء لمن كان كَفَرَ ، بالبناء للفاعل ، أى : الإغراق جزاء للكافرين (وَلَقَد تَّرَكْنَٰهَآ ءَايَةً) أى : أبقينا خشب السفينة على الجودى زمناً طويلاً حتى رآها أوائل هذه الأمة كما روى عن قتادة والنقاش ، أو أبقينا خبرها أو جنسها بإبقاء السفن ، كقوله ــ تعالى ــ : « وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِۦ مَا يَرْكَبُونَ »[1] . وذلك للعظة والاعتبار . وجوز أن يكون الضمير فى

---

(١) سورة يس ، الآيتان ٤١ ، ٤٢ .

قوله : (وَلَقَد تَّرَكْنَاهَآ ءَايَةً) للفعلة التي فعلناها ، وهي إنجاء نوح ومن معه وإهلاك الكافرين « فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ » أي : فهل من متعظ يتعظ ويعتبر بتلك الآية الجديرة بالاعتبار والاتعاظ (فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ) استفهام تعظيم وتعجيب ، بمعنى كان عذابي الواقع بهم وإنذاري لهم على كيفية هائلة لايحيط بها الوصف ، وذلك لتكذيبهم رسلي وإنكارهم آياتي .

(وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ) جملة قسمية وردت في آخر هذه القصة والقصص الثلاث التي تليها [1] تقريراً لمضمون ما سبق من قوله - تعالى - : (وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّنَ الْأَنبَآءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ * حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ فَمَا تُغْنِ النُّذُرُ) وتنبيهاً على أن كل قصة منها مستقلة بإيجاب الادكار كافية في الازدجار ، ومع ذلك لم تقع واحدة في حيز الاعتبار ، أي : وتالله لقد سهلنا هذا القرآن على قومك حيث أنزلناه بلسانهم وجمعنا فيه أنواع المواعظ الشافية ، والعبر الزاجرة ، والوعد والوعيد للتذكر والاتعاظ . ومع كل هذه الدوافع الداعية إلى الاهتداء أعرضوا عنها وضلوا ضلالاً بعيداً ، ويشير إلى ذلك قوله - تعالى - :(فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ) أي : فلا يوجد في قريش من يتعظ ويتذكر ، فالاستفهام هنا للإنكار والنفي على أبلغ وجه وآكده . وقيل في معنى هذه الآية : ولقد سهلنا القرآن للحفظ وأعنَّا عليه من أراد حفظه فهل من طالب لحفظه ليعان عليه ؟

روى أن أهـــل الأديان لايتلون كتبهم مثل التوراة والإنجيل والزبور إلا نظرا ، ولا تحفظ في الصدور ، وعلى الألسنة كالقرآن ، وعن ابن عباس : لولا أن الله يسره على لسان الآدميين ما استطاع أحد من الخلق أن يتكلم بكلام الله تعالى .

---

(١) قصة عاد ، وقصة ثمود ، وقصة قوم لوط .

(كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿١٨﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ ﴿١٩﴾ تَنزِعُ ٱلنَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ ﴿٢٠﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٢١﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٢٢﴾)

المفردات :

(رِيحًا صَرْصَرًا) أى : ريحاً باردة ،وقيل :هى الشديدة الصوت ،قال صاحب القاموس : وريح صر وصرصر : شديدة الصوت ، أو الباردة .

(فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ) أى : فى يوم شؤم عليهم وشر استمر فيهم بنحوسته وعذابه حتى الهلاك .

(كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ) أى : أصول نخل بدون فروع ،منقلع عن مغارسه ساقط على الأرض ، يقال :قعر النخلةَ -كمنع- :قلعها من أصلها فانقعرت .والنخل :اسم جمع يذكر ويؤنث .

التفسير

١٨ - ٢٢ -(كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ * إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ * تَنزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ * فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ * وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَل مِّن مُّدَّكِرٍ) :

شروع فى قصة أُخرى ، ولم تعطف ،وكذا ما بعدها من القصص إشارة إلى استقلال كل قصة فى القصد والاعتبار والاتعاظ ، ولم يتعرض لكيفية تكذيبهم قصدًا إلى الاختصار ومسارعةً إلى بيان ما فيه الازدجار من العذاب ، وقوله -سبحانه- فى بدء القصة :(فَكَيْفَ كَانَ

عَذَابِي وَنُذُرِ) لتوجيه السامعين نحو الإصغاء إلى ما يلقى عليهم فى تعذيب عاد قبل ذكره كأنه قيل : كذبت عاد ، فهل سمعتم؟ أو فاسمعوا يا أهل مكة كيف كان عذابى وإنذارى لهم بالعذاب . ثم بين ما أجمل فى عقابهم بقوله - تعالى - : (إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ) أى : أرسلنا عليهم ريحاً باردة - كما روى عن ابن عباس وقتادة والضحاك - وقيل : أرسلنا عليهم ريحاً شديدة الصوت ، وكان ذلك فى يوم شؤم مستمر ، والمراد به مطلق الزمان لقوله - تعالى - : « فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحاً صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ »[1] وقوله تعالى : « سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُوماً »[2] وقد استمر هذا الشر حتى أهلكهم جميعاً ، ولم تبق منهم باقية ، وقد روى أنهم دخلوا الشعاب والحفر وأمسك بعضهم ببعض فنزعتهم الريح وصرعتهم موتى ، كأنهم أصول نخل بدون فروع منقلع عن مغارسه وملقى على الأرض ، وقد شبهوا بأعجاز النخل لطول قاماتهم (فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ) تهويل وتعظيم للعذاب والنُّذُر ، وتعجب من أمرهما بعد بيانهما . فليس فيه شائبة تكرار مع ما سبق فى هذه القصة .

(وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ ..) الآية ، أى : سهلناه للتذكر والاتعاظ ، أو للحفاظ . وقد سبق .

(كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ ﴿٢٣﴾ فَقَالُوٓا۟ أَبَشَرًا مِّنَّا وَٰحِدًا نَّتَّبِعُهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ ﴿٢٤﴾ أَءُلْقِىَ ٱلذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنۢ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ ﴿٢٥﴾ سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَّنِ ٱلْكَذَّابُ ٱلْأَشِرُ ﴿٢٦﴾)

(١) سورة فصلت ، من الآية : ١٦ .

(٢) سورة الحاقة ، من الآية : ٧ .

المفردات :

(كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ) أى : بما سمعوه من نبيهم من الإنذارات والمواعظ .

(وَاحِدًا نَّتَّبِعُهُ) أى : واحدًا من آحادهم لامن أشرافهم .

(لَفِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ) أى : لفى بعد بين عن الحق . وسُعُر :جمع سعير وهى النّار المشتعلة أو الجنون .

(بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ) أى :بل هو شديد الكذب متكبر بطر ، والبطر :دهش يعترى الإنسان من سوء احتمال النعمة وقلة القيام بحقها وصرفها إلى غير وجهها .

التفسير

٢٣ ـ ٢٦ ـ (كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ . فَقَالُوٓا۟ أَبَشَرًا مِّنَّا وَاحِدًا نَّتَّبِعُهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ . أَءُلْقِىَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنۢ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ . سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَّنِ الْكَذَّابُ الْأَشِرُ) :

استئناف لبيان قصة صالح ـ عليه السلام ـ .

والمعنى : كذبت ثمود بالإنذارات والمواعظ التى سمعوها من نبيهم ، أو كذبوا بالرسل ـ عليهم السلام ـ فإن تكذيب أحدهم وهو صالح تكذيب لجميعهم لاتفاقهم على أصول الشرائع ، وعلى هذا فالنذر جمع نذير ، بمعنى منذر ، ثم تعجبوا من إلقاء الوحى عليه خاصة دونهم فقالوا إنكارًا له :أبشرًا من جنسنا نتبعه ، متفردًا ليس له أتباع ولا نصراء يشدون أزره ويدفعون عدوه ،أو واحدًا من آحادنا لا من أشرافنا كما يفهم من التنكير ، فإذا اتبعناه مع كونه بشرًا واحدًا ونحن أمة جمة إنا إذا اتبعناه وهو على هذا الحال لفى بُعْد واضح عن الصواب ، وجنون بيِّن لأن ذلك بمعزل عن مقتضى العقل ،أو كنا فى ضلال وسعر ، أى :نيران ، جمع سعير ، وهى النار ، يقصدون المبالغة ، وروى أن صالحًا كان يقول لهم : إن لم تتبعونى كنتم فى ضلال عن الحق وسعر ،أى :نيران ،فعكسوا عليه لغاية عتوهم فقالوا : إن اتبعناك كنا إذًا كما تقول ،ثم زادوا فى إنكارهم وجحدهم لرسالته وتكذيبهم له حيث قالوا :أألقى عليه الكتاب والوحى من بيننا وفينا من هو أحق وأولى منه بالنبوة؟!وهو استفهام معناه الإنكار ،ومرادهم

أن الأمر ليس كذلك ، بل هو متجاوز الحد في الكذب شديد البطر . وهو على ما قاله الراغب : «الأشر شدة البطر» والبطر : دهش يعترى الإنسان من سوء احتمال النعمة وقلة القيام بحقها وصرفها إلى غير وجهها ، ويقاربه في المعنى الطرب ، وهو خفة أكثر ماتعترى الإنسان في الفرح ، والتعبير بالإلقاء يتضمن العجلة في إعطائه النبوة دون تدرج ، وقوله تعالى : (سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَّنِ الْكَذَّابُ الْأَشِرُ) حكاية لما قاله سبحانه لنبيه صالح - عليه السلام - وعدًا له ، ووعيدًا لقومه ، أي : سيعلمون عن قريب عند نزول العذاب بهم أو يوم القيامة من هو الكذاب الأشر الذى حمله أشره وبطره على ما ادعاه ، أهو صالح أم من كذبه ؟ والمراد أنهم سيعلمون لا محالة أنهم هم الكذابون الأشرون وقد أورد ذلك مورد الإبهام إيماء بأنه لا يكاد يخفى .

والإتيان بالسين في قوله : (سَيَعْلَمُونَ) لتقريب مضمون الجملة وتأكيده .

(إِنَّا مُرْسِلُوا النَّاقَةِ فِتْنَةً لَّهُمْ فَارْتَقِبْهُمْ وَاصْطَبِرْ ﴿٢٧﴾ وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ ﴿٢٨﴾ فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ ﴿٢٩﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٣٠﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ ﴿٣١﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٣٢﴾)

التفسير :

(إِنَّا مُرْسِلُوا النَّاقَةِ) أي : مخرجوها وباعثوها من الصخرة الملساء (فِتْنَةً لَّهُمْ) : ابتلاء واختبارًا .

(فَارْتَقِبْهُمْ) : فانتظر ما يؤول إليه أمرهم .

(وَاصْطَبِرْ) : اصبر على أذاهم حتى يأتي أمر الله .

(كُلُّ شِرْبٍ مُحْتَضَرٌ) :كل حصة ونصيب من الماء يحضرها من كانت له .

(فتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ) أى : فتناول السيف فعقر الناقة بضرب قوائمها . قيل : لا يطلق العقر فى غير ضرب القوائم ، وربما قيل : عقره : إذا نحره .

(صَيْحَةً وَاحِدَةً) : هى صيحة جبريل – عليه السلام – .

(كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ) أى : كالعشب اليابس الذى يجمعه صاحب الحظيرة لماشيته فى الشتاء ، وقيل : الهشيم :ما تساقط وتفتت من الشجر الذى أقيمت به الحظيرة وهى التى تقيمها العرب وأهل البوادى للمواشى والسكنى من القصب وأغصان الشجر .

التفسير

٢٧ – ٣٢ – (إِنَّا مُرْسِلُوا النَّاقَةِ فِتْنَةً لَّهُمْ فَارْتَقِبْهُمْ وَاصْطَبِرْ . وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ الْمَآءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ . فَنَادَوْاْ صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ . فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ . إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُواْ كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ .وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ) :

استئناف لبيان حصول الموعود به حتماً .

والمعنى : إنا باعثو الناقة ومخرجوها ناقة عشراء من الصخرة الصماء كما سألوا – إنا باعثوها – لتكون حجة وآية على صدق صالح – عليه السلام – فيما جاءهم به واختباراً لهم ، وقد سألوا ذلك على سبيل الاستهزاء ،فانتظرْ يا صالح ما يؤدى إليه أمرهم وتبصّر عواقبهم . ولا تعجل حتى يأتى أمر الله وهو ناصرك عليهم ، وأعلمهم بأن ماء البئر التى لهم يكون بينهم وبينها كل نصيب وحظ منه محضور يحضره صاحبه فى نوبته ، فتحضره الناقة يوم وردها ، ويحضرونه يوم وردهم . وقيل : يحضرون الماء فى نوبتهم واللبن فى نوبتها . قال ابن عباس : إذا كان يوم شربهم لا تشرب الناقة شيئاً من الماء وتسقيهم لبناً وكانوا فى نعيم ، وإذا كان يوم الناقة شربت الماء كله فلم تبق لهم شيئاً واستمروا على هذه الوتيرة من القسمة وقتاً ، ولكنهم ملّوها وأرادوا التخلص منها ،فنادوا صاحبهم وهو قُدار بن سالف، قال ابن إسحاق :فكمن لها فى

أصل شجرة على طريقها فرماها بسهم فخرت، ورغت رغاء شديدا تَحدَّر سقَبها[١] من بطنها ثم نحرها، ويشير إلى ذلك قوله -تعالى- : (فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ) أى : فاجترأ على الأمر العظيم أشقى قومه غير مكترث به فأحدث العقر بالناقة وتناوله. وقيل : فتعاطى الناقة فعقرها أو السيف فقتلها . والتعاطى :تناول الشيء مطلقًا أو بتكلف، وإنما قيل فى آية أخرى : « فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا »[٢] بإسناد العقر إليهم جميعًا لرضاهم به ، أو لأنه بمعونتهم.

وقوله -سبحانه- : « فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ » لتوجيه قلوب السامعين إلى ما يلقى إليهم قبل ذكره ،وقد مر نظيره . وقد أشار التنزيل إلى تنكيل الله بهم، وإهلاكه إياهم فقال : (إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً) هى صيحة جبريل - عليه السلام - فى طرف منازلهم ، فأهلكهم الله بها فصاروا هشيمًا مفتتا كالعشب اليابس الذى يجمعه صاحب الحظيرة لماشيته فى الشتاء ، أو كالورق المتساقط ممّا يعمل به صاحب الحظيرة حظيرته من قصب وأشجار ، وصاحب الحظيرة هو المحتظر . قال ابن عباس : المحتظر : هو الرجل الذى يجعل لغنمه حظيرة بالشجر والشوك :فما سقط من ذلك وداسته الغنم فهو الهشيم . والحظيرة (الزريبة) التى يقيمها العرب وأهل البوادى للسكنى ولمنع البرد والسباع عن الغنم والإبل ،وهى من الحظر وهو المنع ، ثم أقسم سبحانه على أنه سهل القرآن للتذكر والاتعاظ .

(فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ) : إنكار ونفى للمتعظ من قريش على أبلغ وجه . وقد سبق مثل ذلك مفصلًا .

---

(١) السقب : ولد الناقة .

(٢) الشمس من الآية : ١٤ .

(كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالنُّذُرِ ﴿٣٣﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّا آلَ لُوطٍ نَّجَّيْنَاهُم بِسَحَرٍ ﴿٣٤﴾ نِّعْمَةً مِّنْ عِندِنَا كَذَٰلِكَ نَجْزِي مَن شَكَرَ ﴿٣٥﴾ وَلَقَدْ أَنذَرَهُم بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا بِالنُّذُرِ ﴿٣٦﴾ وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٣٧﴾ وَلَقَدْ صَبَّحَهُم بُكْرَةً عَذَابٌ مُّسْتَقِرٌّ ﴿٣٨﴾ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٣٩﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٤٠﴾)

المفردات :

(إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا) أى : ريحًا شديدة تثير الحصباء وهى الحصى الصغيرة .

(نَجَّيْنَاهُم بِسَحَرٍ) : هو ما بين آخر الليل وطلوع الفجر حيث يختلط سواد الليل ببياض النهار .

(فَتَمَارَوْا بِالنُّذُرِ) أى : شكُّوا فيما أنذرهم به الرسول ولم يصدقوه .

(وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِ) : أرادوا منه تمكينهم ممن كان عنده من الملائكة فى هيئة الأضياف طلبًا للفاحشة ، والضيف يطلق بلفظ واحد على الواحد وغيره لأنه مصدر فى الأصل ويجوز المطابقة فيقال : ضيف وضيفة وأضياف وضيفان .

(فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ) أى : سوَّينا أعينهم كسائر الوجه لا يرى لها شق .

(وَلَقَدْ صَبَّحَهُم بُكْرَةً) أى : أتاهم العذاب وقت الصباح فى البكرة وهى أول النهار .

التفسير

٣٣ ـ ٤٠ ـ (كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالنُّذُرِ . إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ نَّجَّيْنَاهُم بِسَحَرٍ . نِّعْمَةً مِّنْ عِندِنَا كَذَٰلِكَ نَجْزِى مَن شَكَرَ . وَلَقَدْ أَنذَرَهُم بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا بِالنُّذُرِ وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِ فَطَمَسْنَآ أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذَابِى وَنُذُرِ . وَلَقَدْ صَبَّحَهُم بُكْرَةً عَذَابٌ مُّسْتَقِرٌّ . فَذُوقُوا عَذَابِى وَنُذُرِ . وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ) :

الآيات استئناف أخبر به ـ سبحانه ـ عن قوم لوط بأنهم ساروا على سنن المكذبين لرسلهم من الأقوام الماضية ، فعاقبهم بأن أرسل عليهم ملكًا يرميهم بالحصى والحجارة ، أو أرسل عليهم حاصبًا وهو اسم للريح الشديدة أو الباردة التي كانت ترميهم بالحصباء وهي الحصى أو ترميهم بالحجارة كما قال أبو عبيدة . وقال ابن عباس : هو ما حُصبوا به من السماء من الحجارة في الريح ، وعليه قول المتنبي :

مستقبلين شمال الشام تَضْربنـا بحاصب كنديف القطن منثور

بمعنى أرسلنا عليهم حصى وحجارة نزلا من السماء في الريح ، وحينما نزل بهم عذاب الله أهلكهم[1] إلّا آل لوط . قيل : المراد بهم : ابنتاه ومن آمن معه ، وقيل : المراد ابنتاه لأنه لم يكن على دينه أحد سواهما حتى ولا امرأته التي أصابها ما أصاب قومها ؛ هؤلاء الآل نجيناهم بسحر من الأسحار حينما خرجوا آخر الليل في الوقت الذي يختلط فيه سواد الليل ببياض النهار ، وكانت تنجيتنا للوط وابنتيه أو له ولابنتيه ولمن آمن معه إنعامًا منا عليهم ، ومثل ذلك الجزاء الكريم نجزي من شكر نعمتنا بالإيمان والطاعة .

ثم حكى ـ سبحانه ـ [illegible] لوط [illegible] وموقفه [illegible] قبل حلول عذاب الإبادة بهم فقال تعالى : (وَلَقَدْ أَنذَرَهُم بَطْشَتَنَا) أي : أخذتنا الشديدة لهم بالعذاب [illegible] التفتوا إلى ذلك ولا اهتموا به ، بل شكوا فيه ، وكذبوا بكل ما أنذرهم به [illegible] أيضا مما وقع منهم أنهم راودوه عن [illegible] من الملائكة الذين حضروا إليه في صورة شباب مرد حسان [illegible]

(١) وقد فصلت بعض أنواع العذاب التي عوقبوا بها في سورة الحجر .

الله فأضافهم لوط - عليه السلام - فبعثت امرأته العجوز السوء إلى قومها فأعلمتهم بالأضياف فأقبلوا يُهرعون من كل مكان طلبا للفجور بهم ، فطمس الله أعينهم ،وذلك بمسحها وتسويتها كسائر الوجه لا يرى لها شق ، كما تطمس الريح الأعلام بما تسفى عليها من التراب . وكان لوط يدفعهم ويمانعهم دون أضيافه ، وروى أن جبريل - عليه السلام - استأذن ربه - سبحانه - ليلة جاءوا وعالجوا الباب ليدخلوا عليهم فصفقهم بجناحه فتركهم عمياناً مع بقاء أبصارهم فلم يروهم ولم يهتدوا إلى طريق خروجهم حتى أخرجهم لوط - عليه السلام - فخرجوا يتحسسون بالحيطان ويتوعدون لوطاً بالانتقام منه فى الصباح . وقيل : الطمس مجاز عن حجب الإدراك ، وذلك أنهم حينما دخلوا المنزل ونظروا لمن فيه لم يروا شيئاً فجعل ذلك كالطمس فعُبِّر به عنه .

وقلنا لهم على ألسنة الملائكة : (فَذُوقُواْ عَذَابِى وَنُذُرِ) ويراد من الأمر الخبر ، بمعنى فأذقناهم عذابى الذى أنذرهم به لوط - عليه السلام - وهو الطمس لأنه من جملة ما أنذروه من العذاب ، أما عذاب الإبادة الذى أُهلكوا به فقد صبحهم بكرة كما قال تعالى : (وَلَقَدْ صَبَّحَهُم بُكْرَةً) أى : أتاهم فى الصباح أول النهار كما تشير إلى ذلك (بُكْرَةً) وهى أخص من الصباح فليس فى ذكرها زيادة ، بل هى كالتأكيد . وكان هذا العذاب دائماً مستقراً لا يفارقهم ولا ينفك عنهم حتى يسلمهم إلى النار فى الآخرة ، وفى وصفه بالاستقرار إيماء إلى أن ما قبله من عذاب الطمس ينتهى إلى الإبادة ، وقوله - تعالى - : (فَذُوقُواْ عَذَابِى وَنُذُرِ) حكاية لما قيل لهم من جهته - تعالى - تشديداً للعذاب الواقع بهم ، وفائدة تكرير (فَذُوقُواْ عَذَابِى وَنُذُرِ) ، وتكرير (وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ ...) الآية . فى هذه القصص أن يجدد المشركون عند استماع كل نبأ من أنباء الأولين ادِّكاراً واتعاظاً . وأن يستأنفوا تنبهاً واستيقاظاً إذا سمعوا الحث على ذلك والبعث عليه . وهذا حكم التكرار فى قوله - تعالى - : « فَبِأَىِّ ءَالآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ » عند كل نعمة عدها ، وكذلك تكرير الأنباء والقصص فى أنفسها لتكون تلك العبر حاضرة للقلوب مصورة للأذهان مذكورة غير منسية فى كل أوان .

(وَلَقَدْ جَآءَ ءَالَ فِرْعَوْنَ ٱلنُّذُرُ ﴿٤١﴾ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَـٰهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ ﴿٤٢﴾)

المفردات :

(آلَ فِرْعَوْنَ) المراد بهم : القبط وهم أهله وشيعته بمصر .

(النُّذُرُ) : الإنذارات المتكررة ،أو النذر : موسى وهارون إطلاقًا للفظ الجمع على الإثنين .

(عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ) : لايغالب ولايعجزه شيءٌ .

التفسير

٤١ ـ (وَلَقَدْ جَآءَ آلَ فِرْعَوْنَ النُّذُرُ) :

صُدِّرت قصة آل فرعون بالتوكيد القسمي لإبراز كمال الاعتناء بشأْنها لعظم ما فيها من الآيات ، وهول ما لاقوه من العذاب ، وقوة إيجابها للاتعاظ ،والاكتفاء بذكر آل فرعون عن ذكره للعلم بأَن نفسه أولى بذلك ، لأنه رأس الفساد وقمة الضلال .

والمعنى : وبالله لقد جاء آل فرعون الإنذارات المتكررة بما سيلقونه من عذاب ونكال أَو فقد جاءهم الرسل يوسف وغيره إلى أن جاء موسى وهارون ، وقد كان منهم ما حكاه الله بقوله :

٤٢ ـ (كَذَّبُواْ بِـآيَاتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَاهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ) :

هذا استئناف مبنى على حكاية مجيء النذر ،كأنه قيل : فماذا فعل آل فرعون حينئذ ؟ فقيل : (كَذَّبُواْ بِـآيَاتِنَا كُلِّهَا) أى : بمعجزاتنا الدالة على توحيدنا ، ونبوة أنبيائنا ؛فإن تكذيب البعض تكذيب للكل ،أو المراد بالآيات كلها معجزات موسى ـ عليه السلام ـ وهى

الآيات التسع : العصا واليد والسنون والطمسة والطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم ، وكان جزاؤهم أن قهرناهم بسبب تكذيبهم فأخذناهم أخذ عزيز لا يغالب ولا يدافع ، مقتدر على الانتقام منهم وفق إرادته لا يعجزه شئ عن تنفيذ ما يريد .

(أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُولَٰئِكُمْ أَمْ لَكُم بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ ﴿٤٣﴾ أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ ﴿٤٤﴾ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ﴿٤٥﴾ بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ ﴿٤٦﴾)

المفردات :

(خَيْرٌ مِّنْ أُولَٰئِكُمْ) أي : من الكفار السابقين مثل قوم نوح ، وعاد ، وثمود ، وقوم لوط ، وآل فرعون .

(أَمْ لَكُم بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ) أي : ألكم براءة وسلامة من العذاب في الكتب المنزلة على الأنبياء .

(وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ) أي : ينصرفون منهزمين ، ويراد من الدبر الأدبار .

(أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ) أي : في أقصى غاية الفظاعة من الداهية ، وهي الأمر الشنيع الذي لا يهتدى للخلاص منه ، وفي نهاية المرارة التي لا يستساغ احتمالها ، ولا يتسنى الصبر عليها .

التفسير

٤٣ - (أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُولَٰئِكُمْ أَمْ لَكُم بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ) :

الاستفهام للإنكار ومعناه النفي .

والمعنى : أكفاركم يا أهل مكة أو يا أمة العرب أقوى وأشد وأكثر عددا أو أقل كفرا

وسننا وأقرب طاعة وانقياداً من كفار الأمم المعدودين الذين أُهلكوا بسبب كفرهم، وهم قوم نوح وقوم هود وقوم صالح وقوم لوط وآل فرعون- أكفاركم خير من أولئكم - ليكون ذلك سنا وسبة لهم من أن يحل بهم مثل عذاب السابقين؟ ولأن الاستفهام فى قوله : « أَكُفَّارُكُمْ ... » إلخ إنكارى فى معنى النفى فكأنه قيل : ليس كفاركم خيرًا من أولئك الكفار فى الدنيا وزينتها ولا ألين منهم شكيمة فى الكفر والعصيان ، بل هم دونهم فى القوة وغيرها مما تستدعيه مباهج الحياة ، وأسوأ حالًا منهم فى الكفر والعناد ، وقد أصاب من هم أقوى منكم ما أصابهم فلم لا تخافون أن ينزل بكم مثل ما نزل بهم من العذاب الذى أهلكهم ، وتركهم أثرًا بعد عين مع أنكم دونهم قوة وبأسًا ، وأكثر منهم كفرًا وعتوًّا .

وقيل : أكفاركم ،ولم يقل أأنتم ، للتنصيص على كفرهم المقتضى لهلاكهم .

(أَمْ لَكُم بَرَآءَةٌ فِى الزُّبُرِ) : إضراب وانتقال من التبكيت بما ذكر إلى التبكيت بوجه آخر ،فكأنه قيل : بل ألكفاركم براءة وأمن من تبعات ما يعملون من الكفر والمعاصى فيما نزل من الكتب على الأنبياء أو فى اللوح المحفوظ كما يرى ابن عباس ، فلذلك تصرون على ما أنتم عليه ولا تخافون .

٤٤ - (أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ) :

إضراب وانتقال إلى وجه آخر من التبكيت ، والالتفات من الخطاب إلى الغيبة للإيذان بإفضاء حالهم إلى الإعراض عنهم وإسقاطهم عن رتبة الخطاب ،وحكاية قبائحهم لغيرهم .

والمعنى : بل أيقول هؤلاء الكفار - واثقين بشوكتهم وغلبتهم على جند الله -: نحن أولو حزم وعزم أمرنا مجتمع متحد لا يضام ولا يرام ،أو منتصر بمعنى ممتنع على محمد وصحابته أو نحن جمع منتصر ،أى : متناصر ينصر بعضنا بعضًا ويعاونه ، وروى أن أبا جهل ضرب فرسه يوم بدر فتقدم الصف وقال : نحن نَنْتَصِر اليوم من محمد ، أى : نغلبه وننتقم منه ، وكان الظاهر أن يقال : نحن جميع منتصرون إلَّا أنه أفرد نظرًا للفظ جميع فإنه مفرد لفظًا جمع معنى ؛ ورجح جانب اللفظ لخفة الإفراد مع رعاية جانب الفاصلة .

٤٥ـ ﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ﴾ :

رد لقولهم السابق ، والإتيان بالسين للتأكيد .

والمعنى : سيهزم جمع مشركي مكة ،أو الكفار لا محالة ويولون الأدبار منهزمين .

قال سعيد بن جبير : قال سعد بن أبي وقاص : لما نزل ﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ﴾ كنت لا أدرى أى الجمع ينهزم فلما كان يوم بدر رأيت النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ يثب فى الدرع ويقول : « اللَّهُمَّ إن قريشًا جاءت تحادُّك ، وتحادّ رسولك بفخرها فأَحِنْهم ـ أى : أَهْلِكْهُم ـ الغداةَ . ثم قال : ﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ﴾ فعرفت تأويلها . وهذا من معجزات النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ أخبر عن غيب فكان كما أخبر . قال ابن عباس : كان بين نزول هذه الآية وبين بدر سبع سنين . فالآية مكية . وقد أخرج ابن أبي حاتم والطبرانى فى الأوسط وابن مردويه عن أبي هريرة قال : أنزل الله ـ تعالى ـ على نبيه ـ صلى الله عليه وسلم ـ بمكة قبل يوم بدر ﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ﴾ وقال عمر بن الخطاب : قلت : يا رسول الله أىّ جمع يهزم ؟فلما كان يوم بدر وانهزمت قريش نظرتُ إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى آثارهم مُصْلِتًا بالسيف [1] وهو يقول : ﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ﴾ . فكانت ليوم بدر ، وقيل : ويولون الدبر ولم يَقُل :الأدبار إما لإرادة الجنس الصادق على الكثير مع رعاية الفواصل ، أو لإرادة أن كل واحد منهم يولى دبره ،وقد كان كذلك يوم بدر وغيره .

٤٦ـ ﴿بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ﴾ :

إضراب انتقالى لبيان أن ما وقع لهم ببدر ليس نهاية عذابهم ، بل الساعة موعد عذابهم الأصلى ، وهذا من طلائعه وبوادره ، وعذاب الساعة أشد وأنكى مما لحقهم يوم بدر من الهزيمة والقتل والأسر ، و« أدهى » مبالغة : من الداهية ،وهى الأمر الفظيع الذى لا يهتدى إلى الخلاص منه ، و « أَمَرُّ » مبالغة فى شدة المرارة عند الذوق على سبيل الاستعارة لصعوبتها على النفس ، وإظهار الساعة فى موضع الإضمار لشدة تهويلها وبث الحزن فى نفوسهم .

(١) ممسكا به : وهو يقاتلهم .

(إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ ﴿٤٧﴾ يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِى ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا۟ مَسَّ سَقَرَ ﴿٤٨﴾ إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾)

المفردات :

(فِى ضَلَالٍ) أى : فى بعد عن الحق فى الدنيا .

(وَسُعُرٍ) أى : واحتراق فى نيران جهنم . وسعر : جمع سعير .

(ذُوقُواْ مَسَّ سَقَرَ) أى : يقال لهم : ذوقوا آلام سقر ؛ و « سقر » علم لجهنم ولذلك لم تصرف .

(خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ) أى : مقدرًا مكتوبًا فى اللوح المحفوظ قبل وقوعه .

التفسير

٤٧ ـ (إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِى ضَلَالٍ وَسُعُرٍ) :

أى :إن المجرمين من الأولين والآخرين فى بعد عن الحق فى الدنيا وفى نيران مسعرة فى الآخرة لما هم فيه من الشكوك والاضطراب فى الآراء ، وهذا يشمل كل من اتصف بذلك من كافر ومبتدع من سائر الفِرَق ، وقال ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ : فى خسران وجنون .

٤٨ ـ (يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِى النَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُواْ مَسَّ سَقَرَ) :

أى : يوم يسحبون فى النار على وجوههم يقال لهم ـ تقريعًا وتوبيخًا ـ : ذوقوا أيها المكذبون مس سقر ،بمعنى قاسوا حرها وألمها ، وهو المراد من المس فإنه سبب للتألم بها وتعلق الذوق بمثل ذلك شائع فى الاستعمال ، وفى الكشاف (مَسَّ سَقَرَ) كقولك : وجد مس

الحمى وذاق طعم الضرب ، لأن النار إذا أصابتهم بحرها ، ولحقتهم بإيلامها فكأنها تمسهم بذلك مسًّا ، والكلام على المجاز .

٤٩ - (إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ) :

أى : إن كل شىء من الأشياء خلقناه مقدرًا بقدر معلوم اقتضته الحكمة التى يدور عليها أمر التكوين ، أو مقدرًا مكتوبًا فى اللوح المحفوظ قبل وقوعه قد علمنا حاله وزمانه . وحَمْل الآية على القَدَر الذى يقابل القضاء هو المأثور عن كثير من السلف ، وروى الإمام أحمد ، ومسلم والترمذى وابن ماجه عن أبى هريرة قال:جاء مشركو قريش يخاصمون رسول الله ﷺ فى القدر فنزلت . وقال أبو ذر - رضى الله عنه - : قدم وفد نجران على رسول الله ﷺ فقالوا : الأعمال إلينا والآجال بيد غيرنا ؟ فنزلت الآية (إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ). فقالوا :يا محمد ،يَكْتب علينا الذنب ويعذبنا؟قال : أنتم خصماء الله يوم القيامة .

وفى صحيح مسلم أن ابن عمر تبرأ منهم ولا يتبرأ إلا من كافر . ثم أكَّد هذا بقوله : لو أن لأحدهم مثل أحد ذهبًا فأنفقه ما قبل الله منه حتى يؤمن بالقدر .

وروى مسلم عن طاوس قال : أدركت ناسًا من أصحاب رسول الله ﷺ يقولون : كل شىء بقدر .

وسمعت ابن عمر يقول : قال النبى - صلى الله عليه وسلم - : كل شىء بقدر حتى العَجْز والكَيْس :أو الكَيْس والعجز . وهذا إبطال لمذهب القدرية[1] والآية من باب (وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا) وهذا هو المقصود من قوله- تعالى- : (إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ) .

---

(١) الذين يقولون : لا قدر وأن الخير والشر بأيدينا .

(وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِٱلْبَصَرِ ﴿٥٠﴾ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَآ أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٥١﴾ وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِى ٱلزُّبُرِ ﴿٥٢﴾ وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ ﴿٥٣﴾ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ ﴿٥٤﴾ فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ ﴿٥٥﴾)

المفردات :

(وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَاحِدَةٌ) أى : ما أمرنا إلا كلمة واحدة ، وهى قول الله -تعالى- : كُنْ (كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ) فى السرعة واليسر؛ لأن اللمح: النظر بسرعة ، وفى الصحاح: لمحه وألمحه إذا أبصره بنظر خفيف، والاسم اللمحة .

(وَلَقَدْ أَهْلَكْنَآ أَشْيَاعَكُمْ) : أشباهكم فى الكفر من الأمم السابقة ، أو أتباعكم .

(وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِى الزُّبُرِ) أى : فى اللوح المحفوظ ، أو فى كتب الحفظة .

(وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ) أى : مسطور ومكتوب فى اللوح المحفوظ على عامله قبل أن يفعله ليجازى به ، يقال : سطره يسطره سطرًا : كتبه ، واستطر مثله .

(فِى جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ) أى : فى جنات وضياء ، ومنه النهار؛ لضيائه .

(فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ) : فى مجلس حق لا لغو فيه ولا تأثيم وهو الجنة .

(عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ) أى : عند مليك عظيم الملك كامل القدرة ، يفعل ما يشاء .

التفسير

٥٠ - (وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ) :

أى : وما شأننا إلَّا فعلة واحدة على نهج لا يختلف ووتيرة لا تتعدد وهو الإيجاد بلامعالجة ومشقة ، أو : وما أمرنا فى خلق الأشياء إلا كلمة واحدة سريعة التكوين ،فإذا قصدنا شيئاً نريد إيجاده قلنا له : كن ،فيكون . وهذا الأمر الصادر منا فى اليسر والسرعة كلمح بالبصر لأن اللمح هو النظر بخفة وسرعة على قدر ما يلمح أحدكم ببصره ، والمراد : التقريب للعقول فى سرعة تعلق القدرة بالمقدور وفق الإرادة الأزلية . وقيل :هذا فى قيام الساعة ،فهو كقوله - تعالى - : « وَمَآ أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ »[1] .

٥١ - (وَلَقَدْ أَهْلَكْنَآ أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ) :

أى : والله لقد أهلكنا أشباهكم ونظراءكم فى الكفر والضلال من الأمم السابقة ، (فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ) أى :من متعظ يتعظ ويعتبر بذلك؟ بمعنى أنه لا معتبر ولامتعظ من قريش حيث بالغوا فى الإعراض فلا يسمعون ولا يبصرون .

٥٢ - (وَكُلُّ شَىْءٍ فَعَلُوهُ فِى الزُّبُرِ) :

أى : وكل شىء مفعول فى الدنيا لهؤلاء الكفار من النظراء والأتباع مكتوب عليهم على التفصيل ثابت فى ديوان الحفظة . وأجمعت القراء على رفع كلمة (كل) فى الآية ليستفاد منها المعنى المراد ، وهو أن كل ما فعلوه من الكفر والمعاصى مكتوب فى صحف أعمالهم صغيرًا كان أو كبيرًا .

---

(١) سورة النحل ، من الآية : ٧٧ .

٥٣ـ (وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ) :

أى : وكل صغير وكبير من الأعمال كما روى عن ابن عباس ومجاهد وغيرهما .. وقيل : من الأعمال ومن كل كائن إلى يوم القيامة ، كل ذلك مسطور فى اللوح المحفوظ بتفاصيله مثبت فيه . ومسطور من السطر بمعنى الكَتْب . وقال صاحب اللوامع :يجوز أن يكون من طرّ النبات والشارب : ظهر ، وعليه يكون المعنى : وكل صغير وكبير ظاهر فى اللوح مثبت فيه .

٥٤ ، ٥٥ـ (إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ * فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ) :

ولما كان بيان سوء حال الكفرة بقوله ـ تعالى ـ :(إِنَّ الْمُجْرِمِينَ) إلخ مما يستدعى بيان حسن حال المؤمنين ليتكافأ الترغيب والترهيب بين سبحانه مالهم من حسن الحال بطريق الإجمال فقيل : (إِنَّ الْمُتَّقِينَ) الآية . .

والمعنى : إن الذين اتقوا الله فابتعدوا عن الكفر والمعاصى ، فى جنات عظيمة الشأن رفيعة المقدار ، وأنهار لها صفاؤها وتدفقها ، وأفردت الأنهار اكتفاء بالجنس مراعاة للفواصل ، وعن ابن عباس تفسير النهر بالسعة ، والمراد بالسعة سعة المنازل على ماهو الظاهر ، وقيل : سعة الرزق والمعيشة ، وقيل : بما يعمهما .

وأخرج الحكيم الترمذى فى نوادر الأصول عن محمد بن كعب قال : وَنَهَر ،أى :فى نور وضياء ،وهو على الاستعارة بتشبيه الضياء المنتشر بالماء المتدفق من منبعه . وجوز أن يكون بمعنى النهار على الحقيقة ، أى : أنهم لا ليل ولا ظلمة عندهم فى الجنات .

وكما أنهم فى جنات ونهر فهم فى مجلس صدق ، ومكان مرضى . قال جعفر الصادق ـ رضى الله عنه ـ : مدح المكان بالصدق فلا يقعد فيه إلا أهل الصدق وهو المقعد الذى يصدق الله ـ تعالى ـ فيه مواعيد أوليائه بـأنه يبيح لهم ـ عز وجل ـ النظر إلى وجهه الكريم ، وإفراد المقعد لإرادة الجنس ،هذا المجلس عند مليك لا يقادر قدر ملكه وسلطانه ، فلا شىء فى الكون إلا وهو تحت ملكوته ـ سبحانه ـ ما أعظم شأنه ، ويشير إلى ذلك الإتيان بصيغة المبالغة فى (مَلِيكٍ)

والتنكير فيه وفى (مُقْتَدِرٍ) كما يشير إلى أن قربهم منه ـ سبحانه ـ بمنزلة من السعادة والكرامة بحيث يتحقق لهم مالا عين رأت ولا أذن سمعت مما يجل عن البيان ، وتكل دونه الأذهان فالعندية عنده ـ جل شأنه ـ عندية منزلة وكرامة لامسافة ولامماسة .

قال عبد الله بن بريدة :روى أن رسول الله قال : إن أهل الجنة يدخلون كل يوم على الله ـ تبارك وتعالى ـ فيقرأون القرآن على ربهم ، وقال ثور بن يزيد عن خالد بن معدان : بلغنا أن الملائكة يأتون المؤمنين يوم القيامة فيقولون :يا أولياء الله انطلقوا ، فيقولون :إلى أين؟ فيقولون:إلى الجنة ، فيقول المؤمنون : إنكم تذهبون بنا إلى غير بغيتنا فيقولون : فما بغيتكم؟ فيقولون :مقعد صدق عند مليك مقتدر.وفى رواية فيقولون : بغيتنا المقعد الصدق مع الحبيب كما أخبر ، فى مقعد صدق عند مليك مقتدر .

وأخرج ابن أبى شيبة عن سعيد بن المسيب قال : دخلت المسجد وأنا أرى أنى أصبحت فإذا أنا على ليل طويل وليس فيه أحد غيرى فنمت فسمعت حركة خلفى ففزعت فقال :أيها الممتلىء قلبه (فَرَقًا) لا تفرق ،أى :لاتفزع . وقل :اللهم إنك مليك مقتدر ، ماتشاء من أمر يكون ثم سل ما بدا لك قال : فما سألت الله ـ تعالى ـ شيئاً إلا استجاب لى ، وأنا أقول :اللهم إنك مليك مقتدر ماتشاء من أمر يكون ، فأسعدنى فى الدارين ، وكن لى ولا تكن علىّ ، وانصرنى على من بغى علىّ ، وأغننى من همّ الدَّيْنِ وقهر الرجال وشماتة الأعداء .

طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

رئيس مجلس الادارة
رمزى السيد شعبان

رقم الإيداع بدار الكتب١٦٧٩ / ١٩٨٨

الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية
٢٤٧٨ س ١٩٨٨ ـ ٤ ـ ٢٥٫٠٠٠



التفسير الوسيط

للقرآن الكريم

تأليف
لجنة من العلماء
بإشراف
مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر

المجلد الثالث

الحزب الرابع والخمسون

الطبعة الأولى ١٤١١هـ - ١٩٩٠م

القاهرة
الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

١٩٩٠

((سـورة الرحمن))

آياتهـا ثمـان وسبعون

نزلت سورة الرحمن بمكة عند الجمهور ، وغيرهم يقول : إنها مدنية ، ولكل من القولين رواته ، وتسمى (عروس القرآن) كما أخرجه البيهقى عن على – كرم الله وجهه – أن رسول الله ﷺ قال : « لكلِّ شىء عروس ، وعروس القرآن سورة الرَّحمن » ووجه مناسبتها لسورة – القمر – التى سبقتها ، أنها مُفَصِّلة لما أجمل فى آخرها ، قال الإمام جلال الدين السيوطى : لمَّا قال – سبحانه – فى آخر ما قبلها « بل السَّاعة موعدهم والساعة أدهى وأمر » ثم وصف – سبحانه – حال المجرمين فى سقر وحال المتقين « فِى جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ » فصَّل هذا الإجمال فى هذه السورة أتم تفصيل على الترتيب الوارد فى هذا الإجمال فبدأ بوصف مرارة الساعة والإشارة إلى شلتها ، ثم وصف النار وأهلها ، ولذا قال سبحانه : (يُعْرَفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ) ولم يقل : الكافرون أو نحوه؛ لاتصاله معنى بقوله تعالى هناك : « إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِى ضَلَالٍ وَسُعُرٍ » ثم وصف الجنة وأهلها ، ولذا قال تعالى فيها : (وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ) وذلك هو عين التقوى ، ولم يقل : لمن آمن أو أطاع أو نحوه ، لتوافق الألفاظ فى التفصيل ، ويعرف بما ذكر أن هذه السورة شرح لآخر السورة قبلها . اهـ .

وبالجملة فقد اشتملت كلتاهما على أحوال المؤمنين والكافرين فى الدنيا ، ومآل أمرهم فى الآخرة .

وتكرر فى هذه السورة قوله – تعالى – : (فَبِأَىِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ) للتقرير بالنعم المختلفة المعدودة فكلما ذكر – سبحانه – نعمة أنعم بها ، وبَّخ على التكذيب بها ، كما يقول الرجل لغيره : ألم أُحْسِنْ إليك بأن خَوَّلْتُكَ فى الأموال ، ألم أحسن إليك بأن فعلت بك كذا وكذا ، فيحسن فيه التكرار لاختلاف ما يقرِّرُ به ، وهو كثير فى كلام العرب وأشعارهم ، قاله السيد المرتضى فى كتابه (الدُّرَرُ والغُرَر) وذكر عديدًا من القصائد فيها مثل هذا

التكرار ، قال الآلُوسِىُّ : ولا يرد على ما ذكره أن هذه الآية قد ذكرت بعد ماليس نعمة ، لما ستعلمه إن شاء الله فى محله : ونحن سنبيِّن ذلك ــ إن شاء الله تعالى ــ .

مقاصد هــذه السورة الكريمــة :

بينت هذه السورة أنه ــ تعالى ــ علَّم نبيه القرآن وأوحاه إليه ، وأنه خلق كل إنسان وعلمه كيف يُعَبِّر عن مقاصده ويبينها ، وأنه سيَّر الشمس والقمر بحساب دقيق ، بحيث لايعتريهما خلل فى ذاتهما أو فى دورانهما ، وأن النجم من النبات ــ وهو ما ليس له ساق ، ــ والشجر ــ وهو ماله ساق ــ يخضعان لإرادته وتكوينه ــ تعالى ــ وأنه رفع السماء ، وشرع الميزان ليقوم الناس بالقسط ، وأنه جعل الأرض مقرًّا للناس ، وأنبت لهم فيها أشجار الفاكهة وحبوب الطعام كالحنطة والشعير ، وأنبت لهم مصادر العطر كالريحان ، وأنه خلق الإنسان من طين جاف كالفخار ، وخلق الجن من لهيب النار ، وأنه رب المشرقين والمغربين ، وأنه أرسل البحرين ــ المالح والعذب ــ وجعلهما يلتقيان ، ومع هذا لا يبغى أحدهما على الآخر فيبطل خاصيته وصفاته بحاجز وحائل من قدرة الله ــ تعالى ــ ، وأنه يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان ، وسيأتى شرح ذلك بمشيئة الله ــ تعالى ــ وأن لله السفن الجارية فى البحر ، ولها قلاع مرفوعة كأنها أعلام ــ أى جبال ــ وأن كلًّ من على الأرض فانٍ ويبقى الله ذو الجلال والإكرام ، وأنه تعالى : له شئون كثيرة فى خلقه كل يوم ، فلذا يسأله من فى السموات والأرض ماهم بحاجة إليه ، وأنه ــ سبحانه ــ سيقصد مجازاة خلقه يوم الدين ، وليس له شاغل يشغله عن ذلك ، وهناك ينادى المنادى : (يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُواْ مِنْ أَقْطَارِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ) هرباً من الحساب والعقاب (فَانفُذُواْ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ) ولا سلطان لكم ، فالملك يوم القيامة والحكم لله الواحد القهار ، يُرسَل على الكفار يومئذ لهبٌ من النار فلا ينصر بعضُهم بعضاً ، فإذا انشقت السماءُ وانصدعت يومئذ ، وكان لها لون أحمر كحمرة الورد ، وكانت صافية كالدهن المذاب (فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْأَلُ عَن ذَنبِهِ إِنسٌ وَلَا جَانٌّ) لأن هذا وقت صدور أمر الله بعذابهم ، بعد أن شهدت عليهم جوارحهم ورأوا ذنوبهم واضحة فى كتبهم .

ثم بين الله حال المؤمنين ، فذكر أنهم صِنْفَان : أحدهما أرفع درجة من الآخر .

فأولهما : له جنتان فى أعلى درجات الجنان . وثانيهما : له جنتان أدنى من السابقتين ، ووصف هذه الجنان وصفاً رائعاً يبين ما فيهن من جلائل النعم التى يتنعم بها هؤلاء وأولئك ، جعلنا الله – تعالى – منهم ، وختم السورة بقوله – جل وعلا – : (تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِى الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ) .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

(الرَّحْمَٰنُ ﴿١﴾ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ﴿٢﴾ خَلَقَ الْإِنسَانَ ﴿٣﴾ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ﴿٤﴾ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ﴿٥﴾ وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ﴿٦﴾)

المفردات :

(عَلَّمَهُ الْبَيَانَ) : علَّمه النطق المعرب عما فى الضمير .

(بِحُسْبَانٍ) : بحساب وتدبير .

(يَسْجُدَانِ) : يخضعان لتدبيره – تعالى – .

التفسير

١ – ٦ – (الرَّحْمَٰنُ * عَلَّمَ الْقُرْآنَ * خَلَقَ الْإِنسَانَ * عَلَّمَهُ الْبَيَانَ * الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ * وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ *) :

ذكر الله – سبحانه – فى هذه السورة كثيرًا من نعمه وآياته ، وأول مابدأ به منها القرآن العظيم ؛ لأنه أعظم النعم شأناً وأرفعها مكانة ، فعليه تدور السعادة الدنيوية والأُخروية فما من غاية تنتهى إليها آمال الأُمم إلا موجودة وسائلها فيه ، وهو منهج الحق وصراطه المستقيم ، وآية الآيات على نبوة نبينا محمد ﷺ إلى يوم القيامة ، ولذا تكفل الله بحفظه فقال – جل وعلا – : « إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ »[1] .

(١) سورة الحجر الآية : ٩

وقد أُسندت نعمة تعليم القرآن وغيرها من النعم إلى (الرحمن) الذى هو أحد أسماء الله الحسنى ؛ لأنها من رحمته - تعالى - بعباده .

ولم يذكر فى الآية مَن الذى علمه الرحمنُ القرآنَ ، قيل : هو الإنسان ، فإن تعليمه من نعمه - جل وعلا - على البشر جميعاً ، فمن حفظه ووعاه فإنه يعلمه غيره ، وهكذا إلى أن تقوم الساعة ؛ لأن الله - تعالى - تعهد بحفظه .

وقيل : المراد بالإنسان محمد ﷺ ، فإنه أول من تعلمه من البشر ، وهذا مآله إلى الرأى السابق ؛ لأنه ﷺ علمه الصحابة ، والصحابة علَّموه مَنْ بعدهم ، وهكذا .

والمراد من تعليم القرآن : تعليم ألفاظه ومعانيه على وجه يعتد به ، وقد يصل العلم بمعانيه إلى العلم بالحوادث الكونية من إشاراته ورموزه ، فإنه - تعالى - لم يغفل شيئاً فيه ، أخرج أبو الشيخ فى كتاب (العظمة) عن أبى هريرة مرفوعاً « إن الله لوْ أغفل شيئاً لأغفل الذرَّة والخردلة والبعوضة » .

وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم : عن ابن مسعود : أنزل الله فى هذا القرآن علم كل شىء ، ولكنَّ علمنا يقصر عما بين لنا فيه .

وقال أبو العباس المرسى : جَمَعَ القرآن علوم الأولين والآخرين ، بحيث لم يحط به علماً إلَّا المتكلم به ، ثم رسول الله ﷺ خلا ما استأثر الله به - سبحانه - .

وقال ابن عباس : لو ضاع لى عقال بعير لوجدته فى كتاب الله - تعالى - .

وقال الفخر الرازى : المراد بتعليم القرآن جعل الشخص بحيث يعلم القرآن . فهذه الآية كقوله تعالى : « وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ »[1] .

والنعمة التالية لتعليم القرآن أنه تعالى (خَلَقَ الْإِنْسَانَ • عَلَّمَهُ الْبَيَانَ) وقدم تعليم القرآن على خلق الإنسان وتعليمه البيان ، للإشارة إلى أنه أفضل النعم ، وأنه يبين الغاية من خلق

---

(١) سورة القمر من الآية : ١٧

الإنسان – وهى عبادة الله – قال تعالى : « وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ »[١] . والمراد من الإنسان : الجنس ، وبخلقه : إنشاؤه على ما هو عليه من القُوى الظاهرة والباطنة ، والمراد من تعليمه البيان : تمكين الإنسان من التعبير عما فى نفسه وفهم بيان غيره ، وهو الذى يدور عليه تعليم القرآن ، وقيل تعليمه البيان : تعليمه التكلم بلغات مختلفة . وقيل المراد بالإنسان : آدم ، وبتعليمه البيان تعليمه الأسماء كلها ، أو علم الدنيا والآخرة ، والنعمة الثالثة جاءت فى قوله – تعالى – : (الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ) أى : الشمس والقمر يجريان بحساب دقيق فى مداريهما وبروجهما ومنازلهما ، فتختلف بذلك الفصول والأوقات ، وتُعلَم السنون ، والشهور ، والأيام ، والليالى ، وتنتظم بذلك أمور أهل الأرض .

ويرى علماء الفلك أن القمر يدور حول الأرض ، وأن الأرض تدور حول الشمس ، وأن الشمس تدور حول شىء لم يعلم حتى الآن .

والنعمة الرابعة جاءت فى قوله – تعالى – : (وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ) والمراد بالنجم : النبات الذى ينجم ويظهر فوق الأرض ، وليس له ساق كالبقول ، والمراد بالشجر : ماله ساق تحمله كالنخل والتفاح ونحوهما ، والمراد بسجودهما : خضوعهما لله – تعالى – فيما أراده منهما تكوينا وإثمارا ، ويعزى هذا الرأى إلى ابن عباس وابن جبير وأبى رُزَين .

وقال مجاهد وقتادة : النجم : نجم السماء ، وسجوده مع الشجر خضوعهما لأمر الله – تعالى – وإرادته فيما أراده منهما .

والرأى الأول أحسن وأحرى بالقبول ، فإن ذكر النجم مع الشجر يستدعى أن يكون النجم من النبات ، وهو الأجدر ببلاغة القرآن[٢] .

---

(١) سورة الذاريات الآية : ٥٦

(٢) واعلم أن لفظ « الرحمن » مبتدأ ، والجمل التى بعده أخباره ، ويقدر ضمير فى كل من (الشمس والقمر بحسبان . والنجم والشجر يسجدان) لترتبطا بالمبتدأ ، والتقدير : الشمس والقمر يجريان بحسبانه ، والنجم والشجر يسجدان له .

(وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ ﴿٧﴾ أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ ﴿٨﴾ وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ ﴿٩﴾)

المفـــردات :

(وَوَضَعَ الْمِيزَانَ) : وشرع العدل ، يقال : وضع الله الشريعة - أي شرعها .

(أَن لَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ) : لئلا تتجاوزوا فيه الحق .

(وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ) واجعلوا وزنكم بالعدل .

(وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ) : ولا تنقصوه .

التفسير

٧ - ٩ - (وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ * أَن لَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ * وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ) :

المراد من السماء هنا : ما جعلت الكواكب زينة لأولاها ، كما فى قوله تعالى : « وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ »[1] والمراد من رفعها : الرفع الحسِّى بحيث نراها فوقنا بعيوننا أو الحسِّى والمعنوى - أى الرتبىّ - فمرتبة السماء ومقامها عال ؛ لأنها منشأُ أحكامه - تعالى - وأوامره ، ومسكن ملائكته - عز وجل - فما أعظم ملكوت القادر العليم .

---

(١) سورة الملك من الآية : ٥

والمراد من وضع الميزان : شرع العدل فى الأمر كله ، والعدل هنا : هو تقويم الأمور وجعلها متلائمة متعادلة لا إفراط فيها ولا تفريط ، ولا تفاوت يُخل بها ويفسدها ، وهو بهذا المعنى يشمل خلق السموات والأرض وغيره ، وفى هذا المعنى يقول ﷺ : « بالعدل قامت السموات والأرض »[1] فأنت ترى السموات متلائمة فى تكوينها لا عيب فيها ، وفى ذلك يقول الله – سبحانه – : « ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقاً مَّاتَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ فَارْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ »[2] أى : هل ترى فى خلقها من شقوق وعيوب تخل بها ؟

ويقول الآلوسى فى تفسيرها : أى : شرع العدل وأمر به ، بأن وفر على كلٍّ مُسْتَعِدٍّ مُسْتَحقَّه ، ووفَّى كل ذى حق حقه ، حتى انتظم أمر العالم واستقام ، ثم قال :

فالمراد عدل الله – عز وجل – وإعطاؤه – سبحانه – كل شىء خلقه . ثم قال : هذا المعنى مروى عن مجاهد والطبرى والأكثرين .

وقال الحسن بن الفضل : معناه وشرع القرآن ؛ لأن فيه بيان ما يحتاج إليه ، وعن ابن عباس والحسن وقتادة والضحاك أن المراد بالميزان : ما يعرف به مقادير الأشياء ، من الآلة المعروفة والمكيال المعروف ونحوهما ، فمعنى (وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ) : خلقه مخفوضاً على الأرض ، حيث علق به أحكام عباده وقضاياهم المنزلة من السماء ، وما تعبدهم به من التسوية والتعديل فى أخذهم وعطائهم .

ونرى أن المعنى الأول هو المناسب ، حتى لا يتكرر مع قوله – تعالى – : (وَأَقِيمُواْ ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُواْ ٱلْمِيزَانَ) كما أنه هو المناسب لما قبله من رفع السماء ، أما ميزان الناس فلايناسب ما قبله ، والفجوة واسعة بينهما .

---

(١) انظر تفسير روح المعانى للآلوسى ، ج٩ ص١٠١ تفسير قوله تعالى : (ووضع الميزان) فقد ورد الحديث بلفظه .

(٢) سورة الملك الآية : ٣

ومعنى قوله : (أَن لَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ) وشرع العدل فى الأمر كله ؛ لئلا تجوروا على الناس فى أموركم المختلفة .

ومعنى : (وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ) وأقيموا وزنكم فى بيعكم وشرائكم بالعدل ، ولا تبخسوا فى الكيل والميزان .

(وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ ﴿١٠﴾ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَالنَّخْلُ ذَاتُ الْأَكْمَامِ ﴿١١﴾ وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ وَالرَّيْحَانُ ﴿١٢﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٣﴾)

المفـــردات :

(وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا) : خلقها موضوعة مخفوضة عن السماء حسبما يشاهد .

(لِلْأَنَامِ) : للإنس ، أو لهم وللجن .

(ذَاتُ الْأَكْمَامِ) صاحبة الأكمام ، وهى أوعية الطلع ، مفردها كِمّ بكسر الكاف .

(وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ) أىْ : ذو التبن .

(وَالرَّيْحَانُ) : هو على وزن فَعلان من لفظ الرِّيح ، ويطلق على كل مشموم طيب الرِّيح من النبات ، كما يطلق على الريحان المعروف وعلى الرزق .

(آلَاءِ) : الآلاء النعم ، واحدها أَلْى بفتح الهمز وقد يكسر ، مثل مِعًى وأمعاء .

التفسير

١١ - ١٣ - (وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ * فِيهَا فَاكِهَةٌ وَالنَّخْلُ ذَاتُ الْأَكْمَامِ * وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ وَالرَّيْحَانُ * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ) :

المراد بالأنام : الناس فى رواية عن ابن عباس ، وفى رواية أخرى عنه وعن قتادة وابن زيد وغيرهم : الأنام : الحيوان كله - كما فى مجمع البحرين . وقال الحسن : الإنس والجن . والظاهر أنها مخلوقة للإنس والجن والحيوان والسمك ، فإنهم جميعاً يعيشون فيها ، وينتفعون بخيراتها ، وقال صاحب القاموس : الأنام : الخلق .

وقد عقب الله هذه الآية بقوله : (فِيهَا فَاكِهَةٌ وَالنَّخْلُ ذَاتُ الْأَكْمَامِ * وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ وَالرَّيْحَانُ) ففيهما تقرير للآية التى قبلها ، من أن الأرض موضوعة للأنام ، فقد تضمنت بعض النعم التى أعدها الله فى الأرض لمنفعتهم ، من فاكهة كثيرة يتفكهون بها ، ونخل ذات أكمام - أى : أوعية تشتمل على الطَّلْع الذى يحوله الله إلى بلح فرطب فتمر ، فيتغذون بثمارها ويتفكهون ، وحَبٌّ ذى تبن وريحان ، فالحب : القمح والشعير والذرة وغيرها ، وهو غذاء للإنس والجن والحيوان ، والتبن لغذاء الحيوان ، والريحان : كل مشموم طيب الريح من النبات ، منعش للنفوس كالورد والياسمين ، كل ذلك وغيره أعده الله لمنفعة الأنام ، فما أعظم نعم الله على خلقه وأحقه بالشكر عليها ، وبذل الوسع فى طاعته ، ثم يخاطب الله الكافرين من الثقلين الداخلين فى عموم الأنام بقوله موبخا لهم ومنكراً عليهم (فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ) الفاء فى قوله : (فَبِأَيِّ آلَاءِ) لترتيب التوبيخ والإنكار بعدها على كفرهم بالنعم التى قبلها ، مع أنها من موجبات الإيمان ، أى : إذا كانت هذه نعماً عليكما أيها الثقلان ، فبأى نعم الله الذى رباكما تكفران ، بإنكار كونها من نعم الله عليكما ، أو إنكار دلالتها على وجود الله ووحدانيته ، أخرج ابن جرير والخطيب فى تاريخه وغيرهما بسند صحيح : عن ابن عمر - رضى الله عنهما - أن رسول الله ﷺ قرأ سورة الرحمن على أصحابه فسكتوا ، فقال : « مالى أسمع الجن أحسن جواباً لربها منكم ؟ ما أتيت على قوله - تعالى - : (فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ) إلا قالوا : لا بشىء من نعمك ربَّنا نكذِّب فلك الحمد » .

(خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ كَٱلْفَخَّارِ ﴿١٤﴾ وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ ﴿١٥﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٦﴾ رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ ﴿١٧﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٨﴾ مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ﴿١٩﴾ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ ﴿٢٠﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢١﴾ يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴿٢٢﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٣﴾)

المفـــردات :

(صَلْصَالٍ) : طين جاف له صلصلة ـ أي صوت ـ إذا نقر .

(كَالْفَخَّارِ) : الفخار : الخزَف ، وهو ما أحرق من الطين حتى تحجر .

(مِن مَّارِجٍ) : من لهب خالص ، وسيأتي بسط الآراء فيه .

(مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ) : أرسل البحرين العذب والملح .

(رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ) : رب مشرقي الشمس ومغربيها ـ صيفًا وشتاء .

(بَرْزَخٌ) : حاجز .

(اللُّؤْلُؤُ) : صغار الدر .

(وَالْمَرْجَانُ) كبار الدُّر ، وقيل غير ذلك ، وسيأتي بيانه .

التفسير

١٤ - ١٦- (خَلَقَ الْإِنسَانَ مِن صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ * وَخَلَقَ الْجَانَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ) :

الآيتان الأُوليان تمهيد لتوبيخ الثقلين على إخلالهما بموجب شكر النعمة المرتبطة بذاتى كل واحد منهما ، والمراد بالإنسان : آدم - عليه السلام - وقيل الجنس الشامل لأَولاده ، فهم مخلوقون من الصلصال تبعاً لأَبيهم .

والصلصال : الطين اليابس الذى له صلصلة - أى : صَوْت - إذا نُقِر ، وقيل : هو الطين المنتن ، من صَلَّ اللحم إذا أنتن ، والفخار : هو ما أحرق من الطين حتى تحجر ، ويسمى الخزف .

واعلم أن أصل آدم ومنشأَه هو التراب ، ثم تحول التراب إلى طين ، ثم إلى حمأٍ مسنون - أى : طين يابس منتن ، ثم إلى صلصال كالفخّار ، ولهذا ترى منشأَه يختلف باختلاف الآيات ، فتراه فى بعضها التراب ، وفى أُخرى الطين أو الحمأ المسنون أو الصلصال فلا تعارض بينها ؛ لأن كلا منها يتكلم على طور من أطوار خلقه ، ولا عجب فى أن يكون منشأ الإنسان ما ذكر ، فإن الله على كل شىء قدير ، وهو الذى يقول للشىء : كن فيكون .

وجاء فى الآية الثانية : أن الجانَّ خُلق من مارج من نار ، فالجانُّ أبو الجن ، وهو إبليس كما قاله الحسن ، وقال مجاهد : هو أبو الجن وليس إبليس ، كما جاء فيها أنه خلق من مارج من نار ، ولفظ (مِن) فى قوله تعالى : (مِن مَّارِجٍ) يشير إلى مبدأ خلقه . وفى قوله : (مِن نَّارٍ) يبين المراد من مارج ، فإن أصله من مرج الشىء إذا اضطرب واختلط ، فيصدق على النار وغيرها ، فجاء قوله : (مِن نَّارٍ) ليبينه ، ومعناه كما قال الجوهرى فى الصحاح : نار لادخان لها خلق منها الجان ، وعن ابن عباس - رضى الله عنهما - ومجاهد : أنه اللهب الذى يعلو النار ، يختلط بعضه ببعض ، أحمر ، وأصفر ، وأخضر - كما نقله القرطبى .

وقد عقب الله هاتين الآيتين باستفهام إنكارى توبيخى ، وذلك فى قوله تعالى : (فَبِأَىِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ) أى : فبأى نعم ربكما تكذبان أيها الثقلان ؟ ، أتكفران بمنشأ خلقكما ، أم تكفران بغيره ؟ .

١٧ – ١٨ – (رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ * فَبِأَىِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ) :

المراد بالمشرقين : مشرق الشمس شتاء وصيفاً ، وبالمغربين : مَغْرباها كذلك . وقيل : المشرقان مشرق الشمس ومشرق القمر ، والمغربان كذلك ، وهذه الآية كناية عن أنه – تعالى – ربها ورب ما بينها من الكائنات .

والمعنى : الذى أبدع ما مرّ من النعم هو مالك المشرقين والمغربين وما بينهما ، لايشاركه فى خلقها أحد ، وحيث كانت المشارق والمغارب ومابينها من إبداعه – تعالى – وداخلة فى ملكوته ، فمن حقه أن يُعبد ولا يُجحد ولا تُكذب آلاؤُه ونعمه ، ولهذا أنكر على المشركين تكذيبهم لآلائه ونعمه ، ووبخهم على هذا التكذيب بقوله – جل وعلا – بعد هذه الآية – : (فَبِأَىِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ) أتكذبان بخلقه المشارق والمغارب وما بينها من الكائنات واختلاف الفصول وما يترتب عليه من المنافع والمصالح ، أم تكذبان بغير ذلك ؟ اللهم لا بشىء من آلائك نكذب ، سبحانك فلك الحمد .

١٩ – ٢٣ – (مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ * بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ * فَبِأَىِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ * فَبِأَىِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ) :

قال الآلوسى فى معنى : (مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ) أى : أرسلهما وأجراهما ، من مرجت الدابة فى المرعى ، أى : أرسلتها فيه ، أى : أرسل الله البحر الملح والبحر العذب .

ونقول : إن هذا هو التفسير الموافق لقوله تعالى : « وَهُوَ الَّذِى مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا »[1] ولقوله : « وَمَا يَسْتَوِى

(١) سورة الفرقان الآية ٥٣

الْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا »(١) .

أما قول الحسن : إنهما بحرا فارس والروم ، فإنه مخالف لصريح الآيات المذكورة ، والقرآن يفسر بعضه بعضاً .

وقد ذكر الله أن هذين البحرين يلتقيان . بينهما برزخ لايبغيان ، فأما التقاؤهما فيكون عند مصاب الأنهار فيها ، وأما البرزخ الذى بينهما فهو القدرة الإلهية التى منعت أن يبغى الماء الملح على العذب فيحوله إلى ملح ، وأن يبغى العذب على الملح فيحوله إلى عذب ، فبقى كلاهما يؤدى وظيفته التى خلق لها .

وهل هذا الحاجز هو أنه ـ تعالى ـ خلق الأرض كروية ، وأن الارتفاع الكروى هو الذى يمنع أن يبغى أحدهما على الآخر ، ويدل على ذلك أن الشمس تشرق فى أرض قبل أخرى ، وتغرب فى أرض قبل أخرى ، بسبب هذا التكوير ، فيبقى كل منهما فى مكانه لا يبغى على الآخر ، ولا يمنع لقاؤهما فى طرفيهما من أن يبقى ما وراء هذا اللقاء حافظاً لخواصه ، فتبارك الله أحسن الخالقين .

ولاشك فى أن جاذبية الأرض تبقى كل شىء فى مكانه ، من جبال ورمال وإنسان وحيوان وغير ذلك ، مع سرعة الأرض الخارقة فى دورانها ، ولو كانت الأرض مسطحة لبقيت الشمس مشرقة فيكون الوقت كله نهاراً لا ليل فيه ، ولا بقى شىء من البحرين محافظاً على خواصه ، فإنه يندمج كل منهما فى الآخر .

وقيل : إن البرزخ الذى بينهما هو الأرض اليابسة التى بينهما ، وحينئذ يكون المراد من لقائهما تقابلهما وتجاورهما ، والذى قلناه هو المتعين ، وفيه من الدلالة على قدرة الله مافيه ، ويلاحظ أنه لا توجد أرض يابسة غند مصاب الأنهار كما زعموا ،

(١) سورة فاطر من الآية : ١٢

وذكر الله ـ تعالى ـ أنه يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان . ويقول بعض المفسرين : إن اللؤلؤ صغار الدر . والمرجان كباره ، ونقل ذلك عن الإمام على ـ رضى الله عنه ـ وقيل : عكس ذلك . وروى عن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ وروى عن ابن مسعود أن المرجان الخرز الأحمر ، وعلى هذا يكون اللؤلؤ شاملا لكباره وصغاره . وهذا هو المتعارف بين الناس .

وجاء فى الآية أن كليهما يخرج من البحرين الملح والعذب . مع أن المعروف هو وجودهما فى الملح دون العذب ، وأجاب القرطبى عن ذلك بقوله : إن العرب تجمع الجنسين ثم تخبر عن أحدهما ، كقوله ـ تعالى ـ : « يَامَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُم » وإنما الرسل من الإنس دون الجن : قاله الكلبى وغيره : وقال الزجاج : قد ذكرهما الله ، فإذا أخرج من أحدهما شئ فقد خرج منهما . وهو كقوله تعالى : « أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ طِبَاقاً وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُوراً »[1] ولكن أجمل ذكر السبع ، فكأن ما فى إحداهما فيهن ، إلى غير ذلك مما ذكره القرطبى .

والحق أنه يخرج من كليهما كما أظهره العلم الحديث ، فقد جاء فى هامش التفسير المنتخب الذى أخرجته وزارة الأوقاف المصرية ، تعليقاً على قوله تعالى : « وَمَا يَسْتَوِى الْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْماً طَرِيّاً وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا »[2] ـ جاء فى الهامش ـ « أن اللؤلؤ كما يستخرج من أنواع معينة من البحر الملح ، يستخرج أيضاً من أنواع أخرى صدفيات من الأنهار ، فتوجد اللآلىء فى المياه العذبة فى انجلترا واسكتلاندا وويلز وتشيكوسلوفاكيا واليابان » إلخ بالإضافة إلى مصايد اللؤلؤ البحرية المشهورة ، ويدخل فى ذلك ما تحمله المياه العذبة من المعادن العالية ، كالماس الذى يستخرج من رواسب الأنهار الجافة المعروفة بالبرقة ، ويوجد الياقوت كذلك فى الرواسب النهرية .

---

(١) سورة نوح الآيتان : ١٥ و ١٦

(٢) سورة فاطر من الآية : ١٢

ومن الأحجار شبه الكريمة التى تستعمل فى الزينة حجر التوباز ، ويوجد فى الرواسب النهرية فى مواقع كثيرة ومنتشرة فى البرازيل وروسيا (الأورال) وسيبريا ـ ثم قال : ويغلب أن يكون أصفر أو بنيًّا ، إلى آخر ما جاء فى الهامش المذكور من الأحجار الكريمة التى تستخرج من الرواسب النهرية .

والمعنى الإجمالى للآيتين : أرسل الله ـ تعالى ـ البحرين الملح والعذب ، وجعلهما يلتقيان فى أطرافهما ، وهذا الالتقاء والتمازج فى الأطراف لم يجعل أحدهما يبغى على الآخر بإيصال خاصيته فى داخله ؛ لأنه ـ تعالى ـ جعل بينهما حاجزاً يمنع التمازج الكلى بينهما ، وهذا الحاجز هو تدرج أجزاء الأرض إلى الارتفاع الكروى ، وهذه الكروية مع سرعة دورانها الرهيبة تبقى كليهما فى داخله محافظاً على خاصيته ، ومثل ذلك كمثل الشمس تشرق فى أرض وبلاد أخرى وتغرب كذلك ، وهذا بسبب الارتفاع الكروى الذى يحجز إشراقها أو غروبها فى أرض قبل أخرى ، بالإضافة إلى جاذبيتها الشديدة ، فهى تجذب كل ما فوقها إليها ، حتى لا يفارق مكانه بسبب سرعتها ، ولو كانت غير كروية لا ختلط الملح بالعذب ، وأبطل كل منهما خاصية الآخر ، ولأشرقت الشمس على جميع بقاعهـا فى وقت واحد ، فيبقى الزمن كله نهاراً لا ليل له ، وكل ذلك بقدرة الله الذى أحسن كل شىء خلقه ، فتبارك الله أحسن الخالقين .

ومن العلماء السابقين من قال : إن الحاجز بين البحرين هو الأرض اليابسة بينهما ، وجعل التقاءهما تقاربهما ، وهذا غير متيسر فى كل الأنهار ، بل المشاهد هو التلاقى الامتزاجى فى الأطراف ، حتى لايكون الماء العذب آسنا متغير الطعم واللون ، فماقلناه أوَّلاً هو الحق ، وصدق الله ـ تعالى ـ إذ يقول : « سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِى الْآفَاقِ .. »[1] .

ويعقب الله ـ تعالى ـ هاتين الآيتين بقوله : (فَبِأَىِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ) مما لكما فى ذلك من المنافع ، وبقوله : (يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ * فَبِأَىِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ) أى : يخرج من البحرين الملح والعذب اللؤلؤ والمرجان ، على ما تقدم بيانه ، فكما جعل الأرض

---

(١) سورة فصلت من الآية : ٥٣

تنبت لنا الزروع والأشجار . والحب ذا العصف والريحان . جعل البحرين لنأكل منهما لحمًا طريًّا ، ونستخرج منهما حلية نزدان بها . فكل من البرِّ والبحر أساس حياتنا وزينتنا ، وكل ذلك آلاء ونعم لا يمكن تكذيبها وإنكارها . فبأيها تكذبان أيها الثقلان .

(وَلَهُ ٱلْجَوَارِ ٱلْمُنشَـَٔاتُ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَـٰمِ ﴿٢٤﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٥﴾ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَـٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٨﴾ يَسْـَٔلُهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ ﴿٢٩﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٠﴾)

المفـردات :

(وَلَهُ الْجَوَارِى) : وله السُّفُن – جمع جارية .

(الْمُنشَآتُ) : المرفوعات الشرع كما قال مجاهد ، من أنشأه بمعنى رفعه ، ويدخل فى هذه الجوارى السفن التى تدار بمحركات آلية ، فهى له – سبحانه – .

(كَالْأَعْلَامِ) : كالجبال المرتفعة . جمع علم وهو الجبل الطويل .

(فَانٍ) : هالك .

(وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ) : ويبقى ذاته ، وسيأتى بيانه فى موضعه .

(كُلَّ يَوْمٍ) : المراد باليوم : الزمان مطلقاً . فيصدق على كل وقت ولحظة .

(هُوَ فِى شَأْنٍ) أى : فى أمر من الأمور العظيمة ، ويجمع على شئون .

التفسير

٢٤ ـ ٢٥ـ (وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنشَآتُ فِى الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ * فَبِأَىِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ)

ولله من النعم على عباده السفن التى تجرى فى البحر ، تحمل الناس وما يتّجرون فيه من قطر إلى قطر ، ومن مكان إلى مكان ، وهذه السفن منشآت ـ أى : مرفوعات كالجبال فوق ظهر الماء بقدرته ـ تعالى ـ فهى ملك له ـ جل وعلا ـ فهو الذى خلق ما صنعت منه ، وهو الذى يجريها فوق سطح الماء ويحفظها من الغرق فى رحلاتها الطويلة والقصيرة ، فيسلم أهلها وتجارتهم ، فهى لله خلقًا وملكًا وتصرفًا ، ولا يمنع ذلك ملك الناس لها ، فهو الذى أرشدهم إلى كيفية صناعتها وإجرائها فى مختلف البحار ، فكل أمورها ترجع إلى الله ـ تعالى ـ فهى وأهلها لله رب العالمين ، فبأى نعم الله فى شأن السفن الجوارى تكذبان يا معشر الثقلين .

٢٦ ـ ٢٨ـ (كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ * وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ * فَبِأَىِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ) :

الضمير فى عليها يرجع إلى الأرض التى وضعها الله للأنام ، والمراد من وجه الله : ذاته ـ جل وعلا ـ فإضافة لفظ « وجه » إلى لفظ « رب » إضافة بيانية ، فكأنه قيل : ويبقى ربك ، واستعمال الوجه بمعنى الذات مجاز مرسل ، ومثل ذلك شائع فى لغة العرب ، وهذا هو تفسير الخلف : مَنْعًا لاعتقاد أن لله وجهًا يشبه وجه الإنسان ، وأنه جزءٌ من ذاته ، فإن ذلك كفر ، قال تعالى : « لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَىْءٌ » .

أما السلف فيقولون : إن لله وجهًا لا كوجه الإنسان ، فالمماثلة للخالق ممنوعة ، وذهب بعض العلماء إلى تأويلات أخرى ، وحسب القارئ ما تقدم .

وجلالُ الله عَظَمته ، وإكرامه ـ تعالى ـ هو تنزيهه عمَّا لا يليق به من الشرك وسواه من صفات النقص ، كما تقول : أنا أكرمك عن كذا أى : أنزهك عنه ، والله ـ تعالى ـ متصف بهما ، سواءٌ أجَلَّه ونزهه الناس ، أم لم يفعلوا ذلك .

والله ـ تعالى ـ يعدد فى هذه السورة آلاءه ونعمه ، فما وجه ذكر الفناء للخلق فى آلائه ـ تعالى ـ ؟ والجواب : أن الفناء بابٌ للبقاء والحياة الأبدية فى جنة عرضها السموات

والأرض ، وقال الطيبي : المراد من قوله تعالى : (كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ) ملزوم معناها ؛ لأنها كناية عن مجيء وقت الجزاء . وهو من أجلِّ النعم على المؤمنين . ولذلك خص الجلال والإكرام بالذكر ؛ لأنهما يدلان على الإثابة والعقاب . تبشيرًا للمؤمنين ، وتحذيرًا للعباد من ارتكاب ما يترتب عليه العقاب ، ولذلك رتب عليها بالفاء قوله تعالى : (فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ) .

٢٩ - ٣٠ - (يَسْأَلُهُ مَن فِي السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ[1] ، فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ) :

المراد بمن في السموات والأرض : أهلهما من الملائكة والإنس والجن وغيرهم ممن لا يعلمهم إلَّا الله – تعالى – فالله – سبحانه وتعالى – لم يجعل الجنة كعرض السموات والأرض لأهل هذه الأرض ، بل لهم ولغيرهم من المكلفين فيهما ممن نعلمه ومن لا نعلمه ، فقد جاء في القرآن أن الأرض سبع كالسموات ، قال تعالى في آخر سورة الطلاق : « اللهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ » وكان ابن عباس يرى أن الأرضين الأخرى بها مكلفون مثلنا ، كما أن سكان السماء لا نستطيع القطع بأنهم الملائكة فحسب . فقد يكون فيهن سكان عقلاء مكلفون ، فلهذا جعل الله الجنة كعرض السماء والأرض لكي تتسع للمكلفين فيهن ، والله – تعالى – أعلم .

والمراد من كل يوم كل وقت من الأوقات ، ولحظة من اللحظات ، والمراد من الشأن الشئون المختلفة ، فهو مفرد في معنى الجمع ، كما في قوله تعالى : « ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا » أي : أطفالًا .

وشئون الله تعالى في كل لحظة لا تعد ولا تحصى ، كما أن كلامه لا يعد ولا يحصى ، قال تعالى : « وَلَوْ أَنَّ مَا فِي الْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِن بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللهِ »[2] ، ومن شئونه – جلَّ وعلَا – أنه ينشئ أشخاصًا ويفني آخرين ، ويغفر

(١) كل يوم هو في شأن كلام مستأنف ، وكل ظرف لما بعده .
(٢) سورة لقمان من الآية : ٢٧

ذنوبًا ويفرج كروبًا ، ويرفع أقوامًا ويخفض آخرين ، ويجيب دعاء بعض الداعين ، ولايجيبه لآخرين ، ويعز ويذل ، ويرزق ويمنع ، إلى غير ذلك من شئون الكون .

وقال الكلبي : شأنه سوق المقادير إلى المواقيت . وروى أن عبد الله بن طاهر ، دعا الحسين بن الفضل وقال له : أشكلت على ثلاث آيات دعوتك لتكشفها لى ، قوله تعالى : « فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ » وقد صح أن الندم توبة ، وقوله : « كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ » ، وقد صح أن القلم جف بما هو كائن إلى يوم القيامة ، وقوله : « وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ » فما بال الأضعاف ؟ فقال الحسين : يجوز أن لا يكون الندم توبة فى تلك الأمة . ويكون توبة فى هذه الأمة ؛ لأن الله – تعالى – خص هذه الأمة بخصائص لم تشاركهم فيها الأمم ، وقيل : إن ندم قابيل لم يكن على قتل هابيل ، ولكن على حمله ، وأما قوله : « كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ » فإنها شئون يبديها ولا يبتديها[1] ، وأما قوله : « وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ » فمعناه : ليس له إلَّا ما سعى عدلًا ، ولى أن أجزيه بواحدة ألفا فضلًا ، فقام عبد الله وقبل رأسه وسوَّغ خراجه ، أى : أمر بعطائه والإنعام عليه .

وبعد هذا نقول : إن تلك الآراء ما هى إلَّا نماذج من شئونه – تعالى – وشئونه لا تحصى والمعنى الإجمالى للآيتين : يسأل الله أهل السموات وأهل الأرض عن حاجاتهم وضروراتهم؛ لأنه هو الذى خلقهم ، وهو الذى يجيب مسألتهم ، كل وقت هو – سبحانه – فى شئون كثيرة لا تحصى من شئون ملكوته ، ومن جملتها سماع أسئلة عباده والبت فى أسئلتهم ، إيجابًا أو سلبًا ، فالله – سبحانه – لا يغفل عن ملكوته طرفة عين ، فلهذا لا ترى نقصًا فى سمواته وأرضه ، فهو « الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَٰنِ مِن تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ * ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ »[2] ، فبأى نعمة من نعم ربكما تكذبان أيها الثقلان ، وهو الذى تسألونه فيحقق أسئلتكم

---

(١) أى شئون مما كتبه الله – تعالى –، يظهرها فى الحين الذى قدر ظهورها فيه ، ولا يبتدئ إرادتها والعلم بها .

(٢) سورة الملك الآيتان : ٣ و ٤

(سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ ﴿٣١﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٢﴾ يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا۟ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ فَٱنفُذُوا۟ ۚ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَٰنٍ ﴿٣٣﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٤﴾ يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنتَصِرَانِ ﴿٣٥﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٦﴾)

المفـــردات :

(سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَا الثَّقَلَانِ) : سَنَأْخذ فى جزائكم فقط أيها الإنس والجان .

(أن تَنفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ) : أن تخرجوا من جوانبها .

(إِلَّا بِسُلْطَانٍ) : إلا بقوة وقهر .

(شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ) أى : لهب من نار ونحاس مذاب يصب فوقكم .

(فَلَا تَنتَصِرَانِ) : فلا تمتنعان من العقوبة بهما ، وسيأتى فى الشرح بيان ماتقدم .

التفسير

٣١ – ٣٢ – (سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَا الثَّقَلَانِ * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ) :

جاء فى الآية السابقة أنه – تعالى – (كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ) أى : كل وقت هو فى شئون ملكوته التى لا تحصى ولا تعد ، ومن جملتها شئون الثقلين ، وجاءت هذه الآية لتبيين أنه – سبحانه – سيفرغ من شئونهم الدنيوية من الخلق والرزق والإحياء والإماتة وتدبير

سائر أحوالهم - سيفرغ من ذلك كله - إلى شأن واحد هو جزاؤهم يوم القيامة على أعمالهم فى الدنيا .

ويجوز أن يكون المعنى : سنفرغ من شئون الدنيا كلها - ومنها شئون الثقلين فيها - إلى جزائهم فى الآخرة فإنه - سبحانه - سيبدل الأرض غير الأرض والسموات ، وتبرز الخلائق وتظهر بالبعث والحشر بعد موتهم وفنائهم ، أى : سيحيون لجزائهم منه - تعالى - .

ومعلوم من الدين بالضرورة أنه - تعالى - وقد انتهى من شئون الدنيا - فإنه معنى بشئون الآخرة - وما أكثرها - فليس شأنه فى الآخرة مقصوراً على جزاء الثقلين ، فلهذا تعتبر الآية من قبيل الوعيد للإنس والجن بأنه - تعالى - سيعاقبهم إن كفروا وعصوا ربهم ، وبهذا المعنى قال ابن عباس - رضى الله عنهما - .

وقيل : إنَّ فرغ قد تكون بمعنى قصد ، وهو المراد هنا ، ونقل هذا عن الخليل والكسائى والفراء ، وعلى هذا يكون المراد حينئذ : تعلق الإرادة بجزائهم تعلقاً تنجيزياً .

وقد عبر الله عن الإنس والجن بالثقلين لعظم شأنهما ، ولذا يقال : العظيم القَدْر ثَقَلٌ ، ومنه قوله ﷺ : « إنى تارك فيكم الثَّقَلَيْن - كتاب الله وعِترتى »[1] ، وقيل : لأنهما مثقلان بالتكاليف .

والمعنى الإجمالى للآيتين : سنقصد تنجيز عقابكم يوم القيامة ، ونريد تحقيق ما أردناه لكما أزلًا أيها الثقلان إن لم تؤمنوا ، فبأى نعمة من نعمى التى مِنْ جملتها التنبيه على ما ستلقونه يوم القيامة ، لعلكم تتقونه بإيمانكم - فبأى نعمة منها - تكذبان .

٣٣ - ٣٤ - (يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانفُذُوا لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ) :

---

(١) انظر : مسند الإمام أحمد ج ٣ ص ١٤ ، والطبرانى ج ٥ ص ١٩٠ حديث ٤٩٨٠ ، والحاكم ج ٣ ص ١٤٨

المعشر : الجماعة ، وقد ذكر الله في الآية السابقة مايفيد أنه سيعاقب الجن والإنس إن كفروا ، وجاءت هذه الآية لتعجيزهم عن الهَرَب للتخلص من عقابه .

والمعنى : ياجماعة الجن والإنس أنتم راجعون إلينا بعد الموت لعقابكم على كفركم ومعاصيكم ، فإن قدرتم على الهرب والتخلص منه بالخروج من جوانب السموات والأرض ، فاخرجوا منها وخلصوا أنفسكم من عقابي . لا تخرجون منها إلَّا بسلطان وقوة وقهر ، أنتم لا تقدرون على ذلك . عاجزون عن تحقيقه ، لأنكم لا سلطان ولا قدرة لكم على تحقيقه ، فأنتم محصورون في ملكوتي في حين لا ملكوت لغيرى حتى تخرجوا إليه – إن قدرتم – فبأى نعمة من نعم ربكما تكذبان وتكفران . ومنها تحذيركم من العقاب لتتقوه .

٣٥ – ٣٦ – (يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنتَصِرَانِ . فَبِأَىِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ) :

شواظ النار : لهيبها الخالص من الدخان ، وبهذا المعنى أخذ ابن عباس ، وقيل : هما جميعًا ، حكاه الأخفش عن بعض العرب ، والنحاس : هو دخان النار على القول الأول ، وقيل : هو النحاس المعروف ويسمى الصُّفْر ، يذاب ويصب على رءُوسهم ، وروى هذا : مجاهد وقتادة ، وكذا ابن عباس في رواية عنه .

وهذه الآية جواب عن سؤال مقدر عن الداعي للفرار أو عمَّا يصيبهم .

والمعنى : يرسل عليكما أيها الثقلان لهب شديد من نار ، كما يرسل عليكما نُحَاسٌ مذاب يصب فوق رءُوس الكافرين منكما ، فلا تمتنعان من العذاب ، ولا تستطيعان الهرب منه لو أردتموه ، فبأى نعم ربكما تكذبان ،ومنها تنبيهكم إلى أنكم لا تستطيعون الفرار من العذاب إن بقيتم على كفركم .

(فَإِذَا ٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَٱلدِّهَانِ ﴿٣٧﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٨﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ ﴿٣٩﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٠﴾ يُعْرَفُ ٱلْمُجْرِمُونَ بِسِيمَٰهُمْ فَيُؤْخَذُ بِٱلنَّوَٰصِى وَٱلْأَقْدَامِ ﴿٤١﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٢﴾ هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِى يُكَذِّبُ بِهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٤٣﴾ يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ ﴿٤٤﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٥﴾)

المفردات :

(فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ) أى: كالوردة فى الحمرة ، لامعة كالدهان ، والدهان قيل إنه مفرد كالدهن ، وقيل : إنه جمع دهن ، وقال الحسن : أى كالدهان المختلفة ؛ لأنها فى الإعراب خبر ثان لكانت أو نعت لوردة .

(يَطُوفُونَ) : يترددون .

(حَمِيمٍ آنٍ) : ماء شديد الحرارة .

(بِالنَّوَاصِي) : جمع ناصية وهى : مقدم الرأس .

٣٧ - ٤٢ - (فَإِذَا انشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْأَلُ عَن ذَنبِهِ إِنسٌ وَلَا جَانٌّ * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * يُعْرَفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي وَالْأَقْدَامِ * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ) :

انشقاق السماء : انصداعها يوم القيامة ، وبعد انشقاقها تكون حمراء كالوردة ، لامعة كالزيت ، أو صافية كصفائه .

وجواب إذا تقديره . كان ما كان مما يعجز عنه البيان .

ومعنى هذه الآيات : فإذا تصدعت السماء ، فصارت حمراء كالورد . صافية كالزيت ، يكون من الأهوال ما لا يقدر على وصفه البيان ، فبأى نعمة من نعم ربكما تكذبان ، ومنها ما تقدم من ذكر أهوال يوم القيامة . توعية للثقلين لحملهما على الوقاية من تلك الأهوال بالإيمان ، فيوم تكون السماء كذلك لا يسألُ عن ذنبه إنس ولا جان ، كما قال تعالى : « وَلَا يُسْأَلُ عَن ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ »[1] لأن الله حفظها عليهم وسطرتها الملائكة فى كتبهم .

يعرف هؤلاء المجرمون بعلاماتهم ، من سواد الوجوه وزرقة العيون ، كما قال تعالى : « يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ »[2] وكما قال – سبحانه – : « وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا »[3] فتأخذ الملائكة بشعور مقدم رءوسهم وبأقدامهم ، فيقذفونهم فى نار جهنم فبأى نعمة من نعم ربكما تكذبان يا معشر الثقلين .

وجعل ذلك من نعم الله عليهم من جهة أن فيه تحذيراً لهم من هذا المصير ، وحملًا لهم على الإيمان .

فإن قيل : إنه قد جاء فى القرآن أنهم يُسألون ، كقوله تعالى : « فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۝ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ »[4] ، فالجواب : أن فى يوم القيامة الطويل مواقف ، ففى بعضها يسألون ، وفى آخر لا يسألون ، وقال ابن عباس : حيث ذكر السؤال فهو سؤال توبيخ ، وحيث نفى فهو استخبار محض ، يعنى : أن سؤالهم لمعرفة أخبار جرائمهم لا يحصل ؛ لأن الله وملائكته يعلمونها ، ولأنها مكتوبة فى صحائفهم ، ولأن أعضاءهم تشهد عليهم

(١) سورة القصص من الآية : ٧٨
(٢) سورة آل عمران من الآية : ١٠٦
(٣) سورة طـه من الآية : ١٠٢
(٤) سورة الحجر الآيتان : ٩٢ و ٩٣

٤٣ - ٤٥ - (هَٰذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِى يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ * يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ آنٍ * فَبِأَىِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ) :

(هَٰذِهِ جَهَنَّمُ) : مقول لقول مقدر ، وهذا المقدر معطوف على قوله تعالى : (يُؤْخَذُ) أى : ويقال للمجرمين ، أو مستأنف جوابًا لسؤال مقدر ، أى : ماذا يقال لهم حينئذ ، والذى يقول لهم هذا هم الملائكة الذين وكل إليهم تعذيبهم .

والمعنى : يقول الملائكة الذين وكل إليهم عقابهم توبيخًا وتأنيبًا ومضاعفة لآلامهم - يقولون لهم - حين يأخذون بنواصيهم وأقدامهم ويلقونهم فى النار : هذه جهنم التى يكذب بها المجرمون أمثالكم يترددون بينها وبين شراب شديد الحرارة يقطع أمعاءهم ، فبأى نعم ربكما تكذبان أيها المكذبون من الإنس والجن .

واعتبر هذا القول نعمة من نعم الله فى الدنيا للثقلين ؛ لأنه ربما دعاهم إلى الإيمان ليتقوا هذا العذاب .

(وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٧﴾ ذَوَاتَآ أَفْنَانٍ ﴿٤٨﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٩﴾ فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ ﴿٥٠﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥١﴾ فِيهِمَا مِن كُلِّ فَٰكِهَةٍ زَوْجَانِ ﴿٥٢﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٣﴾ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ فُرُشٍۭ بَطَآئِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ وَجَنَى ٱلْجَنَّتَيْنِ دَانٍ ﴿٥٤﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٥﴾)

المفـــردات :

(وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ) أى : خاف قيام ربه وهيمنته عليه ، فمقام : مصدر ميمى مضاف إلى الفاعل ، فالقيام هنا مثله فى المعنى قوله - تعالى :- « أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ »[(١)] وللكلام بقية فى شرحها .

(جَنَّتَانِ) : بستانان .

(أَفْنَانٍ) : جمع فَنٍّ بمعنى : نوع . أو جمع فَنَن وهو ما دَقَّ ولان من الأغصان .

(زَوْجَانِ) : صنفان ، وسيأتى بيان ذلك فى موضعه من الشرح .

(مُتَّكِئِينَ) : الاتكاءُ الاعتماد والتحمل ، والتُّكَأَةُ العصا وما يتكأُ عليه ؛ ومنه بمعنى الجلوس قوله ﷺ : « أنا لا آكل متكئًا »[(٢)] أى : جالسًا على هيئة المتمكن المتربع المستدعية لكثرة الأكل ، بل كان قعوده مستوفزًا[(٣)] .

(إِسْتَبْرَقٍ) : ديباج ثخين ، والديباج الحرير المنقوش ، وهو فارسىٌّ مُعَرَّب .

(وَجَنَى الْجَنَّتَيْنِ) أى : ما يجنى ويؤخذ من ثمار أشجارها .

التفسير

٤٦ - ٤٩ -(وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * ذَوَاتَا أَفْنَانٍ * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ) :

ذكر الله فيما مضى من الآيات أحوال أهل النار ، وجاءت هذه الآيات وما بعدها لتبين الآلاء والنعم التى أعدها الله لعباده المؤمنين الأبرار ، وهم الذين خافوا مقام ربهم يوم الحساب.

وهذه الآيات نزلت فى أبى بكر - رضى الله عنه - روى عن ابن الزبير وابن شوذب وابن أبى حاتم عن عطاء ، أنه - رضى الله عنه - ذكر ذات يوم وفكر فى القيامة والموازين والجنة والنار ، وصفوف الملائكة وطى السموات ونسف الجبال وتكوير الشمس وانتثار

---

(١) سورة الرعد من الآية : ٣٣

(٢) رواه البخارى .

(٣) ومن معانى الاتكاء: الاضطجاع على الجنب . انظر : لفظ « وكأ » ولفظ « ضجع » فى القاموس

الكواكب ، فقال : وددت أنى كنت خَضِرًا من هذه الخضر ، تأتى علىَّ بهيمة فتأكلنى وأنى لم أُخلق ، فنزلت : (وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ) وهى وإن نزلت بسبب خوف أبى بكر الصديق - رضى الله عنه - فالعبرة بعموم اللفظ لكل خائف ، لا بخصوص السبب .

ومقام مصدر ميمى معناه : قيام ، وهو مضاف إلى الفاعل ، أى : ولمن خاف قيام ربه وهيمنته عليه يوم القيامة ، وذلك هو المقصود من قوله تعالى : « أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ »[1] وهذا المعنى مروى عن مجاهد وقتادة ، أو هو اسم مكان ، والمراد به : مكان وقوف الخلق وقيامهم عند ربهم يوم القيامة للحساب والجزاء ، وإضافته للرب لأنه لا سلطان فيه لغيره - جلَّ وعلَا - وهذا المعنى موافق للمراد من قوله تعالى : « يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ »[2] أى : يوم وقوف الناس وقيامهم فى أماكنهم منتظرين قضاء رب العالمين .

والجنتان لكل واحد من المتقين ، إحداهما منزله ومحل زيارة أحبابه ، والأُخرى منزل أزواجه وخدمه ، كما يفعله الرؤساء والمترفون فى الدنيا ، وإلى هذا ذهب الجبائى ، وقيل : بستانان ، أحدهما : داخل قصره والآخر : خارجه .

والخوف من الله - تعالى - هو خوف من حسابه وعقابه على فعل المعاصى وترك الطاعات ، فيحمله هذا الخوف على تقوى الله - تعالى - وقال مجاهد : هو الرجل يريد الذنب فيذكر الله - تعالى - فيدع الذنب ، وما قاله مجاهد مثال لباعث من بواعث الخوف من الله تعالى ، فالخوف من الله - تعالى - أوسع من ذلك ، فمن أطاع الله وترك المعاصى يعد خائفًا منه - جلَّ وعلَا - سواءٌ حملته النفس على معصيته فكف عنها خوفًا منه تعالى ، أو لم تحمله ، ولكنه دأب على طاعته وترك معصيته ، خوفًا منه ، حتى أصبح ذلك خلقا له .

وقد وصفت الجنتان بأنهما ذواتا أفنان ، وما بينهما جملة اعتراضية للتنبيه على أن التكذيب بالموصوف أو بالصفة موجب للإنكار والتوبيخ ، وأفنان إمَّا جمع فَنٍّ بمعنى النوع ،

---

(١) سورة الرعد من الآية : ٣٣

(٢) سورة المطففين الآية : ٦

أى : صاحبتا أنواع من الأشجار والثمار ، وروى ذلك عن ابن عباس وابن جبير والضحاك ، وعليه قول الشاعر :

ومن كل أفنان اللذاذة والصبا لهوتُ به والعيش أخضر ناضر

وإمّا جمع فَنَن ، وهو ما لَانَ ودق من الأغصان ، كما قاله مجاهد وابن الجوزى وعلى تفسيرها بمعنى الأغصان يكون تخصيصها بالذكر مع أنها ذواتا جذوع وأوراق وثمار أيضًا لأنها هى التى تورق وتثمر ، فمنها تمتد الظلال ، ومنها تجنى الثمار ، فكأنه قيل : ذواتا ثمار وظلال ، فالأغصان كناية عن ذلك .

٥٠ ــ ٥٥ ــ (فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ • فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ • فِيهِمَا مِن كُلِّ فَاكِهَةٍ زَوْجَانِ • فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ • مُتَّكِئِينَ عَلَى فُرُشٍ بَطَائِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ وَجَنَى الْجَنَّتَيْنِ دَانٍ • فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ) :

المعنى : فى الجنة لكل خائف مقام ربه عينان تجريان بالماء الزلال ، إحداهما بالتسنيم والأخرى بالسلسبيل ، وروى هذا عن الحسن ، وقال عطية العوفى : عينان : إحداهما من ماءٍ غير آسن ، والأخرى من خمر لذة للشاربين ، فبأى نعم ربكما تكذبان أيها الثقلان ، فى الجنتين من كل فاكهة صنفان : صنف معروف لهم فى الدنيا ، وصنف آخر غريب لم يعرفوه ، أو صنف يابس ، وآخر رطب ، فبأى نعم ربكما تكذبان ؛ معتمدين على فرش من ديباج ثخين ، سواءٌ كان الاعتماد جلوسًا عليها أو نومًا أو اضطجاعًا وإذا كانت الفرش بطائنها من إستبرق فكيف بالظواهر ، وقيل لابن عباس : بطائنها من إستبرق فما الظواهر ؟ قال : ذلك مما قال ــ تعالى ــ : « فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ »[1] .

وثمر الجنتين قريب ، يناله القائم والقاعد والمضطجع ، قال ابن عباس ــ رضى الله عنهما ــ : تدنو الشجرة حتى يجتنيها ولى الله ــ تعالى ــ إن شاء قائمًا وإن شاء قاعدًا وإن شاء مضطجعًا : فبأى نعم ربكما تكذبان أيها الثقلان .

---

(١) سورة السجدة من الآية : ٧

(فِيهِنَّ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ ﴿٥٦﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٧﴾ كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ ﴿٥٨﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٩﴾ هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ ﴿٦٠﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦١﴾)

المفـــردات :

(قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ) : نساءٌ قصرن أبصارهن على أزواجهن ، وسيأتى فى الشرح مزيد بيان .

(لَمْ يَطْمِثْهُنَّ) : لم تفتض بكارتهن .

التفسير

٥٦ – ٦١ – (فِيهِنَّ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ) :

المعنى : فى هذه الجنات المعدة لمن خافوا مقام ربهم فاتقوه وكانوا من الأبرار – فيهن – نساءٌ قاصرات أبصارهن على أزواجهن فلا ينظرن سواهم ، أخرج ابن مردويه بسنده عن النبى ﷺ أنه قال فى ذلك : « لا ينظرون إلَّا إلى أزواجهن » أو قاصرات أبصار أزواجهن عليهن ، فلا ينظرون سواهن ، لم يفتض بكارتهن ولم يجامعهن إنس ولا جان قبل هؤلاء المتقين ، فبأى نعم ربكما تكذبان ، كأنهن فى صفائهن الياقوت وفى حمرتهن المرجان[1] ، فبأى نعم ربكما تكذبان ، هل جزاءُ الإحسان فى الطاعة إلَّا الإحسان فى الثواب . فهؤلاء

(١) ذكر هذا المعنى قتادة – كما فى البحر .

الخائفون أحسنوا فتركوا المعاصى وأقبلوا على الطاعات ، فأحسن الله إليهم هذا الإحسان الذى تقدم بيانه .

(وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ ﴿٦٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٣﴾ مُدْهَآمَّتَانِ ﴿٦٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٥﴾ فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ ﴿٦٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٧﴾ فِيهِمَا فَٰكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ ﴿٦٨﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٩﴾)

المفـــردات :

(وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ) : ومن تحت هاتين الجنتين السابقتين فى المنزلة والقدر جنتان أخريان .

(مُدْهَامَّتَانِ) : شديدتا الخضرة .

(نَضَّاخَتَانِ) : فوارتان بالماء ، صيغة مبالغة من النضخ ، وهو فوران المـــاء .

التفسير

٦٢ - ٦٩ - (وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * مُدْهَامَّتَانِ * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * فِيهِمَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ) :

تحكى هذه الآيات نعيمًا آخر ، لصنف آخر ممن خاف مقام ربه ، فهاتان الجنتان لأصحاب اليمين ، والجنتان السابقتان للسابقين - كما قاله ابن زيد والأكثرون - وقال

الحسن : الأوليان السابقين والأخريان التابعين ، وهو بذلك يجعل أصحاب اليمين من جملة السابقين ، وهذا القول روى موقوفًا ، وصححه الحاكم عن أبى موسى .

ومعنى هذه الآيات : وأقل من الجنتين السابقتين جنتان لصنف آخر ممن خاف مقام ربه ، وقد وصف الله هاتين الجنتين بأوصاف فصل بينهما بقوله تعالى - : (فَبِأَىِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ) إيذانًا بالإنكار والتوبيخ على تكذيب كلّ من الموصوف وصفته .

وأول هذه الأوصاف أن الجنتين « مُدْهَامَّتَانِ » أى :خضراوان - كما روى عن ابن عباس وغيره ، وأصل هذا التفسير عن النبى ﷺ فقد أخرج الطبرانى وابن مردويه عن أبى أيوب - رضى الله عنه - قال : « سألت النبى ﷺ عن قوله - تعالى - « مُدْهَامَّتَانِ » فقال ﷺ : « خضراوان » والمراد أنهما شديدتا الخضرة من كثرة الرى ، حتى أصبح لونهما يميل إلى الدهمة وهى السواد ، وَوَصْف هاتين الجنتين بذلك دون السابقتين ، للإيذان بأن الغالب فيهما النبات والرياحين المنبسطة على الأرض ، أما وصف السابقتين بأنهما « ذَوَاتَا أَفْنَانٍ » ، ، فللإيذان بأن الغالب فيهما الأشجار ، فإنها هى التى توصف بأنهما « ذَوَاتَا أَفْنَانٍ » والنبات يوصف بالخضرة الشديدة .

وثانى هذه الأوصاف « فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ » أى : فوارتان بالماء ، قال البراء بن عازب فيما أخرجه عنه ابن المنذر وابن أبى حاتم : العينان اللتان تجريان خير من النضاختين.

وثالث هذه الأوصاف (فِيهِمَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ) وقد عطف نخل ورمان على فاكهة مع أنهما منها ، للإيذان بفضلهما ، وقيل : إنهما لم يخلصا فى الدنيا للتفكه ، فإن ثمرة النخل فاكهة وغذاء ، والرمان فاكهة ودواء ، فكأنهما جنس آخر فعطفا على الفاكهة ، ولهذا قال أبو حنيفة : من حلف أن لا يأكل فاكهة فأكل رُمّاناً أو رُطبا لم يحنث ، وخالفه صاحباه .

(فِيهِنَّ خَيْرَٰتٌ حِسَانٌ ﴿٧٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧١﴾ حُورٌ مَّقْصُورَٰتٌ فِى ٱلْخِيَامِ ﴿٧٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٣﴾ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ﴿٧٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٥﴾ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِىٍّ حِسَانٍ ﴿٧٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٧﴾ تَبَٰرَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ ذِى ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٧٨﴾)

المفـــردات :

(خَيْرَاتٌ) : جمع خَيْرة ، وصف بنى على فعلة من الخير ، كما قالوا شَرَّة من الشر ، قاله أبو حيان ، وقال الزمخشرى : أصله خيِّرات بالتشديد فخفف : كما قال ﷺ – هيْنُون ليْنُون – بإسكان بدل تشديدها .

(حُورٌ) : جمع حوراء ، أى : بيض كما روى عن ابن عباس ، وقال ابن الأثير : الحوراء هى شديدة بياض العين ، شديدة سوادها ، وزاد فى القاموس أن تستدير حدقتها وترقَّ جفونها ويبيض ما حولها .

(مَقْصُورَاتٌ فِى الْخِيَامِ) : مُخَدَّرات ملازمات لبيوتهن ، لايطفن فى الطرق .

(لَمْ يَطْمِثْهُنَّ) : لَمْ يطأهن ، فهن أبكار .

(رَفْرَفٍ) : قال الجبائى : هى الفُرُش المرتفعة ، وسنزيده بياناً فى الشرح .

(حِسَانٍ) حملا على المعنى .

(تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ) : تنزه وتقدس .

التفسير

٧٠ - ٧٨ - (فِيهِنَّ خَيْرَاتٌ حِسَانٌ * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * حُورٌ مَّقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * مُتَّكِئِينَ عَلَى رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ) :

فى هذه الآيات الكريمة بقية أوصاف الجنتين الأخيرتين ، وبدأت بالوصف الرابع لهما وهو (فِيهِنَّ خَيْرَاتٌ حِسَانٌ) والتعبير بالجمع فى قوله : (فِيهِنَّ) مع أنهما جنتان باعتبار جميع الجنان التى يمنحها الله لهؤلاء الأبرار .

والمعنى : فى هذه الجنات نساء مختارات حسان الخَلْق والخُلُق ، وقال قتادة : خيرات الأخلاق حسان الوجوه .

وهؤلاء الخيرات الحسان حور مقصورات فى الخيام غير نساء الدنيا ، وهن مخدّرات أى : ملازمات لبيوتهن لا يطفن بالطرق ، عاكفات على أزواجهن ، وقد وصفهن بالحُور ، وهو شدة بياض بياض العيون ، وشدة سواد سوادها ، مع استدارة الحدقة ورقة الجفون وبياض ما حولها .

وقد وصفت هذه الحور بأنهن أبكار لم يَطَأْهن إِنْس ولا جان قبل أزواجهن ممن خافوا مقام ربهم .

ووصف أصحاب هذه الجنان بأنهم يعتمدون على رفرف خضر وعبقرى حسان جلوساً أو اضطجاعاً أو نوماً ، والرفرف جمع رفرفة ، ولهذا وصف بخضر جمع أخضر ، وهو ما يطرح على ظهر الفرش للنوم ، وهذا التفسير لابن عباس وغيره ، وقال الجبائى : هى الفرش المرتفعة ، وقال الحسن : هى البُسُطُ .

كما يتكئون على عبقرى حسان ، والعبقرى لفظ يطلق على الشىء العجيب النادر . والمراد به : الجنس ولذا وصف بالجمع .

وفسره أبو عبيدة بأنه ماكُلُّهُ وشْىٌ - أى : نقش - من البسط ، وفسره مجاهد بأنه الديباج الغليظ ، وقيل غير ذلك .

ثم ختمت السورة بقوله تعالى : (تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِى الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ) :

أى : تعالى الله صاحب العظمة والتكريم ومنزه عن أن يكون له شريك فى هذا الإنعام وفى هذا الملكوت العظيم .

« ســـورة الواقعة »

وهى مكيَّة كما أخرجه البيهقى وغيره عن ابن عبّاس ، وآياتها ستٌّ وتسعون نزلت بعد سورة طه .

مناسبتها لما قبلها :

سورة الواقعة متَّفقة مع ما قبلها [سورة الرحمن] فى أنَّ كلّ منهما وصف القيامة والجنَّة والنَّار ، قال بعض الأَجِلَّة : انظر إلى اتصال قوله – تعالى – : (إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ) بقوله – تعالى – فى سورة الرحمن : « فَإِذَا انشَقَّتِ السَّمَآءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ [1] » وأنَّه اقتصر فى سورة الرحمن على ذكر انشقاق السماء ، وفى سورة الواقعة على ذكر رَجِّ الأَرض ، فكأَنَّ السورتين لتلازمهما وتوافقهما سورة واحدة ، ذُكِر فى كلٍّ شىْءٌ .

وقد عُكِس الترتيب فذُكِر فى أوَّل سورة الواقعة مافى آخر سورة الرَّحمن ، وفى آخر هذه مافى أول تلك ، فافتتح فى سورة الرحمن بذكر القرآن ثم ذكر الشمس والقمر ثم ذكر النبات ثم خلق الإنسان والجان ، ثم صفة يوم القيامة ، ثم صفة النَّار ، ثم صفة الجنَّة .

وبُدِئَ فى سورة الواقعة بذكر القيامة ، ثم صفة الجنَّة ، ثم صفة النَّار ، ثم خَلْق الإنسان ، ثم النبات ، ثم الماء ، ثم النَّار .

المعنى العـــام للســـورة :

تقْرعُ سورة الواقعة سَمْعَك ، وتبعث الخوف والرَّهبة فى نفسك حين تحَدِّثك عن وقوع يوم القيامة ، وما يصاحب ذلك الوقوع مِنْ أُمُور جِسام ، وأحداث عِظام ، حيث ترج الأَرض وتزلزل زلزالها ، وتتفتَّت الجبال تَفْتِيتا وتصير غبارًا منتشرًا متطايرًا ، وتذكر أحوال الناس يومئذ وأنواعهم فهم أصناف ثلاثة :

١ – أَصحاب اليمين .

---

(١) سورة الرحمن الآية : ٣٧

٢ – أصحاب الشمال .

٣ –والسَّابقون .

وتبيِّن بتفصيل ما أعدَّ الله لكلٍّ من نعيم مُقيم جزاء عملهم الصالح ، أو عذاب أليم يناسب كفرهم وعصيانهم وخروجهم عن أوامر ربِّهم وتكذيبهم بيوم الدِّين وقولهم : (أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَاباً وَعِظَاماً أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ) ؟ (أَوَ آبَاؤُنَا الأَوَّلُونَ[1]) ؟

وتتحدث السورة بعد ذلك عن بعض آلاء الله ونعمه ، وآثار قدرته فيما خلق وأبدع فى الزرع والماء والنار ، وأن ذلك يستوجب تسبيح الله وتقديسه على نعمه الغامرة ، وشكره على آياته الظاهرة الباهرة . وتوضِّح أنَّ مَنْ خلق هذا وأَوْجَده إله قادر على البعث ، وإعادة الناس إلى الحياة مرَّة ثانية للحساب والجزاء ؛ لأنَّ الإعادة أسهل من البداءة عادة .

وتذكر السّورة أنَّ الله – سبحانه – قضى بين النَّاس بالموت وجعل لموتهم وقتاً مُعيَّنا وهو – سبحانه – ليس بعاجز على أن يبدِّل صورهم بغيرها وينشئهم خلقاً آخر فى صور أُخرى لا يعرفونها ، وفى السُّورة قَسَمٌ على مكانة القرآن وعلو شأْنه وتقريع للكافرين على قبح صنعهم وعجيب شأْنهم . حيث وضعوا التَّكذيب موضع الشُّكر . وقابلوا النعمة بالجحود والكفر ، وفى آخر السورة إجمالى ما فصلته أولاً عن أَحوال الأَصناف الثلاثة ، وما ينتظر كلَّ صنف من ثواب أوعقاب .

وتختتم السورة ببيان أَنَّ كلَّ الَّذِى ذكر فيها وجاءت به هو حق اليقين ولذا فسبِّح باسم ربِّك العظيم .

---

(١) سورة الواقعة الآيتان : ٤٧ و ٤٨

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

(إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ ﴿١﴾ لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ ﴿٢﴾ خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ ﴿٣﴾ إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًّا ﴿٤﴾ وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًّا ﴿٥﴾ فَكَانَتْ هَبَاءً مُّنبَثًّا ﴿٦﴾)

المفردات :

(وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ) : حدثت وقامت القيامة .

(لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ) : لا تكون نفس مُكذِّبة بوقوعها يوم القيامة

(خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ) : خافضة لأقوام رافعة لآخرين والخفض والرفع يُستعملان عند العرب فى المكان والمكانة .

(رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًّا) : زُلزلت وحُرِّكت تحريكاً عظيماً .

(وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًّا) : فُتِّتت تفتيتاً شديدًا أو سيقت وسُيِّرت من بسّ الغنم إذا ساقها

(فَكَانَتْ هَبَاءً مُّنبَثًّا) : فكانت غبارًا منتشرًا متفرقاً .

التفسير

١ ـ (إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ) :

أى : إذا قامت وحدثت القيامة ، فالواقعة من أسماء يوم القيامة كما صرَّح بذلك ابن عبّاس وسُمِّيت بذلك للإيذان بتحقيق وقوعها لامحالة كما قال تعالى :

« فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ »[1] قال الزمخشرى : وقعت الواقعة هو كقولك : كانت الكائنة وحدثت الحادثة فكأَنَّهُ قيل : إذا وقعت التى لابدّ من وقوعها ، ووقوع الأمر نزوله ، يقال : وقع ما كنت أتوقعه أى : نزل ماكنت أترقب نزوله وقال الضحّاك : الواقعة الصَّيحة وهى النفخة الأخيرة فى الصور وجواب إذا تقديره حدث كيت وكيت ، وفى إبهامه تهويل وتفخيم لأمر الواقعة .

٢ ـ (لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ) :

اعتراض يُؤَكِّد تحقيق الوقوع أو حال من (الْوَاقِعَةُ) كما قال ابن عطيَّة ، أى : لايكون حين وقوعها نفس كاذبة تنكر وقوعها وتنفيه وتجحده .

وقال ابن كثير : أى : ليس لوقوعها ـ إذا أراد الله كونها ـ صارفٌ يصرفها ولادافعٌ يدفعها ، ومعنى كاذبة كما قال محمد بن كعب لابدَّ أن تكون .

ويجوز أن تكون (كَاذِبَةٌ) مصدرًا بمعنى التَّكذيب وهو التَّثبيط أى : ليس لوقعتها ارتداد ولا رجعة كالحملة الصَّادقة من ذى سطوة قاهرة ، وروى نحو ذلك : عن الحسن وقتادة وابن جرير .

٣ ـ (خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ) :

أى : هى خافضة رافعة ترفع أقواماً وهم السّعداءُ وتضع آخرين وهم الأشقياءُ ، تخفض أقواماً إلى أسفل سافلين فى الجحيم وإن كانوا فى الدنيا أعزَّاء ، وترفع آخرين إلى أعلى

---

(١) سورة الحاقة الآية : ١٥

عِلِّيين إلى النَّعيم المقيم وإن كانوا فى الدنيا وضعاء هكذا قال الحسن وقتادة وغيرهما . وقيل : تزلزل الأشياء وتزيلها عن مقارّها فتخفض بعضاً وترفع بعضاً حيث تسقط السماء كسفا ، وتنتثر الكواكب وتنكدر ، وتسير الجبال فتمرّ فى الجوّ مر السحاب ، فالخفض والرفع إما حسّى أو معنوىّ .

٤ ـ (إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًّا) :

أى : إذا زلزلت الأرض واهتزّت وحُرِّكت تحريكاً شديداً بحيث ينهدم ما فوقها من بناء وجبال ، وإذا بدل مما قبلها أى : تخفض وترفع وقت رجّ الأرض وبسّ الجبال .

٥ ـ (وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًّا) :

أى : وفتتت الجبال تفتيتاً دقيقاً أو وسيقت وسُيِّرت من بسّ الغنم إذا ساقها فهو كقوله تعالى : « وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ »[1]

٦ ـ (فَكَانَتْ هَبَاءً مُّنبَثًّا) :

أى : فصارت الجبال بسبب ذلك البس غباراً منتشراً ، والمراد : مطلق الغبار عن الأكثرين ، وقال ابن عباس : الهباء : هو ما يثور مع شعاع الشمس إذا دخلت من كوّة ، وفى رواية أخرى عنه : أنّه الّذى يطير من النّار إذا اضطرمت .

قال ابن كثير : وهذه الآية كأخواتها دالة على زوال الجبال عن أماكنها يوم القيامة ، وذهابها وتسييرها ونسفها أى : قلعها .

---

(١) سورة النبأ الآية : ٢٠

﴿ وَكُنتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَٰثَةً ﴿٧﴾ فَأَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ﴿٨﴾ وَأَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ ﴿٩﴾ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ﴿١٠﴾ أُولَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿١١﴾ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿١٢﴾ ﴾

المفردات :

(أَزْوَاجاً) : أصنافاً وأنواعاً وعن مجاهد فِرَقاً .

(فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ) : فأصحاب اليُمْن والبركة ، أو ناحية اليمين .

(وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ) : وأصحاب الشُّؤْم ، أو جهة الشِّمال .

(وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ) : عن ابن كيسان : هم المسارعون إلى كلِّ ما دعا الله إليه ، ورجّحه بعضهم ؛ لأنه عام يشمل كلَّ الأنواع .

التفسير

٧ ـ (وَكُنتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً) :

خطاب للأُمة الحاضرة والأُمم السالفة كما ذهب إليه الكثير ، والمعنى : وصرتم جميعاً فى يوم القيامة أصنافاً وأنواعاً وفرقاً ثلاثة ، قال الآلوسى : كل صنف يكون مع صنف آخر فى الوجود أو الذكر فهو زوج :

قال ابن كثير : ينقسم النَّاس يوم القيامة إلى ثلاثة أصناف :

١ ـ قوم عن يمين العرش ويُؤْتَوْن كتبهم بأَيمانهم ، ويؤْخذ بهم ذات اليمين ـ قال السّدى : هم جمهور أهل الجنة .

٢ - وآخرين عن يسار العرش ويُؤتَوْنَ كتبهم بشمالهم ويؤخذ بهم ذات الشّمال وهم عامّة أهل النّار .

٣ - وطائفة يُساقون بين يديه - عزّ وجلّ - وهم أخصّ وأحظى وأقرب من أصحاب اليمين . فيهم الرّسل والأنبياء والصديقون والشهداء .

وهكذا قسّمهم إلى هذه الأنواع الثّلاثة فى آخر السورة وقت احتضارهم ، وذلك إشارة إلى قوله - تعالى - فى آخر السورة (فَأَمَّا إِن كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ . فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّةُ نَعِيمٍ)[1] ... إلخ .

٨ ، ٩ - (فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَآ أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ . وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ مَآ أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ) :

شروع فى تفصيل للأزواج الثلاثة مع الإشارة الإجمالية إلى أحوالهم قبل تفصيلها ، والدائر على ألسنة المفسرين أنّ أصحاب الميمنة مبتدأ خبره جملة ما أصحاب الميمنة والرابط الظاهر القائم مقام الضمير فى قوله - تعالى - : (مَآ أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ) وكذا يقال فى قوله - تعالى - : (وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ مَآ أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ) .

والأصل فى الموضعين ماهم ؟ أىْ . أى شىء هم فى حالهم وصفتهم ، والمراد تعجيب السامع لشأن الفريقين فى الفخامة والفظاعة ، كأنّهُ قيل : فأصحاب الميمنة هم فى غاية من حسن الحال وما أعظم مكانتهم ، وأصحاب المشأمة هم فى نهاية سوء الحال وما أسوأ مكانتهم . واختلفوا فى الفريقين :

١ - فقيل أصحاب الميمنة : أصحاب المنزلة السّنية . وأصحاب المشأمة أصحاب المنزلة الدنيّة .

٢ - وقيل : الذين يؤتون صحائفهم بأيمانهم ، والذين يؤتونها بشمالهم .

(١) سورة الواقعة الآيتان : ٨٨ و ٨٩

٣ ـ وقيل : الذين يُؤخذ بهم ذات اليمين إلى الجنَّة ؛ والَّذين يؤخذ بهم ذات الشِّمال إلى النَّار .

٤ ـ وقيل : أصحاب اليُمن ، وأصحاب الشُّؤْم ، فإن السعداء ميامين على أنفسهم بطاعتهم ، والأشقياء مشائيم على أنفسهم بمعاصيهم روى هذا عن الحسن والربيع (ا هـ . بتصرف آلوسى ـ وكشاف) .

١٠ ـ (وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ) :

هذا هو الصنف الثَّالث من الأزواج الثلاثة . ولعل تأخير ذكرهم مع أنهم أسبق الأصناف وأقدمهم فى الفضل ليردف ذكرهم ببيان محاسن أحوالهم ، واختلف فى تعيينهم فقيل .

١ ـ هم الذين سبقوا إلى الإيمان والطاعة عند ظهور الحق من غير تلعثم ، روى ذلك عن عكرمة ومقاتل .

٢ ـ وقيل : هم من ذكروا فى الحديث الذى أورده صاحب « البحر » : « سئل الرسول ﷺ عن السابقين فقال : هم الَّذين إذا أعطوا الحق قبلوه ، وإذا سُئلوه بذلوه ، وحكموا للنَّاس كحكمهم لأنفسهم » .

٣ ـ وقيل : هم السَّابقون إلى الهجرة والصَّلوات والجهاد . أو هم أهل القرآن أو هم الأنبياء .

٤ ـ وقيل ـ كما نقل عن ابن كيسان ـ هم المسارعون إلى كل مادعا الله إليه ، ورجحه بعضهم بالعموم .

وجعل ما ذكر فى أكثر الأقوال من باب التمثيل .

والشائع أن (السَّابِقُونَ السَّابِقُونَ) مبتدأ وخبر والمعنى : والسّابقون هم الذين اشتهرت أحوالهم ، وعرفت مكانتهم ومنزلتهم ، كقولهم : أنا أبو النجم ، وشعرى شعرى ، وفيه من تفخيم شأنهم والإيذان بشيوع فضلهم مالا يخفى (اهـ . آلوسى بتصرف) ولم يقل : والسابقون ما السابقون على غرار الأولين فى قوله - تعالى - : (فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَآ أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ) . إلخ لأنه جُعِل أمرًا مفروغاً منه مُسلَّما به مستقلاً بالمدح والتعجّب .

١١ - (أُولَـٰئِكَ الْمُقَرَّبُونَ) :

مبتدأ وخبر والجملة استئناف وبيان ، أى : أولئك المقرّبون عند الله ، الموصوفون بذلك النّعت الجليل الذى استحقوه حُظوة ومكانة عنده ، أو الذين قربت إلى العرش العظيم درجاتهم ، والإشارة بـأُولئك إلى السابقين وما فيه من معنى البعد - مع قرب المشار إليه - للإيذان ببعد منزلتهم فى الفضل .

١٢ - (فِى جَنَّاتِ النَّعِيمِ) :

أى : كائنين فى جنات النعيم وفائدة ذكر (فِى جَنَّاتِ النَّعِيمِ) بعد ذكر كونهم مقرّبين للإشارة بالأول إلى اللذة الروحية ، وبالثانى إلى اللذة الحسية .

(ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ ﴿١٤﴾ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ ﴿١٥﴾ مُّتَّكِئِينَ عَلَيْهَا مُتَقَابِلِينَ ﴿١٦﴾ يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ ﴿١٧﴾ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴿١٨﴾ لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ ﴿١٩﴾ وَفَاكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٢١﴾ وَحُورٌ عِينٌ ﴿٢٢﴾ كَأَمْثَالِ ٱللُّؤْلُؤِ ٱلْمَكْنُونِ ﴿٢٣﴾ جَزَاءً بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا ﴿٢٥﴾ إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا ﴿٢٦﴾)

المفردات :

(ثُلَّةٌ) : المشهور أنها الجماعة كثرت أو قلت ، وقال الزمخشري : الاستعمال غلب على الكثير فيها .

(الْأَوَّلِينَ) : الأمم الماضية قبل الرسول ، أو الأولين من صدر أمة محمد .

(الْآخِرِينَ) : أمة محمد أو المتأخرين منهم .

(مَّوْضُونَةٍ) : منسوجة بالذهب بإحكام .

(يَطُوفُ عَلَيْهِمْ) : يدور عليهم للخدمة .

(بِأَكْوَابٍ) أقداح لا عُرا لها ولا خراطيم .

(وَأَبَارِيقَ) : أوانٍ لها عُرًا وخراطيم .

(كَأْسٍ) : إناء شرب الخمر .

(مَعِينٍ) : خمر جارية من العيون .

(لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا) أى : لا يصيبهم صُداع بشربها .

(وَلَا يُنزِفُونَ) : لا تذهب عقولهم بسببها .

(وَحُورٌ عِينٌ) : ونساء بيض واسعات الأعين حسانها .

(اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ) : اللؤلؤ المستور المصون فى صدفه مما يُغَيِّره .

(لَغْوًا) : كلاماً لا خير فيه .

(تَأْثِيماً) : حديثاً قبيحاً يأْثم قائله .

التفسير

١٣ ، ١٤ ـ (ثُلَّةٌ مِّنَ الْأَوَّلِينَ * وَقَلِيلٌ مِّنَ الْآخِرِينَ) :

وقد اختلفوا فى المراد بـ (الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ) فى الآية السَّابقة فقيل :

١ ـ المراد بالأَوَّلين الأُمم الماضية ، والآخرين هذه الأُمَّة ، وهذه رواية عن مجاهد والحسن واختار ابن جرير هذا القول .

قال ابن كثير : وهذا الَّذِى اختاره ابن جرير هو قول ضعيف ؛ لأَنَّ الأُمَّة المحمدية خير الأُمم بنصّ القرآن ، فيبعد أَن يكون المقرّبون فى غيرها أَكثر منها ، اللَّهُم إِلاَّ أن يقابل مجموع الأُمم بهذه الأُمة ، [والظاهر أَنَّ المقرّبين من أُمة محمد أَكثر من سائر الأُمم] والله أَعلم .

فالقول الثانى فى هذا المقام هو الرّاجح وهو أَن يكون المراد بقوله ـ تعالى ـ : (ثُلَّةٌ مِّنَ الْأَوَّلِينَ) أى : من صدر الأُمة [أُمَّة محمّد ﷺ] (وَقَلِيلٌ مِّنَ الْآخِرِينَ) أى : من هذه الأُمّة ، وقال ابن أَبى حاتم : حدّثنا أَبى ، حدثنا أَبو الوليد ، حدثنا السّرى بن يحيى قال : قرأَ الحسن : (وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ * أُولَـٰئِكَ الْمُقَرَّبُونَ * فِى جَنَّاتِ النَّعِيمِ * ثُلَّةٌ مِّنَ

الْأَوَّلِينَ) قال : ثلة ممن مضى من هذه الأمة ، وروى عن محمد بن سيرين أنه قال فى قوله – تعالى – : (ثُلَّةٌ مِّنَ الْأَوَّلِينَ * وَقَلِيلٌ مِّنَ الْآخِرِينَ) .

كانوا يقولون أو يرجون أن يكونوا كلهم من هذه الأُمّة فهذا قول الحسن وابن سيرين أن الجميع من هذه الأمة ولا شكّ أنّ أوّل كلّ أمّة خير من آخرها ، فيحتمل أن تعم الآية جميع الأمم ، كل أمة بحسبها ، ولقد ثبت فى الصّحاح قوله ﷺ : (خير القُرون قرنى ثم الّذين يلونهم ثُم الّذين يلونهم) .

١٥ ، ١٦ – (عَلَى سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ * مُتَّكِئِينَ عَلَيْهَا مُتَقَابِلِينَ) :

(عَلَى سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ)[1] أى : ومستقرّين على سرر منسوجة بالذهب مشبّكة بالجواهر الكريمة من الدُّرّ والياقوت بإحكام . وقيل موضونة : أى : متصل بعضها ببعض متقاربة كحِلَقِ الدِّرع .

(مُتَّكِئِينَ عَلَيْهَا مُتَقَابِلِينَ) أى : مضطجعين على السُّرر فى راحة واستقرار وهدوء وطمأنينة متقابلة وجوههم ليس أحد وراء أحد .

والمراد كما قال مجاهد : لا ينظر أحدهم فى قفا صاحبه ، وهو وصف لهم بحُسْن العشرة وكمال الخلق ، ورعاية الآداب ، وصفاء النّفوس وطهارة القلوب .

١٧ ، ١٨ – (يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ * بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ) :

(يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ) حال آخر ، أو استئناف أى : ويدور حول السابقين المقرّبين للخدمة ولدان مُخلدون أى : باقون أبدًا على هيئة الولدان وشكلهم وطراوتهم لا يتحوّلون عن ذلك ، وإلاّ فكلّ أهل الجنة مُخَلَّد لا يموت .

---

(١) (موضونة) من الوضن وهو نسج الدرع ، استعير لمطلق النسج ، أو للنسج محكم مخصوص ومن ذلك وضين الناقة وهو حزامها ؛ لأنه موضون أى : مفتول والمراد هنا على ما أخرجه ابن جرير وغيره عن ابن عباس مرمولة أى : منسوجة بالذهب . (إ هـ . آلوسى) .

وقال الفراء وابن جبير : (مُخَلَّدُونَ) أى : مُقَرَّطون بخلدة وهى ضرب من الأقراط قيل : الولدان : هم أولاد أهل الدنيا الَّذِين ماتوا صِغارًا فلم تكن لهم حسنات فيثابوا عليها ولا سيِّئات فيعاقبوا عليها ، روى هذا عن على - كرم الله وجهه - وعن الحسن . واشتُهر أنَّه - عليه الصَّلاة والسَّلام - قال : (أولاد الكفَّار خدم أهل الجنَّة) .

(بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ) :

(بِأَكْوَابٍ) أى : ويدور عليهم الولدان بآنية لا عُرًا لها ولا خراطيم ، والظَّاهر أنَّهَا الأقداح وبذلك فسَّرها عكرمة وهى جمع كوب .

(وَأَبَارِيقَ): جمع إبريق وهو إناء له خرطوم وعروة .

(وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ) أى : وبكأس ملئت خمرًا من عيون جارية كما قال ابن عباس وقتادة ، أى : لم يُعصر كخمر الدنيا وقيل : (مَعِين) خمر ظاهر للعين مرئيَّة بها ؛ لأنَّها كذلك أهنأُ وألذُّ .

١٩ - (لَا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ) :

(لا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا) أى : لا يصيبهم بشربها صُداع يصرفهم عنها ، والمراد : أنه لا يلحق برءوسهم صداع لأجل خِمار يحصل منها كما فى خمور الدنيا ، أو لا يُفرقون عنها : بمعنى : لا تُقطع عنهم لذَّتهم بسبب من الأسباب .

(وَلَا يُنزِفُونَ) أى : ولا تذهب عقولهم بسكرها من نُزِف الشارب كَعُنِىَ إذا ذهب عقله ، فهى لذَّة بلا ألم ولا سكر بخلاف شراب الدُّنيا والآية الأُولى (لَا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا) لبيان نفى الضَّرر عن الأجسام والثانية (وَلَا يُنزِفُونَ) لبيان نفى الضَّرر عن العقول .

٢٠ ، ٢١ - (وَفَٰكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ ۞ وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ) :

(وَفَاكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ) أى : ويطوف الولدان عليهم بما يتخيّرون من الفاكهة والثِّمار أى : يأخذون خيره وأفضله والمراد بما يرضونه ويعجبهم .

(وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ) أى : ولحم طير مما تميل نفوسهم إليه وترغب فيه .

والظَّاهر أنَّ الآية تشير إلى أنَّ الولدان يطوفون بهما عليهم فى الجنة . مع أنَّه جاء فى الآثار والأَحاديث أنَّ فاكهة الجنة وثمارها ينالها القائم والقاعد والنَّائم . وأنَّ الرجل من أهل الجنَّة يشتهى الطير فيقع فى يديه نضجا ، وإنَّما كان طواف الولدان عليهم للإكرام ولمزيد المحبَّة والتَّعظيم والاحترام وهذا كما يناول أحد الجالسين على مائدة جليسا معه بعض ما عليها من الفاكهة ونحوها . وإن كان ذلك قريباً منه اعتناءً بشأْنه وإظهارا لمحبته والاحتفاء به ، وتقديم الفاكهة على اللحم للإشارة إلى أنهم ليسوا بحال تقتضى تقديم اللحم كما فى الجائع ، فإن حاجته إلى اللحم أشدّ من حاجته إلى الفاكهة . بل هم فى حالة تقتضى تقديم الفاكهة واختيارها كما فى الشَّبعان فإنه إلى الفاكهة أميل منه إلى اللَّحم .

قال ابن كثير فى تفسير قوله ـ تعالى ـ : (وَفَاكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ) هذه الآية دليل على جواز أَكل الفاكهة على صفة التخيُّر والانتقاء لها .

٢٢ ، ٢٣ ، ٢٤ ـ (وَحُورٌ عِينٌ * كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ * جَزَاءً بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ) :

(وَحُورٌ عِينٌ * كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ) : أى : ولهم فى الجنَّة نساءٌ بيض واسعات العيون حسانها كأَمثال اللُّؤلؤ المكنون ، أى : المصون فى صدفه ، وقيّد بالمكنون أى : المستور بما يحفظه ؛ لأَنَّه أصفى وأَبعد عن التغيُّر .

(جَزَاءً بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ) : أى يُعطون هذا الجزاء العظيم وينالون هذا الثواب الجزيل بسبب ما كانوا يعملون من الصالحات فى الدُّنيا .

٢٥ ، ٢٦ ـ (لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا * إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا) :

أى : لا يسمعون فى الجنة (لَغْوًا) وهو ما لا نفع فيه من الكلام أو هو القبيح منه ، (وَلَا تَأْثِيمًا) أى : لا يسمعون حديثًا ينسب إلى الإثم قائله أو سامعه إن رضى به .

(إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا) أى : إلّا أن يقول بعضهم لبعض : سلامًا سلامًا أى : نسلم سلامًا قال تعالى ـ تعالى ـ : (تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ)[1] قال ابن عباس : أى يُحَيِّى بعضهم بعضًا بالسَّلام ، وقيل : تحييهم الملائكة أو يحيِّيهم ربهم ـ عَزَّ وَجَلَّ .

والتَّكرير للدَّلالة على ذيوع السَّلام وكثرته ؛ لأن المراد سلام بعد سلام .

والكلام من باب تأكيد المدح بما يشبه الذم .

(وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ ﴿٢٧﴾ فِي سِدْرٍ مَخْضُودٍ ﴿٢٨﴾ وَطَلْحٍ مَنْضُودٍ ﴿٢٩﴾ وَظِلٍّ مَمْدُودٍ ﴿٣٠﴾ وَمَاءٍ مَسْكُوبٍ ﴿٣١﴾ وَفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ ﴿٣٢﴾ لَا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ ﴿٣٣﴾ وَفُرُشٍ مَرْفُوعَةٍ ﴿٣٤﴾ إِنَّا أَنْشَأْنَاهُنَّ إِنْشَاءً ﴿٣٥﴾ فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَارًا ﴿٣٦﴾ عُرُبًا أَتْرَابًا ﴿٣٧﴾ لِأَصْحَابِ الْيَمِينِ ﴿٣٨﴾ ثُلَّةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ ﴿٣٩﴾ وَثُلَّةٌ مِنَ الْآخِرِينَ ﴿٤٠﴾)

(سِدْرٍ) : السدر : شجر النبق .

(مَخْضُودٍ) : قُطِع شوكه أو مثقل بالثمر .

(وَطَلْحٍ) : الطلح : شجر الموز روى ذلك عن علىّ وغيره .

(مَنْضُودٍ) : فى الصحاح : المنضود : المرصوص بعضه فوق بعض .

---

(١) سورة إبراهيم من الآية : ٢٣

(وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ) : وظل دائم ممتد منبسط لايتقلص ولايتفاوت .

(وَمَاءٍ مَّسْكُوبٍ) : وماء مصبوب فى غير أخدود لاينقطع عنهم .

(وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ) : المراد بالفُرُش : مايفرش للجلوس عليه . و (مَّرْفُوعَةٍ) مرتفعة القدر أو مرفوعة على الأسرَّة ، وقيل : المراد بالفُرُش : النساء . ومرفوعة فى المنزلة أو على الأرائك ، فالرفع حسّى أو معنوىّ .

(إِنَّا أَنشَأْنَاهُنَّ إِنشَاءً) أى : ابتدأنا خلقهن ابتداءً جديدًا من غير ولادة .

(عُرُبًا) : متحببات إلى أزواجهنّ جمع عَروب كصبور وهى حسنة التودد لزوجها .

(أَتْرَابًا) : متساويات فى السِّن أو الأخلاق .

(ثُلَّةٌ مِّنَ الْأَوَّلِينَ) : جماعة كثيرة من سابقِى هذه الأُمَّة .

(وَثُلَّةٌ مِّنَ الْآخِرِينَ) : وجماعة كثيرة من مُتَأَخِّرِيها .

التفسير

٢٧ ـ (وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَآ أَصْحَابُ الْيَمِينِ) :

لَمَّا ذكر الله ـ تعالى ـ مآل السَّابقين وهم المقرَّبون ، عطف عليهم بذكر أصحاب اليمين وهم الأبرار كما قال ميمون بن مهران :أصحاب اليمين منزلتهم دون السَّابقين المقرَّبين فقال :

(وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَآ أَصْحَابُ الْيَمِينِ) أى : أىّ شىء أصحاب اليمين ، وما حالهم ، وكيف مآلهم ؟ والجملة استئنافيَّة مشعرة بالتفخيم والتَّعجيب من حالهم .

والمعنى : وأصحاب اليمين لا يعلم أحد ماجزاء وثواب أصحاب اليمين، إنَّه شىءٌ عظيمٌ ثم فسَّر ذلك وفصَّله فقال :

٢٨ ـ (فِى سِدْرٍ مَّخْضُودٍ) :

أى : وأصحاب اليمين فى سدر مخضود يتنعَّمون ، عن ابن عباس وعكرمة ومجاهد ـ السدر المخضود: النَّبق الَّذى لا شوك له ، وعنهم ـ أيضًا ـ هو الموقَّر والمثقل بالثَّمر على أنَّه

من خَضَد الغصنَ إذا ثناه وهو رطب فمخضود مَثْنِىّ الأغصان كنى به عن كثرة الثَّمر .
ويدل على أن المخضود هو الذى خُضِد أى : قطع شوكه ما أخرجه الحاكم وصححه ، والبيهقىّ عن أبى أُمامة قال : كان أصحاب رسول الله ﷺ يقولون : إنّ الله – تعالى – ينفعنا بالأعراب وسائلِهم .

أقبل أعرابى يوما فقال : يا رسول الله لقد ذكر الله فى القرآن شجرة مُؤذية وما كنت أرى أن فى الجنة شجرة تؤذى صاحبها . قال : وما هى ؟ قال : السِّدر فإن له شوكًا ، فقال رسول الله ﷺ : أليس الله يقول : (فِى سِدْرٍ مَخْضُودٍ) ؟ خَضد الله شوكه فجعل مكان كل شوكة ثمرة وإنَّ الثَّمرة من ثمره تفتق عن اثنين وسبعين لونًا من الطَّعام ما فيها لون يشبه الآخر .

وقال أبو العالية والضحَّاك : نظر المؤمنون إلى وَجّ (وهو واد بالطائف مخصب وفى اللِّسان وجّ موضع بالبادية) فأعجبهم سدره فقالوا : يا ليت لنا مثل هذا . قال الآلوسى والظرفية فى قوله – تعالى – : (فِى سِدْرٍ) : مجازية للمبالغة فى تمكنهم من النعم والانتفاع بما ذكر .

٢٩ – (وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ) :

أى : وشجر موز قد نضِّد حمله من أسفله إلى أعلاه أى : متراكب قد رُصّ بعضه فوق بعض ليست له ساق بارزة ، روى ذلك عن علىّ وأخرجه جماعة من طرق عن ابن عباس ، وأبى هريرة وأبى سعيد الخدرىّ .

٣٠ – (وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ) :

أى : وهم كائنون فى ظلّ ممدود أى : دائم ممتد منبسط لا يتقلَّص ، ولا يتفاوت ولا يذهب كظل ما بين طلوع الفجر وطلوع الشمس ، وظاهر الآثار أنَّه ظل الأشجار . أخرج أحمد والبخارى ومسلم والتِّرمذى وابن مردويه عن أبى سعيد قال : قال رسول الله ﷺ : « فى الجنة شجرة يسير الرَّاكب فى ظِلِّها مائة عام لا يقطعها وذلك الظِّل الممدود » .

٣١ - (وَمَآءٍ مَّسْكُوبٍ) :

أى : وماءٍ مُنْصَبٍّ حيث شاءُوا لا يحتاجون فيه إلى آنية أو رشاء . قال القُرطبىّ : أصل السَّكب الصَّب أى : وماءٌ مصبوب يجرى اللَّيل والنَّهار فى غير أُخدُود لا ينقطع عنهم . وكانت العرب أصحاب بادية وبلاد حارة ، وكانت الأنهار فى بلادهم عزيزة . لا يصلون إلى الماءِ إلَّا بالدَّلو والرَّشاء ، فوُعِدُوا فى الجنَّة خلاف ذلك ووصف لهم أسباب النزهة المعروفة فى الدُّنيا ، وهى الأشجار وظلالها والمياه والأنهار واطِّرادها .

وقيل : كأنَّه لمَّا شبَّه حال السَّابقين بأقصى مايُتصور لأهل المدن من كونهم على سُرُر تطوف عليهم خُدَّامهم بأنواع الملاذ . شبَّه حال أصحاب اليمين بأكمل ما يُتصَوَّر لأهل البَوَادى مِنْ نزولهم فى أماكن خصبة فيها مياه وأشجار وظلال إيذانًا بأنَّ التَّفاوت بين الفريقين كالتَّفاوت بين أهل المدن والبَوَادى [اهـ . آلوسى بتصرف] .

٣٢، ٣٣ - (وَفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ * لَّامَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ) :

أى : فاكهة كثيرة الأنواع والأصناف ليست بالقليلة العزيزة كما كانت فى بلادهم . لامقطوعة فى أى وقت من الأوقات كانقطاع فواكه الصيف فى الشِّتاء ، (وَلَا مَمْنُوعَةٍ) أى : ولا يُمْنَع من أرادها بشوك ولا بُعد ولا حائط ، بل إذا اشتهاها العبد دنَتْ منه حتى يأخذها قال - تعالى - : « وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا »[1] ، وقيل : ليست مقطوعة بالأزمان ولا ممنوعة بالأثمان .

٣٤ - (وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ) :

أى : وفُرُش مرفوعة نُضِّدت وفُرِشت حتى ارتفعت ، أو مرفوعة على الأسرة ، فالرفع حسِّى كما هو الظاهر ، وقال بعضهم : رفيعة القدر ، على أنَّ رفعها معنوى بمعنى شرفها ، وأيًا ما كان فالمراد بالفُرش على هذا : ما يُفْرَش للجلوس والنوم عليه .

---

(١) سورة الإنسان الآية : ١٤

وقال أبو عبيدة : المُرَاد بالفُرُش : النِّساء ؛ لأن المرأة يُكنى عنها بالفِراش كما يكنى عنها باللِّباس ورفعهنَّ فى الأقدار والمنزلة ، وقيل : على الأرائك ، وأيّد إرادة النساء بقوله – تعالى – : (إِنَّآ أَنشَأْنَاهُنَّ إِنشَآءً)؛لأن الضمير فى الأغلب يرجع على مذكور متقدم وليس إلّا الفُرُش ، وعلى التفسير الأول أُضمر لهن ؛ لأن ذكر الفُرُش وهى المضاجع دل عليهن .

٣٥ ، ٣٦ ، ٣٧ ، ٣٨ – (إِنَّآ أَنشَأْنَاهُنَّ إِنشَآءً * فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَارًا * عُرُبًا أَتْرَابًا * لِّأَصْحَابِ الْيَمِينِ) :

(إِنَّآ أَنشَأْنَاهُنَّ إِنشَآءً) :

المراد بأَنشَأْنَاهُنَّ : أعَدْنا إنشاءهنَّ من غير ولادة ؛ لأنَّ المُخبر عنهنَّ بذلك نساء كن فى الدنيا ، فقد أخرج ابن جرير والتِّرمذىّ وآخرون عن أنس قال : قال رسول الله ﷺ : « إنَّ المنشآت اللّاتى كنّ فى الدُّنيا عجائز عُمْشًا رُمْصًا » وأتت عجوز فقالت : يارسول الله ، ادع الله أن يدخلنى الجنة فقال : يا أُم فلان ، إن الجنة لاتدخلها عجوز ، فولت تبكى فقال : أخبروها أنها لاتدخلها وهى عجوز إن الله – تعالى – يقول : (إِنَّآ أَنشَأْنَاهُنَّ إِنشَآءً ..) الآية .

وقال أبو حيان : الظاهر أن الإنشاء هو الاختراع الذِى لم يُسبق بِخَلْق ويكون ذلك مخصوصًا بالحور العين ، فالمعْنى : إنا ابتدأناهن ابتداءً جديدًا من غير ولادة ولا خلق أوّل ، ومما تقدم يتبين أن المراد بقوله – تعالى – : (إِنَّآ أَنشَأْنَاهُنَّ إِنشَآءً) اللّاتى أُعيد إنشاؤهنّ وهن نساء الدُّنيا أَو اللّاتى ابتُدِئ إنشاؤهنّ وهن الحور العين .

(فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَارًا) :

تفسير لما تقدم أى : فصيرناهنّ أبكارًا أو فخلقناهنّ أبكارًا .

(عُرُبًا أَتْرَابًا) :

(عُرُبًا) : متحببات عاشقات لأزواجهنّ ، واشتقاقه من أعْرب إذا بين فالعَرُوب تُعرب وتُبِين عن محبتها لزوجها بتكسّر ودلّ وحسن كلام .

(وَأَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ ﴿٤١﴾ فِى سَمُومٍ وَحَمِيمٍ ﴿٤٢﴾ وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ ﴿٤٣﴾ لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ ﴿٤٤﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُتْرَفِينَ ﴿٤٥﴾ وَكَانُوا۟ يُصِرُّونَ عَلَى ٱلْحِنثِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٤٦﴾ وَكَانُوا۟ يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٤٧﴾ أَوَءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ ﴿٤٨﴾ قُلْ إِنَّ ٱلْأَوَّلِينَ وَٱلْءَاخِرِينَ ﴿٤٩﴾ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٥٠﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا ٱلضَّآلُّونَ ٱلْمُكَذِّبُونَ ﴿٥١﴾ لَءَاكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ ﴿٥٢﴾ فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ ﴿٥٣﴾ فَشَٰرِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْحَمِيمِ ﴿٥٤﴾ فَشَٰرِبُونَ شُرْبَ ٱلْهِيمِ ﴿٥٥﴾ هَٰذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿٥٦﴾)

المفردات :

(سَمُومٍ) قال الراغب : الرِّيح الحارَّة الَّتى تؤثّر تأثير السّم ، والمراد هنا : النّار ولفحها .

(وَحَمِيمٍ) : وماء شديد الحرارة .

(يَحْمُومٍ) : دخان حار شديد السواد .

(لَّا بَارِدٍ) : ليس باردًا حتى يخفف حرارة الجوّ .

(وَلَا كَرِيمٍ) : وليس كريماً يعود عليهم بالنفع ، بل هو حارٌّ ضارّ .

(مُتْرَفِينَ) : مُنَعَّمين متّبعين هوى أنفسهم .

(وَأَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ ﴿٤١﴾ فِى سَمُومٍ وَحَمِيمٍ ﴿٤٢﴾ وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ ﴿٤٣﴾ لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ ﴿٤٤﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُتْرَفِينَ ﴿٤٥﴾ وَكَانُوا۟ يُصِرُّونَ عَلَى ٱلْحِنثِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٤٦﴾ وَكَانُوا۟ يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٤٧﴾ أَوَءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ ﴿٤٨﴾ قُلْ إِنَّ ٱلْأَوَّلِينَ وَٱلْءَاخِرِينَ ﴿٤٩﴾ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٥٠﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا ٱلضَّآلُّونَ ٱلْمُكَذِّبُونَ ﴿٥١﴾ لَءَاكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ ﴿٥٢﴾ فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ ﴿٥٣﴾ فَشَٰرِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْحَمِيمِ ﴿٥٤﴾ فَشَٰرِبُونَ شُرْبَ ٱلْهِيمِ ﴿٥٥﴾ هَٰذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿٥٦﴾)

المفردات :

(سَمُومٍ) قال الراغب : الرِّيح الحارَّة الَّتى تؤثِّر تأْثير السّم ، والمراد هنا : النَّار ولفحها .

(وَحَمِيمٍ) : وماءٍ شديد الحرارة .

(يَحْمُومٍ) : دخان حار شديد السواد .

(لَّا بَارِدٍ) : ليس باردًا حتى يخفف حرارة الجوّ .

(وَلَا كَرِيمٍ) : وليس كريماً يعود عليهم بالنفع ، بل هو حارٌّ ضارّ .

(مُتْرَفِينَ) : مُنَعَّمِين متَّبعين هوى أنفسهم .

(الْحِنثِ الْعَظِيمِ [1]) : الذنب الكبير كالشرك ونحوه .

(مِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ) : هو يوم القيامة .

(زَقُّومٍ) : شجر فى النَّار كريه المنظر والطَّعم والرائحة .

(الْحَمِيمِ) : الماء الَّذى اشتدَّ غليانه وقال القرطبىّ : هو صَديد أهل النَّار .

(الْهِيمِ) : الإبل العِطَاش التى لا تُرْوَى لداء يُصيبها . وقال ابن كيسان وابن عباس : الأَرض ذات الرِّمال الَّتى لا تُرْوَى من الماء لِتَخَلْخُلِهَا .

(نُزُلُهُمْ) : ما يقدم للنَّازل إذا حضر .

(يَوْمَ الدِّينِ) : يوم الجزاء وهو يوم القيامة .

التفسـير

٤١ - (وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ مَآ أَصْحَابُ الشِّمَالِ) :

لَمَّا ذكر - سبحانه وتعالى - أصحاب اليمين وما أعدّ لهم من النَّعيم المقيم كرامة لهم عطف عليهم بذكر أصحاب الشِّمال فقال : (وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشِّمَالِ) أى : وأصحاب الشِّمال لا يُدْرى ما هم فيه من العذاب والأَهوال وسمَّاهم أصحاب الشِّمال؛ لأَنهم - يأْخذون كتبهم بشمالهم أو لأَنهم يكونون فى جهة الشمال .

٤٢ ، ٤٣ ، ٤٤ - (فِى سَمُومٍ وَحَمِيمٍ * وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ * لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ) :

٤٢ - (فِى سَمُومٍ وَحَمِيمٍ) :

فى هذه الآية وما بعدها بيَّن الله - سبحانه وتعالى - ما ينال أصحاب الشِّمال من عذاب وما يُصيبهم من نكال وعقاب فذكر أنَّهم (فِى سَمُومٍ) أى : ريح حارة تؤثِّر تأْثير السّم وتنفذ فى المسام وتحيط بهم من كل جانب ، (وَحَمِيمٍ) أى : ماءٌ حار قد انتهى حرّه وبلغ

---

(١) ومنه بلغ الغلام الحنث - أى الحلم ووقت المؤاخذة بالذنب - وحنث فى يمينه خلاف بَرَّ فيها وتحنث إذا تأثم .

الغاية ، إذا أحرقت النّار أجسامهم فزِعوا إلى الحميم ، كالّذِى يفزع من النّار إلى الماء ليطفئ به الحر فيجده حميمًا حارًّا فى نهاية الحرارة والغليان ، وقد مضى فى سورة محمد قوله – تعالى – : « وَسُقُوا۟ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ »(١) .

٤٣ – (وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ) :

أى : يفزعون من السّموم إلى الظّل كما يفزع أهل الدّنيا فيجدونه ظِلاًّ من (يَحْمُومٍ)(٢) أى : من دخان شديد السّواد والحرارة .

وتسمية هذا ظلاًّ على التشبيه التهكمى ، وعن ابن عباس اليحموم – سرادق النّار المحيط بأهلها يرتفع من كل ناحية حتى يظلّهم ، وقال ابن زيد : جبل أسود من النار يفزع أهل النار إلى ذراه فيجدونه أشد شىء .

٤٤ – (لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ) :

صفتان للظّل : أى : ظل لا بارد ليخفّف حرارة الجو كسائر الظّلال ولا كريم أى : ولا نافع لمن يأوى إليه ، ونفى ذلك ليزيل توهم ما فى الظّل من الاسترواح إليه .

والمعنى :أنّه ظلٌّ حارٌّ ضار ومن ذلك النّفى جاء التهكم والتعريض بأنّ الّذى يستأهل الظّل الّذى فيه بردٌ وإكرام غير هؤلاء فيكون أشجى لحلوقهم وأشد لتحسرهم . (آلوسى – وكشاف) .

٤٥ – (إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُتْرَفِينَ) :

تعليل لابتلائهم بما ذكر من أصناف العذاب وألوان العقاب . أى : وإنّما استحقوا هذه العقوبة ؛ لأنّهم كانوا فى الدّنيا مُتْرَفِين ، والمترف هنا بقرينة المقام هو المتروك يصنع ما يشاء لا يُمْنع .

---

(١) سورة محمد الآية : ١٥

(٢) اليحموم فى اللغة الشديد السواد وهو يفعول من الحم وهو الشحم المسود باحتراق النار . وقيل : مأخوذ من الحمم وهو الفحم (قرطبى) .

والمعنى : أنَّهم عُذِّبوا ؛ لأنهم كانوا فى الدنيا قبل ذلك أى : قبل ما ذُكِر من العذاب مُتَّبعين هوى أنفسهم وليس لهم رادع منها يردعهم عن مخالفة أوامره وارتكاب نواهيه ــ سبحانه عزَّ وجلَّ ــ ، وقيل : المُترف هو الذى أترفته النعمة أى : أبطرته وأطغته .

٤٦ ــ (وَكَانُواْ يُصِرُّون عَلَى الْحِنثِ الْعَظِيمِ) :

أى : وكانوا يُصَمِّمون بل ويُقيمُون ويُدَاومُون على الذَّنب العظيم والكبائر كالشِّرك . وقيل : الحنث اليمين الغموس . وظاهره الإطلاق ليعمّ كل ذلك . وما ذكر تمثيل له ، وقال التاج السُّبكى فى طبقاته : سألت الشَّيخ ــ يعنى والده تقىّ الدِّين ــ : ما الحنث العظيم ؟ فقال : هو القسم على إنكار البعث المشار إليه بقوله ــ تعالى ــ : « وَأَقْسَمُواْ بِاللهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللهُ مَن يَمُوتُ »[١] وهو تفسير حسن ؛ لأن الحنث وإن فُسِّر بالذَّنب مطلقًا أو العظيم منه فالمشهور استعماله فى عدم البرّ بالقسم ، وتُعُقِّب هذا بأنه يترتب عليه التكرار فى قوله ــ تعالى ــ : (وَقَالُواْ أَئِذَا مِتْنَا ...) الآية .

وأُجيب بأنه لا تكرار ؛ لأن المراد بالأول فى قوله تعالى : (وَكَانُواْ يُصِرُّونَ عَلَى الْحِنثِ الْعَظِيمِ) وصفهم بالثبات على القسم الكاذب وبالثانى فى قوله ــ تعالى ــ :

(أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَاباً وَعِظَاماً) إلخ ــ وصفهم بالاستمرار على الإنكار على أنه لامحذور فى تكرار ما يدل على إنكارهم البعث .

٤٧ ــ (وَكَانُواْ يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَاباً وَعِظَاماً أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ) :

أى : وكانوا يقولون منكرين للإعادة مكذِّبين بالبعث مستبعدين لحصوله : أئذا متنا وكان بعض أجزائنا تراباً وبعضها عظاماً نخرة أئنا لعائدون إلى الحياة مرة أُخرى ونُبعث ، إن هذا لمُستبعد وقوعه ولا يمكن حصوله وحدوثه ، وتقديم التراب ؛ لأنه أبعد عن الحياة التى يقتضيها ماهم بصدد إنكاره من البعث .

---

(١) سورة النحل من الآية : ٣٨

٤٨ - (أَوَ ءَابَآؤُنَا الْأَوَّلُونَ) :

عطف على محل إن واسمها أو على الضمير المستتر فى (مبعوثون) والمعنى : أو يبعث - أيضاً - آباؤنا الأقدمون الذين صاروا تراباً متفرّقاً فى الأرض - يقولون ذلك زيادة فى الاستبعاد لحصول البعث يعنون أن آباءهم أقدم فبعثهم أبعد وأبطل .

٤٩ ، ٥٠ - (قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ * لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ) :

أى : قل لهم يا مُحَمّد : ردًّا لإنكارهم وتحقيقا للحقّ : إن الأوّلين والآخرين من الأمم ومن جملتهم أنتم وآباؤكم لمجموعون بعد البعث إلى ميقات يوم معلوم وهو يوم القيامة ؛ ومعنى كونه معلوماً : أنه معيّن عند الله ، والميقات : مَاوُقِّت به الشىءُ أى : حُدّ ومنه مواقيت الإحرام وهى الحدود التى لايتجاوزها مَن يريد دخول مكة إلا مُحْرِما والمعنى : لمجموعون منتهين إلى ذلك اليوم .

وتقديم الأوّلين فى قوله : (قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ) للمبالغة فى الرّد حيث كان إنكارهم لبعث آبائهم أشدّ من إنكارهم لبعثهم مع مراعاة الترتيب الوجودى .

٥١ ، ٥٢ ، ٥٣ - (ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا الضَّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ * لَآكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ * فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ) :

(ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا الضَّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ) عطف على (إِنَّ الْأَوَّلِينَ) داخل فى حيِّز القول . وثم للتراخى الزمانى . أى : قل لهم : ثم إنكم أيها الكافرون الضالون عن الهدى المكذِّبون بالبعث أو بما يعمه وغيره ، والخطاب لأهل مكة وأمثالهم (لَآكِلُونَ) بعد دخول جهنم من شجر هو الزقوم وهو شجر فى جهنّم قبيح المنظر كريه الطّعم والرّائحة فمالئون من هذا الشجر بطونكم من شدة الجوع الّذى اضطركم وقسركم على أكل مثلها مّما لا يؤكل وتعافه النّفوس .

٥٤ ، ٥٥ - (فَشَارِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَمِيمِ * فَشَارِبُونَ شُرْبَ الْهِيمِ) :

أى : فشاربون عقيب ذلك بلاريْث على ما تأكلون من هذا الشّجر من الحميم وهو المـاء الّذى اشتد غليانه - وقيل صديد أهل النّار - أى : يُورثهم حَر ما يأكلون من الزقوم مع

الجوع الشديد عطشاً فيشربون ماءً يظنُّون أنَّه يزيل العطش ويذهب الظمأ فيجدونه شديد الحرارة .

(فَشَارِبُونَ شُرْبَ الْهِيمِ)[١] :

أى : فشاربون بكثرة كشرب الإبل العطاش أو المريضة التى لاتروى بشرب الماء فلا يكون شربكم شرباً معتاداً بل يكون مثل شرب الهيم .

قال الزمخشرى : والمعنى أنه يسلط عليهم من الجوع ما يضطرهم إلى أكل الزقُّوم فإذا أكلوا وملأُوا منه البطون سلط عليهم من العطش ما يضطرهم إلى شرب الحميم الَّذِى يقطع أمعاءهم فيشربونه شرب الهيم .

وقيل (الْهِيمُ) : الرِّمال التى لا تُرْوَى من الماء لتخلخلها ، ومفرده هَيَام بفتح الهاء .

٥٦ ـ (هَٰذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ الدِّينِ) :

أى : هذا الَّذِى ذكِر من ألوان العذاب الَّذِى تقشعر منه النُّفوس وتذوب من هوْله لفائف القلوب هذا الَّذِى ذكر نُزُلهم يوم الدِّين أى : يوم الجزاء وهو يوم القيامة ، فإذا كان ذلك نُزُلهم وهو ما يقدَّم للنَّازل مما حضرفما ظنك بما ينالهم بعد دخولهم النار . وفى جعله ألوان العذاب وأنواعه السابقة نُزُلًا أى : مما يُكرم به النَّازل فيه من التهكم ما لا يخفى ، ونظير ذلك قول الشاعر :

وكنَّا إذا الجبار بالجيش ضافنا   جعلنا القنا والمرهفات له نُزُلا

قال ابن كثير فى قوله ـ تعالى ـ : « هَٰذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ الدِّينِ » أىْ : هذا الَّذِى وصفنا ـ يقصد من ألوان العذاب السابق ذكره فى الآيات السابقة ـ هو ضيافتهم المعدة الدائمة عند ربهم يوم حسابهم كما قال ـ تعالى ـ فى حق المؤمنين :

---

(١) قال ابن عباس وغيره : الهيم : جمع أهيم وهو الجمل الذى أصابه الهيام وهو داء يشبه الاستسقاء يصيب الإبل فتشرب حتى تموت أو تسقم سقماً شديداً يقال : إبل هيماء وناقة هيماء ، كما يقال : جمل أهيم . اهـ : آلوسى .

« إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا »[١].

أى : ضيافة وكرامة .

(نَحْنُ خَلَقْنَاكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ ﴿٥٧﴾ أَفَرَأَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ﴿٥٨﴾ ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٥٩﴾ نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ ٱلْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٦٠﴾ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَٰلَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِى مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾)

المفـردات :

(أَفَرَأَيْتُمْ) : أخبرونى .

(مَا تُمْنُونَ) ما تقذفونه وتصبّونه فى أرحام النِّساء من المنىّ .

(قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ) : قضينا به بينكم ، وكتبناه عليكم .

(وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ) : وما نحن بعاجزين ولا مغلوبين .

(عَلَى أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ) : على أن نبدّل صوركم بغيرها ونغيّر خلقكم .

(وَنُنشِئَكُمْ فِيمَا لَا تَعْلَمُونَ) أى : نخلقكم فى خلق وصور لا تعرفونها أو ننشئكم فى البعث ونخلقكم على غير صوركم فى الدنيا .

(النَّشْأَةَ الْأُولَى) : خَلْقكُمْ من نطفة ثم من علقة إلخ ، أو خَلْق آدم ونشأته من تراب .

---

(١) سورة الكهف الآية : ١٠٧

التفسير

٥٧ - (نَحْنُ خَلَقْنَاكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ) :

يقول الله - تعالى - مقرّرًا للمعاد ورادًّا على المكذّبين من أهل الزيغ والإلحاد الّذين قالوا : (أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ) يقول - تعالى - رادًّا عليهم - :

(نَحْنُ خَلَقْنَاكُمْ) أى : نحن ابتدأنا خلقكم من العدم بعد أن لم تكونوا شيئاً مذكورًا أليس الّذى قدر على البداءة بقادر على الإعادة بطريق الأولى والأحرى ولذا قال : (فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ) أى : فهلاّ تصدّقون بالبعث - تحريض لهم وتحضيض على الإيمان به . وقال الزّمخشرىّ : (فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ) تحضيض على التّصديق إمّا بالخلق؛ لأنّهم وإن كانوا مصدّقين به بدليل قوله - تعالى - : « وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللهُ »[1] إلاّ أنّهم لمّا كان مذهبهم وساوكهم فى الحياة خلاف ما يقتضيه التّصديق فكأنّهم مكذّبون به ، وإمّا تحضيض على التّصديق بالبعث ؛ لأنّ من خلق أوّلًا لا يمتنع عليه أن يخلق ثانياً ، واختار الآلوسى الرأى الأوّل .

٥٨ ، ٥٩ - (أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ * ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَٰلِقُونَ) :

أى : أخبرونى ما تقذفونه فى أرحام النساء من المنىّ أأنتم تقدّرونه وتتعهدونه فى أطواره المختلفة وتصوّرونه بشرًا سويًّا تام الخلقة أم نحن المقدّرون المصوّرون ، قال القرطبى : وهذا احتجاج عليهم أى : إذا أقررتم بأنّا خالقوه لا غيرنا فاعترفوا بالبعث .

٦٠ ، ٦١ - (نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ * عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَٰلَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِى مَا لَا تَعْلَمُونَ) :

(نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ) أى : نحن قضينا به بينكم وكتبناه عليكم وقسمناه ووقتنا موت كلّ أحد بوقت معيّن حسبما تقتضيه مشيئتنا وما نحن بمسبوقين ولا عاجزين ولا مغلوبين (عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَٰلَكُمْ) أى : على أن نذهبكم ونأتى

(١) سورة العنكبوت من الآية : ٦١

مكانكم أشباهكم من الخلق (وَنُنشِئَكُمْ فِيمَا لَا تَعْلَمُونَ) من الخلق والصور والأطوار التى لا تعرفونها ولا تعهدونها والمراد : ونحن قادرون على ذلك أيضاً .

قال الزمخشرىّ : المعنى إنَّا لقادرون على الأمرين معاً ، على خلق ما يماثلكم ومالا يماثلكم فكيف نعجز عن إعادتكم ، وقال القرطبىّ : المعنى : وننشئكم فى البعث على غير صوركم فى الدنيا فيُجَمّل المؤمن ببياض وجهه ويقبّح الكافر بسواد وجهه مثلا – قاله سعيد بن جبير .

٦٢ – (وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ) :

أى : ولقد أيقنتم أن الله – سبحانه – أنشأكم النشأة الأُولى من خلقكم من نطفة ثم من علقة ثم مضغة إلخ – وقال قتادة : وهى خلق آدم من التراب فهلَّا تتذكرون أنَّ من قدر عليها فهو على النشأة الأُخرى أقوى وأقدر . وفى الخبر : (عجباً كلَّ العجب للمكذِّب بالنَّشأة الآخرة وهو يرى النَّشأة الأُولى ، وعجبا للمصدِّق بالنَّشأة الآخرة وهو لا يسعى لدار القرار »اهـ. آلوسى وقرطبى بتصرف .

(أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ﴿٦٤﴾ لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَٰهُ حُطَٰمًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ﴿٦٥﴾ إِنَّا لَمُغْرَمُونَ ﴿٦٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٦٧﴾)

المفردات :

(مَا تَحْرُثُونَ) : ما تبذرون حبه وتعملون فى أرضه .

(تَزْرَعُونَهُ) : تنبتونه وتروونه نباتاً يرفُّ .

(حُطَاماً) : هشيماً متكسِّرًا قبل أن يبلغ نضجه .

(تَفَكَّهُونَ) : تتعجّبون من سوء حاله وتندمون .

(إِنَّا لَمُغْرَمُونَ) : لمعذبون بهلاك أموالنا .

(نَحْنُ مَحْرُومُونَ) : لا حظ لنا أو محرومون الرّزق بالكلية .

التفسير

٦٣ ، ٦٤ — (أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ * ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ) :

هذه حجّة أخرى ودليل على البعث ، أى : أخبرونى عما تحرثون من أرضكم فتطرحون فيها البذر أأنتم تنبتونه وتحصّلونه زرعاً فيكون فيه السنبل والحبّ أم نحن نفعل ذلك . وإنّما منكم البذر وشقّ الأرض ؟ فإذا أقررتم بأنّ إخراج السنبل من الحَبِّ الذى بُذر ليس إليكم فكيف تنكرون إخراج الأموات من الأرض وبعثهم ؟ وأضاف الحرث إليهم والزّرع إليه — تعالى — لأنّ الحرث فعلُهم ويجرى على اختيارهم . والزرع من فعل الله وينبت على اختياره لا على اختيارهم — روى أبو هريرة عن النّبى ﷺ أنّه قال : « لا يقولنّ أحدُكم زَرعتُ وليَقُلْ حَرثتُ فإنّ الزّارعَ هو اللهُ »[1] .

قال أبو هريرة : ألم تسمعوا قول الله — تعالى — (أَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ) .

قال الماوردىّ : وتتضمّن هذه الآية أمرين : أحدهما : الامتنان عليهم بأنه أنبت زرعهم حتى عاشوا به ليشكروه على نعمته عليهم — الثانى : البرهان الموجب للاعتبار ؛ لأنه لما أنبت زرعهم بعد تلاشى بذره وانتقاله إلى استواء حاله من العفن والتتريب حتى صار زرعاً أخضر ثم جعله قويًّا مشتدا أضعاف ما كان عليه ، فهو بإعادة مَنْ أمات أقوى عليه وأقدر .

وفى هذا البرهان مقنع لذوى الفطر السليمة .

٦٥ ، ٦٦ ، ٦٧ — (لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَٰهُ حُطَٰماً فَظَلْتُم تَفَكَّهُونَ * إِنَّا لَمُغْرَمُونَ * بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ) :

---

(١) انظر سنن البيهقى ج ٦ ص ١٣٨ باب ما يستحب من حفظ المنطق فى الزرع .

(لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَاماً) أى : نحن أنبتنا ما تحرثون بلُطفنا ورحمتنا وأبقيناه لكم رحمة بكم . (لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَاماً) أى : هشيماً متكسراً متفتتا لشدة يبسه من بعد ما أنبتناه قبل استوائه واستحصاده فظللتم بسبب ذلك (تَفَكَّهُونَ) أى : تتعجَّبون من سوء حاله إثر مشاهدتكم له على أحسن حال ـ روى ذلك عن ابن عبّاس ـ وقال الحسن : تندمون على ما تعبتم فيه وأنفقتم عليه من غير حصول نفع ودليله قوله ـ تعالى ـ : « فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَى مَآ أَنفَقَ فِيهَا »[1] أو تندمون على ما اقترفتم لأجله من المعاصى ، وقال عكرمة : تتلاومون على ما فعلتم ـ وأصل التفكّه : التّنقل بصنوف الفاكهة ، استعير للتّنقل بألوان الحديث ، وهو هنا ما يكون بعد هلاك الزرع وقد كنى به فى الآية عن التعجب أو الندم أو التلاوم كما سبق .

(إِنَّا لَمُغْرَمُونَ) أى : لظللتم تفكهون فى المقالة وتنوعون كلامكم فيها فتقولون تارة إنا لمغرمون أى معذبون أو مهلكون بهلاك رزقنا من الغرام وهو الهلاك ، أو لملزمون الغرم بعد جهدنا فيه .

(بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ) وتقولون تارة أُخرى : بل نحن محرومون . أى : سيئو الحظ محدودون لا مجدودون ، أو محرومون من الرزق بالكلية ، كأنّهم لما قالوا :إنا لمعذّبون لملزمون الغرم بعد بذل الجهد أضربوا عن ذلك وقالوا : بل هذا أمر قدر علينا لنحس طالعنا وعدم حظنا ، أوبل نحن محرومون الرزق بالكلّية . وعن أنس أن النبى ﷺ مرّ بأرض الأنصار فقال : « ما يمنعكم من الحرث » ؟ قالوا : الجدوبة ، فقال : لا تفعلوا فإنّ الله ـ تعالى ـ يقول : أنا الزّارع إن شئت زرعت بالماء وإن شئت زرعت بالريح وإن شئت زرعت بالبذر ثم تلا (أَفَرَأَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ * أَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ)[2] .

---

(١) سورة الكهف من الآية : ٤٢

(٢) انظر تفسير القرطبى ج١٧ ص٢٢٠ تفسير قوله ـ تعالى ـ : « بل نحن محرومون » فقد ورد الحديث بلفظه .

(أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ ﴿٦٩﴾ لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ﴿٧٠﴾ أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى تُورُونَ ﴿٧١﴾ ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنشِـُٔونَ ﴿٧٢﴾ نَحْنُ جَعَلْنَٰهَا تَذْكِرَةً وَمَتَٰعًا لِّلْمُقْوِينَ ﴿٧٣﴾ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾)

المفردات :

(الْمُزْنِ) : السَّحاب واحدته مُزْنة ، وقيل : الأبيض منه خاصّة وهو أعذب ماء .

(أُجَاجاً) : مِلْحا زُعاقا مُرًّا لا يصلح لشرب ولا لزرع .

(تُورُونَ) : توقدون وتقدحون الزناد لاستخراجها .

(أأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا) : أأنتم أنبتم شجرتها التى منها الزناد .

(تَذْكِرَةً) : تذكيرا لنار جهنم عند رؤيتها .

(وَمَتَاعاً) : ومنفعة .

(لِلْمُقْوِينَ) : للذين يَنْزِلُون القواء وهى القفر أو للمسافرين ، والمراد المُسْتَمتعون بالنار والمُحتاجون إليها .

التفسير

٦٨ ، ٦٩ ، ٧٠ ـ (أَفَرَءَيْتُمُ الْمَآءَ الَّذِى تَشْرَبُونَ * ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنزِلُونَ * لَوْنَشَآءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجاً فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ) .

(أَفَرَأَيْتُمُ الْمَآءَ الَّذِى تَشْرَبُونَ) أفرأيتم الماء العذب الذى تشربون منه لتحيوا به أنفسكم وتسكنوا به عطشكم ، أأنتم أنزلتموه من السّحاب أم نحن المنزلون له بقدرتنا ، فإذا عرفتم بأنا ننزله فلم لا تشكرونني بإخلاص العبادة لى ؟ ولم تنكرون قدرتى على الإعادة ؟ وتخصيص الماء بهذا الوصف (الَّذِى تَشْرَبُونَ) مع كثرة منافعه ؛لأن الشرب أهم المقاصد المنوطة به ، وإنزال الأمطار يتطلب أحوالا جوية خاصة لايمكن أن يسيطر عليها الإنسان سيطرة كاملة أو يوفرها صناعيًا توفيرًا تامًّا بسهولة مثل هبوب تيار بارد فوق آخر ساخن ولقد حاول الإنسان استمطار السُّحب العابرة صناعيا ، إلا أن هذه المحاولات لاتزال مجرّد تجارب على أن الثابت علميا أن نجاح بعض هذه التجارب تمّ على نطاق ضيّق جدًّا مع وجوب توافر بعض الظروف الملائمة . ا هـ .

(لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجاً) أى : لو نشاء صيرناه أجاجاً أى مِلحاً زعاقا لا يستساغ ولايمكن شربه من الأجيج وهو تلهب النار ، وقيل الأُجاج : كل ما يلذع الفم ولا يمكن شربه فيشمل الملح والمر والحار .

(فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ) حث وتحضيض على شكر جميع النعم لأنّه أفيد وأشمل ، دون عذوبة الماء فقط ، نعم ورد أنّ رسول الله ﷺ كان إذا شرب الماء قال : « الحمد لله الذى سقانا عذباً فراتاً برحمته ولم يجعله ملحا أجاجا بذنوبنا » قال ابن الأثير : إن اللام فى « لجعلناه » أُدخلت فى المطعوم دون المشروب ؛لأنّ جعل الماء العذب ملحاً أسهل إمكاناً فى العرف والعادة ، وأما المطعوم فإنّ جعله حطاماً من الأشياء الخارجة عن المعتاد ، وإذا وقع يكون عن سخط شديد . ا هـ . بتصرف .

٧١ ، ٧٢ـ (أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِى تُورُونَ * ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنشِئُونَ) :

(أفرءيتُمُ النَّارَ الَّتِى تُورُونَ) : أخبرونى عن النار التى تظهرونها بالقدح ـ من الشّجر الرّطب ـ أأنتم أنشأتم تلك الشجرة وأودعتم فيها النّار أم نحن المنشئون الخالقون ؟ فإذا عرفتم قدرتى فاشكرونى ولا تنكروا قدرتى على البعث .

٧٣ - (نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً وَمَتَاعاً لِّلْمُقْوِينَ) :

(نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً) استئناف معين لمنافع النار مبين لفوائدها أى : نحن جعلنا النار تذكيرًا لنار جهنم حيث علّقنا بها أسباب معاشهم لينظروا إليها ويذكروا بها ما أوعدوا به وهددوا ، أو جعلناها تذكرة وأنموذجا من جهنم لما فى الصّحيحين وغيرهما عن أبى هريرة عن رسول الله ﷺ قال : « ناركم هذه الّتى توقدون جزءٌ من سبعين جزءًا من نارِ جهنم » وقيل : تبصرة فى أمر البعث؛لأنّ من أخرج النّار من الشّجر الأخضر المضادّ لها قادر على إعادة ما تفرقت موادّه (وَمَتَاعاً لِّلْمُقْوِينَ) ومنفعة لهم ، والمقوون الّذين ينزلون القواء وهى القفر وتخصيص المقوين بذلك؛لأنهم أحوج إليها فإن المقيمين ليسوا بمضطرين إلى الاقتداح بالزّناد ، وقيل (لِلْمُقْوِينَ) أى : المسافرين أو الفقراء والجائعين ولعلّ الأقرب أنّ المراد بالإقواء : الاحتياج فإن المنتفع بالنار محتاج إليها .

٧٤ - (فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ) :

هذا القول مرتّب على ماعدّد من بدائع صُنْعِه وروائع نِعَمِه ، والمراد قَدُم على التّسبيح واستمر عليه بذكر اسم ربك العظيم؛لأنّه عليه السّلام غير معرض عن ربِّه ، وتعقيب الأمر بالتّسبيح بعد ما عدد وذكر من النعم إمّا أولا : لتنزيهه سبحانه عما يقوله الجاحدون لوحدانيته عزّ وجلّ ، الكافرون بنعمه مع عِظَمِهَا وكثرتها ، أو ثانياً للشكر على تلك النّعم السابقة التى عدّهَا ونبه عليها ، أو ثالثاً للتعجب من أمرهم فى غمط آلائه وآياته الظاهرة ، ويحتمل الكلام عموم الخطاب لكل من يتأتى خطابه ...

* (فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴿٧٦﴾ إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾ فِى كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ ﴿٧٨﴾ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾)

المفردات :

(بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ) : بمساقطها ومغاربها ، وقيل غير ذلك ، وسيأتى فى التفسير .

(مَكْنُونٍ) : مصون ومحفوظ

التفسير

٧٥ - (فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ) :

لما ذكر الله - سبحانه - فى الآيات السابقة جزاء كل من السابقين وأصحاب اليمين وأصحاب الشمال ، وما يلقونه من نعيم تتفاوت درجاته وتتباين منازله حسب مقام كل من الطائعين ، وما يناله ويعانيه أهل الشقاء وأصحاب الشمال من عذاب مقيم فيه شدة عليهم وإيلام بهم جزاء ماكانوا يعملون فى الدنيا من كفر وعصيان ونكران ليوم يبعث الله فيه عباده للحساب ، لما ذكر ذلك جاء قوله - تعالى - :(فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ) وما بعده من الآيات للتأكيد على أن القرآن الكريم الذى ذكرت فيه تلك الأمور هو من عند الله - جل شأنه - وفى قوله - تعالى - :(فَلَا أُقْسِمُ) حلف وقسم بناء على أن (لَا) جاءت فى النظم الكريم لتأكيد القسم وتقويته ، نظير ذلك قوله - تعالى- :(لِئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ)[1] أى : ليعلم أهل الكتاب ، ويتلاقى مع هذا الرأى قراءة الحسن (فَلَأُقْسِمُ) نقول : هذا ما يقتضيه سياق الآيات وما عليه جمهور المفسرين ، وذهب بعضهم إلى أن (لَا) نفى وردّ

(١) سورة الحديد من الآية : ٢٩

لما يقوله الكفار فى القرآن من أنه سحر وشعر وكهانة كأنه قيل : لا صحة لما يقولون فى القرآن الكريم من هذا الافتراء ثم قيل : (أُقسم) وهذا منسوب إلى سعيد بن جبير وبعض النحاة .

ومواقع النجوم : مساقطها ومغاربها وخصها - جلت قدرته - بالقسم لما فى غروبها من ذهاب أثرها وذلك للدلالة على وجود حكيم دائم لا يتغير يؤثر فيها ظهوراً وخفاء ، وقد استدل الخليل إبراهيم - عليه السلام - بأُفول الكوكب ، وغروب القمر ، وذهاب الشمس على وجود الصانع الذى لا يغيب ولاتأخذه سنة ولا نوم ، أو أقسم - سبحانه - بها فى هذا الوقت لأنه أوان قيام المتهجدين وانقطاع المتبتلين إليه - تعالى - ونزول رحمته وفيض رضوانه عليهم . وقد ورد فى الصحيحين عن أبى هريرة مرفوعاً : « ينزل ربنا كل ليلة إلى سماء الدنيا حتى يبقى ثلث الليل الآخر فيقول : مَنْ يدعونى فأستجيبَ له ، مَن يسألنى فأعطيَه ، من يستغفرنى فأغفرَ له »[1] . والنزول كناية عن القرب والعناية .

وقال جماعة منهم ابن عباس - رضى الله عنهما - : النجوم نجوم القرآن ، ومواقعها أوقات نزولها ، فإن القرآن نزل جملة ليلة القدر من السماء العليا إلى السماء الدنيا ، ثم نزل مفرقاً فى السنين بعد .

٧٦ - (وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ) أى : وإن هذا القسم الذى أقسمت به لقسم جليل ، لو تعلمون قدره ومكانته لعظمتم المقسم عليه وهو القرآن الكريم .

٧٧ - (إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ) أى : إن هذا القرآن الذى أنزله الله على محمد ﷺ حسن مرضىّ رفيع القدر فى جنسه بين الكتب المنزلة من عند الله ، كثير المنافع ، أو كريم على الله أو على المؤمنين ؛ لأنه كلام ربهم وشفاء صدورهم ، وقيل : كريم لما فيه من كريم

---

(١) انظر صحيح البخارى ج ٢ ص ٦٦ كتاب التهجد بالليل ، باب الدعاء والصلاة آخر الليل فقد ورد الحديث بلفظه .

الأخلاق ومعالى الأمور ، وقيل : لأنه يكرِّم حافظه ويعظِّم قارئه ، والحق أن القرآن الكريم جدير وحقيق بهذه الصفات جميعاً .

٧٨ - (فِى كِتَابٍ مَّكْنُونٍ) :

أى : فى كتاب جليل عظيم القدر مصون ومحفوظ من التبديل والتغيير والباطل والبهتان والمراد بقوله : (كِتَابٍ) قيل : هو اللوح المحفوظ ، وقيل : هو المصحف الذى بأيدينا لا يعتريه تحريف ولا زيف .

٧٩ - (لَّا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ) :

أى : لا يصل ولا يفضى إلى القرآن ولا يطلع عليه ولا على ما فيه إلاَّ المنزهون عن كدر الطبيعة ودنس الحظوظ النفسية وهم الملائكة ، أخرج عبد بن حميد وابن جرير عن قتادة أنه قال فى الآية : ذاك عند رب العالمين (لَّا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ) من الملائكة ، أما عندكم فيمسه المشرك والنجس والمنافق الرجس ، وقيل :(لَّا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ) من الشرك وهم المؤمنون وروى عن الإمام محمد الباقر وعطاء وطاوس وسالم والشافعى وغيرهم - رضى الله عنهم جميعاً - أن المراد بهم : هم المطهرون من الأحداث ، والخلاف فى ذلك مبسوط فى كتب الفقه ولكل رأيه ، فمن أراد مزيداً فليرجع إليها .

ومع هذا الاختلاف لم ينازع أحد فى دلالة الآية على عظم شأن القرآن ، وعظيم الاعتناء به ولاينحصر هذا بمنع غير الطاهر من مسه بل يكون بأشياء كثيرة تدل على تعظيمه وتوقيره .

٨٠ - (تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ) :

أى : القرآن الكريم منزل من لدن رب العالمين فهو - سبحانه - هو الذى ربَّاهم ورعاهم وبلغ بهم الغاية خَلْقاً وإبداعاً .

وليس القرآن العظيم كما يقولون ويزعمون أنه من عند غير الله ، وأنه سحر وشعر وكهانة ، بل هو الحق الذى لا مرية فيه ، والكفار والمشركون قد أقروا بذلك وعلموه ولكنهم ينكرونه كبراً وعناداً كما قال - تعالى - : « فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ »[1]

---

(١) سورة الأنعام من الآية : ٣٣

ووصف القرآن بقوله : (تَنزِيلٌ) لأنه نزل منجماً مفرقاً من بين سائر الكتب المنزلة من عند الله – تعالى – فإنها قد نزلت دفعة واحدة ولقد جرى هذا اللفظ (تَنزِيلٌ) مجرى أسماء القرآن وأطلق عليه فقيل : جاء فى التنزيل كذا ، ونطق به التنزيل يريدون به القرآن الكريم .

(أَفَبِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَنتُم مُّدْهِنُونَ ﴿٨١﴾ وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴿٨٢﴾)

المفـــردات :

(مُدْهِنُونَ) : متهاونون به كما يَدَّهن فى الأمر أى : يلين جانبه ولا يتصلب فيه تهاوناً به[1]

التفسـير

٨١ – (أَفَبِهَٰذَا الْحَدِيثِ أَنتُم مُّدْهِنُونَ) :

أى : أتعرضون فبهذا القرآن الكريم أنتم متهاونون كمن يتهاون فى الأمر ويلين فيه استهانة به وحطًّا من شأنه ، وعن ابن عباس والزجاج (مُدْهِنُونَ) : مكذبون .

٨٢ – (وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ) :

أى : وتجعلون جزاء رزق الله لكم وتفضله عليكم بنعمه التى لاتحصى ولاتعد أنكم تكفرون بربكم وتكذبون القرآن الناطق بأن الله هو الذى أغاثكم ، وأنزل

---

(١) وأصل الادهان : جعل الأديم (الجلد) ونحوه مدهوناً بشىء من الدهن حتى يلين .

عليكم المطر فأنبت لكم به الزرع وأدرَّ به الضرع ، وأطفأ ظمأكم ، وأحياكم به كما أحيا الأرض بعد موتها ، وتنسبون ما حل بكم من عظيم فيضه إلى النجوم والأنواء فتقولون : مطرنا بنوء كذا[١] .

أخرج البخارى ومسلم وغيرهما : عن زيد بن خالد الجهنى قال : « صلى رسول الله ﷺ الصبح فى الحديبية فى إثر سماء (بعد مطر) وكانت من الليل ، فلما سلم أقبل علينا فقال : « هل تدرون ما قال ربكم فى هذه الليلة ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم فقال : قال : (ما أنعمت على عبادى نعمة إلا أصبح فريق منهم بها كافرين ، فأما من آمن بى وحمدنى على سقياى فذلك الذى آمن بى وكفر بالكوكب ، وأمَّا من قال مطرنا بنوء كذا وكذا فذلك الذى آمن بالكوكب وكفر بى) .

(فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ ﴿٨٣﴾ وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ ﴿٨٤﴾ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ ﴿٨٥﴾ فَلَوْلَآ إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴿٨٦﴾ تَرْجِعُونَهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٨٧﴾)

المفردات :

(ٱلْحُلْقُومَ) : تجويف خلف تجويف الفم[٢] .

(غَيْرَ مَدِينِينَ) : غير مربوبين لله من دان السلطان الرعية إذا ساسهم وتعبدهم وقيل : غير ذلك وسيأتى .

---

(١) النوء : سقوط نجم فى المغرب وطلوع آخر يقابله من ساعته فى المشرق . إهـ. قاموس .
وكانت العرب تضيف الأمطار والرياح والحر والبرد إلى الساقط منها ، وقيل إلى الطالع ؛ لأنه فى سلطانه ، نهى الإسلام عن ذلك ؛ لأن ذلك شأن الله وحده .

(٢) وفيه ست فتحات ، فتحة الفم الحلقية ، وفتحتا المنخرين ، وفتحتا الأذنين ، وفتحة الحنجرة وهى مجرى الطعام والشراب والنفس — من المعجم الوجيز — مجمع اللغة العربية .

التفسـير

٨٣ ، ٨٤ - (فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ ﴿ وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ) :

الضمير فى قوله - تعالى - : (بَلَغَت) للروح ولم يتقدم لها ذكر ؛ لأن المعنى معروف وواضح ونظيره قول حاتم الطائى :

أماوىّ ما يغنى الثراء عن الفتى إذا حشرجت[1] يوماً وضاق بها الصدر

والروح - كما ذهب سلف هذه الأمة المحمدية - جسم لطيف سار فى البدن سريان ماء الورد فى الورد ، وهو حىّ بنفسه يتصف بالخروج والدخول وغيرهما من صفات الأجسام . (فَلَوْلَا) هذا حث وتحضيض أُريد به التبكيت والتعجيز أى : فهلاّ إذا بلغت ووصلت الروح إلى حلقوم ذلك الذى حان حينه ، ودنا أجله ، وهو يجود بنفسه ، وأنتم أيها الحاضرون حوله فى هذا الوقت تشاهدون ما يعانيه من سكرات الموت ، وما يقاسيه من غمراته .

٨٥ - (وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ) :

أى : ونحن بعلمنا وقدرتنا أو بملائكتنا الموكلين بذلك أقرب إلى ذلك المحتضر فى كل هذا منكم حيث لا تعرفون مِنْ حاله إلّا ماتشاهدونه من آثار الشدة النازلة به من غير أن تقفوا على حقيقتها وكيفيتها وأسبابها ولا تقدروا على دفعها بما ينفع مع تعطفكم وشفقتكم عليه وتوفركم على إنجائه من المهالك .

٨٦ ، ٨٧ - (فَلَوْلَا إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴿ تَرْجِعُونَهَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ) :

أى : فهلّا إن كنتم - كما تزعمون - غير مربوبين لله وغير مخلوقين له ولستم فى قهره وسلطانه ، أو غير مجزيين ولا محاسبين بأعمالكم يوم القيامة ، وذلك بإنكاركم البعث فهلّا (تَرْجِعُونَهَا) أى : ترجعون الروح إلى جسدها وتعيدون إليه الحياة كاملة (إِن كُنتُمْ

---

(١) فالضمير فى حشرجت يرجع إلى الروح وهى مفهومة من الكلام .

صَادِقِينَ) فى دعواكم أنكم غير مربوبين أو لا محاسبين ولا مبعوثين فارجعوا الأرواح إلى الأبدان . ولن تستطيعوا ذلك فبطل زعمكم .

(فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٨٨﴾ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ ﴿٨٩﴾ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩٠﴾ فَسَلَٰمٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩١﴾ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٩٢﴾ فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٩٣﴾ وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ ﴿٩٤﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ ٱلْيَقِينِ ﴿٩٥﴾ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٩٦﴾)

المفردات :

(فَرَوْحٌ) : الرَّوْح – بفتح الراء – الرحمة أو الاستراحة .

(وَرَيْحَانٌ) : الريحان : كل مشموم طيب من النبات .

(فَنُزُلٌ) : النُّزُول : مايُعد ويُقدم للضيف من الزاد .

(حَمِيمٍ) : ماءٌ شديد الحرارة .

(تَصْلِيَةُ جَحِيمٍ) : إدخال فى النار ومقاساة لألوان عذابها .

(حَقُّ الْيَقِينِ) : عين اليقين ونفسه الذى لامرية فيه .

(فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ) : فنزه ربك عما لايليق به .

التفسير

٨٨، ٨٩ - (فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ * فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّةُ نَعِيمٍ) :

هذا شروع فى بيان حال المتوفى بعد الممات وماينتظره من ثواب أو عقاب إثر بيان حاله عند الوفاة وما لاقاه من سكرات الموت وشدائده .

(فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ) أى : فأمَّا إن كان المتوفى من السابقين من الأزواج الثلاثة الذين ورد ذكرهم فى أول السورة فله استراحة من الدنيا وعنائها وكدرها . أوله رحمة واسعة من الله - تعالى - وله ريحان يتمتع برائحته الطيبة . فهو فى هناءة بال ، وسعة فضل ورحمة ومكان عبق بأريج عطر يفوح شذاه وينتشر عَرْفه . ومقره فى الجنان يتمتع فيها ويسعد .

٩٠ ، ٩١ - (وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ فَسَلَامٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ) :

أى : وأما إن كان هذا المتوفى من أصحاب اليمين وهم أهل اليمن والبركة والسلامة فى آخرتهم ، وأصحاب المنزلة الجليلة عند ربهم فيقال له : سلامٌ لك يا صاحب اليمين من إخوانك أصحاب اليمين . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن عباس - رضى الله عنهما - أنه قال فى ذلك : تأتيه الملائكة من قِبَل الله - تعالى - تسلم عليه وتخبره أنه من أصحاب اليمين وذلك عند موته ، وقيل : عند بعثه يوم القيامة تسلم عليه الملائكة قبل وصوله إليها ، ويحتمل أنه يسلم عليه فى هذه المواطن كلها ، ويكون ذلك إكرامًا بعد إكرام .

٩٢ ، ٩٣ ، ٩٤ - (وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ الضَّآلِّينَ ، فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ ، وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ) :

أى : أما إن كان المتوفى من المكذبين بالبعث المنكرين له ، الضالين الذين زلوا وبعدوا عن الهدى وضاعوا وتاهوا فى دروب الهوى والمعاصى ونأوا عن الحق فجزاؤهم أن يقدم لهم الماء المتناهى فى الحرارة - على سبيل الإهانة لهم والتنكيل بهم والسخرية منهم - يشربونه بعد أكل الزقوم يصهر به ما فى بطونهم ولهم مع ذلك إدخال وإقامة وخلود فى النار يذوقون سعيرها ويقاسون ألوان عذابها .

٩٥، ٩٦ - (إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ * فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ) :

أى : إن ما ذكر فى تلك السورة وقصصناه عليك لهو محض اليقين وخالصه ، وقال قتادة فى هذه الآية : إن الله ليس بتارك أحداً من الناس حتى يقفه على اليقين من هذا القرآن فأمّا المؤمن فأيقن فى الدنيا فنفعه ذلك يوم القيامة ، وأمّا الكافر فأيقن يوم القيامة حين لاينفعه اليقين .

(فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ) : هذا ترتيب[1] وأمر بالتسبيح؛لأن ماورد فى هذه السورة الكريمة يُوجب أن يُنَزِّه الله - تعالى - عما لا يليق ممّا ينسبه الكفار إليه ، سواءٌ كان ذلك منهم قولًا أو عملًا أو حالا « تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا » . أخرج الإمام أحمد وأبو داود وابن ماجة والحاكم وصححه ، وغيرهم عن عقبة بن عامر الجهنى قال : لما نزلت على رسول الله ﷺ « فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ » قال : « اجعلوها فى ركوعكم » ولما نزلت « سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى » قال : « اجعلوها فى سجودكم » والله أعلم .

---

(١) كما تشير إليه الفاء فى قوله تعالى : (فَسَبِّحْ) .

((سـورة الحديد))

هذه السورة الكريمة من السور المدنية وآياتها تسع وعشرون آية

سبب التسـمية :

وسميت بهذا الاسم لذكر الحديد فيها ، وهو ذو أثر عظيم فى حياة الناس جميعًا حاضرهم وباديهم فى سلمهم وحربهم : فعليه تقوم المصانع التى تمد الإنسان بما يحتاجه فى طعامه وشرابه ولباسه ومسكنه ، وبه يدافع عن وطنه وحرماته فمنه تصنع الأسلحة البرية والبحرية والجوية إلى غير ذلك من أنواع القوة والبأس وشتى المنافع الجليلة للبشرية : (وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ) .

مناسبتها لما قبلها :

إن سورة الواقعة ختمت بطلب التسبيح والتنزيه لله « فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ » . وهذه السورة بدئت بالتسبيح (سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِى السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ) فكان أول سورة الحديد واقع موقع التعليل لما فى آخر سورة الواقعة فكأنه قيل : « فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ » ؛ لأنه (سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِى السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ) .

ما جاء فى فضلها مع اخواتها :

أخرج الإمام أحمد والترمذى وحسنه النسائى وابن مردويه والبيهقىّ فى شعب الإيمـان عن عرباض بن سارية « أن رسول الله ﷺ كان يقرأ المسبحات قبل أن يرقد » .

بعض مقاصد السـورة :

١ ـ تحدثت السورة فى أولها عن أن الله ـ تعالى ـ تدين له المخلوقات جميعًا ، وتسبح بحمده ، وتنطق بلسان الحال أو بلسان المقال بعظمته وجلاله (سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِى السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ) .

٢ - ذكرت بعضًا من أسمائه - تعالى - التى تدل على تفرده وتوحده ، فهو الأول بلا ابتداء والآخر بلا انتهاء ، وأنه الظاهر بقدرته وآثاره ، الباطن الذى لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار ، وأنه له ملك السموات والأرض خلقًا وإبداعًا ، وأنه العليم بكل مايلج فى الأرض ، ويعلم كذلك مايخرج منها ، ومايننزل من السماء ومايعرج فيها ، وأن الأمور كلها راجعة إليه وحده (وَإِلَى اللهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ) .

٣ - تدعو السورة الكريمة إلى الإيمان بالله ورسوله ، وتنعى على الكافرين عدم الإيمان مع أن الرسول ﷺ يدعوهم ويذكرهم بما أخذه الله على عباده من المواثيق : (وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ) فضلًا عمَّا لهم من عقول بها يميزون الصحيح عن الفاسد .

٤ - كما تحدثت عن طلب الإنفاق والحث عليه والبذل فى سبيل الله (وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللهِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ) .

٥ - تعرضت السورة لذكر الفريقين : فريق الجنة ، وفريق السعير .

فأما الفريق الأول فيسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم ليهديهم الصراط المستقيم - فيدخلون الجنة .

أما الفريق الضال فإنه لا نور له ويحال بينه وبين نور المؤمنين فلا يستطيع اللحاق بهم ويسخر منهم فيقال لهم : (ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا) فلا يستطيعون الرجوع إلى الدنيا ليعملوا بعمل المؤمنين حتى يلحقوا بهم .

٦ - مثلت السورة الكريمة الدنيا ومافيها من متاع زائل ولهو ولعب وتفاخر وتكاثر فى الأموال والأولاد ، مثلتها بالزرع الذى سقاه المطر الوابل حتى نضر وأينع وأعجب به الزُّرَّاع ثم يصيبه الذبول والضمور حتى يصير هشيمًا تذروه الرياح ، وكذلك أمر الدنيا تتزين وتأخذ زخرفها حتى يظن أهلها أنهم قادرون عليها فيأتيها أمر الله ليلًا أو نهارًا بالفناء فتصير كالزرع المحصود الذى لم يكن موجودًا بالأمس .

بسم الله الرحمن الرحيم

(سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١﴾ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢﴾ هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣﴾ هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤﴾ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴿٥﴾ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَهُوَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٦﴾)

المفردات :

(سَبَّحَ لِلَّهِ) : نَزَّه الله عما لايليق به[1] .

(الْأَوَّلُ) : الذى كان قبل كل شىء .

(الْآخِرُ) : الباقى بعد فناء كل شىء .

---

(١) قال الزمخشرى: أصله التعدى بنفسه؛ لأن معنى سبّحته: بعدته عن السوء منقول من سبح إذا ذهب وبعد.

(الظَّاهِرُ) : الذى يعرف بالأدلة الدالة عليه .

(الْبَاطِنُ) : الذى لاتدرك حقيقته ولا تحوم العقول حوله .

(يَلِجُ) : يدخل .

(يَعْرُجُ) : يصعد .

(يُولِجُ) : يُدخل .

التفسير

١ ـ (سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ) :

التسبيح : هو تنزيه الله ـ تعالى ـ اعتقادًا وقولًا وعملًا عمَّا لا يليق بجنابه ـ سبحانه ـ وأُسند التسبيح إلى ما فى السموات والأرض ؛ليعم جميع ما فيهما من الموجودات عقلاء وغيرهم فتسبيح العقلاء يكون بلسان المقال ، فإنهم ينزهونه ويقدسونه بألسنتهم كما ينزهونه ـ بقلوبهم وأعمالهم ، أما بالنسبة لغير العقلاء فإن تسبيحهم يكون بلسان الحال أى : إن حدوث هذه الموجودات على ما هى عليه من إبداع وإتقان يدل على الصانع الواجب الوجود المتصف بكل كمال المنزه عن كل نقص ، وذهب بعضهم إلى أن التسبيح على حقيقته فى الجميع العاقل وغيره ، وأن كل مخلوق يسبِّحه تسبيحًا قوليًّا مستدلين على ذلك بقوله ـ تعالى ـ : « وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ »(١) .

وافتتحت سورة الإسراء بالمصدر « سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ ... » وبعض السور بالفعل الماضى (سَبَّحَ) كسورة الحديد ، وسورة الحشر وغيرهما ، وبعضها بالفعل المضارع (يُسَبِّحُ) كسورة الجمعة ، والتغابن ، وبعضها بفعل الأمر (سَبِّحْ) كسورة الأعلى ليشعر استيعاب هذه الكلمة لجميع ما تدل عليه من المصدر والفعل بأن المخلوقات من لدن إخراجها من العدم إلى الوجود إلى الأبد مسبحة مقدسة لذاته ـ سبحانه وتعالى ـ فى كل الأزمان قولًا وفعلًا ،

---

(١) سورة الإسراء من الآية : ٤٤

طوعًا وكرهًا، (وَهُوَ الْعَزِيزُ) أى : القادر الذى لا ينازعه ولا يمانعه شىء . فهو - سبحانه - لا نظير له ولا مثيل، (الْحَكِيمُ) أى : الذى لا يفعل إلّا ماتقتضيه الحكمة ، ولعزته ينتقم من المكلف الذى لا يسبحه عنادًا ، ولحكمته يجازى من قدّسه ونزهه طواعية وانقيادًا .

٢ - (لَهُ مُلْكُ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) :

أى : له - سبحانه - لا لغيره ملك السموات والأرض ملكًا حقيقيًا أبديًا غير حادث ، ولا زائل ، أما ملك غيره فهو موقوت بزمان مرهون بوقت يحدث بعد أن لم يكن ، ويزول مهما امتد به الزمن ، وهو - جل شأنه - يحيى الأشياء من العدم المحض، ويميت كل شىء ويبقى وجهه الكريم وحده قال - تعالى - : « كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ۝ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ »[1] . وهو - تعالت قدرته - مقتدر ومتمكن من كل شىء مما نعلم ومما لا نعلم ، لا يعجزه أمر ، ولا يشغله شأن عن شأن .

٣ - (هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ) :

أى : هو وحده (الْأَوَّلُ) بلا ابتداء ، القديم الذى كان من قبل كل شىء ، فهو الموجد والمحدث للموجودات ، وهو (الْآخِرُ) بِلَا انتهاء ، الباقى - سبحانه - بعد فناء كل شىء ؛ (الظَّاهِرُ) بالأدلة الدالة عليه من خلق وإبداع (الْبَاطِنُ) الذى لا تُدرك حقيقته ولا تحوم حوله العقول ، ولا يعلم ذاته إلّا هو وحده - تبارك وتعالى - والواو الأولى بين (الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ) تدل على أنه - سبحانه - الجامع بين الصفتين الأولية والآخرية ، والواو التى بين (الظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ) للدلالة على أنه الجامع بين الظهور والخفاء ، أما الواو الوسطى الواقعة بين (الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ) (و) (الظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ) فتدل على أنه هو الجامع بين مجموع الصفتين الأوليين ، ومجموع الصفتين الأُخْرَيَيْن ، فهو مستمر الوجود فى جميع الأوقات الماضية والآتية ، وهو فى جميعها ظاهر وباطن ، جامع للظهور بالأدلة ، والخفاء فلا يدرك بالحواس[2] .

---

(١) سورة الرحمن الآيتان : ٢٦ و ٢٧

(٢) الكشاف بتصرف .

وختتمت الآية وذيلت بقوله ـ تعالى ـ : (وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ) لئلا يتوهم أن خفاءه ـ تعالى ـ عن الأشياء يستلزم خفاء الأشياء عنه ـ عز وجل ـ ولكن ليس الأمر كذلك ، بل هو ـ لا غيره ـ عالم كمال العلم وتمامه بكل ما كان وما هو كائن وما سيكون .

٤ ـ (هُوَ الَّذِى خَلَقَ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَمَا كُنتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ) :

أى : هو ـ جلت قدرته ـ وَحْدَهُ الَّذِى أَوْجَدَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا فِيهِنَّ فِى سِتَّةِ أَوْقَاتٍ أَوْ مِقْدَارِ ستة أيام من أيام الدنيا ولو شاء ـ سبحانه ـ لخلقها فى طرفة عين (ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ) أى : استواء يليق بجلاله من غير تشبيه ولا تمثيل ولا تعطيل ، قال الإمام مالك ـ رحمه الله ـ : الاستواء معلوم ، والكيف مجهول ، والإيمان به واجب ، والسؤال عنه بدعة . وقال الإمام أحمد ـ رحمه الله ـ : أخبار الصفات تمر كما جاءت بلا تشبيه ولا تعطيل ، فلا يقال : كيف ؟ ولم ؟ نؤمن بأن الله على العرش كيف شاء وكما شاء بلا حدٍّ ولا صفة يبلغها واصف أو يحدها حادّ . هذا هو مذهب سلف هذه الأمة ، أما مذهب الخلف فيؤولون الاستواء بالاستيلاء . ومذهب السلف ـ كما يقولون ـ أسلم ، ومذهب الخلف أحكم ولكل وجهته .

(يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا) أى : هو ـ سبحانه ـ يعلم علما لا يدانيه علم بما يدخل فى الأرض من القطر ، والبذر ، والحشرات ، والهوام ، والكنوز ، والموتى ، وغيرها يعلمه علمًا تفصيليًّا محيطًا ويعلم ـ كذلك ـ ما يخرج منها من نبات ونفائس ومعادن ونحوها مما تحويه الأرض وتضمه فى أثنائها (وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا) أى : ويعلم ـ جلت عظمته ـ ما ينزل من السماء من ملائكة وشهب ومطر ورحمات أو نوازل ويعلم ـ أيضًا ـ ما يعرج فيها ويصعد إليها من كلم طيب ودعوات وعبادات أو ذرات البخار أو جن يسترق السمع أو أرواح تصعد إلى بارئها أو ملائكة ترفع أعمال العباد إلى مبدئها وخالقها قال ـ تعالى ـ : « أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ »[1] ، (وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَمَا كُنتُمْ) أى : وهو ـ تعالى ـ مع خلقه جميعًا

(١) سورة الملك من الآية : ١٤

بعلمه وقدرته وتدبيره وقيوميته وذلك فى كل أحوالهم وشتى شئونهم قال - تعالى - : « وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِى الْأَرْضِ وَلَا فِى السَّمَآءِ وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ إِلَّا فِى كِتَابٍ مُّبِينٍ »[1] ، (وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ) أى : وهو - عز شأنه - بما تعملون وماتدعون وتتركون رقيب عليكم شهيد على أعمالكم حيث كنتم وأين كنتم محيط بسركم وجهركم فيجازيكم على ما يصدر منكم .

٥ - (لَهُ مُلْكُ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ) :

هذا تأكيد لِمَا سبق فى أول السورة ، وتمهيد للتذكير بالبعث حيث ورد بعده قوله - تعالى - : (وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ) أى : له - لا سواه - ملك السموات والأرض فى الدنيا وإليه - وحده لا لغيره - جل وعلا - يصير أمر الخلائق فى الآخرة بعد أن تبدل الأرض غير الأرض والسموات .

٦ - (يُولِجُ اللَّيْلَ فِى النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِى اللَّيْلِ وَهُوَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ) :

أى : أنه - سبحانه - يدخل الليل فى النهار بأن ينقص من الليل ويزيد فى النهار ، ويدخل النهار فى الليل بأن ينقص من النهار ويزيد فى الليل ؛ لأن حكمته تقتضى ذلك لصلاح الناس فى أمر معاشهم وللدلالة - على كمال قدرته ، وهو عليمٌ ومحيطٌ إحاطة تامة بما تكنه وتخفيه الصدور من أسرار وإن دقت وخفيت ، ولا يقدر أحد سواه على معرفة حقيقتها وكنهها ، ومن كان على هذه الصفات الجليلة فلا يستقيم أن يُعبد أحدٌ سواه .

---

(١) سورة يونس من الآية : ٦١

(ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَأَنفِقُواْ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ ۖ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَأَنفَقُواْ لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿٧﴾ وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ۙ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُواْ بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَٰقَكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِۦٓ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ لِّيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٩﴾ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُواْ مِنۢ بَعْدُ وَقَٰتَلُواْ ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٠﴾ مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥ وَلَهُۥٓ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴿١١﴾)

المفـردات :

(مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ) : خلفاء فى التصرف فيه أو خلفاء عمن كان قبلكم .

(وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ) : قال مجاهد : هو الميثاق الأول وهم فى ظهر آدم بأن الله ربكم لا إله لكم سواه ، وقيل : أخذ ميثاقكم بأن ركّب فيكم العقول ، ونصب لكم الأدلة ومكنكم من النظر فيها .

(قَرْضاً حَسَنًا) : القرض ما أُخرج لاسترداد بدله ، والحسن ما كان بإخلاص بلا مَنّ ولا أذى .

التفسير

٧ - (آمِنُواْ بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَأَنفِقُواْ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ فَالَّذِينَ آمَنُواْ مِنكُمْ وَأَنفَقُواْ لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ) :

أى : صدقوا واعتقدوا بأن الله ربكم وأن محمدًا رسولكم ؛ لأن الإيمان شرط فى قبول الأعمال الصالحة ، وأنفقوا وتصدقوا من أموال الله التى فى أيديكم وقد أعطاكم وموّلكم إياها تستمتعون بها ، وجعلكم خلفاء فى التصرف فيها ، فليست هى بأموالكم فى الحقيقة وما أنتم فيها إلّا بمنزلة الوكلاء والنواب ، ويسهل عليكم الإنفاق والبذل منها فى سبيل الله كما يسهل ويهون على الرجل الإنفاق من مال غيره إذا أذن له فيه ، أو أنه - سبحانه - جعلكم فى هذا المال خلفاء من الذين كانوا قبلكم من الوالدين والأقارب والأزواج ، وورثكم إيّاه فاعتبروا بحالهم ، حيث انتقل منهم إليكم وسينقل منكم إلى الذين بعدكم ، فلا تبخلوا وانفعوا - أنفسكم بالإنفاق منها . قال الإمام أحمد : حدثنا محمد بن جعفر ، حدثنا شعبة سمعت قتادة يحدث عن مطرف عن أبيه قال : انتهيت إلى رسول الله ﷺ وهو يقول : « ألهاكُمُ التكاثر ، يقول ابنُ آدمَ : مالى مالى وهل لك مِنْ مالك إلّا ما أكلتَ فأفنيْتَ ، أو لَبِسْتَ فأبليْت ، أو تصدقْتَ فأمْضَيْتَ » ورواه مسلم وزاد « وما سوى ذلك فذاهبٌ وتاركُهُ للناس » .

(فَالَّذِينَ آمَنُواْ مِنكُمْ وَأَنفَقُواْ لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ) أى : فالذين صدقوا وآمنوا بربهم ورسوله وأنفقوا ممّا منحهم الله وجعلهم مستخلفين فيه ، لهم أجرٌ عظيم جليل فى منزلته ، وكبير فى مقداره وهو الجنة ، ويا له من جزاء حسن كبير .

٨ - (وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُواْ بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ) :

جاء هذا القول الكريم للإنكار عليهم وتوبيخهم على ترك الإيمان أىْ : وأىّ عذر لكم فى ترك الإيمان بالله ، والحال أن الرسول ﷺ بين أظهركم يدعوكم إليه وينبهكم عليه ويبينه لكم بالحجج الدامغة والبراهين القاطعة (وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ) وهو ما كان من إخراجهم من

ظهر آدم وأشهدهم بأنه ـ سبحانه ـ ربهم فشهدوا كما قاله البغوى ، وروى عن مجاهد وعطاء والكلبي وقتادة قال ـ تعالى ـ : « وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِى ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَىٰ شَهِدْنَا »[1] وهو العهد المأخوذ يوم الذر ، أو وقد نصب لكم الأدلة التى منها ما هو موجود فى أنفسكم قال ـ تعالى ـ : (وَفِى أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ) كما نشر ـ سبحانه ـ الآيات فى الآفاق ومكنكم من النظر فيها بما أودع فيكم من عقول .

وفى كُلِّ شَىْءٍ لَهُ آيَة تَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ الوَاحِد

(إن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ) أى : إن كنتم مصدقين ومؤمنين فى وقت من الأوقات ، أو لموجب مّا فالآن أحرى بكم وأجدر أن تؤمنوا لقيام الأدلة والبراهين عليكم .

٩ ـ (هُوَ الَّذِى يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِۦٓ ءَايَاتٍۭ بَيِّنَاتٍ لِّيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَإِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ) :

هذا ذكرٌ لبعض الأدلة والآيات الدالة على وجوب الإيمان به ، أى : هو ـ وحده ـ الذى ينزل على رسوله ﷺ معجزات ظاهرات ودلائل واضحات أكبرها وأعظمها القرآن الكريم ليخرجكم ـ جلت قدرته ـ من ظلمات الكفر وحمأة الشرك والضلال إلى نور الإيمان والهدى أو ليخرجكم رسوله ﷺ بما يرشدكم ويبلغكم ما أنزله الله عليه من الوحى ، وإنه ـ سبحانه ـ فى إنزاله الكتب وإرساله الرسل ـ هداية لكم ـ لهو ـ تقدست ذاته ـ شديد الرأفة عظيم الرحمة بكم حيث يسّر وأتاح لكم طريق الخلود فى الجنّة ساحة رضوانه ومستقر رحماته .

١٠ ـ (وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُواْ فِى سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُولَٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُواْ مِنۢ بَعْدُ وَقَاتَلُواْ وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ) :

هذا تأنيب وتوبيخ لهم على تركهم الإنفاق والبذل فى كل خير بعد أن طلبه الله منهم وحثهم عليه وذلك بعد أن أنكر عليهم ترك الإيمان به ـ سبحانه ـ وبرسوله ﷺ

(١) سورة الأعراف من الآية : ١٧٢

أىْ : اىُّ سبب لديكم منعكم من إنفاق الأموال فى سبيل الله ـ تعالى ـ والشأن فيها أنه لايبقى لكم ولا لغيركم منها شيء ، فأنفقوا ولا تخشوا فقرًا أو إقلالا ؛ فإنَّ الذى أنفقتم فى سبيله هو مالك السموات والأرض وأنها كلها باقية له ـ عزَّ وجلَّ ـ فهو مهلككم فوارث أموالكم .

(لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَـٰتَلَ) هذا بيان لتفاوت درجات المنفقين حسب تفاوت أحوالهم فى الإنفاق ، ذلك بعد أن أبان ـ قبل ـ أن للمنفقين جميعاً أجرا كبيرًا ، وجاء هذا للحث والترغيب فى تحرى ما هو أفضل وأكثر ثواباً من الأعمال ، أى : لايتساوى فى الفضل والأجر من أنفق ماله ، وبذل نفسه فى سبيل الله قبل فتح مكة . أو قبل صلح الحديبية ، مع من أنفق وقاتل بعد الفتح (أُولَـٰئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُواْ مِنْ بَعْدُ وَقَـٰتَلُواْ) أى : أولئك الذين كتب الله لهم السبق فى الإنفاق والقتال أرفع منزلة وأجل قدرًا من الذين أنفقوا من بعد الفتح وقاتلوا ، وإنما كان أولئك أعظم درجة من هؤلاء ؛ لأنهم إنما فعلوا ما فعلوا عند شدة الحاجة إلى النصرة بالنفس والمال لقلة المسلمين آنذاك وكثرة أعدائهم ، فضلاً عن أنه ليس هناك ما ترغب فيه النفوس من الحصول على المغانم والأسلاب ، فكان ذلك أنفع وأشق على النفس ، وفاعله أقوى يقيناً بما عند الله ـ تعالى ـ وأعظم رغبة فيه . وليس الأمر كذلك بالنسبة للذين أنفقوا من بعد وقاتلوا .

(وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ) أى : وكلٌّ فريق من الفريقين من أنفق وقاتل قبل الفتح أو بعده بشَّره الله ووعده الحسنى ، قيل : هى الجنة ، وقيل : هى أعم من ذلك كالنصر والغنيمة فى الدنيا .

(وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ) أى : وهو ـ سبحانه ـ بما تعملونه ظاهرًا وباطناً خيرًا أو شرًّا خبير به وعليم يجازيكم على حسبه ، فهو وعد للمؤمنين الطائعين ووعيد للكافرين والمذنبين .

وهذه الآية ـ على ما ذكره الواحدى عن الكلبى ـ نزلت فى أبى بكر الصديق ـ رضى الله عنه ـ وهى تشمل غيره ممن اتصف بذلك ؛ لأن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب

ولذلك قال الله ـ تعالى ـ : (أُولَـٰئِكَ) التى تدل على الجمع نعم هو أكمل من سواه فإنه أنفق قبل الهجرة وقبل الفتح جميع ماله وبذل نفسه مع رسول الله ﷺ لذا قال ﷺ « ليس أحدٌ أَمَنَّ علىَّ بصحبته مِنْ أبى بكر) ـ فرضى الله عنه وأرضاه ـ .

١١ ـ (مَن ذَا الَّذِى يُقْرِضُ اللهَ قَرْضاً حَسَناً فَيُضَـٰعِفَهُ لَهُ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ) :

هذا استفهام أُريد به الحث والندب إلى الإنفاق فى سبيل الله ، والقرض الحسن : هو البذل بإخلاص ، وتحرى أكرم المال ، وأفضل الجهات ، وفى التعبير بالقرض ما يشعر بأنه عائد إلى صاحبه ؛ لأنه أخرج لاسترداد البدل ، أى : مَن ذا الذى ينفق فى سبيل الله حتى يبدله الله بالأضعاف الكثيرة ما بين السبع إلى السبعمائة إلى ما شاء الله من الأضعاف وله مع هذا أجر عظيم وجزاء جميل ،حقيق أن يتنافس فيه المتنافسون ؛ لأنه مع زيادة مقداره هو ـ أيضاً ـ رفيع فى منزلته وهو الجنة .

وعن عبد الله بن مسعود قال : لما نزلت هذه الآية قال أبو الدحداح الأنصارى : يارسول الله ، وإن الله ليريد منا القرض ؟ قال : نعم يا أبا الدحداح ، قال : أرنى يدك يا رسول الله ، قال : فناوله يده ، قال : فإنى أقرضت ربى هذا الحائط ، وله حائط (بستان) فيه ستمائة نخلة وأم الدحداح فيه وعيالها قال : فجاء أبو الدحداح فناداها يا أم الدحداح قالت : لبيك قال : اخرجى فقد أقرضته ربى ـ عزَّ وجل ـ وفى رواية قالت له : ربح بيعك يا أبا الدحداح ونقلت منه متاعها وصبيانها ، وأن رسول الله ﷺ قال : (كم مِن عِذْق رَدَاح[1] فى الجنة لأبى الدحداح) وفى لفظ (رُبَّ نخلةٍ مدلاةٍ عروقها من دُرٍّ وياقوت لأبى الدحداح فى الجنة)[2] .

---

(١) العذق : هو من التمر كالعنقود من العنب ، الرداح : المثقل بثمره .

(٢) انظر مسند الإمام أحمد ج ٣ ص ١٤٦ فقد ورد الحديث بنحوه .

(يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِم بُشْرَىٰكُمُ ٱلْيَوْمَ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٢﴾ يَوْمَ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ٱرْجِعُوا۟ وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُوا۟ نُورًا ۚ فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ ﴿١٣﴾ يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَٱرْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ ٱلْأَمَانِىُّ حَتَّىٰ جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿١٤﴾ فَٱلْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ مَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ ۖ هِىَ مَوْلَىٰكُمْ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٥﴾)

المفردات :

(يَسْعَىٰ) : يمضى مسرعاً .

(انظُرُونَا) : انتظرونا أو أمهلونا .

(نَقْتَبِسْ) : الاقتباس طلب القبس وهو الجذوة من النار ، والمراد : نستضىء ونهتدِ بنوركم .

(فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ)[1] : أوقعتموها فى بلية وعذاب أو أهلكتموها بالنفاق .

---

(١) الفتن : إدخال الذهب النار لتظهر جودته من رداءته ، واستعمل فى إدخال الإنسان النار . (الراغب الأصفهانى) .

(وَتَرَبَّصْتُمْ) : وانتظرتم بالرسول وبالمؤمنين شراً .

(وَارْتَبْتُمْ) : وشككتم فى أمر الدين .

(وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ) : وخدعتكم الأباطيل والآمال الكاذبة .

(فِدْيَةٌ) : فداء ، وهو ما يبذل لحفظ النفس عند النائبة والمصيبة .

(مَأْوَاكُمُ النَّارُ) : مقامكم ومنزلكم .

(هِيَ مَوْلَاكُمْ) : هى حق وأولى بكم ، أو هى التى تتولى أمركم .

(وَبِئْسَ الْمَصِيرُ) : وساءت النار مرجعاً ومصيرًا لكم .

التفسير

١٢ - (يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِم ...) إلخ الآية :

الرؤية فى قوله - تعالى - : (تَرَى) بصرية ، والخطاب لرسول الله ﷺ أو لكل من تتأتى منه الرؤية ، أى : اذكر لهم - يا محمد - ذلك تفخيماً لشأن هذا اليوم وزيادة فى إدخال الإيناس والاطمئنان على قلوب المؤمنين ليفرحوا بما أعد لهم من السعادة والفوز ، اذكر لهم يوم ترى أنوار المؤمنين والمؤمنات تتلألأ من أمامهم وعن أيمانهم ليستضيئوا بها على الصراط .

أخرج ابن أبى شيبة وغيره والحاكم وصححه عن ابن مسعود أنه قال : « يؤتون نورهم على قدر أعمالهم يمرون على الصراط منهم من نوره مثل الجبل ، ومنهم من نوره مثل النخلة وأدناهم نورًا من نوره على إبهامه يُطفأُ مرة ويَتَّقِد أخرى » ، وظاهره أن هذا النور يكون عند المرور على الصراط ، وقيل : يكون قبل ذلك ويستمر معهم إذا مروا على الصراط ، المراد : أنه يكون لهم فى جهتين جهة الأمام وجهة اليمين ؛ لأن السعداء يؤتون صحائف أعمالهم من هاتين الجهتين ، أما الأشقياء فإنهم يؤتونها من شمائلهم ومن وراء ظهورهم ، وهل هذا النور خاص بمؤمنى الأمة الإسلامية أو هو عام لكل مؤمن ؟ والظاهر أنه عام ، إلا أنه يمكن أن يقال :

أن ما يكون من النور للأمة الإسلامية أجل وأبهى من النور الذى يكون لغيرها ، (بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا) أى : بسبب إيمانهم تقول لهم الملائكة الذين يتلقونهم : لكم البشارة اليوم بدخول جنات تجرى من تحتها أنهار من ماء غير آسن وأنهار من لبن لم يتغير طعمه ، وأنهار من خمر لذة للشاربين ليست برديئة الطعم ، ولا بكريهة المذاق ، ولا تذهب بعقولهم كخمر الدنيا ، وأنهار من عسل مصفًّى ، وهم فى هذه الجنات خالدون فيها خلودًا أبديًّا (ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ) أى : وهذا الجزاء الذى سألوه وظفروا به هو الفوز الذى لا فوز بعده فلا يعظمه ظفر؛ لأنه سبب السعادة الأبدية « فِى جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ * فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ »[(١)] .

١٣ - (يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِن قِبَلِهِ الْعَذَابُ) :

أى : اذكر لهم ذلك اليوم الذى يعترى فيه المنافقين الخزى والهوان ، وقد فاز فيه المؤمنون وظفروا بالنور يسعى بين أيديهم وبأيمانهم ، وفى هذه المقابلة التى تبين ما عليه كل من الفريقين ما يشعر بتعظيم شأن المؤمنين ، وبالحط والمهانة للمنافقين إذ يقولون فى هذا الموقف العصيب للذين آمنوا : انتظرونا وأمهلونا حتى نأخذ قبساً من نوركم نستضىء به فنحن قد منعناه وحرمنا منه وقد أصبحنا فى ظلمة فلا ندرى كيف نمشى فيها .

أخرج الطبرانى وابن مردويه عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : « إنَّ اللهَ يدعو الناسَ يومَ القيامةِ بأمهاتهم ستراً منه على عباده ، وأمَّا عندَ الصراطِ فإنَّ اللهَ يُعطى كلَّ مؤمنٍ نورًا ، وكلَّ منافقٍ نورا فإذا استوَوْا على الصراطِ أطفأَ اللهُ نورَ المنافقين والمنافقاتِ فقال المنافقون : انظرونا نقتبسْ مِن نوركم ، وقال المؤمنون : ربنا أتْمِم لنا نورَنا فلا يذكرُ عند ذلك أحدٌ أحدًا »[(٢)] .

---

(١) سورة القمر الآيتان : ٥٤ و ٥٥

(٢) انظر كنز العمال ج ١٤ ص ٦٤٢ رقم ٣٩٧٦٦ فقد ورد الحديث من رواية لابن عباس، وقال: رواه الطبرانى .

(قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ) أى : يقول المؤمنون أو الملائكة للمنافقين والمنافقات - استخفافاً واستهزاءً بهم - ارجعوا إلى المكان الذى قسم الله فيه النور ، فاطلبوا من هناك نوراً لكم فإنكم لا تقتبسون من نورنا ، أو ارجعوا إلى الدنيا فالتمسوا هذه الأنوار - وذلك سخرية بهم أيضاً - إذليس إلى الدنيا رجعة ، أو يقولون لهم - على سبيل التبرى منهم والطردِ والإبعاد لهم - تنحوا عنا . (فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِن قِبَلِهِ الْعَذَابُ) أى : فحيل بين الفريقين بحاجز له باب يفصل بين أهل الجنة وأهل النار ، باطن هذا السور وجانبه الذى يلى المؤمنين فيه الجنة التى هى مستقر الثواب والنعيم ، وظاهر هذا السور وجانبه الذى يلى المنافقين والكفار يكون من جهته العذاب الأليم فى النار التى وقودها الناس والحجارة .

١٤ - (يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ قَالُوا بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ حَتَّىٰ جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ) :

أى : بعد أن يصير أمر المنافقين إلى ضرب السور بينهم وبين المؤمنين ومشاهدتهم العذاب ينادون المؤمنين قائلين لهم مستنجدين بهم : ألم نكن معكم فى الدنيا نفعل كما تفعلون من نطق بالشهادتين وصلاة وصيام وزكاة وحج ونحو ذلك من شعائر الإسلام فيقول لهم المؤمنون : (بَلَىٰ) كنتم معنا فى الظاهر (وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ حَتَّىٰ جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ) أى : ولكنكم أهلكتم أنفسكم بالنفاق وأوقعتموها فى بلية وعذاب ، وانتظرتم بالمؤمنين شراً ، وتربصتم بهم الدوائر والحوادث المفجعة ، والنوازل المهلكة ، وشككتم فى أمر دينكم ، ولم يتمكن الإيمان من قلوبكم ، وخدعتكم الأباطيل والأمانى الكاذبة ، وظننتم أن الإسلام لا يطول أمره ولا تمتد ظله ، حتى فاجأكم الموت وأنتم على باطلكم ، وخدعكم الشيطان وأدخل فى روعكم وقلوبكم أن رحمة الله واسعة ، وأن عفوه ومغفرته تشملكم فلا يعذبكم على ما بدر منكم ، ولكنه كذبكم وضللكم وهو اليوم يتبرأ منكم .

١٥ ـ (فَالْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مَأْوَاكُمُ النَّارُ هِيَ مَوْلَاكُمْ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ) :

أى : ففى هذا اليوم الشديد القاسى لايقبل الله منكم ـ أيها المنافقون ـ فداء تحفظون به أنفسكم من نزول العذاب بكم ولو كان ملء الأرض ذهباً ومثله معه كما لا يقبل الله ذلك من الذين كفروا ، وفى هذا تيئيس وإقناط للكافرين من عفو الله عنهم إذ قد يتوهمون أن هذا العذاب الشديد والخلود الدائم فى النار إنما يكون للمنافقين فحسب جزاء خداعهم ومكرهم وإخفائهم الكفر وإظهار الإسلام . والحق أن هذا جزاء من كفر بالله ولم يستيقن ذلك بقلبه غير أن المنافقين لهم الدرك الأسفل من النار .

(مَأْوَاكُمُ النَّارُ هِيَ مَوْلَاكُمْ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ) أى : إن النار ـ وحدها ـ هى المكان الذى تأوون إليه وتقيمون وتخلدون فيه خلودًا أبديًا إذ هى ـ لا غيرها ـ أولى وأحق بكم أو هى ناصركم ولا تنصركم إلا بإيلامها وسعيرها وهذا من باب « تحية بينهم ضرب وجيع » (وَبِئْسَ الْمَصِيرُ) أى : وقبح المرجع والمنقلب نار جهنم .

* (أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَـٰسِقُونَ ﴿١٦﴾ ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْـَٔايَـٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٧﴾ إِنَّ ٱلْمُصَّدِّقِينَ وَٱلْمُصَّدِّقَـٰتِ وَأَقْرَضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَـٰعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴿١٨﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦٓ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَ ۖ وَٱلشُّهَدَآءُ عِندَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَآ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٩﴾)

المفــردات :

(أَلَمْ يَأْنِ) : ألم يجيء ويحن الوقت ....

(أن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ) : أن تلين قلوبهم وتنقاد لأوامر الله .

(وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ) : وما نزل من القرآن الكريم .

(الَّذِين أُوتُواْ الْكِتَابَ) : اليهود والنصارى .

(الْأَمَدُ) : الزمن الممتد والغاية .

(فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ) : غلظت وصلبت .

(فَاسِقُونَ) : خارجون عن حدود دينهم .

(يُحْيِي الْأَرْضَ) : يجعلها خصبة بالنبات والزروع .

(مَوْتِهَا) : جدبها وقفرها .

(الْمُصَّدِّقِينَ وَالْمُصَّدِّقَاتِ) : المتصدقين والمتصدقات الذين يبذلون أموالهم فى الطاعات من الصدقة ، أو المبالغين فى الصدق لله ولرسوله من التصديق .

(الْجَحِيمِ) : النار .

التفسير

١٦ - (أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللهِ ، وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ ، وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ، وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ) :

هذه الآية استئناف ناع على المؤمنين الفاترين المتخاذلين تخاذل المنافقين وتثاقلهم عن أمور الدين ، ورخاوة هممهم فيها ، وتكاسلهم فيما ندبوا إليه .

رُوِيَ أَنَّ الْمُؤْمِنِينَ كَانُوا مقلِّين مجدبين بمكة ، فلما هاجروا إلى المدينة أصابوا الرزق والنعمة ، وفتروا عما كانوا عليه من الحماس والنَّشاط لدينهم فنزلت .

وعن ابن مسعود - رضى الله عنه - . ما كان بين إسلامنا ، وبين أن عوتبنا بهذه الآية إلا أربع سنوات - وعن ابن عباس - رضى الله عنهما - إن الله استبطأ قلوب المؤمنين فعاتبهم على رأس ثلاث عشرة سنة من نزول القرآن ، وعن الحسن - رضى الله عنه - أما والله لقد استبطأهم ، وهم يقرءون من القرآن أقل مما يقرءون ، فانظروا فى طول ما قرأتم منه . وما ظهر فيكم من الفسق ، وعن أبى بكر - رضى الله عنه - أن هذه الآية قرئت بين يديه . وعنده قوم من أهل اليمامة ، فبكوا بكاء شديدًا ، فنظر إليهم فقال : هكذا كنَّا حتى قست القلوب .

هذا على أن الآية نزلت فى بعض المؤمنين المتكاسلين فى شئون الدين - وقيل إنها نزلت فى المنافقين بعد الهجرة بسنة ، وذلك أنهم سألوا سلمان الفارسى ذات يوم ، فقالوا :

حدثنا عما فى التوراة فإن فيها العجائب فنزلت : « الٓر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ »[1]. إلى قوله – تعالى – : « لَمِنَ الْغَافِلِينَ » . فخبّر أن القرآن أحسن القصص ، وأنفع لهم من غيره ، فكفوا عن سؤال سلمان ما شاء الله ، ثم عادوا فسألوه عن مثل ذلك فنزلت آية : « اللهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَاباً مُتَشَابِهاً مَثَانِيَ... »[2] فكفوا عن سؤال سلمان ما شاء الله . ثم عادوا فسألوا سلمان فنزلت هذه الآية (أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُواْ ...) عن الكلبى ومقاتل . قال الآلوسى – بعد ماساق هذه الرواية : ليس بشىء .

وسواء كان نزولها فى المنافقين أو فى بعض المؤمنين المتخاذلين المتكاسلين ، فإنها استنهاض للهمم فى جانب العبادة ، وإيقاظ للفتور والتكاسل عن الطاعة ، وتنبيه إلى استدامة المواظبة عليها والنهوض لها ، والالتزام بها فى كل الأوقات والأحوال ، فلا يتكاسل عنها إلا منافق ، ولا يفتر عن أدائها إلا مذبذب ضعيف الإيمان ، ضال عن سبيل الله ، « وَمَن يُضْلِلِ اللهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ سَبِيلاً »[3] .

والمعنى : ألم يجىء الوقت ، ويحن الحين للذين آمنوا أن يتمكن الإيمان فى نفوسهم ، ويخالط شغاف قلوبهم فتلين من جمودها وترق من قسوتها وغلظها ، وتتحرر من جاهليتها وجهلها فتخشع لذكره – تعالى – وتخافه وتطمئن به ، وتسارع إلى طاعته بالامتثال لأوامره ، والانتهاء عما نهى عنه من غير توان ولا فتور ، وتخشع لما نزل من القرآن الكريم وهو الحق الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، فالمراد بما نزل من الحق هو القرآن الكريم المشتمل على ذكر الله – أيضاً – ووجه عطفه على ذكر الله أنه جامع للأمرين الذكر والموعظة ، وأنه حق نازل من السماء ، ويصح أن يراد من الخشوع لذكر الله الوجل والخوف والانقياد التام وبما نزل من الحق زيادة الإيمان عند سماع القرآن الكريم – كما فى قوله تعالى : « إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَاناً »[4] .

---

(١) أول سورة يوسف .
(٢) سورة الزمر من الآية : ٢٣
(٣) سورة النساء من الآية : ٨٨
(٤) سورة الأنفال من الآية : ٢

ومعنى (وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلُ) أى : لا يكونوا مثل أهل الكتاب من اليهود والنصارى الذين أُوتوا الكتاب قبلهم . وكان الحق يحول بينهم وبين شهواتهم . وإذا سمعوا التوراة والإنجيل خشعوا لله ورقت قلوبهم فطال عليهم الأجل وبعد العهد بينهم وبين أنبيائهم أو طالت أعمارهم ، ولم يعاجلهم الجزاء . فاغتروا وقست قلوبهم . وتحجرت وزال خشوعها وفشا فيهم الفساد فساءت أعمالهم ، واستمرءوا المعصية ، وغلب عليهم الشر فكثير منهم فاسقون خارجون على دينهم رافضون لما فى كتبهم .

١٧ ـ (اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ) :

نعت الآية السابقة على بعض المؤمنين فتورهم فى العبادة ، وعابت عليهم استهواء النعم لهم ، وانصرافهم إلى الترف والنعيم ، وجاءت هذه الآية تطمعهم فى الرجاء ، وتفتح لهم باب القبول ، ومداخل الرحمة حتى لايتملكهم يأس ، ولا يستولى عليهم قنوط ؛ ويعودوا لما كانوا عليه من النشاط فى العبادة ، والهمة فى الطاعة والحماس للدعوة ؛ وجرى فيها الأُسلوب مجرى التمثيل لإبراز القدرة فى أكمل صورة ، وعرضها فى أوضح بيان حيث شبهت تليين القلوب الغليظة وإنارتها بالإيمان والذكر وتلاوة القرآن بعد الكفر والجحود والظلمة والوحشة ـ شبهتها ـ بإحياء الأَرض بعد الغيث بالنبات وخصبها بالزرع والخضرة ونبض الحياة بعد الجدب والقفر والعفاء ، وهذا كله ترغيب فى الخشوع والخشية ؛ وتحذير من القسوة والغلظة .

والآية خطاب عام يتلقاه كل راغب فى الهداية ، طامع فى الرحمة من الذين أشارت إليهم الآية السابقة ومن غيرهم بياناً لمزيد فضل الله ، وواسع رحمته .

والمعنى : اعلموا معاشر المؤمنين أن قدرة الله فوق كل القدر ، وأن فضل الله عظيم على عباده يهبط على القلوب فيوجهها إلى الهداية ، ويحييها بالإيمان ، ويوفقها للطاعة بالذكر والتلاوة ، كما يحيي بالغيث الأَرض الجدبة فتؤتى ثمرها من النبات والزرع ، وتصبح ندية خضراء بعد أن كانت مقفرة جدباء .

وقوله - تعالى - : (قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ) بعد هذا التمثيل. معناه : قد وضحنا لكم الحجج ، والبراهين ، التي من جملتها هذه الآيات . كى تعقلوا ما فيها ، وتعملوا بموجبها فتنعم حياتكم ، وتسعد آخرتكم .

١٨ -(إِنَّ الْمُصَّدِّقِينَ وَالْمُصَّدِّقَاتِ وَأَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ):

هذه الآية دخول على فضائل الأعمال ، وبيان حال العاملين ودرجاتهم ، بعد أن عرضت الآية السابقة مظاهر قدرة الله وفضله ، فى إحياء القلوب وإثرائها بالإيمان والخير بعد الشر ، والعطاء بعد الجفاء .

والمصَّدقون والمصَّدقات يمكن أن يراد بهم المتصدقون بأموالهم ، الباذلون لها عن طيب نفس ، وخلوص نية على المستحق للصدقة ، ويجوز أن يراد بهم الذين صدقوا الله ورسوله من التصديق لا من الصدقة .

والمعنى : إن المتصدقين والمتصدقات الذين بذلوا أموالهم فى وجوه الخير للمحتاجين ، وإغاثة الملهوفين ومساعدة المنكوبين ابتغاء وجه الله قرضًا حسنا خالصًا من الرياء ، بعيدا عن التفاخر ، والتكاثر - إن هؤلاء - يضاعف الله لهم أجرهم ، الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلى أكثر من ذلك لمن يشاءُ والله واسعٌ عليم ، ولهم أكثر من هذا أجرٌ كريم فى نفسه ثمين فى جوهره جدير أن يتنافس فيه المتنافسون لذاته ومن غير مضاعفة فكيف إذا ضوعف أضعافًا مطلقة .

١٩ -(وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَـٰئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ وَالشُّهَدَاءُ عِندَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَـٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ) :

الكلام فى هذه الآية يمكن أن يكون مبنيًا على جملة واحدة فحواها أن الذين آمنوا بالله ورسله فى منزلة الصديقين والشهداء فى أجرهم ونورهم ، ويقابل هذه الجملة جملة (وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا) .

ويمكن أن يكون الكلام مبنيًّا على أكثر من جملة على معنى : (وَالَّذِينَ آمَنُواْ بِاللهِ وَرُسُلِهِ أُولَـٰئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ) جملة ، (وَالشُّهَدَاءُ عِندَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ) جملة أخرى ، ويقابل ذلك (وَالَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا أُولَـٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ) . ولعل الاحتمال الأول هو الأقرب إلى الفهم .

والمعنى : والذين آمنوا بالله وأفردوه بالألوهية ، وخصوه بالعبادة وآمنوا برسله جميعًا لم يفرقوا بين رسول ورسول ، ولم يقولوا نؤمن ببعض ونكفر ببعض ، ولم يتعصبوا لرسالة بعد موت رسولها وبعثة غيره غير رسالة محمد ﷺ فإنها هى الرسالة الخالدة الخاتمة – هؤلاء فى منزلة الصديقين المبالغين فى الصدق السابقين فى الإيمان وفى كل خير ، وفى منزلة الشهداء الذين بادروا إلى الشهادة ، واستشرفوا إلى الاستشهاد فى سبيل الله – تعالى – لهم ما للصديقين والشهداء فى المنزلة من علو المرتبة ، ورفعة المحل ، ومن الأجر والنور – المعروفين بغاية الكمال وعزة المنال .

(وَالَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا أُولَـٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ) وهذا فريق يقابل فريق الذين آمنوا بالله ورسله ، وضعا لفريق الجنة فى النعيم ، وفريق الكفر فى الجحيم « لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيِّنَةٍ وَيَحْيَا مَنْ حَيَّ عَن بَيِّنَةٍ »[1] .

والمعنى : والذين وصفوا بالكفر ، والكذب والتكذيب ، وجحدوا آيات الله ، وكذبوا رسالات الرسل عنادًا وكفرًا أولئك أصحاب الجحيم المقيمون فيها ، الملازمون لها بحيث لا يفارقونها ، ولا يجدون منها مخلصًا ، ولا عنها معدلًا .

---

(١) سورة الأنفال : من الآية ٤٢ .

(اعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَـٰدِ ۖ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَـٰمًا ۖ وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ ۚ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَـٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴿٢٠﴾ سَابِقُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢١﴾ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَـٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾ لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا۟ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿٢٣﴾ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِ ۗ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٤﴾)

المفـردات :

(لَعِبٌ وَلَهْوٌ) : قيل : اللعب ما رغب فى الدنيا ، واللهو : ما ألهى عن الآخرة ، والمراد أنها عبث لا بقاء له ولا دوام .

(وَزِينَةٌ) : تتزين فى عيون أهلها ، أو يتزين بها أهلها .

(تَفَاخُرٌ) : تكبر وتعال .

(الْكُفَّارَ) : الزُّرَّاع .

(يَهِيجُ) : يَجِفّ بعد خضرته ونضارته .

(حُطَامًا) : هشيمًا متكسرًا .

(فِى كِتَابٍ) : مكتوبة مثبتة فى علم الله – تعالى – أو فى اللوح .

(أَن نَّبْرَأَهَا) : أن نخلقها .

(تَأْسَوْا) : تحزنوا وتندموا .

(مُخْتَالٍ فَخُورٍ) : متكبر كثير الفخر .

التفسير

٣٠ – (اعْلَمُوٓا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ، ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ، ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا ، وَفِى الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ ، وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ) :

الأمر فى هذه الآية كالأمر فى قوله تعالى : (اعْلَمُوٓا أَنَّ اللهَ يُحْىِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا) موجه إلى كل من يتدبر الآيات ويتلقاها بفهم ووعى ، وينتفع بهديها ، ويسير على منهاجها وقد جاءت بعد بيان حال الفريقين فى الآخرة تكشف زيف الحياة التى اطمأن إليها أصحاب الجحيم ، وتشير إلى أنها من محقرات الأمور التى لا يركن إليها العقلاء فضلًا عن الاطمئنان بها وهى لعب لا ثمرة لها ، ولهو يشغل الإنسان عمَّا يفيده ، ويعود عليه بالنفع فى دنياه . وزينة زائفة زائلة ، تستهوى الجهال ، وتغريهم بالمظاهر الخداعة التى لا ترفع خسيسة ، ولا يحصل به شرف ، وتفاخر بالأنساب البالية ، وتكاثر بالعدَد والعُدَد ، وجمع مال لا يحل له ، وغير ذلك من الأمور الفانية التى تزهو وتزدهر ، ثم لا تلبث أن تذبل وتخبو ، كغيث ينزل فى أرض جرز جرداء قاحلة فتخصب وتخضر بالنبات وتزدهر بالزرع ، ويمتلئ قلب

الزراع بهجة بها ، ويغمرهم الفرح والبشر بمظهرها ونضارتها ، ثم لا تلبث أن تجف بعد النداوة ، وتصفر بعد الخضرة ، ثم تصير هشيمًا جافًا وحُطامًا متكسرًا .

وإذا صح أن يتفاخر أو يتكاثر أهل المعاصى بالأنساب والجاه ، أو الأموال والرجال فإن تفاخر المؤمنين ينبغى أن يكون بالتواضع ، والطاعة ، وفى صحيح مسلم عن النبى ﷺ « إنَّ اللهَ أوحَى إلىَّ أن تَواضَعوا حتى لا يبْغِىَ أحدٌ على أحد ، ولا يَفْخَر أحدٌ على أحد » .

وبعد أن بينت الآية حقارة أمر الدنيا تزهيدًا فيها ، وتنفيرًا من العكوف عليها ، أشارت إلى ما يلقاه الكافرون فى الآخرة من عذاب ، فقال تعالى : (وَفِى الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ) أى : بالغ أقصى درجات القسوة والشدة لأعداء الله ، جزاءً وفاقًا ؛ لانهماكهم فى مفاتن الدنيا وملاهيها ، واطمئنانهم إليها وفى الآخرة - أيضا - مغفرة عظيمة ورضوان من الله أكبر لا يقدر كنههما ولا يقادر قدرهما للمؤمنين الصديقين الذين أخلصوا لله الإيمان ، وداوموا الصدق ، وأحسنوا العمل فنالوا المغفرة والرضوان .

وفى مقابلة العذاب الشديد وحده بالمغفرة والرضوان إشارة كريمة إلى غلبة الرحمة ، ومزيد الفضل ، كما يشعر بذلك - أيضًا - إطلاق العذاب الشديد ، وتقييد الرحمة ، والرضوان بأنهما من الله - تعالى .

(وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ) أى : وليست الحياة الدنيا - وإن طالت وتعددت نعمها - إلّا متاع الغرور لمن اغتر بها وانخدع ، واطمأن إليها واشتغل بمفاتنها عن العمل لآخرته ، روى عن سعيد بن جبير : « الدنيا متاع الغرور إن ألهتك عن طلب الآخرة ، فأما إذا دعتك إلى طلب رضوان الله - تعالى - وطلب الآخرة فنعم المتاع ونعم الوسيلة » .

وقال ذو النون : يا معشر المريدين ، لا تطلبوا الدنيا ، وإن طلبتموها لا تحبوها فإن الزاد منها ، والمقيل فى غيرها .

٢١ - (سَابِقُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ) :

لما حقَّر الله - تعالى - الدنيا، وصغَّر أمرها، وعظم أجر الآخرة بعث وحث عباده على المسارعة إليها ، والمسابقة لنيل ما وعد فيها من المغفرة المنجية من العذاب الشديد ، ومن الفوز بدخول الجنة ونعيم الرضوان الأكبر ، فقال تعالى : (سَابِقُواْ إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ) .

والمعنى : سارعوا مسارعة السابقين لإخوانهم فى المضمار إلى أسباب مغفرة عظيمة من ربكم وتحصيل موجباتها من الأعمال الصالحة، وإلى جنَّة مبسوطة وافرة السعة عرضها كعرض السماء والأرض فكيف بطولها ؟ أعدها الله للذين آمنوا بالله ورسله عن إخلاص فى العقيدة، وصدق فى الإيمان ، واجتهاد فى عمل الصالحات فشملهم بذلك الرضا، وتمَّ لهم الفوز ، مع جزيل الجزاء وكريم العطاء وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء تفضلًا وإحسانًا فى غير إيجاب عليه ، ولا حساب له ، والله ذو الفضل العظيم الذى لا ينفذ بالعطاء، ولا يخضع لغاية أو أهواء .

وهكذا تطلب الآية السبق إلى مقتضيات المغفرة ، ومؤهلات الفوز بالجنة لتنتقل بالعبد من التفانى فى الحطام الزائل والمتاع الفانى إلى الإسراع فى طلب النعيم المقيم ، والمتاع الخالد .

وقدمت المغفرة على الجنة فى الذكر؛ لأنها تطهير يمهد لدخول الجنة تقديماً للتخلية على التحلية ، والمراد بقوله : (عَرْضُهَا) مساحتها فهى واسعة كسعة السموات والأرض ، وقيل : المراد بالعرض ما يقابل الطول وإذا كان العرض بهذا القدر فالطول أكبر كما هو المعتاد ، والمراد أن مساحتها واسعة .

٢٢، ٢٣ - (مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى الْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ * لِكَيْلَا تَأْسَوْاْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُواْ بِمَآ آتَاكُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ) :

هاتان الآيتان : دعوة إلى التزام القصد والاعتدال ، فى تلقى الأحداث ، واستقبال النعم، فلا تفرط النفس فى الأسى والحزن على ما يفوتها ، ولا يحملها تتابع النعم على البغى والطغيان ، فإن كل ما يصيب الإنسان أو يناله مقدر له بتقدير الله ، وبما سبق به الكتاب فى الأزل القديم . والله يحب من عباده أن يتلقوا المكاره بالرضا والصبر ، وأن يستقبلوا النعم بالتَّطامن والشكر . ومن رضى فله الرضا والأجر ، ومن حمد فله المزيد والشكر .

والمعنى : ما أصاب من مصيبة ، وما وقع على الأرض من نوائب وأحداث كجدب أو نقص فى الثمار والزرع ، أو زلزلة أو غير ذلك مما يقع على الأرض أو فيها من كوارث ، أو فى أنفسكم ، من مرض أو كسور أو حروق ، أو فقر أو موت أو غير ذلك مما يجرى على الإنسان – ما أصاب من شىء من ذلك – إلا وهو مكتوب مثبت فى علم الله أو فى اللوح المحفوظ قبل أن يخلق الله الأنفس أو المصائب أو الأرض – إن ذلك الإثبات فى علم الله أو فى اللوح المحفوظ يسير سهل على الله لاستغنائه عن العُدَّة والمُدَّة ، وإن كان عسيرًا فى ذاته أو على غير الله . وقد أخبركم الله بذلك ، وأعلمكم به لكيلا تأسَوْا وتحزنوا على ما فاتكم من نعم الدنيا ، أو مما ترجون لأنفسكم مما تظنونه خيرًا ، ولا تفرحوا بما أعطاكم الله – تعالى – منها فإن من علم أن كلَّ شىء بقضاء وقدر ، يفوت ما قُدِر فواته ، ويأتى ما قُدِر إتيانه لا يُفْرط فى جزعه على ما فات ، ولا يُعظم فرحه بما هو آت .

وإذا كان فى طبيعة الإنسان أن يحزن عند مضرة تنزل به ، وأن يفرح عند منفعة تناله ، فإن الذى ينبغى هو القصد والاعتدال فى ذلك وأن يكون الحزن صبرًا ، والفرح شكرًا ، والمذموم من الحزن والفرح ، أن يكون الحزن جزعًا مجافيًا للصبر والرضا بالقضاء ، وأن يكون الفرح أشرًا مطغيًا صارفًا عن الشكر والثناء . (وَاللهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ) أى : والله لا يحب كل متكبر على الناس متكاثر بأمواله ونعمه عليهم – وكل من فرح بحظ من الدنيا وعظَّم نفسه فقد اختال وافتخر ، وتكبر على الناس .

٢٤ – (الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللهَ هُوَ الْغَنِىُّ الْحَمِيدُ) :

هذه الآية بيان لمعنى المختال الفخور وتوضيح لطبعه وسلوكه ؛ فإن المغتر بالمال المختال المتكبر يضن به غالبًا شحًّا وبخلًا ، ويأمر غيره بذلك ، ولما كان البخل بالمال والدعوة إلى إمساكه إعراضًا عن طاعة الله ، وتنكبًا لطريق الهداية ختمت الآية بقوله – تعالى – : (وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللهَ هُوَ الْغَنِىُّ الْحَمِيدُ) .

والمعنى : ومن يمسك المال معرضًا عن إنفاقه فى سبيل الله لا يحرم إلا نفسه ولا يضر غيرها فإن الله غنى عن إنفاقه وهو – سبحانه – محمود فى ذاته لا يضره إعراض المعرضين

عن شكره بالتقرب إليه بشيء من نعمه ، وفيه تهديد وإشعار بأن الأمر بالإنفاق لمصلحة المنفق ؛ لأن ثواب نفقته إليه .

﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ ۖ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ ۚ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٢٥﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ ۖ فَمِنْهُم مُّهْتَدٍ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰ آثَارِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ الْإِنجِيلَ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا ۖ فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾

المفردات :

(رُسُلَنَا) : الملائكة إلى الأنبياء ، أو الأنبياء إلى الأمم .

(الْبَيِّنَاتِ) : الحجج والمعجزات .

(الْكِتَابَ) : جنس الكتاب الشامل لجميع الكتب السماوية .

(بِالْمِيزَانِ) : الآلة المعروفة أو العدل .

(بِالْقِسْطِ) : بالعدل .

(بَأْسٌ شَدِيدٌ) : قوة ومنعة كآلات الحرب والقتال .

(وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ) : مصالح تنفعهم كأدوات الصناعة والزراعة والبناء .

(ثُمَّ قَفَّيْنَا) : ثم أرسلنا بعد نوح وإبراهيم رسلنا متتابعين رسولًا بعد رسول .

(رَأْفَةً) : مودة ولينًا .

(وَرَحْمَةً) : تعطفًا وحنانًا وعند اجتماعهما يراد بالرأفة ما فيه درء الشر ، ورأب الصدع وبالرحمة ما فيه جلب الخير .

(وَرَهْبَانِيَّةً) : مبالغة فى العبادة ، والانقطاع إلى الآخرة ،وأصل معناها الفعلة المنسوبة إلى الرهبان .

التفسير

٢٥ـ (لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ) :

فصلت الآيات السابقة فريق العصاة المكذبين ، وفريق الطائعين المصدقين ، وعرضت لوصف الدنيا وحقارتها وسرعة انتهائها ، وخوفت من الافتتان بها ، والاطمئنان لها إذ تناولت ذكر الجنة ونعيمها ، ونادت بالتسابق إليها ، والإسراع فى طلبها ، والتمتع بنعيمها ، وبقى المقام محتاجًا إلى تنظيم العمل ، وتفصيل السلوك الذى يباعد بين العبد وارتكاب المعاصى ، ويقربه من ربه ، ويؤهله للعمل عن تدبر ، ويوضح له طريق الخير ،وطريق الغواية ؛ليختار لنفسه حتى لا يكون له على الله حجة « فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا »[1] فجاءت هذه الآية تبين فضل الله ــ تعالى ــ على خلقه ،

(١) سورة الفتح من الآية : ١٠

بتتابع الرسالات ، وإنزال الكتب والميزان لإقرار العدل ، فلا يبغى أحد على أحد ، كما جاءت تبين إنعام الله بالنعم الجليلة التى تجمع لهم القوة والمتعة مع الرخاء والمنفعة .

وفى تخصيص الحديد بالذكر ، مقرونًا بالبأس والمنفعة لمحة إلى أن فيه من معدات القوة مايحرس الأمن ويحفظ التوازن بين الأفراد والجماعات والأمم ، والحديد أصل وأساس لكل تقدم صناعى وحضارى ، ولذا كان جديرًا أن تسمى به السورة دون غيره من الأمور التى ذكرت فيها أو عرضت لها .

والمعنى : لقد كان فضلنا على الخلق ، وإنعامنا عليهم أن أرسلنا رسلنا من الملائكة إلى الأنبياء ، أو من الأنبياء إلى أممهم داعين ومرشدين وأيدناهم بالمعجزات ، والحجج الباهرات الواضحات التى تؤكد صدقهم ، وتحتم تصديقهم ، وذلك ليدعوا الناس إلى الخير ويوجهوهم للهداية وسلامة السلوك الذى يكفل لهم راحة دنياهم ، وسلامة آخرتهم ، وأنزلنا مع الرسل الكتب التى تحفظ رسالتهم ، وتشرح دعوتهم ، وتؤكد صدقهم من التوراة والإنجيل ، والقرآن ، وسائر الكتب والألواح والصحف السماوية التى نزلت مع الرسل ، كما أنزلنا آلة الوزن ليلتزم الناس بالعدل ، ويقوم عليه التعاون والتعامل ، ويمتنع الظلم والعدوان .

قيل : إن جبريل – عليه السلام – نزل بالميزان المعروف فدفعه إلى نوح – عليه السلام – وقال : « مُرْ قَوْمَكَ يَزِنُوا به » ، وقيل المراد بالميزان : العدل والمساواة بين الناس فى التعامل . (وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ) أى : خلقناه كقوله – تعالى – : « وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ الْأَنْعَامِ »[1] وذلك أن أوامره تعالى وقضاياه وأحكامه تنزل من السماء .

وقال قطرب : وأنزلنا الحديد أى : هيأناه لكم ، وأنعمنا به عليكم ، وقيل : نزل آدم – عليه السلام – من الجنة ، ومعه خمسة أشياء من حديد : السندان ، والكلبتان ، والميقعة[2] ، والمطرقة ، والإبرة .

ومعنى (فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ) : أى : قوة ومنعة ؛ لأن آلات الحروب تتخذ منه – وهذا إشارة إلى احتياج الكتاب والميزان إلى قوة تحميهما ؛ ليحصل القيام بالقسط ؛ فإن الظلم من شيم

---

(١) سورة الزمر من الآية : ٦

(٢) من معانيها المسن الذى يحدد به .

النفوس، ومن لم يدافع عن نفسه بسلاحه يهدم ، وقوله - تعالى - : (وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ) أى : مصالح تنفعهم فى معاشهم وتيسير أعمالهم إذ ما من صنعة إلّا والحديد أو ما يعمل بالحديد آلتها ، وفيه إيماءٌ إلى أن القيام بالقسط كما يحتاج إلى القائم بالسيف ؛ ليحفظ العدل ، يحتاج إلى ما به قيام التعايش ليتّم التمدن الذى يحتاجه بقاء النوع .

(وَلِيَعْلَمَ اللهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ) هذه الجملة معطوفة على محذوف يدل عليه السياق ، أو الحال ؛ لأنها متضمنة للتعليل .

والمعنى : فعل الله ذلك ليبسر حياتهم ، وينفعهم ، ويقطع حجتهم ، وليعلم الله علمًا يتعلق به الجزاء ، ويترتب عليه الثواب والعقاب ليعلم من ينصره بالتوحيد والطاعة ، وينصر رسله بالتصديق واتباع ما جاءوا به دون أن ينظر الله ويبصره .

(إِنَّ اللهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ) أى : إنه الله قادر لا يعجزه أمر ولا يفوته هارب منيع لا يغلبه غالب ولا يدركه طالب وهذا تذييل جاء تحقيقًا للحق ، وتنبيهًا على أن التكاليف ليست لحاجته - تعالى - إلى نصرتهم فى إعلاء كلمته ، وإظهار دينه ، بل إنما جاء ذلك ليصلوا بالتكاليف إلى الثواب ، فإن الله غنى بقدرته وعزته عمّا سواه فى كل مايريده .

٢٦ -(وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ فَمِنْهُم مُّهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ):

هذه الآية نوع تفصيل لما أُجمل فى قوله - تعالى - : « لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا » وتكرير القسم لإظهار مزيد العناية بالأمر ، ووجه اختصاص « نوح وإبراهيم » بالذكر لسبقهما ، واشتهارهما حتّى سميا أبَوَى البشر ، واقتران عهد كل واحد منهما بأحداث لها أبعادها فى تاريخ الإنسانية ، وشعائر العبادات .

أما نوح - عليه السلام - فقد حدث فى عهده الطوفان الذى يعتبر طورًا جديدًا فى مسيرة الإنسانية ، ولذلك قيل عنه : إنه آدم الثانى .

وأمَّا إبراهيم ـ عليه السلام ـ فلحواره مع أبيه ، وقصته مع ولده وارتحاله إلى مكة به ، وما تبع ذلك من تبع ماءِ زمزم ،ثم ما كان من ابتلائه بأمره بذبح ولده وافتدائه ؛ وما بقى بعد ذلك ممَّا قيل فى السعى بين الصفا والمروة ، وما شرع فى الأُضحية فى شريعة محمد ﷺ وحسبه فوق هذا كلِّه أنه خليل الله .

والمعنى : ولقد كان من أخبار إرسالنا الرسل أن أرسلنا نوحًا وإبراهيم ، وأوحينا إليهما ، وجعلنا فى ذريتهما النبوة ، فكل الأنبياء من ذريتهما ، وأنزلنا عليهم الكتب المقدسة التى تحفظ شريعتهم ، وتفصل رسالتهم ، وقال ابن عباس المراد بالكتاب : الخط بالقلم .

ثم قال ـ تعالى ـ : (فَمِنْهُم مُّهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ) أى : فمن هذه الذرية ، أو من المرسل إليهم منتفع بهذه الرسالة مهتدٍ سائر على النهج السوى ، مستجيب لدعوة رسوله ، ملتزم بالعمل بها ، وكثير منهم فاسقون خارجون عليها مجافون لها ، متنكبون طريق الهداية والطاعة .

ولم تقل الآية : ومنهم « ضال » مقابل فمنهم « مهتد » على ما يقتضيه ظاهر المعادلة مبالغة فى الذم ؛ لأن الخروج عن الطريق المستقيم بعد الوصول إليه بالتمكن منه ومعرفته أبلغ فى الضلال ، وأقبح منه على أن قوله ـ تعالى ـ : (وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ) يؤذن بغلبة أهل الضلال والفسق على غيرهم .

٢٧ ـ (ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰٓ آثَارِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ الْإِنجِيلَ وَجَعَلْنَا فِى قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَآءَ رِضْوَانِ اللهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُواْ مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ) :

لا تزال الآيات تتحدث عن إرسال الرسل بدءًا بنوح وإبراهيم ـ عليهما السلام ـ ونهاية بعيسى ـ عليه السلام ـ وصولًا إلى بعثة سيد الرسل وخاتم الأنبياء سيدنا محمد ﷺ ،

وخص عيسى بالذكر؛لأن رسالته آخر الرسالات قبل رسالة نبينا ﷺ مع ما تحتويه من التنويه ببعثته ، والحديث عن رسالته مما يكاد يكون إرهاصًا بها ، ودعوة لها .

والمعنى : ثم أرسلنا بعد نوح وإبراهيم – عليهما السلام – وعلى أعقابهم رسلنا متتابعين رسولًا بعد رسول حتى انتهى الأمر إلى عيسى بن مريم – عليه السلام – وآتيناه الإنجيل تفصيلًا لرسالته ، وتصديقًا لدعوته ، وجعلنا فى قلوب الذين اتبعوه (رَأْفَةً) أى : مودة ولينًا يجمعهم على الخير ، ويدفع عنهم الشر ، (وَرَحْمَةً) أى : تعطفًا ومحبة تجلب لهم المنافع ، وتقيهم المضار ، (وَرَهْبَانِيَّةً) أى : ورضينا منهم مبالغة فى العبادة بالانقطاع إلى الخلوات ، وتجنب النساء والشهوات وغير ذلك ، إنها رهبانية استحدثوها من عند أنفسهم والتزموها عن رغبتهم ما فرضناها عليهم ولا رضيناها منهم إلَّا ابتغاء وجه الله ، أو ما ابتدعوها إلَّا ابتغاء وجه الله ، وكان عليهم بعد ذلك أن يحافظوا عليها ، ويداوموا على عمل مقتضياتها لأنها نذر التزموه ، وعهد مع الله ينبغى الوفاء به ، ولكنهم قصروا فيها فما رعوها حق رعايتها وذلك بتقصيرهم فيما ألزموا به أنفسهم من عمل الطاعات ، وبأن بعض من أدرك منهم رسالة سيدنا محمد ﷺ لم يؤمن بها ولم يصدقها ، ولذلك جاء قوله – تعالى – : (فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ) أى : فآتينا الذين آمنوا منهم إيمانًا صادقًا – صحيحًا راعى فيها تحقيق الرهبانية بالعمل الصالح والإيمان برسول الله ﷺ – آتيناه – أجره الذى يناسب إيمانه وعمله .

(وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ) خارجون عن حد الاتباع ، بعيدون عن الإيمان الصحيح .

عن ابن مسعود قال : « كنت رديف رسول الله ﷺ على حمار فقال : يا ابن أم عبد : هل تدرى من أين أحدثت بنو إسرائيل الرهبانية ؟ فقلت : الله ورسوله أعلم ، فقال : ظهرت عليهم الجبابرة بعد عيسى يعملون بمعاصى الله ، فغضب أهل الإيمان فقاتلوهم ، فهزم أهل الإيمان ثلاث مرات فلم يبق منهم إلَّا القليل فقالوا : إن ظهرنا لهؤلاء أفنونا ، ولم يبق

للدين أحد يدعو له ، فتعالوا نتفرق فى الأرض ، إلى أن يبعث الله النبى الذى وعدنا به عيسى – عليه السلام – يعنون محمداً ﷺ فتفرقوا فى غيران الجبال ، وأحدثوا رهبانية ، فمنهم من تمسك بدينه ، ومنهم من كفر ، ثم تلا هذه الآية ، (وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا ...) إلى آخرها ، ثم قال : يا ابن أم عبد ، أتدرى ما رهبانية أمتى ؟ قلت : الله ورسوله أعلم . قال : الهجرة ، والجهاد ، والصلاة ، والصيام ، والحج ، والعمرة »[1] .

(يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٨﴾ لِّئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ ٱلْكِتَـٰبِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّن فَضْلِ ٱللَّهِ ۙ وَأَنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢٩﴾)

المفـردات :

(الَّذِينَ آمَنُواْ) : المراد الذين آمنوا من أهل الكتاب ، أو الذين آمنوا من أمة محمد ﷺ

(كِفْلَيْنِ) : نصيبين تثنية كفل ، وقيل الكفل : الضعف .

(أَهْلُ الْكِتَابِ) : اليهود والنصارى .

---

(١) انظر تفسير القرطبي ج١٧ ص٢٧٥ تفسير قوله تعالى : « ثم قفينا على آثارهم » فقد ورد الحديث بنحوه .

التفسير

٢٨ - (يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا ٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ) :

تختم السورة بهذا النداء الكريم للذين آمنوا تأمرهم بالتقوى، وتعدهم بمضاعفة الأجر والنور الذى يهديهم ويحميهم من ظلمات الكفر والجهل ، ويصلهم بالمغفرة والفضل .

والمعنى : يـأيها الذين آمنوا بالرسل المتقدمة اتقوا الله ، وانتهوا عمّا نهاكم عنه ، واحفظوا أنفسكم من مهاوى الشرك ومهالك المعاصى ، وادخلوا فى طاعته ، وأخلصوا فى عبادته ، وآمنوا برسوله محمد ﷺ يعطكم نصيبين من رحمته ، نصيبًا لإيمانكم بـأنبيائكم ، ونصيبًا لإيمانكم بمحمد ﷺ وتصديقكم برسالته ودعوته التى نسخت الشرائع السابقة . فلم يبق وجه للإيمان بها وحدها بعد بعثته - عليه الصلاة والسلام - دون التصديق برسالة محمد ﷺ (وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ) أى : يهيئ لكم نورًا تمشون به يوم القيامة حسبما نطق به قوله - تعالى - : (يَسْعَىٰ نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ) ويغفر لكم ويستر عليكم ما أسلفتم من الكفر، أو قدمتم من المعاصى ، والله واسع المغفرة عظيم الرحمة .

وعن مجاهد : نورًا أى : بيانًا وهدًى ، وقال ابن عباس : هو القرآن .

واستظهر أبو حيان كون الخطاب لمن آمن من أمة محمد ﷺ ، غير أهل الكتاب ، والآثار تؤيد ذلك . أخرج الطبرانى فى الأوسط : عن ابن عباس وابن أبى حاتم : عن سعيد ابن جبير ، قالا : إن أربعين من أصحاب النجاشى قدموا على النبى ﷺ فشهدوا معه أحدًا ، فكانت فيهم جراحات ، ولم يقتل منهم أحد ، فلما رأوا ما بالمؤمنين من الحاجة ، قالوا : يارسول الله ، إنا أهل ميسرة ، فأذن لنا نجئ بأموالنا نواسى بها المسلمين فأنزل الله

- تعالى- فيهم : « الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِن قَبْلِهِ هُم بِهِ يُؤْمِنُونَ .. »[١] إلى قوله -سبحانه- : (أُولَـٰئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا » فجعل لهم أجرين ، فلما نزلت هذه الآية قالوا : يامعشر المسلمين ، أمامن آمن منا بكتابكم فله أجران ، ومن لم يؤمن بكتابكم فله أجر كأجوركم ، فأنزل الله - تعالى - : (يَـٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُوا اللَّهَ ..) الآية ردًّا عليهم ، ومن لم يؤمن بكتابكم ، فله أجر كأجوركم .

وفى الكشاف أن قائل ذلك ، من لم يكن آمن من أهل الكتاب ، قالوه حين سمعوا تلك الآية يفخرون بها على المسلمين وعلى هذا فمعنى الآية : ياأيها الذين اتسموا بالإيمان اثبتوا على تقوى الله - عز وجل - فيما نهاكم عنه يؤتكم نصيبين من رحمته لإيمانكم بالرسالات المتقدمة عليكم ، وتصديقكم لرسلها ، وإيمانكم برسولكم محمد ﷺ كما فعل أهل الكتاب الذين آمنوا به ، فأنتم وهم سواء فى الإيمان بالرسل أجمعين .

٢٩ -(لِئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّن فَضْلِ اللَّهِ وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ) :

قال مجاهد : قالت اليهود : يوشك أن يخرج منا نبى يقطع الأيدى والأرجل ، فلما خرج من العرب كفروا به ، والآية تتعلق بمضمون جملة قبلها على تقدير : إن تتقوا الله وتؤمنوا برسوله (يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ) .

(لِئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ) : (لَا) هنا زائدة أى : ليعلم الذين يؤمنوا بمحمد ﷺ من أهل الكتاب اليهود والنصارى أنهم لا يقدرون على شىء من فضل الله تحصيلًا لأنفسهم أو منعًا لغيرهم ، رزقًا أو هداية ، أو مغفرة وفضلًا ، وأن الفضل كل الفضل بيد الله وليس بأيديهم حتى يصرفوه عمن شاءوا إلى من شاءوا ، وأنه - تعالى - يختص بفضله من يشاء إذا شاء

---

(١) سورة القصص من الآيات ٥٢ و ٥٣ و ٥٤

وفى البخارى : حدثنا الحكم بن نافع قال : حدثنا شعيب عن الزهرى قال : أخبرنى سالم ابن عبد الله أن عبد الله بن عمر قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول ـ وهو قائم على المنبر ـ :

« إنما بقاؤكم فيما سلف قبلكم من الأمم ، كما بين صلاة العصر إلى غروب الشمس ، أعطى أهل التوراة التوراة فعملوا بها حتى انتصف النهار ثم عجزوا فأعطوا قيراطًا قيراطًا ، ثم أعطى أهل الإنجيل الإنجيل فعملوا به حتى صلاة العصر ، ثم عجزوا فأعطوا قيراطًا قيراطًا ، ثم أعطيتم القرآن فعملتم حتى غربت الشمس فأعطيتم قيراطين قيراطين ، قال أهل التوراة : ربنا ، هؤلاء أقل عملًا ، وأكثر أجرًا ، قال : هل ظلمتكم من أجركم من شىء ؟ قالوا : لا . قال : فذلك فضلى أوتيه من أشاء » .

والله أعلم

طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

رئيس مجلس الادارة
رمزى السيد شعبان

رقم الإيداع بدار الكتب ١٦٧٩/١٩٨٩

الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية
١٧٠ — ١٩٨٩ — ٢٥٠٠٤

